المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز البحوث



بحوث المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

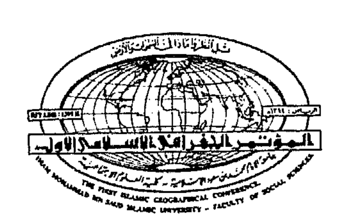
المجلد الثالث

أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية





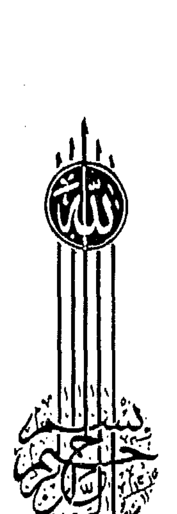
مركز البحوث

بحوث
المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الثالث

أشرفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م



راجع أصول الأبحاث والتجارب الطباعية

د . حمد عبدالعزيز الدخيل

وكيل معهد تعليم اللغة العربية

الأستاذ/ محمد عبدالله الفاضل

محاضر بقسم الجغرافيا

كلية العلوم الاجتماعية

المحتـــويات

الموضوع	رقم الصفحة

آثار فى الجغرافيا الإسلامية تنتظر النشر

صلاح الدين عثمان هاشم



كان من الطبيعى أن يهتم العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية بعلم الجغرافيا ، وذلك لأسباب عديدة منها : أن العالم الإسلامى قد غطى مساحات شاسعة من المعمورة المعروفة آنذاك ؛ فامتد من سهوب آسيا الوسطى فى الشرق إلى سواحل المحيط الأطلنطى فى الغرب ، ومن سهول روسيا فى الشمال إلى جنوبىّ خط الاستواء . لكل هذا احتاج المسلمون إلى معرفة أوصاف الأقطار التى يقطنها إخوتهم فى الدين ، ومعرفة الطرق التى تقود إليها ، والمراحل التى يجب اجتيازها . وقد ارتحل المسلمون فى هذه الإمبراطورية الشاسعة فى سبيل الحج ، ومن أجل المتاجرة ، كما ارتحلوا أيضا فى طلب العلم . وفى هذا الصدد يقول المستعرب كراتشكوفسكى :[1] « وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسيع مدى الأسفار ، كما ساعد فى هذا المضمار أيضا التعليم ، فقد جاء فى الحديث الشريف [اطلبوا العلم ولو بالصين] ، فأصبح الارتحال فى طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكميل « دورة الدراسة » ؛ ففى طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ، ومن بغداد إلى قرطبة » .

وكانت الرحلة من شرائط استكمال المعرفة ، والهدف منها هو الاستماع إلى الشيوخ فى مختلف فروع العلوم . ولنضرب مثلا لذلك بتاج الإسلام أبى سعد عبد الكريم بن محمد السمعانى (المتوفى عام ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م) الذى ينتسب إلى أسرة كبيرة من أهل مرو اشتهر أفرادها بالتفرغ للعلم . وقد اهتم السمعانى بدراسة الحديث فزار شيوخه بخراسان ، وجرجان ، والجبال ، والعراق ، والحجاز ، والشام ، وطبرستان ، وقومس ، وما وراء النهر ، وخوارزم ، وجمع كمية هائلة من المعلومات الجغرافية عن النقاط التى زارها أو مر قريبا منها ، وانعكست هذه المادة فى مصنفَيْه الكبيرَيْن « الأنساب » الذى لاتزال دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد توالى نشره منذ عام ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٢ م ، و« التحبير فى المعجم الكبير » الذى بلغنى أنه طبع مؤخرا بالعراق . ويكفى فقط مراجعة مصنف ياقوت الجغرافى لنبصر كم يدين للسمعانى بعدد كبير من النتف الجغرافية التقطها من هذين المصنفين الجليلين !.

ومن الحوافز التى دفعت المسلمين إلى الاهتمام بجمع المادة الجغرافية هى حاجتهم إلى معرفة الأقطار الأجنبية المجاورة لهم أو البعيدة عنهم ، أى الواقعة خارج « دار الإسلام » ،

وذلك لمآرب سياسية وعسكرية وتجارية . فنبصر الرحالة المسلمين يبلغون الصين شرقا ، ويضربون فى مناطق أوروبا الشمالية ويتركون أوصافا لمناخها ، وعادات سكانها ، تحفل بالكثير من الطريف والهام .

وبخلاف هذا اضطر المسلمون إلى البحث فى الجغرافيا الفلكية والرياضية ، وكان الدافع إلى هذا سببين : أحدهما دينى يتعلق بتحديد بداية الصوم ونهايته ، ومواقيت الصلاة وتحديد اتجاه القبلة . ذلك أن القبلة تختلف من بلد إلى آخر ، وارتبط تحديدها بمعرفة خط طول وعرض مكة والنقطة المعيّنة . أما السبب الثانى فهو أن العلوم اليونانية كانت قد نُقلت إلى اللغة العربية فى العصر العباسى ، فزاد عليها علماء المسلمين من تجاربهم الشخصية خاصة فى مجال الرصد . وبالتالى دفعوا عجلة العلم والتقدم إلى أبعد مما وصل إليه اليونان .

لكل هذا فيجب ألا ندهش للعدد الكبير من المصنفات الجغرافية التى تركها لنا علماء المسلمين ، سواء فى مجال الجغرافية الوصفية وأدب الرحلات من ناحية ، أو الجغرافيا الفلكية والرياضية من ناحية أخرى . هذه المصنفات تبقّى معظمها ولكن فُقِدَ أيضا ، إلى جانب ذلك عددٌ ليس بالقليل ، بعضه غاية فى الأهمية مثل مصنف الجَيْهَانِىّ بعنوان « كتاب المسالك والممالك » الذى تم تدوينه فى بداية القرن العاشر الميلادى . وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى وزيرا للسامانيين ، لذا فإن مصنفه كان سيفيدنا كثيرا ؛ لأنه احتوى دون شك على تفاصيل هامة عن شرقى العالم الإسلامى ، وتخوم آسيا الوسطى ، وأوروبا الشرقية .

ولقد اهتم المستشرقون الأوروبيون منذ بداية دراستهم للشرق الإسلامى بالمصنفات الجغرافية التى تركها لنا علماء المسلمين ، وكان أول ما حظى بالنشر موجز لمصنف الإدريسّى ، طبع بمطبعة المديتشى بإيطاليا عام ١٥٩٢ ميلادية . أما أول مصنف فى الجغرافيا الفلكية يرى النور فكان زيج الفرغانى الذى نشره المستشرق الهولندى ياكوب غوليس Jacob Golius مع ترجمة لاتينية عام ١٦٦٩ م . غير أن التقدم فى هذا الميدان سار بصورة بطيئة ، فلم يتعرف العلم الأوروبى خلال القرن الثامن عشر بأجمعه إلاّ على ثلاثة مؤلفين فقط هم : أبو الفداء وابن الوردى وعبد اللطيف البغدادى . وفى بداية القرن التاسع عشر ظهر بحثان ممتازان فى دراسة الأدب الجغرافى العربى لايزالان إلى اليوم محتفظين بقيمتهما ، أحدهما ترجمة وصف مصر لعبد اللطيف البغدادى الذى مّر ذكره توّاً ، وهو من عمل المستشرق الفرنسى الكبير سلفستر

دى ساسى S. de Sacy (١٨١٠) ، والآخر ترجمة المستشرق الروسى فرين Frahn لرسالة ابن فضلان (١٨٢٣) . والبحثان يمكن اعتبارهما حجر زاوية فى بداية الدراسة العلمية للأدب الجغرافى العربى كما يقول كراتشكوفسكى (ص ٢٧) . وعند منتصف القرن التاسع عشر اشتدت الحاجة إلى مصنف يجمع شتات ما عرف حتى تلك اللحظة ، لذا فقد نال أهمية غير عادية كتابُ المستشرق الفرنسى رينو Reinaud « مقدمة فى الجغرافيا العربية » (١٨٤٨) الذى أراد به فى الأصل التقديم لنشرة علمية لكتاب أبى الفداء « تقويم البلدان » ولكن البحث ما لبث أن استفاض ، وتجاوز حدود موضوعه ، واتخذ صورة عرض عام لتطور علم الجغرافيا ، وأدبها فى الشرق الإسلامى بأجمعه . وهو سفر يقع فى أكثر من أربعمائة وخمسين صفحة تكشف عن معرفة المؤلف الجيدة بالجغرافيا الوصفية والفلكية على السواء . ولقد ظل هذا الكتاب يمثل السفر الوحيد فى موضوعه ، لحين ظهور مصنف المستعرب الروسى الكبير كراتشكوفسكى I. U. Krachkovski « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » (موسكو ١٩٥٧) الذى نقله إلى لغة الضاد كاتب هذا البحث (القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥) . ومن الغريب أن مصنف رينو لم ينقل إلى العربية إطلاقا ، على الرغم من نشاط حركة الترجمة آنذاك بمصر ، ونقل عدد من المصنفات العلمية على يد العلماء المصريين ممن ذهبوا فى بعثات علمية إلى فرنسا فى عهد محمد على وعهد حفيده إسماعيل . وتوجد للكتاب الآن ترجمة انجليزية من عمل أحد العلماء الهنود .

ويبصر النصف الثانى من القرن التاسع عشر مجهودين جبارين فى سبيل نشر التراث الجغرافى العربى ؛ ففى الفترة بين عامى ١٨٦٦ و ١٨٧٦ نشر فرديناند ڤستنفلد F. WUSTENFELD المعجم الجغرافى لياقوت « معجم البلدان » فى ستة أجزاء فى طبعة لاتزال تتمتع بالتقدير رغما من مرور أكثر من قرن من الزمان على تاريخ ظهورها . وفى ذات الوقت بالتقريب وذلك فى عام ١٨٧٠ بدأ العلامة الهولندى دى جويه De GOEJE فى تنفيذ فكرته بنشر سلسلة « مكتبة الجغرافيين العرب » BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM التى اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن عام ١٨٩٤ . وهى تتكون من تسعة مجلدات يحتوى أحدها على التعليقات واختلاف القراءات ، أما الثمانية الأخرى فتضم بين صفحاتها مصنفات مؤلفى عهد ازدهار الأدب الجغرافى العربى فى القرنين التاسع والعاشر .

ورغما من ذلك فإن مجهودات ڤستفلد ودى جويه كانت أبعد من أن تستغرق الذخيرة

الكبرى للمصنفات العربية فى ميدان الجغرافيا .كما وإن الكشف عن مخطوطات جديدة وضّح الحاجة إلى إعادة طبع بعض أجزاء من « مكتبة الجغرافيين العرب » . هذا وقد سار المستشرقون قدما فى سبيل نشر المصنفات الجغرافية الإسلامية ، مثال ذلك نشر المستشرق والمؤرخ الروسى الكبير بارتولد V. V. BARTOLD طبعة مصورة للمخطوطة الفريدة للمصنف الفارسى المجهول المؤلف « حدود العالم » (١٩٣٠) ، ثم ترجمة مينورسكى له إلى الإنجليزية مع تزويد ترجمته بتعليقات ضافية بقلمه توشك فى حد ذاتها أن تكون دائرة معارف جغرافية عن العالم الإسلامى . وقبل أن استرسل فى الكلام أهيب بالعلماء العرب خاصة المشتغلين بالدراسات الفارسية أن يسارعوا بنقل هذا الكتاب إلى لغة الضاد مع تعريب التعليقات التى عملها مينورسكى MINORSKY باللغة الإنجليزية . هذا فى رأيى أول عمل يستحق النشر بين المصنفات الجغرافية الإسلامية .

وتضطلع الدوائر العلمية بإيطاليا حالياً بطبع كتاب الإدريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى نشرة علمية يمكن أن تكون نموذجا لما يجب أن يكون عليه نشر النصوص . فقد تم جمع صور كل المخطوطات الموجودة بمختلف المكتبات ، ووزع العمل على العلماء كل فى مجال تخصصه . ويوجد بينهم عدد من العرب المعاصرين . ومن الضرورى توضيح أهمية هذا المنهج فى نشر المصنفات الكبيرة ؛ فقد لاحظنا فى الآونة الأخيرة عددا من علمائنا فى العالم العربى يؤثرون التفرد فى القيام بالأعمال العلمية من هذا القبيل ، فتخرج نتيجة أعمالهم غير مرضية بالنسبة لمتطلبات المنهج العلمى .

ونبدأ فنقترح على هذا المؤتمر الجليل أن يتبنى مشروعا علميا لا يخلو من الأهمية بالنسبة لعلم الجغرافيا فى الإسلام ، ألا وهو نشر الزيجات الإسلامية ، أى الجداول الفلكية ، التى توجد مخطوطاتها فى عدد كبير من المكتبات بأوروبا وبالعالم الإسلامى . ومن الأفضل الرجوع فى هذا الصدد إلى البحث القيم الذى دوّنه يراع المستشرق ومؤرخ العلوم الأمريكى ا . س . كندى E. S. KENNEDY تحت عنوان Asurvey Of Islamic Astro Nomical Tables (١٩٥٦) ، أى « مسح للجداول الفلكية الإسلامية » .

وحتى هذه اللحظة لم ير النور بين هذه الزيجات سوى اثنين .. أحدهما « الزيج الصابى » للبتانى الذى توفر على نشره المستشرق الايطالى الكبير كارلو ألفونسو ناللينو C. A. NALLINO فخرج فى ثلاثة أجزاء ضخمة بميلانو عام ١٨٩٩ ـ ١٩٠٧ م مزودا بترجمة

لاتينية وتعليقات وافية . ويقول كراتشكوفسكى بصددها : « وتعتبر تعليقات ناللينو بحق موسوعة لا مثيل لها لكل من يريد الخوض فى مسائل الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب » . وبما أن هذه التعليقات مدونة باللغة اللاتينية فلعله من المستحسن لو تمكن أحد المواطنين العرب ممن له دراية باللغات الكلاسيكية ، وتاريخ الرياضيات معا بنقلها إلى لغة الضاد .

أما الزيج الآخر الذى رأى النور فى طبعة مرضية فهو « القانون المسعودى » لعلامة الإسلام الأكبر أبى الريحان البيرونى ، والذى تولت إخراجه دائرة المعارف الإسلامية بحيدر أباد الدكن فى ثلاثة أجزاء .

وفى رأينا أن الجداول الفلكية التى تستحق النشر حاليا هى الآتية :

١ ـ الزيج الكبير الحاكمى لابن يونس المصرى (حوالى عام ٩٩٠ م) .

٢ ـ الزيج المعتبر السنجرى السلطانى لأبى منصور أبى الفتح عبد الرحمن الخازنى (حوالى عام ١١٢٠ م) .

٣ ـ زيج إيلخانى لعلامة الفرس خواجة نصير الدين طوسى . وتوجد له ترجمة عربية وعدد من الشروح (حوالى عام ١٢٧٠) .

٤ ـ زيج جديد سلطانى أو زيج ألوغ بيك (حوالى عام ١٤٤٠ م) .

ولتسهيل القيام بهذه المهمة نقترح تكليف لجنة للقيام بتصوير مخطوطات هذه الزيجات المبعثرة فى مختلف مكتبات العالم ، وقبل الشروع فى نشرها أرى أن يبدأ العمل فورا فى نقل كتابين هامين من الإنجليزية إلى العربية ، أحدهما OBSERVATORY IN ISLAM (أنقرة ١٩٦٠) ، أى « المرصد فى الإسلام » للعلامة التركى الجليل آيدين سابيلى AYDIN SAYLLE . ثم رسالة العلامة كندى التى أشرنا إليها قبل قليل . فهما تمثلان خير مقدمة لدراسة الموضوع .

وقبل أن ننتقل إلى الكلام على الجغرافيا الوصفية ، نوصى بشدة بنقل مصنف إرنست هوفغمان ERNT HOMIGMANN من الألمانية إلى العربية، أقصد بذلك دراسته الهامة عن « الأقاليم السبعة » DIE SIEBEN KLIMATA (هيد لبرج ١٩٢٩) . ذلك أن هذا المصنف يعتبر حجر زاوية فى فهم تقسيم القدماء والعرب للمعمورة إلى سبعة أقاليم ، والأسس الفلكية التى اعتمد عليها ذلك التقسيم .

أما فى مجال الجغرافيا الوصفية فإن أول مصنف حقيق بالنشر هو « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى شهاب الدين أحمد المتوفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩ م ، والكتاب موسوعة ضخمة يصل عدد أجزائها إلى اثنين وثلاثين جزءً تتوزعها مختلف دور المخطوطات ، وقد استطاع شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا (المتوفى عام ١٩٣٤ م) أن يجمع نسخة كاملة مصورة بالقاهرة . هذه النسخة ا لمصورة التى جمعها أحمد زكى باشا والموجودة حسب علمى بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، تعتمد أساسا على مخطوطات استانبول وتحتوى على ستة عشر جزءً مزدوجا تقع فى تسعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثمانين صفحة خطية .

ومن المؤسف أن مشروع المرحوم أحمد زكى باشا لنشر الكتاب لم يتحقق ، إذ لم ير النور منه سوى الجزء الأول (١٩٢٤) ، هذا وقد اهتم عدد من المستشرقين وغير المستشرقين بنشر وترجمة أقسام من المصنف والتعليق عليها . وحسب علمنا فإن ما ظهر منه حتى هذه اللحظة الأقسام الآتية :

١ - وصف إفريقية والمغرب والأندلس ، الذى نشره العلامة التونسى حسن حسنى عبد الوهاب بتونس عام ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م .

٢ - الترجمة الفرنسية للقسم عن إفريقيا والمغرب والأندلس (باستثناء مصر) التى عملها المستعرب ديمو بين وزودها بتعليقات وافية ، وذلك تحت عنوان :

GAUDEFORY- DEMOPIEYNIES IBN FADL ALLAHAL'OMARI, MASALIK EL ABSAR FI MAMALIK EL AMSAR,IL'AFRIQUE, MOINS L'EGYPTE PARIS 1927.

٣ - القسم عن آسيا الصغرى تحت عنوان « الباب الخامس فى مملكة الأتراك والروم من النوع الثانى من القسم الأول الذى نشره المستشرق الألمانى فرانتس تشنر :

F. TAGSOHNER, AL'UMARI'S BERICHT UGER ANATOLIEN, LEIPZIG 1929.

٤ - « وصف مملكة الهند والسند من كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى » . نشره مع ترجمة ألمانية المستشرق أوتو اسپيز :

OTTO SPIES, IBN FADLALLAH AL/ OMARIS BERICHTUBER INDIEN, LEIPZIG 1949.

٥ ـ القسم الخاص بامبراطورية المغول نشره مع تعليقات قيمة كلاوزليخ تحت عنوان :

DAS MONGOLISCHE WELTREICH. AL UMARI'S DARSTELLUNG DER MONGOLISCHE REICH IN SEINEM WERK MASALIK/ AL/ ABSAR FI MAMALIK AL/ AMSAR.
MIT PARAPHRASE UND KOMMENTAR HERAUSGEGEBEN VON KLAUS LECH. WLESBADEN 1968.

ونحن نعتقد اعتقادا جازما أن الفرصة قد حانت لنشر هذا المصنف الهام ، خاصة وأنه توجد طبعة قاهرية (١٣١٢ هـ) لمصنف العمرى الآخر الصغير الحجم « التعريف بالمصطلح الشريف » الذى سيعاون كثيرا فى إعداد طبعة علمية لمصنفه الكبير . وفى هذا السبيل نقترح أن يتفق مؤتمرنا هذا على انتخاب لجنة من المتخصصين يكون مقر اجتماعها فى هذه الجامعة الكريمة تكون مهمتها هى الآتية :

أ ـ تصوير جميع مخطوطات الكتاب الموجودة فى مختلف مكتبات العالم ، والقيام بفحصها وتصنيفها .

ب ـ إعداد مشروع لنشر الكتاب ، وتحديد تاريخ لإخراجه فى صورة ملازم .

جـ ـ توزيع المادة على المتخصصين ، كل فى مجال تخصصه .

وإلى جانب نشر مصنف العمرى يمكن الاهتمام بالمسائل الآتية :

أولا : نقل وصف أفريقيا DESCRIPTION I'AFRIQUE لليون الإفريقى ، وهو الوزّان الفاسى ، إلى العربية والتعليق عليه . ولعل علماء المغربى العربى أقدر من غيرهم للاضطلاع بهذا العبء ، وذلك لإجادتهم الفرنسية ، ولأن المادة تخص إلى حد كبير بلادهم .[٢]

ثانيا : ماذا حدث بصدد استكمال طبع خطط المقريزى بعد وفاة أستاذنا غاستون ڤييت G. WIET ؟ لعل العلماء المصريين أقدر من غيرهم على الإجابة على هذا السؤال . وحسب علمنا فإنه ظهر من طبعة ڤييت الأقسام الآتية ، وذلك فى :MEMOIRES DE
I'INSTITUT FRANCAIS D'ARCHEOLOGIE ORIENTALE DU CAIRE.

TOMES	30	(1911)	46	(1922)
	33	(1913)	49	(1924)

ثالثـا : ولا يفوتنى ونحن هاهنا فى رحاب دولة آل سعود وفى قلب الجزيرة العربية مهبط الإسلام أن أشير إلى أهمية إعداد طبعة علمية لمصنف الهمدانى (توفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) الكبير « الإكليل » ومن المعلوم أنه كان فى عشرة أجزاء ، غير أن المعروف منها فى المخطوطات أربعة فقط هى :

الأول والثانى والثامن والعاشر . ولعل محاولة جادة للبحث عن بقية الأجزاء بمكتبات اليمن قد تكلل بالنجاح .

رابعا : المعاونة فى نشر مصنفات هامة ندين بها لعلماء الدولة العثمانية . وذلك :

أ ـ بنشر كتاب « محيط » للملاح التركى سيدى على ريس ؛ لأن هذا المصنف يمثل أهمية بالغة فى فهم أراجيز الملاحَينْ العَرَبِيَينْ أحمد بن ماجد ، وسليمان المهـرى . ويمكن الاعتماد فى هذا الصدد على مخطوطتى ڤيينا ونابلى ، وإخراج المصنف فى طبعة مصورة أسوة بما فعله العلماء الأتراك مع مصنف پيرى ريس « بحرية » .

ب ـ وإخراج طبعة علمية لمصنف أوليا چلبى « سياختنامة » . لأن الطبعـة الأولى لا تستوفى مطالب البحث العلمى . ولا يفوتنى أن أنوّه بما يحويه كتاب أوليا چلبى من مادة غزيرة عن الأقطار العربية .

جـ ـ والعمل على إعداد طبعة علمية لتاريخ منجّم باشى ، وهو درويش أحمد دده بن لطف الله (١٦٣١ ـ ١٧٠٢ م ـ توفى بمكة المكرمة عام ١١١٣ هجرية) . هذا المصنف الذى دونه بالعربية يحوى بين دفتيه معلومات هامة عن المناطق النائية من العالم الإسلامى ، مثل كشمـير والقوقـاز وآسيا الوسطـى ، والعنـوان الأصلى للكتاب هو « جامع الدول » وله ترجمة موجزة بالتركية عملها درويش أحمد بن محمد نديم ، طبعت فى ثلاثة أجزاء باستنبول (١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م) تحت عنوان « صحائف الأخبار » .

ولقد كان كاتب هذا البحث ينوى نشر مصنف منجّم باشى . وفى متابعته لمخطوطات الكتاب تبين له وجود عدد كبير منها فى مختلف خزائن المخطوطات خاصة بتركيا . وهـى الآتية :

١ ـ مخطوطة بخط يد المؤلف فى مجلدين بمكتبة نور عثمانية . وعنها نقلت النسختان

الموجودتان بالمكتبة العمومية ببايزيد ، رقم ٥٠١٩ ورقم ٥٠٢ . كذلك توجد بمكتبة أسعد أفندى ثلاث نسخ تحت أرقام ٢١٠١ و ٢١٠٢ و ٢١٠٣ .

٢ ـ أما مخطوطة مكتبة أحمد الثالث فى سراى توب قابى فيرجع تاريخها إلى أول جمادى الآخرة عام ١١١٧ هـ ، وهى تحت رقم ٢٩٥٤ .

٣ ـ والمخطوطات الأخرى بتركيا هى الآتية :

أ ـ رقم ٩١٥ بمكتبة حميدية .

ب ـ مخطوطة بمكتبة سليمية بأدرنه (راجع الجزء الثالث من عثمانلى مؤلفرى ، ص ١٤٣) .

جـ ـ مخطوطة بمكتبة رشيد أفندى بقيصرية .

د ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية (وفقاً لقول بابنجر Babinger) .

ولعل مؤتمرنا هذا قد يستطيع الإنفاق على تصوير جميع هذه المخطوطات ، ووضعها تحت تصرف الباحثين ؛ ليبدأ العمل فى نشر هذا المصنف الجليل .

خامسا : أخيراً وليس آخراً فإنه يقع على عاتق علماء المملكة العربية السعودية الاهتمام بدراسة المادة الوافرة عن الجزيرة العربية المتناثرة فى مؤلفات المصنفين الكلاسيكيين (من اليونان والرومان) ؛ ذلك أن النتف التى خلفها لنا هؤلاء المؤلفون والمتعلقة بجزيرة العرب تدعو إلى الدهشة فى دقتها كما دللت الأبحاث الأولية لأستاذنا الجغرافى الكبير فون ڤسمان HERMANN VON WISSMANN

هذا قليل من كثير مما يجب الاضطلاع به فى سبيل نشر المصنفات الجغرافية الإسلامية ، وهو أمر يحتاج إلى تعاون وثيق ليس بين العلماء فى الأقطار الإسلامية فحسب ، أى بين العرب والإيرانيين والأتراك وغيرهم ، بل وأيضا إلى تعاون وثيق مع المستشرقين فى مختلف الأقطار .

○○○

الحواشى

(١) فى كتابه : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، تعريب صاحب البحث صـ ١٠٩

(٢) لقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الرحمن حميدة ، ونشرته الجامعة بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول .



جغرافية مصر من كتاب
« الممالك والمسالك »
لأبى عبيد البكرى

تحقيق

دكتور / عبدالله يوسف الغنيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

أبو عبيد البكرى أحد أعلام التراث العربى الذين أضافوا إلى مجال الدراسات الجغرافية إضافة علمية جديرة بالاهتمام والتتبع والدرس . وصلتى بهذا الجغرافى العربى تعود لعام ١٩٦٨ حينا بدأت بنسخ مخطوطات كتابه « المالك والمسـالك » ، والاطـلاع على أعمالـه العلمية الأخرى ، ثم توثقت تلك الصلة بعد أن باشرت الإعداد لدرجة الماجستير عنه ، فكان بحثى المنشور « مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى » صفوة ما خلصت إليه فى هذا الموضوع ، حيث تتبعت منهج هذا الرجل وموقعه بين سابقيه ولاحقيه ، وبينت مقدار إضافاته فى مجالين مهمين من مجالات البحث الجغرافى هما :

الأول : المعاجم الجغرافية :

يعتبر كتابه « معجم ما استعجم » أول معجم جغرافى عربى ، وأسبق المعاجم العربية فى استخدام الترتيب الأبجدى ، وفاتحة تلك السلسلة من المعاجم التـى وقفـت أمـام خطـر التصحيف فى الأعلام الجغرافية . ومن حيث الموضوع عالج هذا المعجم موضوعا جديدا ، وهو تحديد البيئة التى نشأ فيها تراثنا العربى من خلال وصف وتعيين المواضع الواردة فى ذلك التراث ؛ ففى الجاهلية - مثلا - كثيرا ما يبدأ الشعراء قصائدهم بذكر المسرح الذى دارت فوقه أحداث تلك القصائد ، يقول عبيد بن الأبرص :

أَقْفَـــر مَن أَهْلـــهِ .مَلْحُوبُ   فالقُـــطَبِيَّاتُ   فالذَنُوبُ
فَــرَاكِسُ   فَثُعَيْـــلِبَاتٌ   فَذَاتُ   فِرْقَـــيْنِ   فالقَلِيبُ
فَعَـــرْدَةٌ   فَقَفَـــا   حِبِرٌّ   لَيسَ بِهـــا   مِنْهُـــمُ   عَرِيبُ

ولا نستطيع أن نفهم معانى القصيدة الفهمَ الصحيحَ ما لم نتعرف على مفردات ذلك المسرح . وقد حاول البكرى أن يفعل ذلك من خلال أول معجم يعالج المادة الجغرافية فى تراثنا العربى . ويفيدنا المعجم أيضا فى دراسة الجغرافية التاريخية للجزيرة العربية فى صدر الإسلام ، ومعرفة جبالها وأوديتها وسكانها ، فضلا عن تفسيره لكثير من المصطلحات الجغرافية الخاصة بأشكال الأرض والمناخ والنبات وغير ذلك .

الثانى : الجغرافية الإقليمية :

بمقارنة كتاب « الممالك والمسالك » لأبى عبيد البكرى مع غيره من كتب البلدان يتبين لنا عمل البكرى فى تطوير الجغرافية الإقليمية للعالم من جانبين ، يتعلق الأول بتصنيف المادة الجغرافية ، ويتعلق الثانى بالمجال الجغرافى الذى شملته تلك الدراسة ، فلم يقتصر البكرى على عالم الإسلام كما فعل سابقوه ، كالإصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، بل شمل أجزاءً أخرى من العالم لم يصلنا عنها إلا ما كتبه البكرى ، وقد أثارت كتابته عن بعض الشعوب الأوربية اهتمامَ المستشرقين فترة طويلة .

ولم يصلنا من مخطوطات كتاب « الممالك والمسالك » نسخة كاملة كما هو الحال بالنسبة للمعجم ، فقد وصلنا منه نحو اثنتى عشرة قطعة متفاوتة الحجم ، مختلف التبويب ، لم يحظ بالنشر منها سوى أجزاء محدودة ، أكبرها الجزء الخاص بشمال أفريقية - غربى مصر - الذى نشره البارون ديسلان فى الجزائر (١٨٥٧) تحت عنوان « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » . ونشر كونيك وروزن فى بطرسبرج (١٨٧٧) النصوص المتعلقة بالروس والصقالبة ، كما نشر كوفالسكى النصوص الخاصة بالصقالبة أيضا فى بولونيا ١٩٤٦ .

وفى عام ١٩٦٨ نشر الدكتور عبد الرحمن الحجى فى بيروت النصوص المتعلقة بالأندلس وأوربا ، دون أن يلتزم بترتيب النصوص كما وردت فى المخطوطات التى اعتمد عليها .

وقد وجدت صلة لبحثى عن أبى عبيد البكرى استكمال ما لم ينشر من نصوص ذلك الكتاب ، فنشرت الجزء الخاص بالجزيرة العربية (الكويت ١٩٧٧) ، وبين يدى القارىء الآن الجزء الخاص بمصر ، ويليهما فى المستقبل تحقيق الأجزاء الأخرى بإذن الله .

جغرافية مصر من كتاب المالك والمسالك
(دراسة تمهيدية)

تشغل المادة المكتوبة عن مصر فى هذا الكتاب نحو ٧٥ صفحة من المخطوطة المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط ، ويمكن تقسيم هذه المادة إلى قسمين هما « مصر القديمة » و « مصر الإسلامية » . أما القسم الأول فلم نجد فيه الجديد الذى يجعلنا نهتم بتحقيقه فى الوقت الحاضر على الأقل ؛ فمعظم المعلومات الواردة فى هذا القسم قد استقيت من مصدرين رئيسيين هما « مروج الذهب » للمسعودى « وعجائب الدنيا » لابن وصيف شاه .

ولا نريد أن نذهب إلى ما ذهب إليه كاترمير Quatremereفى النصوص التى نشرها عن مصر حينما برر إهماله للجزء الخاص بمصر من كتاب البكرى بأنه ربما كان من تضييع وقت القراء واستنفاد صبرهم تقديم الأساطير غير المعقولة التى ليس لها سند تاريخى . فالأمر - كما نراه ويراه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد - ليس مسألة خرافات لا تصدق أو أساطير لا سند لها من التاريخ ، إنما هو علم العجائب Cosmographyالوثيق الصلة بالتاريخ ، والذى بدأ مختلطا بالجغرافية من أجل التسلية والترفيه ، ثم نما وأصبح فرعا من فروعها ألفت فيه الكتب والمصنفات[١] ، فضلا عن كون كثير من النصوص التى أوردها البكرى نقلا عن المسعودى وابن وصيف شاه قائمة على المشاهدة والمعاينة . ومع ذلك فقد رأيت أن أعطى القارىء - إتماما للفائدة - أبرز المعالم لهذا الجزء الذى لم يشمله التحقيق .

ونستعرض فيما يلى مادة مصر فى كتاب « المالك والمسالك » محاولين من خلالها معرفة مصادره ، ومنهجه العلمى ، ومقدار إضافاته الجغرافية ، ثم نستعرض المخطوطات التى اعتمدنا عليها من هذا الكتاب مع بيان بعض مشاكل التحقيق .

أولاً - مصـــر القديمـــة :

تناول البكرى فى هذا القسم تاريخ مصر وملوكها ونيلها وبرابيها (معابدها) وأهرامها ، وقد بدأ بوصف الحكماء لمصر فهى « ثلاثة أشهر بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، يريد أنها فى شهر (تموز وآب وأيلول) (أى زمن الفيضان) يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب أحاطت بها المياه ، فلا سبيل لبعضهم إلى بعض إلا فى الـزوارق . ثم تكون فى تشرين وكانون بعد نضب الماء مزارع وتربة نوية ذات روائح طيبة تشبه ريح المسك ، ثم تكون فى كانون الثانى وشباط وأذار قد اتصلت خضرتها ، واستوسقـت نضرتهـا ، فكانـت زمـردة خضراء ، ثم فى نيسان وأيار وحزيران يدرك الزرع ، ويتورد العشب فيصبح كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة » .

ثم يصف النيل بأنه من عجائب الدنيا ، فهو يزيد إذا غاضت الأنهار والعيون والآبار ، ويغيض إذا زادت ، فغيضها من زيادته وزيادتها من غيضه . وهنا مقارنة بين الأنهار المعتمدة على الأمطار الشتوية فى الشمال ، وبين نهر النيل الذى يعتمد أساسا على الأمطار الموسمية الصيفية .

ثم ذكر البكرى زمن الفيضان ومقداره ، فابتداء فيض النيل (تنفسه) من حزيران « فإذا انتهت الزيادة ست عشرة ذراعا ففى ذلك تمام خراج السلطان وخصب الناس ، وكان المـرعى ناقصا فضر بالبهائم ، فإذا بلغ سبع عشرة فذلك الخصب العام والصلاح التام ، فإذا زاد إلى ثمان عشرة ذراعا استبحر من مصر الربع وأضر بالضياع وأعقب الوباء بمصر . وقد بلغ تسع عشرة ذراعا سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز » وذكر اختلاف قياس الذراع نفسها ، فمقدار الذراع إلى أن تبلغ اثنى عشر ذراعا ثمان وعشرون إصبعا ، ومن اثنى عشر ذراعا وما فوق يصير الذراع أربعا وعشرين إصبعا . ثم وصف البـكرى مقياس النيل فى الجيزة ، والمقاييس الأخرى التى وضعت قبل الإسلام وبعده .

وترع مصر أربع هى : ترعة ذنب التمساح ، وترعة بلقينة ، وخليج سردوس ، وخليج ذات الساحل[٢] . وتفتح هذه الترع فى عيد الصليب لأربع عشرة من أيلول ، أى عند بداية ارتفاع النيل .

ومن الأعياد المتصلة بالنيل « عيد الغطاس » ويكون ليلة ١١ كانون الثانى ، وهى أحسن ليلة بمصر وأكثرها سرورا لا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثر الناس فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء . وهو هنا ينقل وصف مشاهد هذه الليلة وهو المسعودى الذى يصرح بالنقل عنه لأول مرة ، علما بأن معظم المعلومات السابقة نقلها حرفيا من مروج الذهب .

ويعتبر وصف عمرو بن العاص لمصر من النصوص المهمة الواردة فى هذه المقدمة التاريخية ، فقد أرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب برسالة طلب فيها صفة مصر حتى كأنه ينظر إليها فأجابه عمرو قائلا : « مصر تربة سوداء وشجرة خضراء بين جبل أغبر (جبل المقطم) ورمل أعفر (الصحراء الغربية) وخطها (كذا) مسيرة راكب شهرا ، كأنها بين جبلها ورملها بطن أقب أوظهر أجب ، فيها نهر مبارك يسيل بالذهب على الزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر ، تمده عيون الأرض وينابيعها مأمورة بذلك . حتى إذا طمت لججه واعلولى عبابه ، فكانت القرى مما أحاط بها منه لا يوصل من بعضها إلى بعض إلا فى السفن والمراكب ، ثم لا يلبث إلا قليلا حتى ينقص جريه وتستبين متون أرضه ، ثم ينتشر فيه أمة محصورة قد رزقوا على أرضيهم جلدا وقوة (فحرثوا) سهل الأرض وروابيها وبذروا فيها من الحب ما يرجون به التمام من الشرب حتى تبدو طوالعه ويظهر قنوانه ، يسقى من تحته الثرى ومن فوقه الندى .. » ثم وصف ابن العاص تغير ألوانها بتتابع الفصول على نحو ما قدمنا مع اختلاف فى التشبيه .

وقيل إن مصر مصورة فى كتب الأوائل وسائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها ، وذلك لكثرة خيرها . وروى عن عمرو بن العاص أن ولاية مصر تعدل الخلافة . ومصر متوسطة الدنيا ، فهى فى الإقليم الثالث والرابع سالمة من حر الإقليم الأول والثانى ، ومن برد الإقليم

السادس والسابع فطاب هواؤها وضعف حرها وخف بردها ، فسلم أهلها من مشاتي الجبال ، ومصايف عمان ، وحر تهامة ، ودماميل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، وطحال البحرين ، وحمى خيبر ، وأمنوا من غارات الترك والعرب والديلم ، وأمنوا قحط الأمطار ، صعيدها حجارة حجازية تنبت النخل والأراك والقرظ والعُشرَ ، وأسفل أرضها شامى ينبت ثمار الشام من الكرم والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين ، ويقع بها الثلج .

وأمر الرشيد فصورت له مدائن الدنيا ، فما استحسن منها غير عمل أسيوط ، فإن مساحته ثلاثون ألف فدان فى دست واحد ، لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع جوانبه يبذر فيه جميع الحبوب ، فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه . من جانبه جبل أبيض على صورة الطيلسان ، ويحيط به من جانبه الشرقى النيل كأنه جداول فضة ، لا يسمع فيه الكلام من شدة أصناف أصوات الطير .

ثم سرد البكرى طرفا من عجائب مصر وأخبارها ، وأن العرب كانوا منذ الفتح الإسلامى وهم يحاولون معرفة أسرار الآثار الفرعونية ، وأهمها الآثار والكتابات الموجودة على المعابد . ومن ذلك الخبر الذى نقل عن شيخ قبطى مسن كان من أهل العلم ، استدعاه أحمد بن طولون لما عرف عنه وسأله عن عدد من الأمور ، أجابه عليها بما يعرف . فمن ذلك قوله عن بحيرة تنيس ودمياط أن موضع البحيرة كان أرضا لم يكن مثلها طيب تربة ، وذكاء رائحة ، وكانت جنانا متصلة ، ولم يكن بمصر كورة تشبهها إلا الفيوم .

وكان الماء ينحدر إلى قرى موضع البحيرة صيفا وشتاء يسقون منه ما شاءوا ، وفضلة الماء يصب فى البحر ، فى الموضع المعروف بالأشتوم وزعم أن بين العريش وقبرص طريقا مسلوكة فى يبس ، وبينها وبين قبرص اليوم سير طويل فى البحر ، ثم طغى ماء البحر وزاد فأغرق القرى التى فى البحيرة . ويرى أن الأكوام والتلال التى بتنيس هى من بقايا تلك القرى .

وسئل عن منتهى النيل فى أعلاه (منابع النيل) فقال : البحيرة التى لا يدرك طولها ،

فسئل عن منتهى عرضها فقال هى تحت الموضع المسمى بالفلك المستقيم من الأفلاك ، وهى الأرض التى الليل والنهار فيها متساويان الدهر كله (خط الاستواء) . فسئل عن الأهرام فقال : إنها قبور الملوك كان الملك إذا مات وضع فى حوض حجارة ثم يطبّق عليه ، ثم يبنى له هرم على قدر ما يريدون ، ويوضع الحوض وسط الهرم ، ويضعون باب الهرم تحت الحوض ، ثم يحفر له طريق تحت الأرض ويعقدونه آزاجا .

وقال : إنهم يبنون الهرم مدرجا ذا مَرَاقٍ ، فإذا فرغوا منه نحتوه .

وتكلم البكرى عن حجر اللاهون والفيوم ، فذكر أن اللاهون قرية من قرى الفيوم وحجر اللاهون شاذروان بين قبتين مدرج على ستين درجة ، فيه فوارات للماء يدخل الماء منها إلى الفيوم قدر ما يكفيها ، وهو من أحكم البنيان ، بالهندسة عمل ، وبالفلسفة اتقن ، وفى السعود نصب . وقد ذكر كثير من الناس أن يوسف عليه السلام عمله بالوحى .

وللفيوم فضل فى الزراعة والخير ، وأنهارها (ترعها) أفضل من أنهار البصرة ودمشق . وذكر البكرى أسباب تسميتها بالفيوم ، فمن ذلك ما نقله عن عبد الملك بن حبيب أنها سميت الفيوم لأنها يؤدى منها إلى السلطان فى كل يوم ألف دينار . وخليج الفيوم يسقى أعلاها ووسطها وأسفلها بماء واحد ، ولا يعدم بها التمر والرطب شتاء ولا صيفا .

وإذا كان يوم سد حجر اللاهون أتى أمير الناحية وعدول الناس وأهل الهندسة يشهدون سده لئلا يدعى أحد نقصاً من الماء ، ويحضر ذلك أمير الفيوم ويكتب بالبشارات إلى مصر .

ويزدرع أهل مصر فى العام مرتين ، وذلك إذا حمل النيل أولا ، وهى تشرب من ذراع اثنى عشر ، وليس بأرض مصر موضع يشرب من هذا الذراع إلا الفيوم ، لأن سائر أرض مصر إنما تشرب من ستة عشر ذراعا ، وإذا زاد الماء على اثنى عشر قطع أهل الفيوم جريانه ، فَسُدّ لهم هناك عند موضع يعرف بالشجرة ، وهى شجرة عظيمة . فإذا كان أول حصاد أهل مصر كان ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم ، وحينئذ يسيل حجر اللاهون ويزدرعون فى السقية الثانية القمح والشعير والأرز .

والفيوم وسط بلاد مصر ، ومصر وسط البلاد ، ولا يؤتى إليها من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة .

ومن عجائب مصر فرس النهر التى تكون فى النيل ، وأنها إذا خرجت من الماء وانتهت إلى موضع من المواضع علم أهل مصر أن النيل يخرج إلى ذلك الموضع بعينه ، ولا يتعداه غير مقصر عنه ولا زائد عليه ، وهى تضر بالزرع إضراراً شديداً لرعيها له ، فإذا كثر ذلك منها طرح لها الترمس فى الموضع الذى تخرج منه فتأكله ، ثم تعود إلى الماء فيربو فى أجوافها حتى تشق ، فتطفو على الماء ميتة ، وهى على صورة الفرس إلا الذنب والحافر كما أن الجبهة أوسع . والمكان الذى يوجد به فرس النهر لا يكاد يرى فيه تمساح .

ثم تكلم البكرى عن البرابى أو المعابد المصرية القديمة ، وبين أهمية النقوش والرسوم الموجودة على جدرانها ، وأن لكل نقش أو رسم منها خاصية على حسب ما وضعت من أجله ، وأورد طرفا من محاولات الخلفاء والولاة فى الكشف عن مكنونات تلك البرابى فمن ذلك ما تم فى عهد الإخشيد محمد بن طغج سنة ٣٢٨ هـ .

ويعتبر الحديث عن الآثار المصرية هو المادة الغالبة على الجزء المتبقى من تاريخ مصر القديمة الذى قسمه إلى مرحلتين يفصل بينهما الطوفان . ولم يكن من الطبيعى أن ننتظر من البكرى ، ومن نقل عنهم تاريخا علميا صحيحا لهذه الآثار ، إلا أنه من الممكن الاسترشاد بمعلومات البكرى هذه فى دراسة الآثار المصرية ؛ فربما كشف ذلك عن معرفة بعض الأماكن التى لم يبحث فيها الأثريون .

ويشغل القسم الذى خصصه البكرى لتاريخ مصر القديم ، قبل الطوفان وبعده ، الجزء الأكبر من نص البكرى ، إذ يبلغ نحو ٣٧ صفحة من مخطوطة الرباط .

وقد استفاد البكرى فى هذا الموضوع من مصدرين رئيسيين أشار إليهما أكثر من مرة ، أولها المسعودى ، جغرافى القرن الرابع الهجرى (توفى ٣٤٦ هـ) الذى تجول فى مصر فترة من الزمن شاهد الآثار ، ودون ما سمعه عن النيل والأهرام والبرابى (المعابد القديمة) ووصلنا كل ذلك من خلال كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر . وهو يرمز للمسعودى بالحرف (س) .

أما المصدر الثانى فهو إبراهيم بن وصيف شاه الذى يسميه « الوصيفى » ، ويشتمل كتابه « عجائب الدنيا » على معلومات كثيرة عن مصر ؛ فقد عاش فى إخميم بصعيد مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . وقد قطعت نقول البكرى عنه شك كراتشكوفسكى فى أن ابن وصيف قد عاش فى بداية القرن السابع الهجرى[٣] .

وقد نقل البكرى عن هذين المصدرين معظم الجزء الخاص بتاريخ مصر القديم . ولا شك أنهما كانا من أوفى المصادر العربية بتاريخ مصر فى تلك الحقبة . ووصف المسعودى وابن وصيف شاه قائم على المعاينة والمشاهدة والسؤال ، ونلتقى بعبارات كثيرة لهما تدل على ذلك .

- قال الوصيفى : « ورأيت أنا فى بربا أخميم صورة عقرب ، فألصقت عليها شمعاً ، وكانت عندى ... » (ص ٣٤ من مخطوط الرباط) .
- قال الوصيفى : « وحدثنى من أثق به ... » (ص ٣٤) .

قال المسعودى : « وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر .. » (ص ١٩) .

ثانياً - مصر الإسلامية :

١ - فتح مصر :

تناول البكرى فى هذا الجزء الفتح العربى لمصر ، وكيف تم على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه . ثم يذكر الخطط والرباع التى أقامها الفاتحون فى الفسطاط والجيزة . وقد اعتمد فى هذا الجزء اعتمادا أساسيا على مؤلف من أوائل المؤلفات التى وصلتنا عن تاريخ مصر الإسلامية . وهو فتوح مصر وأخبارها لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٧ - ٢٥٨ هـ) ، وهو من الكتب التى لقيت عناية خاصة من عدد من المستشرقين كان آخرهم تشارلز تورى C. Torrey الذى نشره محققا على أربع نسخ خطية ، وطبع فى مطبعة جامعة ييل بالولايات المتحدة سنة ١٩٢١ . ثم نشر الأستاذ عبد المنعم عامر القسم التاريخى

منه تحت عنوان « فتوح مصر والمغرب » وطبع فى القاهرة سنة ١٩٦١ معتمدا على المخطوطات التى اعتمد عليها تورى مع مخطوطة خامسة موجودة فى مكتبة فاتح باسطنبول يرجع تاريخها إلى سنة ٥٣١ هجرية ، وهى بذلك أقدم النسخ التى وصلتنا عنه .

وقد روى عن ابن عبد الحكم معظم مَنْ جاء بعده من مؤرخى مصر الإسلامية كالكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، وابن زولاق المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، والقضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وغيرهم .

واعتمادا على وصف ابن عبد الحكم لخطط الفسطاط الأولى ، ومواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء استطاع المستشرقون أن يضعوا تخطيطات هامة فى غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط فى ذلك العصر(٤) .

وقد قام البكرى فى نقله لنصوص هذا الكتاب بحذف الروايات المتشابهة ، والأسانيد ، واستطرادات ابن عبد الحكم فى ذكر بعض الأحاديث النبوية . واستدرك عليه فى بعض المواضع مثل قوله أثناء كلامه عن حصار نابليون « وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلى (قال) : وكانت أمه بلوية . قلت أنا : هذا من قائله وهم ، وإنما هى عَنَزِية .

وتقابلنا فى نصوص البكرى المنقولة عن ابن عبد الحكم بعض الفروق التى قد يستفيد منها الدارسون لكتاب فتوح مصر . وقد أثبت كل ذلك فى هوامش التحقيق .

٢ - كور مصر :

قال ياقوت : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة ، أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ، فهى إذاً عبارة عن وحدة إدارية ، تضم عدة قرى ، وتسمى الكورة باسم أكبر مدينة فيها أو أشهرها ، وقد تسمى باسم مظهر واضح من مظاهر الطبيعة

فيها ، كنهر أو بحيرة أو ما إلى ذلك . وتقابل الكورة - إلى حد ما - وحدة المركز فى المحافظات المصرية الحالية .

وقد اقتضى النظام الزراعى فى مصر تقسيم القطر إلى مجموعة من الوحدات الإدارية منذ العصر الفرعونى ، وذلك تنظيماً لاستغلال الأراضى ، وتسهيلا للحكم ، وجباية الضرائب . وكانت تلك الأقسام الإدارية تزيد أو تنقص وتندمج أو تنفصل حسب الظروف الطبيعية أو البشرية التى تمر بها المنطقة ؛ ففى الدلتا كان التقسيم الإدارى عرضة للتغيير والتبديل تبعا لتطور فروع النيل عبر العصور التاريخية ، وكان لقوة الدولة أثرها فى اتساع العمران فى الأراضى الزراعية وازدياد السكان وبالتالى استحداث وحدات إدارية جديدة ، وحينما تضعف الدولة يؤدى ذلك إلى إهمال تطهير الترع والمصارف مما يؤدى إلى خراب القرى وتقلص الوحدات الإدارية .

ولا نريد أن نستطرد فى ذكر تطور الأقسام الإدارية فى مصر منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، إذ سنقتصر فقط على ما كانت عليه الحال فى الفترة السابقة واللاحقة لزمن البكرى ، مما يفيدنا فى مجال بحثنا هذا(٥) .

قسمت الدولة الرومانية الشرقية مصر قبل الفتح العربى مباشرة إلى ستة أقاليم كبيرة ، اثنان منها فى الوجه البحرى ، وتشتمل على أربع أبروشيات ، تضم ٣٣ وحدة إدارية صغيرة . أما الأقاليم الأربعة الأخرى ففى الوجه القبلى ، وتمثلها أربع أبروشيات تتضمن ٣٣ وحدة إدارية صغيرة أيضا .

ولما جاء العرب أطلقوا اسم أسفل الأرض على الوجه البحرى وقسموه إلى (٤٥) كورة ، أما الوجه القبلى فأطلقوا عليه اسم الصعيد وقسموه إلى (٣٠) كورة فكان مجموع كور مصر عندهم ٧٥ كورة .

وفى القرن الثالث الهجرى قسم الوجه البحرى إلى ثلاثة أقاليم كبرى ، هى الحوف

الشرقى وقاعدته مدينة بلبيس ويتكون من (١١) كورة ، وبطن الريف ويتكون من (٢٠) كورة ، والحوف الغربى ، ويتكون من (١٥) كورة وقاعدته مدينة الإسكندرية ، فكان مجموع الكور فى الوجه البحرى (٤٦) كورة بخلاف كورة لوبية غرب الإسكندرية وكور القلزم والطور وأيلة . أما الصعيد فظلت قسمته القديمة (٣٠) كورة ، فكان مجموع الكور ثمانين كورة .

وفى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر أدمجت تلك الوحدات فى بعضها بحيث أصبح فى الصعيد (١٠) كور وفى الوجه البحرى (١٢) كورة ، أضاف لها الأيوبيون كورتين فأصبحت (١٤) ومجموع كور القطر (٢٤) كورة .

وترسخ هذا التقسيم زمن المماليك ؛ فقد أصدر الملك الناصر بن قلاوون مرسوما فك فيه زمام القطر المصرى وسمى الكورة عملا ، وعدل التقسيم الإدارى ليصبح (٢١) عملا بدلا من (٢٤) كورة . فكان الوجه البحرى اثنى عشر عملا والصعيد تسعة أعمال[٦] .

وعلى ضوء ما تقدم نجد البكرى قد حاول أن يقدم حصرا باسماء الكور المصرية فذكر نحو سبعين اسما ، غير أنه خلط بين أسماء المدن والكور والأقسام الإدارية الكبرى ، فهناك كور لم تذكر ، ومدن ذكرت على أنها كور ، بعضها كان قواعد للكور ، وبعضها لم يكن كذلك . كما أنه لم تكن كتابته ممثلة لحالة الكور فى القرن الخامس الهجرى الذى عاش فيه ، بل اعتمد على النقل بصفة أساسية ، وقد أدى ذلك إلى كثرة التصحيف فى الأسماء التى أوردها فى ذلك الحصر . وسنمثل لكل ذلك فيما يلى :

١ - ذكره للبرلس والمحلة ضمن الكور ، ولم تكونا كذلك ؛ فالأولى من المدن القديمة فى شمال غرب الدلتا ، والثانية مدينة فى قلب الدلتا لا تزال تعرف بنفس الاسم .

٢ - ذكره للأقسام الكبرى للدلتا على أنها من الكور ، وهى الحوف الشرقى (شرق الدلتا) والحوف الغربى (غرب الدلتا) وأسفل الأرض (شمال الدلتا) وبطن الريف (وسط الدلتا وجنوبها) .

٣ - أما عن التصحيف فى أسماء الكور فهى كثيرة ، منها ما أمكن الوصول إلى وجه الصواب فيه ، وتحديد الكور ، مثل :

السرور = البشرود .	بوسى = نوسا .
المغيرة = نقيزة .	العنز = القيس .
ميذق = منسوف .	دملقة = دقهلة .
طسرة = طوّة .	التخوم = البجوم .
الملقون = البدقون .	

ومنها ما لم يمكن معرفته وتحديده ، وليس له ذكر فى المصادر الجغرافية القديمة مثل السرداب (السردات) - الكوير (الكوثور - الكوبور) - سحامك (سهامك) - هيت (هيتا) - شطيطس (سطيطس) - كفرطس - السماوة (السما) - أشمير » .

٤ - بمقارنة حصر الكور عند البكرى مع ما جاء عند ابن خرداذبة ، نجد أن هناك بعض الشبه بين الحصرين ، ويتمثل ذلك فى متابعة البكرى لابن خرداذبة فى ترتيب بعض الكور مثل (القلزم ، الطور ، أيلة ، مصيل ، المليدس ، قرطسا) و (أسيوط ، قهقا ، البهنسا) و (الأوسية ، طوة ، منوف السفلى) و (البدقون ، الشراك ، ترنوط) .

ويتمثل ذلك الشبه أيضا فى تكرار الاثنين لكورة « البدقون » كما أن الاثنين ذكرا الأقسام الأربعة الكبرى (الحوف الشرقى والحوف الغربى وأسفل الأرض وبطن الريف) ضمن حصر الكور .

وقد يدعو هذا التشابه إلى القول بأن البكرى قد اعتمد على ابن خرداذبة ، إلا أن ذلك يقف أمامه أمران ، أولها أن البكرى لم يذكر نحو خمسة وثلاثين كورة مما ذكره ابن خرداذبة ، وهو ليس بالعدد الهين . وثانيهما ذكر البكرى لأكثر من عشرة أسماء لم ترد عند ابن خرداذبة ، بل وإن معظمها نجده فى المصادر الجغرافية القديمة ولم يمكن تحديده .

وبهذا فإن من المحتمل أن البكرى قد اعتمد على مصدر آخر غير ابن خرداذبة لم يصلنا .

٣ - المسافات بين كور مصر والمشهور من مدنها :

يعتبر هذا الجزء من أهم الأجزاء فى جغرافية مصر عند البكرى ، لأن المادة الجغرافية فيه كبيرة ، وفيه نصوص لا نجدها عند من سبقه من الجغرافيين الذين وصلت إلينا كتبهم .

وهو ينهج فى هذا النص نفس نهجه فى الجزء الخاص بالجزيرة العربية وشمال أفريقيا ، فعناية البكرى هنا تنصب بشكل خاص على الطرق . ووصف المدن التى يمر بها كل طريق وذكر المراحل بينها ، وكذلك بالنسبة لاستطراداته التاريخية التى تتخلل النص وينطبق ذلك على كلامه عن جبل المقطم وعن بعض المدن التاريخية .

أولا - المدن :

١ - يلاحظ أن البكرى قد ذكر بعض المدن التى كانت قواعد لكور لم يذكرها فى حصره المتقدم الذكر ، ومثال ذلك إخميم وإبشاية .

٢ - يتفاوت اهتمام البكرى بالمدن بين الاختصار والاستطراد ؛ فبعض المدن ذكرها بصفتها محطة من محطات الطريق كقوله : « وبين طحا والأشمون خمسة عشر فرسخا ، وبين الأشمون وقهقا ثمانية فراسخ .. إلخ » وبعضها اختصر الكلام عنها جدا كقوله : « ودلاص مجمع سحرة مصر » .

واستطراده فى ذكر المدن إما أن يكون استطراداً تاريخيا ، مثل كلامه عن منف ، وعين شمس ، والإسكندرية ، أو استطرادا جغرافيا مثل كلامه عن سابورصير وإخميم وأسيوط وأنصنا وقوص وقفط وأسوان ودمياط وتنيس . ونجد فى وصف البكرى لهذه المدن ما لم نجده عند من سبقه من الجغرافيين .

ثانيا - الطرق :

تربط شبكة الطرق التى ذكرها البكرى بين أهم مدن القطر المصرى . وقد اتبع فى ذكره للطرق نفس المنهج الذى اتبعه فى شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا ؛ فهو فى الحالتين اختار مركزا تلتقى فيه خطوط الطرق ؛ ففى جزيرة العرب جعل مركزه مدينتى مكة والمدينة . وفى بلاد أفـريقية (الشمال الأفريقـى غربـى مصر) كان مركزه مدينـة القيروان . وبالنسبة لمصر فإن الفسطاط هى المركز ، ومنها تتفرع الطرق إلى مختلف الاتجاهات ، والاستثناء الوحيد هو ذكره للطريق من بنا إلى جزيرة تنيس عبر دمياط . كما أنه ذكر بعض الطرق الفرعية كالطريق من رشيد إلى الإسكندرية والطريق من أسوان إلى عيذاب .

وهو فى كلامه عن الطرق يذكر المسافة بين المدن المختلفة بالفرسخ أو المرحلة . وقد وردت قيمة المسافة فى نسخة الرباط (الأصل) بحساب الجمل ، وفى نسخة الأسكوريال ونسخة المتحف البريطانى وردت المسافة باللفظ ، أما نسخة باريس فالأرقام فيها مكتوبـة برمـز غامض لا علاقة له بحساب الجمل ، وقد تأكد لى أن الرمز (S) فى تلك النسخة يعادل رقم ثمانية . ويمكن مراجعة هوامش الصفحتين ٣٧ ، ٣٨ لتبيان ذلك . ونرجو التوفيق فى التعرف على هذا الرمز الغامض .

١ - الطريق من الفسطاط إلى أسوان :

بدأ البكرى هذا الطريق من منف (ميت رهينة) الواقعة جنوبى مدينة الفسطاط ، ومن منف إلى دلاص ، ومن دلاص إلى الفيوم حيث يلزم الطريق غربى النهر إلى أسوان ، فيما عدا بعض الأجزاء التى يتسع فيها الوادى شرقى النهر .

وذكر البكرى فى موضع آخر طريقين من أسوان إلى عيذاب ، ولعله أول من حدد أكثر من طريق إلى ميناء عيذاب :

أولهما : طريق الوضح ، وطوله ١٨ مرحلة فى قفر ورمال ليس فيها عمران تمور فيها الرياح

فتعفى الآثار ، ويقتدى فيها الجهالون بإبل معروفة يقدمونها فيهتدون بها ، وفى هذا الموضع من النص نمط من التصحيف طريف ، إذ وردت العبارة السابقة فى نسخة الأسكوريال « بتماثيل معروفة يقيمونها فيهتدون بها » ! .

وقد قال أبو الفدا : أن سبب تسمية هذه الطريق بالوضح خلوها من الجبال[٧] .

وثانيهما : طريق العلاقى : وطوله ١٨ مرحلة أيضا . ومسار هذه الطريق يتفق معظمه مع وادى العلاقى ، وتمر هذه الطريق بين جبال فيها معادن الذهب والفضة ، وفى وسط الطريق مدينة تنسب إلى الوادى المذكور .

٢ - الطريق من بنا إلى دمياط فجزيرة تنيس :

يبدأ هذا الطريق من نقطة تقع عند منتصف فرع دمياط وهى بنا ، ويتجه شمالا مع النهر حتى يصل إلى دمياط ، ومنها يتجه إلى جزيرة تنيس الواقعة إلى الشرق من دمياط .

ويبدو أن ذكر البكرى لهذا الطريق ابتداء من بنا سببه تداعى المعلومات ، فعندما ذكر بوصير الصعيد ذكر مقابلها بوصير أسفل الأرض القريبة من بنا .

٣ - الطريق من الفسطاط إلى البرلس :

ويسير هذا الطريق فى وسط الدلتا تقريبا ، ابتداء من الفسطاط إلى منوف ومنها إلى محلة منوف (شمال غرب طنطا) ثم إلى تيدة - البشرود - نقيزة - البرلس .

٤ - الطريق من الفسطاط إلى دمياط إلى جزيرة تنيس :

أشار البكرى فى هذا الصدد إلى طريقين ، أولهما يسير من الفسطاط مع النيل إلى محلة المحروم (مرحوم) ثم تسير فى خليج مليج إلى صهرجت ولم يكمل الطريق ، فقد أقحم البكرى نصا عن بحيرة الاستوا (البرلس) ، وبعد هذا النص يذكر الطريق الآخر ، وهو يبدأ من مدينة طندثى (طنطا) إلى المحلة . دميرة - دمياط - تنيس - الفرما .

وهو فى الطريق الأول رغم أنه لم يكمله إلا أنه ذكر بعض الخلجان التى تصل إلى دمياط وتنيس مباشرة ، كقوله : « وراء مدينة مليج خليج يذهب أيضا إلى مدينة دمياط » ويخرج عندها - أى مدينة قولنجيل - خليج من النيل يذهب إلى بحيرة تنيس » .

٥ - الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية :

تكلم البكرى هنا عن طريقين ، أولهما طريق برى يسير فى غرب الدلتا ، ويسلك هذا الطريق فى أوقات الفيضان ، ويكاد يتفق ما ذكره البكرى مع سابقيه[٨] فى ذكر مراحل هذا الطريق فيما عدا الجزء الأخير من الطريق حيث يمر بتروجة ثم الإسكندرية .

أما الطريق الآخر فيمر فى وسط الدلتا (فى غير زمن الفيضان) وقال البكرى عنه باختصار « تركب السفن من الفسطاط إلى محلة المحروم ثم إلى مدينة رشيد » ومن مدينة رشيد أشار إلى طريقين ، أولهما فى البحر من مدينة رشيد إلى مصب النيل ، ومنه مسيرة يوم أو أقل إلى الإسكندرية ، ووصف ما تلاقيه السفن من آثار التيارات المائية التى تثير أكوام الرمال تحت الماء ، وقد تؤدى شدة التيارات إلى اصطدام السفن بها . والطريق الثانى طريق برى يسير مع الساحل بين البحر وبحيرة ادكو ، وتخوض الدواب نحو نصف ميل فى الطرف الشمالى من البحيرة المذكورة بعلامات قد وضعت هناك ، فإذا حادت الدابة عن تلك العلامات سقطت فى بحر بعيد القعر . ثم يسير الطريق بعد ذلك غربا فى آجام وغياض وهضاب رمال إلى الإسكندرية .

ومصادر البكرى فى هذا الجزء غير معروفة ، وإن كانت بعض مراحل الطريق نجدها عند عدد من المتقدمين مثل ابن خرداذبة وابن حوقل ، إلا أن من المؤكد أن البكرى قد اعتمد على الرواية ، بخاصة وأن هناك الكثير من المعلومات التى تصادفنا لا نجدها عند غيره وأهمها وصف الطريق البرى والبحرى بين رشيد والإسكندرية ، ووصفه لطريق الوضح بين أسوان وعيذاب .

٤ - ذكر مدينة الإسكندرية :

تختفى من هذا الجزء المادة الجغرافية ؛ فقد استعرض تاريخ الإسكندرية منذ بنائها إلى الفتح العربى لها ، وما كان لها ولمنارها من شهرة كبيرة . وتعرض لبعض الآثار والمشاهد المهمة بها ، وذكر أن الإسكندرية كلها دفائن وكنوز ، فإذا أمطرت السماء مطراً شديداً ، وسال ترابها مع الماء ، خرج الرجال والنساء والصبيان من المدينة يلتمسون حواليها ، فيجدون قطع الذهب والفضة من الحلى والدر والياقوت والزمرد ، وليس يرجع أحد منهم بغير شىء .

وقد اعتمد فى هذا الموضوع اعتمادا أساسيا على مصدرين ، أولهما مروج الذهب للمسعودى الذى نقل عنه أجزاء كبيرة دون أن يشير إليه ، وبخاصة كلامه عن تاريخ الإسكندرية القديم . وثانيهما فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وقد نقل عنه ما يتعلق بتاريخ الفتح الإسلامى للإسكندرية . وتجدر الإشارة إلى شك بعض الجغرافيين العرب عما يقال عن آثار الإسكندرية من روايات تفتقر إلى الوثاقة والصحة . وفى هذا الموضوع يمكن مراجعة ما كتبه ياقوت الحموى فى معجمه عن الإسكندرية .

مخطوطات الكتاب :

جمعت من كتاب البكرى « الممالك والمسالك » اثنتى عشرة قطعة مخطوطة ، وهى كل المخطوطات المعروفة عنه فى مكتبات العالم حتى الآن ، ولا نجد من بين تلك المخطوطات نسخة واحدة كاملة تضم الكتاب كله ، فهى قطع متفاوتة الحجم ومختلفة الترتيب[٩] .

وقد جاء ذكر مصر فى سبع نسخ من المخطوطات السابقة اعتمدنا على خمس نسخ منها فقط ، إذ لم أتمكن من الحصول على نسخة مكتبة الأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد كاملة[١٠] . وهى تحتوى على جزء لا بأس به عن مصر . أما النسخة الأخرى ، فهى نسخة مكتبة الأستاذ محمد المنونى ، وهى مكتبة خاصة بالرباط (رقم ٤٩) وتحتوى هذه النسخة على ٢١ ورقة عن مصر ، وتدخل ضمن القسم التاريخى الذى لم نقصده فى التحقيق على ما تقدم .

وعلى هذا سيقتصر استخدامنا على خمس النسخ المذكورة ، وفيما يلى وصف كل نسخة منها :

١ - نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ق ٤٨٨ :

وتحتوى هذه النسخة على ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير مسطرتها ٢٥ سطراً بخط أندلسى جميل ، وهى مبتورة الأول والآخر .

ويبدأ الجزء الخاص بمصر فى الصفحة التاسعة تحت عنوان « ذكر مصر ونيلها وملوكها وبرابيها وأهرامها والمشهور من أخبار المغرب ، وجمل من غرائبها » . والنص الذى حققناه من مصر يبدأ من صفحة ٦٠ تحت عنوان « ذكر فتح مصر » إلى صفحة ٨٤ وهو آخر الكلام عن مصر ، وبداية النص المتعلق ببلاد المغرب ، وهو النص الذى سبق أن حققه البارون ديسلان ، ونشر بالجزائر عام ١٨٥٧ تحت عنوان « المغرب فى ذكر أفريقية والمغرب » .

وقد اعتمدت على هذه النسخة اعتمادا رئيسيا وجعلتها الأصل لبقية النسخ ، وذلك لقلة نقصها ، إذ لا يتجاوز ذلك النقص بضعة أسطر ، مع كلمات محدودة متفرقة (انظر مثال ذلك فى كلامه عن سابور صير ومدينة أنصنا ص ٤٠ ـ ٤١ من النص المحقق) .

وقد أمكن تلافى ما تنقصه هذه النسخة من النسخ الأخرى بحيث أمكننا تقديم النص كاملا غير منقوص . وسنشير إلى هذه النسخة فى هوامش التحقيق باسم « الأصل » .

٢ - نسخة المكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٢٢١٨:

وتحتوى هذه النسخة على ٢٥٦ صفحة من القطع المتوسط ، مسطرتها ٢١ سطرا بخط مقروء، وهى غير مؤرخة .

وقد كتب على غلاف هذه النسخة « كتاب أخبار الزمان والمسالك والممالك لابن زولاق رحمه الله ... » وهى نسبة عارية من الصحة .

ويبدأ الجزء الخاص بمصر فى الصفحة السابعة تحت عنوان « ذكر مصر ونيلها وملوكها وبرابيها وأهرامها وجمل من أخبارها ، والمشهور من بلاد المغرب » . أما النص الذى حققناه منها فيبدأ صفحة ٥١ وينتهى صفحة ٧٢ .

وهذه النسخة كثيرة التصحيف ، وعدد كبير من كلماتها غير منقوط ، فضلا عن النقص الملحوظ الذى يبلغ نحو أربع عشرة صفحة من النص المحقق (من ص٤٠ إلى ص٥٤) .
وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (ب) .

٣ - نسخة مكتبة دير الأسكوريال ، رقم ١٦٣٥ م :

وتحتوى على ١٠٥ ورقات من القطع الصغير ، مسطرتها ١٩ سطرا ، بخط أندلسى جميل ، وهى مبتورة الأول والآخر وغير مؤرخة .

وتبدأ هذه النسخة أثناء تعداده لكور مصر ، وينتهى الجزء الخاص بمصر عند منتصف صفحة ٣٠ من المخطوطة . وهى بهذا تنقص كل الجزء المتعلق بفتح مصر فى النص المحقق . كما تنقص ورقة كاملة أثناء كلامه عن منار الإسكندرية (من ص ٥٢ إلى ٥٤ من النص المحقق) ويبدو أن النقص ناتج عن تفكك النسخة واضطراب أوراقها .

ومع ما تقدم فإننا قد استفدنا من هذه النسخة استفادة كبيرة فى سد ثغرات النسخ الأخرى لجودتها وضبطها . ومثال ذلك فى ص ٥١ من النص المحقق .
وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (س) .

٤ - نسخة المكتبة الناصرية بلكهنو (الهند) ، رقم ٥٩ تاريخ :

وتحتوى على ٧٩ ورقة من القطع الكبير ، مسطرتها ٣١ سطراً بخط معتاد ، وقد كتب على غلاف هذه النسخة « السفر الثانى من كتاب المسالك والممالك » تأليف العلامة أبى عبيد البكرى رحمه الله » .

وتبدأ هذه النسخة . بعد البسملة - بذكر مصر تحت عنوان « ذكر مصر من لدن عمارتها قبل الطوفان وبعده إلى استفتاح المسلمين لها ، وسير ملوكها وترتيب أخبارهم . وهى بهذا تنقص كل الجزء الخاص بوصف مصر عند الحكماء وعجائب مصر وعادات أهلها التى تشغل نحو ١٤ صفحة من نسخة الرباط رقم ٤٨٨ .

وتنتهى النسخة - مبتورة - أثناء كلامه عن خواص بلاد الأندلس ، وذلك بعد كلامه عن مصر وبلاد المغرب .

وبهذه النسخة خروم وتصحيفات كثيرة ، وورقات كاملة تخلو من الكتابة . وقد سقط من هذه النسخة كل الجزء المتعلق بفتح مصر وكورها والمسافات بين تلك الكور ، وتبدأ عند ذكر البكرى لجبل المقطم وما ورد فيه (أنظر ص ٣٨ من النص المحقق) .

وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (هـ) .

٥ - نسخة مكتبة المتحف البريطانى ، رقم ٩٥٧٧ :

وتحتوى على ٢٤٢ صفحة من القطع المتوسط ، مسطرتها ١٩ سطرا بخط أندلسى جميل وهى غير مؤرخة .

وتبدأ هذه النسخة أثناء الكلام عن مصر مع بداية النص المحقق بعنوان « ذكر فتح مصر » ، ويلى ذلك ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، وتنتهى النسخة مبتورة أثناء الكلام عن البربر . ويشغل النص المحقق نحو ٣٩ صفحة من المخطوط .

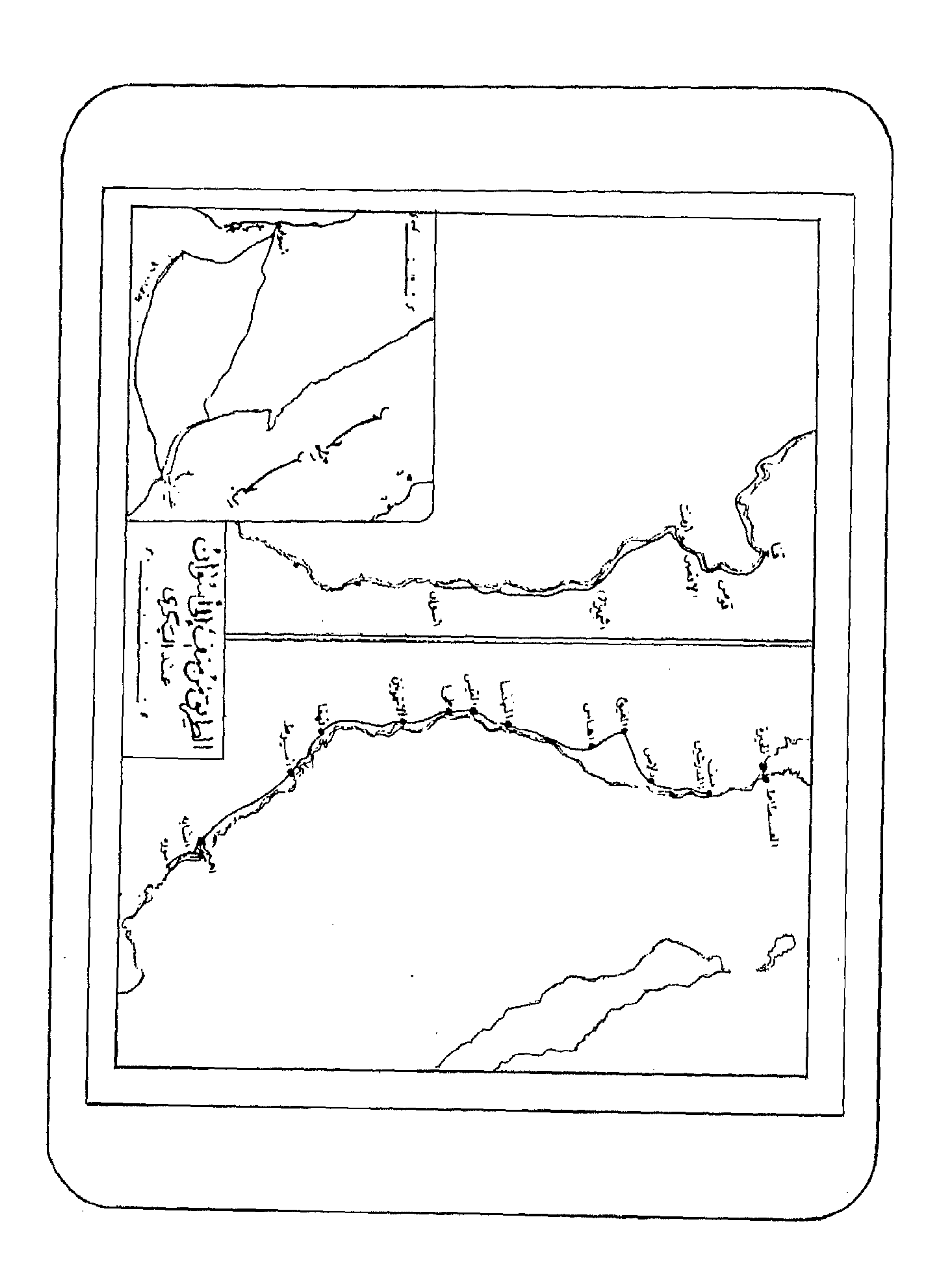
وهى من النسخ الجيدة التى اعتمدنا عليها اعتماداً كبيرا لضبطها وقلة نقصها . وقد رمزنا لها بالحرف (ط) .

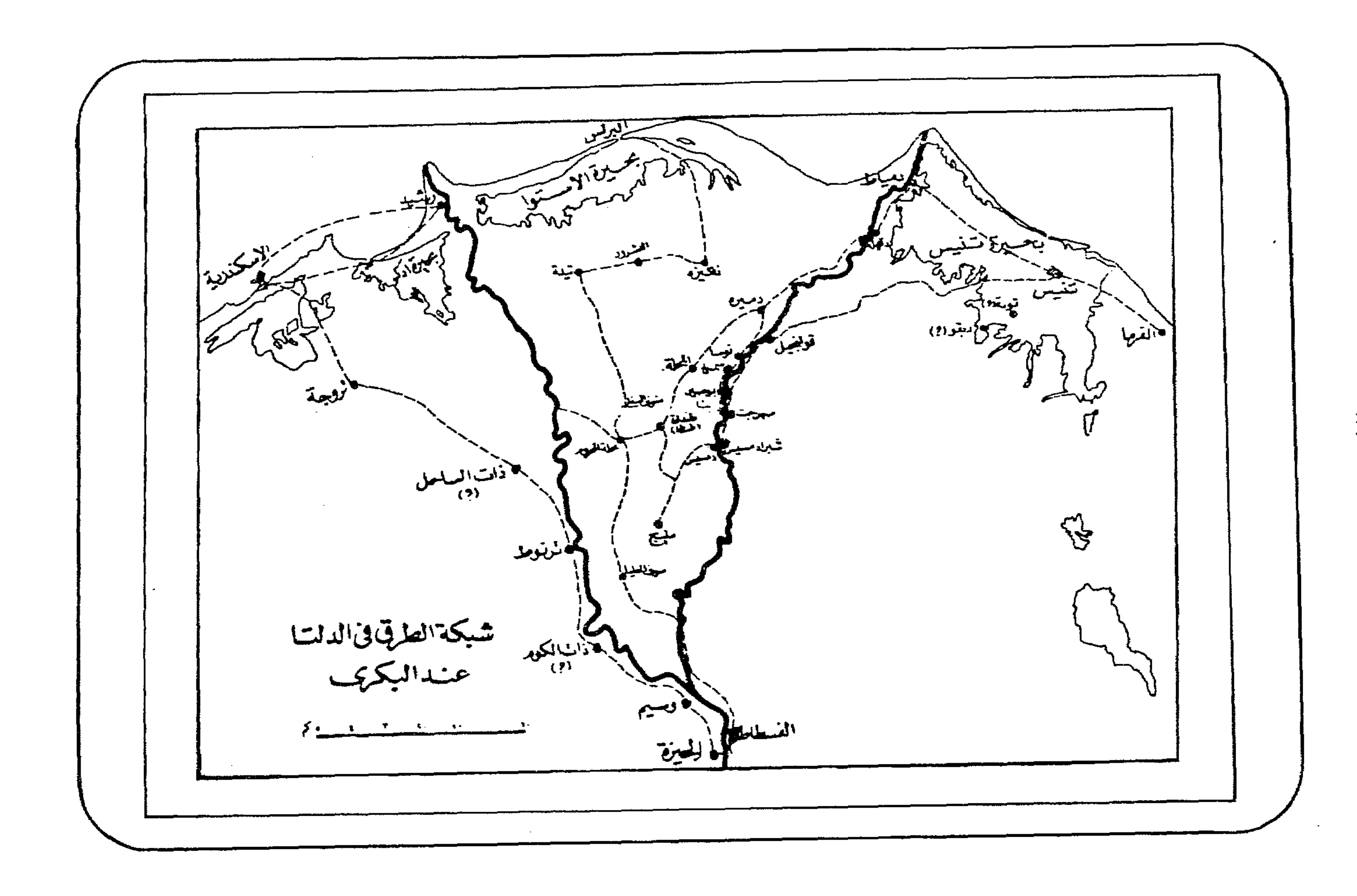
وقد حاولت قدر الإمكان الالتزام بما جاء فى الأصل (نسخة الرباط) ، أما إذا كان ما فى الأصل يخالف بقية النسخ أو بعضها ، واحتوت الأخيرة على كلمة أو عبارة أضبط وأفضل ، اعتمدت على ما جاء بها . وقد يكون ما جاء فى جميع النسخ مصحفا ومخالفا لما جاء فى كتب الجغرافية القديمة ، مثل التصحيفات التى أشرت إليها عند كلامى عن الكور ، وفى هذه الحالة أثبت الصواب فى النص ، وأشير إلى التصحيف فى الهامش .

ووضعت كل ما نقص من الأصل وأضيف من النسخ الأخرى بين قوسين ، كما أشرت فى الهامش إلى ما ينقص النسخ الأخرى وموجود فى الأصل .

وقد اعتمدت فى ضبط أسماء المواضع من المدن والقرى وتحديدها على الجهد القيم الذى قام به محمد رمزى فى قاموس البلاد المصرية ، كما اعتمدت على رسالتى الماجستير (١٩٧٣) والدكتوراه (١٩٧٧) للدكتور عبد العال الشامى وموضوع الأولى « مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجرى » والثانية « مدن الدلتا فى العصر العربى » وكان لصلتى الوثيقة بالدكتور عبد العال واهتماماتنا المشتركة أكبر الأثر فى إنجازى لهذا العمل ، فقد وقف بجانبى فى حل كثير من التصحيفات ، وكانت رسائله المستمرة تحمل إلىَّ كل جديد فى هذا الموضوع فله جزيل شكرى وامتنانى .

وختاما أرجو أن ينال هذا الجهد المتواضع عناية الباحثين فى التراث الجغرافى العربى ، وأن ينير السبيل للباحثين فى الجغرافية التاريخية لمصر ، لما فيه من نصوص جغرافية جديدة تنشر لأول مرة .





شبكة الطرق فى الدلتا
عند البكرى
الإسكندرية
رشيد
البرلس
دمياط
بحيرة تنيس
تنيس
الفرما
دميرة
قوابيل
ذات الساحل (؟)
ترنوط
ذات الكوم (؟)
وسيم
الجيزة
الفسطاط

ذكــر فتــح مصـــر

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكَم[١١] : لمّا كان سنة ثمان عشرة وقدم عمر رضى الله عنه الجابية ، خلا به عمرو بن العاص ، وكان قد دخل مصر فى الجاهلية وديارها ، وعرف أحوالها ، فجعل يُعظِّم عنده أمرها ، ويُهوِّن عليه فَتحها حتى رَكَن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عَكٍّ ، ويقال ثلثهم من غَافِق[١٢] . وقال له عُمَر : سِرْ وأنا مستخير الله[١٣] وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف فافعل إن كنت لم تدخلها ، فإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله وانتصر به[١٤] .

فسار[١٥] عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد[١٦] . واستخار عمر ، فكأنه تخوف على المسلمين ، فكتب إليه عُمَر[١٧] أن ينصرف بمن معه ، وأدركه الكتاب وهو بِرَفَح ، فتخوف عمرو إن هو قرأ[١٨] الكتاب أن يكون يأمره بالانصراف كما عهد إليه عمر[١٩] ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ، ودافعه حتى نزل قرية فيما بين رَفَح والعَرِيش ، فسأل عنها فقيل إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، ثم قال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ (قالوا : بلى)[٢٠] قال : فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ إنْ لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع إليه ، وإنَّ كتابه لم يلحقنى حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله (تعالى)[٢١] .

قال : فلما بلغ المقوقس أمر عمرو توجه[٢٢] إلى الفسطاط ، فكان[٢٣] يجهز إلى عمرو الجيوش . قال جماعة (من)[٢٤] مشايخ أهل مصر أنّ أُسقفا كان بالإسكندرية للقبط يقال له أبو بنيامين[٢٥] ، فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو . فأول موضع قوتل فيه عمرو الفرما قاتلته[٢٦] فيه الروم نحوا

من شهر ثم فتحها الله عليه ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا لعمرو أعوانا[٢٧] لما أعلمهم به أبو بنيامين .

ثم تقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى فتح بلبيس وأم دنين ، وكتب إلى عمر يستمده ، فأمده بأربعة آلاف ، فصار[٢٨] عمرو إلى الحصن وقد خندقوا حوله ، وجعلوا للخندق أبوابا ، وجعلوا سكك الحديد موتدة[٢٩] بأفنية تلك الأبواب[٣٠] ، فكان عمرو يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، ويغدو فى الأسحار فيصفهم على أبواب الخندق عليهم السلاح .

ثم قدم على عمرو الزبيرُ بن العوام فى اثنى[٣١] عشر ألفا فَتَقوّى المسلمون وجعل عمرو يلح عليهم بالقتال ، ووضع المنجنيق على الحصن ، وكان عمرو إنّما يقف تحت راية بليّ (قال)[٣٢] ، وكانت أمه بَلوية .

قلت أنا : هذا من قائله وَهْم ، وإنَّما هى عَذَّرية[٣٣] .

فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزُّبير (رضى الله عنه) أنا أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين[٣٤] ، فوضع سُلَّما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم أمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا ، فما شعروا إلا والزُّبير على رأس الحصن يُكَبِّر معه السيف ، فتحامل المسلمون على السُلَّم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر ، فهرب أهل الحصن جميعا ، وعمد[٣٥] الزبير إلى باب الحصن ففتحه واقتحمه[٣٦] المسلمون ، ثم حاصر المسلمون باب إليون وبه أكابر الروم والقبط ورؤساؤهم عليهم المقوقس ، فقاتلوهم بها شهرا فخاف المقوقس على نفسه (ومن معه)[٣٧] فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا على[٣٨] الباب القبلى ، وترك هناك جماعة يقاتلون ، وصار بالجزيرة - موضع دار الصناعة[٣٩] اليوم - وأمر بقطع الجسر ، وذلك فى مجرى النيل[٤٠] ، وأرسل المقوقس إلى عمرو أنكم قد دخلتم فى أرضنا وطال مقامكم فى بلادنا[٤١] ، وإنَّما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم[٤٢] الجيوش ، وقد أحاط بكم هذا النيل وإنّما أنتم أُسارى بأيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فعسى أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على

ما تحبون[٤٣] ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم[٤٤] جموع الروم فتندموا . فرد عمرو مع رسله أنه ليس بيننا وبينكم إلاّ إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم فى الإسلام وكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا . وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . فلما جاءت رُسل المُقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم[٤٥] من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، إنّما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على الرُّكب ، وأميرهم كواحد منهم ، يغسلون أطرافهم بالماء ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم ، يتخشعون فى صلاتهم .

فقال المقوقس : والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لزلزلوها[٤٦] ، وما يقوى على قتال[٤٧] هؤلاء أحد ، وإن لم يغتنم صلح هؤلاء القوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض .

والمسلمون قد أحدق بهم الماء من كل جهة لا يقدرون على النفوذ إلى الصعيد ولا غيره من القرى ، وبعث عمرو إليهم عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وأمره أن يكون متكلم القوم ، وأن لا يجيبهم إلى شيء إلاّ إلى أحد هذه (الثلاث)[٤٨] الخصال .

فركبوا السفن إلى المقوقس فدخلوا عليه ، فتقدم عبادة بن الصامت[٤٩] فهابه المقوقس لسواده ، وقال : نحو عنى هذا الأسود وقدموا غيره ، فقالوا جميعا : إن هذا الأسود سيدنا وأفضلنا رأياً وعلماً[٥٠] . فكلمه عبادة فزاد[٥١] المقوقس له هيبة ، وقال لأصحابه : لقد هبت منظره ، وإن قوله عندى لأهيب[٥٢] ، وإنَّ هذا وأصحابه إنّما أخرجهم الله لخراب الأرض ، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها . فراوده المقوقس على أن يعطى كل واحد[٥٣] منهم دينارين وأميرهم مائة دينار وخليفتهم ألف دينار ، فلم يجبه عبادة إلاّ إلى إحدى الثلاث خصال* ، فقال المقوقس لأصحابه : ماذا ترون[٥٤] ؟ فقالوا : أما ما أراد من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يمكن[٥٥] ، نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه ، وأما ما أرادوا أن يجعلونا عبيدا

أبدا ، فالموت أقرب وأيسر من ذلك[٥٦] ، ولو رضوا منا أن نُضْعِف ما أعطيناهم كان أهون علينا . فانصرف عبادة ولم يتفقوا على شيء .

وألح المسلمون فى القتال حتى أذعن المقوقس بالجزية عن القبط خاصة ، والروم مخيرون فى المقام على (مثل)[٥٧] ذلك أو الخروج إلى أرض الروم ، فأحصى يومئذ من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ، رفع عرفاؤهم ذلك بالأيمان المؤكدة فكانوا ستة آلاف ألف ممن بلغ الحلم ، سوى الشيخ الفانى والصغير ، والنساء ، ففرض على كل نفس دينارين[٥٨] فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف (دينار)[٥٩] . ثم كانت بمن استقر هناك من النصارى [ومن] ساكنهم من النوبة خمسين ألف ألف (دينار)[٦٠] .

وذكر لعمرو بن العاص[٦١] أن عند عظيم الصعيد مال ، فبعث إليه عمرو فسأله فقال : ما عندى مال . فسجنه[٦٢] . وسأل عمرو من يدخل إليه[٦٣] هل يسمعونه يذكر أحدا قالوا : نعم راهبا بالطور . فبعث عمرو فأتى بخاتم المسجون ، فكتب كتابا على لسانه بالرومية وختم عليه وبعث به إلى الراهب ، فأتى بقلة من نحاس مختومة برصاص ، فإذا فيها كتاب فيه « يا بنى إذا أردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية » فبعث عمرو الأمناء[٦٤] إلى الفسقية ، وهى السقاية ، فحفروا فاستخرجوا خمسين إردبا من دنانير[٦٥] .

● واختط المسلمون بمصر ، فاختط عمرو بن العاص داره التى هى اليوم عند باب المسجد بينهما الطريق ، وداره الأخرى اللاصقة إلى[٦٦] جنبها ، وفيها دفن عبد الله ابنه .

● واختط عبد الله ابنه داره الكبيرة[٦٧] التى عند المسجد الجامع ، وبناها قصرا على تربيع الكعبة الأولى[٦٨] .

● واختط حول دار عمرو والمسجد قريش والأنصار (وأسلم)[٦٩] وغفار وجهينة .

● واختط وردان مولى عمرو ، ويكنى بأبى عبيد ، القصر المنسوب إلى عمر بن مروان اليوم ، اشتراه عبد العزيز بن مروان فوهبه[٧٠] لأخيه (عمر بن مروان)[٧١] .

● واختط قيس بن سعد بن عبادة دار الفُلفُل فى قبلة الجامع ، وأوصى عند وفاته أنها للمسلمين ، فنزلها[٧٢] ولاتهم ، وسميت دار الفُلفُل لأن أسامة بن زيد التنوخى[٧٣] حين ولى

مصر اختزن فيها فلفلا بعشرين ألف دينار ، كان الوليد بن عبد الملك أراد أن يهديه إلى صاحب الروم .

● واختط مسلمة بن مخلد دار الرمل ، وكانت من رحا الكعك إلى (حمام)[٧٤] سوق وردان ، ثم وهبها لمعاوية . واختط له معاوية داره التى بسوق وردان ، وكانت بجانبها دار[٧٥] لعقبة بن عامر ، فوهبها لرملة بنت معاوية ، فسميت بها[٧٦] دار الرَّمل ، حرفته العامة ، وقيل : إنَّها[٧٧] سُمِّيت دار الرَّمل[٧٨] لكثرة ما ينقل إليها من الرَّمل لدار الضرَّب[٧٩] .

● واختط قيس بن أبى العاص السَّهْمى داره التى عند دار ابن رُمانة[٨٠] بينها وبين المسجد ، ودخل بعضها إلى المسجد[٨١] حين زاد عبد الله بن طاهر فى عرضه ، وكان عمرو وَلىَّ قيسا القضاء .

● واختط عبادة بن الصامت إلى جانب دار ابن رمانة[٨٢] وأنت تريد إلى سوق الحمام .

● واختط خارجة بن حذافة[٨٣] غربى المسجد إلى أصحاب الحنا وأصحاب السويق[٨٤] .

● واختط عبد الرحمن بن عديس[٨٥] الدار البيضاء ، ومروان بن الحكم بناها (بناءها)[٨٦] اليوم لما ولى مصر سنة ستين[٨٧] .

● واختطت ثقيف فى ركن المسجد الشرقى إلى السرّاجيين .

● واختط أبو ذرّ ومن معه من غِفَار من زقاق القناديل[٨٨] راجعا إلى قصر ابن جبر[٨٩] إلى سوق بربر[٩٠] .

● واختط كعب بن يسار بن ضنّة[٩١] وهو ابن بنت خالد بن سنان العبسى التى قال لها[٩٢] النبى صلى الله عليه وسلم : « ابنة نبىٍّ ضَيَّعَهُ قومُه » الدار المعروفة بدار النخلة فى طرف زقاق القناديل ، وكان يقال لزقاق القناديل : زقاق الأشراف ، لأنَّ عمرو بن العاص كان فى طرفه ، وفى الطرف الآخر كعب بن يسار[٩٣] ، وبينهما دار أبى ذر ، وزكريا بن الجهم وعبد الرحمن بن شرحبيل وغيرهم من الأشراف .

● واختط كعب بن عدى القيسارية[٩٤] ، فلما[٩٥] أراد عمر بن عبد العزيز بناءها[٩٦] اشتراها منهم وخط لهم دارهم التى فى بنى وائل .

والحمام الذى يعرف (اليوم)[٩٧] بحمام أبى مُرَّة كان خُطَّة لرجل من تنوخ ، فسأله إيّاه[٩٨] عبد العزيز بن مروان فوهبه[٩٩] له ، فبناه حماما لزبان ابنه ، وبزبان كان يعرف . وفيه يقول الشاعر يصف صنم رخام[١٠٠] كان فيه على خلقة المرأة :

مَنْ كان فى نَفْسِهِ للبيضِ منزلةٌ   فليأتِ أبيضَ فى حمّــامِ زَبّانِ
لا روح فيه ولا شعــر يُقلّبه   لكنَّه صنم فى خَلْقِ إنسانِ[١٠١]

فى أبيات وكُسر هذا الصنم ، وكان عجباً من العجائب[١٠٢] ، حين أمر يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام سنة اثنتين ومائة .

● واختط الزُّبير بن العوام داره التى بسوق وردان ، وفيها السلم الذى كان الزبير نصبه وصعد عليه إلى حصن الروم[١٠٣] ، وكان عبد الملك بن مروان قد اصطفاها ، فردها أبو جعفر على هشام بن عروة ، وكانت لهشام منه ناحية ، فقال أبو جعفر : ما مثل أبى عبد الله يؤخذ له شيء ، يعنى الزبير[١٠٤] .

● واختط أبو بصرة[١٠٥] الغفارى عند دار الزبير .

● واختطت أسلم مما يلى دار أبى ذر .

● ومن خططها دار الصباح[١٠٦] ، والزقاق الذى فيه دار ابن خلادة[١٠٧] ، ولهم أيضا من قصر أبى حجزة (وقيل ابن جبر)[١٠٨] ، إلى الحجامين الذين بسوق بربر[١٠٩] .

● واختط الليثيون عند أصحاب القراطيس . واختط خلفهم بُسرْ بن أبى أرطأة[١١٠] .

● واختط (بنو)[١١١] معاذ فى زقاق عبد الملك بن مسلمة ، واختطت عنزة فى أصل[١١٢] العقبة التى عند دار ابن الصامت . واختطت بلى خلف خارجة بن حذافة[١١٣] ، ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد إلى دار سلمة ، ودار واضح إلى دار[١١٤] الزجاج ، ثم مضوا إلى أصحاب الزيت[١١٥] ، ثم مضوا يشرعون فى قبلة سوق وردان حتى بلغوا مسجد القروى[١١٦] . ثم داخل الزقاق (إلى)[١١٧] مسجد عوف ، وهو من خطة بلى ، وإنّما كثرت[١١٨] بلى بمصر لأنَّ رجلا نادى بالشام يا آل قضاعة ! فبلغت عمر بن الخطاب ، فكتب إلى عامل الشام أن يُصَيِّرَ ثلثَ قضاعةَ إلى مصرَ ، فنظر فإذا بلى ثلث قضاعة[١١٩] فَسيرٍّوا إلى مصر .

● واختط بنو بحر[١٢٠] ، وهم من الأزْد ، مما يلى بلى ، ثم شرعوا إلى البحر .

● واختطت مهرة موضع دار الخيل وما والاها إلى[١٢١] سفح الجبل الذى يقال له :

يشكر[١٢٢] مما يلي الخندق إلى شرقي العسكر إلى جنان بني مسكين اليوم ، وهناك[١٢٣] كان مسجد مهرة ، وأدخله طريف الخادم في دار[١٢٤] الخيل حين بناها .

● واختطت لَخْم قبلي ثقيف ، وانحدروا إلى مسجد عبد الله .

● واختطت غافق بين مهرة ولخم ومضر[١٢٥] ، ثم مضوا بخطتهم حتى برزوا إلى الصحراء مما يلي الموقف ، ولغافق مما يلي درب[١٢٦] السراجين إلى درب بني وردان ، فما كان عن يمينك وأنت تريد المسجد الجامع في الطريق إلى دور الوردانيين من مسجد[١٢٧] عبد الله فهو للخم وما كان عن يسارك فلغافق .

● والموقف لابنة مسلمة بن مخلد فتصدقت به على المسلمين ، وإذا سلكت زقاق أشهب ، فما كان عن يمينك وأنت تريد الموقف فهو لغافق ، وما كان عن يسارك فهو للأزد ، ثم مضت الأزد حتى أخذت ما شرع[١٢٨] في السويقة قبلة دار سعيد بن عبيد ، وقيل : ابن عفير[١٢٩] وزقاق السراجين ، وقيل الراسين[١٣٠] حتى انتهت إلى دار حوا[١٣١] ودار عبد الرحمن بن هشام ، ثم اختطت مما يلي السويقة العتقا . وإذا هبطت من وادي حوا[١٣٢] وقعت[١٣٣] في هذيل فما كان عن يمينك وأنت تريد الخندق فلهذيل ، وما كان عن يسارك فلوهنة[١٣٤] من الأزد .

● واختطت الصدف قبل مهرة[١٣٥] ، فمضوا بخطتهم حتى لقوا (حضر موت دون الصحراء) ولقوا مما يلي القبلة بني سعد بن تجيب . واختطت تجيب شرقي الحصن وقبلي منزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومضوا بخطتهم حتى لقوا)[١٣٦] مهرة والصدف[١٣٧] من مهب الشمال .

● واختطت خولان قبليَّ الحصن من مهب الجنوب ، ومضوا بخطتهم حتى لقوا بني وائل والفارسيين[١٣٨] في السهل ، ولقوا يحصب[١٣٩] ورعينا في الجبل ، ولقوا مرادا[١٤٠] في الشرق ولقوا تجيب من[١٤١] مهب الشمال .

● واختطت مذحج بين خولان وتجيب .

● فأما الجيزة فإن معظم خططها للحمراء ، وهم قوم من العجم ، والفارسيين ، وكانوا دخلوا مع عمرو بن العاص ، منهم بنو بتة وبنو الأزرق وبنو روبيل[١٤٢] ، وإلى ابن بتة

(هذا)[١٤٣] تنسب السقيفة التى بفسطاط مصر ، وإنما أرادوا أن ينفردوا عن العرب ، ونزلها معهم قوم من همدان وذى أصبح ، منهم شمر بن أبرهة[١٤٤] .

قد تقدم ذكرنا لبناء عمرو المسجد بمدينة الفسطاط ، ثم مسلمة بن مخلد الأنصارى راويته[١٤٥] ، وذلك سنة ثلاث وخمسين وبنى المنار وكتب عليه اسمه ، ثم هدم عبد العزيز بن مروان المسجد كله فى سنة سبع وسبعين[١٤٦] . (ثم كتب الوليد بن عبد الملك إلى قرة بن شريك العبسى وهو واليه على مصر سنة بضع وتسعين)[١٤٧] فهدمه كله وبناه بناءه هذا (إلى)[١٤٨] اليوم ، وزخرفه ونجّده ، وذهّب رؤوس العمد التى فى مجالس قيس خاصة ، وحوّل قرة المنبر إلى قيسارية العمل[١٤٩] حين هدم المسجد ، فكان الناس يصلون فيها الصلوات (الخمس)[١٥٠] ، ويجمعون فيها الجمع ، حتى[١٥١] فرغ من بناء المسجد والقبلة فى القيسارية إلى اليوم ، وكان الوليد قد عزل عبد الله بن عبد الملك من[١٥٢] مصر وولاها قرة بن شريك ، قال الشاعر :

عَجَبا ما عَجِبْتُ حِينَ أتانا ... أنْ قَدَ أمَرْتَ قُرَّةَ بْنَ شَرِيكْ
وعَزَلْتَ الفَتى المُبارَك عَنّا ... ثُم بَيَّنتَ فيه رَأىَ أبِيكْ[١٥٣]

ثم زاد موسى بن عيسى[١٥٤] الهاشمى بعد ذلك فى مؤخرة سنة خمس وسبعين ومائة .

ثم زاد عبد الله بن طاهر بإذن المأمون له (فيه)[١٥٥] سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وأدخل فى الزيادة[١٥٦] دار الرمل كلها إلاّ ما بقى منها من دار الضرب ودار ابن رُمّانة[١٥٧] وغيرها .

● ثم أول مسجد بنى بمصر ، بعد مسجد عمرو ، المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان بإزاء الموضع المعروف بالقالوس ، ويسمى مسجد الغفلة[١٥٨] .

● ومن مساجدها المشهورة مسجد عبد الله ، وهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان[١٥٩] ، وكان أبوه ولاه مصر سنة ست وثمانين ، وكان أهل مصر يسمونه مكيسا[١٦٠] .

● قال[١٦١] الليث بن سعد ، وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية ، وإنما كانت بالعجمية[١٦٢] ، وهو أول من نهى الناس عن لبس البرانس[١٦٣] . ومسجد مالك وهو ينسب إلى مالك بن شراحيل الخولانى القاضى[١٦٤] ، وكان ولى القضاء بمصر سنة ثلاث وثمانين ،

وكان الحَجَّاج يبعث إليه فى كل عام بحلة وثلاثة آلاف درهم ، ولم يزل على القضاء حتى مات رحمه الله .

● فأما قيساريات[١٦٥] مصر : فقيسارية العسل (وقيسارية الحبال)[١٦٦] وقيسارية الكباش ، وقيسارية عبد العزيز ، وهى التى يباع فيها البُزُّ[١٦٧] ، وقيسارية هشام يباع فيها البُزُّ أيضا ، وهو هشام بن عبد الملك .

● وأول ما بنى المسلمون بمصر من الحمامات حمام الفأر ، وكانت حمامات الروم دياسات[١٦٨] كبار ، فلما رأوا هذا الحمام وصغره قالوا : من يدخل هذا ؟ هذا حمام[١٦٩] الفأر ! فغلب عليه .

وبين[١٧٠] الفسطاط ومدينة القاهرة نحو ميلين فى خراب كانت مساكن لكتامة وغيرها ، وهناك اليوم ثلاثة مشاهد على الطريق من الفسطاط إلى مدينة[١٧١] القاهرة بناها الحاكم ، ولها السدنة والخدمة ، ويوقد فيها السرج الكثيرة الليل كله .

وزعموا أنه كان أراد نقل جثة النبى صلى الله عليه وسلم وجثة أبى بكر وجثة[١٧٢] عمر رضى الله عنهم إليها ، وقد كانت[١٧٣] توجهت له الحيلة فى ذلك حتى أظهر الله أهل المدينة على أمره وقاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم[١٧٤] وردا لكيد عدوه . وذلك أن الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته احتفروا فى بعض الدور المجاورة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سرباً تلقاء القبر ، وقد رفعوا أذرع[١٧٥] ما بين الدار والقبر فإذا وازنوا[١٧٦] موضع القبر خرقوا فى البيت علوا ، وتمكنوا من إرادتهم ، فاطلع الله على ذلك أهل المدينة وقد أمعنوا فى الحفر وأشرفوا على ما يريدون ، فقتلوا أولئك الفعلة الفسقة ومثلوا بهم ، ورصفوا تلك الحفرة[١٧٧] بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص فلا يطمع فى الوصول إليها طامع أبدا .

ذكر كـــور مصـــــر[*]

الفيوم ، الدير[١٧٨] ، السرداب[١٧٩] ، عـين شمس[١٨٠] ، تونـة[١٨١] ، شطـا[١٨٢] ، الكوير[١٨٣] ، (سحامك)[١٨٤] ، وهيت[١٨٥] ، شطيطس[١٨٦] ، كفرطس ، السماوة[١٨٧] ، الفرمـا[١٨٨] ، سابورصـــير[١٨٩] ، المحلـــة ، دمــــيرة[١٩٠] ، دقهلـــة[١٩١] ، تنيس[١٩٢] ، دمياط[١٩٣] ، منف[١٩٤] ، وسيم[١٩٥] ، الإسكنـــدرية ، أنطـــابلس[١٩٦] ، دلاص[١٩٧] ، أهناس[١٩٨] ، القيس[١٩٩] ، طحا[٢٠٠] ، أسيوط ، قهقا[٢٠١] ، البهنسى ، وقال : البهنسى اثنان هذه المذكورة وبهنسى الواحات[٢٠٢] ، أنصنا[٢٠٣] ، أبنـود[٢٠٤] ، قفـط ، أرمنـت ، أسوان ، القلـزم ، الطـور ، أيلـة[٢٠٥] ، مصيل ، المليدس ، قرطسـا[٢٠٦] ، تَوَسـا[٢٠٧] ، البدقــون[٢٠٨] ، الأوسية[٢٠٩] ، طُوَّة[٢١٠] ، منــوف الســـفلى ، منــوف العليا[٢١١] ، دمسيس[٢١٢] ، برلس[٢١٣] ، البجوم[٢١٤] ، صغيرة[٢١٥] ، البحـيرة[٢١٦] ، سمنـود[٢١٧] ، الحوف الشرقى ، الحوف الغربى ، أسفل الأرض ، بطـن الـريف[٢١٨] ، البشرود[٢١٩] ، نقيزة[٢٢٠] ، أطـرابية[٢٢١] ، فرسـط[٢٢٢] ، الجيزة[٢٢٣] ، البدقـون[٢٢٤] ، الشراك[٢٢٥] ، ترنوط[٢٢٦] ، أشمير[٢٢٧] ، أسيوط ، الأشمون ، بورة[٢٢٨] . وهذا الأشمون موضع ، وأشمون طناح موضع آخر وأشمانان ثالث ، وقال : الأشمون وهما اثنان أشمون بن كرسلة ، وأشمون الغراض[٢٢٩] .

ذكر المسافات المذكورة بين هذه الكور والمشهور من مدنها

منـــف

بين منف ودلاص تسعة فراسخ . مدينة منف وهى التى كان ينزلها فرعون ، اتخذ لها سبعين بابا وجعل حيطان المدينة بالحديد والصفر ، وفيها كانت الأنهار تجرى تحت سريره ، وكانت أربعة أنهار .

وحدث شيخ من آل أبى[٢٣٠] طالب من ولد على (عليه السلام) قال : رأيت بمنف دار فرعون ، ومشيت فى مشاربه[٢٣١] ومجالسه وغرفه وسقائفه ، وإذا ذلك كله حَجَرٌ وَاحِدٌ منقور ، فإن كان أحكموا بناءه[٢٣٢] حتى صار فى الاستواء والإملاس حجرا واحدا ، لا يستبان فيه مجمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فهذا (العجب)[٢٣٣] ، وإن كان جبلا واحداً فنقرت الرجال فيه[٢٣٤] بالمناقر[٢٣٥] حتى طرقت فيه[٢٣٦] تلك المخارق[٢٣٧] ، فإن هذا[٢٣٨] لأعجب ، وليس بمصر كلها جبل .

وقال إبراهيم بن منذر الخولانى[٢٣٩] : خرجت إلى منف فإذا بعثمان بن صالح جالس على باب الكنيسة[٢٤٠] فسلمنا عليه ، فقال لنا : أتدرون ما هذه الكتابة على باب هذه[٢٤١] الكنيسة ؟ قلنا : وما هى ؟ قال : هى : « أنا فلان بن فلان ، تلومونني[٢٤٢] على صغر هذه الكنيسة ، وإنى[٢٤٣] اشتريت الذراع منها بمائة دينار[٢٤٤] . قلنا : إن لهذه قصةً .

● قال[٢٤٥] : ها هنا وكز موسى عليه السلام الرجل[٢٤٦] فقتله .

● ودلاص مجمع سحرة مصر[٢٤٧] . وبين دلاص والفيوم (ثمانية فراسخ)[٢٤٨] ، وبين الفيوم وأهناس[٢٤٩] (خمسة فراسخ)[٢٥٠] . (وبين أهناس والبهنسى[٢٥١] ستة عشر فرسخا[٢٥٢] ، وبين البهنسى والغمر ثلاثة فراسخ[٢٥٣] . وبين الغمر وطحا ثمانية فراسخ)[٢٥٤] ، وبين طحا والأشمون (خمسة عشر فرسخا)[٢٥٥] . وبين الأشمون والقهقا (ثمانية فراسخ)[٢٥٦] . وبين القهقا وإخميم (ثمانية فراسخ) ، وبين اخميم وأبشاية (ثمانية فراسخ)[٢٥٧] ، وبين أبشاية وبورة[٢٥٨] (ثمانية فراسخ)[٢٥٩] ، وبين بورة وبوصير[٢٦٠] (سبعة فراسخ)[٢٦١] ، وبين بوصير وأرمنت (ثمانية فراسخ)[٢٦٢] ، وقال هما بوصيران (بوصير) الصعيد[٢٦٣] وبوصير أسفل الأرض ، وهى بوصير سمنود[٢٦٤] . وبين أرمنت وأشمير سمرا[٢٦٥] (ثمانية فراسخ)[٢٦٦] ، وبين أشمير وأسوان (تسعة فراسخ)[٢٦٧] .

وبين بوصير وسَمَنُّود (ستة فراسخ)[٢٦٨] ، وبين بنا وبوصير (فرسخ)[٢٦٩] ، وبين أبنُوُد وسمنود (فرسخ)[٢٧٠] وبين سمنود ونَوَسا ، (فرسخ)[٢٧١] وبين نَوسا ودميرة (فرسخ)[٢٧٢] ، وبين دميرة ودقهلة[٢٧٣] (عشرة فراسخ)[٢٧٤] ، وبين دقهلة ودمياط (ثمانية فراسخ)[٢٧٥] ، وبينهما تونة[٢٧٦] ودبقوا[٢٧٧] جزيرتان يصنع الديبقى فيهما ، وبين دمياط وجزيرة تنيس اثنا عشر فرسخا[٢٧٨] .

والمسافات التى ذكرناها[٢٧٩] من بوصير إلى تنيس هو الطريق فى عمل مصر مما يلى أسفل (الأرض)[٢٨٠] ، وطريق آخر أيضا فى أسفل الأرض من الفسطاط إلى منوف[٢٨١] العليا (ستة عشر فرسخا)[٢٨٢] ومن منوف العليا إلى السفلى (ستة فراسخ) ومنها[٢٨٣] إلى تيدة[٢٨٤] (ستة فراسخ)[٢٨٥] ، ومن تيدة إلى البشرود[٢٨٦] (ستة فراسخ)[٢٨٧] ، ومن البشرود إلى نقيزة[٢٨٨] (ستة فراسخ)[٢٨٩] ، ومن نقيزة إلى البرلس (ثمانية فراسخ)[٢٩٠] .

وعين ؟ مس بناؤها كلها من الصخر[٢٩١] ، وبيوتها منقورة[٢٩٢] فى الصخر ، كل بيت صخرة واحدة طول عشرين ذراعا وأكثر ، وقد سقف كل بيت[٢٩٣] بصخرة واحدة ، حيطانها فى الإملاس والاعتدال كالمرائى[٢٩٤] ، فيها أساطين[٢٩٥] منحوتة من الصخر عليها تماثيل ونقوش ، وفى صخرة[٢٩٦] من تلك الصخور بحيرة منقورة كالنهر الصغير ، كان يصب فيه[٢٩٧] الشراب لفرعون إذا جلس هناك . وعلى (باب من)[٢٩٨] أبواب تلك القصور تمثال[٢٩٩] امرأة من صخرة يذكرون أنها كانت ماشطة لابنة[٣٠٠] فرعون فمسخت حجرا ، وتلقى قبل أن تصل إلى هذه القصور أزيد من[٣٠١] عشرين منارة منها[٣٠٢] ما طوله مائة ذراع عليها كلها كتابة لا تفهم ولا تفك .

وعين شمس هى[٣٠٣] كانت هيكل الشمس وفيها عجائبها وملاعبها ، وفيها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما ليس لهما أس[٣٠٤] ، وطولهما فى السماء نحو خمسين ذراعا[٣٠٥] ، وعلى رؤوسهما شبه طوقين من[٣٠٦] نحاس فوقهما صورة إنسان على دابة ، فإذا كان آخر الليل جرى من آخر العمود[٣٠٧] من تحت الطوق ماء[٣٠٨] فيرى موضع جريانه[٣٠٩] من العمود أخضر[٣١٠] .

ذكر جبل المقطم وما ورد فيه

وهو متصل بجهل الزمرد . والمقطم ما بين القصير إلى مقطع[٣١١] الحجارة ، وما بعد ذلك

من اليحموم[٣١٢] . وذكر بعض العلماء[٣١٣] أن المقطم من الطور وأنه داخل فيما وقع عليه القدس[٣١٤] ، وكذلك ذكره كعب الأحبار[٣١٥] .

وقال كعب : كلم الله (عز وجل) موسى من الطور ، فالمقطم[٣١٦] من القدس وروى فى التوراة[٣١٧] أن موسى عليه السلام كان يناجى ربه بالوادى الذى فيه المقطم عند مقطع الحجارة[٣١٨] .

وكان فى أعلى جبل[٣١٩] المقطم بناء للأول[٣٢٠] ، ويذكر أنه كان مطبخ فرعون فغير وبنيت[٣٢١] فيه المساجد ، والناس يقصدونها[٣٢٢] ليالى الجمع ويتهجـــدون فيها ويقال : إن ذلك البنيان[٣٢٣] على المقطم كان موقداً[٣٢٤] يوقد فيه إذا ركب[٣٢٥] فرعون من منف إلى عين شمس ، ومن عين شمس[٣٢٦] إلى منف . وكان على القصير موقد[٣٢٧] آخر فإذا رأوا النار علموا بركوبه ، فأعدوا له ما يريد . والله أعلم .

وروى أسد بن موسى قال : شهدت جنازة مع ابن لهيعة بالمقطم فجلسنا حوله ، فقال : إن عيسى عليه السلام تصفح[٣٢٨] هذا الجبل وأمه إلى جانبه فالتفت إليها فقال : يا أمه هذه مقبرة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وبينا عمرو بن العاص يسير فى سفح[٣٢٩] جبل المقطم ومعه المقوقس إذ قال له عمرو : وما لجبلكم[٣٣٠] هذا أقرع (ليس عليه نبات)[٣٣١] ، فلو كنتم شققتم سفحه بنهر من النيل وغرستموه[٣٣٢] .

● فقال له[٣٣٣] المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجاراً ونباتا[٣٣٤] وفاكهة ، وكان المقطم بن مصر بن نيصر[٣٣٥] بن حام بن نوح نزله[٣٣٦] ، فلما كانت الليلة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام (تكليما)[٣٣٧] أوحى (الله)[٣٣٨] إلى الجبال : أنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل ، فسمت الجبال كلها وتشامخت[٣٣٩] إلا جبل بيت المقدس فإنه تضاءل وهبط فأوحى الله تبارك وتعالى (إليه)[٣٤٠] لم فعلت هذا ، وهو أعلم ، قال : إعظاما وإجلالا لك يا رب .

قال : فأمر الله (تعالى) الجبال أن يحبوه[٣٤١] كل جبل[٣٤٢] بما عليه من النبت ، وجادّله[٣٤٣] المقطم بما عليه حتى بقى كما ترى ، فأوحى الله (تبارك وتعالى) إليه[٣٤٤] إنى معاوضك[٣٤٥] على فعلك بشجر الجنة أو غراس الجنة . فكتب[٣٤٦] بذلك عمرو بن العاص إلى عمر رضى الله عنه ، فكتب إليه عمر إنى لا علم بشجر الجنة إلا المسلمين[٣٤٧] فاجعله لهم مقبرة .

وروى أن عمرا[٣٤٨] سأل رهبانهم لم تركتم[٣٤٩] جبل المقطم من غير بنيان ولاغرس ؟[٣٥٠] فأخبروه أنهم[٣٥١] سمعوا مشايخهم عن أوائلهم يقولون: إن هذا فحص سيغرس فيه غروس من أغراس[٣٥٢] الجنة ، فلذلك تركناه من غير عمارة[٣٥٣] ، فكتب بذلك عمرو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه عمر أنا لا نعلم شيئا فى الدنيا من أغراس الجنة إلاّ أجساد المؤمنين[٣٥٤] فأجعل ذلك الفحص لهم مقبرة[٣٥٥] .

وروى ابن لهيعة[٣٥٦] أن كعب الأحبار أرسل فى جراب[٣٥٧] من تربة جبل المقطم ، فلما حضرته الوفاة أمر أن يفرش[٣٥٨] فى لحده تحت جنبه .

● وقيل (إن)[٣٥٩] أول من قبر فيها رجل[٣٦٠] من المعافر يقال له عامر ، فقيل عمرت[٣٦١] .

وقد قيل إنّ أول من قبر فيها عمرو بن العاص ، ولا يصح هذا لأن عمرا[٣٦٢] جعلها مقبرة .

● وتوفى عمرو بعد أن ولى مصر لمعاوية ثلاث سنين ، وتوفى يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين ، وليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها ولا أبهى ولا أعظم ولا أطيب منها تربة[٣٦٣] ، تربتها مثل الكافور .

● وقبر فيها من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم المعلومين عمرو بن العاص . وعبد الله بن حذافة السهمى ، وعبد الله بن الحارث[٣٦٤] بن جزء الزبيدى ، وأبو بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ، ومسلمة بن مخلد الأنصارى .

الفيوم : وقد تقدم ذكرنا لها فى مواضع[٣٦٥] من هذا الكتاب .

سابورصير : وخليج الفيوم (يصير إليه من خليج سابور صير ، وهو الخليج الكبير ، فإذا

وصل إلى نصف الطريق وجد حجرا مصنوعا، وهو حجر اللهون وفى)[٣٦٦] أرض سابورصير نحو ألف[٣٦٧] ضيعة فى بساط واحد (مثل البحر)[٣٦٨] فإذا زاد النيل أحدق بها الماء ، وصارت كل ضيعة منها كالجزيرة ، وصارت مواشيهم محصورة معهم . وفى سابورصير القبور قديمة التى لا يدرى أحد من أى زمان[٣٦٩] هى . فيها أموات صحاح الأجسام عليهم أكفانهم لم يتغير منظرها ، ويجمع من[٣٧٠] هذه القبور المومياء القبورية التى يعدل بها[٣٧١] .

ذكر مدينة إخميم[٣٧٢] :

وهى مدينة مسورة فى[٣٧٣] الضفة الشرقية من النيل فيها أسواق وحمامات ومساجد وهى (مدينة)[٣٧٤] كثيرة المساجد ، وداخل سورها البربا المذكور لم يتغير منه شىء وفيها مسجد جامع جليل .

ذكر مدينة أسيوط :

وهى على الشاطىء الغربى من النيل ، وهى مدينة مسورة ، جميلة النصبة ، كثيرة الخير والفواكه[٣٧٥] ، وفيها أيضا بربا فى[٣٧٦] وسط سوقها وقد تهدم بعضه[٣٧٧] ، وأسيوط أكثر بلاد الصعيد قصب سكر وأطيبه .

ذكر مدينة أنصنا[٣٧٨] :

وأكثرها اليوم خرابا[٣٧٩] ، وهى كانت مدينة السحرة ، (وكان فيها[٣٨٠] أيضا بربا لم يبق منه اليوم إلا بيت واحد كأنه من صخرة واحدة حيطانه وأعلاه . ومارية التى أهداها المقوقس إلى النبى صلى الله عليه وسلم من كورة أنصنا من قرية يقال لها : حَفْن[٣٨١] .

ومدينة (أنصنا)[٣٨٢] لا يقر بها تمساح ، والناس منها آمنون هنالك[٣٨٣] ، وأكثر ما يكون عدوانا من الشاطىء[٣٨٤] الغربى الذى يحاذى أنصنا فى قرية يقال لها الأسمور[٣٨٥] ، لا يقدم[٣٨٦] أحد أن يقرب[٣٨٧] من شاطئها . وإذا كان التمساح فى حذاء[٣٨٨] أنصنا تحول على ظهره مستلقيا حتى يخرج منها ، وكذلك يصنع من[٣٨٩] فسطاط مصر على نحو عشرة أميال حتى يخرج عن حدها بمثل[٣٩٠] ذلك .

ذكر مدينة قوص :

وهى على شرقى النيل بين أسوان وإخميم ، وبينها[٣٩١] وبين أسوان مسيرة ثلاثة أيام . وهى مدينة كبيرة ، وفيها آثار عظيمة للأول ، وبها أسواق وحمامات ومعاصر للسكر[٣٩٢] ، يخدم الدار الواحدة (منها)[٣٩٣] مائة رجل ، ولها ضياع جليلة وبينها وبين أسوان غيران منحوته فى جبال هنالك[٣٩٤] فيها قبور أموات يستخرج[٣٩٥] منها الموميا الطيبة ، وهم يجدونها فى رممهم وبين أكفانهم .

ويقال إن فى تلك الصحراء[٣٩٦] التي بين قوص وأسوان الجبل الذي فيه معدن الزمرد الأخضر ، إلا أن الخوف من البجاة والنوبة وقبائل عرب تلك الصحارى تمنع منه ، مع أن[٣٩٧] غيرانه بعدت وانهالت[٣٩٨] وتهدمت ببعد العمارة وانقطاع الناس .

ذكر مدينة قفط :

وهى مدينة متوسطة المقدار ، بينها وبين النيل ثلاثة أميال ، عليها سور ، ولها جامع وسوق[٣٩٩] ، وبينها وبين مدينة قوص أربعة أميال ، وبها[٤٠٠] بربا ، وبغربيها شعراء كثيفة ليس بها شيء إلا شجر السنط الذى هو حطب مصر . ومن مدينة[٤٠١] قفط إلى مدينة إخميم ثلاثة أيام .

مدينة أسوان :

وهى آخر مدن[٤٠٢] الإسلام وثغرهم من بلاد مصر[٤٠٣] . وهى متصلة ببلاد النوبة (وبين أسوان وهى[٤٠٤] آخر بلاد الإسلام والعريش وهى آخر حد[٤٠٥] مصر حائط العجوز قد حظر أرض مصر كلها)[٤٠٦] .

وبين مدينة أسوان ومدينة صورى[٤٠٧] التى هى أول بلاد النوبة صحراء فيها أعراب يعرفون ببنى جمال وبنى هلال وبنى كنانة وبنى جهينة يؤدون أعشارهم إلى صاحب مصر .

وأسوان فى أول الصحراء إلى ساحل بحر النعم إلى مدينة على ساحل بحر المنعم تسمى

عيذاب(٤٠٨) ، وهى فى(٤٠٩) صحراء تتجول فيها قبائل السودان من البجاة . ومسجد الردينى(٤١٠) آخر عمل أسوان ، وهو رباط أسوان(٤١١) .

الطريق من أسوان إلى عيذاب :

وعيذاب مدينة على ضفة(٤١٢) البحر الغربى ، وهى مرسى الحجاج(٤١٣) ومن سلك إلى اليمن وغيرها . ويسكنها قوم يعرفون ببنى يونس(٤١٤) ، ويقال إنهم من البجاة ، وقال(٤١٥) آخرون إنهم من العرب ،وإنهم فزارية(٤١٦) قوم نفاهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وإلى أسوان من عيذاب طريقان ، طريق تعرف بالوضح وهى ثمانى عشرة مرحلة فى قفر ورمال ليس فيها عمران ، وهى رمال (قليلة الماء)(٤١٧) متهيلة تمور بها الرياح فتعفى الآثار(٤١٨) ، ولا يهتدى فيها لمسلك(٤١٩) ولا سبيل ، وإنما يقتدى فيها(٤٢٠) الجمالون بإبل معروفة يقدمونها فيهتدون بها(٤٢١) .

والطريق الأخرى تعرف بطريق العلاقى(٤٢٢) ، وهى ثمانى عشرة مرحلة أيضا ، وليس فيها عمران إلا مدينة فى وسط الطريق تنسب إلى نهر(٤٢٣) هناك يعرف بالعلاقى ، وهى كثيرة الثمار(٤٢٤) والخير ، ويسكنها أناس كثيرة(٤٢٥) يزعمون أنهم من العرب من (كلب)(٤٢٦) بن وبرة ، وهم على استقامة وحفظ لمن مر بهم ، وأكثر جبال هذه الطريق فيها معادن الذهب والفضة .

ويسكن فى الجبال الممتنعة منها البجاة ، منهم المسلمون(٤٢٧) يتاجرون(٤٢٨) المارة بهم(٤٢٩) ويبايعونهم . وفى هذه الصحراء من أسوان إلى عيذاب إلى رأس الملدم الفيلة والزرافات . وعلى القرب من أسوان جزيرة بلاق ، وهى جزيرة يحيط بها النيل ، بها(٤٣٠) مدينة ومنبر وخلق من المسلمين من بلاد مصر وأسوان ، وهذه الجزيرة بالموضع المعروف بالجنادل .

الطريق من الفسطاط إلى دمياط(٤٣١) إلى جزيرة تنيس :

تسير فى النيل منحدرا حتى تأتى محلة المحروم(٤٣٢) ، وهى ساحل طندثى(٤٣٣) ، وطندثى مدينة كبيرة فيها الحمامات والفنادق الكبيرة(٤٣٤) والأسواق ، وهى غير مسورة ،

وبينها وبين ساحل محلة المحروم[٤٣٥] ثلاثة أميال ، وهى بين خليجين من النيل ، وبينها وبين النيل من ناحية المشرق[٤٣٦] ميلان[٤٣٧] ، وهو الخليج الذى ينزل إلى دمياط ، ومن عبره أتى مليج ، وهى مدينة كبيرة فى أول منبعث هذا[٤٣٨] الخليج . ووراء مدينة مليج[٤٣٩] خليج آخر يذهب (أيضا) إلى (مدينة) دمياط[٤٤٠] .

● وهناك مدينة تسمى تطاى[٤٤١] ، وهى مدينة جليلة[٤٤٢] فيها أسواق كبيرة[٤٤٣] ومسجد جامع .

وتسير من مدينة تطاى مع النيل إلى مدينة « دمسيس » (وهى على شاطىء النيل وبازائها من العدوة الثانية مدينة تسمى شبرا دمسيس)[٤٤٤] ، وهى كبيرة كثيرة الخير والبساتين ، وعلى مقربة منها مدينة قولنجيل[٤٤٥] واسعة ذات أسواق ، ويخرج عندها خليج من النيل يجرى إلى بحيرة تنيس ، ويسمى أول المدخل إلى هذه البحيرة الديجور ، وهى كالبحر عظما .

ومن مليج المذكورة إلى مدينة صهرجت نصف يوم ، وعلى مقربة من صهرجت مدينة بلبيس ، مدينة جليلة[٤٤٦] بين المشرق[٤٤٧] والشمال من مصر ، وبينها وبين مصر[٤٤٨] .

بحيرة الاستوا[٤٤٩] ، ويخرج الماء إليهما من خليج بقرب مدينة رشيد من الضفة الشرقية ، وهى بحيرة ملحة ، وفيها[٤٥٠] مدينة سنجار ، وبهذه[٤٥١] المدينة أكثر السفن[٤٥٢] التى تجرى إلى مصر فى النيل بالأطعمة كل عام ، وبين هذه البحيرة جسر وبين بحيرة أخرى تتصل بالبحر الكبير[٤٥٣] ، وهو جسر من بنيان الأول متقن الصناعة محكم التدبير ، وفى هذا الجسر حفائر وكوى مصنوعة[٤٥٤] يأوى إليها الحوت وإذا أرادوا صيده فتحوا أسدادا هناك[٤٥٥] بين البحرين فيدخل الماء من البحيرة التى تلى البحر الكبير إلى هذه البحيرة الثانية ، فإذا أحس الحوت بدخول الماء تواثب من تلك الكوى فتساقط على الجسر فيأخذون منه ماشاءوا بلا كلفة ويبيعونه بالأموال الكثيرة من أصحاب الدواب بعد إخراجه إلى البر الكبير فيحمل إلى مصر على رتب[٤٥٦] .

وينحدر الخليج الذى يخرج[٤٥٧] من طندثى إلى مدينة تسمى المحلة[٤٥٨] ، وهى مدينة جليلة لها[٤٥٩] مسجد جامع وأسواق (وحمامات)[٤٦٠] ، وهى قاعدة العمال من مصر .

ويسير[٤٦١] منها إلى مدينة تسمى دميرة ، وهى قاعدة كبيرة مجمع للناس ، ولها أسواق عظيمة ، ومنها تسير إلى دمياط ، وخليجها على القرب منها فرقتين ، فتأخذ شعبة منه على شرقيها وشعبة على غربيها ثم يلتقيان فى البحيرة فتصير المدينة على[٤٦٢] جزيرة وهى مدينة مسورة لها خمسة أبواب ، وفيها مساجد كبار ولها حصون تسمى بالمحارس يسكنها الفقهاء والصالحون وبقربها موضع يعرف[٤٦٣] بالصحراء فيه يقصر القصارون ثياب[٤٦٤] الشروب ، وهى تكتفى اليوم[٤٦٥] عند اعتدال هوائهم وموافقته لهم بقصارة اليوم الواحد فيبيض[٤٦٦] .

وهذه البحيرة يسلكها الملاحون ذاهبين إلى تنيس من دمياط[٤٦٧] وراجعين من تنيس إليها بريح واحدة بحكمة فى سفنهم وشرعهم[٤٦٨] تزاحم به الرياح[٤٦٩] .
وجزيرة تنيس فى وسط هذه البحيرة ، وهى بحيرة تعذب[٤٧٠] عند زيادة النيل فتبقى ستة أشهر حلوة ، ثم تملح ستة أشهر أخرى[٤٧١] . قال قوم : إنما[٤٧٢] تعذب بريح الجنوب[٤٧٣] فيطرقون لها عند ذلك إلى مصانع قد اتخذوها ، فإذا هبت الشمال ملحت .

ومدينة تنيس كبيرة لها مسجد (جامع)[٤٧٤] وأسواق ، وأهلها ذوو يسار وثروة وأكثرهم حاكة ، وثيابها الشروب لا يصنع مثلها فى الدنيا ، وصنع بها لصاحب مصر قميص لم يدخل فيها من الغزل سوى لحمة فيها أوقيتان ويروى لم يدخل فيه (من الغزل سدى) ولحمة إلاّ أوقيتان[٤٧٥] ، ونسج فيها[٤٧٦] من الذهب أربع مائة دينار ، قد أحكمه[٤٧٧] الصانع حتى لم يخرج فيه[٤٧٨] إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب والبنائق[٤٧٩] بلغت القيمة فيه ألف دينار وليس بالدنيا طراز كتان[٤٨٠] يبلغ الثوب منه وهو ساذج[٤٨١] دون ذهب مائة دينار[٤٨٢] عينا غير طراز تنيس ودمياط .

وبجزيرة[٤٨٣] تنيس أزيد من عشرة آلاف من النصارى ولهم على شاطىء البحر[٤٨٤] كنائس كثيرة ، وقبور المسلمين بجزيرة تنيس[٤٨٥] بأفنية دورهم لضيق مساكنهم[٤٨٦] ، وهم

يصيدون (الطير من)[٤٨٧] السمانى وغيرها على أبواب دورهم بشباك يمدونها على سككهم ، وقد ذكرنا فى أخبار مصر خبر الأكوام التى بتنيس ، وأن تنيس كانت جزيرة عظيمة[٤٨٨] وكانت كثيرة الجنات[٤٨٩] والمتنزهات والقصور ، فغلب الماء على أكثرها .

وقد زعموا[٤٩٠] أنها كانت مقسومة بين ملكين[٤٩١] من ولد أبرويت بن مصرم[٤٩٢] ، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البر حتى باع من أخيه الكافر حصته من تنيس فزاد فيها غروسا وفجر منها أنهارا وبنى فيها[٤٩٣] مصانع ، واحتاج أخوه إلى ما فى يده فمنعه وسطا بماله وحشمه عليه وحقره لفقره ، فقال له أخوه : وما[٤٩٤] أراك شاكرا لله على ما رزقك ويوشك أن ينتزع[٤٩٥] ذلك منك ويغير نعمه عليك[٤٩٦] .
فأرسل الله على جناته ومصانعه الماء (فأصبحت خاوية على عروشها)[٤٩٧] ، فهما اللذان عنى الله تعالى بقوله فى سورة الكهف .

وتركب السفن من جزيرة تنيس إلى الفرما ، وهى مدينة جليلة كثيرة الخير ، وهى فى الساحل .

ويذكر[٤٩٨] أن هاجر أم إسماعيل (عليه السلام) من قرية من قراها تسمى « أم العرب »[٤٩٩] وهى على مقربة منها . والفرما قديمة البناء ، ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق إلى جزيرة (قبرس فى) البر[٥٠٠] فغلب عليه البحر ، وكان فيما غلب عليه البحر[٥٠١] مقطع الرخام المجزع والأبيض . وقال يحيى بن عمر : كنت أرابط بالفرما وبينها وبين البحر قريب من يوم ، يخرج المرابطون إلى ساحله فيخيمون[٥٠٢] عليه ، ثم غلب البحر على ذلك كله .

والفرما اليوم على البحر ، فصار ما بين الفرما والقلزم هو الحاجز الذى ذكره الله تعالى[٥٠٣] وجعل بين البحرين حاجزا ، وهو بحر الروم وبحر[٥٠٤] الصين ولا يتقاربان[٥٠٥] فى بقعة من الأرض تقاربهما[٥٠٦] فى هذا الموضع ، فإن الذى بين الفرما والقلزم مسيرة ليلة واحدة . وبينهما فى غير هذا الموضع مسيرة الشهور .

ووجه ابن المدبر إلى الفرما ، وكان فى تنيس ، فى هدم أبواب لها[٥٠٧] من حجارة فى

شرقى الحصن احتاج إلى[٥٠٨] أن يعمل منها كلسا ، فمنع من ذلك أهل الفرما ، وخرجوا إلى رسله[٥٠٩] بالسلاح وقالوا : هذه من الأبواب[٥١٠] التى قال الله تعالى فيهـا على لسـان يعقوب : « يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله .. الآية[٥١١] .

ومن عجائب الدنيا نخل الفرما ، فإنـه يثمـر حـين ينقطـع البسر والرطـب من تلك البلاد[٥١٢] يبتدىء هذا بالإرطاب حين تلد النخـل فى الكوانـين[٥١٣] فلا ينقطـع أربعـة أشهر[٥١٤] ، ولا يوجد هذا فى بلد من البلاد سوى الفرما ، ويكون منه ما وزن[٥١٥] البسرة عشرون درهما وطولها فتر

الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية :

تخرج من الفسطاط فتعبر النيل إلى البحيرة ، وهى الضفة الغربية من النيل وبقرب الفسطاط على رأس ميل[٥١٦] منها مدينة تسمى[٥١٧] وسيم . عن بكر بن سوادة عن أبى عطيف عن عبيد بن رفيع[٥١٨] قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا مصرى أين وسيم من قراكم[٥١٩] قال : فقلت : على رأس ميل يا أمير المؤمنين . قال : ليأتينكم أهل الأندلس حتى يقاتلوكم[٥٢٠] بها، فلما قام الوليد بن عابرة[٥٢١] الأندلسى ببرقة ، وحشد الناس وغزا مصر سنة ثلاث وتسعين[٢٢] وثلاث مائة نزل يحاصر مصر بقرية[٥٢٣] وسيم ، وهى على ثلاثة فراسخ من مصر .

ثم يسير[٥٢٤] من الجيزة إلى ذات الكوم[٥٢٥] إلى ترنوط ، ويحدو الجمالون فيقولون : « من ترنوط إلى ذات الساحل[٥٢٦] ، مرحلة أعيت على المراحـل » ، ثم تسـير من ترنـوط إلى تَرُوجة[٥٢٧] ، قال الحكيم تروح[٥٢٨] ، ثم إلى مدينة الإسكندرية .

وطريق آخر[٥٢٩] تركب السفن من الفسطاط إلى محلة المحروم ثم إلى مدينة رشيد . وهى مدينة على كثيب رمل كبير متهيل[٥٣٠] ، إذا هبت الريح الغربية ، وهى تشتد عندهم ، ملأت عليهم منه[٥٣١] بيوتهم ولا يقدرون على التصرف فى أسواقهم . ومن أعجب متنزهات[٥٣٢]

الدنيا ضفتا[٥٣٣] النيل من مصر إلى مدينة رشيد ، ولا غلة لثمار[٥٣٤] الأرض كغلات هذه الناحية .

أخبرنى غير واحد أن ضيعة كانت لرجل بقرية[٥٣٥] منها تعرف بديبة[٥٣٦] ، وهو رجل من أهل مصر يعرف بابن داود يغل رمانها وموزها فى العام خمسة عشر ألف مثقال .

وأشجار رمانهم تطعم من سنتها ، وتزداد نماء وفائدة إلى العام الرابع ثم تذوى وتيبس . وهناك كانت ضيعة الليث بن سعد رحمه الله ، قال قتيبة بن سعد[٥٣٧] : سمعت الليث (ابن سعد)[٥٣٨] يقول : يدخل على فى كل سنة خمسون ألف دينار ما وجبت على زكاة قط[٥٣٩] ، وكان أجود الناس لا يبقى شيئا يزكيه[٥٤٠] .

ويسير[٥٤١] من مدينة رشيد[٥٤٢] إلى مصب النيل فى البحر ، وهو موضع مخوف على السفن لأن أمواج البحر تعظم هناك مع قوة جريان النيل فيثير ذلك أكوام رمال تحت الماء ، فربما حمل (شدة)[٥٤٣] جريان الماء[٥٤٤] السفن إلى تلك الرمال فهلكت ، ثم تسير السفن من هذا الموضع فى البحر مسيرة يوم أو أقل (إلى)[٥٤٥] الإسكندرية .

فأما الطريق من مدينة رشيد إلى الإسكندرية[٥٤٦] على البر تسير منه نحو ثلاثة أميال[٥٤٧] إلى الغرب فى رمال ، ثم تفضى إلى فوهة بحيرة قد دخلت فى البر أميالا كثيرة ، فتخوض[٥٤٨] الدواب الماء فتقطع[٥٤٩] تلك البحيرة نحو نصف ميل بعلامات قد وضعت[٥٥٠] فى البحيرة ، فإذا حادت الدابة[٥٥١] عن تلك العلامات سقطت فى بحر بعيد القَعْرِ فهلكت وهلك ما عليها من المتاع وفسد إلا أن تدورك[٥٥٢] وخلص ، ويسمى ذلك الموضع الأشتوم . فإذا عبروا تلك البحيرة صاروا إلى آجام وغياض وهضاب رمال[٥٥٣] ، فساروا فيها نحو عشرة أميال ويستعمل[٥٥٤] الصيادون فى هذا الموضع من الطير غلات جزلة من لحمها[٥٥٥] وريشها للحشو[٥٥٦] والطير يخرج من البحر إلى مصايدهم .

ثم تسير بعد ذلك نحو[٥٥٧] خمسة أميال إلى باب مدينة الإسكندرية ، (و) بقرب هذا

الباب من خارج سورها[٥٥٨] صور أصنام ، فإذا دخلت الباب فهناك قبة خضراء على ستة عشر[٥٥٩] عمودا من رخام ، ويسرة هذه القبة بساتين كثيرة فيها جميع الفواكه ، وأكثرها الجميز ، ويمنة هذه[٥٦٠] القبة المدينة والبحر .

ومن تروجا[٥٦١] إلى مدينة الإسكندرية خمسة وعشرين[٥٦٢] ميلا .

ذكر مدينة الإسكندرية
(وكورها ومنارها وجملة من عجائبها وأخبارها)[٥٦٣]

وذكروا أن اسمها رقودة[٥٦٤] ، ولها خمس عشرة كورة . قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب[٥٦٥] بعض « لمّه »[٥٦٦] وهى موضع المنارة اليوم[٥٦٧] وما والاها ، « والإسكندرية » وهى موضع قصبة السلطان اليوم بها[٥٦٨] ، « ولقيصة »[٥٦٩] . وكان على كل واحدة منها سور .

وقال عبد الله بن طريف الهمداني : كان على الإسكندرية سبعة حصون وسبعة خنادق[٥٧٠] . وقيل[٥٧١] : إن الإسكندر لما استقام ملكه فى بلاده[٥٧٢] سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء ، فأتى موضع الإسكندرية فأصاب أثر البنيان[٥٧٣] وعمد رخام ، منها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ، وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد[٥٧٤] : « أنا شداد بن عاد شددت بساعدى الواد[٥٧٥] وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد ، وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، أردت أن أبنى[٥٧٦] ها هنا كإرم وأنقل إليها كل ذى قدم من جميع العشائر والأمم ، وذلك ألا[٥٧٧] خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابنى ما[٥٧٨] أعجلنى ، وعما ذهبت إليه قطعنى ، حال طال مع وقوعه[٥٧٩] همى وشجنى وقل نومى وسنى فارتحلت عن هذه الدار لا لقهر جبار ، ولا خوف جيش جرار ، ولكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار ، فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى[٥٨٠] فلا يغتر بالدنيا بعدى » .

وقال ابن لهيعة : بلغنى أنه وجد فى حجر بالإسكندرية مكتوب (فيه)[٥٨١] : « أنا

شداد بن عاد بن شداد »[٥٨٢] وأنا الذى نصب العماد ، وجيد الأجياد[٥٨٣] ، وسد بذراعه الواد ، صنعت ما صنعت إذ لا ميت ولا موت[٥٨٤] ، وإذ الحجارة فى اللين مثل الطين . قال[٥٨٥] ابن لهيعة : الأجياد المعادن[٥٨٦] .

فبعث الإسكندر إلى البلاد فحشد الصناع[٥٨٧] ، واختط الأساس وجعل طولها وعرضها أميالا ، واستجلب العمد والرخام وأنواع المرمر والأحجار فى البحر من جزيرة صقلية وبلاد أفريقية وأقريطش[٥٨٨] ، ووضع على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة ووصل بها حبالا منوطة بعضها ببعض يرجع جميعها[٥٨٩] إلى عمود رخام كان أمام مضربه ، وأقام[٥٩٠] على العمود جرسا عظيما مصوّتا ، وعَلّق على كل قطعة من الحبال جرسا صغيرا[٥٩١] ، فإذا حرك حبل الجرس الكبير الذى عند العمود خَفَق الجرس وتحركت سائر الحبال وخفقت أجراسها[٥٩٢] ، بحركات فلسفية وحيل حكمية ، وأمر الصناع[٥٩٣] أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة إذا آذنتهم تلك الأجراس . وأخذت الإسكندر نَعْسة[٥٩٤] فى حال ارتقابه الوقت المحمود الطالع[٥٩٥] ، فوقع غراب على حبل الجرس الكبير فحرّكه وتحركت الأجراس ، فوضع الأساس وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الإسكندر من رقدته ، وسأل عن الخبر فأعلم ، فعجب[٥٩٦] من ذلك وقال : أردت أمرا وأراد الله خلافه[٥٩٧] ، ويأبى الله إلاّ ما يريد ، أردت طول بقائها ، وأراد الله سرعة فنائها . فلما شُيِّدت أمر أن يكتب على بابها : « هذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفَلاَح والنجاح واليُمن والسرور والثبات على الدهور ، فلم يرد الله تعالى ذلك[٥٩٨] ، فبنيتها على ما أراد ، وأحكمت بنيانها ، وشيدت سورها[٥٩٩] ، وآتانى الله من كل شىء علما وحكما ، وسهل على وجوه الأسباب ، فلم يتعذر[٦٠٠] على فى العالم شىء مما أردته[٦٠١] ، صُنْعا من الله تعالى (لى)[٦٠٢] وصلاحا لعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين » .

ورسم[٦٠٣] بعد هذا كل ما يحدث فيها (بعده)[٦٠٤] فى مستقبل الزمان[٦٠٥] من الخراب والعمران وبنى سورها آزاجا وطبقات (بعضها فوق بعض)[٦٠٦] ، قد عمل لها مخاريق ومتنفسات للضياء ، يسير فيه[٦٠٧] الفارس وبيده رمح[٦٠٨] ، لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج[٦٠٩] ، وكذلك أسواقها وشوارعها وسككها مقنطرة كلها ، لا يصيب أهلها

شيء من المطر . وكانت الإسكندرية تضيء بالليل من غير[٦١٠] مصباح لشدة بياض رخامها[٦١١] ، وربما عُلِّق عليها شقق حمر وخضر من الحرير لاختطاف (بياض الرخام) أبصار الناس[٦١٢] .

وقد كان لها سبعة أسوار من أنواع من الحجارة المختلف[٦١٣] ألوانها ، بينها خنادق ، وبين كل خندق وسور فصيل ، فكان سكان البحر - فيما زعموا - يؤذون بالليل ويختطفون[٦١٤] ، فاتخذ الإسكندر على عمد هناك[٦١٥] تدعى المسال الطلسمات ، وهى باقية إلى هذه الغاية ، كل عمود منها على هيئة السروة[٦١٦] طولها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس ، وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة تدفع وتندفع وتمنع[٦١٧] .

(وقد ذكر[٦١٨] أيضا فى غير هذه القصة وفى غير هذا الكتاب ما كان من دخوله البحر فى التابوت ورسمه[٦١٩] أشخاص تلك الدواب المضرة للبناء وغير ذلك ، فلما صنع أمثالها وجعلها على الأسوار (و) خرجت من البحر[٦٢٠] تلك الصور على حالها ، ظَنَّت أن ذلك يصنع بها إذا خرجت ، وامتنعت عن الخروج ، والله أعلم بكيفية ذلك كله)[٦٢١] .

فأما المنارة فيذهب كثير من الناس إلى أن الإسكندر[٦٢٢] بناها على حسب ما ذكرناه[٦٢٣] فى المدينة ، ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها ، وقال بعضهم : (إن)[٦٢٤] العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها ، وقيل إن الذى بنى مدينة رومة[٦٢٥] هو الذى بناها وبنى الإسكندرية[٦٢٦] والأهرام بمصر ، وإنّما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشدته واستيلائه على ممالك العالم والأمم[٦٢٧] ، وأن الإسكندر لم يطرقه فى البحر[٦٢٨] عدو ولا هاب[٦٢٩] ملكا يرد إليه فيكون يجعل (له) مرقبا[٦٣٠] .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : كان أول ملك الإسكندرية أن[٦٣١] فرعون اتخذها مصانع ومجالس ، وهو أول من عمرها[٦٣٢] ، ثم تداولها الملوك بعد فرعون[٦٣٣] ، (فبنت دلوكة بنت ريان منارها ثم تداولها الملوك)[٦٣٤] فلما كان سليمان (عليه السلام) اتخذها مجلسا وبنى فيها مسجدا . ثم إن ذا القرنين هدم ما كان فيها من بناء الملوك[٦٣٥] إلا بناء سليمان

فإنّه أصلح ما كان رَث فيه ، وأقرّ المنارة على حالها ، وبنى الإسكندرية من أولها[٦٣٦] هذا البناء . ثم تداولها ملوك الروم وغيرهم ، فكل ملك أبقى بها[٦٣٧] أثرا .

ويقال إن فيلبس[٦٣٨] بن الإسكندر المقدونى المعروف بالبناء هو الذى بنى الإسكندرية وكان معه أرسطاطاليس معلمه[٦٣٩] . وبين بناء الإسكندرية وبين[٦٤٠] الهجرة تسع مائة سنة وخمس وأربعين سنة وإحدى وأربعين يوما[٦٤١] . وقد ذكرنا فى أخبار ملوك مصر أن أول من بناها جبرون بأمر حوريا على ما سقناه من أمرهما .

ومنهم من رأى أن قلوبطرة هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته فى الإسكندرية[٦٤٢] ، وهى التى بلطت قاعه ، وأن الذى بنى المنارة جعلها على كرسى من زجاج على هيئة[٦٤٣] السرطان فى جوف البحر ، وعلى[٦٤٤] طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر ، وجعل طولها فى الهواء ألف ذراع ، وجعل فيها المرآة وتماثيل النحاس[٦٤٥] ، فمنها تمثال[٦٤٦] قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس حيثما كانت من أفق أو مغرب أو مشرق[٦٤٧] . وتمثال يشير بيده إذا صار العدو فى البحر على نحو ليلة[٦٤٨] فإذا دنا وأمكن أن يُرى بالبصر سمع له صوت هائل على ميلين أو ثلاثة . وتمثال كلما مضى من الليل[٦٤٩] والنهار ساعة سمع له صوت هائل[٦٥٠] مطرب بخلاف الصوت الذى كان منه فى الساعة قبل .

وهذه المنارة من دخلها تاه فيها ، إلاّ أن يكون عالما بها ، لكثرة بيوتها وحجراتها (وطبقاتها)[٦٥١] . وذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم المنارة[٦٥٢] ، فتاهوا[٦٥٣] فيها . وفيها طرق تولى[٦٥٤] إلى مَهَاو وإلى السرطان المزجج[٦٥٥] ومخاريق إلى البحر فتهوروا[٦٥٦] بدوابهم (إلى البحر)[٦٥٧] وفقد منهم عدد كثير . وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط[٦٥٨] فيه المطوعة ، وكان حول المنارة مغاوص يستخرج منها[٦٥٩] أنواع جوهر يتخذ منه فصوص الخواتم منها[٦٦٠] الأسباد جشم[٦٦١] والكركهن[٦٦٢] والباقلمون[٦٦٣] ، وهذا الباقلمون حجر يتلون فى المنظر ألوانا مختلفة كريش الطواويس[٦٦٤] الهندية ، فإنها[٦٦٥] تتلون ألوانا لا تحصى ولا يشبهه شىء من الألوان[٦٦٦] ، لما يترادف منها من تموج[٦٦٧] الألوان فى ريشها ، ولتلك

الطواويس ريش[٦٦٨] عجيب وخلق عظيم وما خرج منها عن أرض الهند صغر جسمه وكَدُر لونه كما يفعل ما نقل منها[٦٦٩] من النارنج والأترج ، فإنها تصغر وتعدم منها تلك الأرواح[٦٧٠] العطرة لعدم ذلك الهواء والتربة . فمن الناس من رأى أن الإسكندر غَرَّق هذه الأنواع من الجواهر حول المنارة لكى لا تخلو من الناس لأن من شأن الجواهر أن تكون مطلوبة على الأعصار ، وقيل إنها كانت آلات شراب[٦٧١] الإسكندر ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع .

وقد كان ملك الروم فى خلافة الوليد (بن عبد الملك)[٦٧٢] أنفذ خادما من خواص خدمه ذا دهاء ورأى وواطأه[٦٧٣] ، على ما نذكره ، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور ، فحمل إلى الوليد على ما أمر[٦٧٤] ، فأعلمه أنه كان من خواص الملك وأنه أراد قتله لموجدة لم يكن لها أصل ، وأنه رغب فى الإسلام فأسلم ، وأظهر النصح للوليد فى دفائن استخرجها[٦٧٥] من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت له[٦٧٦] ، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه واستمكن طمعه وباحثه عما كان[٦٧٧] عنده من علم هذا ، فقال له : إن الإسكندر الأكبر[٦٧٨] (لما)[٦٧٩] استولى على الأموال والجواهر[٦٨٠] التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب وغيرهم . فنزلها[٦٨١] الآزاج والسرادب والأقباء[٦٨٢] وأودعها تلك الذخائر من الأموال والجواهر ، ثم صنع[٦٨٣] فوق ذلك المنارة ، فبعث معه الوليد بناس[٦٨٤] من خواصه وثقاته فهدم نصف المنارة ، وأزيلت المرآة ، فضج الناس من أهل الإسكندرية وغيرها وعلموا أنها مكيدة وحيلة . فلما استفاض ذلك هرب النصرانى فى الليل فى مركب كان (قد) أعد له[٦٨٥] ، فبقيت المنارة على ما ذكرنا إلى اليوم[٦٨٦] .

صفة المنار اليوم وارتفاعه[٦٨٧] :

بنيان الحزام الأول من[٦٨٨] المنارة بالحجارة المربعة التى قد أخفى إلصاقها حتى صارت كالحجر الواحد لم يغير الزمان من ذلك شيئا ، وارتفاع هذا المربع ثلاث مائة ذراع وعشرون ذراعا بالذراع المعروفة ، ثم ترك فى أعلاه غلظ حائط[٦٨٩] البناء ، وهو ثمانية أشبار ونحو عشرة أذرع سوى ذلك الغلظ ، ورفع على ما بقى من البناء[٦٩٠] بناء مثمن الشكل طوله ثمانون ذراعا ، ثم بنى على هذا البناء المثمن بعد أن ترك غلظ حائطه وهو أقل من غلظ

الأسفل وثمانى[٦٩١] أذرع سوى ذلك الغلظ عليه - بناء مربع ارتفاعه خمسون ذراعا أو نحوها[٦٩٢] ، وفى أعلى ذلك مسجد محكم البناء .

وفى الناحية الشمالية من البناء المثمن كتابة (بالنحاس)[٦٩٣] لم يفكها أحد ، وباب المنار من حديد يرقى إليه فى علو ، ويصعد من أسفلها إلى أعلى بنائها[٦٩٤] الأول فارسان متواكبان[٦٩٥] فى أرض سهلة ، لا يكاد يعلم الرَّاقى هل هو راق أو ماش[٦٩٦] (فى سواء من الأرض)[٦٩٧] وفى كل عطف من هذا المصعد باب دار داخلها بيوت مربعة[٦٩٨] سعة[٦٩٩] كل بيت من عشرين ذراعا إلى عشرة أذرع ، وقد فتح لها مضاو ومتنفسات للهواء وعدد[٧٠٠] ما فيها من البيوت ثلاث مائة بيت وستة وستون بيتا[٧٠١] ، وعطف مطالعها من أسفلها إلى أعلاها اثنان وسبعون عطفا ، فى كل عطف اثنتا عشرة درجة[٧٠٢] ، وبيوتها كلها أزاج معقودة (وبناء المنارة كلها معقد)[٧٠٣] بخشب الساج ، وعدة أبوابها الظاهرة من خارجها اثنان وعشرون بابا فتحت فيها لئلا تهدمها الرياح .

والبحر قد أثر[٧٠٤] فى أسفل المنارة من غربيها حتى صار تحتها كالكهف العظيم ، فسد[٧٠٥] بعض الأمراء ذلك الثلم بأساطين الرُّخام بعضها فوق بعض ، فالبحر يضرب اليوم فى تلك الأساطين .

وفى الشمال من المنارة بناء عظيم عريض واسع[٧٠٦] ، قد رفع من قعر البحر حتى ظهر على الماء يدل أنه كان عليه مصانع قد ذهبت . ويسمى ذلك البنيان « الفاروس » ، وفى أسفله ترفا السفن[٧٠٧] لأن ذلك البناء يكف عنها الموج . وقد زعم قوم أن ذلك الظاهر ليس ببناء إنَّما هو مما هدم وتهدم من حجارة المنارة ، والله أعلم بذلك .

وتسير من الإسكندرية إلى المنارة ، فتخرج على باب الأشتوم وتسير على ضفة البحر نحو نصف ميل ، ثم تميل نحو الشمال فتسير نحو ذلك ثم تسير فى البحر[٧٠٨] على بناء كالقناطير ولها منافس ، والبحر يضرب من[٧٠٩] جانبيه ، نحو أربع مائة خطوة ، فإذا خرجت من ذلك البناء سرت[٧١٠] فى قضاة داخلة فى البحر كأنها جزيرة ، والمنارة فى أعلى هضبة منها ، وقد أحاط البحر بالمنارة فى ناحية[٧١١] الجنوب والشمال والغرب .

ولهذه[٧١٢] المنارة مجمع فى العام فى يوم يسمونه « بخميس العدس » ، وهو أول خميس من

شهر مايه[٧١٣] ، لا يتخلف فى مدينة الإسكندرية كبير ولا صغير[٧١٤] إلاّ خرج إلى المنارة ، وقد تقدموا فى إعداد الأطعمة ، ولابد فى ذلك الطعام من عدس ، ويفتح[٧١٥] بابها للناس يسيرون[٧١٦] فيها ، فمن ذاكر الله عز وجل ومُصَلّ (ومن) لاهٍ ومتفرج[٧١٧] ، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون .

وسمع الليث بن سعد مسلمة بن عدى[٧١٨] يقول : بارك فى العدس[٧١٩] سبعون نبيا ، فقال (الليث)[٧٢٠] : إلا نبى واحد ، وإنَّه لردىء مؤذٍ .

ومن هذا اليوم يبتدأ[٧٢١] باحتراس البحر ، وهم[٧٢٢] قوم مرتبون لذلك من النصارى فهم يوقدون النار الليل كله فى أعلى الحزام الأول من ناحية البحر ، فيؤم[٧٢٣] أهل السفن من جميع البلاد لسمت تلك النار[٧٢٤] ، ويوقد صاحب السفينة النار[٧٢٥] ، فإذا رأى المحترس نارا فى البحر زاد[٧٢٦] فى وقوده وأوقد نارا أخرى إلى ناحية المدينة ، فإذا رأى[٧٢٧] ذلك الذين بالمدينة زادوا فى ضرب البوقات والأجراس حذر العدو[٧٢٨] ، فاستعد أهل المدينة لذلك .

قال : والقصر الأعظم بالإسكندرية اليوم[٧٢٩] خراب ، وهو على ربوة عظيمة بإزاء باب الإسكندرية[٧٣٠] طوله خمس مائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك أو نحوه ، ولم يبق منه إلا سواريه فإنّها قائمة لم يسقط منها شيء وبابه وهو من أحكم[٧٣١] بناء واتقنه ، كل عضادة منه[٧٣٢] حجر واحد واسكُفته حجر واحد[٧٣٣] ، وعدد أساطين القصر[٧٣٤] أزيد من مائة إسطوانة ، غلظ كل إسطوانة نحو[٧٣٥] عشرة أشبار ، وفى ناحية الشمال منه إسطوانة عظيمة غلظها ستة وثلاثون شبرا ، وهى من الارتفاع بحيث لا يدرك أعلاها قاذف بحجر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل أن بناءً كان[٧٣٦] عليها وقاعدته[٧٣٧] حجر أحمر مربع (محكم)[٧٣٨] ، عرض كل ضلع من أضلاعه اثنان وعشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار ، والإسطوانة منزلة[٧٣٩] فى عمود قد خرقت به[٧٤٠] الأرض ، فإذا اشتدت الرياح جعل[٧٤١] تحت الإسطوانة الحجارة فتطحنها[٧٤٢] لشدة حركتها .

وبمدينة الإسكندرية كان الهيكل الأعظم الذى اجتمع فيه الثلاث مائة أسقف* والثمانية عشر أسقفا[٧٤٣] ، فأسسوا[٧٤٤] القول بالتثليث وكفروا من خالفهم[٧٤٥] وذلك فى زمن بولش قيصر[٧٤٦] .

وقال حمزة بن محمد المصرى أن بعض ولاة مصر دَخَل الإسكندرية فنظر إلى قصر عظيم من بناء الأول[٧٤٧] ، فدعا الصناع وسألهم أن يبنوا له مثله ، فقام إليه شيخ منهم فقال[٧٤٨] : أنا أبنى لك مثله إنْ أرحت علتى[٧٤٩] ، فقال : سل . قال ائتنى بثورين مطيقين وعجلة فأمر له بذلك ، فدخل مقابر الإسكندرية واحتفر فى قبورها[٧٥٠] واستخرج جمجمة عظيمة فوضعها فى العجلة فما جرها الثوران إلا بعد جهد ، فجاءه بها ، فقال : أصلح الله الأمير إنْ اعطيتنى مَنْ تكون رؤوسهم مثل هذا الرأس بنيت لك مثل هذا القصر ، فعلم أنه لا حيلة له (فيه)[٧٥١] .

وقال حمزة بن محمد الأنصارى[٧٥٢] المصرى : رأيت[٧٥٣] بالإسكندرية عند قصاب ضرسَ إنسان يزن[٧٥٤] به اللحم زنته ثمانية أرطال .

والإسكندرية كلها دفائن وكنوز ، فإذا أمطرت[٧٥٥] مطرا شديدا وسال ترابها من الماء خرج الرجال والنساء والصبيان من المدينة يلتمسون حواليها ، فيجدون قطع الذهب والفضة من الحلى[٧٥٦] وغيره والدر[٧٥٧] والياقوت والزمرد ، وليس يرجع أحد منهم بغير شىء .

وإذا زاد النيل فى أيام زيادته دخل فى الخليج الذى صنع لذلك حتى يصل إلى الإسكندرية ، فإذا وصل إلى أعلى المدينة ، لهم هناك آبار مصنوعة ومواجل[٧٥٨] يستقون منها بالسوانى[٧٥٩]من ماء النيل ، ويصبون فيها ويجرى الماء منها فى قنى قد أحكمت إلى آبار (فى دور المدينة من عمل الأول وذلك أكثر من ثلاثة أميال وليس بمدينة الإسكندرية دار إلا وفيها بئر وما جل ، فإذا وصل الماء إلى الآبار)[٧٦٠] استقى[٧٦١] أهل الآبار وصبوا فى المواجل فيشربون منه باقى عامهم .

وكان بالإسكندرية دار ملعب قد بنيت بضروب[٧٦٢] من الحكمة ، لا يرى أحد فيها شىء[٧٦٣] دون صاحبه ، ووجه كل جالس[٧٦٤] فيها تلقاء وجه صاحبه إن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ارتقب سماعه[٧٦٥] ، ونظر إليه جميعهم سماعا ونظرا متساويين[٧٦٦] قريبهم وبعيدهم ، وكانوا يترامون فيها بالكرة ، فإذا وقعت فى كم أحدهم[٧٦٧] فلابد له من ولاية مصر ، كان هذا عندهم[٧٦٨] معروفا لا يشكون فيه . وكان عمرو بن العاص سافر إلى الإسكندرية قبل الإسلام تاجرا بالقطن والأدم ، فحضر ذلك الملعب ، فلعبوا بالكرة

فدخلت[٧٦٩] فى كمه ثلاث مرات ، فقالوا : كذبتنا هذه الكرة هذه المرة[٧٧٠] . فأتى الله عز وجل بالإسلام وفتحت مصر ووليها عمرو ثلاث مرات .

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم[٧٧١] : لما غزا عمرو بن العاص الإسكندرية من مصر فلم يقدر عليها ، وذلك بعد تسعة أشهر من موت هرقل ، غمه ذلك ، فاستلقى على ظهرة مطرقا ، ثم جلس فقال : إنى فكرت فى هذا الأمر ، فإذا هو لا يصلح آخره إلا ما أصلح[٧٧٢] أوله ، يريد الأنصار ، فدعا عبادة بن الصامت فعقد له على حربها ، ففتحها[٧٧٣] الله على يديه وفتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن بصلح ولا بأمر[٧٧٤] .

ولم يكن بالإسكندرية خطط وإنما كانت أخائذَ من أخذَ منزلا[٧٧٥] نزل فيه هو وبنو أبيه . ونزل عمرو بن العاص القصرَ الذى صار لعبد الله بن (أبى) سرح[٧٧٦] ويقال إن عمراً وهبه له لما وليها . قال يزيد بن أبى حبيب : وكان المسلمون ينزلونها فى رباطهم فإذا أقفلوا[٧٧٧] ابتدر الواردون منازلها ، فمن ركز رمحه فى دار كانت له . فينزل[٧٧٨] الدارَ القبيلتان والثلاث فكان يزيد بن أبى حبيب[٧٧٩] يقول[٧٨٠] لا يحل من كرائها شىء ولا بيعها[٧٨١] ولا يورث منها شىء إنما كانت للمسلمين يسكنونها فى رباطهم .

وقال عوف[٧٨٢] بن مالك لأهل الإسكندرية : يا أهل الإسكندرية ما أحسن مدينتكم ! فقالوا : إنّ الإسكندر حين بناها قال[٧٨٣] : إنى أبنى مدينةً إلى الله فقيرة وعن الناس غنية ، فبقيت بهجتها . وأن الفرما - وهو أخو الإسكندر - بنى الفرما ، وقال[٧٨٤] : إنى أبنى مدينة عن الله غنية ، وإلى الناس فقيرة[٧٨٥] ، فذهبت بهجتها ، ولا تزال[٧٨٦] يتهدم منها كل يوم شىء لا ينجبر ، وبقيت الإسكندرية بجدتها .

وروى بعض المصريين أن عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) لما دخل الإسكندرية وهو إذ ذاك أمير مصر قال لعاملها لما رأى آثارها وعجائبها : أخبرنى كم كان عدد أهل[٧٨٧] الإسكندرية فى أيام الروم؟. فقال: واللهِ أيها الأمير ما أدرك عِلْمَ هذا أحد، ولكن[٧٨٨]أخبرك كم كان بها[٧٨٩]من الملوك، فإنّ ملك الروم أمر بإحصائهم فوجدهم ست مائة ألف[٧٩٠]. قال : فما هذا الخراب الذى أرى[٧٩١] بأطرافها ؟ قال : بلغنى عن بعض ملوك فارس حين

ملكوا مصر أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم بمصر[٧٩٢] لعمران الإسكندرية ، فأتاه كبراء أهلها فقالوا : أيها الملك لا تتعب نفسك فى هذا[٧٩٣] ، فإن ذا القرنين أقام على بنائها مدة وانتهت[٧٩٤] عمارتها وتمت بعد ثلاث مائة سنة ، وأنه أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون إلا بخرق سود فى أيديهم خوفا على أبصارهم من شدة بياضها .

وذكر[٧٩٥] الليث بن سعد[٧٩٦] عن زهرة بن معبد قال : قال لى عمر بن عبد العزيز[٧٩٧] : أين تسكن من مصر ؟ قلت : أسكن الفسطاط . قال : أف لك[٧٩٨] فأين أنت عن الطيبة ؟ . قال : قلت وأيتهن الطيبة ؟ . قال : الإسكندرية ، عزمت عليك لتسكنها أبا عقيل . ثم قال : ما على الأرض بلدة أحب إلىّ أن يكون قبرى فيها إلا[٧٩٩] الإسكندرية .

قال الليث : ثم عدنا أبا عقيل وهو شديد الوجع ونحن خائفون عليه غداة يوم ، فقال : رأيت البارحة[٨٠٠] عمر بن عبد العزيز فى النوم[٨٠١] فقال لى[٨٠٢] أين تسكن أبا عقيل ؟ قلت : الإسكندرية التى[٨٠٣] عزمت على فى سكناها[٨٠٤] ، قال : أبشر فى ذلك بما يسرك فى دنياك وأخراك مرتين . قلنا[٨٠٥] له : الحمد لله .

وقال أحمد بن صالح :[٨٠٦] قال سفيان بن عيينة : الإسكندرية كنانة الله ، فجعل فيها خير سهامه[٨٠٧] .

وقال عبد الله بن مورق[٨٠٨] الصدفى : لما نعى إلىّ ابن عمى[٨٠٩] خالد بن يزيد وكان توفى بالإسكندرية لقينى عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ، مفترقين ، كلاهما قال لى : أليس قد[٨١٠] مات بالإسكندرية فأقول بلى . فيقول هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت[٨١١] الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن إرم ذات العماد[٨١٢] هى الإسكندرية . وقال الناظرون فى الأعمار[٨١٣] والأهوية والبلدان وتراب[٨١٤] الأقاليم والأمصار لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بترنوط[٨١٥] من قرى الإسكندرية ووادى فرغانة ، وترنوط[٨١٦] (قرية)[٨١٧] بقرب مدينة الإسكندرية قرية كبيرة ، لها بساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكهه إلى الإسكندرية ولوزها رقيق القشر يحت باليد .

وقد ظافر[٨١٨] من بقى بالإسكندرية بعد فتحها من الروم منويل الخصى وعادوا حربا على المسلمين . قال الليث بن سعد : قال يزيد بن أبى حبيب : جاءت الروم وعليهم[٨١٩] منويل الخصى فى المراكب حتى أرسو بالإسكندرية فأجابهم من شاء من الروم[٨٢٠] . وقد كان عثمان (رضى الله عنه) عزل عمرو بن العاص عن مصر[٨٢١] وولى ابن أبى سرح[٨٢٢] ، فسأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ففعل . وكان على الإسكندرية سور لا يعدل به فى الحصانة والإتقان (والمنع)[٨٢٣] ، فنذر عمرو لئن[٨٢٤] أظهره الله عليهم ليهـــدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية[٨٢٥] يؤتى من كل مكان . فجيش لهم[٨٢٦] عمرو فى البر والبحر ، قال الليث : وكان معه المقوقس فيمن أطاعه من القبط ، فأما الروم فلم يطعه منهم أحد[٨٢٧] فقال خارجة بن حذافة لعمرو : ناهضهم قبل أن يكثر عددهم ، ولا آمن أن تنتقض مصر كلها[٨٢٨] فقال عمرو : لا ولكن أدعهم حتى يشـدوا إلى[٨٢٩] فيصيبوا من مروا به (من الروم)[٨٣٠] ليخزى الله بعضهـم بعضـا[٨٣١] ، فخرجـوا من الإسكندرية فجعلوا ينتهبون[٨٣٢] ما مروا به ، فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا أنفيوس[٨٣٣] فلقوهم فى البر والبحر ، فرمت الروم بالنشاب رميا عظيما[٨٣٤] حتى أصابت يومئذ لبة فرس عمرو فعقر واستأخر[٨٣٥] المسلمون عنهم فحملوا[٨٣٦] حملة ولى المسلمـون منهـا وانهـزم يومئذ[٨٣٧] شريك بن سُمَىّ[٨٣٨] فى خيله[٨٣٩] ، ثم نصر الله (عز وجل) المسلمين ، وهزموا الروم وقتلوهم[٨٤٠] قتلا ذريعا إلى أن أمر عمرو (بن العاص)[٨٤١] برفع السيف فى الموضع الذى يسمى بمسجد الرحمة ، وإنما سمى بهذا الاسم لرفع عمرو السيف هناك . وهدم سورها كله ، وذلك سنة خمس وعشرين ، وأقام عمرو بعد فتحها شهرا ثم عزل ، وقد كان عثمان رضى الله عنه أراد أن يكون عمرو[٨٤٢] على الحرب وعبد الله بن أبى سرح[٨٤٣] على الخراج فأبى عمرو[٨٤٤] وقال : أكون كما سك البقرة (بقرنيها)[٨٤٥] وغيره يحلبها .

ooo

الحواشى

(1) Quatremere: Notice d'un manuscrit Arabe de la Bibioteque du Roi Contenant la discription de L'Afriqur, Paris, 1831, P.q.

سعد زغلول عبد الحميد : « ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين ٦ ، ٧ للهجرة » ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد الثامن (١٩٥٤) ، ص ٩٧ .

عبد الله الغنيم : المخطوطات الجغرافية العربية فى المتحف البريطانى ، الكويت (١٩٧٤) ص ٣٩ .

(٢) فى الأصل « ترعة بلقينية وخليج روداس وخليج الساحل » .

(٣) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى (١ / ١٨٥ - ١٨٦) أيضا : عبد الله الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، ص ١١٠ .

(٤) عبد الرحمن زكى « عواصم مصر الإسلامية » من كتاب « فى مصر الإسلامية » ، ص ١٠١ ، مطبعة المقتطف والمقطم ، مصر ١٩٣٧ .

(٥) يمكن الرجوع فى هذا الموضوع إلى :

(أ) Ball, J., Egypt in the Classical Geographers, PP. 177-178, Cairo, 1942.

(ب) محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ ، القسم الأول ، ص ص ٢٨ - ٣٩ .

(جـ) أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية فى مصر العليا منذ العهد العربى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٣ .

(د) عبد العال الشامى : مدن الدلتا فى العصر العربى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٧٧ ، ص ص ٢٦٦ - ٢٧٥ .

(٦) انظر تفصيل ذلك عند محمد رمزى فى قاموسه ، المرجع السابق .

(٧) أبو الفداء إسماعيل بن محمد ، تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ص ١٠٥ .

(٨) انظر : ابن خرداذبة : ص ٨٤ والمقدسى ٢١٤ والإدريسى : أنس المهج وروض الفرج (مخطوط اسطنبول) ص ٣٣ .

(٩) انظر عن تلك المخطوطات دراسة الكاتب لها فى كتاب « مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى » ص ٥٨ وما بعدها و ١٦٧ وما بعدها .

(١٠) وهى رقم (١٣) من مجموعة جاينجوس ، التى منعت إدارة المكتبة تصويرها ، وقد نقلت عنها بمساعدة صديقى الأستاذ يوسف الحشاش الجزء المتعلق بالجزيرة العربية وبعض الأجزاء التى لا توجد فى المخطوطات الأخرى ، وانظر وصف هذه النسخة فى المرجع السابق ٦٢ .

(١١) ابن عبد الحكم مؤرخ ومحدث وفقيه من أهل مصر ، توفى سنة ٢٥٧ هـ وسِنُّه حينذاك نحو سبعين سنة . وقد نقل البكرى من كتابه « فتوح مصر وأخبارها معظم الجزء الخاص بفتح مصر وخططها » ، والنص التالى مع بعض الاختلاف فى ص ٥٦ من الكتاب المذكور . ولن نتعرض لكل الاختلافات عن النص نظرا لكثرتها ، ولكن سنورد المهم منها فقط . ويلاحظ أن البكرى ينتقى من النص ويحذف الإسناد . ومثال ذلك فى التعليق التالى .

(١٢) بعد كلمة «عَكّ» يقول ابن عبد الحكم (ص ٥٦) : « ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة . حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص دخل مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة . حدثنا عبد الملك بن مَسْلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب مثله إلا أنه قال ثلثهم من غافق » .

(١٣) فى (ب) و (ط) « مستخير لله » .

(١٤) العبارة فى (ب) و (ط) : « فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها فانصرف فإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصر به » ، وعبارة ابن عبد الحكم قريبة منها .

(١٥) فى الأصل « فصار » . وأثبت ما ورد فى (ب) و (ط) وفتوح مصر .

(١٦) فى الأصل « واحد » . وأثبت ما ورد فى (ب) و (ط) . وفى فتوح مصر « أحد من الناس » .

(١٧) فى (ب) و (ط) : « فكتب إلى عمرو » ، وفى فتوح مصر « فكتب إلى عمرو بن العاص » .

(١٨) فى (ب) و (ط) : « إن قرأ » وفى فتوح مصر : « إن هو أخذ الكتاب وفتحه » .

(١٩) فى (ب) و (ط) : « أن يكون يأمره فيه بالانصراف كما عهد إليه » . وفى الفتوح « أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر » .

(٢٠) ما بين قوسين سقط من الأصل ، وهو فى (ب) و (ط) وفى الفتوح .

(٢١) زيادة من (ط) .

(٢٢) فى (ط) : « وتوجه » .

(٢٣) فى (ب) و (ط) « وكان » .

(٢٤) فى (ب) و (ط) « وقال جماعة » و « من » سقطت من الأصل وهى فى النسختين .

(٢٥) فى جميع النسخ « أبو ميامين » . والصواب هو ما أثبت . وأبو بنيامين هو كبير أساقفة القبط بالإسكندرية ، خلف بعد المطران مودستوس .

وكان أول سنى ولايته تحت حكم الفرس وبعد أن تولى الرومان الحكم هرب إلى الإسكندرية ولم يعد إلا بعد أن كتب له عمرو بن العاص بالأمان .

(٢٦) فى (ب) : « قاتله » .

(٢٧) فى الأصل « كانوا لعمر أعوانا » والتصويب من (ط) . وفى (ب) « كانوا أعوانا لعمرو » .

(٢٨) فى (ب) و (ط) « فسار » .

(٢٩) فى (ط) « موترة » بالراء .

(٣٠) وردت هذه العبارة فى فتوح مصر فى روايتين الأولى ص ٥٩ وتقول : « وكانت الروم قد خندقوا خندقا وجعلوا له أبوابا وبثوا فى أفنيتها حَسَك الحديد » والرواية الثانية ص ٦١ وهى تطابق ما جاء عند البكرى .

(٣١) فى الأصل « اثنا » وفى (ط) : « اثنتى » .

(٣٢) زيادة من (ب) و (ط) .

(٣٣) العبارة فى (ب) : « وقالت : أنا وهذا من نايله وهم وإنما عبر به » والكلمة الأخيرة غير منقوطة . وفى (ط) « قال المؤلف رحمه الله ... عَتَّرية » . والكلمة الأخيرة فى الأصل « عنزية » وهو تصحيف .

(٣٤) فى (ط) « للمسلمين » .

(٣٥) فى الأصل « وعاد » وقد أثبت ما جاء فى النسختين وهو يطابق ما جاء فى الفتوح ص ٦٣ .

(٣٦) فى (ب) « واقتحم » . وفى الفتوح (ص ٦٣) : « واقتحم المسلمون الحصن » .

(٣٧) « ومن معه » زيادة من (ب) و (ط) .

(٣٨) فى (ب) « إلى » .

(٣٩) فى (ب) : « الصاغة » وهو تصحيف .

(٤٠) العبارة السابقة فى فتوح مصر (ص ٦٤) : « وخرجوا من باب القصر القبلى ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب ، فلحقوا بالجزيرة - موضع دار الصناعة اليوم - وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جَرْى النيل » .

(٤١) فى (ب) و (ط) : « إنّكم دخلتم فى بلادنا وطال مقامكم بأرضنا » . وفى الفتوح (ص ٦٥) : « إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا .. » .

(٤٢) فى الأصل « إليهم » وهو تصحيف وأثبت ما جاء فى النسختين وفتوح مصر .

(٤٣) فى الأصل « تحبوه » وقد أثبت ما جاء فى النسختين وكتاب الفتوح .

(٤٤) فى الأصل « يغشاكم » وأثبت ما جاء فى النسختين وفتوح مصر .

(٤٥) فى (ط) · « أحب إليهم » . وفى الفتوح « إليه » .

(٤٦) فى فتوح مصر (ص ٦٥) « لأزالوها » .

(٤٧) فى الأصل « مثالى » وأثبت ما جاء فى النسختين وفتوح مصر .

(٤٨) زيادة من (ب) و (ط) .

(٤٩) « الصامت » ناقصة من (ب) و (ط) .

(٥٠) فى الأصل « وحلها » وقد أثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ٦٦) .

(٥١) فى النسختين « فازداد » .

(٥٢) فى (ب) : « لقد هبت هذا الرجل » إنه عندى لأهيب » .

(٥٣) فى النسختين « كل رجل » .

* الصحيح أن يقال : ثلاث الخصال ؛ لأن أل تدخل فى تعريف العدد إذا كان مركبًا إضافيا ، على المضاف إليه ، ويجوز عند بعض النحاة أن يقال الثلاث الخصال ، بإدخال أل على المضاف والمضاف إليه .

(٥٤) فى النسختين « ما ترون » .

(٥٥) فى النسختين والفتوح (ص ٦٨) : « مالا يكون » .

(٥٦) فى النسختين والفتوح (ص ٦٨) : « فالموت أيسر من ذلك » .

(٥٧) ما بين قوسين زيادة من (ب) و (ط) .

(٥٨) فى (ب) « دينارين دينارين » .

(٥٩) ما بين قوسين زيادة من (ط) . وفى فتوح مصر (ص ٧٠) « اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » .

(٦٠) فى الأصل « ثم كانت ممن استقر هناك من النصارى . وساكنهم من النوبة ثلاثين ألف ألف » وقد أثبت ما جاء فى النسختين .

(٦١) « بن العاص » سقطت من النسختين .

(٦٢) العبارة فى النسختين « فبعث إليه فقال : ما عندى مال . فسجنه » وأول الرواية فى فتوح مصر (ص ٨٧) « أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر أن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته ، وأن نبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه فى السجن .. » .

(٦٣) فى (ب) : « عليه » . وقد امحت الأسطر التالية لكلمة « يدخل » فى نسخة (ط) حتى قوله « واختلط المسلمون » .

(٦٤) فى (ب) « أمناء » .

(٦٥) فى فتوح مصر (ص ٨٧) : « فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين إردبا ذهبا مضروبة ... » .

(٦٦) فى (ب) « به » بدل « إلى » .

(٦٧) فى النسختين « الدار الكبيرة » وفى فتح مصر (ص ٩٧) : « هذه الدار الكبيرة » .

(٦٨) فى (ب) : « الأول » .

(٦٩) « وأسلم » سقطت من الأصل وهى فى النسختين والفتوح (ص ٩٨) .

(٧٠) فى (ب) « فوهبها » .

(٧١) ما بين قوسين زيادة من النسختين والفتوح ص ٩٨ .

(٧٢) فى النسختين والفتوح ص ٩٨ « ينزلها » .

(٧٣) فى الأصل : « التناخى » وهو تصحيف ، وقد أثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ٩٩) .

(٧٤) ما بين قوسين ساقطة من الأصل ، وهى فى النسختين والفتوح (ص ١٠٠) .

(٧٥) فى الأصل « دارا » وفى (ط) « دار » وفى (ب) والفتوح (ص ١٠١) : « وكانت إلى جنبها دار » .

(٧٦) فى النسختين « فيها سميت » .

(٧٧) فى (ط) « إنمّا » . وفى الفتوح (ص ١٠١) : « ويقال : إنمّا .. » .

(٧٨) « دار الرمل » سقطت من (ب) .

(٧٩) فى (ط)« الصرف » وهو تصحيف .

(٨٠) فى الأصل « رومانة » وهو تصحيف . وأثبت ما جاء فى النسختين وفى الفتوح (ص ١٠٢) .

(٨١) فى الفتوح (ص ١٠١) « فى المسجد » .

(٨٢) فى الأصل « رومانة » ، وهو تصحيف . وأثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ١٠٤) .

(٨٣) فى الأصل و (ب) « حارثة بن حذافة » وهو تصحيف . وقد أثبت ما ورد فى الفتوح (ص ١٠٤) وخارجة صحابى جليل وهو الذى قتله عمرو بن بكر الذى انتدب لقتل عمرو بن العاص ، ليلة الائتمار بقتله وقتل على ومعاوية ، رضى الله عنهم جميعا .

(٨٤) سقط من (ط) من قوله « واختط خارجة » إلى قوله « السويق » .

(٨٥) فى (ط) :« عديمى » وهو تصحيف . وابن عديس صحابى ممن بايع تحت الشجرة .

(٨٦) ما بين القوسين سقط من الأصل .

(٨٧) كان قدوم مروان بن الحكم مصر فى سنة خمس وستين . أنظر كتاب الولاة ، وكتاب القضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى ص ٤٣ ، بيروت ١٩٠٨ . والعبارة فى فتوح مصر (ص ١٠٧) « قال واختط عبد الرحمن بن عديس البلوى الدار البيضاء ، ويقال : بل كانت الدار البيضاء صّحنا بين يدى المسجد ودار عمرو بن العاص موقفا لخيل المسلمين على باب المسجد حتى قدم مروان بن الحكم مصر فى سنة خمس وستين فابتناها لنفسه .. » .

(٨٨) فى الأصل « القنادل » وهو تصحيف ، وأثبت ما جاء فى النسختين وفى الفتوح (ص ١٠٩).

(٨٩) فى الأصل و (ب) « بن خير » . وأثبت ما جاء فى (ط) والفتوح (ص ١٠٩) . وابن حبر هذا كان رسول المقوقس إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية وأختها ، وبما أهدى معهما .

(٩٠) فى (ب) « سوق يزيد » ، وهو تصحيف .

(٩١) فى الأصل « بن ضبة » ، وفى (ب) « بن سيار بن ضبة » ، وهو تصحيف . وقد أثبت ما جاء فى (ط) والفتوح (ص ١١١) ، وهو الصواب .

(٩٢) فى (ب) « الذى قال له » ، وفى (ط) « الذى قال لها » ، والصواب ما جاء فى الأصل .

(٩٣) فى (ب) « سيار » ، وهو تصحيف .

(٩٤) فى فتوح مصر (ص ١١٣) « فى القيسارية » .

(٩٥) سقطت « فلما » من (ب) .

(٩٦) فى الأصل « بناها » وأثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ١١٣)

(٩٧) ما بين القوسين سقط من الأصل ، وهو فى النسختين والفتوح (ص ١١٣) .

(٩٨) فى النسختين « إياها » . (٩٩) فى النسختين « فوهبها » .

(١٠٠) فى الأصل « زجاج » وهو تصحيف . وأثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ١١٤) .

(١٠١) فى الأصل « زبانا » و « إنسانا » ، وقد أثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ١١٤) .

(١٠٢) فى (ب) « من العجب » .

(١٠٣) فى النسختين « إلى قصر الروم » .

(١٠٤) فى (ط) « فردها عليه أبو جعفر » ، والخبر فى الفتوح (ص ١١٤) ونصه « وقد كان عبد الملك بن مروان اصطفاها فردها عليهم هشام بن عبد الملك ، ثم أخذها منهم يزيد بن الوليد ، فلم تزل فى أيديهم حتى كانت ولاية أمير المؤمنين أبى جعفر فكلمه فيها هشام بن عروة ، وكانت لهشام ناحية من أبى جعفر ، فأمر بردها عليهم وقال : ما مثل أبى عبد الله ، يريد الزبير ، يؤخذ له شيء » .

(١٠٥) فى (ط) « أبو نصرة » بالنون ، وهو تصحيف .

(١٠٦) فى الأصل « الصباغ » وهو تصحيف ، وأثبت ما جاء فى النسختين والفتوح (ص ١١٥) .

(١٠٧) كذا فى الأصل وفى النسختين « ابن جلادة » وفى الفتوح (ص ١١٥) : « ابن بلادة » .

(١٠٨) ما بين القوسين فى هامش الأصل وفوق كلمة « جبر » كتبت كلمة (صح) . والعبارة فى النسختين والفتوح (ص ١١٥) : « ولهم أيضا من قصر ابن جبر إلى الحَجّامين الذين بسوق بربر » . وليست هناك أية إشارة لقصر أبى حجزة .

(١٠٩) فى الأصل « فرفر » وهو تصحيف .
(١١٠) فى جميع النسخ : « بشر بن أرطأة » بالشين المعجمة وهو تصحيف . أنظر الفتوح (ص ١١٥) . وبسر ممن رَوَى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد توفى فى دمشق سنة ٨٦ هـ .
(١١١) « بنو » سقطت من الأصل . والعبارة فى الفتوح (ص ١١٥) : « ولبنى معاذ من مدلج داران ، إحداهما فى زقاق عبد الملك بن مسلمة كانت لأشهب الفقيه ، والأخرى فى عقبة سوق بربر فى الزقاق الذى فيه دار مصعب الزهرى » .
(١١٢) فى (ط) « أسفل » .
(١١٣) فى الأصل « واختط دار جارية بن حذافة » وفى الهامش « وقيل خارجة » وفى (ب) : « واختطت بنى دار خارجة بن حذيفة » وفى (ط) « واختطت بلى دار خارجة بن حذافة » ولعل الصواب ما أثبت اعتمادا على فتوح مصر (ص ١١٦) .
(١١٤) فى النسختين « درب » ويتفق الأصل مع الفتوح .
(١١٥) فى الفتوح (ص ١١٦) : « ثم مضوا حتى شرعوا فى أصحاب الزيت » .
(١١٦) فى (ط) وكتاب الفتوح « القرون » .
(١١٧) » إلى » ساقطة من الأصل وهى فى النسختين والفتوح .
(١١٨) فى الأصل « كثر بلى بمصر » والصواب من النسختين والفتوح . وسقطت كلمة « بمصر » من (ب) .
(١١٩) من قوله « فبلغت إلى هذا الموضع » سقط من الأصل ، وهو فى النسختين وفى فتوح مصر (ص ١١٦) : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عامل الشام أن تسير ثلث قضاعة إلى مصر ، فنظروا فإذا بلى ثلث قضاعة ويبدو أن السقط من الناسخ نظرا لتكرار كلمة قضاعة فى العبارة .
(١٢٠) بعد كلمة « بنو بحر » إشارة فى هامش الأصل تقول : « وقيل بنو » ولم تظهر بقية الكلمة . وفى كتاب الفتوح (ص ١١٦) : « قال ثم اختطت بنو بحر مما يلى بلى » وليس هناك ما يفيد فى معرفة تلك الكلمة التى فى الهامش .
(١٢١) فى النسختين والفتوح (ص ١١٨) : « على » .
(١٢٢) فى (ط) والفتوح : « جبل يشكر » .
(١٢٣) فى (ط) : « وهنالك » والعبارة فى الفتوح (ص ١١٨) . « وكان مسجد مهرة هنالك قبة سوداء حتى أدخله طريف ... » .
(١٢٤) فى النسختين والفتوح « دور » .
(١٢٥) كلمة « ومضر » غير موجودة فى النسختين والفتوح (ص ١٢١) ويظهر أن ناسخ الأصل قد صحف العبارة التالية « ثم مضوا » التى كتبت فى النسختين والفتوح « ومضوا » وهى كما يدل عليه رسمها من السهل تصحيفها إلى « ومضر » .
(١٢٦) فى النسختين والفتوح (ص ١٢١) «ولغافق من درب » .
(١٢٧) فى (ب) « يمين من مسجد » .
(١٢٨) سقطت « ماشرع » من (ب) وهناك علامة تشير إلى كتابتها فى هامش النسخة غير أنها لم تكتب .
(١٢٩) فى (ب) و (ط) : « قبال دار سعيد بن عفير » وفى كتاب الفتوح (ص ١٢٠) « قبالة دار سعيد بن عفير » . وقوله « سعيد بن عبيد » زيادة من الأصل .

(١٣٠) فى النسختين : « وزقاق الرّاسين » ولم تذكرا « السراجين » وفى الفتوح (ص ١٢٠) : « وزقاق الرواسين » والسراجين زيادة من الأصل .

(١٣١) فى (ب) والفتوح : « حُوَىّ)

(١٣٢) فى (ب) : « حوى » وفى الفتوح (ص ١٢٠) : « من درب حوى البحرى » .

(١٣٣) فى (ب) : « ووقعت » وفى (ط) : « التى وقعت » .

(١٣٤) فى (ب) : « فلوهنك » وفى (ط) : « فلرهنه » .

أما كتاب الفتوح (ص ١٢١) ففيه « فلدهنة » وفى نسخة مخطوطة « فلهدنه » .

(١٣٥) فى (ط) والفتوح (١٢٢) : « قبلى مهرة » .

(١٣٦) من قوله « حضر موت » إلى قوله « حتى لقوا » .

سقط من الأصل وهو فى (ط) و (ب) والفتوح (ص ١٢٢ ، ١٢٥) .

(١٣٧) فى (ب) « والطرف » ، وهو تصحيف .

(١٣٨) فى خطط المقريزى (ج ١ ، ص ٥٥٩) « واستبد بخطة خولان من حضر فتح مصر من الفارسيين وهم بقايا جند باذان ، عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام أسلموا بالشام ورغبوا بالجهاد » .

(١٣٩) فى الفتوح (ص ١٢٥) « تجيب » .

(١٤٠) فى الأصل « مراد » ، وفى الفتوح (ص ١٢٥) « ولقوا بنى غطيف وبنى وعلان من مراد فى الشرق » .

(١٤١) فى (ط) « فى » .

(١٤٢) فى (ب) و(ط) « ينة » . وفى الفتوح (ص ١٢٥) « قال : وقد كان دخل مع عمرو بن العاص قوم من العجم يقال لهم : الحمراء والفارسيون . فأما الحمراء فقوم من الروم ، فيهم بنو ينّة وبنو الأزرق وبنو روبيل والفارسيون الذين كانوا بصنعاء ، وكان حامل لوائهم ابن ينّة وإليه تنسب سقيفة ابن ينّة التى بفسطاط مصر بالحمراء » . وجاء فى خطط المقريزى (ج ١ ، ص ٥٦٠) « بنو نبّة نون بعدها باء .

(١٤٣) ما بين القوسين زيادة من (ب) .

(١٤٤) هذا الخبر فى كتاب الفتوح (ص ١١٩) وفيه « أبو شمر بن أبرهة » وانظر أيضا ص ١١٣ من نفس الكتاب .

(١٤٥) فى (ط) : « وزاويته » والعبارة هنا غير مستقيمة ، ولعل المقصود (وزيادته) ، يؤيد ذلك نص ابن عبد الحكم (ص ١٣١) : « ثم إن مسلمة بن مخلد الأنصارى زاد فى المسجد الجامع بعد بنيان عمرو له » .

(١٤٦) عبارة « فى سنة سبع وسبعين » سقطت من (ط) .

(١٤٧) من قوله : « ثم كتب » . إلى قوله : « وتسعين » سقط من الأصل . وهو فى (ب) و(ط) وأنظر أيضا كتاب فتوح مصر (ص ١٣١) ، وفيه أن ولاية قرة بن شريك كانت سنة تسعين .

(١٤٨) زيادة من (ط) .

(١٤٩) فى الأصل « العبل » وهو تصحيف .

(١٥٠) « الخمس » زيادة من (ب) .

(١٥١) فى الأصل « ثم » وأثبت ما جاء فى النسختين وكتاب الفتوح .

(١٥٢) فى (ط) « عن » .

(١٥٣) فى (ب) : « إذ أتانا » وفيها « وعزلت الفتى الهاشمى المبارك عنا » . وفى (ط) « ثم خالفت فيه رأى أبيك »

وفى كتاب الفتوح (ص ١٣١) : « ثم قَبّلت فيه رأى أبيك » . وقَيّل فيه رأيه أى ضَعّفه ، والكلمات الثلاث لا تناقض بينها .

(١٥٤) فى (ب) « على » وهو تصحيف .

(١٥٥) « فيه » زيادة من (ب) و (ط) .

(١٥٦) فى (ط) « فى زيادته » .

(١٥٧) فى الأصل « روماية » وهو تصحيف . وقد أثبت ما جاء فى النسختين وفى كتاب الفتوح ص ١٣٢ .

(١٥٨) كذا فى جميع النسخ ، وفى كتاب الفتوح (ص ١٣٢) « القلعة » وجاء فى نسختين مخطوطتين منه « الغفلة » و « الفعلة » بدون نقط .

(١٥٩) فى الأصل : « وهو مسجد عبد الله بن عبد الله بن مروان » ، وقد أثبت ما جاء فى النسختين (ب) و (ط) وانظر أيضا (ص ٥٩) من كتاب « الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى ، طبعة بيروت ١٩٠٨ .

(١٦٠) جاء فى كتاب الولاة « للكندى (ص ٥٩) : « وفى ولايته غلت الأسعار بمصر وهى أول شدة رأوها ، وزعموا أنه ارتشى ، وكثروا عليه وسموه مكيسا » . ولعل التسمية نسبة إلى ما كان يفرضه عليهم من « الضرائب وهى المكس » .

(١٦١) فى (ط) و (ب) « قاله » .

(١٦٢) فى كتاب « الولاة » للكندى : « بالقبطية » .

(١٦٣) فى (ب) : « البواقيس » وفى (ط) : « البرانيس » وهما تصحيف .

(١٦٤) فى الأصل : « ومسجد ملك ، يسمى وينسب إلى ملك بن شراحيل الخولانى القاضى » ، وقد أثبت عبارة (ب) و (ط) .

(١٦٥) فى الأصل « قيسارية » ، وقد أثبت ما جاء فى النسختين .

(١٦٦) ما بين القوسين سقط من الأصل وهو فى النسختين وكتاب الفتوح (١٣٦) .

(١٦٧) كذا وردت فى جميع النسخ « البُر » ، وفى كتاب الفتوح (ص ١٣٦) « البَر » .

(١٦٨) فى (ط) ديمسات « والدِّيماس » ، بفتح الدال وكسرها ، الحَمّام ، فإن فتحت الدال جمعت على « دياميس » وإن كسرتها جمعت على « دماميس » .

(١٦٩) فى (ط) : « خرام » . وهو تصحيف .

(١٧٠) فى الأصل : « وبناء « وهو تصحيف .

(١٧١) « مدينة » سقطت من النسختين .

(١٧٢) « جثة » زيادة من (ط) .

(١٧٣) فى (ب) : « وقد كان » .

(١٧٤) فى (ب) و (ط) : « رقابة لرسوله » .

(١٧٥) فى النسختين « ذرع » .

(١٧٦) فى (ط) « وازوا » وفى (ب) « وراء » .

(١٧٧) فى (ط) « فرضموا تلك الحفيرة » وفى (ب) « ورضموا تلك البحيرة » .

* سنترك التعليق على الكور المشهورة كالفيوم والإسكندرية وأسوان وغيرها مما هو مشهور اليوم فى بلاد مصر ، مكتفين بالخرائط الملحقة ، وسيكون التعليق على تلك الكور التى لحق أسماءها التصحيف أو يصعب تحديد موقعها على القارىء .

(١٧٨) أوردها القلقشندى فى صبح الأعشى (٣ / ٣٧٧) نقلا عن القضاعى ضمن كور أعلى الأرض أو الصعيد ، وجمعها مع أخميم وابشاية . وقال : إن أخميم موجودة وأما الدير فيجوز أن يكون المراد به الدير والبلاص . وهى بلدة فى شرقى النيل شمالى قنا ، من عمل قوص . وأما بشاية فمن الأسماء التى جُهلت .

وقد بين محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثانى ، جـ ٤ ص ١٧٥) أن هناك خطأ : وأن الدير المذكور مع أخميم ليس هو قرية الدير هذه ، وأن كورة أخميم لا يمكن أن تجمع بين أخميم التى فى شمال مديرية جرجا وبين الدير هذه التى بمركز قنا . وأن الدير الذى يقصده القضاعى هو الدير الأبيض من توابع ناحية أولاد عزاز بمركز سوهاج ، بمديرية جرجا غربى سوهاج على بعد ستة كيلو مترات بسفح الجبل الغربى وكان هذا الدير قديما من توابع كورة أخميم ، وورد ذكره فى جميع الكتب التى ورد فيها أسماء كور مصر ، بين أخميم وابشاية ، التى تعرف اليوم بالمنشأة ، إحدى قرى مركز جرجا .

(١٧٩) فى (ب) : « السردات » بالتاء ، ولم أجد هذا الاسم بين أسماء الكور المصرية فى المصادر العربية .

(١٨٠) كورة عين شمس نسبة إلى مدينة عين شمس وهى من المدن المصرية القديمة ، ومحلها اليوم يعرف بتل الحصن وما جاوره فى المطرية حيث تقوم إحدى المسلتين اللتين أقامهما الملك سنوسريت الأول ، وتشتمل هذه الكورة على الضواحى الشمالية للقاهرة كالمطرية ومصر الجديدة .

(أنظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، قسم أول ، ص ٣٣٩) .

(١٨١) فى جميع النسخ « نوبة » ، ولعلها ما أثبت نقلا عن ابن خرداذبة (ص ٨٣) الذى أورد بعدها « شطا » تماما كنص البكرى . ذكرها ياقوت فى معجمه (١ / ٩٠١) بأنها جزيرة قرب تنيس ودمياط من الديار المصرية يضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرزها . ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم أول ، ص ١٩٩) أن تونة هى التى تعرف اليوم بجزيرة سيدى عبد الله بن سلام الواقعة فى بحيرة المنزلة شرقى بلدة المطرية وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها . ولا تزال أطلال هذه البلدة ظاهرة بالجزيرة المذكورة باسم كوم ابن سلام . وقد ورد اسم هذه الجزيرة دون تصحيف فى نص البكرى هذا عند كلامه عن الطرق ، وحدد موقعها بين دقهلة ودمياط .

(١٨٢) شطا من القرى القديمة ذكرها ابن خرداذبة (ص ٨٣) ضمن الكور . وقال ياقوت فى معجمه (٢ / ٢٨٨) : « بليدة بمصر تنسب إليها الثياب الشطوية ، قال الحسن بن محمد المهلبى : على ثلاثة أميال من دمياط على ضفة البحر الملح مدينة تعرف بشطا وبها وبدمياط يعمل الثوب الرفيع الذى يبلغ الثوب منه ألف درهم ولا ذهب فيه » . وذكر المقريزى فى خططه (١ / ٤٢٢) عن الفاكهى أن كسوة الكعبة كانت تعمل بشطا .

وانظر : القاموس الجغرافى : قسم ثان ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ .

(١٨٣) كذا فى الأصل ، وفى (ب) « الكوثور » وفى (ط) : « الكوبور » . ولم أجد هذا الاسم فى المصادر التى بين يدى .

(١٨٤) ما بين قوسين سقط من الأصل وأثبته من (ب) وفى (ط) « سامك » ولم أجد هذا الاسم فى المصادر الجغرافية .

(١٨٥) فى (ب) : « هيتا » . ولم أعثر على هذا الاسم أيضا .

(١٨٦) فى (ب) و (ط) : « سطيطس » .

(١٨٧) كذا فى الأصل وفى (ط) و (ب) : « السما » .

(١٨٨) الفرما من المدن المصرية القديمة وتقع فى الشمال الشرقى من الدلتا شرقى بحيرة المنزلة (تنيس) وهى من أقدم الثغور العربية فى مصر ، وكانت أول موضع قوتل فيه عمرو بن العاص . ويبدو من كتابات اليعقوبى (ص ١٣٠) وابن الكندى فى فضائل مصر (ص ٥٣) وكلام البكرى فى موضع آخر من هذا النص أن الفرما لم تكن على ساحل البحر المتوسط ولكنها على بعد قليل منها ، غير أن المصادر الأخرى كابن حوقل (ص ١٣٦) والمقدسى (١٩٥) وياقوت فى معجمه (٣ / ٨٨٣) تذكر أنها مدينة على ساحل البحر . ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم أول ، ص ٩٢) أن آثار هذه المدينة تعرف اليوم بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلو مترات عن ساحل البحر المتوسط وعلى بعد ٢٣ كيلو مترا شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديدية التى بين بورسعيد والإسماعيلية .

وانظر الدراسة الجغرافية القيمة التى كتبها الدكتور عبد العال الشامى عنها فى رسالته للدكتوراه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٩) .

(١٨٩) كذا فى جميع النسخ . ولم ترد « سابورصير » فى عداد الكور المصرية فى المراجع العربية ، وإنما وردت « بوصير » أو « بوصيركوريدس » ، وردت الأولى عند ابن خرداذبة (ص ٨١) والمقريزى (١ / ١٣٤) كما وردت عند البكرى فى هذا النص مرة « بوصير » وقال هما بوصيران بوصير الصعيد وبوصير أسفل الأرض وهى بوصير سمنود ومرة أخرى « سابورصير » ولم يذكر أنها موضع بعينه وإنما قال : « فى أرض سابورصير نحو ألف ضيعة فى بساط واحد » .

أما الثانية وهى « بوصير كوريدس » فقد وردت عند قدامة بن جعفر (ص ٢٤٧) واليعقوبى (ص ٣٣١) . وفى معجم ياقوت (١ / ٧٦١) أن « بوصير » اسم لأربع قرى بمصر هى « بوصير قوريدس » من كورة البوصيرية - ولعلها المقصودة هنا - وبوصير دفدنو من كورة الفيوم وبوصير بنا من كورة السمنودية وبوصير السدر فى كورة الجيزة .

(١٩٠) فى الأصل « ذميرة » بالذال . جاء فى معجم البلدان (٢ / ٦٠٢) « دميرة » بفتح أوله وكسر ثانيه « قرية كبيرة بمصر تقرب من دمياط » وقال « وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطىء النيل فى طريق من يريد دمياط » .

وفى قوانين ابن مماتى (ص ١٣٥) وفى تحفة الإرشاد (٦٧) وردتا منفصلتين باسم دميرة البحرية ودميرة القبلية من أعمال السمنودية . ودميرة البحرية هى أكبر الدميرتين وكانت تسمى قديما الأوسية ، قال اليعقوبى (ص ٣٣٧) ضمن كلامه عن مدن الدلتا « ومدينة الأوسية وهى مدينة دميرة » .

وأما دميرة القبلية فهى التى تعرف اليوم باسم كفر دميرة القديم (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية قسم ثان ، جـ ٢ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

ودميرة اليوم بلدة واقعة فى شمال غرب مدينة المنصورة فى محافظة الدقهلية وتقع على خليج المحلة قديما (ترعة نشرت) وهذا ما قصده ياقوت بقوله : إنهما تقعان على شاطىء النيل .

(١٩١) فى الأصل « دملقة » وفى (ب) و (ط) « دمقلة » والصواب ما أثبت : وقد ذكرها ابن خرداذبة (ص ٨٢) وقدامة (ص ٢٤٨) . وقال ياقوت (٢ / ٥٨١) : دقهلة بلدة بمصر على شعبة من النيل بينها وبين دمياط أربعة فراسخ ، وبينها وبين دميرة ستة فراسخ ذات سوق وعمارة ويضاف إليها كورة فيقال : كورة الدقهلية .

ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثان ، جـ ٢ ص ٢٤٢) أن مساكن قرية دقهلة القديمة كانت تقع شرقى ترعة الشرقاوية ومكانها يعرف اليوم باسم عزبة الكاشف ، وبسبب ما أصابها من تلف السباخ لها انتقل منها سكانها وأنشأوا لهم قرية جديدة باسم دقهلة ، وهى الحالية الواقعة على النيل فى الشمال الغربى لدقهلة القديمة وهى على بعد كيلو متر واحد منها .

(١٩٢) تنيس من المدن المصرية القديمة التى اندثرت ، وتقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة التى كانت تسمى قديما بحيرة تنيس . ويبدو من وصف المقدسى لها (ص ٢٠١) أنها كانت مدينة عامرة فى القرن الرابع الهجرى حتى أطلق عليها « بغداد الصغرى » . وأسهب ياقوت الحموى (١ / ٨٨٢) فى وصفها ورسم لها خريطة تبين موقعها من البحيرة ، ونادرا ما كان يفعل ذلك .

وفى عام ٦٢٤ هـ أمر الملك الكامل بهدم المدينة وتخريبها خوفا من وقوعها فى أيدى الصليبيين .

ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم أول ، ص ١٩٨) أن مدينة تنيس لا تزال آثارها موجودة ببحيرة المنزلة ومعروفة بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المخلف من مبانيها القديمة . وتقع فى الجنوب الغربى لمدينة بورسعيد وعلى بعد تسعة كيلو مترات منها .

وانظر ما كتبه عنها عبد العال الشامى فى رسالته للماجستير ص ٤٣٨ - ٤٤١ وفى رسالته للدكتوراه ص ٤٠١ - ٤٣٣ .

(١٩٣) فى الأصل و (ط) « ذمياط » بالذال المعجمة فى أولها ، وقد وردت كذلك فى بعض المصادر العربية . أما أغلب المصادر فهو « دمياط » ، وهى مشهورة قديما وحديثا .

(١٩٤) ذكرت كورة منف فى معظم المصادر العربية ، ومنف هى منفيس القديمة ، وهى قرية ميت رهينة الحالية ، وقد نسبت الكورة إليها رغم أنها كانت مدينة مندرسة عند الفتح العربى (انظر : أمين محمود عبد الله تطور الوحدات الإدارية فى مصر العليا منذ العهد العربى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٦٣ .

(١٩٥) فى الأصل و (ط) « وسقيم » وهو تصحيف وقد ذكرتها معظم المصادر العربية القديمة باسمها « وسيم » .

وهى عند المتأخرين « أوسيم » وعلى هذه الصورة نجدها فى الخرائط المصرية اليوم ، وتقع فى الشمال الغربى من مركز إمبابة ضمن محافظة الجيزة .

(١٩٦) أنطابلس ليست من الكور المصرية والغريب أن يذكرها البكرى هنا مع أنه تكلم عنها عند كلامه عن إقليم برقة فى الجزء الخاص ببلاد أفريقية والمغرب من كتابه هذا .

وقد ذكر ياقوت (١ / ٣٨١) أن أنطابلس معناه بالرومية خمس مدن ، وهى مدينة بين الإسكندرية وبرقة وقيل : هى مدينة ناحية برقة .

واسم برقة أو أنطابلس يشتمل على خمس مدن هى بنغازى وطوقرة وطلميته وقرنا ، ودرنه . (انظر : محمد رمزى ، قسم أول ، ص ١٣٣) .

(١٩٧) جاء ذكر دلاص فى معظم المصادر العربية فمن ذلك قول ياقوت (٢ / ٥٨١) : « دَلاص بفتح أوله وآخره صاد مهملة كورة بصعيد مصر على غربى النيل أخذت من البر .

تشتمل على قرى ولاية واسعة ودّلاص مدينتها معدودة فى كورة البهنسى . وهى تتبع اليوم مركز بنى سويف .

(١٩٨) فى الأصل وبقية النسخ ، وكذلك فى مواضع أخرى من هذا النص وردت « أنهاس » بتقديم النون على الهاء . وهو تصحيف . وقد أثبت ما ورد فى المصادر العربية .

يقول ياقوت (١ / ٤٠٩) : « أهناس بالفتح اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة فى الصعيد الأدنى يقال لقصبتها أهناس المدينة ، وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسى ، وأهناس هذه قديمة أزلية ، وقد خرب أكثرها ، وهى على غربى النيل ليست ببعيدة عن الفسطاط ... وأهناس الصغرى فى كورة البهنسى أيضا قرية كبيرة » .

وذكر محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثان ، جـ ٣ ص ١٥٤) أنه فى العهد العثمانى حرف اسمها إلى أهناسية المدينة ، وهو اسمها الحالى الذى وردت به فى تاريخ ١٢٣٠ هـ . ولا تزال أطلال مدينة أهناس القديمة ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية .

(١٩٩) فى الأصل و (ط) « العنز » وفى (ب) « الغيد » . واتفق مع الدكتور عبد العال الشامى أنه ربما كان صحة هذا الاسم « القيس » كما أثبت ، وقد وردت « القيس » مصحفة إلى « الغمر » عند ذكر البكرى للمسافات وعَلَّقْنَا عليها هناك .

(٢٠٠) فى الأصل : « صحا » وهو تصحيف . وقد أثبت ما جاء فى النسختين (ط) و (ب) . وقد وردت فى معظم المصادر العربية ، وسميت بطحا المدينة ثم طحا الأعمدة نسبة لما بها من معابد ذات أعمدة . وتتبع مركز سمالوط بالصعيد .

انظر القاموس الجغرافى (قسم ثان ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤) وأمين محمود عبد الله : ص ٩١ .

(٢٠١) فى (ط) و (ب) : « قهقى بالألف المكسورة ووردت كذلك عند ابن خرداذبة (ص ٨١) ، وعند قدامة (ص ٢٤٧) : « قهقوة » ، وقال اليعقوبى (ص ٣٣١) « قهقاوة وبها مدينة قديمة يقال لها بوتيج » وقد وردت فى معجم البلدان وفى بقية المصادر : « قهقوة » .

ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثان جـ ٤ ص ١٦) أن بلدة الدوير الواقعة فى مركز أبو تيج بمديرية أسيوط هى قهقوة القديمة ، فهى قريبة من أبو تيج التى ذكر اليعقوبى أنها من كورة قهقوة ، ثم إن مساكن الدوير قائمة على قرية قديمة .

(٢٠٢) فى الأصل و (ط) : « البهنس » وقد أثبت ما ورد فى (س) وتكتب فى المصادر العربية بالألف المقصورة والممدودة والهاء « البهنسة » وتقع بمركز بنى مزار بمحافظة المنيا .

« انظر القاموس الجغرافى (قسم ثان ، جـ ٣ ، ص ٢١١) . أما بهنسى الواحات فالمقصود بها الواحات البحرية .

(٢٠٣) مدينة قديمة كان يطلق اسمها على زمامها حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وبسبب خراب مساكن هذه البلدة قيد زمامها فى تاريخ سنة ١٢٣٠ هـ باسم الشيخ عبادة ، وهى نزلة من توابع ناحية أنصنا ، وبذلك اختفى اسم أنصنا من عداد النواحى المصرية ، ومكانها اليوم الأطلال الواقعة فى حوض مدينة النصلة (المحرفة عن أنصنا) بأراضى ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقى النيل بمركز ملوى بأسيوط .

القاموس الجغرافى (قسم أول ، ص ١٣٣) .

(٢٠٤) فى الأصل « نبود » وفى (ط) و (ب) « بنود والصواب ما أثبت ، ومما يثبت ذلك ورودها فى النص قبل قفط . وقال ياقوت (١ / ٩٩) إنها قرية من قرى الصعيد دون قفط ذات بساتين ونخل ومعاصر للسكر .

ولم ترد هذه القرية ضمن الكور المصرية فى المصادر العربية مما يدل على أن هذا الحصر قد اختلطت فيه المدن والكور .

وتقع القرية اليوم فى محافظة قنا .

(٢٠٥) القلزم والطور وأيلة من كور القبلة ذكرها ابن خرداذبة (ص ٨١) والقلقشندى (٣ / ٣٨٧ ، ٣٨٨) نقلا عن القضاعى .

وتأتى أهمية هذه الكور من كونها مراكز واقعة على طرق التجارة البحرية والبرية ، فالقلزم تقع على رأس خليج السويس أو خليج القلزم كما كان يسمى وتقع الطور على نفس الخليج إلى الجنوب منها . أما أيلة فهى مدينة العقبة على خليج العقبة .

(٢٠٦) فى الأصل وبقية النسخ وردت الكور الثلاث السابقة محرفة إلى « مسطل » . البلندس . فرسطا » . وفى (ب) و (ط) فرسطى وقد وردت هذه الكور بنفس الترتيب عند ابن خرداذبة (ض ٨١) كما وردت فى معظم المصادر القديمة . وقد خربت مدينة مصيل ولا تزال أطلالها تعرف باسم كوم المدينة بأراضى ناحية بسنتاوای بمركز أبى حمص غربى مدينة المحمودية .

القاموس الجغرافى (قسم أول ، ص ٤١٢) .

أما المليدس فقد ذكرها القلقشندى (٣ / ٣٨٦) نقلا عن القضاعى ضمن كور الحوف الغربى ، وذكر أنها من الأسماء التى جهلت .

وأوردها عبد العال الشامى فى رسالته للدكتوراه (شكل رقم ١٣) محيطة ببحيرة أدكو . وأما « قرطسا » فقد وردت فى معجم البلدان فى حرف الفاء « فرطسا » ثم أوردها فى حرف القاف - وتطلق قرطسا اليوم على أحد أقسام مدينة دمنهور ، وهو القسم الجنوبى الشرقى . (القاموس الجغرافى ، قسم ٢ ، ص ٢ ، ص ٢٨٠) .

(٢٠٧) فى الأصل وبقية النسخ : « بوسى » وهو تصحيف ، وقد وردت « نَوَسا » فى معظم المصادر القديمة . قال ياقوت (٤ / ٨٢٣) : « نَوَسا بالتحريك كورة من كور أسفل الأرض بمصر يقال لها : كورة سمنود ونَوَسا » . وذكرها القلقشندى (٣ / ٣٨٣) وذكر أنها الآن قرية من قرى المرتاحية .

وتقع نوسا اليوم فى محافظة الدقهلية إلى الشمال قليلا من سمنود ، وتسمى « نوسا الغيط » تمييزاً لها عن نوسا البحر التى كانت تسمى قديما منية نوسا . القاموس الجغرافى (قسم ثان ، جـ ١ ، ص ١٧٨) .

(٢٠٨) فى الأصل وبقية النسخ « الملقون » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت عن ابن خرداذبة (ص ٨٢) واليعقوبى (ص ٣٣٩) وذكرها ياقوت فى باب الباء والذال ، قال : بدقون بالتحريك كورة بمصر لها ذكر فى الفتوح وهى من كورة الحَوْفِ الغربى .

وعدها القلقشندى (٣ / ٣٨٥) من الأسماء التى درست وجهلت .

ويبدو البكرى هنا كأنه ينقل من ابن خرداذبة مع الحذف والإضافة فقد حذف كورة صَا ، وشَبّاس ، وسخا ، وتيده ، والأفراحون ولوبيا ثم ذكر الأوسية التالية بعد .

ثم عاد وذكر البدقون مرة أخرى قبل ذكر الشرّاك وترنوط ، تماما كما هو الحال عند ابن خرداذبة الذى وردت عنده دون تصحيف ، وصحفت عند البكرى إلى « المدقوق » .

(٢٠٩) فى الأصل وبقية النسخ « الأوضية » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت .

وقد وردت « الأوسية » فى معظم المصادر القديمة . قال ياقوت (١ / ٤٠٤) « الأوسية بلد بمصر من ناحية أسفل الأرض يضاف إليه كورة ، فيقال : كورة الأوسية والبجوم » .

والأوسية هى دميرة . قال اليعقوبى (ص ٣٣٧) « ومدينة الأوسية وهى مدينة دميرة » .

وعلى هذا فربما كانت « دميرة » هى اسم الأوسية القديمة .

(٢١٠) فى الأصل وجميع النسخ « طُرَّة » طاء بعدها راء مشددة . وهو تصحيف رغم أن « طُرَّة » بفتح الراء من القرى القديمة فى الجانب الشرقى من النيل جنوب القاهرة وكانت هذه القرى تابعة لإقليم اطفيح الذى يعرف اليوم بمركز الصف ، ويقال لها اليوم « طُرَّة البلد » تمييزا لها من قريتين آخريين قريبتين منها وهما « طُرَّة الحجارة » وطُرَّة الأسمنت .

ولو لم يكن قد وضع علامة التشديد على الراء لأمكن أن نعتبر ما جاء فى النسخ هو « طُرَّة » المتقدمة لأنه ذكر ضمن أسماء كور مصر هنا أسماء مدن وقرى ليست من الكور . ثم إن « طُوَّة » وردت فى معظم المصادر القديمة وبقربها الكـــور التالية فى النص .

وقد وردت «طُوَّة» فى معجم البلدان (٣ / ٥٦٣) بأنها كورة من كور بطن الريف من أسفل الأرض يقال لها كورة طوة منوف .

ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم أول ص ٣١٧) أن أطلال طوة القديمة قد زالت وأنها كانت تقع شمال بلدة تلا بالمنوفية على بعد أحد عشر كيلومتراً على مكانها اليوم حوض طوة رقم ٢٨ الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من أراضى ناحية محلة مرحوم بمركز طنطا بالغربية وعلى بعد ثلاث كيلومترات منها . وبنى بحوض طوة عزبة طوة التى يمكن اعتبارها علامة على مكان بلدة طوة القديمة .

(٢١١) فى جميع النسخ « ميذق السفلى وميذق العليا » وهو تصحيف . والصواب ما أثبت إذ وردت هاتان الكورتان فى معظم المصادر القديمة .

ومنوف السفلى هى التى تعرف اليوم باسم محلة منوف بمركز طنطا ، وتقع شمال مدينة طنطا أما منوف العليا فهى قاعدة محافظة المنوفية (القاموس الجغرافى قسم ٢ ، جـ ٢ ص ٢٢٣) .

(٢١٢) فى جميع النسخ « فسيس » ، وهو تصحيف ، وقد ذكرت « دمسيس » فى معظم المصادر القديمة . وقد ذكرها ابن خرداذبة فى ترتيبه للكور بين ميذق السفلى وميذق العليا (ص ٨٢) .

وقد زالت دمسيس ، ومحلها يعرف اليوم باسم كفر شبرا اليمن من توابع شبرا اليمن بمركز زفتى بالغـربية (القاموس الجغرافى ، قسم ١ ، ص ٢٥١) .

(٢١٣) وهى من المدن المصرية القديمة ، وتنطق بألف التعريف ، وتقع فى الشمال الغربى من الدلتا بالقرب من البحر التى سميت بنفس الاسم (بحيرة البرلس) . وقد ذكرها كل من اليعقوبى وابن حوقل وياقوت الحموى وفى أيام الدولة الأيوبية أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى ببلدة البرلس حصنا على ساحل البحر المتو للمحافظة على الشواطىء المصرية من غارات الصليبيين وقد عرف هذا الحصن باسم البرج . ومنذ ذلك الو

عرفت بلدة البرلس باسم « البرج » واختفى اسمها الأصلى بينما احتفظ الإقليم والبحيرة باسم « البرلس » .
(محمد رمزى ، قسم ٢ ، جـ ٢ ، ص ٣٣) .

(٢١٤) فى الأصل و (ط) « التخوم » وفى (ب) « النحوم » وهو تصحيف . وقد أثبت ما جاء فى المصادر القديمة . قال ياقوت (١ / ٤٩٧) « البجوم بالضم بلد يضاف إليه كورة من كور أسفل الأرض بمصر فيقال : كورة الأوسية والبجوم » وقال القلقشندى (٣ / ٣٨٣) : إنها من الأسماء المندرسة ولا يعرف مكان بالديار المصرية اسمه البجوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة على القرب من الإسكندرية صارت مستنقعا للمياه المنصرفة عن البحيرة » .

(٢١٥) لم أتمكن من تحديد موقع هذه الكورة ، فهى لم ترد إلاّ عند ابن خرداذبة (ص٨٢) . ويبدو أن البكرى أخذها عنه .

(٢١٦) كورة البحيرة تشغل المجرى الأدنى من خليج الإسكندرية ، أى ما يقابل مركزى كفر الدوار وأبو حمص فى شمال محافظة البحيرة الحالية (انظر : عبد العال الشامى : مدن الدلتا فى العصر العربى ، ص ٣٣٣) .

(٢١٧) لا تزال المدينة التى تنسب إليها الكورة معروفة ، وهى من المدن القديمة فى مصر فقد كانت عاصمة مصر فى عهد الأسرة الثلاثين الفرعونية . وتقع اليوم فى محافظة الغربية شرقى مدينة المحلة الكبرى على الضفة الغربية لفرع دمياط .

(٢١٨) الحوف الشرقى والحوف الغربى وأسفل الأرض وبطن الريف ليست من أسماء الكور ، إذ تطلق على الأقسام الكبرى للدلتا ، فأولها هو شرقى الدلتا وثانيها غربى الدلتا وثالثها شمالى الدلتا ورابعها وسط الدلتا . وقد تابع البكرى هنا ابن خرداذبة فى نصه عن الكور .

(٢١٩) فى الأصل و (ب) « السرور» وفى (ط) « الثرود » ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت . وقد وردت البشرود فى معظم المصادر القديمة ، وذكرها قدامة بن جعفر (ص ٢٤٨) .. البشروط « بالطاء . قال ياقوت (١ / ٦٣٣) « البشرود بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والدال مهملة كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض » . وذكر القلقشندى (٣ / ٣٨٥) أنها من الأسماء التى جهلت ، ويرى محمد رمزى (قسم أول ص ٣١) أن البشرود تقع فى ناحية سيدى غازى بمركز كفر الشيخ بالغربية ويدل عليها حوض البشروط رقم ١١ المحرف عن البشرود » .

(٢٢٠) وفى جميع النسخ « المغيرة » وهو تصحيف ، فالكلمة محرفة عن (نقيزة) التى ذكرها ابن خرداذبة وقدامة . وذكر ياقوت (٤ / ٨٠٨) أنها كورة من كور أسفل الأرض ثم من بطن الريف من أرض مصر » وذكرها القلقشندى (٣ / ٣٨٥) ضمن الكور الواقعة بين فرقتى النيل الشرقية والغربية وذكر بعدها البشرود .

ويرى محمد رمزى (قسم أول ص ٤٦٣) أنها قد اندثرت ومكانها اليوم كوم نقيزة الواقع فى الجنوب الغربى من أراضى ناحية أبو ماضى بمركز بيلا بالغربية . ومن قوله « البحيرة » إلى هذا الموضع سقط من الأصل وأثبتناه من (ط) و (ب) .

(٢٢١) فى الأصل « أطرارية » وفى (ب) : « أطوارية » وفى (ط) « أوطارية » والصواب ما أثبت (أنظر ابن خرداذبة ص ٨٢ وقدامة ص ٢٤٧ (. وذكرها ياقوت الحموى (٣ / ٥٢١) بدون ألف « طرابية » وذكر أنها من كور مصر بأسفل الأرض .

(٢٢٢) فى (ب) « فرشط » بالشين المعجمة ، وقد أثبت ما جاء فى الأصل و (ط) ، وهو يوافق ما جاء عند الدمشقى فى كتابه نخبة الدهر (ص ٢٣١) ، وورد الاسم عند ابن خرداذبة (ص ٨٢) طاء بعدها ألف ، وهى من كور الحوف الغربى .

(٢٢٣) فى الأصل (الجزيرة) وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (ب) . والجيزة معروفة .

(٢٢٤) فى الأصل و (ط) « المدقوق » وفى (ب) « المدة » « فوق » ووصلت الكلمة الثانية بما بعدها وهو تصحيف . والصواب ما أثبت ، كذا وردت عند ابن خرداذبة (ص ٨٢) وقدامة (ص ٢٤٧) واليعقوبى (ص ٣٣٩) ، وذكرها ياقوت (١ / ٣٠٥) بالذال المعجمة وقال : إنها من كور الحوف الغربى .

(٢٢٥) الشراك من كور الحوف الغربى ، ذكرها محمد رمزى فى قاموسه (قسم ٢ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥) تحت اسم الاشراك ، وذكر أنها قرية قديمة إسمها الشراك .

وعند كلمة الشراك تبدأ - بدون بسملة - نسخة دير الأسكوريال ، التى سنرمزلها بالرمز (س) والكلام المتعلق بكور مصر فى هذه النسخة هو « شراك ، أشمين ، الأشمون ، بورة الفسطاط ، بلبيس » ، وهى بهذا تنقص ترنوط وأسيوط والنص المتعلق بأشمون الذى جاء فى الأصل وبقية النسخ بعد كلمة بورة . وتزيد عن غيرها باسمين هما الفسطاط وبلبيس، والأولى هى مدينة عمرو بن العاص التى بناها بعد فتحه لمصر، وتقع مابين النيل وتلال المقطم جنوبى القاهرة الحالية ، ومازالت أطلالها ظاهرة هناك إلى وقتنا الحاضر ، وهى من المدن وليست من الكور .

أما بلبيس فهى من المدن المصرية القديمة ، وهى الآن مدينة ومركز فى جنوب محافظة الشرقية . وقد ذكرها كل من ابن خرداذبة وابن حوقل والمقدسى ، وبينوا أنها على الطريق من الفسطاط إلى الشام ، وقد كانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى أيام العرب . أما ضبط الاسم فيقول ياقوت (١ / ٧١٢) « بِلْبِيس بكسر الباءين وسكون اللام وباء وسين مهملة كذا ضبطه نصر الإسكندرى ، قال : والعامة تقول بلبيس « بكسر الباء الأولى وفتح الثانية واللام والياء ساكنة . ويذكر القلقشندى (٣ / ٤٠١) أن الجارى على الألسنة ضم الباء فى أولها .

(٢٢٦) ذكرها محمد رمزى فى قاموسه تحت اسم الطرانة ، وأنها من الأسماء المصرية القديمة فقد وردت فى جغرافية أميلينو باسمها القبطى Ternout الذى يطابق ما جاء فى المصادر العربية ، وتقع على مخرج خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد فى غرب الدلتا . (قسم ٢ ، ج ٢ ، ص ٣٣١) .

(٢٢٧) كذا فى الأصل و (ب) و (ط) ، وفى (س) « أشمين » بالنون . ولم أجد هذا الاسم بين أسماء الكور المصرية . وقد أورده البكرى عند ذكره للمسافات ، وذكر أن أشمير تقع بين أرمنت وأسوان .

(٢٢٨) من المدن المصرية القديمة وتقع على فرع النيل الشرقى بين دمياط وفارسكور وقد اختفى إسمها اليوم ، ويرى محمد رمزى أن مكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ جنوب مدينة دمياط لسبعة كيلو مترات (قسم أول ص ١٧٨) .

(٢٢٩) كذا ورد نص البكرى عن « أشمون » ، وهو هنا يشير إلى أكثر من موضع بهذا الاسم . ولعله يقصد بالأول، كورة الأشمونين ، التى ذكرها ياقوت (١ / ٢٨٣) « وأهل مصر يقولون الأشمونين وهى مدينة قديمة أزلية عامرة آهلة إلى هذه الغاية ، وهى قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربى النيل ذات بساتين ونخل كثير » ونقل محمد رمزى (قسم ثان ص ٤ ، ص ٥٩) عن أميلينو فى جغرافيته أن أشمون مدينتان ، إحداهما باسم أشمون رقم ١ والثانية باسم أشمون رقم ٢ . وكانت الأولى واقعة على النيل ، فلما شعر أهل تلك المدينة بقرب

وصول الملك قمبيز إليهم تخلوا عنها والتجأوا إلى الثانية . ولما اختفى اسم الأولى صاروا يطلقون على الثانية اسم الأشمونين . ويرى محمد رمزى أن مدينة الأشمونين القديمة لا يزال مكانها ظاهراً فى التل الواقع بجوار بلدة الأشمونين الحالية .

أما أشمون طناح ، فقد أوردها ياقوت فى معجمه (١ / ٢٨٢) وكذلك ابن مماتى فى قوانين الدواوين (ص ٨٩) باسم أشموم طناح بالميم . وقال عنها ابن دقماق فى كتاب الانتصار« أشموم طناح وتعرف بأشموم الرمان ، قصبة كورة الدقهلية ، ومدينة ذات حمامات وأسواق وجامع وفنادق ، وذكر محمد رمزى (قسم ثان ، جـ ١ ، ص ٢٢٩) أنها من أقدم المدن المصرية » ، اسمها القبطى . (Chemoun Erman) ومنها اسمها العربى . وهى اليوم قرية عادية تقع شرقى مدينة دكرنس بمحافظة الدقهلية وتعرف باسم « أشمون الرمان » . وأشمون أو أشموم طناح غير أشمون الجريسات التى أشار إليها ياقوت فى معجمه (١/ ٢٨٢) ، فالأخيرة هى أشمون البلدة المعروفة فى جنوب محافظة المنوفية .

أما الأشمانان وأشمون بن كرسلة وأشمون الغراض فلم أهتد إلى مواقعها ولم أجد هذا النص فى المصادر العربية القديمة .

(٢٣٠) فى (ط) : « بنى » .

(٢٣١) فى (ط) : « وكنت أمشى » وفى (ب) و(س) : « وكنت فى مشاربه » .

(٢٣٢) فى (ب) : « فإن كان قد أحكموا بناءه» وفى (س) « بنيانه » .

(٢٣٣) « العجب » سقطت من الأصل وهى فى (ط) وفى (ب) : « فهذا أعجب » ، وفى (س) : « صخرين فهو أعجب » .

(٢٣٤) سقطت « فيه » من (س) .

(٢٣٥) فى (ط) و(ب) : « بالمناقير » .

(٢٣٦) سقطت « فيه » من (س) .

(٢٣٧) فى جميع النسخ « المخاريق » .

(٢٣٨) فى (ب) : « فإنها » .

(٢٣٩) فى (س) « الحتولانى » وهو تصحيف .

(٢٤٠) فى (ط) : « كنيسته» وفى (س) : « بباب كنيسته » وفى (ب) : « كنيسة » .

(٢٤١) سقطت « هذه » من (ب) .

(٢٤٢) فى (ط) : « تلومونى » .

(٢٤٣) فى (ب) : « وأنا » .

(٢٤٤) فى (ط) : « مثقال » . والعبارة فى (س) : « أنا فلان بن فلان اشتريتها الذراع منها بمائة درهم » وسقط قوله : « تلومونني على صغر هذه الكنيسة » .

(٢٤٥) سقطت « قال » من (س) .

(٢٤٦) فى (ط) : « القبطى » .

(٢٤٧) فى الأصل « السحرة مصر » ، وفى (ط) سحرة فرعون » .

(٢٤٨) فى (ب) « عشرين فرسخا » .

وما بين القوسين كتب فى الأصل بحروف الجمل ، وقد رمز له بالرمز « ح » وكذلك المسافات المذكورة فى الكلام الآتى بعد .

وفى (س) و (ط) ذكرت المسافة باللفظ وأضيفت إليها الوحدة المستخدمة وهى الفرسخ .

(٢٤٩) فى (س) : « وبين الفيوم ومصر » وهو خطأ .

(٢٥٠) فى (ب) « عشرة فراسخ » .

(٢٥١) فى (ط) : « وبين أنهاس والبهنس » وفى (س) : « وبين أنهاص والمنهمس » . وفى (ب) « وبين أنهاس والبهنسى » والصواب ما أثبت .

(٢٥٢) كذا فى (ط) وفى (س) « اثنا عشر » ، والرقم فى (ب) مكتوب برمز غامض هو« ــم ما » ولا علاقة له بحساب الجمل . وسيتكرر الرمز الغامض فى هذه النسخة فى المواضع التالية .

(٢٥٣) فى (س) و (ط) : « وبين البهنس والغمر ثلاثة فراسخ » وفى (ب) : « وبين البهنسى » .

ولم أجد الغمر المشار إليه فى هذا الموضع والموضع التالى بعد . ويرى الدكتور عبد العال الشامى أن صحة « الغمر » « القيس » واتفق مع الدكتور عبد العال فى هذا على الرغم من اختلاف رسم الكلمتين ؛ لسببين أولهما عدم وجود بلدة باسم « الغمر » فى الصعيد ، والثانى قرب « القيس » من البهنسى . يقول القلقشندى فى صبح الأعشى (٣ / ٣٧٧) : « كورة القيس » كانت مدينة فى القديم ، وهى الآن قرية معدودة من عمل البهنسى أيضا » . ووردت فى التحفة (فى ١٦٢) من أعمال البهنساوية .

وانظر : القاموس الجغرافى (قسم ثان ، جـ ٣ (ص ٢١٤ - ٢١٥) . وأمين محمود عبد الله (ص ٨٩ ، ٩٠) .

(٢٥٤) فى (ب) : « وبين الغمر وطحاك » . وفى (س) « وطحاك » . ومن قوله « وبين أهناس » .. إلى هذا الموضع سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٢٥٥) فى (س) : « طحاك » وهو تصحيف . وكتب العدد فى الأصل بحروف الجمل .

(٢٥٦) فى (ط) و (س) : « القهقى » ، وهى تكتب بالألف المقصورة والممدودة . وورد عدد الفراسخ فى الأصل بحساب الجمل (ح) .

(٢٥٧) فى الأصل و (ط) فى هذا الموضع والذى بعده وبين « أخميم وأنسانة » وفى (س) «وأساقه» وهو تصحيف . وصواب ذلك « أبشاية » يقول محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثان ، جـ ٤ ، ص ١٠٩) : إنها من أقدم المدن المصرية وإن اسمها وقت دخول العرب مصر هو أبشاية ، وقد هجر سكانها مكانها القديم فى أيام حكم الدولة الأموية فى القرن الخامس الهجرى لوقوعها فوق تلال مسبخة جعلتها عرضة للتلف وغير صالحة للإقامة فيها ، فلما أنشأوا القرية الجديدة الواقعة على النيل شرقى البلدة القديمة سموها « المنشأة » لحداثة مبانيها وهى إحدى مراكز محافظة سوهاج . ومن قوله « وبين طحا والأشمون » إلى هنا سقط من (ب) .

(٢٥٨) كذا وردت فى جميع النسخ ، وهى غير بورة التى وردت أثناء الكلام عن الكور ، فالأخيرة كورة واقعة فى الوجه البحرى ، أما بورة هذه فلم ترد فى المصادر العربية بهذه الصورة ، بل وردت بلسبورة وهى من المدن المصرية القديمة ، ذكرها أميلينو فى جغرافيته باسم (Polis Pouro) وأوردها محمد رمزى فى قاموسه (قسم ٢ ، جـ ٤ ، ص ١٢٥) تحت اسم « بلصفورة » ، وذكر أنها من الأعمال الإخميمية ، ووردت فى صبح الأعشى وقوانين الدواوين وتحفة الإرشاد تحت اسم « بلسبورة » وفى التحفة السنية « بلسفورة » . وذكر محمد رمزى أن العامة

الآن يسمونها باسمها القديم « بلسبورة » ، وبعضهم يقول « بلزبورة » . ولما كان المحذوف من الاسم القديم عند البكرى هو كلمة مدينة (Polis) فقد أبقينا على ما ورد بالنسخ المخطوطة .

(٢٥٩) ورد قوله « ثمانية فراسخ » فى الأصل بحروف الجمل ، أما النسخة (ب) فقد وردت المسافة بالرمز (S) ، وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (س) .

(٢٦٠) فى الأصل « وبين بوصير وبورة » ، وقد التزمت بما جاء فى بقية النسخ وكذلك بالنظام الذى سار عليه البكرى . وتقع بوصير المذكورة هنا جنوبى قفط بحوالى ١٥٠٠ متر ، وقد أوردها محمد رمزى ضمن البلاد المندرسة (قسم ١ ، ص ١٨٠) وقال : إن محلها يعرف اليوم باسم « نجع كوم الكفار » من توابع ناحية الشيخية بمركز قوص . راجع التعليق على شابور صير » أثناء الكلام عن الكور المصرية .

(٢٦١) ورد قوله « سبعة فراسخ » فى الأصل بحروف الجمّل ، أما النسخة (ب) فقد ورد بالرمز (جره) ، وقد أثبت ما جاء فى (س) .

(٢٦٢) ورد قوله « ثمانية فراسخ » فى الأصل بحروف الجمّل ، أما النسخة (ب) فقد ورد بالرمز (كـ). ومن قوله « وبين بورة وبوصير » . إلى هذا الموضع سقط من (ط) ، والعبارة فى (س) « وبين بوصير وأسمير وأزميت سموا ثمانية فراسخ » ولم ترد العبارة الخاصة بالمسافة بين أرمنت وأسمير الآتية بعد .. والاضطراب واضح .

(٢٦٣) فى الأصل « وقال : هما بوصيران الصغير » . وقد أثبت ما جاء فى بقية النسخ ، فقد سقطت من الأصل كلمة « بوصير » وحرفت كلمة « الصعيد » . وفى (س) « السعيد » بالسين .

(٢٦٤) بوصير اسم لعدة مواضع فى مصر ، وبوصير سمنود من المدن المصرية القديمة ، وقد وردت فى كتب الجغرافية العربية عند اليعقوبى وياقوت وغيرهما . وتقع إلى الجنوب من سمنود على فرع دمياط بمحافظة الغربية .

(٢٦٥) فى (ط) « أسمير » وكذلك فى الموضع التالى ، علما أنه ورد فى نفس النسخة عند كلامه عن الكور « أشمير » بالشين المعجمة . وفى (ب) « أشمير سمرى » ، ولم أجد أشمير أو أشمير سمرى فى المصادر التى بين يدى .

(٢٦٦) كتبت المسافة فى الأصل بحروف الجمل ، وفى (ب) بالرمز (ء) .

(٢٦٧) كتبت المسافة فى الأصل بحروف الجمل ، وفى (ب) بالرمز ([illegible]) .

(٢٦٨) فى (س) « فرسخان » ، وورد قوله « ستة فراسخ » فى الأصل بحروف الجمّل ، أما النسخة (ب) فقد ورد بالرمز ([illegible]) وقد أثبت ما جاء فى (ط) .

(٢٦٩) « بنا » من المدن المصرية القديمة ، وتقع إلى الجنوب من بوصير المتقدمة الذكر ، وتسمى فى بعض المصادر « بنا بوصير » لمجاورتها لها (القاموس الجغرافى ، قسم ٢ ، جـ ٢ ص ٧٠) وقوله « فرسخ » ورد فى الأصل بحروف الجمل ، ويعادل نفس الرقم الذى جاء فى (س) ، وفى (ط) « فرسخ واحد » ، وفى (ب) ورد بالرمز ([illegible]).

(٢٧٠) لم أجد « أبون » فى المصادر العربية ، ووردت العبارة فى (ب) « وبين أبون أبوان وسمنود [illegible]» وفى (س) « وبين أبر وسمنود فرسخ » ، ووردت العبارة فى الأصل بحروف الجمل .

(٢٧١) فى الأصل « برسا » وفى (ب) « برسى » ، وفى (س) و (ط) « بوسى » ، وكل هذه الألفاظ مصحفة عن « نوسا » التى سبقت الإشارة إليها عند الكلام عن الكور ، وينطبق هذا على الموضوع التالى . ووردت كلمة « فرسخ » التى بعدها فى الأصل بحروف الجمل ، وفى (ب) بالرمز ([illegible]) .

(٢٧٢) وردت المسافة فى الأصل بحروف الجمل ، وتعادل نفس الرقم الوارد فى (ط) ، وفى (س) « وبين بوسى ودميرة ثلاثة فراسخ » ، وفى (ب) « وبين سمنود وبرسى ودميرة [illegible]».

(١٧٣) فى الأصل و(س) « دملقة » وفى (ط) و(ب) « دمقلة » ، وكذلك فى الموضع التالى وكله تصحيف . أنظر التعليق على دقهلة فى كلامنا عن الكور .

(٢٧٤) ما بين القوسين سقط من الأصل وهو فى (س) و(ط) ، ووردت المسافة فى (ب) بالرمز (مما) .

(٢٧٥) وردت المسافة فى الأصل بحروف الجمل ، وفى (ب) بالرمز (ك) .

(٢٧٦) تقع تونة فى بحيرة المنزلة ، وتعتبر من المدن الصناعية القديمة فى مصر ، يضرب المثل بها فى صناعة الثياب القطنية والحريرية ، وقد ذكرت فى معظم المصادر العربية القديمة ، ويرى محمد رمزى (القاموس الجغرافى ، قسم ١ ، ص ١٩٩) أن موقعها اليوم بجزيرة سيدى عبد الله بن سلام الواقعة فى بحيرة المنزلة ، شرقى بلدة المطرية ، على بعد أربعة كيلو مترات منها ، ولا تزال أطلالها ظاهرة بالجزيرة المذكورة باسم « كوم ابن سلام » .

(٢٧٧) فى (ط) « دبقى » وفى (س) « دفقوا » وفى (ب) «دسفرا» . ودبقو من المدن الصناعية القديمة فى مصر ، ولها شهرة فى صنع الثياب ، أوردها محمد رمزى فى قاموسه (قسم ١ ، ص ٢٤٣) تحت اسم « دبيق » ، وهو الاسم الذى سماها به كل من الإدريسى وياقوت الحموى والزبيدى فى تاج العروس . ووردت « دبقو » فى كتاب الانتصار لابن دقماق .

ويرى محمد رمزى أن دبيق هذه قد اندثرت ، ومكانها يعرف اليوم بتل دبقو أو دبجو بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لناحية صان الحجر بمركز فاقوس بالشرقية ، وعلى بعد خمسة كيلو مترات ونصف من صان الحجر.

(٢٧٨) فى (ب) كتبت المسافة بالرمز (سـ) .

(٢٧٩) فى الأصل « ذكرنا » ، وقد أثبت ما جاء فى بقية النسخ .

(٢٨٠) سقطت كلمة الأرض من الأصل وهى فى بقية النسخ .

(٢٨١) فى الأصل و(ب) و(ط) « ميدق » وفى (س) « منديق » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا التصحيف ، وأن منوف العليا هى منوف الواقعة فى محافظة المنوفية أما منوف السفلى فهى التى تعرف اليوم بمحلة منوف وتقع إلى الشمال من مدينة طنطا .

(٢٨٢) سقطت المسافة من الأصل وأثبتها من (ط) . وكتبت المسافة فى (ب) بالرمز (سـ) .

(٢٨٣) فى الأصل « ومنه » وقد أثبت ما جاء فى بقية النسخ . ووردت المسافة التى قبلها فى (ب) بالرمز (سـ) .

(٢٨٤) فى الأصل و (ط) « فيد » وفى (ب) « تمد » وهو تصحيف ، ولعل ما أثبته هو الصواب . وتقع تيدة فى محافظة كفر الشيخ جنوب بلدة سيدى سالم ، ولا تزال معروفة بهذا الاسم . وهى من المدن المصرية القديمة وقاعدة لإحدى الكور المصرية ، وقد وردت فى كتابى ابن خرداذبة واليعقوبى (أنظر القاموس الجغرافى ، قسم ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣٩) .

(٢٨٥) كتبت المسافة فى الأصل بحروف الجمل ، وتعادل ستة فراسخ ، وفى (ط) « سبعة فراسخ » ، ووردت المسافة فى (ب) بالرمز (3) ، وسبق أن ورد هذا الرمز للدلالة على المسافة بين بنا وبوصير ومقدارها فرسخ واحد .

(٢٨٦) فى جميع النسخ « السرور » ، وكذلك فى الموضع التالى ، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبت ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا التصحيف .

(٢٨٧) كتبت المسافة فى الأصل بحروف الجمّل ، وفى (ب) كتبت بالرمز (سـ) وهو نفس الرمز الذى ورد فى هذه النسخة للبيان عن المسافتين التاليتين كما أنه نفس الرمز الذى ورد للبيان عن المسافة بين الفسطاط ومنوف العليا .

(٢٨٨) فى جميع النسخ « المغيرة » وكذلك فى الموضع التالى وقد سبقت الإشارة إلى هذا التصحيف ، ورجحنا أن كلمة المغيرة مصحفة عن « نقيزة » وموضعها من الطريق هنا يؤكد ذلك الترجيح .

(٢٨٩) سقط قوله « ستة فراسخ » من الأصل وهو فى (ط) . وكتبت المسافة فى (ب) بالرمز (سـ) .

(٢٩٠) كتبت المسافة فى الأصل بحروف الجمّل ، وفى (ب) بالرمز (سـ) . ومن قوله « من الفسطاط » . إلى هذا الموضع مختلف فى نسخة الأسكوريال ، فالنص هناك « من الفسطاط إلى منديق العليا إلى السفلى عشرون فرسخا ومنها البدعشرون ، ومنها أعنى فيدى إلى الشرود عشرون ميلا ومن الشرود إلى المغيرة عشرين فرسخا ومن المغيرة إلى البرلس عشرين فرسخا . وورود كلمة عشرين بالياء خطأ نحوى والصحيح « عشرون » .

(٢٩١) فى (ط) « من الصخور » وفى (ب) « من الصخرة » .

(٢٩٢) فى (ب) « وبيوتها كلها منقورة من الصخر » وفى (ط) « وبيوتها منقورة من الصخر » .

(٢٩٣) فى (ط) « على كل بيت » .

(٢٩٤) فى (ب) « كالمراسى » بدون نقط .

(٢٩٥) فى (ب) « أساطير » .

(٢٩٦) فى (س) « وفى كل صخرة » .

(٢٩٧) فى (ب) « فيها » .

(٢٩٨) ما بين قوسين زيادة من (ط) .

(٢٩٩) فى (ب) « تماثيل » .

(٣٠٠) سقطت « لابنه » من (ط) ، وفى (س) و(ب) « آل » .

(٣٠١) سقطت « أزيد من » من (س) .

(٣٠٢) فى (س) : « فيها » .

(٣٠٣) سقطت و« وهى » من (س) .

(٣٠٤) فى فضائل مصر لعمر بن محمد بن يوسف الكندى (ص ٥٢) . ومعجم البلدان (٣ / ٧٦٣) : « أساس » .

(٣٠٥) فى (س) : « فرسخا » وهو خطأ .

(٣٠٦) فى فضائل مصر (ص ٥٢) ومعجم البلدان (؟ / ٧٦٣) : « شبه صومعتين » .

(٣٠٧) فى (ط) و(س) و(ب) : « أحد العمودين » .

(٣٠٨) عند هذا الموضع ينتهى السقط من نسخة الهند .

(٣٠٩) فى (ب) : « جرية » .

(٣١٠) فى (هـ) « واحضر » .

والعبارة السابقة فى فضائل مصر (ص ٥٢) « وعلى رأسها شبه الصومعتين من نحاس فإذا جرى النيل قطر من رأسها ماء ، وتستبينه وتراه منها واضحاً . ينبع » . وفى معجم البلدان (٣ / ٧٦٣) « فإذا جرى النيل « رَشَحَتَا وقطر الماء منها » .

(٣١١) فى (ط) « منقطع » .

(٣١٢) فى (هـ) « النجوم » وفى (س) « فمن اليحموم » ، وفى (ب) « من التخوم » .

وقد أورد البكرى اسم اليحموم فى معجمه (ص ١٣٩١) فقال نقلا عن الحربى « اليحموم جبل بمصر » وروى من طريق أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو أنه سأل كعبا عن المقطم : أملعون هو ؟ قال : ليس بملعون ، ولكنه مقدس من القصير إلى اليحموم » .

وانظر فتوح مصر : (١٥٧) .

(٣١٣) فى النسخ الأخرى : « بعض أهل العلم » .

(٣١٤) فى (ب) : « العرس » وكذلك فى الموضع التالى وهو تصحيف .

(٣١٥) عبارة « وكذلك ذكره كعب الأحبار » سقطت من النسخ الأخرى .

(٣١٦) فى (ط) : « والمقطم » .

(٣١٧) فى « النسخ الأخرى وفى التوراة » .

(٣١٨) فى (ط) : « منقطع » .

(٣١٩) سقطت « جبل » من (س) .

(٣٢٠) فى (هـ) : « للإبل » ، وهو تصحيف .

(٣٢١) فى (هـ) : « وبنى » .

(٣٢٢) فى (س) : « يقصدون تلك الآثار » .

(٣٢٣) فى (س) : « البناء » .

(٣٢٤) سقطت « موقدا » من (س) .

(٣٢٥) سقطت « إذا ركب » من (هـ) .

(٣٢٦) سقطت « ومن عين شمس » من (س) .

(٣٢٧) فى الأصل « موقدا » .

(٣٢٨) فى (س) « كان بصفح » .

(٣٢٩) فى (ب) يصفح « وسقطت كلمة » جبل « التالية من (س) و (هـ) .

(٣٣٠) فى (ط) : قال له عمرو : ما بال جبلكم » . وفى (ب) و (هـ) و (س) : « قال له ما بال جبلكم » .

(٣٣١)« ليس عليه نبات » سقطت من الأصل وهى فى بقية النسخ .

(٣٣٢) فى النسخ الأخرى « فلو شققنا سفحه بنهر من النيل وغرسناه » .

(٣٣٣) سقطت « له » من (س) و (ب) و (هـ) .

(٣٣٤) فى (س) « شجرا ونبتا » وفى (هـ) « أشجارا ونبتا » وفى (ب) « ونبتا » غير منقوطة .

(٣٣٥) فى الأصل « مصرم بن نيصر » وفى (ب) و (هـ) و (س) « مصر » كما أثبت . وسقطت « نيصر » من (س) و (هـ) .

وفى (ط) « مصريم » . وقد ورد هذا الاسم فى المراجع العربية فى صور عدة منها ، غير ما ذكرت ، « مصرام بن بيصر » .

(٣٣٦) فى (س) : « ينزله » .

(٣٣٧) « تكليا » زيادة من (س) .

(٣٣٨) « الله » زيادة من (ط) .

(٣٣٩) فى (س) « وتشامخت الجبال » .

(٣٤٠) سقطت « إليه » من (س) .

(٣٤١) فى (س) : « يخبره » .

(٣٤٢) فى (ب) و (هـ) : « مما » .

(٣٤٣) عند هذا الموضع يسقط من نسخة باريس جزء كبير ينتهى عند كلامه عن منار الإسكندرية الآتى بعد .

(٣٤٤) سقطت « إليه » من (س) .

(٣٤٥) فى (ط) و (هـ) : « معوضك » .

(٣٤٦) فى (س) و (هـ) « وكتب » .

(٣٤٧) فى الأصل « لا علم الشجر الجنة إلاّ المسلمين » وفى (س) « لا علم بشجر الجنة إلا المسلمين » ، وقد أثبت ما ورد فى (ط) و (هـ) لموافقته للمعنى .

(٣٤٨) فى (س) « عمر » .

(٣٤٩) فى النسخ الأخرى « تركوا » .

(٣٥٠) سقطت « ولا غرس » من (هـ) وفى (س) « غراس » .

(٣٥١) فى (س) : « فأخبره جميعهم أنه » .

(٣٥٢) فى (هـ) « غرس من غروس» وفى (س) : « غرس من غراس » .

(٣٥٣) سقط من (س) قوله : « فلذلك تركناه من غير عمارة » .

(٣٥٤) فى (هـ) : « إلاّ أخيار المؤمنين والعبارة فى (س) : « فكتب إليه عمر : « إنى لا أعلم فى الدنيا غرس من أغراس الجنة إلا أجساد خيار المسلمين » .

(٣٥٥) فى فتوح مصر (ص ١٥٧) يذكر ابن عبد الحكم أن سبب كتابة عمرو بن العاص إلى عمر رضى الله عنهما بشأن المقطم أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فعجب عمرو من ذلك ، وقال : اكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا تزدرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها .. » إلى آخر القصة .

(٣٥٦) سقطت « ابن لهيعة » من (س) .

(٣٥٧) فى (س) : « تراب » .

(٣٥٨) فى (هـ) : « يقبر » .

(٣٥٩) سقطت « إن » من الأصل .

(٣٦٠) فى الأصل « فيها رجلا » وفى (هـ) « بها رجل » .

وفى (س) « فيها رجل » وفى (ط) : « فيه رجل » .

(٣٦١) فى (هـ) : « وقيل عمر » .

(٣٦٢) فى الأصل « عمرو » وفى (ط) و (هـ) « عمر » وفى « س « : « عمرا » .

(٣٦٣) فى (س) : « ولا أطيب ترابا منها » .

(٣٦٤) فى فتوح مصر (ص ١٥٧) : « الحرث » .

(٣٦٥) فى (س) « موضع » .

(٣٦٦) من قوله « يصير إليه » إلى هذا الموضع سقط من الأصل ، وقد أثبت ما ورد فى (ط) ، والعبارة فى (س) « يصل إليها من خليج شابور ، وهو الخليج الكبير .. » ، وفى (هـ) « تسير إليه من خليج سابورصير ، فإذا وصلا إلى نصف الطريق وجدا حجرا ... » .

(٣٦٧) فى (ط) « مائتين » ، وفى مكان هذه الكلمة فى نسخة (هـ) بياض .

(٣٦٨) زيادة من (س) .

(٣٦٩) فى النسخ الأخرى « لا يدرى من أى زمن » .

(٣٧٠) فى (ط) و (هـ) : « فى » .

(٣٧١) فى (س) لا يعدل « مثلها » .

(٣٧٢) سقطت كلمة « ذكر » من بقية النسخ وكذلك فى العناوين التالية .

(٣٧٣) فى (س) : « على » .

(٣٧٤) زيادة من (س) .

(٣٧٥) فى النسخ الأخرى « والفوائد » .

(٣٧٦) سقطت « فى » من (هـ) .

(٣٧٧) فى (هـ) : « قد تقدم وصفه » .

(٣٧٨) فى (هـ) « مدينة أنصبا » بالباء وكذلك فى المواضع التالية .

(٣٧٩) فى (هـ) و (س) : « خراب » .

(٣٨٠) فى (هـ) و (ط) « بها » .

(٣٨١) فى (هـ) « حفر » ووردت فى كتاب الاستبصار (ص ٨٥) « جفن » دون تحقيق . والصواب ما جاء فى الأصل ، وانظر معجم ما استعجم (١ / ١٩٩) و (٢ / ٤٥٨) ومعجم البلدان : (٢ / ٢٩٥) .

ذكرها محمد رمزى فى البلاد المندرسة ، وذكر أنها كانت واقعة بحوض الكوم الأحمر رقم ١٩ بأراضى ناحية المطاهرة البحرية بمركز المنيا بمديرية المنيا ، ولا يزال بهذا الحوض الواقع شرقى النيل بجوار الجبل أطلال مدينة حفن القديمة ، ومبينة على الخريطة باسم أطلال مدينة هبنو ، وهو الاسم القبطى القديم لهذه المدينة ، ومن هذا الاسم جاء اسمها العربى (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ص : ٢٢٩) .

(٣٨٢) من قوله : «وكان فيها » إلى هذا الموضع سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٣٨٣) فى (هـ) « هناك » .

(٣٨٤) فى (س) « الساحل » .

(٣٨٥) فى الأصل « الأمسور » وقد أثبت ما ورد فى بقية النسخ ، ولم أجد اسم هذا الموضوع فى مصادر التحقيق .

(٣٨٦) فى (س) : « لا يقدر » .

(٣٨٧) فى (هـ) : « على أن يقرب » .

(٣٨٨) فى (ط) و (هـ) « فى حد » .

(٣٨٩) فى (هـ) و (س) « فى » .

(٣٩٠) فى (س) و (هـ) « مثل » .

(٣٩١) فى (هـ) : « وبينهما » .

(٣٩٢) فى (هـ) : « السكر » .

(٣٩٣) « منها » زيادة من (ط) .

(٣٩٤) فى (هـ) : « هناك » .

(٣٩٥) فى (هـ) « فيستخرج » .

(٣٩٦) فى الأصل « الصحارى » .

(٣٩٧) سقطت « أن » من (هـ) .

(٣٩٨) فى (ط) : « وانهارت » .

(٣٩٩) سقطت « سوق » من (س) ، وسقطت « ولها جامع » من (هـ) .

(٤٠٠) فى الأصل : « ولها » .

(٤٠١) سقطت : « ومن مدينة » من (هـ) .

(٤٠٢) فى (هـ) : « مدائن » .

(٤٠٣) فى (ط) « من مدن مصر » .

(٤٠٤) فى (ط) : « وهو » .

(٤٠٥) فى (س) : « حدود » .

(٤٠٦) من قوله « وبين أسوان » إلى هذا الموضع سقط من الأصل و (هـ) ، وهو فى (ط) ومن قوله « وهى آخر مدن الإسلام » إلى قوله « والعريش » سقط من (س) .

(٤٠٧) فى (س) « سور » ، وذكرها الحميرى فى الروض المعطار (ص ٢٣٦) « صورا » بالألف الممدودة أثناء كلامه عن دمقلة ، وذكر أن صوراً هى آخر بلاد النوبة .

(٤٠٨) فى الأصل و (ط) و (س) « عذاب » ، وكذلك فى المواضع التالية ، وقد أثبت ما جاء فى (هـ) الذى يوافق ما جاء فى المصادر العربية القديمة ، وعيذاب ميناء على ساحل البحر الأحمر يقابله فى الضفة الشرقية من البحر بلدة رابغ السعودية وكانت عيذاب فى طريق الحاج المصرى ومنها المجاز إلى جدة . وقد ذكرها محمد رمزى فى البلاد المندرسة (القسم الأول ، ص ٣٣٩) . والعبارة فى (س) « إلى ساحل النعم تسمى عذاب » .

(٤٠٩) سقطت « فى » من النسخ الأخرى .

(٤١٠) فى (س) « ومسجد الذى بنى » ، وفى (هـ) « الردبن » بدون نقط .

(٤١١) فى (هـ) » آخر محل وهو رباط أسوان » . (٤١٢) فى (س) « ساحل » .

(٤١٣) فى (ط) : « وهى مرفأ للحجاج » وفى (س) « وهو مرفأ الحج » وفى (هـ) « مرفى للحجاج » .

(٤١٤) فى الأصل « بدلس » وفى (ط) : « بولس » وفى (س) : « يولس » وفى هـ « سولس » بدون نقط ، والصواب ما أثبت عن البيان والإعراب للمقريزى (ص ٤٤) ، وقد ذكر أن عيذاب كانت لبنى يونس من ربيعة ملكوها عند قدومهم من اليمامة . وانظر أيضا الروض المعطار للحميرى (ص ٤٢٣) .

(٤١٥) فى (س) و (هـ) « ويقول » .

(٤١٦) فى الأصل « فرازنة وفى (ط) : « مرازبة » وفى (س) : «فرازبة » وفى (هـ) : « فرازنة » . والصواب ما أثبت (انظر البيان والإعراب للمقريزى (ص : ٤٩) .

(٤١٧) ما بين قوسين سقط من الأصل ، وهو فى (هـ) . والعبارة فى (ط) : « وهى رمال قليلة الماء وهى رمـال متهيلة » . وفى (س) : « وهى رمال قليلة الماء سائلة » .

(٤١٨) فى (س) « الأثر » .

(٤١٩) فى (س) « ولا تهتدى لمسلك » وفى (هـ) : « ولا تهتدى بمسلك » .

(٤٢٠) فى (ط) : « فيه » . وفى (س) : « بها » .

(٤٢١) فى (س) « بتماثيل معروفة يقيمونها فيهتدون بها » وهو ضرب طريف من مفارقات النسخ .

(٤٢٢) فى جميع النسخ « العلاقين وكذلك فى الموضع التالى ، وقد أثبت ما اتفقت عليه المصادر الجغرافية العربية . ولا يزال وادى العلاقى معروفا بهذا الاسم ، أما المدينة المنسوبة لهذا الوادى فقد ذكرها محمد رمزى فى قاموسه ضمن البلاد القديمة بمركز عنيبة (القسم الثانى ، جـ ٤ ص ٢٣١) .

(٤٢٣) فى (س) « نهير » .

(٤٢٤) فى (ط) : « الرمال » .

(٤٢٥) فى (س) و (هـ) : « ناس كثير » .

(٤٢٦) سقطت « كلب » من الأصل ، وهى فى بقية النسخ .

(٤٢٧) فى (س) و (هـ) « مسلمون » .

(٤٢٨) فى (هـ) : « يناجزون » .

(٤٢٩) سقطت « بهم » من (س) .

(٤٣٠) سقطت « بها » من (س) .

(٤٣١) فى النسخ الأخرى « ذمياط » وكذلك فى المواضع التالية ، وتكتب فى بعض المصادر العربية بالذال المعجمة .

(٤٣٢) وهى من القرى القديمة اسمها الأصلى « محلة المحروم » كما ورد فى النص . أما الاسم الحالى فهو «محلة المحروم» وتقع غربى مدينة طنطا ، على مسافة قريبة منها (القاموس الجغرافى - قسم ثان - جـ ٢ ص ١٠٦) .

(٤٣٣) فى (س) « طنوثى » وكذلك فى المواضع التالية وهو تصحيف . ووردت فى التحفة السنية لابـن الجيعـان (ص ٨٥) وقوانين الدواوين لابـن مماتـى (ص ١٦١) « طندتـا » وفى معجـم البلـدان (٣ / ٥٥٠) : « طَنْتَتَنَا » وقال : كأنه مركب مضاف طَنْت إلى ثنا ، من قرى مصر على النيل المفضى إلى المحلة .. وهى من كور الغربية بينها وبين المحلة ثمانية أميال » . وواضح من وصف البكرى الجغرافى لها أنها مدينة طنطا .

(٤٣٤) فى بقية النسخ : « الكثيرة » .

(٤٣٥) فى بقية النسخ « محروم » وسقطت كلمة « ساحل » من (هـ) .

(٤٣٦) فى بقية النسخ : « الشرق » .

(٤٣٧) فى (س) : « ميل » .

(٤٣٨) سقطت « هذا » من (س) .

(٤٣٩) من قوله « وهى مدينة كبيرة » إلى هذا الموضع سقط من (ط) .

(٤٤٠) الزيادتان « أيضا » و« مدينة » من (هـ) و(س) فالعبارة فى (هـ) : « ووراء مدينة مليج خليج آخر يذهب أيضا إلى دمياط » وفى (س) ووراء مدينة مليج الكبيرة خليج أيضا يذهب إلى مدينة ذمياط » .

(٤٤١) فى الأصل « تيطانى » وكذلك فى الموضع التالى ، وفى (ط) « تيطائى » فى الموضعين وفى (هـ) « تيطاى » وفى

الموضع الثانى « تيطابة » ، والصورة التى ورد عليها هذا الاسم فى (هـ) هى أقرب الصور إلى الصحة ، ففى قوانين الدواوين لابن مماتى (ص ١٢٢) . « تطاى » وفى نسخة أخرى منه « تطاية » ووردت « تطاية » أيضا عند ابن الجيعان فى التحفة السنية (ص ٧٤) ، وابن دقماق فى كتابه الانتصار (ص ٨٧) . أما ياقوت فى معجمه (١ / ٨٥٤) فأورد لها رسماً آخر وهو « تطية » بفتحتين وسكون الياء وهاء قال : بليدة بمصر فى كورة السمنودية ينسب إليها جماعة بمصر التطاى » .

ويرى محمد رمزى فى قاموسه (قسم ثان جـ ٢ ص : ٧) أن اسمها « طاطى » ثم حرف إلى « تطاى » فوردت فى قوانين ابن مماتى « تطاى » من أعمال السمنودية وهو اسمها الحالى وفى تحفة الإرشاد « تطاية » من الأعمال المذكورة ، وفى التحفة من أعمال الغربية ، وتسميها العامة « طية » أو « اطية » .

(٤٤٢) فى (ط) : « جاهلية » .

(٤٤٣) فى بقية النسخ : « كثيرة » .

(٤٤٤) من قوله « وهى على شاطىء النيل » إلى هذا الموضع سقط من الأصل وهو فى (ط) وهناك اضطراب ونقص فى نسختى (س) و (هـ) . ففى (س) بعد قوله : « إلى مدينة دمسيس » يقول « وهى كبيرة كثيرة الخير والبساتين ، وهى شاطىء النيل وبإزائها من العدوة الثانية مدينة تسمى بسرا دمسيس ويسمى أول المدخل إلى هذه البحيرة الديجر » . أما نسخة (هـ) ففيها بعد قوله : « كبيرة كثيرة الخير » ويسمى أول المدخل إلى هذه البحيرة الديجو وهى كالبحر عظما » .

(٤٤٥) فى (ط) : « فجنين » وفى الأصل وبقية النسخ « فجنجين » ووردت عند ابن حوقل وياقوت محرفة أيضا : « قجنجمة » وقد أثبت ما ذهب إليه الدكتور عبد العال الشامى (رسالة الماجستير ص ١٢٠) حيث حقق هذا الاسم فى الكتابات العربية ، وذكر أن قولنجيل تقع شمال المنصورة وهى على مخرج البحر الصغير من فرع دمياط .

(٤٤٦) فى (هـ) « حاملة » وهو تصحيف .

(٤٤٧) فى بقية النسخ : « الشرق » .

(٤٤٨) فى جميع النسخ يتصل النص السابق بالنص التالى الخاص ببحيرة (البرلس) ولا يعقل أن صاحب الوصف الدقيق لمصر يرى أن بحيرة البرلس (الاستوا أو نستراوه) تقع بين مصر (القاهرة) وبلبيس ، وربما كان هناك سقط فات على النساخ ، ولهذا وضعت النص التالى فى فقرة جديدة .

(٤٤٩) فى (ط) : « الاستراو » وفى (هـ) « الاسرا » بدون نقط . ويدل باقى النص أن المقصود بهذا الاسم هو بحيرة « البرلس » الواقعة فى شمال الدلتا شرقى مدينة رشيد . وقد اختلفت المصادر العربية فى اسم هذه البحيرة ، فقد ورد عند ابن حوقل (ص ١٣١) « البشمور قال « ومن البجوم إلى نستراوه مدينة كانت حسنة وهى على بحيرة البشمور » ولم تذكر بحيرة البشمور بعد ذلك ، وإنما ذكرت (البشمور) عند ياقوت (١ / ٦٣٤) أنها « كورة بمصر قرب دمياط وفيها قرى وريف وغياض ... » وذُكرت عند ابن مماتى (ص ٨٩) على أنها ناحية من نواحى الدقهلية . وذكر أبو الفداء فى تقويم البلدان (ص ١٠٧) أنها جزيرة قريبة من المنصورة وواضح أن ابن حوقل هو الوحيد الذى أورد اسم البشمور علما لبحيرة البرلس ، أما الجغرافيون من بعده فقد اطلقوا اسم المدينة التى أشار إليها ابن حوقل وهى « نستراوه » على اسم البحيرة ، ونجد هذا الاسم فى عدة صور منها « نسترو » فى معجم ياقوت (٤ / ٧٨٠) و « نستروه » عند أبى الفداء

(ص ٣٨) وأدق من وصفها ابن دقماق فى كتابه الانتصار (٥ / ١١٣) حيث قال : « ونستراوه بلدة بين البحر الملح وبين البحيرة المعروفة بها .. » وأشار إلى سنجار المذكورة فى نص البكرى بأنها فى وسط بحيرة نستراوة .

ويمكن الرجوع فى تحقيق هذا الأمر إلى رسالة الدكتور عبد العال الشامى « مصر عند الجغرافيين العرب » (ص ١٤٩ - ١٥٤) .

(٤٥٠) فى (س) : « وهى » .

(٤٥١) فى (س) « وفى هذه » .

(٤٥٢) فى (س) : « أكثر من السفن » .

(٤٥٣) العبارة فى الأصل : « وبين هذين البحيرتين جسر ممدود وبين بحيرة أخرى جسر يتصل بالبحر الكبير وفى (س) : « وبين هذه البحيرة جسر وبين بحيرة أخرى تتصل بالبحيرة الكبرى » وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (هـ) .

(٤٥٤) فى (س) بعد قوله « محكم التدبير » « وفى هذه الحفائر كور مصنوعة » .

(٤٥٥) فى (س) « أسدا هنالك » .

(٤٥٦) سقطت « على رتب » من (س) .

(٤٥٧) فى (ط) و (هـ) « يدخل » .

(٤٥٨) فى جميع النسخ « الملحة » وهو تصحيف . إذ أنّ الوصف الجغرافى ينطبق على مدينة المحلة .

(٤٥٩) فى (س) : « بها » .

(٤٦٠) ما بين قوسين سقط من الأصل .

(٤٦١) فى (هـ) و (س) : « وتسير » .

(٤٦٢) فى بقية النسخ : « فى جزيرة » .

(٤٦٣) سقطت « يعرف » من (س) .

(٤٦٤) فى (س) : « تلك الثياب » .

(٤٦٥) سقطت « اليوم » من بقية النسخ .

(٤٦٦) سقطت « الواحد » من (هـ) وفى بقية النسخ « فتبيض » .

(٤٦٧) فى الأصل « ودمياط » . والسياق يوافق ما جاء فى بقية النسخ .

(٤٦٨) فى (ط) و (هـ) « وشرعها » وفى (س) « فى سفنها وشرعها » .

(٤٦٩) فى بقية النسخ « الريح » .

(٤٧٠) فى (س) « تنيس » بدلا من « تعذب » .

(٤٧١) فى (ط) و (س) « ثم تملح ستة أخرى » وفى (هـ) ثم تملح ستة أشهر » .

(٤٧٢) فى بقية النسخ « انها » .

(٤٧٣) فى بقية النسخ : » إذا هبت الجنوب » .

(٤٧٤) سقطت « جامع » من الأصل .

(٤٧٥) قوله « ويروى ... إلا أوقيتان » فى هامش الأصل ، وما بين القوسين لم يظهر فى التصوير والعبارة فى (س) :

« لم يدخل فيه من الغزل سوى أوقيتين » وسقط من بقية النسخ القول الأول وهو « لم يدخل فيها من الغزل سوى أوقيتين » . والعبارة فى الاستبصار (ص ٨٧) . ويصنع فيها لصاحب مصر قميص لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين » .

والسَّدى ما مد من خيوط النسج ، واحدته سداة . واللحمة - بالفتح والضم - التى يلحم بها السَّدى . وقيل اللحمة أعلى الثوب ، والسدى أسفله .

(٤٧٦) فى (س) : « فيها » .

(٤٧٧) فى (س) : « أحكمها » .

(٤٧٨) فى (س) : « فيها » .

(٤٧٩) فى الأصل « اللهان » وفى (ط) « اللهاق » وفى (هـ) : « اللهاف » وفى (س) : « اللبان » وكل تلك الألفاظ مصحفة عن « البنائق » وهى العرا التى تدخل فيها الأزرار . وفى الاستبصار (ص ٨٧) وردت « البنائق » . ويجوز أن تكون « اللبان » كما وردت فى (س) جمع « لبينة » قال أبو عبيد : « ولبنة القميص : بنيقته » - تهذيب اللغة (١٥ / ٣٦٨) .

(٤٨٠) فى الأصل : « كان » وقد أثبت ما ورد فى (ط) و (هـ) . وفى (س) : « وليس فى الدنيا طراز يبلغ منه » . وفى الاستبصار (ص ٨٧) : « وليس فى جميع الدنيا طراز ثوب كتان » .

(٤٨١) فى الأصل و (هـ) « ساجد » وهو تصحيف والصواب ما أثبت عن (س) و (ط) ، وأيضا الاستبصار (ص ٨٨) .

و « ساذج » معرب سادة .

(٤٨٢) سقطت « مائة دينار » من (س) .

(٤٨٣) فى (س) « وبحيرة » .

(٤٨٤) فى الأصل « على شاطىء النيل البحر » وقد أثبت ما ورد فى بقية النسخ .

(٤٨٥) فى (س) « وقبور المسلمين بتنيس » .

(٤٨٦) فى (هـ) « بأقبية دورهم لصق مساكنهم » .

(٤٨٧) سقطت « الطير من » من الأصل .

(٤٨٨) فى (س) : « عظمى » .

(٤٨٩) فى (س) : « الجهات » .

(٤٩٠) فى (ط) و (هـ) : « وقد زعم قوم » .

(٤٩١) فى (س) « بنصفين وعلى ملكين » .

(٤٩٢) فى (ط) « مصريم » وفى (س) و (هـ) « ابروت بن مصر » .

(٤٩٣) « فيها » زيادة من (س) .

(٤٩٤) فى (ط) و (س) : « فيما » وفى (هـ) : « ما » .

(٤٩٥) فى (هـ) : « ينزع » .

(٤٩٦) فى (س) « عندك » وفى (هـ) : « عنك » .

(٤٩٧) ما بين قوسين سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٤٩٨) فى (هـ) : « ويذكرون » .

(٤٩٩) سقطت من (ط) عبارة : تسمى أم العرب » .

(٥٠٠) ما بين قوسين سقط من الأصل وهو فى (هـ) و (ط) . ومن قوله « ويذكر أهل مصر » إلى هذا الموضع سقط من (س) .

(٥٠١) سقطت عبارة : « وكان فيا غلب عليه البحر » من (هـ) .

(٥٠٢) العبارة فى (س) : « يخرج فيه المرابطون إلى ساحل فيخيبون » .

(٥٠٣) فى (هـ) : « الذى ذكره الله تعالى بقوله » .

(٥٠٤) سقطت « وبحر » من (هـ) و (س) .

(٥٠٥) فى (س) : « يتفاوتان » .

(٥٠٦) فى (س) : « تقربها » .

(٥٠٧) فى (ط) : « بها » وسقطت « لها » من (س) ، وفى (هـ) : « وكان تنيس فى هدم أبوابها » .

(٥٠٨) » إلى » زيادة من (ط) وفى (س) و (هـ) « احتاج أن يعمل بها » .

(٤٠٩) فى (س) : « رسوله » .

(٥١٠) فى (س) و (هـ) « هذه الأبواب وفى (ط) « هى الأبواب » . .

(٥١١) « وما أغنى عنكم من الله .. الآن « سقط من بقية النسخ ، وسقط من (هـ) أيضا قوله تعالى « يا بنى » . الآية ٦٧ من سورة يوسف .

(٥١٢) فى الأصل « من تلك الأبواب » وأثبت ما جاء فى بقية النسخ .

(٥١٣) فى الأصل حتى تلد النخل فى الكوانين « وفى (س) : « حين تلتد .. » وفى (هـ) حين النخل فى الكراسى » . ويبدو أن المقصود من العبارة أن بدء إرطاب ذلك النخل يكون مع دخول الشتاء فى الكوانين ، كانون الأول وكانون الثانى .

(٥١٤) فى (س) « فلا ينقطع هذا فى أربعة أشهر » .

(٥١٥) سقطت « ما » من (هـ) .

(٥١٦) سقطت « ميل » من (هـ) .

(٥١٧) فى (ط) «قرية تسمى » - وفى (هـ) و (س) : « قرية يقال لها » .

(٥١٨) فى (س) « نافع » .

(٥١٩) سقطت : « من قراكم » من (ط) وفى (هـ) : « يا مصر وسيم من قراكم » .

(٥٢٠) فى بقية النسخ : « يقاتلونكم » .

(٥٢١) فى (هـ) « عامر » .

(٥٢٢) فى (هـ) : « وسبعين » .

(٥٢٣) فى (س) : « من قرية » .

(٥٢٤) سقطت « ثم من (ط) وفى (س) : « ثم تسير » .

(٥٢٥) فى الأصل و(ط) و (س) : « ذات الكرم » بالراء ولم أجد ذات الكرم فى المصادر التى بين يدى ، وربما كان الصواب هو ما ورد فى نسخة الهند المثبت « ذات الكوم » وهى قرية قديمة من قرى الجيزة ، مركز أمبابة . وورد

ذكرها فى قوانين الدواوين لابن مماتى (ص ١٤٢) والتحفة السنية لابن الجيعان (ص ١٤٤) القاموس الجغرافى لمحمد رمزى (قسم تان جـ ٣ ص ٦١) .

(٥٢٦) فى (ط) : « لذات الساحل » وفى (هـ) « بين ترنوط لذات الساحل » .

وقد وردت ترنوط وذات الساحل فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ص ٨٤) عند وصفه للطريق من الفسطاط إلى المغرب : قال : « من الفسطاط إلى ذات الساحل أربعة وعشرون ميلا ، ثم إلى ترنوط ثلاثون ميلا ، ثم إلى كوم شريك اثنان وعشرون ميلا ثم إلى الرافقة أربعة وعشرون ميلا مع النيل ، ثم إلى قرطسا ثلاثون ثم إلى كريون أربعة وعشرون ميلا ثم إلى الإسكندرية أربعة وعشرون ميلاً وورد اسم « ذات الساحل » مصحفا إلى « ذات السلاسل » فى كتابى قدامة بن جعفر (ص ٢٢٠) والمقدسى (ص ٢١٤) .

وذات الساحل من البلاد المندرسة من أعمال الجيزية ذكرها محمد رمزى فى قاموسه (قسم أول ، ص ٢٦٤) كما وردت فى قوانين الدواوين لابن مماتى (ص ١٤٢) ضمن الأعمال الجيزية .

أما ترنوط فقد وردت فى كتب الجغرافيا العربية ، كما وردت فى فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٧٣) مر بها عمرو بن العاص رضى الله عنه عند خروجه من الفسطاط لفتح الإسكندرية . قال ياقوت فى معجمه (١ / ٨٤٥) : « ترنوط » قرية بين مصر والإسكندرية كان بها وقعة عمرو بن العاص والروم أيام الفتح ، وهى قرية كبيرة جامعة على النيل فيها أسواق ومسجد جامع وكنيسة خراب كبيرة خربتها كتامة مع القاسم بن عبيد الله وبها معاصر للسكر وبساتين وأكثر فواكه الإسكندرية منها ، قالوا : لا تطول الأعمار كما تطول بترنوط وفرغانة » . وتعرف اليوم باسم « الطرّانة » ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٥٢٧) فى الأصل « أزوجـا » ، وفى (ط) « تروجـى » ، وفى (هـ) « مـن تربـوط إلى ترخـى » ، وفى (س) « بروحى » .

ولعل الصواب « ما أثبت » . قال ياقوت (١ / ٨٤٥) : « تروجة قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية أكثر ما يزرع بها الكمون ، وقيل : اسمها تُرُنْجة » .

وذكرها ابن بطوطة فى رحلته (ص ٢٩) : قرية تقع بين الإسكندرية ودمنهور على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية ، وذكر أنها قرية كبيرة بها قاضٍ ووالٍ وناظر .

وفى القاموس الجغرافى (قسم أول ص ١٩٠) يشير المؤلف إلى اندثار هذه القرية وأن مكانها اليوم كوم تروجة الواقع بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة ، وقد وردت فى موضع آخر من هذا النص « تروجا » بالألف دون تصحيف .

(٥٢٨) كذا فى الأصل ، وفى (ط) « تورخ » وكتب فوقها « كذا » وفى (هـ) « نورح » وفى (س) « بورح » بدون نقط . ولعل ما ورد فى الأصل هو « تروج » أو تروجه التى تكلمنا عنها فى التعليق السابق . ولم أعرف من المقصود بالحكم .

(٥٢٩) فى (س) و (هـ) « وطريق أخرى » .

(٥٣٠) فى (ط) و (هـ) كثيب رمل عظيم متهيل » وفى (س) « وهى على كثيب رمل مهيل » .

(٥٣١) سقطت « منه » من (س) .

(٥٣٢) فى (س) : « متنزهاتهم » .

(٥٣٣) فى (ط) : « ضفة » .

(٥٣٤) فى (س) « الثمر » .

(٥٣٥) سقطت « بقرية من » (س) .

(٥٣٦) فى (ط) : « ذيبه » ، وفى (هـ) : « بذيبة » ، وفى (س) : « لرجل منها يعرف حديبة » ، والصواب ما جاء فى الأصل ، واسمها اليوم « ديبى » قرية على النيل بين فوة ورشيد وقد وردت « ديبة » فى قوانين ابن مماتى (ص ١٣٨) من أعمال فوة والمزاحمتين .

وفى التحفة السنية لابن الجيعان (ص ١٣٧) قال : ديبى وهى ديبة .

(٥٣٧) فى (هـ) و (ط) : « سعيد » .

(٥٣٨) « بن سعد » زيادة من (هـ) و (س) .

(٥٣٩) فى (س) : « يدخل على فى كل عام خمسون ألف مثقال لا تجب على فيها زكاة » .

(٥٤٠) فى (س) : « يركبه » .

(٥٤١) فى (هـ) : « وتسير » .

(٥٤٢) سقطت : « رشيد » من (س) .

(٥٤٣) كلمة « شدة » سقطت من الأصل . وهى فى بقية النسخ .

(٥٤٤) فى (س) « النيل » .

(٥٤٥) « إلى » سقطت من الأصل .

(٥٤٦) من قوله « فأما الطريق » إلى هذا الموضع سقط من (س) .

(٥٤٧) سقطت « نحو » من (هـ) .

(٥٤٨) فى الأصل « فيخوض » .

(٥٤٩) فى (ط) و (هـ) « تقطع » وفى (س) : « حتى تقطع » .

(٥٥٠) فى (هـ) : « جعلت » .

(٥٥١) فى (ط) و (س) : « دابة » .

(٥٥٢) فى بقية النسخ : « أوفسد إن تدورك » .

(٥٥٣) فى (س) : « صاروا فى آجام وهضاب وغياض ورمال » .

(٥٥٤) فى (ط) و (هـ) « ويستغل » وفى (س) : « ويشتغلون » .

(٥٥٥) فى (س) « لحومها » .

(٥٥٦) سقطت « للحشو » من (ط) .

(٥٥٧) سقطت « نحو » من (س) .

(٥٥٨) سقطت « سورها » من بقية النسخ .

(٥٥٩) فى (س) : « سبعة عشر » .

(٥٦٠) فى (ط) و (هـ) : « ويمنه من هذه » .

(٥٦١) فى (هـ) « روحى » وفى (س) . « بروح » والصواب ما جاء فى الأصل وهى « تروجة » التى أشرنا إليها فى موضع سابق . وكان المفروض أن تكون العبارة التالية فى أخر كلامه عن الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية .

(٥٦٢) الصحيح أن يقول . (خمسة وعشرون) .
(٥٦٣) ما بين القوسين زيادة من (س) .
(٥٦٤) فى الأصل و (هـ) « فودة » وفى (ط) و (س) « رفودة » وفى الاستبصار (ص ٩١) « بَرْدة » وقد أثبت ما رآه أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى « رقودة Rhakotis » .
(٥٦٥) فى (ط) و (س) : « جانب » .
(٥٦٦) فى الأصل و (س) و (هـ) « منّه » وسقطت الكلمة من (ط) وقد أثبت ما رآه أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى و « لمنه » (Limen) تعنى الميناء .
(٥٦٧) سقطت « اليوم » من بقية النسخ .
(٥٦٨) سقطت « بها » من (هـ) .
(٥٦٩) فى الأصل « بقنطه » وفى (ط) : « وبقبطة » وفى (س) « ولقيطة » . ووردت الكلمة فى (هـ) « لعطه » بدون نقط .
والنص فى فتوح مصر (ص ٤٢) وفيه « ونقيطة » .
وقد أثبت ما رآه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى « لقيصة Lochias » وهى شبه جزيرة كانت شرقى ميناء الإسكندرية وكان عليها القصور الملكية .
(٥٧٠) فى الأصل « سبع حصون وسبعة خنادق » وفى (ط) « سبعة حصون وسبع خنادق » وقد أثبت ما جاء فى (س) و (هـ) وهو الصواب . والعبارة فى كتاب فتوح مصر (ص ٤٢) .
(٥٧١) فى (س) و (ط) و (هـ) : « وقال » .
وما جاء فى الأصل هو الصواب ، إذ إن النص التالى ليس من كلام عبد الله بن طريف الهمدانى الوارد فى فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٤٢) بل نقله البكرى عن المسعودى فى مروج الذهب (١ / ٣٧٠) . مع اختلاف طفيف دون أن يشير إلى المسعودى .
(٥٧٢) فى (س) « فى البلاد » .
(٥٧٣) فى (س) و (ط) و (هـ) : « بنيان » والعبارة عند المسعودى (١ / ٣٧٠) : « آثار بنيان عظيم وعمدا كثيرة من الرخام ، وفى وسطها عمود عظيم » .
(٥٧٤) سقطت « عاد » من (هـ) .
(٥٧٥) فى (هـ) : « أنا سداد بن عاد بن شداد سددت بساعدى الوادى » . وفى (ط) : « أنا شداد بن عاد سددت بساعدى الواد » ووردت العبارة محرفة فى (س) ، إذ تقول : « سددت فساعدنى الوادى » . وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٠) : « أنا شداد بن عاد بن شداد شددت - بساعدى البلاد » ، والكلمة الأخيرة مصحفة فى المروج .
(٥٧٦) فى (ط) : « ابتنى » .
(٥٧٧) فى (س) : « أن لا » .
(٥٧٨) فى (ط) و (س) : « من » .
(٥٧٩) فى (هـ) و (ط) و (س) : « حال طال مع وقوعها » . ولا خطأ فى ذلك ، فالحال يذكر ويؤنث .
(٥٨٠) فى الأصل : « وطول عمرى بصرى حذرى » ، وكتبت الكلمة الأخيرة فى الهامش . وفى (س) : « فمن رأى

أثرى وعرف خبرى ونفاذ بصرى وطول عمرى فلا يغتر بالدنيا بعدى » وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (هـ) التى توافق ما جاء فى المروج : (١ / ٣٧٠) .

(٥٨١) « فيه » سقطت من الأصل وهى فى بقية النسخ .

(٥٨٢) فى (س) : « أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد » أما فى (ط) و (هـ) فوردت « أنا شداد بن عاد » . وكذا فى كتاب الفتوح (ص ٤١) الذى ورد فيه نص ابن لهيعة .

(٥٨٣) فى (س) : « وجند الأجناد » ، وفى كتاب الفتوح (ص ٤١) : « وحيد الأحياد » وفى معجم البلدان لياقوت (١ / ٢٥٨) : « وجند الأجناد » .

(٥٨٤) فى بقية النسخ : « بنيتهن إذ لا ميت ولا موت وفى الفتوح (ص ٤١) : « بنيتهن إذ لا شيب ولا موت » . وفى معجم البلدان (١ / ٢٥٨) : « بنيت هذه الأعمدة فى شدتى وقوتى إذ لا موت ولا شيب » .

(٥٨٥) فى الأصل ثم « قال » . وفى (س) : « وقال » . وأثبت ما جاء فى (ط) و (هـ) وكتاب الفتوح (ص ٤١) .

(٥٨٦) كذا فى جميع النسخ وفى كتاب الفتوح (ص٤١) « قال ابن لهيعة والأجياد كالمغار » وفى نسخة أخرى « كالمغادر » ولم أجد وجها لمعنى تلك الألفاظ فى معاجم اللغة .

(٥٨٧) فى (س) « فبعث الإسكندر إلى الصناع فحشر الصناع » . وفى (هـ) و (ط) « فحشر » وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٠) « ونزل الإسكندر متفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ، ثم بعث فحشر الصناع » . وقد عاد البكرى للنقل عن المسعودى بعد أن أورد نص ابن لهيعة المتقدم .

(٥٨٨) فى (س) : « وجزيرة أقريطش » .

(٥٨٩) فى (س) : « بعضها لبعض جميعها » .

(٥٩٠) فى جميع النسخ وفى المروج « وعلق » .

(٥٩١) فى الأصل : « حبل صغير » وفى (س) . « أجراسا عظيمة » وقد أثبت ما ورد فى (ط) و (هـ) وكذلك فى مروج الذهب (١ / ٣٧١) .

(٥٩٢) فى (هـ) و (س) : « الأجراس » .

(٥٩٣) فى (س) : « الناس » .

(٥٩٤) فى (ط) : « غفوة » .

(٥٩٥) فى (ط) و (هـ) : « للوقت المحمود الطالع » وفى (س) « للوقت المحمود » وسقطت كلمة الطالع . والعبارة فى مروج الذهب (١ / ٣٧١) « وأحب الإسكندر أن يجعل ذلك (أى بناء الإسكندرية) فى وقت يختاره ذى طالع سعيد ، فخفق الإسكندر برأسه وأخذته سنة فى حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع » .

(٥٩٦) فى (هـ) : « فتعجب » وفى (س) : « وسئل عن الخبر فعجب » .

(٥٩٧) فى (ط) و (هـ) : « غيره » . ومن قوله : « وقال أردت أمرا .. » إلى قوله « ويأبى الله إلاّ مايريد » سقط من (س) .

(٥٩٨) فى (س) « ذاك » .

(٥٩٩) فى (س) : « وأحكمتها وشيدت صورها » .

(٦٠٠) فى (س) « يتعسر » .

(٦٠١) فى (س) « مما أردت » .

(٦٠٢) سقطت « لى » من الأصل و (هـ) وهى فى (س) و (ط) .

(٦٠٣) فى الأصل : « نم وسم » وقد أثبت ما جاء فى بقية النسخ وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٣) . وفى (س) : « ورسم على صنم » .

(٦٠٤) « بعده » سقطت من الأصل .

(٦٠٥) فى النُّسخ الأخرى : « الأزمان » .

(٦٠٦) ما بين قوسين زيادة من (ط) .

(٦٠٧) « فيه » زيادة فى الأصل .

(٦٠٨) فى (س) : « الرمح » .

(٦٠٩) فى (ط) : « الأزواج » .

(٦١٠) فى النُّسخ الأخرى : « بغير » .

(٦١١) فى النُّسخ الأخرى « الرخام » .

(٦١٢) فى (ط) و (هـ) : « وربما علّق فيها شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس » وما بين القوسين سقط من الأصل . والعبارة فى (س) « لشدة بياض الرخام وتؤذى أبصار الناس » .

(٦١٣) فى (هـ) والمروج (١ / ٣٧٤) « المختلفة » .

(٦١٤) فى (ط) و (هـ) : « على ما زعموا ... » وفى (س) : « فكانوا سكان البحر يؤذون ويختطفون » .

(٦١٥) فى النُّسخ الأخرى : « على أعمدة هنالك » .

(٦١٦) فى الأصل : « الصومعة » وهو تصحيف ، وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (هـ) والمروج (١ / ٣٧٤) وهو الصواب .

وفى (س) : « إلى هذه الغاية منها على سورة الصورة » والتصحيف والنقص واضح .

(٦١٧) فى (ط) « تمنع وتدفع » وفى (هـ) : « تدفع وتمنع » . وفى (س) : « صورا وأشكالا تمنع » . ولعل كلمة « تندفع » التى فى الأصل مصحفة عن كلمة « تنفع » يدل على ذلك ما جاء فى المروج (١ / ٣٧٤) عند كلامه عن الطلسمات بأنها نافعة ومانعة ودافعة .

(٦١٨) من قوله : « وقد ذكر » إلى قول : والله أعلم بكيفية ذلك كله » سقط من الأصل و (ط) و (هـ) وهو فى نسخة الأسكوريال فقط .

(٦١٩) فى (س) : « ورنته » وهو تصحيف .

(٦٢٠) فى (س) : « خرجت من النيل » وقد أضفت الواو وأثبت كلمة البحر بدلا من النيل لسياق الكلام .

(٦٢١) نهاية النص المنقول من (س) .

(٦٢٢) فى (ط) : « فذهب إلى أن الإسكندر » وفى (س) و (هـ) : « فذهب كثير إلى أن الإسكندر » وما بعد كلمة الإسكندر إلى قوله : « بشدته واستيلائه » مكتوب فى (س) فى هامش النسخة وقد اختفت بعض الكلمات بفعل التصوير .

(٦٢٣) فى الأصل : « ذكره » .

(٦٢٤) سقطت « إن » من الأصل وأثبتها من النُّسخ الأخرى .

(٦٢٥) فى (هـ) « رومية » ، وكذلك فى المروج (١ / ٣٧٥) .

(٦٢٦) فى (هـ) : « وقيل إن الذى بنى مدينة الإسكندرية » .

(٦٢٧) « والأمم » فى الأصل فقط .

(٦٢٨) « فى البحر » سقطت من (س) وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٥) : « فى هذا البحر » .

(٦٢٩) فى (هـ) : « خاف » .

(٦٣٠) (له) زيادة من (س) .

وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٥) : « فيكون هو الذى جعلها مرقبا » ، أى أنه هو الذى بنى المنارة وفى الاستبصار (ص ٩٤) : « وقيل إن الإسكندر كان لا يخاف أن يطرقه عدو فى البحر ولا يهاب ملكا يرد عليه فيجعل لذلك مرقبا وحراسا » .

(٦٣١) فى (ط) : « إلى » .

(٦٣٢) فى (هـ) : « عملها » .

(٦٣٣) « بعد فرعون » سقطت من (ط) .

(٦٣٤) من قوله « فبنت دلوكة » إلى هذا الموضع سقط من الأصل ، وهو فى (هـ) و (س) . وفى معجم البلدان (١ / ٢٦٢) : « دلوكه بنت زبا » والنص فى فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٤٠) ، وفيه « فبنت دلوكة ابنة زباء منارة الإسكندرية » .

(٦٣٥) فى النسخ الأخرى : « ما كان بنى فيها الملوك » .

(٦٣٦) فى (س) : « من أول » .

(٦٣٧) فى النسخ الأخرى : « فيها » .

(٦٣٨) فى الأصل « قلس » وفى (ط) « قنبلش » وفى (س) . « قيلش » وفى (هـ) فلس غير معجمة .

(٦٣٩) فى (ط) و (هـ) : « وهو الذى كان معلمه أرسطاطاليس » .

(٦٤٠) من قوله « وكان معه » إلى هذا الموضع سقط من نسخة (س) .

(٦٤١) فى (ط) : « تسع مائة ألف يوم وخمس وأربعون ألف يوم وأحد وأربعون يوما » .

وفى (هـ) « إحدى وأربعون وخمسة آلاف وأربعون ألفا وتسع مائة ألف يوم » وفى (س) : « خمس مائة سنة وإحدى وأربعين سنة ولها من الأيام تسع مائة ألف وأربعون ألفا » وما فى الأصل خطأ نحوى صحته « وخمس وأربعون سنة ، وواحد وأربعون » .

(٦٤٢) فى (ط) و (س) « وقد ذكرنا فى أخبار ملوك مصر أن أول من بناها قلوبطرة ، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية » .

(٦٤٣) « على هيئة » سقطت من (س) .

(٦٤٤) فى (س) : « وعلى » .

(٦٤٥) فى (س) : « المرآة من النحاس » .

(٦٤٦) فى (س) : « فيها تماثيل » .

(٦٤٧) فى النسخ الأخرى : « من مغرب أو مشرق أو أفق » .

(٦٤٨) فى (ط) و (هـ) : « وتمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو فيه على ليلة » وفى (س) : « وتمثال يشير

بيده إلى البحر إذا صار فى البحر على نحو ليلة » .

(٦٤٩) سقط من (س) بعد قوله « من الليل » ورقة كاملة ، والسقط ناتج - فيما يبدو - عن اضطراب النسخة وتفكك أوراقها .

(٦٥٠) « هائل » سقطت من (هـ) و (ط) .

(٦٥١) « وطبقاتها » سقطت من الأصل وهى فى (هـ) و (ط) .

(٦٥٢) فى (ط) « المنار » .

(٦٥٣) فى (هـ) : « حتى تاهوا » .

(٦٥٤) فى (هـ) : « تزول » وكذلك فى مروج الذهب (١ / ٣٧٨) . وسقطت كلمة « طرق » من (هـ) .

(٦٥٥) فى (هـ) « الزجاج » وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٨) : « إلى سرطان الزجاج » وفى نسخة أخرى « السرطان الزجاج » .

(٦٥٦) فى الأصل « فهوون » وقد أثبت ما جاء فى (هـ) و (ط) ومروج الذهب .

(٦٥٧) ما بين قوسين زيادة من (هـ) .

(٦٥٨) فى (ط) و (هـ) : « ترابط » .

(٦٥٩) فى (هـ) و (ط) : « مغايص يستخرج منه » .

(٦٦٠) فى (هـ) : « منه » .

(٦٦١) فى الأصل « الآساد حسم » وفى (ط) و (هـ) « الأسباد خشسم » . وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٧) « أشباد جشم » . والصواب ما أثبته والصيغة الأخرى لهذا الاسم « أسبيد جشمة » كما جاء فى كتاب الجماهر للبيرونى ص (٨٩ - ٩٠) وذكر أنه نوع من البيجاذى - وهو من أشباه اليواقيت - وفيه صفرة العقيق الرومى حسن اللون ويزداد فى تحسينه بتبطين الفص منه فى الخاتم .

وسمّاه ابن الأكفانى فى كتابه «نخب الذخائر فى أحوال الجواهر (ص ١٨ - ١٩) الأسبادشت .

وفى كتاب أحمد بن يوسف التيفاشى « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » (ص ٩٩) : « أسباذشت » وذكر أنّه أصفر مفتوح اللون . وجاء فى الملاحق القيمة لمحققى الكتاب الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمد بسيونى خفاجى (ص ٢٦١ - ٢٦٣) أن الأسباذشت هو الهسونيت Hessonite من عائلة الجارنت Garnet ويتكون كيميائيا من سيليكات الكالسيوم والألمنيوم . وأن هناك مجموعة من ضروب هذه العائلة لها من الألوان الأصفر الشفاف والأخضر بدرجاته المختلفة أو البنى والبنى المشرب بالحمرة وهو سيليكات الكالسيوم والحديد ..

(٦٦٢) فى (ط) : « الكركس » وفى (هـ) : « الكوكهن » والصواب ما جاء فى الأصل ، وقد ذكره البيرونى فى أشباه اليواقيت ، لونه أحمر يضرب قليلا إلى السواد ولا يضىء إلاّ فى الشمس ولا يصبر على النار . ويكون معه صفرة كصفرة الياقوت الأصفر ، ويكون منه خلوقى - نسبة إلى الخلوق وهو ضرب من الطِّيب ، مائع ، فيه صفرة الزعفران - وزيتى وفستقى يرى هذه الألوان إذا قلبته وحركته - الجماهر فى معرفة الجواهر ص (٥١ ، ٥٢ ، ٧٥ ، ٧٦) .

(٦٦٣) فى الأصل : « الباقليمون » وقد أثبت ما جاء فى (ط) و (هـ) ومروج الذهب (١ / ٣٧٧) .

(٦٦٤) فى (هـ) « كتلون ريش الطاووس » وفى (ط) « كتلون ريش الطواويس » .

(٦٦٥) فى (هـ) « وإنما » .
(٦٦٦) فى (ط) ومروج الذهب (١ / ٣٧٧) : « ولا تشبه بلون من الألوان » وفى (هـ) ولا يشبه بلـون من الألوان » .
(٦٦٧) فى (ط) ومروج الذهب : « لما يترادف من تموج » ، وفى (هـ) : « كما يترادف من تموج » .
(٦٦٨) فى (ط) و (هـ) « شأن » .
(٦٦٩) « منها » سقطت من (ط) و (هـ) .
(٦٧٠) فى الأصل « الآزاج » ، وفى (هـ) « وتعدم تلك الأرواح » . وفى مروج الذهب (١ / ٣٧٨) : « فعدمت منه الروائح الطيبة » . وقد أثبت ما جاء فى (ط) .
(٦٧١) فى (ط) : « شرب » .
(٦٧٢) سقطت « بن عبد الملك » من الأصل وهى فى بقية النسخ .
(٦٧٣) فى (هـ) « ووطأة » .
(٦٧٤) « على ما أمر » سقطت من (ط) و (هـ) .
(٦٧٥) فى (هـ) : « استخرجها له » .
(٦٧٦) فى (ط) و (هـ) : « معه » .
(٦٧٧) « كان » سقطت من (ط) و (هـ) .
(٦٧٨) « الأكبر » سقطت من (ط) .
(٦٧٩) « لما » زيادة من (ط) .
(٦٨٠) من قوله « شرهت نفسه » . إلى هذا الموضع سقط من (هـ) .
(٦٨١) فى (ط) « بنى لها » وفى (هـ) « فبنى لها » .
(٦٨٢) فى (ط) : « الأزواج والسرادق » وفى (هـ) : « الآزاج والأقباء والسرادب » وفى كتـاب الاستبصـار (ص ٩٥) : « الأزواج والأسراب والأخباء » .
(٦٨٣) فى (ط) و (هـ) : « ثم بنى » .
(٦٨٤) فى (ط) و (هـ) : « بأناس » .
(٦٨٥) فى (ط) « فى مركب قد عدّله » و « قد » زيادة من (هـ) .
(٦٨٦) فى (ط) : « إلى هذا الوقت » .
(٦٨٧) فى (ط) : « ذكر صفة المنار اليوم وارتفاعه » .
(٦٨٨) فى (هـ) : « فى » .
(٦٨٩) عند هذا الموضع ينتهى السقط من نسخة الأسكوربال الذى أشرنا إليه فى هامش سابق .
(٦٩٠) فى الأصل « الصبا » وفى (ط) : « الفناء » وقد أثبت ما جاء فى (هـ) و (س) .
(٦٩١) فى (س) : « وثمانية » .
(٦٩٢) فى (س) : « سوى ذلك الغلط ورفع على ما بقى من الفناء عليه بناء مربع مرتفع ارتفاعه خمسون ذراعا أو نحوها » . وهى عبارة مضطربة كما هو واضح .
(٦٩٣) ما بين قوسين سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٦٩٤) فى بقية النسخ « البناء » .

(٦٩٥) فى (هـ) : « متناكبان » .

(٦٩٦) فى (ط) : « هل راق هو أو ماش » .

(٦٩٧) ما بين قوسين سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٦٩٨) فى (س) « تربة » .

(٦٩٩) (سعة) سقطت من (س) .

(٧٠٠) فى (هـ) : « عدة » .

(٧٠١) فى (س) « ثلاث مائة وستون بيتا » وفى (ط) « ثلاث مائة بيت وستون بيتا » .

(٧٠٢) فى (هـ) : « اثنى عشر درجة » .

(٧٠٣) ما بين قوسين سقط من الأصل وهو فى بقية النسخ .

(٧٠٤) نهاية السقط من نسخة المكتبة الأهلية بباريس (ب) .

(٧٠٥) فى الأصل « فشد » وقد أثبت ما جاء فى بقية النسخ .

(٧٠٦) فى (س) و (هـ) و (ط) : « بناء عريض واسع » وفى (ب) : « بناء عظيم واسع » .

(٧٠٧) فى (ط) : « مرفأ للسفن » وفى (ب) « ترى السفن » .

(٧٠٨) فى (ب) و (س) و (هـ) : « ثم تسير على بناء فى البحر » .

(٧٠٩) فى الأصل « فى » .

(٧١٠) فى (س) : « صارت » .

(٧١١) فى (ب) و (ط) « من ناحية » وفى (س) « من جهة » .

(٧١٢) فى (هـ) « وبهذه » .

(٧١٣) فى (هـ) « من خميس مايه » . وما ذكره المقريزى فى خططه يناقض ما جاء هنا فى توقيت هذا العيد ، فقد ذكر المقريزى (١ / ٤٩٨) أن خميس العدس هو خميس العهد الذى يكون قبل الفصح بثلاثة أيام ، وأن عوام أهل مصر فى وقته يقولون خميس العدس من أجل أن النصارى تطبخ فيه العدس المصفى ويقول أهل الشام : خميس الأرز ، وخميس البيض ، ويقول أهل الأندلس : خميس إبريل . ويقول : وأدركنا خميس العدس هذا فى القاهرة ومصر وأعمالها من جملة المواسم العظيمة ، فيباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدة ألوان ما يتجاوز حد الكثرة .

وعلى هذا فربما كان الصواب « خميس أبريل » بدلا من « خميس مايه » .

(٧١٤) فى (هـ) و (ط) و (س) « كبير أحد » ، وفى (ب) : « كثير أحد » .

(٧١٥) فى (ط) و (س) و (هـ) « من العدس فيفتح » وفى (ب) : « يفتح أبوابها » .

(٧١٦) فى (س) « ويسيرون » ، وفى (هـ) و (ب) : « ويصيرون » .

(٧١٧) فى (س) فمن ذاكر لله ومن لاه ومتفرج وفى (هـ) و (ب) فمن ذاكر لله عز وجل ومصل ومن لاه ومتفرج » وقد سقطت كلمة « ومن » من الأصل وأضفناها من النسختين (هـ) و (ب) .

(٧١٨) فى الأصل « مسلمة بن عدى » والصواب ما جاء فى بقية النسخ ، وهو مسلمة بن على بن خلف الخشنى توفى قبل سنة تسعين ومائة . كان يسكن البلاط قرية من قرى دمشق ثم قدم مصر وحدّث بها . ولم يكن عندهم

بذاك من الحديث . وقد ضَعّفه أئمة هذا العلم وأنكروا حديثه . (التهذيب لابن حجر (١٠ / ١٤٦) .

(٧١٩) فى الأصل : « بارك الله فى العدس » و (س) و (هـ) « بارك فى العدس » وضرب على كلمة « الله »

(٧٢٠) سقطت « الليث » من الأصل وهى فى (ط) و (س) و (ب) . وسقطت من (هـ) عبارة « فقال الليث » .

(٧٢١) فى (س) و (ب) : « ويبدأ » وفى (هـ) : « يبدون » .

(٧٢٢) فى (هـ) : « وله » .

(٧٢٣) فى الأصل « فيمر » وأثبت ما جاء فى النسخ الأخرى .

(٧٢٤) فى (ط) و (س) « سمت ذلك » وفى (هـ) « سمت تلك » وفى (ب) « تلك النار » وسقطت كلمة « سمت » .

(٧٢٥) فى الأصل : « ويوقدون فى السفن النار » وفى (ط) و (ب) « وأوقد صاحب السفينة النار » . وقد أثبت ما جاء فى النسختين (هـ) و (س) .

(٧٢٦) فى (س) : « يزيد » .

(٧٢٧) فى الأصل « رأوا » وقد أثبت ما جاء فى النسخ الأخرى وفى (هـ) « فإذا رأى ذلك أهل المدينة » .

(٧٢٨) فى الأصل : « والاحتراس » بدلا من « الأجراس » وقد أثبت ما ورد فى النسخ الأخرى ، وفيها « حذرا من العدو » . وفى (س) « البواقيت بدلا من « البوقات » .

(٧٢٩) سقطت « اليوم » من (س) .

(٧٣٠) فى (ط) و (س) « وهو على رابية » .

وفى (ب) و (هـ) : « وهى على رابية » ، وسقطت كلمة « باب » من (س) و (ب) و (هـ) .

(٧٣١) فى (هـ) . « وهى أحكم » وفى (ب) « وهو أحكم » . وسقطت عبارة « وهو من » من س .

(٧٣٢) فى (س) : « منها » . وعضادتا الباب : ناحيتاه وما كان نحو ذلك تنصبان عن يمين الداخل من الباب وشماله . تكون من الخشب أو من الحجر .

(٧٣٣) فى الأصل « واستكفته » وهو تصحيف . وقد أثبت ما ورد فى (ب) و (هـ) « والأسْكُفة والأسْكُوفَةُ عتبة الباب التى يوطأ عليها . والسَّاكِف أعلاه الذى يدور فيه الصَّائِر ، والصَّائِر أسفل طَرف الباب الذى يدور أعلاه » (لسان العرب ١١ / ٥٧) .

(٧٣٤) فى (هـ) : « وعدد أساطينه » .

(٧٣٥) سقطت (نحو) من (هـ) .

* الصحيح لغة أن يقال : ثلاث مئة الأسقف ؛ لأنه إذا تعددت الإضافة فى العدد عرف آخر مضاف إليه .

(٧٣٦) سقطت « كان » من (ط) .

(٧٣٧) فى (س) : « وقاعدتها » .

(٧٣٨) سقطت « محكم » من الأصل وهى فى بقية النسخ . وسقطت كلمة « أحمر » من (هـ) ، وفى (ط) « مرتفع محكم » .

(٧٣٩) فى (ط) : « قد نزلت » .

(٧٤٠) فى (س) « له » .

(٧٤١) فى (س) « جعلت » .

(٧٤٢) فى (ب) و (ط) و (هـ) « فتطحنه » وسقطت كلمة « الإسطوانة » من (ط) .

(٧٤٣) فى الأصل «الثلاث مائة أسقف واثنا عشر أسقفا» وهو خطأ. وقد أثبت ما ورد فى (س). وفى (ط) « ثلاثمائة أسقف والثمانية عشر أسقفا » . وفى (ب) و (هـ) ثلثمائة الأسقف والثمانية عشر أسقفا » .

(٧٤٤) فى الأصل و (ب) « فأثبتوا » .

(٧٤٥) فى (هـ) « من خالفه » .

(٧٤٦) فى (ط) و (هـ) « قيصر بولش » بالشين وفى (س) و (ب) « قيصر بولس » بالسين المهملة .

(٧٤٧) فى بقية النسخ : « الأولين » .

(٧٤٨) فى (س) : « فقام الشيخ فقال » .

(٧٤٩) فى الأصل « إن أرحت على » وفى (ط) « أزحت على » وفى (س) : « أزاحت على » وقد أثبت ما ورد فى (ب) و (هـ) لموافقتها للسياق .

(٧٥٠) فى (س) « قال : اشل فأتى بثورين مطيقين وعجلة فدخل مقابر وحفر فى قبورها » وفى (ب) : « فاحتفر فى قبور » وفى (هـ) « واحتفر جمجمة » .

(٧٥١) سقطت « فيه » من الأصل و (ط) واثبتناها من باقى النسخ .

(٧٥٢) سقطت « الأنصارى » من النسخ الأخرى .

(٧٥٣) فى (ب) و (س) و (هـ) : « ورأيت » .

(٧٥٤) فى (ب) : « يوزن » . والعبارة فى (هـ) « ورأيت بالإسكندرية ضرس إنسان يزن به اللحم قصاب » .

(٧٥٥) فى (ط) و (هـ) : « مطرت » .

(٧٥٦) فى (هـ) : « والحلى » .

(٧٥٧) سقط من (س) بعد كلمة « والدر » ورقة كاملة .

(٧٥٨) وردت هذه الكلمة فى (ب) فى جميع المواضع التى وردت فيها « مواجن أو « ماجن » بالنون وهو تصحيف والماجل بكسر الجيم وفتحها ، مهموز وغير مهموز حوض يجمع فيه الماء .

(٧٥٩) فى (ط) و (هـ) « فيستقون بالسوانى » وفى (ب) « فيسقون بالسواءنى » . والسّوانى جمع سانية وهى الناقة التى يستقى عليها .

(٧٦٠) من قوله « فى دور المدينة .. » إلى هذا الموضع سقط من الأصل وأثبتناه من النسخ الأخرى .

(٧٦١) فى الأصل « فاستقى » وأثبتنا ما جاء فى (ط) و (ب) و (هـ) .

(٧٦٢) فى (ط) و (هـ) « بضرب » .

(٧٦٣) فى (ب) « لا يرى فيها أحد شيئا » .

(٧٦٤) فى الأصل : « كل إنسان » وقد أثبت ما ورد فى (ط) و (ب) و (هـ) .

(٧٦٥) فى (هـ) و (ب) : « أو نفث سمعه » . وفى (ط) : « ارتقب سمعه » .

(٧٦٦) فى (هـ) و (ط) و (ب) : « متساويا » .

(٧٦٧) فى (هـ) : « فى كم أحد منهم » .

(٧٦٨) فى (ب) : « كان عندهم » .

(٧٦٩) سقطت « فى » من (ب) و (ط) .

(٧٧٠) فى (ب) « اخره » وسقطت « هذه المرة » من (هـ) .

(٧٧١) فى الأصل و (ب) و (ط) « بن الحكم » .

(٧٧٢) فى (ط) و (ب) : « يصلح » .

(٧٧٣) فى (هـ) : « ففتح » .

(٧٧٤) فى (ط) « ولم يكن لهم صلح » وفى (هـ) : « ولم يكن لهم صلح بأمد » وفى (ب) : « ولم يكن لهم صلح ولا أمر » .

(٧٧٥) فى (ب) : « منزلة » .

(٧٧٦) الأصل و (هـ) و (ط) « لعبد الله بن سرح » .

(٧٧٧) فى (ط) و (ب) : « قفلوا » . وفى (هـ) : « وصلوا » .

(٧٧٨) فى (ط) : « فتنزل » .

(٧٧٩) فى الأصل و (ط) و (هـ) « يزيد بن حبيب » .

(٧٨٠) سقطت « يقول » من (هـ) .

(٧٨١) فى (هـ) : « ولا من بيعها » .

(٧٨٢) فى (ب) : « غوث » .

(٧٨٣) فى (ب) و (هـ) : « ما أحسن مدينتكم يا أهل الإسكندرية فقالوا : إن الإسكندر قال حين بناها » .

(٧٨٤) فى (هـ) « قال لما بنى الفرمى » .

(٧٨٥) فى (س) « إنى أبنى مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس » .

(٧٨٦) فى (ط) « ولا يزال » .

(٧٨٧) سقطت « أهل » من (هـ) و (س) .

(٧٨٨) كذا فى الأصل ، وفى بقية النسخ « ولكنى » .

(٧٨٩) سقطت « بها » من (س) .

(٧٩٠) فى (ب) « ستمائة ألف ملك » .

(٧٩١) سقطت « أرى » من النسخ الأخرى .

(٧٩٢) سقطت « بمصر » من (ب) .

(٧٩٣) سقطت « نفسك » من (ط) و (ب) و (س) ، وفى (هـ) « لا تبعث فى هذا » .

(٧٩٤) فى (هـ) « فانتهت » .

(٧٩٥) فى (ب) « قال » .

(٧٩٦) فى (هـ) و (س) « بن سعيد » .

(٧٩٧) سقطت « بن عبد العزيز » من (هـ) .

(٧٩٨) سقطت « لك » من باقى النسخ .

(٧٩٩) فى (ب) و (هـ) و (س) « من » .

(٨٠٠) فى (ط) و (هـ) : « فعدناه غداة يوم فقال أريت الليلة » وفى (س) و (ب) « فعدناه غداة يوم فقال رأيت الليلة » .

(٨٠١) سقطت « فى النوم » من النسخ الأخرى » .

(٨٠٢) سقطت (لى) من النسخ الأخرى .

(٨٠٣) فى (س) و (ط) و (هـ) : « فقلت » وفى (ب) : « كما » .

(٨٠٤) « فى سكناها » فى الأصل فقط .

(٨٠٥) فى (س) و (ط) و (هـ) : « فقلت » وفى (ب) : « فقال » .

(٨٠٦) فى (س) : « بن أبى صالح » .

(٨٠٧) فى النسخ الأخرى : « يجعل الله فيها خير سهامه » .

(٨٠٨) فى (س) : « عبد بن مورق » .

(٨٠٩) سقطت « ابن عمى » من (هـ) .

(٨١٠) سقطت : « قد » من (ب) .

(٨١١) فى (ط) و (هـ) : « ما أقامت » .

(٨١٢) فى (س) : « إلى إرم ذات العماد » وفى (هـ) : « إلى أن ذات العماد » .

(٨١٣) فى (ب) « الأغبار » وفى (هـ) « الأعمال » وفى (س) « الأفعال » .

(٨١٤) فى (ب) و (هـ) و (س) « وترب » .

(٨١٥) فى (هـ) : « أطولها بترنوط » ، وفى (ب) : « طولها بمريوط قرية من قرى الإسكندرية » .

(٨١٦) فى (ب) « ومريوط » وفى (هـ) « وتربوط » .

(٨١٧) « قرية » زيادة من (ب) .

(٨١٨) فى (ط) : « ضابر من بقى » وفى (ب) : « طاهر من بقى » وفى (س) : « ظهر فيمن بقى » .

(٨١٩) فى (ب) : « عليهم » سقطت هذه الكلمة من (هـ) و (س) .

(٨٢٠) فى (ب) « من سبى الروم » وفى (هـ) وكتاب الفتوح (ص ١٧٥) : « من بها من الروم » وفى (س) « من بقى من الروم هناك من الصبا » ولم أحدد معنى الكلمة الأخيرة .

(٨٢١) سقطت « عن مصر » من النسخ الأخرى .

(٨٢٢) فى (س) : « وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح » .

(٨٢٣) « والمنع » زيادة من (س) .

(٨٢٤) فى (س) : « إن » .

(٨٢٥) سقطت : « الزانية » من (س) .

(٨٢٦) فى (ب) « فحبس إليه » وفى (س) « فجيش إليهم » .

(٨٢٧) فى (س) : « فلم يطعه أحد منهم » .

(٨٢٨) فى (س) « ينتقض من بمصر كلها منهم » ، وفى (ب) « أن ينهض من بمصر كلها » .
ويتفق ما ورد فى الأصل مع كتاب الفتوح ص ١٧٥ .

(٨٢٩) فى الأصل : « يشتدوا لى » وفى كتاب الفتوح (ص ١٧٥) : « يسيروا إلى » وقد أثبت ما ورد فى النسخ الأخرى .

(٨٣٠) سقطت « من الروم » من الأصل وهى فى باقى النسخ .

(٨٣١) فى (ب) و (هـ) « ليخزى الله بعضهم ببعض » وفى (س) : « ليخزى بعضهم بعضا » .

(٨٣٢) فى (ط) « يتهيبون » .

(٨٣٣) فى الأصل و (س) « أنفيوس » . وفى (هـ) « سوس » وفى (ب) « الفيوس » فى (ط) « القيوس » وقد أوردت ما جاء فى كتاب الفتوح (ص ١٧٥) وهو الصواب . وتقع نقيوس على فرع رشيد فى وسط الدلتا ، ومحلها اليوم الكوم الأثرى الكائن بالجهة الشمالية من سكن زاوية رزين بمركز منوف المعروف عند الأهالى بكوم مانوس أو دقبانوس ، تحريف نقيوس . (أنظر : عبد العال الشامى : مدن الدلتا فى العصر العربى ص ١١٧) .

(٨٣٤) فى (ط) و (ب) و(هـ) : « شديدا » وفى (س) : « فرماه الروم بالنشاب رميا شديدا » .

(٨٣٥) فى الأصل « وتأخر » وقد أثبت ما ورد فى النسخ الأخرى وكتاب الفتوح (ص ١٧٥) .

(٨٣٦) فى النسخ الأخرى : « وحملوا » .

(٨٣٧) سقطت : « يومئذ » من (س) .

(٨٣٨) فى جميع النسخ « شريك بن سحيم » والصواب ماأثبته عن كتاب الفتوح (ص ١٧٥ ، وخطط المقريزى (١ / ٣١٢) .

(٨٣٩) سقطت : « فى خيله » من (س) .

(٨٤٠) فى (س) و (ب) و (هـ) : « وهزم الروم وقتلوا » .

(٨٤١) زيادة من (س) و (هـ) .

(٨٤٢) فى (ب) و (هـ) و (س) : « أراده أن يكون » .

(٨٤٣) فى (ب) و (هـ) « وعبد الله بن سعد » .

(٨٤٤) سقطت « عمرو » من (ب) و (هـ) .

(٨٤٥) « بقرنيها » سقطت من الأصل ، واثبت ما ورد فى (ب) و (ط) و (س) وفى (هـ) « بقرونها » .

ooo

المصـــادر والمراجـــع

أولا - العربيـــة :

الإدريسي ، محمد بن محمد :
١ - أنس المهج وروض الفرج ، مخطوط بمكتبة حكيم أوغلو باسطنبول ، رقم ٦٨٨ .
٢ - صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن ١٩٦٨ .

الأزهرى ، أبو منصور محمد بن أحمد :
تهذيب اللغة ، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن الأكفانى ،
نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، القاهرة ١٩٣٩ .

أمين محمود عبد الله :
تطور الوحدات الإدارية فى مصر العليا منذ العهد العربى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٦٣ .

البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز :
(أ) مخطوطات كتاب الممالك والمسالك :
١ - مخطوط بالأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد ، رقم ١٣ ، مجموعة جاينجوس .

٢ - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم (٢٢١٨) .
٣ - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم (٥٩٠٥) .
٤ - مخطوط بدير الأسكوريال بإسبانيا ، رقم (١٦٣٥) .
٥ - مخطوط بالمتحف البريطانى ، رقم (٩٥٧٧) .
٦ - مخطوط بالمكتبة الناصرية بلكهنو بالهند ، رقم (٥٩ تاريخ) .
٧ - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، رقم (ق ٤٨٨) .
٨ - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، رقم (٧٨٧ د) .
٩ - مخطوط بمكتبة كلية القرويين بفاس ، رقم (ل ٨٠ / ٣٩٠) .
١٠ - مخطوط بمكتبة محمد المنونى (مكتبة خاصة بالرباط) ، رقم ٤٩ .
١١ - مخطوط بمكتبة لاله لى باسطنبول ، رقم (٢١٤٤) .
١٢ - مخطوط بمكتبة نور عثمانية بإسطنبول ، رقم (٢٠٣٤) .

(ب) المطبوع من كتاب الممالك والمسالك :
١ - جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب الممالك والمسالك للبكرى تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٨ .
٢ - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبى عبيد البكرى تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٧٦ .
٣ - المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، تحقيق ديسلان ، الجزائر ١٨٥٧ .

(جـ) معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ .

البيرونى ، أبو الريحان محمد بن أحمد :
الجماهر فى معرفة الجواهر ، حيدر آباد ، الهند ١٣٥٥ هـ .

التيفاشى ، أحمد بن يوسف :
أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار ، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيونى خفاجى القاهرة ١٩٧٧ .

ابن الجيعان ، شرف الدين يحيى بن المقر :
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الحميرى ، محمد بن عبد المنعم :
الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى :
صورة الأرض ، بيروت (بدون تاريخ) .

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبد الله بن أحمد :
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ .

ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد :
الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بولاق ١٨٩٣ .

ابن رستة ، أحمد بن عمر :
الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ .

الزبيدى :
تاج العروس :

سعد زغلول عبد الحميد :
« ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع للهجرة » مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد الثامن (١٩٥٤) ص ٩١ - ١١٨ .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله :

١ - فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق تشارلز تورى ، نيوهافن ١٩٢١ .

٢ - فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ .

عبد الرحمن زكى :

« عواصم مصر الإسلامية » من كتاب فى مصر الإسلامية ، مصر ١٩٣٧ .

عبد العال الشامى :

١ - مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع للهجرة (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ .

٢ - مدن الدلتا فى العصر العربى (رسالة دكتوراه غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

عبد الله يوسف الغنيم :

١ - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبى عبيد البكرى تحقيق ودراسة الكويت ١٩٧٦ .

٢ - المخطوطات الجغرافية العربية فى المتحف البريطانى ، الكويت ١٩٧٤ .

٣ - مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الكويت ١٩٧٤ .

أبو الفداء ، إسماعيل بن محمد :

تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .

قدامة بن جعفر :

كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندى ، أحمد بن على :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩٥ .

كراتشكوفسكى ، أغناطيوس :

تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة ١٩٦٣ .

ابن الكندى ، عمر بن محمد يوسف :

فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم العدوى وعلى محمد عمر ، القاهرة ١٩٧١ .

الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف :

كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨ .

محمد رمزى :

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة (١٩٥٣ - ١٩٦٨) .

المسعودى ، على بن الحسين :

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٤ .

المقدسى ، محمد بن أحمد :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ط ٢ ، ١٩٠٢ .

المقرينى ، تقى الدين أحمد بن على :

١ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

٢ - البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين القاهرة ١٩٦١ .

ابن مماتى ، الأسعد بن مماتى :

قوانين الدواوين ، جمعه وحققه د. عزيز عطية سوريال ، مصر ١٩٤٣ .

ابن منظور ، محمد بن مكرم :
لسان العرب ، القاهرة ۱۳۰۰ .

النابلسى ، عثمان بن إبراهيم :
تاريخ الفيوم وبلادة ، القاهرة ١٨٩٨ .

ياقوت الحموى :
١ - معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦ .
٢ - المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تحقيق وستنفلد ليبزج ١٨٤٦ .

اليعقوبى ، أحمد بن واضح :
كتاب البلدان (المكتبة الجغرافية العربية) ليدن ١٨٩٢ .

(مجهول المؤلف) :
كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية ١٩٦٨ .

ثانيا : الأجنبيـــة :

Ball, J.:E
Egypt in the Classical geographers, Cairo, 1942.

KOWALSKI, THADDAEUS:
Relation Ibrahim Ibn Ja'kub De Ltinere Slavico, Quae Traditur Apud AL-Bakri. Monumenta Poloniae Historica, Cracoviae, 1946.

KUNIK (A.) and ROSEN (V.) :
P. Izvestiya AL-Bakri i. Drugich Avtorov Rusi i Slavjanacb, I, St.Petrsburg.

Quatromere:
Notice D'un manuscrit Arabe de la Bibioteque du Roi Contenant La discribtion de L'Afrique, Paris, Paris, 1831.



الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى

دكتور / محمد السيد غلاب



يتبوأ تاريخ العلوم فى الوقت الحاضر مكانة خاصة بالنسبة للعلوم عامة ، ولكل علم من العلوم بصفة خاصة . وقد ينفصل تاريخ العلوم انفصالا يكاد يكون تاما عن مضمون العلم نفسه بالنسبة للعلوم الفيزيائية والحيوية ، ولكن مثل هذا الانفصال عسير جدا بالنسبة للعلوم الإنسانية ؛ فلاتزال كثير من النظريات والآراء والاتجاهات الفكرية فى العلوم الإنسانية تعتبر امتدادا واستمرارا لنظيراتها التى أتى بها المفكرون الأقدمون . وقد تخبو بعض النظريات فى فترة وتعود للظهور فى فترة أخرى ، إما كما كانت فى ذهن القدماء أو بشكل آخر . على أنه يجب ألا يشغلنا هذا عن الاهتمام بتطور الفكر والأخذ بالأساليب الحديثة .

فدراسة تاريخ العلم وتطور الفكر فيه تلقى الضوء على أصول كثير من النظريات والاتجاهات الفكرية المعاصرة . ومن ثم كان اهتمام العلماء فى الوقت الحاضر بتاريخ علومهم وتتبع تطور أفكارهم ، وذلك بقصد تأصيل تلك النظريات والأفكار وإيجاد رابطة التسلسل التاريخى لمنطق علومهم . والعمل على تطور هذا المنطق فى كل تطور جديد له .

وقد نشطت فى الأعوام الأخيرة دراسة تطور العلوم وتاريخها ، وعقدت لذلك كثير من المؤتمرات ، كما خصصت كثير من العلوم كراسى خاصة لدراسة تطورها وتاريخها . وهناك لجنة خاصة فى الاتحاد الجغرافى الدولى خاصة بتاريخ علم الجغرافيا . وهى ترصد تطور هذا العلم خلال التاريخ من ناحية ، وفى كل قطر من الأقطار من ناحية أخرى .

وتاريخ العلم وتطوره لا ينفصل عن التطور الثقافى العام ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة ، سواء كان هذا بالنسبة لحقبة تاريخية معينة ، مثل حقب التاريخ القديم أو الوسيط أو عصر النهضة أو العصر الحديث ، أو بالنسبة لقطر من الأقطار ، يمر فى فترة ازدهار أو فى فترة ركود ، فى فترة استقرار أو فترة اضطراب . ومن ثم كانت دراسة تاريخ العلم مؤشرا هاما للنظام الاجتماعى السائد .

ودراسة تطور الفكر الجغرافى لدى علماء المسلمين فى فترة ازدهار العلوم الإسلامية تعتبر حلقة هامة فى تاريخ علم الجغرافيا وتطور أفكاره الرئيسية . ولا نريد أن نكرر ما قد قيل من قبل ، ولكننا نريد أن نؤكد على أن الإسلام قد دعا المسلمين إلى النظر فى السماوات والأرض ، وإلى تأمل الكون ، وظاهرات الطبيعة وسقوط الأمطار ونمو الأعشاب والأشجار ،

وتعاقب الليل والنهار وخسوف القمر وكسوف الشمس وبدء الخلق وتطوره ، ودعا إلى السفر والارتحال والسياحة فى الأرض وتأمل خلق الله واختلاف الألسنة . ودعا إلى التدبر والتعقل لاكتشاف أسرار المخلوقات وتعظيم الخالق المصور سبحانه .

والمسلمون وهم يأخذون بأسباب العلوم فى القرون الأولى للهجرة قد بدءوا بترجمة تراث الأقدمين ، من هنود ومجوس وفرس ويونان ، ثم خرجوا من دور الترجمة إلى دور الإبداع وتركوا تراثا حافلا بالمنجزات العلمية ، والإسهامات الحقيقية فى حركة الفكر العلمى عامة وواجبنا أن نتدبر هذه الثروة الضخمة ، نقرؤها ونحققها ثم ندرسها ، ونستخرج منها ما يفيدنا فى علومنا المعاصرة ، ونؤكد على هذا حتى تكون لنا أصالتنا الإسلامية فى الفكر العلمى المعاصر ، وندع ما لا يفيدنا الآن ، والذى له فائدة تاريخية فحسب .

أولا : قبـــل الإســـلام :

عرف عرب الجاهلية مطالع النجوم ومغاربها ، وحددوا منازل القمر بين النجوم بثمانية وعشرين منزلا ، أطلقوا عليها منازل القمر ، وأعطوا لكل منزل منها اسما عربيا خالصا « أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبل فى سرى الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة المغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » (ابن منظور) .

واستطاع العرب التنبؤ بحالة الطقس وتحديد الفصول بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة ، وعرفوا ذلك باسم الأنواء ، ولهم فى ذلك أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين ، وقد جمعها الجغرافيون فى كتب الأنواء (ابن خُرْدَاذْبَة والدّينورى) .

وعرفوا كوكبى الزهرة وعطارد . كما عرفوا ما لا يقل عن ٢٥٠ نجما منها سهيل أو الشعرى اليمانية .

والشعر الجاهلى حافل بأسماء الأعلام الجغرافية التى كان يصادفها الشاعر منها شعر لبيد ، وعبيد بن الأبرص ، وحسان بن ثابت . وللأخير قوله :

لمن الدارُ أوْحَشَتْ بِمَعَانِ بين أعلا اليرموك فالخَمَّانِ
فالقُريَّات من بَلاَسَ فَدَارَ يَا فَسَكَّاءَ فالقُصُورِ الدَّوَانِى
فَقَفَا جَاسِمٍ فأودِيةِ الصُّفْرِ مَغْنَى قَبَايلٍ وَهِجَانِ

وربما أسهم بعض الجغرافيين العرب بنصيب فى جغرافية الإغريق والرومان ، وبغير اللغة

العربية ، قبل أن تصبح لغة أدبية ، منهم إيزيدور الكركنسى ، الذى ترك لنا وصفا لطرق القوافل بين أنطاكية وحدود الهند فى كتاب المحطات البارثية . ومنهم أورانيوس وكلاوكوس . وهؤلاء جميعا عاشوا حوالى القرن الأول للميلاد ، وكانوا من سكان جراكس وهى مدينة تجارية كانت تقع عند قمة الخليج الفارسى وربما كانت المحمرة حاليا .

ثانيـــا : صدر الإســـلام : كتب الفضـــائل

كانت الفتوح الاسلامية مصدرا خصبا لكثير من القصص الموضوعة عن انتشار القبائل العربية وأصولها ، والتصورات الجغرافية للعالم ، حيث يختلـط الواقـع بالأسطـورة وتحدثنـا الروايات فى ذلك العصر عن الرحلات الرائدة إلى بلاد الروم ، وخاصة مدينة القسطنطينية ، وكهف الرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف وهو أيضا تختلط فيهـا الحقائـق بالإسرائيليات والأساطير .

وقد أدى ذلك إلى ظهور أدب « الفضائل » ، أى محاسن البلاد والشعوب . وقد اتخذت الفضائل صيغة أقوال مأثورة تميزت بالإيجاز ، وبمناسبتها للمقام وغلب عليها طابع السجع . وبالتدريج بدأت المثالب تأخذ مكانها إلى جانب الفضائل .

وقد حفظ لنا المسعودى أنموذجاً من الفضائل يقترن باسم الخليفة سيدنا عمر رضى الله عنه . وهو يبدأ بالطريقة الآتية :

« ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب حين فتح الله البلاد على ا لمسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر : إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره الترب والأهوية فى سكانها .

وقد كلف سيدنا عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبى وقاص بعد واقعة القادسية أن يصف له المواضع المجاورة لها . وقد حفظه لنا ياقوت . كما أن المؤرخين من عصر المماليك تركوا لنا وصف عمرو بن العاص الرائع لمصر .

ومن أشهر أدباء الفضائل أيوب بن زيد المعروف باسم ابن القرية ، وكان بدويا أميا انحاز إلى جانب الحجاج ثم انقلب عليه فقتله الحجاج .

وهناك دليل على معرفة الحجاج بالمصورات الجغرافية ، وربما كانت بدائية الرسم ، ولكنها

دليل على بدء معرفة الحكام العرب بالمصورات الجغرافية ، التى كانوا يسمونها صور المنطقة .

ففى حوالى عام ١٠٠ هـ = ٧١٩ م بعث الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى والى الأندلس السمح بن مالك الخولانى بأن « يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها .

كما أن العصر الأموى اهتم إلى جانب المعلومات الأولية عن الأمصار الإسلامية ، بتنظيم بريد الدولة ، وإعداد رسوم تخطيطية لها ، وتحديدها على الطبيعة بوضع أحجار على جانبيها لتوضيح المسافات .

وعلى الرغم من أن الجغرافيا الفلكية لم تكن قد بدأت بعد ، إلا أن الأساقفة السريان كانوا قد بدأوا حركة ترجمة من اللاتينية والإغريقية ، قدر لها أن تتجمع وتصبح كالسيل الجارف فى القرون التالية .

ثالثا : العصر العباسى . أ ـ الجغرافيا الفلكيـــة

بانتقال الخلافة إلى العباسيين وقاعدتهم بغداد ، بدأ الاتصال الثقافى بالمصادر الفارسية والهندية . وقد حملت سفارة هندية إلى بلاط المنصور فى عام ١٥٤ هـ = ٧٧١ رسالة فى الفلك أطلق عليها مترجمها الفزارى ، ويعقوب بن طارق اسم كتاب السند هند . واسم الرسالة فى الأصل « براهما سفوطا سدانتا » . وتحتوى الرسالة على مقدمة وجيزة أرفق بها عدد من الجداول الفلكية فى تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حسبت هذه الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين ، تسمى بالدورات الكونية . وتفترض أنه عندما خلق الله تعالى الكون جعل الشمس والأرض والقمر والكواكب على خط واحد ، ثم بدأ كل فى مداره . وأنها جميعا ستعود على نفس الخط عند نهاية العالم .

زيج الفزارى (حوالى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) متأثر بنظرية السند هند . ولكن حساب السنين فيها معدل إلى السنين القمرية . كما بدا فيه اهتمامه بالتاريخ . وهـذه أولى سمات الجغرافيا الإسلامية ، ربط الجغرافيا بالتاريخ . واشترك مع من شاء الله فى وضع أول أصطرلاب عربى . ويعاصره يعقوب بن طارق الذى ألف كتاب « تركيب الفلك » حوالى ١٦١ هـ = ٧٧٧ ـ ٧٧٨ م .

أخذ العرب عن هذه النظرية حساب خط الزوال أو خط منتصف النهار . والنقطة التى

يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار تسمى عند العرب « قبة الأرض » . وهى على أبعاد متساوية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومنها كان بدء حساب خطوط الطول الجغرافية . وكان يظن أنها تمر عند مدينة أوجين بالهند الوسطى ، ومن ثم تسميتها بنقطة الأرين .

ومن التراث الفارسى ما تركه أبو معشر البلخى (توفى ٢٧٢ هـ ـ ٨٨٦ م) ، وكان أبو معشر وهو من خراسان قد أقام بمكتبة أحد الأثرياء وتعلم فيها علم النجوم . وترك زيجا . وهو مجلد كبير ألفه على مذهب الفرس ، وقد أجمع العلماء فى رأيه على أن الأدوار الكونية أو سنى فارس فيه هى أصح الأدوار .

غير أن علم الفلك عند المسلمين قد تأثر تأثرا حقيقيا بالتراث اليونانى . وقد بدأ نقل هذا التراث فى عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ = ٧٨٦ ـ ١٩٣ = ٨٠٩ م) وابنه المأمون (١٩٨ هـ = ٨١٣ ـ ٢١٨ هـ = ٨٢٣ م) . حيث أصبحت بغداد مركزا لحركة ترجمة ضخمة .

وعنى المسلمون بترجمة الأثرين الكبيرين اللذين تركهما الجغرافى المصرى بطليموس القلوذى ، وكان بطليموس يعمل فى جامعة الإسكندرية ، وأخرج لنا رسالة فى الفلك تعرف باسم الجامع الكبير أو المجسطى ، وكتابا آخر بعنوان المدخل إلى الجغرافيا[1] . وقد ظل أثر هذين الكتابين فى الفلك والجغرافيا باقيا ومستمرا فى التراث الجغرافى الإسلامى كله .

تعدى الفلكيون والجغرافيون المسلمون مرحلة الترجمة والاستيعاب إلى مرحلة التطبيق العلمى لنظريات الإغريق ، فأعادوا تجربة إيراتوستين فى قياس طول الدرجة العرضية ، وتقدير طول محيط الكرة الأرضية ، وضبطوا دوائر العرض وخطوط الطول ، وعينوا مواقع عديد من النقاط الرئيسية فى العالم ، وكان ذلك غير تطبيق للجداول الفلكية . إذ تمكنوا من رسم شبكة خطوط الطول والعرض وهى الأساس الأول للكارتوجرافيا (علم رسم الخرائط) .

ومن أول المصنفات العربية فى الفلك ما تركه أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى (٢٤٧ هـ =٨٦١ م) بعنوان كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم . وهو أحد مصادر الزيج المأمونى المشهور .

ويؤكد المسعودى أن الأرض قد صورت على أساس شبكة خطوط الطول ودوائر العرض البطليموسية فى عصر المأمون . « ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ ،

وأحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض ، وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون ، واجتمع على صنعتها عدد من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما » .

ويعتبر كتاب الخوارزمى فى الجغرافيا فاتحة عهد جديد فى الجغرافيا ، وقد أسماه صاحبه صورة الأرض وقد تم تأليفه عقب وفاة المأمون ما بين ٢٢١ ـ ٢٣٢ هـ = ٨٣٦ ـ ٨٤٧ م. وتوجد منه نسخة واحدة فقط بمكتبة استراسبورج وترجع إلى ما بعد قرنين من تأليف الكتاب .

والخوارزمى من أعظم علماء الرياضة المسلمين . وقد اقترن اسمه بعلم الجبر واللوغاريتم الذى ابتدعه . وكان من فلكيي المأمون ، وثيق الصلة « بدار الحكمة . ومن ثم تغلب الرياضة والفلك على كتابته ، وكتابُهُ فى الجغرافيا على هيئة زيج أى جداول فلكية ، تبين المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين موضعا . وهى موزعة على الأقاليم المختلفة بحسب الابتعاد التدريجى من خط الزوال الابتدائى الذى يمر ـ كما رأى بطلميوس ـ بجزر السعادة (الخالدات) فى أقصى الغرب من إفريقيا . ويتلو جدول المدن جدول الجبال وعددها مائتان وتسعون ، ثم يلى ذلك وصف البحار فالجزر . وأخيرا يأتى أطول الأقسام جميعا وهو وصف أنهار كل إقليم .

وأخذ الخوارزمى عن الإغريق تقسيمهم العالم إلى الأقاليم السبعة حسب درجات العرض . وقد ظل هذا التأثر للجغرافى الإغريقى بطلميوس مستمرا فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين من بعد (بل إن لفظة إقليم هى تعريب Klima اليونانية) . وحيث إن هذا التقسيم النطاقى إنما هو تقسيم مناخى فقط ، فقد انتقلت الكلمة اليونانية إلى اللغات الأوروبية ، وأصبح معناها « المناخ » . والغريب أن الجغرافية الحديثة الآن عادت فى دراسة الجغرافيا الإقليمية إلى التراث الإغريقى ـ الإسلامى ، أى إلى النطاقات أو الأقاليم بالمفهوم الإغريقى الإسلامى ، وتسمى بالجغرافيا النطاقية .

ويبدو أن رسالة « صورة الأرض » لم تكن سوى شرح لخريطة رسمها الخوارزمى على طريقة بطلميوس ، ولكنها فقدت .

وتعتبر هذه الرسالة أقدم أثر فى الجغرافيا العربية يتسم بالأصالة والابتكار .

وعاصر الخوارزمى فى القرن الثالث الهجرى فيلسوف العرب الشهير يعقوب الكندى

(توفى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ م) . وهو صاحب واحدة من أولى ترجمات العرب لجغرافية بطلميوس . ولم يصلنا من كتابه « رسم المعمور من الأرض » شيء ، إلاّ عن طريق المسعودى ، وللكندى نظرية فى المد والجزر ، اعتمد فيها على الملاحظة والتجربة العملية .

وربما كان أتم وصف للأرض ، والبحار مأخوذا من الجغرافية اليونانية ، ما تركه البتانى الفلكى فى القرن الثالث الهجرى . وقد أمضى البتانى حياته يرصد النجوم بمرصد الرقة وكانت له ملاحظات جيدة عن الكسوف . وقد عمل فى الرصد من عام ٢٦٤ ـ ٣٠٦ هـ = ٨٧٧ ـ ٩١٨ م) .

ب ـ الجغرافيا الوصفية والرحـلات :

إذا كان القرنان الثانى والثالث الهجريان قد شهدا ظهور الجغرافيا الفلكية عند المسلمين ، فإن القرن الرابع قد شهد تشكل الجغرافيا الوصفية كما شهد عصرا من الرحلات يقارن بحق بعصر الكشوف الجغرافية المعروف لدى الغربيين .

ولم تظهر الجغرافيا الوصفية فجأة ، ولكنها تحسست طريقها بشيء من الحذر منذ منتصف القرن الثالث . واعتمدت هى أيضا على تقسيم بطلميوس للأرض إلى أقاليم على شكل نطاقات عرضية ، كما أخذت عن الإغريق أيضا كثيرا من أسماء المواضع والأماكن . ولكنها تحررت بعد من تحديد هذه الأقاليم بخطوط عرض معينة ، وصححت كثيرا من مفاهيمها على ضوء الرحلات العديدة التى قام بها الرحالة العرب ، ولاسيا فى قارة إفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .

وتتسم كتب الجغرافيا الوصفية لدى المسلمين بتعبير المسالك والممالك ، وهذا التعبير يرسم منهجا وهدفا للجغرافية ، فالمنهج يعتمد على الخريطة وتتبع الطرق والمسالك ، حيث إن هذا أمر لازم لدولة مترامية الأطراف تحتاج لأن ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض ارتباطا قويا . وحيث يحتل ديوان البريد مقاما ملحوظا بين دواوين الدولة . وأما الممالك فيقصد بها الأقاليم الجغرافية الكبرى . فكأنما الجغرافيا الإسلامية فرقت بين الإقليم المناخى النطاقى ، وهذا ما أسمته بالإقليم (نقلا عن الإغريق) ، وبين الإقليم الجغرافى الكبير ، أو الإقليم الجغرافى الثقافى وهذا ما أسمته بالأقطار أو الممالك .

ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه أول مصنف فى الجغرافيا الوصفية فى المدرسة الجغرافية الإسلامية . وابن خرداذبه هو أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبه ،

فارسى الأصل ، شغل وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران . ويرى دى غويه أن المسودة الأولى لكتابه ترجع إلى حوالى عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م . أما الثانية فلا تتجاوز بحال عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م .

ويهتم ابن خرداذبه بصفة خاصة بوصف « المسالك » أى الطرق . بل إنه أسهب فى وصف الطرق البحرية إلى الهند والصين ، ووصف الطرق المؤدية من بغداد إلى وسط آسيا وإلى بيزنطة ، وإلى الأندلس . وأسهب فى وصف طرق التجارة بين أوروبا والشرق ، عبر أنطاكية من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى وهو فى غضون ذلك يتحدث عن المحاصيل المختلفة ، وأنواع النبات والحيوان ، مثل الكافور والخرتيت ، ويتحدث عن مذاهب الصينيين مثال البوذية وتجار الروس (الصقالبة) .

وتظهر طريقة الاستقصاء فى جمع المادة الجغرافية من مقدمة الجغرافى والمؤرخ أبى العباس أحمد بن يعقوب اليعقوبى ، لكتابه « البلدان » . إذ يقول « إنى عنيت فى عنفوان شبابى ... بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى ، فكنت كلما لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده .. وزرعه ما هو وساكنيه من هم من عرب أو عجم « ... ودياناتهم ومقالاتهم ... » .

ولكى نفهم ما يقصده الجغرافيون المسلمون بالممالك أو البلدان نورد خطة كتاب البلدان هذا . إذ هو يتحدث أولا عن بغداد وسر من رأى لأنهما « مدينتا الملك ودار الخلافة » . ثم عن إيران وتركستان وأفغانستان ، ثم عن غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية . ثم العراق الجنوبى والشرقى وشرقى شبه الجزيرة العربية والهند والصين ، أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة وشمال إفريقيا .

ومن أنماط الكتب الجغرافية التى ظهرت فى هذا العصر ، كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، الذى يعتبر بحق قطعة ممتازة فى الجغرافيا التاريخية ، وهو ذو قيمة كبرى فى التاريخ الإسلامى ـ وكتابان عن تاريخ مكة ، أحدهما للأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤ هـ = ٨٥٨ م) والآخر للفاكهى (المتوفى حوالى ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م) . وينتسب لنفس النمط كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور (توفى عام ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م) ، وإن كانت ضئيلة الحظ من الجغرافيا ، وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (توفى ٥٧١ هـ = ١١٧٦ م) .

ويعتبر صفة جزيرة العرب للهمدانى من أعظم ما أنتجه العرب قيمةً فى الجغرافيا ، ولا يعرف عن الهمدانى إلاّ أنه ولد فى صنعاء ، ونشأ بها ، وزار مكة ، وتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ بسجن صنعاء . والجزء الأساسى من كتابه ينقسم إلى خمسة أبواب رئيسية ، فى وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وكان الهمدانى على علم تام بتاريخ بلاده القديم ، وبجغرافية بطلميوس ، وجهود الجغرافيين اللغويين .

ويعتبر القرن الرابع الهجرى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وكان أيضا عصر ازدهار الجغرافيا الإسلامية . إذ بلغت فيه الجغرافية ـ مثل بقية العلوم أوج ازدهارها . حتى إنه ليسمى العصر الكلاسيكى للجغرافيا الإسلامية ، تلك التى بدأت بالفلك ، ثم تشعبت إلى الرحلات وأخيرا بالجغرافيا الوصفية . وكان الفلك هو أساس الكارتوجرافيا أو علم الخرائط ، كما كانت الرحلات أساس الجغرافيا الوصفية . وإذا كانت الجغرافيا الإغريقية قد توجت بخريطة بطلميوس ، فإن الجغرافية الإسلامية أيضا قد توجت بخريطة الإدريسى . وإذا كان قد ظهر فى الأدب الجغرافى اليونانى والرومانى لمحات عن أثر طبيعة السطح أو خصب التربة فى السكان ، فقد انتهى الأدب الجغرافى الإسلامى بقمة فذة فى التنظير الجغرافى الاجتماعى ، ممثلة فى ابن خلدون . وأخيرا فإذا كان للثقافة اليونانية أن تشيد بعالم فذ لاحظ ظواهر الطبيعة وفسرها تفسيرا أقرب إلى عقولنا اليوم ، فإن الجغرافيا الإسلامية لها أن تشيد بعالم فذ آخر هو البيرونى . بل وبمجموعة علماء مجهولى الأسماء هم إخوان الصفا . وإن الجغرافى الحديث لا يشعر بأنه يقرأ لكتاب كتبوا منذ عشرة قرون إذ هم يكادون يتحدثون لغة اليوم : دقة تعبير ، وحسن استقراء ، وشمول فكرة .

ويحتل المسعودى مكانة مرموقة بين جغرافيى القرن الرابع الهجرى . وهو عربى صرف ، يرتفع نسبه إلى الصحابى عبد الله بن مسعود . وقد ولد على ما يبدو فى بغداد فى بداية هذا القرن ، وأحاط ـ شأن المثقفين فى عصره ـ بالتراث الأدبى الإسلامى ، غير أنه مال للجغرافيا عملا وعلما ، فكان واسع الرحلات ، بعيد الأسفار . زار جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلنطى ومن البحر الأحمر حتى بحر قزوين . وربما زار الصين وأرخبيل الملايو ..

فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وللمسعودى مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة . أشهرها مروج الذهب ومعادن الجوهر الذى ترجم إلى الفرنسية وافتتن به المؤرخ الفرنسى إرنست رينان ، وقد أعاد المسعودى تنقيح كتابه

هذا مرتين ، مرة عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وأخرى عام ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ ، وفى هذا الكتاب فصول جغرافية مثل البحار والأنهار وقبائل العرب والأكراد والترك والبلغار ، وحركة هجرة القبائل ، وروايته عن قبائل الروس وغيرهم من الصقلب . أما مؤلفه الأصغر والأقل شهرة فهو « كتاب التنبيه والإشراف » وقد تم تأليفه قبل عام واحد من وفاته . وفيه يلخص النظريات السائدة فى المناخ ، وأن الشمس إذا كان مسيرها فى الميل الشمالى عن معدل النهار حمى الهواء فى ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبى ، ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالى ويحتاج إلى موضع أوسع ، إذ لا فراغ فى العالم فالواجب أن تكون أكثر رياح الصيف عند من هو فى ناحية الشمال شمالية ؛ لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب ، إذ ليس الريح شيئا غير حركة الهواء وتموجه . وكذلك يجب أن تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية ؛ لتحرك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس فى الشتاء فى الميل الجنوبى . كما يتحدث عن أثر المناخ فى صفات الأجسام وطبائع الناس .

وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم، وابيضت ألوانهم ، حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضا ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم فصارت صهبا لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن فى مذاهبهم متانة ، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة ومن كان منهم أوغل فى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية ، وتزايد ذلك فيهم فى الأبعد فالأبعد إلى الشمال .

ويحتل ابن فضلان مكانا هاما بين الرحالة المسلمين ، لأنه طرق أبواب عالم بربرى مجهول ، فى ظروف مناخية قاسية ، إذ كان السفر إلى حوض الفولجا وبلاد الترك والبلغار يعتبر مخاطرة جسيمة ، فهى بلاد شديدة البرد ، تجوب فيها ـ فى ذلك الحين ـ قبائل متبربرة ، لا تعرف أمنا ولا نظاما . وتحتوى رحلة ابن فضلان على مادة اثنوغرافية قيمة ، اهتم بها الكتاب الغربيون بوصفها أحد المصادر النادرة الأصلية عن رحلات أجدادهم من البلغار والروس والخزر . وقد بدأت هذه الرحلة ما بين صفر عام ٣٠٩ هـ (يونيو ٩٢١) ولكننا لا نعرف متى انتهت . وقد نشرت هذه الرحلة وطبعت طبعة حديثة .

ويحتفظ ياقوت بشذرات عديدة من رحلة طريفة قام بها رحالة أحاط به وبصحة رحلته كثير من الريب والشكوك وقتاً ما ، هو أبو دلف الينبعى الخزرجى . وكان أبو دلف شاعرا مداحا ، التحق ببلاط نصر الثانى بن أحمد السامانى (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ = ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) . وقد انتهز أبو دلف فرصة وصول سفارة صينية إلى بخارى ، فاصطحبها وهى عائدة إلى بلادها . ويبدو أن أبا دلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الذاكرة ، وخلط بها ما سمع من قصص وأساطير .

وغرّب الرحالة العرب ووصلوا أوروبا ليس من الشرق فقط ، بل من الغرب أيضا . وقد حفظ لنا البكرى الجغرافى الأندلسى والقزوينى كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى وكان عالما أندلسيا يهوديا اشتغل بتجارة الرقيق ، وأخذته رحلاته التجارية إلى جنوب ألمانيا فى القرن الرابع الهجرى (٩٦٥ م) . وقابل الإمبراطور الألمانى أوتونى مجدبرج ، وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة فى أوروبا فى ذلك العصر ، ويحدثنا عن أربعة منها هى بلغاريا وبولندا والتشك وإمارة ناكون الأبدوريتى ، كما يورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا .

أما نحو الجنوب ، فقد بعث القائد الفاطمى جوهر الصقلى ابن سليم الأسوانى فى مهمة دبلوماسية إلى ملك النوبة ، فوضع كتابا بعنوان « كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ، وفيه وصف دقيق لكل النواحى التى رآها ولسكانها ، ولقد حفظت لنا شذرات منه لدى المقريزى وابن إياس ، ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد فى أدب العصور الوسطى الذى يبين لنا مدى معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل .

وقد ظلت الرحلة والخريطة ملازمتين لكتب المسالك والممالك ، فأبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، تلميذ الكندى ، اهتم كأستاذه بالفلك ، ثم ارتحل من بلخ إلى بغداد ، ثم أدى فريضة الحج ، وعاد ليرسم مجموعة من الخرائط ، ويعلق عليها فى رسالة أسماها « صور الأقاليم » وذلك حوالى عام ٣٠٨ ـ ٣٠٩ هـ = ٩٢٠ ـ ٩٢١ م .

أما معاصره الإصطخرى ، أو أبو إسحق الفارسى الإصطخرى ، فقد نشأ فى إيران الوسطى وسافر كثيراً فزار بلاد ما وراء النهر وجزيرة العرب والشام ومصر ، وأصدر كتابه المسالك والممالك حوالى ٣١٨ ـ ٣٢١ هـ = ٩٣٠ ـ ٩٣٣ م . واقتصر الإصطخرى مثل غيره من الجغرافيين المسلمين على وصف بلاد الإسلام ، مقسما إياها إلى عشرين إقليما جغرافيا ،

وليس إلى نطاقات عرضية ، وكل قسم عناه بالمملكة ، ويورد الإصطخرى فى كل قطر معلومات عن الحدود والمدن و المسافات وطرق المواصلات ، ويروى تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الشعوب والأجناس . ويعطى عناية خاصة للأقطار التى زارها .

وثالث مؤلفى المسالك والممالك هو ابن حوقل ، الذى كان يعاصر الإصطخرى ويصغره سنا . وقد احترف التجارة فحملته أسفاره غربا إلى شمال إفريقيا والأندلس ، وزار إيطاليا وعرف عن كثب إيران وجزءا من الهند . وقد اقتصر ابن حوقل على دار الإسلام « وقد فصلت إقليما إقليما وصقعا صقعا وكورة كورة » إلا أنه كان يتجاوز ذلك أحيانا ويخرج عن نطاق العالم الإسلامى .

ويتحدث ابن حوقل فى مقدمته عن منهجه فيستخدم تعبير «صورت» أو أعقبت ذلك بصورة العراق .... ثم صورت بلاد السند .. ثم صورت الجبال وأعمالها .. مما يدل على أن ابن حوقل اعتمد اعتمادا كاملا على الخرائط ، وهذا تقليد اتبعته المدرسة الجغرافية الإسلامية ، فى رسم أطلس الإسلام ، ويبدأ هذا الأطلس عادة بخارطة العالم المستديرة ، ثم خرائط جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، ثم أربع عشرة خريطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامى (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها إيران وأذربيجان والجبال وكيلان وطبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر) .

وكان المتن الذى يصف هذه الخرائط يسير على نهج صارم ، فيبدأ بكل قطر بالكلام عن المدن والأنهار فالجبال والسكان . ويعقب ذلك وصف طرق المواصلات .

أما المقدسى فهو آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية . أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة . وقد ولد المقدسى فى عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ ـ ٩٤٧ م . وكان مولعا بالأسفار ، وربما زار معظم العالم الإسلامى فيما عدا السند والأندلس ، ولاقى فى أسفاره هذه كثيرا من العنت ، ولكنه انتهى وهو فى سن الأربعين من تأليف كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (٣٧٥ هـ = ٩٨٥ ـ ٩٨٦ م) . رفع مسودته الأولى إلى آل سامان والثانية إلى الفاطميين بمصر . ويبدو من مقدمة كتابه أنه اطلع على ما ألف سابقوه ، ونظر إليه نظرة فاحصة ناقدة . كما أنه لم يسطر شيئا مما دونوه ، لئلا يبخس الناس حقوقهم ولم يسرق من تصانيفهم ..

ويقول عن نفسه إنه لا يعرف فضل كتابه إلا من نظر فى كتبهم أو دوخ البلدان . غير أنه لم يذكر إلاّ مملكة الإسلام .. ولم يتكلف ممالك الكفار لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها ، ولكنه ذكر مواضع المسلمين منها .

وفى هذا العصر تظهر الجغرافيا بوصفها أحد العلوم الفلسفية فى رسائل « إخوان الصفاء وخلان الوفاء » . وهى موسوعة فريدة وضعتها جماعة من العلماء والمفكرين ، لم يذكروا أسماءهم ، فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وهى تتكون من إحدى وخمسين رسالة ، تتناول الرياضة والمنطق والميتافيزيقا وعلم النفس ، والتصوف والتنجيم والسحر . وقد أفردت للجغرافيا الرسالة الخامسة فى العلوم التعليمية فى الجغرافيا أى صورة الأرض والأقاليم .. غير أن المعلومات الجغرافية الأخرى متناثرة فى الرسائل ، وقد أتى أصحاب هذه الرسائل بآراء طريفة فى مجال الجغرافيا الطبيعية الميتورولوجيا ، فهم قد لاحظوا أن ارتفاع حرارة الغلاف الجوى نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض . كما لاحظوا التغير التدريجى الذى يطرأ على موضع كل من اليابس والماء . وقد تجاوزوا عصرهم بمراحل عندما قالوا إن السهول مع مرور الزمن تصبح بحارا ، وتتحول البحار إلى سهول وجبال . وهذا ما أثبته البيرونى فى القرن التالى ..

القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

يمتاز هذا القرن بتألق عالم مسلم جليل ، هو البيرونى ، وظهور جغرافى كبير فى الأندلس هو البكرى ، وجغرافى وكارتوجرافى فى صقلية هو الإدريسى ، ولكل من هؤلاء الأعلام طابعه الخاص ، وكل منهم أثرى الجغرافيا والكارتوجرافيا ليس لدى المسلمين فحسب ، بل لدى المفكرين عامة ، إذ لم يقتصر أثرهم على بنى ملتهم فقط ، بل شملت البشرية جمعاء . فهم معالم مضيئة فى طريق العلم .

ولد البيرونى فى الثانى من ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ = ٤ سبتمبر ٩٧٣ بإحدى ضواحى خوارزم ، وعاش فى عصر مضطرب بالقلاقل السياسية، وتقاذفته الدسائس والمؤامرات، إلاّ أن هذا لم يمنعه من أن يلم بعلوم عصره ، فهو أديب ومؤرخ وعالم بالصيدلة ، ورياضى وفلكى ، فهو يعتبر مثالا للمثقف الموسوعى فى ذلك الحين .

ويعتبر كتابا الآثار الباقية وتاريخ الهند من أهم الآثار العلمية للبيرونى التى خلدت

اسمه . وقد ظل وصف البحار فى كتابه مدة طويلة أحسن وصف لبحار العالم القديم . وإن الجغرافيين المحدثين لينظرون بعين الاحترام والاعتبار إلى آرائه حول دوران الأرض حول محورها ، وخضوع منابع الأنهار لقواعد الهيدروستاتيكا ، ونظريته فى سهول السند والجانجة بأنها كانت مغطاة بماء البحر ثم تكونت بالإرسابات النهرية ، أو رأيه فى جبال الهملايا الجيرية ، بأنها تكونت فى قاع البحر ثم خضعت لقوى أرضية رفعتها ، إنّ بعض هذه الآراء لتعتبر ثورة فى الفكر إذا قيلت بعد ذلك بعدة قرون ، فما بالنا وقد قالها صاحبها منذ أكثر من ألف عام .

أما كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية الذى انتهى من تصنيفه وهو فى سن السابعة والعشرين فهو خاص بالتقاويم المختلفة فلكية كانت أو شعبية ، عند كل الشعوب وفى الأديان المختلفة .. تقاويم أعياد اليونان والرومان والفرس والصغد والخوارزميين والحرانيين والنصارى والقبط واليهود وعرب الجاهلية والمسلمين .

وأما كتابه « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » . وهو يسير على نهج المجسطى لبطلميوس ، فيقدم فيه اثنى عشر بابا موجزا لعلم الفلك مع حساب التوقيت وحساب المثلثات والرياضة والجغرافيا والتنجيم .

وكتابه تحديد نهاية الأماكن لتصبح مسافات الأماكن « يبين مقدار علمه بالجغرافيا الرياضية إذ يدور البحث فيه فى تحديد العروض الجغرافية والاختلاف فى تحديد أطوال المواضع .. وقد فطن إلى مذاهب الجغرافيين المسلمين فى هذا المقام ، واستفاد منها جميعا ، فجمع إلى معرفته بحسابات بطلميوس أرصاده الخاصة ، وأطوال المسافات كما يحددها سير البريد .

أما أشهر كتبه على الإطلاق فهو كتاب « تحرير ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ويعد هذا الكتاب وثيقة جغرافية تاريخية هامة لأحوال شبه القارة الهندية فى ذلك الحين . ولا تزال ملاحظاته عن الطوائف الهندية ، والعبادات الهندية وعادات أهلها صادقة حتى الآن .

واستمر تقليد الرحلات الجغرافية قائما فى هذا القرن . وظفرت الجغرافية الإسلامية بأحد الأسفار القيمة الفلكية المكتوبة بغير اللغة العربية ، وهو سفر نامه لناصرى خسرو (٣٩٤ هـ ـ ٤٨١ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٨٨ م) . وقد نشأ ناصرى خسرو فى مدينة مرد ،

وخرج من بلاده يريد الحج فمر بنيسابور فى طريقه إلى الرى . ثم قزوين وتفليس وآمد (ديار بكر) إلى حلب فطرابلس .

وتجول فى بلاد الشام مدنها ومرافئها وزار بيت المقدس ، ثم عرج على مصر وقضى بها عدة أعوام ، ومنها أدى فريضة الحج ثلاث مرات . وقد أطنب فى وصف مصر وخطط مدينة القاهرة فى العهد الفاطمى . وبعد حجته الرابعة اجتاز الجزيرة العربية إلى الخليج فالبصرة وآب راجعا إلى بلاده . ولهذه الرحلة ترجمة جيدة للعربية للأستاذ الدكتور يحيى الخشاب (١٩٤٥) .

ويرتبط بالعهد السلجوقى مؤلف وحيد باللغة العربية عن الأتراك ، هو « ديوان لغات الترك » لمحمود الكاشفرى، وقد تم تدوينه فى بغداد بين عامى ٤٦٤ و ٤٦٦ ه‍ = ١٠٧٢ و ١٠٧٤ م) . ومؤلفه تركى يجيد العربية ، اعتمد على معلوماته الشخصية باللغة التركية وبلاد آسيا الصغرى ، وترك لنا مادة وفيرة عن الشعب التركى فى مراحل تكونه الأولى ، وقد تم طبع هذا الكتاب أثناء الحرب العالمية الأولى .

ومن هذا القبيل أيضا كتاب شرف الزمان طاهر الدوزى الذى كان طبيبا ببلاط السلاجقة واسمه طبائع الحيوان . ويبحث الكتاب فى جوهره فى علم الحيوان ، ولكنه تضمن الحديث عن الأجناس البشرية والجغرافيا .

وتأتى قيمة هذا الكتاب أيضا فيا تضمنه من حديث عن الشرق الأقصى ، الهند والتبت والصين .

وفى نفس العصر ظهر فى الأندلس والمغرب أعلام ثلاثة هم البكرى والإدريسى وابن جبير . أما البكرى فهو أبو عبيد الله البكرى أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة كما قال المستشرق دوزى ، كان أديبا ولى المناصب الإدارية والدبلوماسية فى الدولة . ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، نشأ فى قرطبة فى أسرة عرفت الإمارة على بعض مدن الأندلس . وقد ترك لنا مصنفين هامين فى الجغرافيا ، أحدهما احتفظ بالاسم الكلاسيكى المتداول فى الجغرافيا الإسلامية وهو « المسالك والممالك » والآخر يضرب فى التقليد إلى كتب المعاجم ، ويعرف بمعجم ما استعجم .

ولم ينته إلينا كتاب المسالك والممالك كاملا ، بل بقيت منه شذرات فقد أفاد منه ياقوت كثيرا . ولكن مما تبقى منه نستطيع أن نقول : إنه أعطى وصفا تفصيليا لشمال إفريقيا ، طرقها وسواحلها ومرافئها ، كما أنه عُنِىَ بمصر والعراق . وأفاد البكرى أيضا من كتابة معاصريه عن الأندلس ، وجزر كناريا وصقلية ، وقد فرغ من هذا الكتاب عام ٤٦٠ هـ ـ ١٠٦٨ م[٢]

وأما الصنف الثانى فهو معجم ما استعجم وهو يضرب كما قلنا إلى المعاجم اللغوية وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا بالقاهرة فى أربعة أجزاء (١٩٤٥ ـ ١٩٥١ م) . والمعجم مرتب على حروف الهجاء ، ويقول البكرى فى مقدمة كتابه « هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدودة مبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مُبَيَّنَ البناء معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف ... وما أكثر المؤتلف والمختلف فى أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ، وبنثل وثيتل ونخلة ونحلة وساية وشاية .... الخ » .

فالمعجم إذن ليس كتابا جغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوى . ويهتم البكرى فيه بشبه جزيرة العرب بصفة خاصة ، إذ استغرق الأسماء الواردة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة والشعر القديم وقصص المغازى الأولى ، ولذلك فصَّل فى المقدمة فى ذكر أقسام شبه الجزيرة العربية وقبائل العرب وهجراتها .

أما الإدريسى فهو أكثر الجغرافيين المسلمين شهرة بين العلماء المحدثين ، اقترن اسمه بخريطته التى تقارن بخريطة بطلميوس فى الجغرافيا الإغريقية . وينتمى أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس إلى الأدارسة العلويين ولهذا سمى بالشريف الإدريسى . وربما كان قد ولد عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م ونشأ الإدريسى وعمل فى وسط غريب ، نصف عربى ونصف نورماندى ، هو بلاط روجر الثانى حاكم صقلية النورماندى ، ويمجد الإدريسى هذا الملك النورماندى ، ويذكر كيف أراد أن يتعرف على أحوال الدنيا ، وكيف جمع المراجع والكتب ، واستقدم العلماء والباحثين ، وأفرد لهم مكانا خاصا فى بلاطه ، وتركهم يعملون زهاء خمسة عشر عاما ، وكيف أمر بصنع كرة من الفضة على شكل الكرة الأرضية ورسمها ، وكيف أتى بلوح الترسيم فرسمها على الورق ، وأخيرا كيف شرع الإدريسى نفسه فى وصف تلك الخريطة ، وتأليف كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

وقد فقدت الكرة الفضية ، ولكن بقيت لنا الخريطة ، كما بقيت عدة مخطوطات لكتابه ، مخطوطة باريس ومخطوطة أكسفورد ، ثم مخطوطات إستانبول ومخطوطة القاهرة . ثم مخطوطة لننجراد .

وقد جمع الإدريسى فى منهجه بين المنهج الفلكى والمنهجى الإقليمى الوصفى . فقد بدأ

بوصف الكرة الأرضية ، فقال : إنها معلقة فى الفضاء كالمحّ فى البيضة ، ثم وصف البحار والخلجان ثم أتى بالأقاليم السبعة ، وهى النطاقات العرضية المعروفة عند بطلميوس ، ولكنه قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام طولية ، مبتدئا من الغرب إلى الشرق . ورسم لكل قسم خريطة ثم شرحها وفصل فيها القول . وبذلك ضم كتابه سبعين خريطة هى التى جمعها المجمع العلمى العراقى وأخرج منها خريطته المعروفة منذ عدة أعوام .

ويختلف الإدريسى عن الجغرافيين المسلمين الكلاسيكيين فى أنه لم يقتصر على دار الإسلام فهو قد ألف كتابه ، ورسم خرائطه فى بالرمو فى بلاط إفرنجى . ويحتوى كتابه على وصف مشوق لأوروبا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكتلندا وإيرلندا وسواحل بحر الشمال) . كما عرف بلاد (فنلندا) وبولندا ووسط أوروبا . أما عن إيطاليا وصقلية فمعلوماته عنها شخصية مباشرة . وجاء أهم أقسام كتابه تلك التى أقروها لإفريقيا الشمالية وأسبانيا .

أما عن أجزاء العالم الأخرى غير شمال إفريقيا وجنوب أوروبا ، فإن الإدريسى لم يكن فيها غير ناقل ومعتمد على من سبقوه .

هذا هو الإدريسى الكارتوجرافى العربى ، الجغرافى الموسوعى .

وممن أحيا النمط الأدبى القديم بكتب العجائب ، معاصر للإدريسى عاش فى الأندلس ، هو أبو حامد الغرناطى الذى ولد فى غرناطة عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م . وقد قام الغرناطى بعدة رحلات إلى مصر وسردينيا وصقلية ، وبغداد وإيران وبحر قزوين ، وعبر إلى مصب نهر الفلجا . وقد ضمن مؤلفه « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » خلاصة قراءاته ومشاهداته . وهذا الكتاب منشور الآن مع ترجمة إلى الإسبانية فى مدريد (١٩٥٣ م) . وينقسم كتاب تحفة الألباب إلى أربعة أبواب ، الأول منها يعطى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها ، والثانى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما فى جزائرها من النفط والنار . أما الرابع فيحوى صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور .

ولهذا الكتاب طابع كوزموجرافى ، حشد فيه ألوانا من المعرفة وشتاتا من المعلومات ، مثل ثوران بركان اتنا ، ومشاكل القسطنطينية السياسية ، ووصف آثار مصر ودخل الهرم الأكبر ، وتحدث عن تجارة عظام الماموث بين سكان الفولجا الأدنى وخوارزم ، ويصف شعوب القوقاز ، وأحوال المسلمين الهنغاريين .

ومن أدب الرحلات الذى لايزال يلقى الاهتمام حتى الوقت الحاضر ، رحلة ابن جبير . وصاحب هذه الرحلة محمد بن أحمد بن جبير الكتانى يرجع نسبه إلى أسرة عربية عريقة موطنها بلنسية ، ولد عام ٥٤٠ هـ = ١١٣٥ م واشتغل كاتبا لحاكم غرناطة فترة ما . ولكنه اكتسب شهرة واسعة من رحلته التى دونها . والتى وجد لها مخطوطة وحيدة فى لندن ، يرجع تاريخها إلى عام ٥٧٨ هـ = ١٤٧٠ م .

وتمتاز رحلة ابن جبير بوصفه الدقيق لأحوال مصر والشام وقت مقاومتهما للصليبيين فى عهد نور الدين وصلاح الدين الأيوبى ، وقد قصد الحج عن طريق النيل إلى الصعيد ثم عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب . ثم عبر البحر الأحمر . ويصف ابن جبير ما شاهده فى الإسكندرية وصعيد مصر . كما واصل رحلته إلى الكوفة وبغداد وسامرا والموصل فحلب ودمشق ثم عكا فصقلية ، وعاد إلى غرناطة بعد غيبة عامين . وعاد ثانية إلى بيت المقدس وظل وقته متنقلا بين مكة وبيت المقدس ومصر مشتغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م .

وينتمى إلى هذا العصر ابن مماتى المصرى (توفى ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) . وهو ينتمى إلى أسرة قبطية عريقة ، اعتنق الإسلام وشغل منصبا كبيرا فى الدولة فى عهد صلاح الدين وخلفائه . وأهمية كتابه « قوانين الدواوين » أنه فَصّل نظام الأراضى بمصر ، وبين مساحتها وخراجها . ولذلك فهو يعتبر وثيقة هامة فى تاريخ مصر الاقتصادى .

العصر المملوكى فى مصر والشام :

على إثْرِ الغزو المغولى وتحطيم بغداد وتخريب مكتباتها ، انتقل مركز الإشعاع الفكرى الإسلامى نحو الغرب ، نحو دمشق وحلب ثم استقر أخيرا فى القاهرة . وقد شهد القرنان السابع والثامن الهجريان ظهور الموسوعات العربية الكبرى ، لاسيما فى مصر . وكان من قبيل هذه الأعمال الموسوعية ما أقدم عليه ياقوت الحموى فى معجمه ، ويكفى أن نعرف أن المتن المطبوع لهذا المعجم يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعا وتسعين صفحة لندرك ضخامته . وهو بحق جماع للجغرافيا فى صورها المختلفة ، فلكية ووصفية ولغوية ورحلات اشتملت على كل ما فى التراث الجغرافى الإسلامى من حضارة وأنثولوجيا وسلالات بشرية وجغرافيا تاريخية وشواهد أدبية . وهو من كتب التراث القليلة التى يستطيع القارئ الحديث أن يرجع إليها ويقرأها دون مشقة ، بل ويجد فيها مادة خصبة مفيدة .

واسم ياقوت يشير إلى أنه كان فى الأصل عبدا رقيقا ، نسب لصاحبه التاجر الحموى الذى اشتراه صغيرا ، فهو من أصل رومى ولكنه نشأ فى محيط عربى . وربما ولد عام ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م . وقد صحب ياقوت سيده فى أسفاره العديدة إلى عُمَان ، وخلال إحدى هذه الأسفار علم ياقوت بوفاة سيده واعتاقه له . واستمر ياقوت فى رحلاته العديدة ، إلى العراق وخراسان وفلسطين ومصر ، وذلك فى ظروف اضطراب هذه البلاد بغزوات المغول والدسائس السياسية .

وقد نبتت لديه فكرة المعجم عندما شهد مجلسا علميا اختلف فيه الحاضرون على تحقيق اسم أحد المواضع ، فعقد العزم على إخراج معجم جغرافى جامع يكون مرجعا عند الحاجة . وقد وضع مقدمة لهذا المعجم أشار فيها إلى أهمية الجغرافيا للعابد الورع ورجال الحكم والشرع ، ولعلماء اللغة والأدباء ثم أورد أسماء مراجعه من العلماء الذين سبقوه ، ثم حلل أجزاء كتابه وبين منهجه فى التأليف .

وللكتاب خمسة أبواب تعتبر بمثابة مدخل للمعجم ، لخص فيها النظريات المختلفة من صورة الأرض ، ونظام تقسيم الأقاليم متبعا النهج البطلمى ، أى النطاقات المناخية العرضية . ويورد ياقوت قائمة البروج الاثنى عشر ، والبلدان الواقعة تحت تأثيرها ، كما يعرض لطرق بيان اتجاه القبلة فى مواضع الأرض المختلفة ، ثم يعرض للمصطلحات التى يستخدمها فى كتابه . ومنها المصطلحات الجغرافية الفلكية كخطوط الطول ودوائر العرض والدرجة والدقيقة . ثم المصطلحات الاقتصادية كالخراج وغلة الأرض والصلح والعنوة والفيء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة . ثم ينتهى بتوزيع الممالك حسب مكانتها وعراقتها عنده ..

وترد بعد ذلك أسماء المواضع حسب الترتيب الأبجدى ، فيتحدث عن الموضع ويستشهد بما ورد بشأنه من الشعر أو يفسر اسمه تفسيرا لغويا عربيا ، ثم يلى ذلك بيان طول وعرض المكان مع تحديد البرج الذى يقع تحته والقسم التاريخى الخاص بالموضع له مكانة خاصة عنده ، فإذا كان الموضع مما فتحه المسلمون فإنه يعرض لتاريخ هذا الفتح ، وإذا كان الموضع قد ذكر فى القرآن أو الحديث ساق الشواهد على ذلك . وليس من النادر أن يعطى وصفاً دقيقاً للأماكن والمدن ، ويصف أخلاق أهلها وعاداتهم أو يذكر أسماء علمائها الأعلام . وهكذا تصبح كل مادة فى معجمه مقالاً كاملاً قد يمتد إلى عشر أو خمس عشرة صفحة .

ولم يقتصر ياقوت فى معجمه على العالم الإسلامى كما فعلت الجغرافيا الإسلامية الكلاسيكية ، كما أنه لم يفرد لشبه الجزيرة العربية مكاناً خاصاً فى معجمه ، كما فعل أصحاب المعاجم اللغوية . فجاءت مادته متنوعة شاملة . فلقد كان ياقوت أديبا واسع الأفق ، وكاتبا جم النشاط ، لا يقارن بعالم كالبيرونى أو رحالة كالمسعودى . ولكن معجمه سيظل مرجعا موثوقا به جم الفائدة . .

وعاصر ياقوت مؤلف آخر ترك لنا أثراً هامّا عن مصر . هذا المؤلف هو موفق الدين عبد اللطيف بن يونس البغدادى ، ولد ببغداد عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ م ، ودرس الطب والأدب والكيمياء ، وكان عالما دقيق الملاحظة . ومن آثاره التى تعنينا كجغرافيين كتاب صغير الحجم يحمل عنوان « كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وينقسم الكتاب إلى مقالتين ، تنقسم كل منهما إلى بضعة فصول ، ويقدم الفصل الأول من المقالة الأولى ملاحظات عامة عن مصر ، طبيعتها وسكانها ، والثانى والثالث يصنفان نباتها وحيوانها ، أما الفصل الرابع فيخصصه البغدادى لآثار مصر القديمة ، وهذا أمر نادر جدا بين المؤلفين العرب . بل إن البغدادى كان إنسانا متحضراً إذ اعترض على التخريب الوحشى الذى تعرضت له الآثار . أما فى المقالة الثانية فقد خصص فيها فصلا عن النيل كما سجل فى فصلين منها حوادث مصر المريعة عامى ٥٩٧ ـ ٥٨٩ = ١٢٠٠ هـ ١٢٠٢ م . عندما اجتاحتها المجاعة .

أصبحت مصر منذ ذلك العصر مستقر الأدباء والعلماء . وامتازت بسعة الإنتاج الأدبى فى محيط الجغرافيا ، التى اتخذت طابع العصر ، وهو الطابع الموسوعى . كما ظهر طابع الخطط ، وهو طراز فريد من الجغرافيا التاريخية . هذا إلى المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضى ، وهو عمل يتسم بأهمية خاصة ، فى قطر صغير المساحة يعتمد اعتماداً تاما على مياه نهر واحد ، وهذه المؤلفات تعرف باسم الروكات (جمع روك) وأبعدها صيتا الروك الناصرى الذى يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ م .

أما عن محيط الجغرافيا بالمعنى الكوزموجرافى فقد حفظه لنا فى ذلك العصر الأديب والإدارى والمحارب أبو الفداء ، وقد ولد أبو الفداء عام ٦٦٢ هـ = ١٢٧٣ م بمدينة دمشق ، واشترك فى عدة حملات ضد الصليبيين ، وارتبط نهائيا بالأيوبيين بمصر . وعين حاكما من قبلهم فى حماة . ويحمل مؤلف أبى الفداء فى الجغرافيا اسم تقويم البلدان . وربما انتهى من مسودته

عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م . وهذا المؤلف لا يزيد عن تصنيف المعرفة الجغرافية حتى ذلك الحين ، اعتمد فيه صاحبه على الإصطخرى وابن حوقل والإدريسى وياقوت .

وأكبر موسوعات عصر المماليك هما موسوعتا النويرى والعمرى ويعتبر شهاب الدين أحمد ابن عبدالوهاب البكرى النويرى (٦٧٧ ـ ٧٣٢ هـ = ١٢٧٩ ـ ١٣٣٢ م) مثالا لوسط كتاب الدواوين الذين يحتاجون لفنون من المعرفة تعينهم على تفهم أمور الدولة ، وتصقل مواهبهم ، وتشحذ أذهانهم وتمكنهم من امتلاك ملكة الذوق السليم والحكم السديد . ومن ثم كانت تربيتهم الموسوعية ، ومن أجلهم ألف القلقشندى مثلا كتاب صبح الأعشى . وموسوعة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى تدخل فى هذا الباب وتمثله أدق تمثيل . وقد استغرق تأليف هذه الموسوعة عشرين عاما . وقد ظل يضيف إليه إلى ما قبل عام واحد من وفاته (٧٣١ هـ = ١٣٣١ م) .

وتشغل الجغرافيا القسمين الرابع والخامس من الفن الأول المخصص للسماء والأرض ، وفيه نجد المعلومات المعروفة عن خلق العالم والظواهر الجوية والعناصر وقياس الوقت والفصول ، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال .

وقد استطاع العلامة المصرى أحمد زكى باشا (توفى ١٩٣٤ م) أن يجمع نسخة كاملة من هذا الكتاب فى واحد وثلاثين جزءاً . وبدأت دار الكتب المصرية إصدار الطبعة الرابعة منه عام ١٩٢٣ .

وإذا كان القلقشندى يختتم عصرا بعينه فى كتابة الجغرافيا العامة ، فإنّ ابن بطوطة يختتم بحق عصر الرحلات الجغرافية الكبرى .

وابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، أصله من قبائل لواتة البربرية التى انتشرت بطونها على طول ساحل شمال إفريقيا حتى مصر . ويبدو أن الحافز لابن بطوطة فى رحلته كان أداء فريضة الحج ، وهذا ما حفز سابقيه أيضا .

ويروى ذلك بقوله : « قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جملته ، لباعث من النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كان فى

الحيازيم فحزمت أمرى على هجر الإناث من الأحباب والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا نصبا ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة » .

والواقع ان ابن بطوطة لم يقم برحلة واحدة ، بل بعدة رحلات ، حج فيها ثلاث مرات ، وقطع فيها معظم العالم المعروف فى عصره ، وعلى الرغم من أنه لم يكن جغرافيا ولا أديبا ، إلا أن حب الرحلة كان يسرى فيه مسرى الدم فى العروق ، فهو لا يتردد عن اجتياز الفيافى والقفار ويرمى بنفسه وسط بيئات غريبة عليه تماما ، فبينما هو بين البجاة وفى ميناء عيذاب . إذا به يصوب نحو الشمال ويجوب بلاد فلسطين والشام ، وبينما هو فى مكة المكرمة إذا به يضرب وسط شبه الجزيرة العربية إلى اليمامة ، ثم إلى البحرين ولقد جاب ابن بطوطة بلاد آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم وبلاد الفولجا وعاش فى ديار الأبكخانات . وشرق إلى الهند وسافر إلى الصين بحرا ، وإذا به يعود مرة أخرى ويقطع المحيط الهندى إلى ظفار ، وينتهى إلى بلاد المغرب ، ولا يكاد يعرف بوفاة والدته فى تونس حتى يرتحل إلى غرناطة آخر الممالك الإسلامية فى الأندلس ويكلفه ابن مرين بالسفر إلى بلاد الزنج فى غرة المحرم من عام ٧٥٣ = ١٣٥٢ فيصل إلى بلاد الطوارق ويحكى عنهم أغرب القصص (من وجهة نظره) ، ثم يضرب فى الصحراء حتى يصل إلى تمبكتو ويخترق هضبة الهجار فى ظروف قاسية ، حتى يعود إلى فاس فى نهاية عام ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ ، ويظل بها أكثر من عشرين عاما حتى وافته المنية فى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ .

هذه الرحلات التى استغرقت منه ما يقرب من ثلاثين عاما تضع ابن بطوطة ذلك الشخص البسيط ، فى عداد كبار الرحالة والمستكشفين فى العالم على مدى القرون جميعا . ويكفى وصفه لأحوال دولة الأبكخانات ، أو وصفه لإفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .

وقد قيض الله لابن بطوطة كاتبا أديباً هو الذى حرر له الرحلة ، أو بمعنى آخر أخرج رحلة ابن بطوطة فى إطارها الأدبى الذى نعرفه . هذا المحرر الأديب هو ابن جُزَىّ ، وهو من مواليد غرناطة ، شغل منصب الكاتب لدى السلطان أبى الحجاج يوسف من بنى نصر (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ ـ ١٣٤٥ م) وقد أتم ابن جُزَىّ « تقييد » الرحلة فى ثلاثة أشهر ، وانتهى من تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار عام (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥) .

وخير ما انتهت إليه الكتابات الجغرافية النظرية هو مقدمة ابن خلدون الشهيرة ، التى تعتبر أول بحث منظم فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ونستطيع بشىء من التجاوز ، أن نعتبرها أول بحث منظم فى الجغرافيا الاجتماعية أيضا . وقد تحدث ابن خلدون فى الفصل الأول من المقدمة عن (العمران البشرى على الجملة) وفيه مقدمات ، منها المقدمة الثانية « فى قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم » ثم تكملة لهذه المقدمة الثانية « فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبى » ، ثم فصل الكلام عن هذه الجغرافيا . وقد كان فى تقسيمه للأرض إلى أقاليم طبيعية طبقا للمناخ ، مكررا فى ذلك ما وصل إلى العرب من جغرافية الإغريق وأقسامهم الإقليمية .

ولكنه انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أثر المناخ فى طبائع الشعوب ، ففى « المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم » يقول عن أثر المناخ فى الصفات الانثروبولوجية :

« وفى القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرها فى الهواء .. فأهل الإقليم الأول والثانى شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب . فإنّ الشمس تسامت رؤوسهم مرتين فى كل سنة ، قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر . ونظير هذين الإقليمين بما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط فى الشمال ، إذ الشمس لاتزال بأفقهم فى دائرة مرأى العين أو ما يقرب منها ، ولا ترتفع إلى المسامتة ، ولا ما قرب منها ، فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهى إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر .

والمقدمة الرابعة فى « أثر الهواء فى أخلاق البشر » يقول فيها : « وقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش ، وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، متصفين بالحمق فى كل قطر ... ولما كان السودان ساكنيه فى الإقليم ، واستولى الحر على أمزجتهم وأصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم .. أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا ، فتكون أسرع فرحا وسرورا ، وأكثر انبساطا ،

ويجيء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل بلاد البحرية ... توابع الحرارة فى الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة .. »

وأسهب فى مقدمته فى الحديث عن البدو والبداوة ، وعلاقة ذلك بالحضر ، وذكر أن « البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران ، والأقطار مدد لها » وقد تحدث عن شرح مقومات المدنية ، وأثر البدو فى هدمها أو مدها بدم جديد ، وأفرد بعض مقدمته للحديث عن الدولة ، وضرورة اعتمادها على العصبية أى أنه لمس مشكلة العنصر أو السلالة ، كما نفهمها فى الوقت الحاضر ، وأثر العنصرية فى تكوين الدول والممالك ، كما تحدث عن عوامل نشأة الدول وانهيارها ، وهو يذكرنا فى هذا الصدد بما يكتبه المؤرخ الفيلسوف المعاصر الأستاذ توينبى فى دراسة التاريخ .

ومن الطريف أنه طرق موضوع نشأة المدن والأمصار ، وما يجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة ، أى ضرورة حمايتها بالأسوار ، وتوخى المواقع الطبيعية لذلك . وضرورة بعدها عن المستنقعات أو المياه الراكدة الفاسدة ، وما يراعى فى البلدان الساحلية التى على البحر ، وهذه الفصول التى تحدث فيها عن البلدان والأمصار شيقة ، لا تبعد فى إشارتها عن الآراء الحديثة فى جغرافية المدن .

وليس من شك أن هذه المقدمة علم فرد فى التفكير الاجتماعى والسياسى فى العصور الوسطى ، تدل على ما اتصف به صاحبها من سعة أفق ، ودقة ملاحظة وحسن استفادة من معلوماته التاريخية ، وبصيرة بالأمور الاجتماعية والسياسية .

هذه هى مقدمة ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، الذى ينتمى إلى فرع من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضر موت ، والذى دخل أجداده الأندلس بعد فتحها . وقد ارتحل ابن خلدون إلى الشرق ، واشتغل بالقضاء فى مصر . وقد ألف ابن خلدون كتاب تاريخ ضخم ، فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، انتهى من آخر مسوداته عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ م . والجزء الأول من هذا الكتاب يمثل المقدمة .

إنّ القيمة الحقيقية للتراث ، من وجهة نظر الجغرافية المعاصرة أنه أصل فكرة الإقليم ، فقد سارت هذه الفكرة فى عدة أطوار بدأت كما رأينا بالإقليم بالمفهوم الإغريقى ، وقد استوفى الجغرافيون المسلمون هذا المفهوم ووضعوا قواعده ، فهى نطاقات مناخية ، تعتمد أساسا على دوائر العرض .

وظلت هذه الفكرة تظهر وتختفى فى الفكر الجغرافى الحديث ، ظهـرت على الأسـاس المناخى القديم وطبقت على يد هربرتسون الجغرافى البريطانى فى العشرينات من هذا القرن . وظل المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوى فى جامعة القاهرة مخلصا لها فى محاضراته عن الجغرافيا الإقليمية .

ثم تمرد عليها الجغرافيون وأخذوا بفكرة القارة كوحدة إقليمية كبرى ، وعلى الرغم من صدور عدد كبير من الدراسات على هذا الأساس القارى ، فإن الجغرافى لا يأخذ فى اعتباره ظاهرة طبيعية واحدة ، هى ظاهرة توزيع اليابس والماء ليقسم العالم إلى أقاليم كبرى ، ومن ثم فإنّ كثيراً من الكتب الإقليمية تضيف عاملا آخر ، وهو العالم الثقافى فجاءت كتب باسم آسيا الموسمية أو إفريقيا المدارية ، أو أمريكا اللاتينية .

وسارت الجغرافيا الإقليمية خطوة أخرى نحـو تقسيم الأقـاليم الكبـرى ، إذ عادت فأدخلت مجموعة من الأقطار تشترك فى عامل أو أكثر تحـت إسـم واحـد ، مثـل الـدول الاسكندنافية أو وسط أوروبا ، أو البحر الكاريبى . كما اعتمدت دراسات إقليمية أخرى على التقسيم السياسى ، رغم ما فى ذلك من قصور ، إلا أن هذه الدراسات أدخلت عاملا حاسما فى الجغرافيا الإقليمية وهو الوحدة السياسية ، التى تجعل اقتصادها متكاملا داخـل حدود سياسية واحدة .

وتعود الجغرافيا الإقليمية فى الوقت الحاضر إلى فكرة الإقليم التى بدأها الإغريق واعتمد عليها المسلمون ، وتسمى هذه الأقاليم الآن ، بالجغرافيا النطاقية . وليست النطاقات سوى نطاقات مناخية ، أساسها دوائر العرض ، وهى نفس الفكرة القديمة . ومن ثم فقراءتنا لكتب الجغرافيا الإسلامية فى الوقت الحاضر إنما هى قراءة إقليمية تحت ضوء جديد .

وإذا كان تقدم العلوم قد فصل الفلك عن الجغرافيا ، وأصبح الفلك علما ، بل مجموعة علوم قائمة بذاتها ، إلا أن الجغرافيا لاتزال حتى الآن تستفيد من المعلومات الفلكية التى توضح مركز الأرض فى الكون ، وعلاقة كوكب الأرض بالشمس ، وزوايا سقوط أشعة الشمس على دوائر العرض المختلفة إلى آخره . وإذا بحثنا جانبا فكرة المسلمين الخاطئة وهى الأفكار التى سادت الفكر العالمى حتى القرن الخامس عشر ، والتى تقول بدوران الشمس حول الأرض ، فإنّ المعطيات الفلكية الإسلامية المرتبة على شكل زيجـات لاتـزال صحيحـة ،

وتقديرهم لجرم الأرض لايزال صحيحاً ، ورصدهم لحركات الكسوف والخسوف ذات فائدة كبرى فى حساب الدورات الفلكية الكبرى وينبغى الاهتمام بها ودراستها .

ومن عرضنا العام لجهود المسلمين فى الجغرافيا ، ومن قراءاتنا لأهم كتب التراث الإسلامى ، فإننا نرى أن وصف الأقاليم وجغرافيات المسالك والممالك لاتزال ذات فائدة كبيرة بالنسبة للجغرافيا التاريخية للأقطار موضع الدراسة فى التاريخ الذى كتبت فيها. وقد استعان الكاتب بهذا التراث الإسلامى فى التعرف على الجغرافيا التاريخية لفلسطين فى العصور التى تسمى بالعصور الوسطى . ولولا هذا التراث . لاندثرت تماما هذه الجغرافيا فى هذه الحقبة من الزمن . إذ أن الكتابات الأخرى المعاصرة ، مما تركه الأوروبيون ملئ بالأخطاء ومحشو بالأساطير .

وإذا علمنا أن هذه الفترة التى كانت فترة استقرار وازدهار حضارى رائع فى العالم الإسلامى ، فإنها كانت فى نفس الوقت فترة اضطراب وتدهور فى غير العالم الإسلامى ، وإذا أدركنا أن هذه الفترة شهدت حركة انبعاث الشعوب الجرمانية والصقلبية والتركية من وسط آسيا غربا إلى أوروبا ، كما شهدت حركة هجرات الشعوب السودانية والزنجية من نطاق السافانا السودانية ، وإذا أدركنا أن هذه الهجرات البشرية الكبرى عند استقرارها هى التى أدت إلى استيطان الشعوب الأوروبية من ناحية ، والسودانية من ناحية أخرى فى أوطانها الحالية ، فإننا نستطيع أن نقدر القيمة الجغرافية التاريخية الكبرى لتسجيل هذه الحركات ، كما وردت فى كتب المؤلفين الجغرافيين والرحالة المسلمين . ويسجل الباحثون الغربيون اهتمامهم بهذا التراث الذى يؤرخ لفترة مظلمة فى تاريخهم ، ولكنها فى نفس الوقت فترة تكوين هذه الشعوب ، ولاتزال رحلات ابن فضلان وكتابات ياقوت والبكرى وغيرهما هى المصادر الأولى لمعلوماتنا عن حركات الشعوب فى عصر تجوال الشعوب وتكوين الأوطان الأوروبية من ناحية والإفريقية من ناحية أخرى .

ونستطيع أن نقرر أن التراث الإسلامى مصدر أولى وأساسى موثوق به يتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام للجغرافيا التاريخية لأوروبا وإفريقيا فى أكثر فترات تاريخ هاتين القارتين حسما ، فترات تكوين الشعوب واستيطان الأوطان .

وإذا انتقلنا من مرحلة الجغرافيا الوصفية إلى مرحلة التحليل والتعليل ، فإننا نجد أن كتب التراث الجغرافى الإسلامى مليئة بالنظريات التى تحاول أن تعلل النشاط البشرى وتربطه

بالبيئة ، وإذا ضربنا صفحا عن بعض النظريات التى كانت تعد فى حينها مقدما فكريا رائعا ، مثل نظرية البيرونى عن بناء جبال الهيملايا ، أو عن الحفريات ، أو أفكار إخوان الصفا عن تسلسل الخلق ، إذا تجاوزنا هذه النظريات على اعتبار أن العلم الحديث قد خطا خطوات أكبر فى علوم الأرض والبيولوجيا ، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل آراء ابن خلدون فى نشأة العمران وعلاقة البداوة بالاستقرار البشرى ، أو نظرياته السكانية التى تربط تفاقم العمران بازدياد السكان ، وتربط انتشار النفوذ الثقافى للأمة بضخامة عدد سكانها ، أو نظرياته فى اختيار مواقع المدن بحيث يتوافر لها عامل الأمان فى مواقع صحية بعيدة عن المستنقعات ، سهلة الاتصالات وما إلى ذلك مما يدرسه الجغرافيون فى الوقت الحاضر . إذ لاتزال مقدمة ابن خلدون عظيمة الفائدة فى جميع فروع الجغرافيا البشرية .

وبعـــــد :

فهذا عرض سريع للجغرافيا الإسلامية ، رأينا فيها كيف دفع الإسلام على التعمق فى مسائل الفلك ، لتحديد المواقع ، ومعرفة أوقات الشروق والغروب وتحديد موقع القبلة فى كل مكان . وكيف أن الحج كان دافعا قويا للرحلة ، ومشجعا على ارتياد الآفاق ، وكيف أن امتداد رقعة الدولة الإسلامية ، وضرورة ربط أجزائها بعضها بالبعض الآخر ، قد أدى إلى الاهتام بالبريد ، وبالمسالك . ورأينا فيها كيف استفادت بالثقافات الهندية والفارسية والإغريقية ، وكيف أضافت إلى تراث هذه الثقافات بعد أن استوعبتها وتمثلتها . ورأينا كيف سارت ـ مثل كل الجغرافيات على مدى العصور ـ من الرحلة والكشف إلى الوصف والتحليل ، ومن الفلك إلى الكارتوجرافيا ، وكيف ارتبطت الجغرافيا بالخرائط فى عصر ازدهارها . وأخيرا فإنّ الجغرافيا الإسلامية التى بدأت بالرحلات وانتهت بالخرائط ، قد خرجت من مجرد الوصف إلى التحليل ومن التحليل إلى التركيب ، فتوجت الجغرافيا الإسلامية ـ مثل الجغرافيات الإغريقية من قبل والجغرافيا الحديثة من بعد ، بالنظريات التى تربط عنصرى الجغرافيا ، البيئة والمجتمع وزادت على ذلك بأنها ربطت الزمان بالمكان ، التاريخ بالجغرافيا .

فالجغرافيا الإسلامية بحق تحتل مكانها فى تاريخ الفكر الجغرافى ، محافظة على تراث البشرية ، مسهمة فيه فى سبيل اجتلاء عظمة الخالق فيما خلق . وصدق الله عز وجل إذ يقول « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير (سورة العنكبوت) الآية ٢٠ .

صـــــدق الله العظيـــم

مراجـــع مختـــــارة

سارتون ، جورج ، تاريخ العلم ، ترجمة لفيف من العلماء ..
القاهـــرة ١٩٥٧ .
غلاب ، محمد السيد ، البيئة والمجتمع ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٧٥ .
مؤنس ، حسين ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس .
مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد ١٩٦٧ .
كراتسكوفسكى ، أغناطيوس ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٧ .

الحـــواشي

(١) ترجم من العربية إلى اللاتينية عام ١٤٧٨ م . ومن اليونانية إلى العربية فى عهد محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١ م) نشرها بالقاهرة فى طبعة مصورة الأمير يوسف كمال عام ١٩٢٩ .

(٢) طبعت من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأجزاء التالية :

١ - المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب تحقيق ديسلان ، الجزائر ١٨٥٧ م

٢ - جغرافية الأندلس وأوروبا تحقيق عبد الرحمن الحجى - بيروت ١٩٦٨ م .

٣ - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك تحقيق د . عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٧٦ م

٤ - جغرافية مصر تحقيق د . عبدالله يوسف الغنيم ، الكويت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م وهو البحث الذى قدمه إلى المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول الذى عقدته الجامعة فى الرياض ، وسينشر ضمن أبحاث المؤتمر



الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة

دكتور / شاكر خصباك



قبل الكلام عن الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة لابد لى أن أجيب على سؤال يتردد على ألسنة العديد من جغرافيّينا وهو : هل لدينا تراث جغرافى عربى إسلامى يستحق الذكر ؟.

وأقول جوابا على هذا السؤال : إننا نمتلك بالفعل تراثا جغرافيا ذا قيمة كبيرة فى تاريخ تطور الفكر الجغرافى . وقد لفت هذا التراث اهتمام المستشرقين الغربيين منذ أواسط القرن الماضى فبذلوا جهودا مشكورة فى بعثه ، وشارك علماء من دول أوربية عديدة فى هذه المهمة بينهم الألمان والهولنديون والفرنسيون والروس والإنجليز ، وقاموا بنشر مخطوطاته وكتبوا التعليقات والدراسات الضافية عنه . وليس من أهداف هذا البحث الإلمام بأسماء جميع أولئك المستشرقين ، إلا أننا لابد أن نؤكد على أسماء ثلاثة أدوا فى اعتقادنا أعظم خدمة لذلك التراث وهم دى غويا M. J. De GOEJE الهولندى ومولر MULLER الألمانى وكراتشكوفسكى KRACHKOVSKI الروسى فقد قام دى غويا بنشر سلسلة من المخطوطات الجغرافية العربية تحت عنوان سلسلة المكتبة الجغرافية العربية ، وقام مولر الألمانى بجمع الخرائط العربية القديمة وطبعها فى أطلس خاص سماه (أطلس الإسلام) فى مجلده (الخرائط العربية) MAPPAE ARABICAE كما اهتم اهتماما خاصا بإحياء أعظم خارطة عربية هى خارطة الإدريسى . أما كراتشكوفسكى فقد كتب دراسة ضافية عن الجغرافية العربية والجغرافيين العرب والمسلمين تحت عنوان (تأريخ الأدب الجغرافى العربى) .. وقد اشتملت ترجمتها العربية على مجلدين تجاوزت صفحاتهما السبعمائة من القطع الكبير . أفليس هذا الاهتمام من قبل المستشرقين دليلا واضحا على أهمية التراث الجغرافى العربى ؟

والواقع أن التراث الجغرافى العربى الإسلامى قد أسهم إسهاما فعالاً فى إذكاء جذوة العلم الجغرافى خلال العصور الوسطى ، وهى العصور التى تنحت خلالها أوربا عن دورها الحضارى وطمست فيها العلوم . ومنذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى ، وربما قبل ذلك التأريخ أخذ محبو العلوم الجغرافية والرياضية والفلكية والفلسفية من الأوربيين يقتبسون المعرفة من كتب العلماء المسلمين . وحينما بدأت الجغرافيا تستعيد أهميتها من جديد خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وذلك بتنافس الدول فى ميدان الكشوف الجغرافية ، لعبت الأفكار الجغرافية العربية والتراجم العربية لجغرافية الرومان واليونان دورا مهماً فى تهيئة الأرضية العلمية المناسبة لحركة الكشوف الجغرافية . وكانت الكتب الجغرافية والفلكية العربية ومؤلفات بطليموس وغيره من الكتاب الرومان واليونان معروفة على نطاق

واسع لدى الجغرافيين الايطاليين على نحو الخصوص . كما أن الخرائط العربية البحرية أسهمت بدور فعال فى تشجيع حركة الكشوف الجغرافية البحرية بما قدمته من معلومات ذات أهمية كبيرة عن البحار . أما خارطة الإدريسى فقد ظلت هى الخارطة المعتمدة فى الدراسات والكتابات الجغرافية الأوربية حتى القرن السابع عشر . ومازال اسم الإدريسى حتى اليوم من الأسماء الجغرافية العربية اللامعة لدى الجغرافيين الأوربيين ، ومازالت خارطته تثمن تثمينا عاليا باعتبارها مرحلة بالغة الأهمية فى تأريخ الخرائط « بتكنيكها » ومعلوماتها . وهكذا يمكننا القول بأن التراث الجغرافى العربى الإسلامى يمثل حلقة هامة من حلقات الفكر الجغرافى العالمى . هذا الفكر الذى أرسيت دعائمه الأولى أيام اليونانية على أيدى مفكرين من أمثال هيكاتيوس وهيرودوت وأراتوستينى ، والذى طوره الجغرافيون فى عهد الإمبراطورية الرومانية من أمثال سترابو وبلينى وبطليموس ومارينوس الصورى . ومن ثم طمس أو كاد لولا أن تداركه الكتاب العرب والمسلمون ، فبعثوه من جديد وأضافوا إليه إضافاتهم الأصيلة والهامة ، كما تمثلت فى كتابات المسعودى والإصطخرى والمقدسى والإدريسى والبيرونى والعديدين غيرهم .

ويعتقد بعض ا لجغرافيين المعاصرين من العرب وغيرهم أن الجغرافية العربية الإسلامية تخلو من الخصائص العلمية التى تتميز بها الجغرافية الحديثة . لكن الدراسة العميقة لأمهات كتبها تثبت بطلان هذا الزعم . وسنحاول فى هذا البحث الإشارة إلى بعض الخصائص العلمية للجغرافية الحديثة . وإيضاح ما يقابلها فى الجغرافية العربية الإسلامية القديمة .

أولا : تحليل الظواهر الجغرافية (علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية)

لعل أهم ما يميز الجغرافية الحديثة كونها ذات منهج تحليلى تعليلى ، وهو المنهج الذى اختطه الجغرافى الألمانى الكسندر فون همبولدت Humboldt وبلوره معاصره الجغرافى الألمانى كارل ريتر Ritter . وقد أصبح الوصف الجغرافى ثانويا فى الكتابة الجغرافية بعد أن كان هدفا مركزيا . وأخذ الجغرافيون يهتمون اهتماما أساسيا بتحليل الظواهر الجغرافية واستنباط ما يكمن وراءها من عوامل ومسببات .

وبطبيعة الحال فإن الظواهر الجغرافية هى نتاج لظروف طبيعية وبشرية متشابكة . لذلك فقد ساق هذا الاتجاه الجغرافيين إلى مهمة شائكة وهى قديمة وجديدة فى آن واحد ـ وهى تحديد موقفهم من قضية علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية وشكل تلك العلاقة . وقد تبلور لديهم

اتجاهان متناقضان أطلق على الأول اسم (الاتجاه الحتمي) وهو الذى يخضع الإنسان لسلطان البيئة الطبيعية ، وسمى الثانى (الاتجاه الإمكانى) وهو الذى يمنحه حرية التصرف ضمن ضوابط البيئة الطبيعية . وقد غالا الاتجاه الأول فى إخضاع الإنسان للبيئة الطبيعية حتى إن أكبر الجغرافيات الممثلات له وهى مس سمبل Semple وصفت الإنسان فى كتابها المشهور (تأثيرات البيئة الجغرافية) The Influences Of Geographic Environment بأنه نبتة من نبات الأرض .(١)

إن هذه القضية التى اهتم بها الجغرافيون المحدثون كانت إحدى القضايا التى شغلت أذهان الجغرافيين العرب والمسلمين القدامى أيضا . وقد ناقشوا مدى تأثر الإنسان « فزيولوجيا » واجتماعيا بعناصر البيئة الطبيعية ولاسيما المناخ . وسنثبت فيما يلى مقتطفات من الكتابات الجغرافية لثلاثة من المفكرين العرب حول هذا الموضوع وهم : المسعودى ، وابن رستة ، وابن خلدون .

قال المسعودى متحدثا عن أثر المناخ فى التكوين البيولوجى للإنسان :

« وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلبت على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم ، وجفت طبائعهم ، وتوعرت أخلاقهم ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم ، وابيضت ألوانهم ، حتى أفرطت ، فخرجت من البياض إلى الزرقة ، ورقت جلودهم ، وغلظت لحومهم ، وازرقت عيونهم أيضا ، فلم تخرج من طبع ألوانهم ، وسبطت شعورهم ، وصارت صهبا لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن فى مذاهبهم متانة ، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة . ومن كان منهم أوغل فى الشمال ، فالغالب عليهم الغباوة والجفاء والبهائمية ، وتزايد ذلك فيهم فى الأبعد فالأبعد إلى الشمال . وكذلك من كان من الترك واغلا فى الشمال . فلبعدهم من مدار الشمس فى حال طلوعها وغروبها كثرت الثلوج فيهم ، وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم . فاسترخت أجسامهم ، وغلظت ، ولانت فقارات ظهورهم ، وخرز أعناقهم ، حتى تأتى لهم الرمى بالنشاب فى كرهم وفرهم . وغارت مفاصلهم ، لكثرة لحومهم فاستدارت وجوههم ، وصغرت أعينهم ، لاجتماع الحرارة فى الوجه حتى تمكنت البرودة من أجسادهم ، إذ كان المزاج البارد يولد دما كثيرا ، واحمرت ألوانهم إذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة وإظهارها ، وأما من كان خارجا عن هذا العرض إلى نيف وستين ميلا يأجوج ومأجوج

وهم فى الإقليم السادس فإنهم فى عداد البهائم . وأما أهل الربع الجنوبى كالزنج وسائر الأحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس فإنهم خلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة ، فاسودت ألوانهم ، واحمرت أعينهم ، وتوحشت نفوسهم ، وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام فى نضجهم ، حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم ؛ لغلبة البخار الحار اليابس ، وكذلك الشعور السبطة إذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ، ثم الانضمام ، ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها » .(٢)

وشرح ابن رستة أثر الحرارة على سكان المناطق المختلفة من الأرض فقال :

« وقد نجد أيضا كل المواضع والبلدان تختلف حالاتها ، وحالات أهلها ، وما يحدث فيها . وإنما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها أو بعدها عنها . وبيان ذلك الترك فإنهم من أجل بعدهم من مدار الشمس عند صعودها وهبوطها ، وكثرة الثلوج فيهم ، وغلبة الرطوبة والبرودة على أرضهم ، فاسترخت لذلك أجساد أهليها وغلظت وصارت شعورهم سبطة وألوانهم بيضا حمرا وغلب على طباعهم البرد ، وذلك لبرد أهويتهم ، فإن المزاج البارد يولد لحما كثيرا . وأما حمرة ألوانهم فإن البرد يجمع الحرارة ويظهرها حتى ترى ، ويستدل على ذلك بما يرى فى القوم الذين لأبدانهم لحم كثير وألوانهم بيض إذا أصابهم البرد احمرت وجوههم ، وشفاههم ، وأصابعهم ، وأرجلهم ، لأن الحر والدم الذى يكون فيه منتشرا يجمعه البرد . ومن أخلاق هذه الناحية الجفاء ، وقطيعة الرحم ، وقلة اليقين . فأما السودان والحبش فإنهم يسكنون فى البلاد التى تحاذيها من البروج ما بين مدار الحمل إلى السرطان ، ولأن الشمس فى هبوطها وصعودها إذا كانت فى تلك البروج وتوسط السماء تكون على سمت رؤوسهم فتسخن أهويتهم ، وتحرقهم ، وتكثر الحرارة ، واليبس فيهم ، فلهذه العلة صارت ألوانهم سودا وشعورهم قططة ، وأبدانهم يابسة نحيفة ، وطباعهم حارة ، وكذلك دوابهم وأشجارهم . ومن أخلاق هذه الناحية الجفاء والذكاء » .(٣)

أما ابن خلدون فقد ربط بين الأخلاق والطبائع البشرية ، وبين المناخ واعتبر الإنسان خاضعا لسلطان البيئة الطبيعية . فلقد قال :

« وقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، متصفين بالحمق فى كل قطر . والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقدر فى موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكاثفه . وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له

زائدة فى كميته . ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة والغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح .. ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزجتهم ، وأصل تكوينهم ، كان فى أرواحهم من الحرارة بالقياس إلى أرواح الإقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا ، فتكون أسرع فرحا وسرورا ، وأكثر انبساطا ، ويجيء الطيش على إثر هذا . وكذلك لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد نجد يسيرا من ذلك فى أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفى هوائها ؛ لأنها عريقة فى الجنوب عن الأرياف والتلول . واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغل فى التلول الباردة كيف نرى أهلها مطرقين إطراق الحزن ، وكيف أفرطوا فى نظر العواقب ، حتى إن الرجل ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخر . وتتبع ذلك فى الأقاليم والبلدان تجد فى الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء ، والله الخلاق العليم » .(٤)

ثانيـــا : التصنيف الإقليمى للأرض :

من السمات البارزة فى الجغرافية الحديثة الأخذ بمبدأ التصنيف الإقليمى للأرض ، بل إن بعض الجغرافيين المحدثين قد غالوا فى الأمر فعرفوا الجغرافية بأنها (دراسة الاختلاف الإقليمى)(٥) Areal Differentiation

والتصنيف الإقليمى يهدف فى النهاية إلى التمييز بين المناطق الكبرى فى العالم ككل ، أو إلى تمييز مناطق صغيرة ضمن أجزاء كبيرة من العالم . وفى جميع الأحوال فإن هذه الفكرة قد بنيت على أساس وجود تماثل طبيعى ضمن جهات معينة من الأرض ، بسبب توفر ظروف جغرافية واحدة ، وأن هذا التماثل يخلق فرصا متشابهة لاستغلال الإنسان لبيئته الطبيعية ، ولا نزعم بالطبع أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد أخذوا بمبدأ التصنيف الإقليمى للأرض ، كما فهمه الجغرافيون المحدثون لأن الجغرافيين المحدثين أنفسهم يختلفون فى طريقة فهمهم لفكرة (الإقليمية) ، ومايزال بعض الجغرافيين يتساءلون إن كان المفروض أن يأخذوا الإقليم على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه شيء متجانس متشابه ، جوهرى فى كل أجزائه أم أنه شيء مركب يتألف من أجزاء متباينة إلا أنها مترابطة أى أنها وحدة فى إطار من التنوع .[٦] غير أن الأمر الهام بالنسبة لبحثنا هذا أن الجغرافيين العرب والمسلمين الكبار قد دانوا بمبدأ التصنيف الإقليمى للمناطق التى يدرسونها ، بل والتزموا بهذا المبدأ فى دراساتهم . ويمكن القول أن أفضل ممثلى هذا الاتجاه هم الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

فأما الإصطخرى فقد قسم العالم الإسلامى فى كتابه (المسالك والممالك) إلى عشرين إقليما وهى : ١ ـ ديار العرب ٢ ـ بحر فارس ٣ ـ ديار المغرب ٤ ـ ديار مصر ٥ ـ أرض الشام ٦ ـ بحر الروم ٧ ـ أرض الجزيرة ٨ ـ العراق ٩ ـ خوزستان ١٠ ـ بلاد فارس ١١ ـ بلاد كرمان ١٢ ـ بلاد السند ١٣ ـ إرمينية وأذربيجان ١٤ ـ إقليم الجبال ١٥ ـ الديلم ١٦ ـ بحر الخزر ١٧ ـ مفازة خراسان ١٨ ـ سجستان ١٩ ـ خراسان ٢٠ ـ ما وراء النهر .

وبما أن الإصطخرى يمكن أن يعتبر رائداً فى هذا الضرب من الكتابة الجغرافية ، فقد شاب تصنيفه الإقليمى نوع من الاضطراب ، فنراه يقسم منطقة طبيعية واحدة إلى أكثر من إقليم أحيانا . أى أنه قد يغلب فى بعض الحالات العوامل البشرية (الأقوام واللغات) والعوامل السياسية (نوع الحكم) فى تصنيفه الإقليمى على العوامل الطبيعية فى حين يلتزم فى أحيان أخرى بالجانب الطبيعى .[٧]

واتبع ابن حوقل فى كتابه (صورة الأرض) نفس المنهج الذى سار عليه الإصطخرى فى تصنيفه الإقليمى ، بل إن بعض الباحثين يعتقد بأنه نقل معظم أجزاء كتاب الإصطخرى نقلا حرفيا ..[٨]

ولقد بلغت أقاليمه اثنين وعشرين إقليما ، أى بزيادة إقليمين على أقاليم الإصطخرى وهما (إقليم الأندلس) و (إقليم صقلية) . وقد أضاف مناطق أخرى لبعض أقاليم الإصطخرى ، فسمى إقليم (أرمينية وأذربيجان) بإقليم أرمينية وأذربيجان والران) . وسمى إقليم (الديلم) باسم إقليم الديلم وطبرستان . وسمى (مفازة خراسان) باسم (مفازة خراسان وفارس) . ومن الواضح أنه التزم فى بعض أقسامه الإقليمية بالعامل السياسى والإدارى أكثر من التزامه بالعامل الطبيعى ، مما جعل أقاليمه أقرب إلى الوحدات السياسية .

أما المقدسى فقد التزم فى تصنيفه الإقليمى بالعامل الطبيعى التزاما كبيرا ، حتى إن

تقسياته كثيراً ما كانت تتضارب ، والعامل السياسى والإدارى . وقد دمج بعض أقاليم الاصطخرى وابن حوقل فى إقليم واحد ، كما أنه ميز أقاليم جديدة لم يذكرها الجغرافيان المذكوران . وقد عمد كذلك إلى تقسيم أقاليمه الرئيسية إلى أقسام إدارية تحدث عن كل منها على انفراد ، فقسم الإقليم إلى كور ، والكور إلى رساتيق . وقد وردت أقاليمه على النحو التالى :

أ ـ أقاليم العرب ، وهـى : ١ ـ جزيرة العرب ٢ ـ إقليم العراق ٣ ـ إقليم آفور « أرض الجزيرة » ٤ ـ إقليم الشام ٥ ـ إقليم مصر ٦ ـ إقليم المغرب ٧ ـ بادية العرب .

ب ـ أقاليم العجم ، وهـى : ١ ـ إقليم المشرق ويضم خراسان وسجستان ، وما وراء النهر ، ويقسم إلى قسمين : جانب هيطل ، وجانب خراسان ٢ ـ إقليم الديلم ٣ ـ إقليم الرحاب ٤ ـ إقليم الجبال ٥ ـ إقليم خوزستان ٦ ـ إقليم فارس ٧ ـ إقليم كرمان ٨ ـ إقليم السند .

وهكذا يتضح بأن الفكرة الإقليمية كانت من الأفكار البارزة فى الجغرافية العربية القديمة .

ثالثـا : الاهتمام بالخارطة :

تعتبر الخارطة أداة الجغرافى ، ولا يجوز كتابة الجغرافية الحديثة بدون الاستعانة بالخارطة . ولا يمكن القول بأن الاهتمام بالخارطة هو اتجاه حديث ، فقد كانت الخارطة والنص الجغرافى متلازمين منذ أيام اليونانيين القدماء . وقد نجح اليونانى إراتوسثينى ERATOSTHENES فى رسم أول خارطة علمية للأرض منذ القرن الثالث قبل الميلاد كما قام بطليموس PTOLEMY الرومانى بوضع أشمل خارطة علمية للأرض ، وذلك فى منتصف القرن الثانى الميلادى ، لكن الجغرافيين العرب والمسلمين ـ ولاسيا ـ الجغرافيين البلدانيين منهم اهتموا اهتماما خاصا بالخارطة ، فاق اهتمام الجغرافيين اليونان والرومان . والحقيقة أن الجغرافيين البلدانيين اعتبروا الخارطة جزءا لا يتجزأ من النص ، بل جعلوا النص فى خدمة الخارطة .

فالإصطخرى مثلا يقول فى مقدمة كتابه (المسالك والممالك) :

« وأما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات ، وسائر ما أنا ذاكره فقد يوجد فى الأخبار ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شىء من ذلك من أهل كل بلد ، ولذلك تجوزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره ، فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط

الذى لا يسلك صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم كما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ومقدار كل إقليم من الأرض . حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موقعه فى هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، وسائر ما تكون عليه أشكال تلك الصورة . (*) فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه . ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج إلى علمه مما أتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله » . (٩)

ونص ابن حوقل على أهمية الخارطة فى كتابه فذكر فى المقدمة قائلا :

« قد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا يحكى موضع الإقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما فى أضعافها من المدن والأصقاع .. واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره .. واتخذت لجميع الأرض الذى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة .. وأعربت عن مكان كل إقليم مما ذكرته ، واتصال بعضها ببعض ، ومقدار كل ناحية فى سعتها وصورتها من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل ، وموقع كل مدينة من مدنه تجاورها وموضعها من شمالها وجنوبها ، وكونها بالمرتبة شرقيها وغربيها ، ليكتفى الناظر ببيان موقع كل إقليم وموضعه فى مكانه ، وما توخيته من ترتيبه وأشكاله » . (١٠)

وأشار المقدسي أيضا فى مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) إلى أنه قد استعان فى شرح كل إقليم من أقاليمه برسم صورة له بالرغم من أن الباحثين لم يعثروا له إلا على بضعة خرائط فقط ، فلقد قال : « وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد وصورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروح »(١١) ويقول فى موضع آخر : « وقد قسمنا أربعة عشر إقليما ، وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب ، ثم فصلنا كور كل إقليم ، ونصبنا أمصارها ، وذكرنا قصباتها ، ورتبنا مدنها ، وأخبارها بعد ما مثلنا ، ورسمنا حدودها وخططها ، وحررنا المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الإفهام ويقف عليه الخاص والعام » . (١٢)

وتجدر الإشارة إلى أن الخرائط الإقليمية التى اشتهر بها الجغرافيون الكبار الثلاثة ، الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، ومن قبلهم البلخى ، ذات سمات معينة ، تختلف عن

الخرائط المألوفة . فهى لا تعترف بخطوط الطول والعرض ولا أثر لهذه الخطوط فيها ، وبالتالى فإن تعيين المواضع فيها لا يخضع لأية قاعدة علمية سوى فكرة التناسب بين موضع وآخر . ومن المعلوم أن الخرائط القديمة ـ ولاسيا خارطة بطليموس ـ قد استندت فى تعيين مواضعها إلى خطوط الطول والعرض ، كما أن الجغرافيين الفلكيين الأوائل من العرب والمسلمين ، من أمثال الخوارزمى ، والبتانى ، والجيهانى كانوا قد اعتمدوا هذا الأسلوب أيضا فى رسم خرائطهم . ولهذا فإن المظاهر الطبيعية فى خرائط الجغرافيين الإقليميين لم تمثل بصورة مقاربة للحقيقة ، بل كانت أقرب إلى الأشكال الهندسية . فقد رسمت على شكل خطوط مستقيمة وأقواس ودوائر سواء أكانت بحارا أم بحيرات أم أنهارا أم جبالا ، كما أنها رسمت بأحجام مبالغ فيها ولا تتناسب مع حقيقتها . والواقع أن تلك الخرائط كانت أقرب إلى الرسوم التخطيطية (الكروكية) ، منها إلى الخرائط الحقيقية ، ولكنها على أية حال لا تمثل الإنجاز الأمثل بالنسبة للخرائط العربية ، ذلك أن الشريف الإدريسى استطاع فى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أن يرسم خرائط إقليمية للقارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا تمثل بمجموعها خارطة العالم وتعتبر قمة الإبداع فى صنع الخرائط فى العصور الوسطى . وقد اتبع الإدريسى فى رسمها الأسلوب العلمى الذى يستند فى تعيين المواضع الجغرافية إلى خطوط العرض والطول المثبتة فلكيا ، كما تلتزم بالشكل الحقيقى للأقطار والأماكن . وبالرغم من أن الإدريسى حذا حذو بطليموس فى أمور كثيرة ، إلا أنه يعتبر مجددا ومتفوقا عليه فى مواضع عديدة ،[١٣] وهكذا تكون الجغرافية العربية القديمة قد اعترفت بأهمية الخارطة للنص الجغرافى ، شأنها شأن الجغرافية الحديثة .

رابعـــا : تنوع الحقول الجغرافية :

لقد تميزت الجغرافية الحديثة بتنوع حقولها ، وبالرغم من إيمان بعض العلماء الجغرافيين بوحدة الجغرافيا ورفضهم تقسيمها إلى حقول[١٤] فإن غالبيتهم يميزون حقلين رئيسيين فى الكتابة الجغرافية هما الجغرافية الطبيعية ، والجغرافية البشرية ، وقد تفرع كل حقل من هذه الحقول أيضا إلى دراسات تخصصية ، بل إن الفروع نفسها قد تفرعت إلى تخصصات أضيق . وقد ضمت الجغرافيا الطبيعية الدراسات المناخية و« الجيومورفولوجية » و« الأوثنوغرافية » والموارد الطبيعية وغيرها . كذلك ضمت الجغرافيا البشرية فروعا متخصصة عديدة كالجغرافيا الاقتصادية ، وجغرافية المدن ، والجغرافيا الاجتماعية ، والجغرافيا السياسية ، وغيرها من التخصصات .

ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نتوقع وجود أمثال هذه الدراسات المتخصصة فى الكتابات الجغرافية العربية القديمة ، فقد كان التخصص منافيا لطبيعة العصر ، غير أننا يمكن أن نزعم بأن الدراسات الجغرافية العربية قد انقسمت منذ البداية إلى حقلين متميزين ، الأول وهو حقل الدراسات الفلكية ، والذى يطلق عليه أيضا اسم « الجغرافية الرياضية » ، والثانى هو حقل « الجغرافية العامة » .. والذى يطلق عليه أيضا اسم (الجغرافيا الوصفية) .

الجغـــرافيا الرياضيـــة :

فأما الجغرافيا الرياضية فكانت خليطا من علم الفلك والجغرافيا الطبيعية ، وقد اتبعت أسلوبا علميا متميزا و« تكنيكا » متقدما ، أى أن منهجها كان منهجا علميا يستند إلى المراصد ، وآلات القياس الدقيقة ، والعمليات الرياضية ، وكان أبرز الآلات التى استخدمت فى هذه الدراسات (الأصطرلاب) الذى يعتبر آلة متطورة ومعقدة يمكن أن تسجل مواقع النجوم وتحركاتها بدقة عالية[١٥] .. كذلك استخدمت آلات عديدة أخرى فى الأرصاد والقياسات مثل (الحلقة الاعتدالية) و (ذات الجيب) و (الثلاثية) و (السداسية) و (اللبنة) ... الخ . ولقد شملت أبحاث هذا الحقل المواضيع التالية :

- الكلام على شكل الأرض .
- شرح حركات الأرض .
- ذكر المساحات المسكونة من الأرض .
- قياس محيط الأرض (بواسطة قياس درجة من درجات الطول) .
- تعيين حركات الكواكب فى أفلاكها بواسطة الأزياج .
- تعيين خطوط الطول والعرض .
- التعرف على الاتجاهات فى عرض البحر .
- تعيين المواضع الجغرافية كالمدن والجبال والأنهار .
- رسم خارطة للأرض .

أما المواضع الأخرى فى حقل الجغرافيا الطبيعية ، فقد وردت ضمن أبحاث الجغرافيا الوصفية أو العامة ، غير أنها غطت أيضا معظم الحقول المعروفة حاليا فى هذا الحقل . كما أنها توصلت إلى نتائج ماتزال تعتبر حتى الوقت الحاضر حقائق جغرافية راسخة ونورد الأمثلة التالية بهذا الخصوص .

المعلومات المنـــاخية :

لقد توصل الجغرافيون العرب والمسلمون إلى الحقائق الرئيسية المتصلة بعلـم المنـاخ كالعوامل المؤثرة فى المناخ ، وأسباب اختلاف توزيع درجات الحرارة على الأرض ، كما فسروا ظواهر التساقط المختلفة تفسيرا صحيحا ويمكن القول أن أبرز المواضيع المناخية التى تناولوها بالبحث هى التالية :

- اعتبروا الشمس المصدر الأساسى للحرارة على الأرض ، كما أدركوا بأن أسباب تباين درجات الحرارة فى جهات الأرض المختلفة هو اختلاف زوايا سقوط أشعة الشمس على الأرض أثناء انتقال الشمس الظاهرى بين مدارى السرطان والجدى .
- أخذوا بتقسيم الأرض إلى مناطق حرارية وهى المنطقة الحارة التى تقع بين المدارين والمنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية اللتان تقعان بجـوار القطبـين ، والمنطقتـان المعتدلتان اللتان تقعان بين المنطقة الحارة والمنطقتين المتجمدتين .
- أخذوا بتقسيم الأرض إلى خطوط عرض تحدد درجة الحرارة واعتبروها ١٨٠ خطا ، ٩٠ خطا منها يقع إلى شمال خط الاستواء ، و ٩٠ خطا إلى جنوبه ، واعتبروا أيضا القطبين يقعان فى درجتى ٩٠ شمالا وجنوبا ، ومدار السرطان فى درجة ٢٣٫٥ شمالا ، والجدى فى درجة ٢٣٫٥ جنوبا .

ناقشوا العوامل المؤثرة فى مناخ الإقليم ، وثبتوا مفاهيم مقاربة للمفـاهيم الحـالية قال المسعودى : « وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها فى الأبدان لثلاثة أسباب : كمية الهواء التى فيها ، وكمية الأشجار ، وكذلك مقدار ارتفاعها وانخفاضها ، فالأرض التى فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان ، والأرض العادمة للمياه تجففها .. وأما اختلاف كونها من قبل الأشجار ، فإن الأرض كثيرة الأشجار تقوم الأشجار التى فيها مقام السترة ، والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض كثيرة الأشجار. وأما اختلاف قواها من قبل مقدار علوها وانخفاضها ، فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة ، والأرض الفسيحة المنخفضة العميقة حارة ومدة » .

ومنهم من رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة ، أولها النواحى ، والثانى الارتفاع والانخفاض ، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها ، والرابع طبيعـة قرب الأرض . وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد ، وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدمنا .. وأما اختلافها من جهة

مجاورة الجبال فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الشمالية فقط ، وأما اختلافها لمجاورة البحر لها فمتى كان البحر من البلد فى ناحية الجنوب ، كان ذلك البلد أسخن وأرطب ، وإن كان البلد فى ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس ، وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت ذلك البلد أبرد وأجف ، وإن كانت تربة البلد جصية جعلته أسخن وأجف ، وإن كانت طينية جعلته أبرد وأرطب .(١٦)

ومن المواضيع المناخية الهامة التى تناولها الكتاب العرب المسلمون بالبحث مناقشة ظاهرة التساقط بأشكالها المختلفة ، وقد عللوا أسبابها تعليلا علميا سليما.

قال إخوان الصفا :

١ ـ اعلم يا أخى أنه إذا ارتفعت البخارات فى الهواء ، وتدافع الهواء إلى الجهات ، ويكون تدافعه إلى جهة أكثر من جهة ، ويكون من قدام له جبال شامخة مانعة ، ومن فوق له برد الزمهرير مانع ، ومن أسفل مادة البخارين متصلة ، فلايزال البخاران يكثران ويغلظان فى الهواء ، وتتداخل أجزاء البخارين بعضها فى بعض ؛ حتى يسخن ويكون منها سحاب مؤلف متراكم ، وكلما ارتفع السحاب بردت أجزاء البخارين وانضمت أجزاء البخار الرطب بعضها إلى بعض ، وصار ما كان دخانا يابسا ماء وأنداء ، ثم تلتئم تلك الأجزاء المائية بعضها إلى بعض ، وتصير قطرا باردا ، وتثقل فتهوى راجعة من العلو إلى أسفل ، فتسمى حينئذ مطرا . فإن كان صعود ذلك البخار الرطب بالليل والهواء شديد البرد ، منع أن تصعد البخارات فى الهواء قليلا ، وعرض لها البرد صارت سحابا رقيقا . وإن كان البرد مفرطا جمد القطر الصغار فى حلل الغيم فكان من ذلك الجليد أو الثلج .(١٧)

ـ وهناك حقائق مناخية أخرى ناقشها الكتاب العرب والمسلمون .. فقد ذكروا فعلا أن الهواء المحيط بالأرض لا يتلقى حرارته من الشمس مباشرة ، بل يتلقاها من الأشعة التى تنعكس عليه من سطح الأرض والمياه ، كما قالوا باستمرار النهار فى منطقتى القطبين لستة أشهر أثناء الصيف ، واستمرار الليل لستة أشهر أثناء الشتاء .(١٨)

المعلومات الهيدروغرافية :

لقد اهتم الجغرافيون العرب والمسلمون بدراسة الأنهار والبحار ، وناقشوا جوانبها المختلفة ، لكنهم ركزوا على دراسة البحار ، وعنوا على نحو الخصوص بتوزيعها وامتداداتها ،

ويمكن القول أنهم تفوقوا على من سبقهم فى هذا الميدان ، ولسنا بصدد تقييم إسهاماتهم الهامة فى تحديد توزيع البحار والأنهار على العالم المعروف يومذاك .. بل سنقتصر على الإشارة إلى أبرز النواحى الطبيعية (الهيدرولوجية) التى تناولوها بالبحث .

ـ ففيا يتعلق بالبحار تحدثوا عن مساحة الماء بالنسبة لليابس ، وذكروا أن البحار تغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض . قال أبو الفدا : (والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها .. أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمغمورة بالمياه) .[١٩]

وناقشوا جيمورفولوجية البحار ، وتحدثوا عن مقر المحيطات . قال الدمشقى : « وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها فى بقاعها ، ووحدات الأرض المغمورة بمياهها . ومعنى الانسجار منها أنها كرية الشكل فى دورانها ، وكرية مع الأرض فى تحدبها الكرى ، فكل جزء منها مكفوف الأطراف كصورة نصف سدس دائرة ، وهذا فى صورته الخاصة . فالبحار مستديرة باستدارة كرة الأرض وتهيئاتها فى التدوير والانكفاف ، ولذلك الراكب فى البحر إذا توغل فيه غابت عنه الأرض ، وإذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية » ..[٢٠]

وقال إخوان الصفا : « واعلم يا أخى أن هذه البحار التى ذكرنا أنها كالمستنقعات على وجه الأرض ، وبينها جبال شامخة وهى كالمسنيات لها ، وهى متصلة بعضها ببعض إما بخلجان بينها على ظاهر الأرض ، وإما بمنافذ لها وعروق فى باطن الأرض ، وإن فى وسط هذه البحار جزائر كثيرة صغارا وكبارا وأنهارا ، ومنها عامرة بالناس فيها مزارع وقرى وممالك ، ومنها برارى وقفار فيها جبال وآجام تسكنها سباع ووحوش وأنعام .. وفى وسط تلك الجزائر بحيرات صغار وكبار وأنهار وغدران وآجام » ..[٢١]

وناقشوا أسباب ملوحة البحار . فقال الدمشقى : « وتكلم العلماء بعلمهم فى الشىء الذى كان عنه الماء ، فمنهم من زعم أن المياه من الاستحالة فطعم كل ماء على قدر تربته ، ومنهم من يزعم أن البحر بقية الرطوبة التى جفت أكثرها جوهر النار وبإحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة ، ومنهم من زعم أن أصل الماء العذوبة واللطافة وانما لطول مكثه جذبت الأرض ما فيها من العذوبة لملوحتها ، وجذبت الشمس ما فيها من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة » .[٢٢]

وناقشوا أيضا أسباب حدوث التيارات والأساطير فى البحار .

قال إخوان الصفا :

« أما علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها ، وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح فى وقت هيجانها إلى الجهات الخمس فى أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف فى أوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار ، فهى من أجل أن مياهها إذا حميت فى قرارها وسخنت لطفت وتحللت وطلبت مكانا أوسع مما كانت فيه قبل ، فيتدافع فيه بعض أجزائها إلى الجهات الخمس فوقا وشرقا وجنوبا وشمالا وغربا للاتساع فيه . فتكون فى الوقت الواحد على سواحلها رياح مختلفة فى جهات مختلفة . وأما علة هيجانها فى وقت دون وقت بحسب شكل الفلك ، ومطارح شعاعاته على سطوح تلك البحار من الآفاق والأوتاد الأربعة » ..(٢٣)

وكانت لدى الجغرافيين العرب والمسلمين معلومات طيبة أيضا عن أنهار العالم القديم ، وقد حددوا منابع البعض منها بدقة . وقد أدركوا حقيقة هامة بصدد هيدرولوجيتها ، وهى أن الأمطار والثلوج والينابيع هى المسئولة عن تغذيتها بالماء ، كذلك شرحوا الدورة المائية وتبينوا أن أكثر الأنهار يبتدىء من الجبال والتلال ويمر فى جريانه نحو البحار والأجام والبحيرات ، وأوضحوا أيضا أسباب ازدياد المياه فيها فى فصول معينة من السنة . قال إخوان الصفا :

« واعلم أن الأودية والأنهار تبتدىء من الجبال والتلال وتمر فى جريانها نحو البحار والآجام والغدران والبطائح والبحيرات » ..

وأما علة مدود أكثر الأنهار التى جريانها من الشمال إلى الجنوب فى أيام الربيع فهى من أجل أن الثلوج إذا كثرت فى الشتاء على رؤوس الجبال الشرقية ، ثم حمى الجو بقرب الشمس من سمتها ذابت تلك الثلوج وسالت منها الأودية والأنهار .

وأما علة مد نيل مصر فى أيام الصيف فهو من أجل أن هذا النهر يجرى من الجنوب إلى الشمال ، ومبدأ جريانه من وراء خط الاستواء حيث يكون الشتاء عندنا يكون صيفا هناك ، وفى الصيف عندنا يكون الشتاء هناك ، فتكون فى ذلك الوقت كثرة الأمطار هناك ، ولهذه الأنهار عطفات وعراقيل يطول شرحها ، وشرح علتها ، وهى تسقى فى جريانها السوادات والمزارع والمدن والقرى ، وما يفضل من مياهها ينصب إلى البحار والآجام والبطائح ويمتزج بمياهه عذبة كانت أم مالحة .. فإذا أشرقت عليها الشمس والكواكب سخنتها وحميت ولطفت وتحللت وصارت بخارا ، فارتفعت فى الهواء وتموجت إلى الجهات ، ويكون منها الرياح والغيوم والضباب والطل والندى والصقيع والأنداء والثلوج والبرد على رؤوس الجبال والبرارى

والعمران والخراب .

وأما الأمطار التى تكون على رؤوس الجبال فإنها تفيض فى شقوق تلك الجبال وخللها ، وتنصب إلى مغارات وكهوف وأهوية هناك وتمتلئ وتكون كالمخزونة ، ويكون فى أسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تمر منها تلك المياه ، وتجرى وتجتمع وتصير أودية وأنهارا ، وتـذوب تلك الثلوج على رؤوس تلك الجبال وتجرى إلى تلك الأودية ، وتمر فى جريانها راجعة نحو البحار ، ثم تكون فيها البخارات والرياح والغيوم والأمطار كما كان فى العام الأول وذلك تقدير العزيز الحكيم »[٢٤]

ولقد أشار المسعودى أيضا إلى ملاحظة بارعة جدا فى جيومورفولوجية الأنهار ، حيث ذكر فى الجزء الأول من موسوعته (مروج الذهب) بأن للأنهار شبابا وهرما وحياة وموتا ونشورا كما يكون ذلك فى الحيوان والنبات .[٢٥]

المعلومات الجيومورفولوجية :

تنوعت المعلومات الجيومورفولوجية فى الكتابات الجغرافية العربية والإسلامية ، وشملت السهول والجبال والبحيرات والبحار . وقد تناثرت فى تضاعيف الكتابات الجغرافية العامة ، ولم تصنف تحت باب معين .. وتناولت بالبحث أثر عامل التعرية والنحت فى التضاريس الأرضية ، وأوضحوا عملية نشوء السهول الرسوبية البحرية ، وناقشوا مسألة تكون الجبال الالتوائية .قال إخوان الصفا فى رسالتهم الخامسة من « الجسمانيات الطبيعيات » :

« واعلم يا أخى أن الأودية والأنهار كلها تبتدئ من الجبال والتلال ، وتمر فى مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران ، وأن الجبال من شدة إشراق الشمس والحر والكواكب عليها بطول الدهر تنشف رطوبتها ، وتزداد جفافا ويبسا وتنقطع وتنكسر ، وخاصـة عنـد انقضاض الصواعق ، وتصير أحجارا وصخورا ، أو حصى ورمالا ، ثم إن الأمطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال إلى بطون الأودية والأنهار ، ويحمل ذلك شدة جريانها إلى البحار والغدران والآجام .. وإن البحار لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها ، تبسط تلك الرمال والطين والحصى فى قعرها ساقا على ساق بطول الأزمان والدهور ، ويتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت فى قعور البحار جبالا وتلالا ، كما تتبلد من هبوب الرياح دِعَاصُ الرمال فى البرارى والقفار . واعلم يا أخى أنه كلما انطمت قعورها من هذه الجبال والتلال التى ذكرنا أنها تنبت فإن الماء يرتفع ، ويطلب الاتساع وينبسط على سواحلها نحو البرارى والقفار ،

ويغطيها الماء فلايزال دأبه بطول الأزمان ، حتى تصير مواضع البرارى بحارا ، ومواضع البحار يبسا وقفارا ، وهكذا لاتزال الجبال تنكسر وتصير أحجارا وحصى ورمالا ، تحطها سيول الأمطار وتحملها إلى الأودية والأنهار بجريانها حتى البحار ، وتنعقد هناك كما وصفنا ، وتنخفض الجبال الشامخة وتنقص وتقصر حتى تستوى مع وجه الأرض » .(٢٦)

وناقش الكتاب العرب والمسلمون أيضا اختلاف توزيع اليابس والماء على مر العصور ، كما أكدوا أهمية الحفريات فى تقرير تاريخ الصخور والطبقات الأرضية ، قال البيرونى :

« لا ينتقل البحر إلى البر ، والبر إلى البحر فى أزمنة ، إن كانت قبل كون الناس فى العالم فغير معلومة ، وإن كانت بعده فغير محفوظة ؛ لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد ، وخاصة فى الأشياء الكائنة جزءاً بعد جزء، بحيث لا تفطن إليها إلا الخواص .. فهذه بادية العرب ، وقد كانت بحرا فانيس ، حتى إن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تبتدئ أطباقا من تراب ورمال ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصد إياها هناك ، بل يخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك إما باقية على حالها وإما بالية قد تلاشت وبقى مكانها خلاء متشكلا بشكلها » .(٢٧)

وقال المسعودى فى كتاب (مروج الذهب) : (فليس موضع البر أبدا برّا ، وليس موضع البحر أبدا بحرا ، ويكون بحرا حيث كان مرة برا ، ويعود برا حيث كان مرة بحرا) .(٢٨)

وقد وردت أيضا فى كتابات المفكرين العرب والمسلمين إشارات إلى اختلاف نوعية الجبال حسب تكونها ، فقد أثار الفيلسوف ابن سينا إلى أن الجبال تنقسم إلى نوعين : نوع ينشأ بسبب حركات رافعة كتلك التى تسبب الزلازل ، ونوع ينشأ عن فعل الرياح والمياه الجارية .(٢٩)

الجغرافيا العامة :

وأما الحقل الرئيسى الثانى من حقول الجغرافيا العربية ، وهو حقل الجغرافيا العامة ، فقد كانت مزيجا من الجغرافية البشرية ووصف البلدان . وقد انضوت معظم مؤلفات الجغرافية العربية تحت لواء هذا الحقل ، وقد صنفها الباحثون تحت عنوان (الجغرافية الوصفية) .

ومن المعلوم أن وصف البلدان الذى يتولى عمليا مهمة التعريف بالعالم هو من أبرز وظائف الجغرافى ، ذلك أن هذا الوصف يؤدى فى النهاية إلى الكشف عن العلاقة بين الإنسان

والأرض ، كما يرسم طريقة استثماره لها . والواقع أن كتب الجغرافيا العربية قد اشتملت على مادة غزيرة عن بلدان العالم القديم ذات جوانب متعددة . ففضلا عن المعرفة الجغرافية البحتة بمناطق متسعة من الأرض ، كجهات غربى وأواسط أفريقيا وأواسط آسيا والهند الصينية والهند وجزر المحيط الهندى ، بل وحتى بعض جهات سيبريا ، فقد أمدتنا بمعلومات طيبة عن شعوب تلك الجهات وطريقة حياتها واستغلالها لبيئتها مما يمكن أن يكون ذا فائدة عظمى . ويجدر بالذكر أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد اتبعوا منذ البداية الأسلوب الصحيح فى كتابة الجغرافية الوصفية ، وهو أسلوب المشاهدة والدراسة الميدانية .. هذا الأسلوب الذى اتبعه أساتذة الجغرافيا الحديثة من أمثال همبولدت HUMBOLDT وارتزل RATZEL ورختوفن RICHTOFEN ولابلاش LABLACHE وديفيز DAVIS وهنتجتون HUNGTINGTON والواقع أن كبار الجغرافيين البلدانيين العرب كانوا من الجوالين ، و قد زاروا معظم البلدان التى كتبوا عنها ، ولاسيا الجغرافيين المبكرين منهم ، من أمثال اليعقوبى ، والإصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، والمسعودى ، والإدريسى ، وقد أشاروا إلى هذه الحقيقة فى كتاباتهم ، ومما زاد فى دقة معلوماتهم أيضا كونهم ، ينتمون إلى بلدان عديدة ، فمنهم الشامى ، ومنهم العراقى ، ومنهم الفارسى ، ومنهم التركستانى ، ومنهم المغربى ، ومنهم الأندلسي ... إلخ . فكان كل منهم يتبارى فى إيراد التفصيلات عن بلاد الإسلام ويحاول التفوق على صاحبه ، وخصوصا فيا يخص المعلومات عن بلده .. وهكذا أتيحت الفرصة للجغرافيين العرب والمسلمين أن يدونوا لنا أدبا جغرافيا غزيرا عن جهات العالم القديم .. ويمكن أن نحكم باطمئنان بأن ذلك الأدب الجغرافى يشتمل على درجة عالية من الدقة ، ولاسيا فيا يخص جهات معينة ولقد غطت تفصيلات هذا الأدب الجغرافى الجوانب التالية :

١ ـ وصف المدن وصفا دقيقا مفصلا ، مع معلومات عن تأريخها وبنائها وسكانها وأهم آثارها .

٢ ـ الكلام على طرق المواصلات ، من حيث اتجاهاتها وطوبوغرافيتها ، والمدن التى تقع عليها ، والأبعاد بين تلك المدن ومدى درجة الأمن فيها .

٣ ـ الاهتمام بوصف الظواهر الطوبوغرافية والتركيز بصورة خاصة على مجارى المياه (الأنهار والنهيرات) والبحار والبحيرات .

٤ ـ الاهتمام بذكر الزراعات والصناعات والمعادن والأحوال الاقتصادية .

٥ ـ إيراد المعلومات التأريخية المتعلقة بالبلدان والمدن وحكامها . مشتملة على

تفصيلات عن سكان البلاد وأديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم .

إن هذه الجوانب التى اشتملت عليها كتابات الجغرافيا الوصفية تركز ـ كما يتضح ـ على الجوانب البشرية أكثر من تركيزها على الجوانب الطبيعية ، مما يكسبها أهمية خاصة . فلقد حفظت لنا من المعلومات المتنوعة عن بلدان العالم القديم ، ما لم يكن فى الإمكان معرفته فى الوقت الحاضر بدونها . وقد استطعنا بالفعل أن ندرك نوع العلاقة القائمة بين البشر وبيئتهم الطبيعية فى مختلف العهود التأريخية ، هذا فضلا عن أن تلك المعلومات يمكن أن ترسم لنا بوضوح ما حدث من تغير فى ا لمنظر الطبيعى Landscape فى كثير من أقطار العالم القديم .

وهكذا يمكننا القول بأن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا من أوائل من كتب فى حقل الجغرافية البشرية ، وأن كتاباتهم فى هذا الميدان تتفوق فى اتساع آفاقها ، وتنوعها على كتابات الإغريق والرومان ؛ ذلك أنهم تناولوا بالوصف مختلف نواحى الحياة البشرية متحدثين عن العادات والتقاليد ، والحرف والأديان ، والطبقات الاجتماعية والمأكل والملبس إلى آخر ما يتصل بحياة الإنسان ، ولم يقتصروا على هذه المواضع فحسب ، بل طرقوا مواضيع بشرية أخرى ، لعلهم كانوا روادا فيها ، هى دراسة المدن وهو الفرع الذى يطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم « جغرافية المدن » Urban Geography ولقد أسهم فى هذا الضرب من الدراسة كتاب عديدون من مختلف البلدان العربية والإسلامية ، غير أن ا لكتاب الأندلسيين برعوا على نحو الخصوص فى وصف المدن الكبيرة وأقاليمها[٣٠] هذا فضلاً عن الدراسة الفذة التى أوردها ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة ، والتى شرح فيها مقومات المدنية وأثر البدو فى هدمها ، أو مدها بدم جديد .[٣١]

وهكذا يتضح بأن الجغرافيا العربية الإسلامية القديمة تتميز بخصائص علمية ، تجعلها جديرة بأن تحتل مركزا مرموقا فى تتأريخ تطور الفكر الجغرافى ، كما أن معلوماتها يمكن الإفادة منها فى حقول علمية عديدة من حقول الدراسات الإنسانية الحديثة .

ooo

الحواشى

(١) I, E. Semple, The Influences Of Geraphic Environment, PP. 1-2., New York, 1911.

(٢) المسعودى ـ التنبيه والإشراف ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٣) ابن رستة ـ الأعلاق النفيسة ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٤) ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٥) ج . ر. كرون ـ أعلام الجغرافية الحديثة ـ ترجمة الدكتور س . (خصباك) ص ١٢ .

(٦) روجر منتسل ـ تطور الجغرافية الحديثة ، ص ١١٧ (ترجمة الدكتور غلاب ، والدكتورة دولت صادق .

(٧) الدكتور شاكر خصباك ـ فى الجغرافية العربية ص ١٣٣ .

(٨) المصـــدر الســـابق ـ ١٣٥ .

(*) المقصود بـ (الصورة) و (التصوير) الخارطة .

(٩) الإصطخرى ـ ص ١٥ .

(١٠) ابن حوقل ص ١٠ ـ ١٥ .

(١١) المقدسى ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٨ .

(١٢) المصـــدر الســـابق ص ٦ .

(١٣) ألدوميلى ـ العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ـ ص ٣٩٣ .

(١٤) الدكتور عبد الرزاق عباس حسين ـ الإطار النظرى للجغرافية ص ٩ .

(١٥) راجع : الدكتور إبراهيم شوكت ـ الأصطرلاب ـ طرق وأساليب رسمه وصنعته ـ مطبوعات المجمع العلمى العراقى ـ بغداد ١٩٧٠ .

(١٦) المسعودى ـ التنبيه والإشراف ص ٢٦ .

(١٧) إخوان الصفا ـ رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ الجزء الثانى ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(١٨) المصـــدر الســـابق ص ٧٥ .

(١٩) أبو الفدا ـ تقويم البلدان ـ ص ١٨ ـ ١٩ .

(٢٠) الدمشقى (شيخ الربوة) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ـ ص ١٢٨ .

(٢١) إخوان الصفا ـ ص ٨٢ ـ ٨٣ ، الجزء الثانى .

(٢٢) الدمشقى ـ المصـــدر الأســـبق ص ١٢٩ .

(٢٣) إخوان الصفا ـ الجزء الثانى ـ ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢٤) المصـــدر الســـابق ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢٥) المسعودى ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ الجزء الأول ص ٨٠ .

(٢٦) إخوان الصفا ـ الجزء الثانى ـ ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٢٧) نفيس أحمد ـ جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة فتحى عثمان) ص ٦٨ .

(٢٨) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ١ ص ٨٠

(٢٩) الدكتور محمد صفى الدين ـ قشرة الأرض ص ٩ .

(٣٠) الدكتور حسين مؤنس ـ تأريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٥٥٥ .

(٣١) ابن خلدون مقدمة ابن خلدون ص ٨٥ .

مراجـــع البحـــث

(1) (I, E. Semple, The Influences Of Geographic Environment, New York 1911, PP. 1-2.

(٢) المسعودى ، أبو الحسن على ـ التنبيه والإشراف ـ منشورات خياط ـ بيروت ١٩٦٥ .

(٣) ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر ـ الأعلاق النفيسة ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن ـ مقدمة ابن خلدون ـ منشورات المكتبة ، التجارية الكبرى بالقاهرة لمصطفى محمد .

(٥) ج . ر. كرون ـ أعلام الجغرافية الحديثة (ترجمة الدكتور شاكر خصباك) ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٤ .

(٦) روجر متسل ـ تطور الجغرافية الحديثة (ترجمة الدكتور محمد غلاب والدكتورة دولت صادق) .

(٧) شاكر خصباك ـ فى الجغرافية العربية ـ مطبعة دار السلام ١٩٧٥ .

(٨) الإصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم ـ المسالك والممالك (تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى) القاهرة ١٩٦١ .

(٩) ألدوميلى ـ العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى (ترجمة الدكتور/ عبد الحليم النجار) القاهرة ١٩٦٢ .

(١٠) عبد الرزاق عباس حسين ـ الإطار النظرى للجغرافية ـ مطبعة الإيمان ـ بغداد ـ ١٩٧٠ .

(١١) إبراهيم شوكت ـ الاصطرلاب ـ طرق وأساليب رسمه وصنعه ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى بغداد ١٩٧٠ .

(١٢) إخوان الصفا ـ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ منشورات المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٢٨ .

(١٣) أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل ـ تقويم البلدان ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة رينو ودى سلان .

(١٤) الدمشقى شمس الدين أبو عبدالله ـ نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ـ منشورات مكتبة المثنى ببغداد .

(١٥) المسعودى أبو الحسن على ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ منشورات المكتبة العصرية بغداد ١٩٢٨ الجزء الأول .

(١٦) نفيس أحمد ـ جهود المسلمين فى الجغرافية ـ ترجمة فتحى عثمان مطابع دار القلم بالقاهرة .

(١٧) محمد صفى الدين ـ قشرة الأرض ـ منشورات مكتبة مصر بالقاهرة .

(١٨) حسين مؤنس ـ تأريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ـ مدريد ١٩٦٧ .

دور العرب والمسلمين فى رسم الخرائط

دكتور / فلاح شاكر أسود



المقدمـــة :

عرف الإنسان الخرائط قبل معرفته الكتابة ، وقد وُجدت رسـوم تخـطيطية لدى بعض القبائل البدائية التى لم تعرف الكتابة بعد ، ثم تطورت هذه الرسوم مع تطور الإنسان وتغير حرفته . وأفضل الخرائط القديمة التى وصلتنا هى الخرائط البابلية والسومرية القديمة التـى رسمت على ألواح من الطين ، مثلت جوانب مختلفة من خرائط تحديد الملكية الزراعية المبنية على المسح الحقلى والطرق الرياضية ، والخرائط الطبوغرافية ، وخرائط المدن ، وكانت هذه الخرائط أكثر رقيا مما وصلنا من الحضارات المشابهة لحضـارة وادى الرافـدين . كالحضـارة المصرية والحضارة الصينية .

واستفادت الحضارة اليونانية القديمة من هذه الحضارات القديمة ، ووصلنا خرائط للعالم لانكسمندر ، وهيكاتيوس ، وهيرودتس ، وإيراتوستين . ثم خرائط الطرق الرومانية وخرائـط أخرى مطابقة للخرائط الإفريقية ، كخريطـة سترابـو ، وقـراطيس ، واكريبـا ، ومـارينس الصورى ، وبطليموس القلوذى .

وفى العصور الوسطى انتكس عِلْمُ الخرائط بسبب توقف المعلومات الجغرافية ، وأصبح تدهور الخرائط الرومانية بداية عهد مظلم فى تاريخ رسم الخرائط ، فاستعان راسمو الخرائط بالخيال والأساطير ، ورسم الحيوانات والأشخاص على الخرائط . وأصبحت الخرائط الأوربية فى هذه الفترة تمثل فترة انحطاط وتدهور . وبعد ستة قرون من هذه الانتكاسة ظهرت الحضارة العربية مشرقة فى كل جوانبها ، وحَفَزَها النجاح السياسى لرسالتها السماوية فى القرن الثانى الهجرى إلى اقتحام ميادين العلم ؛ لتعزيز هذا النجاح ، فاتجهت إلى تراث الأمم السابقة لها ، لتعيد فيه الحياة من جديد ، وتأخذ منه ما يتلاءم معها . فترجمت عن الفارسية واليونـانية والهندية والسريانية ، ولم يقتصر دور هذه الأمة على النقل فقط ، وإنما صححـت الشىء الكثير ، وأضافت الجديد إلى هذا العلم ، حتى ليفخر الإنسان بما حققه أجداده وآباؤه من تقدم واضح وملموس ، على الرغم من أن أغلب تراثهم لم يصل إلينا ، لكى يقف الإنسان أمام الحقيقة العلمية كاملة ، وقد بُذلت جهود علمية مضنية للوقوف على دور العرب المشرق فى علم الخرائط ولكن لازالت جوانب مهمة خافية علينا لضياع قسم كبير من الخرائط التى وردت

إشارات عنها ، ولم نعرف سوى اسمائها ، وخرائط أخرى ضاعت ولم يرد عنها أية إشارة ولا نعرف حتى اسماءها .

الحصيلة الحالية من التراث العربى وأسباب ضياعها

تعود أهم الأسباب التى أدت إلى ضياع التراث العربى إلى ما يلى :

١ - المحن التى تعرضت لها أرض العرب والمسلمين :

فى الوقت الذى ازدهرت فيه الحضارة العربية فى أرض الإسلام وبلغت أوج تقدمها ، تعرضت لغزوات عديدة أتت على هذه الحضارة وخربتها . وبدأت هذه الغزوات بالحروب الصليبية فى القرن الخامس الهجرى (٤٩٠ - ٥٨٣ هـ) ، ثم غزوات المغول المتوحشة التى امتدت من القرن السابع الهجرى حتى القرن التاسع . وابتدأت فى أوائل القرن السابع على يد جنكيزخان ، ثم فى منتصف القرن على يد هولاكو . وفى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع على يد تيمورلنك . فخرب جنكيزخان عواصم العلم التى أوجدها العرب فى أواسط آسيا . خلال ستة قرون ، وأحرقت خزائن الكتب فيها ، مثل طوس ، ونيسابور ، وقزوين ، وأصفهان ، وشيراز ، ومراغة ، وغزنة ، وبخارى ، وسمرقند وغيرها . ثم تعرضت بلاد الشام إلى المحن كذلك . فما إن خلصت من الحروب الصليبية حتى جاءها هولاكو يخربها ويحرق خزائن الكتب فيها . ثم بعد ذلك فى أواخر القرن السابع تعرضت لغزوغازان التترى ، ثم أغار تيمورلنك فى أوائل القرن التاسع فخرب مدنا مهمة وهو فى طريقه إلى الشام . وأهمها مدينة بغداد سنة ٨٠٣ هـ ، وقضى على خزائن الكتب فيها ، وبسقوط بغداد انتهى آخر معقل من معاقل الحضارة المزدهرة[١] .

ونتيجة لهذه الغزوات البربرية المتوحشة خفتت الحركة العلمية المزدهرة التى وضعت أساسها الدولية الأموية ، وترسمت خطاها الدولة العباسية ، وأصبح لكل مدينة دار علم وحكمة تدرس فيها مختلف العلوم وتحتوى على نفائس المخطوطات . وقد فقدت هذه المخطوطات مع ما تحويه من العلوم القيمة نتيجة حرق هذه المكتبات .

وإن عددا قليلا من الأصول التى خلفها راسمو الخرائط العرب ، ومن الصور المنقولة عن تلك الأصول قد وصل إلينا ، فلا زالت جهود الخوارزمى فى الصورة المأمونية ، والبلخى ، والإصطخرى ، والمقدسى ، وحتى خريطة الإدريسى التى بين أيدينا هى صورة منقولة لا يعدو تاريخها القرن الخامس عشر[٢] .

٢ - رسم الخرائط منفصلة عن المتن :

وردت إشارات توضح بأن قسما من الخرائط كانت ترسم منفصلة عن المتن ، أو أنها خرائط منفصلة بدون متن يرافقها ، ويرجح أن هذه الخرائط هى من الخرائط العامة التى تشمل مناطق واسعة ، أو خرائط للعالم ، لكى تخدم الملوك والحكام ، وتكون هذه الخرائط عادة خرائط تفصيلية ، ومن نوع الخرائط الفلكية ، لكى يطلع الحكام على أحوال مملكتهم أو عن موقعهم من العالم . وإن رسم هذه الخرائط بهذه الطريقة جعلها عرضة للضياع والتلف أسرع من الخرائط التى ترافق الكتب ، لأنها تكون بنسخة واحدة ، وإنّ ضياع هذه النسخة أو تلفها يؤدى إلى ضياع هذه التراث .. وقد ذكر المقدسى أنه رأى صورة بخزانة أمير خراسان على كاغدة مصورة مثال المربع ، وأخرى عند أبى القاسم ابن الأنماطى بنيسابور مربعة الشكل ، وفى خزانة عضد الدولة والصاحب[٣] .

٣ - دور النساخ فى تغيير الخرائط وضياعها :

نظرا لعدم انتشار الطباعة ، أصبح للنساخ دور كبير فى كتابة المخطوطات . وإذا كان الناسخ قادرا على أن ينقل المتن الموجود فى الكتاب ، فإنه لا يملك نفس القدرة فى نقل الصور والأشكال التى تحويها المخطوطات الجغرافية ، لذا فإن أثر هؤلاء كان واضحا فى تغيير الحقائق الموجودة فى الصور بين مخطوطة وأخرى.وقد وجد هذا الاختلاف عند تحقيق عددمن النسخ لمخطوطة واحدة . ويعود هذا الاختلاف إلى عدم قدرة النساخ على ضبط الأشكال كما هى فى المتن الأصلى . كما أن البعض الآخر غير قادر على الرسم فنقل المتن تاركا الخرائط . وقد وصل قسم من المخطوطات فيه إشارات إلى الخرائط التى رسمها المؤلفون ، ولكن هذه الخرائط غير موجودة عند تحقيق المتن . ويمكن ملاحظة الاختلاف الموجود فى خرائط المخطوطات الثلاث لكتاب المسالك والممالك للإصطخرى كمثال على ذلك[٤] .

٤ - لازال قسم من الخرائط فى طى المخطوطات المنتشرة فى العالم ، ولم يكشف عنها حتى الوقت الحاضر ، وإن تصوير هذه المخطوطات وتحقيقها ونقل خرائطها إلينا فى المستقبل سوف يضيف إلى الموجود بين أيدينا معلومات قيمة وجديدة تلقى الضوء على كثير من الشكوك ، وتنير الطريق أمام الباحثين .

وقد وردت إشارات إلى كتب كثيرة لم نعثر عليها حتى الآن ، فعلى سبيل المثال إن كتاب الجيهانى المسالك فى معرفة الممالك أو المسالك والممالك لم يصل إلينا رغم أهميته . ووصلت بعض الفقرات عن طريق الجغرافيين المتأخرين ، فمعلوماته عن السند والهند أصبحت المصدر الوحيد للإدريسى ، ولأهمية هذا الكتاب حمله ابن حوقل معه فى حله وترحاله للاستفادة منه[٥] .

وارتبط اسم البلخى بستين مؤلّفا لا نعرف منها إلا اسماءها[٦] .

وذكر المسعودى فى كتبه أسماء أربعة وثلاثين كتابا ، قام بتأليفها لم نعثر منها إلا على ثلاثة كتب فقط ، وهى كتاب التنبيه والإشراف ، وكتاب مروج الذهب ، وكتاب أخبار الزمان . وحتى الكتاب الأخير الذى أكثر المسعودى من الإشارة إليه ، وهو ما يقرب من ثلاثين جزءً لم نعثر إلا على جزء واحد منه فى مكتبة فينا ، وجزء آخر فى المكتبة الملكية بالقاهرة مصور عن المكتبة الأهلية بباريس[٧].

وقدم البكرى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وصفا عاما للعالم ، لم يصلنا منه سوى الجزء المتعلق بالمغرب وبعض شذرات أخرى[٨] .

وللإدريسى مصنف فى الجغرافية عمله لغليوم الأول بن روجر بعنوان (روض الأنس ونزهة النفس) ولا يعرف عنه إلا فقرات قليلة نقلها لنا أبو الفدا فى كتابه المسالك والممالك فى القرن الرابع عشر[٩] .

بواعث اهتمام العرب بالخرائط :

اهتم العرب منذ القدم بالنجوم ، واهتدوا بها فى أسفارهم عبر صحراء الجزيرة ذات السماء الصافية . ولازالت الكثرة من النجوم معروفة بأسمائها العربية، وأدركوا كذلك ظاهرة تنقل الشمس والقمر على مدار السنة فى البروج والمنازل ، وعرفوا تغير أوقات شروق المنازل وغروبها .

وعندما جاء الإسلام الحنيف عزز هذا الاهتمام بالفلك ، وأوجد ارتباطاً بين فروضه والظواهر الفلكية ، ووردت آيات قرآنية كثيرة فى ذلك ، فأوقات الصلاة الخمسة تختلف بين بلد وآخر . وفى البلد الواحد بين فصول السنة وبين يوم وآخر . وإن حساب ذلك يقتضى معرفة عرض البلد الجغرافى ، وحركة الشمس فى فلك البروج وأحوال الشفق الأساسية ، وتحديد الاتجاه نحو الكعبة يستلزم معرفة سمت القبلة . وبداية الصوم ونهايته وتحديد يوم عرفة لأداء فريضة الحج ، يتطلب مراقبة هلال شهر رمضان وشهر ذى الحجة .

إن معرفة العرب بعلم الهيئة والنجوم ساعدهم على رسم الخرائط ونشأتها ، وذلك باستخدام طريقة وأسلوب عمل الأزياج[١٠] التى بواسطتها يتم تعيين مواقع النجوم فى مختلف الأوقات ، استنادا إلى العرض والارتفاعات ، ونتيجة تعيين عروض البلاد وأطوالها بالنسبة إلى رصد النجم القطبى وارتفاعه ، واختلاف الأوقات الزمنية بين البلدان ، وضع العرب جداول لخطوط الطول والعرض للمواقع والعوارض الأرضية المختلفة[١١] .

وقد سبق العرب العلماء المحدثين فى ربطهم الجغرافية بالفلك[١٢] ، وإن التقدم العلمى الذى أحرزوه فى هذا العلم يعود بالدرجة الأساسية إلى المراصد الكثيرة التى انتشرت فى ربوع البلاد الإسلامية ، مثل مرصد الإسكندرية الذى يعتبر أقدم المراصد ، وقد أنشىء فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومرصد دمشق الذى أقيم على جبل قاسيون فى العهد الأموى ، ومراصد بغداد التى أقيمت فى الشماسية فى عهد المأمون ، وعلى طرف الجسر الذى بناه أبناء موسى بن شاكر ، واستطاعوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر ، والمرصد الشرقى الذى بناه عضد الدولة البويهى فى بستان دار المملكة ، ورصد فيه يحيى بن رستم الكوهى (أبو سهل)، ثم مرصد جبل المقطم الذى أقامه الفاطميون فى مصر، ومرصد الحاكمى نسبة إلى الحاكم بأمر الله ، ومرصد المراغة فى بلاد تركستان ، والذى بناه نصر الدين الطوسى واشتهر بآلاته الدقيقة . ومرصد ابن الشاطر والبتانى فى الشام ، ومرصد الدينورى بأصفهان ، ومرصد البيرونى ، ومرصد أولغ بك بسمرقند ، إضافة إلى الكثير من المراصد الأخرى المنتشرة فى مصر والشام والأندلس وغيرها من بلاد المسلمين[١٣] .

واستعمل فلكيو العرب آلات دقيقة للرصد فى هذه المراصد أشهرها :[١٤] :

١ - اللبنة : جسم مربع مستو لقياس زاوية الميل والأبعاد القوسية للكواكب ، وعرض البلد .

٢ - الحلقة الاعتدالية : حلقة تنصب فى سطح دائرة المعدل ، لقياس أقـواس على هذه الدائرة ، ليعلم بها التحول الاعتدالى .

٣ - ذات الأوتار ، أربع إسطوانات تغنى عن الحلقة الاعتدالية .

٤ - ذات الحلق ، أعظم الآلات ، وهى عبارة عن خمس دوائر عظمى متحدة ، مصنوعة من النحاس تمثل منطقة البروج(١٥) ، ودوائر العرض ، ودائرة الميل والدائرة الشمسية ، ودائرة معدل النهار .

٥ - ذات الشعبتين : ثلاث مساطر على كرسى يعرف بواسطتها زاوية الارتفاع .

٦ - ذات الجيب : مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين .

٧ - ذات السمت والارتفاع : آلة قياس زاويتى السمت والارتفاع ، وهى عبارة عن نصف حلقة ، قطرها سطح من سطوح إسطوانة متوازية السطوح .

٨ - المشبهة بالمناطق ، لتعيين البعد القوسى بين كوكبين وهى ثلاث مساطر .

٩ - الأصطرلاب ، وهو عدة من الآلات الفلكية تنحصر فى ثلاثة أنواع رئيسية تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو ، وهى آلة صغيرة تقوم بعمليات فلكية ورياضية تتجاوز الثلاث مائة مسألة منها قياس الارتفاعات والمسافات والأعماق ، وارتفـاع النجـوم والكواكب وقياس الزمن ، وتحديد أوقات الصلاة ، ومعرفة قوس الليل وساعات النهار والليل والجيوب والجيوب تمام ، والظل والظل تمام والقاطع والقاطع تمام ومطالع البروج وغيرها .

١٠ - الربع المجيب . يتكون من ربع دائرة يطلق عليها الربع المقطوع والربع المقنطـر ، ويعمل من الخشب الجيد والبرونز ، وقد يعمل من الفضة أو الذهب .

١١ - المزولة الشمسية : لتعيين الاتجاهات نحو القطب الشمالى ، وهى أروع منجزات العرب فى علم الفلك .

ونتيجة لذلك ظهرت الجداول الفلكية العربية التى أسست على قوانين عددية، وأشهرها زيج إبراهيم الفزارى، وزيج الخوارزمى، وزيج المأمون، وزيج ابن السحـح، وزيج ابـن الشاطر، وزيج ابن البلخى، وزيج الإيلخانى، وزيج عبد الله المروزى، وزيج وزيج الشامل لأبى الوفا، وزيج النسامى الطوسى، وزيج شمس الدين، وزيج ملكشاه، وزيج المنتهى لأبى العباس أحمد بن يونس الكماء، وزيج السنجرى، وزيج العلائى، وزيج كيفية التعليم والطريق

إلى وضع التقويم، وزيج الكبيرالحاكمى لابن يونس، وزيج الهمدانى، وزيج الآفاق فى علم الأوفاق[١٦] .

إن انتشار المراصد فى ربوع العالم الإسلامى ، وامتلاك العرب هذه الآلات الدقيقة المتنوعة الأغراض ، وظهور عدد من الفلكيين المشهورين الذين تركوا لنا آثارا جيدة ومؤلفات قيمة، وعدداً كبيراً من الأزياج، أمثال أحمد بن عبدالله حبش المروزى الحاسب، أحد أصحاب الأرصاد فى زمن المأمون ، ومحمد بن محمد بن يونس الخوارزمى ، ومحمد بن أحمد البيرونى ، وأبى عبد الله البتانى ، وابن يونس المعرى وغيرهم : أدى إلى تقدم علم الخرائط لدى العرب ، للعلاقة الوثيقة بين هذا العلم وبين علم الفلك .

إن الفكرة القائلة بأن العرب فلكيون وجغرافيون ، ولكنهم ليسوا برسامين للخرائط فكرة فيها الكثير من المبالغة وعدم الصحة ، فإن خرائط الإدريسى للعالم ، ولوحة روجرينا تشير إلى دور العرب الكبير فى علم الخرائط ، ولعل الكثير من تراثهم فى هذا المجال قد فقد وضاع

تطور علم المساحة عند العرب كأساس لظهور الخرائط

١ - القول بكروية الأرض :

اعتقد العرب بكروية الأرض ، وقد وردت إشارات فى أكثر الكتب ، إلى أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ، وقد ورد فى كتاب ابن خرداذبة «المسالك والممالك»، وفى كتاب ابن الفقيه «مختصر كتاب البلدان» نقلا عن محمد ابن موسى الخوارزمى ما يلى « صورة الأرض إنها مدورة كتدوير الكرة موضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض ، وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك ...[١٧] .

٢ - معرفة خط نصف النهار وقياس محيط الأرض :

لأجل تحديد القبلة بالنسبة للعالم الإسلامى ، اهتم العرب بتحديد خط نصف النهار ، وهو اتجاه الشمال والجنوب ، وبذلك استطاعوا تحديد الجهات الأصلية ، وعن طريق خط نصف النهار استطاع العرب قياس محيط الأرض[١٨] .

وأحس العرب بأنفسهم النضج التام الذى مكنهم من تحقيق نتائج تجربة إيراتوستين فى تحديد مقياس درجة من خط منتصف النهار ، وهى محاولة جديرة بالإكبار ، وخصوصا إنها التجربة الثالثة[١٩] .

وقد وردت ثلاث روايات حول هذه التجربة ، وهى[٢٠] :

الرواية الأولى : وردت فى الباب الثانى من الزيج الحاكمى لابـن يونس المصرى ، (٣٩٩ هـ - ١٠٠٨ م « ، منقولة من النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بمطبعة ليدن عن سند بن على أن المأمون أمره وخالد بن عبد الملك المروروذى أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض ، فساروا ما بين واسط وتدمر وقاسوا مقدار هذه الدرجة وأمر على بن عيسى الأسطرلابى ، وعلى بن البحترى بمثل ذلك فساروا إلى ناحية أخرى ، فكانت نتيجة القياسين ٥٧ ميلا ، فورد الكتابان من الناحيتين فى وقت واحد بقياسين متفقين .

وذكر عبد الله المعروف بحبش فى الكتاب الذى ذكر فيه أرصاد الممتحن بدمشق أن المأمون أمر بأن تقاس درجة من أعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الأرض . فساروا فى برية سنجار حتى اختلف النهار بين القياسين فى يوم واحد بدرجة واحدة ، ثم قاسوا ما بين المكانين فكان ميلاً وربعًا ، منها أربعة آلاف ذراع سوداء ، وهو القياس الذى اتخذه المأمون . ومع اختلاف ارتفاعى نصف النهار بدرجة لابد أن يكون القائمون جميعا فى سطح دائرة واحدة ، من دوائر نصف النهار فى المكان الذى يبتدأ منه القياس . ثم اتخذ حبلين دقيقين جيدين بطول ٥٠ ذراعًا ، مد الأول موازيا لخط نصف النهار حتى ينتهى ، ليواصل الامتداد بالحبل الثانى ، وهكذا حتى يصبح بين ارتفاعى نصف النهار فى وقت واحد بدرجة واحدة . ثم يقاس ما بين بداية القياس ونهايته ، حتى تحصل على طول درجة واحدة من أوسع دائرة تمر ببسيط كرة الأرض ، ويمكن الاستعاضة عن الحبلين بثلاثة أشخاص لحفظ السمت .

الرواية الثانية : لابن خلكان فى كتاب « وفيات الأعيان » ، فى ترجمة محمد بن موسى بن شاكر ، أن المأمون أراد أن يقف على حقيقة قياسات الأوائل ، وكلف بنى موسى بذلك ، فسألوا عن الأراضى المتساوية ، فقيل لهم صحراء سنجار ، ووطأة الكوفة ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون بصدقهم ومعرفتهم إلى صحراء سنجار بين درجتى عرض ٣٥ - ٣٦° شمالا ، فاخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فيه وَتداً وربطوا فيه حبلا طويلا . ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء من غير انحراف ، فلما فرغوا من الحبل

وضعوا وتدا ثانياً وربطوا حبلا آخر وهكذا ، حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب فوجدوه قد زاد بدرجة واحدة ، فقاسوا المسافة بين الموضعين فبلغت ٦٦ ٢/٣ ميلا وهى طول الدرجة ، وعملوا باتجاه الجنوب مثلما عملوا بالسابق ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك . ولما عاد أبناء موسى إلى المأمون وأخبروه بما فعلوا ، وكان موافقا لما رآه فى الكتب السابقة ، طلب تحقيق ذلك فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا مثل ما فعلوا فى صحراء سنجار ، فكانت النتيجة موافقة لما سبق فعلم المأمون صحة ما توصل إليه القدماء .

وقد علق نلينو على هذه الرواية ، وقال : إنها لا تخلو من الخطأ والخلط ، للأسباب التالية :

١ - نسبت الرواية تنفيذ أمر المأمون إلى بنى موسى ، وهم فى هذه الفترة فى عنفوان الشباب ، ولم ينالوا من العلوم والأرصاد شهرة إلا بعد المأمون ، وقد أجمع كل الفلكيين على أن الذين قاموا بذلك هم أصحاب الزيج الممتحن ، وإذا اشترك بنو موسى فإن اشتراكهم معاونة لفلكيى المأمون وليس كمديرين للأعمال .

٢ - إن إعادة بنى موسى القياس فى وطآت الكوفة يخالف إجماع أصحاب الفلك والجغرافية من العرب ، لأنها عبارة عن بطائح وترع ومزارع وغابات لا تصلح لإجراء عملية المسح المذكور .

٣ - إن الصحيح ما يؤخذ من زيج ابن يونس بأن جماعة الفلكيين ، الذين قاسوا قوسا من خط نصف النهار فى صحراء بين شمال تدمر وسنجار ، حصلوا على قياسين متقاربين هما ٥٦ ١/٤ ميل و ٥٧ ميلا ، فاتخذ المأمون أوسطهما وهو ٢/٣ ٥٦ ميل .

وذكر أبو الفداء بأن القياس تم فى برية سنجار ، وافترقوا إلى فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محررا فى المكان الذى افترقوا منه ، إحداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب ، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين نحو الشمال ، وانحط للسائرين فى الجنوب درجة واحدة ، ثم اجتمعوا عند المفترق وتقابلوا على وجوده فكان مع أحديهما ٥٦ ٢/٣ ميل ، والأخرى ٥٦ ميلا ، فأخذ بالأكثر وهو ٥٦ ٢/٣ [22] .

إن مقدار الدرجة عند نلينو ١١١٨١٥ م ، وعند شوى عالم الرياضيات ١١١٧٢١ م ، وإن أكثر القياسات انتشارًا فى القرن التاسع عشر هو مقياس بيسل حيث قدر الدرجة

بـ ١١٠٩٣٨ م ، ظهر لنا بأن الخطأ فى قياسات العرب يقل عن الكيلو متر الواحد ، ويقف دليلا على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمى كبير .

الرواية الثالثة :

النظرية البسيطة التى أوردها أبو الريحان البيرونى ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م فى آخر كتاب الأصطرلاب حيث قال تصعد جبلا مشرفا على بحر أو برية ملساء ، وترصد غروب الشمس فتجد ما ذكرناه من الانحطاط . ثم تعرف مقدار عمود ذلك الجبل وتضرب فى الجيب المستوى تجاه الانحدار الموجود ، وتقسم المجموع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه ، ثم تضرب ما خرج من القسمة فى النسبة الثابتة ٢٢/٧ ، فيخرج مقدار إحاطة الأرض بالمقدار الذى قدرت عمود الجبل ، ووضع البيرونى نظريته فى استخراج محيط الأرض وهى :

$$\text{نق} = \frac{\text{ع جتا هـ}}{\text{١ - جتا هـ}}$$

حيث إن نق = نصف قطر الأرض

ع = الارتفاع المرصد .

هـ = زاوية الانحدار عن الأفق .

وسميت هذه المعادلة بقاعدة البيرونى . وقد أراد تحقيق قياس المأمون ، فاختار جبلا فى الهند مشرفا على البحر ، وعلى برية مستوية ، فقاس ارتفاعه فوجده ٦٥٢ $\frac{١}{٣}$ ذراع ، وقاس زاوية الانحدار فوجدها ٣٤ ، فاستخرج أن مقدار الدرجة من خط نصف النهار تساوى ٥٨ ميلا تقريبا ، وقد ذكر ذلك فى كتابه القانون المسعودى .

٣ - تصحيحات قياسات اليونان :

ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) . ورغم أن المسلمين عرفوا هذه الحضارة من الإسكندرية والمدن السورية ، فقد ظهرت الآثار المهمة للمدنية فى الكوفة والبصرة ، وأصبحتا مركزين نشيطين للحياة العلمية واحتلتا مركز الصدارة دون منافس ، وجذبت مدينة بغداد العلماء من كل أرجاء العالم الإسلامى . وطلب

الخليفة المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) إلى الإمبراطور أن يرسل إليه المخطوطات ، وإن حنين بن إسحق أحد أكابر المترجمين من اليونانية إلى السريانية مكث نحو سنتين فى بيزنطة ، وتعلم اليونانية وآدابها ، ثم رجع ومعه مخطوطات[٢٣] .

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، نشطت حركة الترجمة وأنشئت خزانة الحكمة فى بغداد وألحقت بها مكتبتها ، ثم أعطى المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٢٣ م) لها طابعا رسميا وأمدها بهيئة علمية خاصة ، وبعث البعوث إلى بيزنطة لجلب المخطوطات اليونانية ، وفى زمن قصير انتشرت المؤلفات المختلفة التى تمثل القاعدة الأساسية للعلم اليونانى[٢٤] .

ورغم وضوح العلم اليونانى للعرب فإنهم لم يأخذوا قياساتهم كما هى ، وإنما حققوها جميعا فما وجدوه صحيحا ساروا عليه ، وما وجدوه مخالفا لنتائجهم تركوه ، وخير دليل على ذلك محاولة العرب معرفة خط نصف النهار وقياس محيط الأرض ، وهى المحاولة التى نالت إعجاب كافة الذين اطلعوا عليها .

وقد لاحظ العرب بان بطليموس وقع فى أخطاء كثيرة فى تحديد الأطوال والعروض ، فقد بالغ مبالغة شديدة فى تحديد طول البحر المتوسط ، وبالغ فى تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروفة آنذاك ، وجعل المحيط الهندى والمحيط الهادى بحيرة ، وذلك بوصله بين المناطق الجنوبية لإفريقية مع المناطق الجنوبية لآسيا ، وبالغ فى حجم جزيرة سيلان ، وأخطأ فى تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربى بشكل كبير وصحح العرب جميع هذه الأخطاء[٢٥] .

ويذكر غوستاف لوبون بأن العرب اتخذوا أول الأمر علماء اليونان ، ولا سيا بطليموس أدلاء لهم ، ثم لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم ، فمواقع المدن الكثيرة التى عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، ومن مقارنة الأمكنة التى عينها الإغريق ، والتى عينها العرب يظهر لنا مقدار التقدم الذى تم على يد العرب ، فما حققه العرب يقرب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق ، بينما بلغ خطأ الإغريق درجات كثيرة[٢٦] .

وأصلح البيرونى أزياج بطليموس بعد أن دعى إلى محمود الغزنوى الفاتح لقسم من آسيا ، وصحح الأغلاط التى كانت فى خطوط الطول لبلاد الروم وبلاد ما وراء النهر والسند . ووضع للشرق مثل ما فى رسم الأرض لمركز الامبراطورية الإسلامية ، وأصبحت رسالة

القانون أساسا لمعظم العالم فى المشرق ، واستطاع أن ينقص طول البحر المتوسط من ٦٢ إلى ٥٢[٢٧] . واختزل هذا الرقم الزرقانى فى جداول طليطلة إلى ٤٢ ، وهو ما يعادل طوله الحقيقى تقريبا[٢٨] .

ونتيجة لتصحيح قياسات الطول والعرض ، فقد أصلح العرب كثيرًا من الأغلاط التى وردت فى الخرائط ، حتى أصبحت خرائطهم بعد ذلك لها استقلال تام يحمل الشخصية العربية المميزة لها .

٤ - تطور آلات الرصد التى استخدمت ، وظهور البوصلة :

قاس الجغرافيون العرب مساحة الأرض ، فتوصلوا فى أرصادهم الفلكية إلى أرقام قريبة من القياسات الجيوديسية الحالية ، وهى أصح مما توصل إليه اليونانيون[٢٩] .

وإن الوصول إلى مثل هذه القياسات يعطى الدليل على تقدم الآلات التى استعملها العرب فى الرصد والتى ذكرناها سابقا .

فالربع المجيب مثلا يستعمل لأغراض متعددة فى المجالات الفلكية والرياضية والجغرافية ، وأعمال المثلثات وجيوبها ، واللوغاريتمات ، ومعرفة البروج ، واستخراج درجة الشمس من البرج الذى تكون فيه ، وكم قطعت منه . واستخراج الميل الكلى والجزئى والميل لكل برج ، وغاية الارتفاع للشمس ، وعرض البلد ، واتجاه القبلة ، وأوقات الصلاة ، ومعرفة ما قطعته الشمس وساعات النهار والليل ، ما مضى منها وما بقى ، ومعرفة المطالع الفلكية . ومطالع البلد ، ومطالع الغروب والوقت ، والعمل بالكواكب الثابتة ، وعمل المزولة والزوال ، ومعرفة الارتفاعات والانخفاضات ، والأعماق والاتساع ، ومعرفة الجهات الأربع إلى غير ذلك من الأعمال المعضلة[٣٠] .

وكان لاستخدام البوصلة أهمية بالغة حيث أصبحت دليلا للملاحين ، واستخدام الأصطرلاب بعد تهذيبه فى ركوب البحر[٣١] . وذكر أنها استعملت فى سفن العرب التى تشتغل بالتجارة بين كانتون وسومطرة والهند ، وأنها انتقلت من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط على يد العرب[٣٢] .

إن استخدام هذه البوصلة أدى إلى ظهور الخرائط البحرية العربية قبل ظهورها فى إيطاليا .

٥ - تحديد خطوط الطول والعرض وقبة الأرين :

قسم العرب سطح الأرض إلى خطوط وهمية طولية وعرضية ، وعرفوها بصورة صحيحة فعرض البلد هو بعده عن خط الاستواء ، أى ارتفاع القطب عليه . وطول البلد هو بعده من الشرق أو من الغرب عن خط منتصف النهار أو خط الصفر . وقسموا خطوط الطول إلى ٣٦٠ ، واختلفوا فى تحديد خط الصفر ، وقسموا خطوط العرض إلى ١٨٠ نصفها شمال خط الاستواء والنصف الآخر جنوبه . وقدروا طول الدرجة الواحدة بـ ٥٧ ميلاً عربيًا ، وقسموها إلى دقائق وثوان ، ووضعوا مدار السرطان ومدار الجدى .

وذكر المسعودى بأن عرض كل بلد هو بعده عن خط الاستواء أى ارتفاع القطب عليه ، إن كان فى النصف الشمالى من الأرض فارتفاع القطب الشمالى ، وإن كان فى النصف الجنوبى من الأرض فارتفاع القطب الجنوبى ، لأنه كلما تباعدت المدينة عن خط الاستواء درجة ارتفع أحد القطبين درجة وانخفض الآخر درجة . والطول هو بعد المدينة من المغرب، وربما كان بعدها من المشرق. ومن المغرب إلى المشرق مائة وثمانون درجة. فعرض مدينة بغداد ثلاث وثلاثون درجة وطولها سبعون درجة وكذلك عرض دمشق وعرض بغداد واحد ، وطول دمشق ٦٠ ، وكذلك عرض القيروان من بلاد إفريقية من أرض المغرب ، وكذلك أيضا عرض بيت المقدس وقيسارية وصيدا وصور وأنطاكية ومدينة السيرجان من أرض كرمان .....(٣٣) .

واعتمد العرب فى قسمة المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم على خطوط العرض وهى أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال فى موازاة خط الاستواء ، مبتدئة منه تقريبا ، وتتفاوت عروض هذه الأقاليم بحيث يختلف أطوال أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر(٣٤) .

وتحديد هذه الأقاليم السبعة تم على أساس فلكى ، فنهاية الإقليم الأول يكون حيث أطوّل ساعات النهار ثلاث عشرة ساعة وربع الساعة ، ونهاية الإقليم الثانى يكون أطول نهار فيه ثلاث عشرة ،وثلاثة أرباع الساعة ، وهكذا حتى نهاية الإقليم السابع حيث يكون طول النهار ست عشرة ساعة وربعاً.(٣٥)

وأخذ هذه الطريقة الفرغانى ، وسهراب ، والبيرونى ، ويرى الباحثون بأن هذه الطريقة

فى تقسيم المعمور من الأرض قد انفرد بها العلماء العرب ، وأخذوا بها قبل أن يتعرفوا على جغرافية بطليموس [٣٦] .

أما تحديد خط الصفر الذى يبتدأ منه الحساب للشرق والغرب ، فقد وردت عدة تحديدات كلها لا تغير من واقع الحال شيئاً ، فمنهم من اعتبره يمر بجزر الخالدات وجزر كنارى الحالية ، ومنهم من جعله عند الساحل الغربى لإفريقية ، واعتبره التبانى والمسعودى والبيرونى يمر من الساحل الشرقى لإفريقيا مخترقا جزيرة زنجبار .

والنقطة التى يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف المعمورة تسمى عند فلكيى العرب قبة الأرض أو القبة ، وإن خط نصف نهار جزيرة لنكا (سيرالنكا) يمر بإحدى مدنهم المشهورة المسماة أجينى ، وهى فى أيامنا أجين من مالوه فسمتها العرب أزين ، وقالوا : إن الأطوال على مذهب السند هند تقدر من خط نصف نهار أزين ثم ذهبوا إلى الظن بأن أزين هى نفس قبة الأرض ، ثم حرف الاسم أرين أو قبة أرين بمعنى الاعتدال [٣٧] .

وذكر الشريف على بن محمد الجرجانى بأن الأرين محل الاعتدال فى الأشياء ، وهى نقطة من الأرض يستوى معها ارتفاع القطبين ، فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل [٣٨] .

وذكر أبو الفدا بأن منتصف النهايتين الغربية والشرقية على خط الاستواء تسمى قبة الأرين [٣٩] .

وذكر سيديو بأن الأرين اسم اصطلاحى لجزيرة وهمية واقعة بين الهند والحبشة ، واستبدل العرب خط الأرين أو خط القبة الأرضية بخط جزائر الخالدات ، وفق ابتكار دقيق عمل به من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر [٤٠] .

٦ - استعمال المسقط :

نتيجة المعرفة الواضحة لدى العرب لشبكة خطوط الطول والعرض ، وخط منتصف النهار وقياساتهم الدقيقة لمحيط الأرض ومساحتها ، فقد بنيت الخرائط التى رسمت على أساس علمى واضح ، واستعملوا المسقط لتحويل الشكل الدائرى لسطح الكرة الأرضية إلى سطح مستو .

ويستنتج من مقدمة كتاب سهراب بأن المسقط الذى استعمل هو المسقط الإسطوانى البسيط ، فخطوط الطول والعرض متوازية ، ومقياس الرسم والشكل والمساحة صحيحة عند خط طول ٩٠ فقط ، وهو فى وسط الخريطة ويقسمها إلى قسمين متوازيين[٤١] .

وقد ذكر سهراب طريقة رسم شبكة خطوط الطول والعرض المبتدئين لأجل رسم الخريطة . فقال : تقسم خطوط الطول إلى ١٨٠ جزءاً بشكل صحيح ، والعرض بـ ١١٠ جزء قسمة صحيحة كذلك . وبعده يخرج البحر الجنوبى بأسره والبحر المظلم ، وجميع ما وراء خط الاستواء من المدن والجبال والعيون وغيرها . وبعد أن نعد ٩٠ جزءاً نبدأ بالعد من أفق الشمال نحو الجنوب . ثم نرسم خطاً موازيا بزاوية قائمة بحيث يمثل خط الاستواء ، ومن هذا الخط إلى أفق الشمال ٩٠ جزءاً ، وإلى أفق الجنوب ٢٠ جزءاً ، ثم نستخرج الأقاليم السبعة كما يلى:

الإقليم	العرض		امتداد الإقليم	
	دقيقة	درجة	دقيقة	درجة
الإقليم الأول	٢٧	١٦	٢٧	١٦
الإقليم الثانى	٥١	٢٣	٢٤	٧
الإقليم الثالث	٢٢	٣٠	٣١	٦
الإقليم الرابع	٠٥	٣٦	٤٣	٥
الإقليم الخامس	٥٠	٤٠	٤٥	٤
الإقليم السادس	٠٣	٤٥	١٣	٤
الإقليم السابع	٣٢	٤٨	٢٩	٣

فإذا فرغنا من هذه الخطوط السبعة ، فاكتب على كل خط اسمه ، ثم ضع المدن والجبال والأنهار وغيرها بآلة بسيطة هى أربع مثقلات من الرصاص ، يكون فى كل واحدة منها نصف رطل واعملها مثال اللوزة حادة الرأس ، ويكون لها بطن حتى تقع على الأرض على ذلك الاستواء ، ثم اتخذ لها خطين من كتان أو غيره يكون أحدهما بطول الصورة والآخر بعرضها ،

ثم شد فى رأس كل واحد مثقلتين فى رأس كل مثقلة . ثم نبدأ فنستخرج المدن حتى نأتى على جميع ذلك فى جميع الأقاليم وما بعدها إلى عرض ٦٣ شمالا ، وذلك بتقاطع خطوط المثقلات الأربع ، ويكون العد من الغرب إلى الشرق بالنسبة لخطوط الطول ، ومن خط الاستواء نحو الشمال والجنوب بالنسبة لخطوط العرض . ومن تقاطع الخيطين تقع نقطة المكان . أما المدن فى الجزائر فلا ترسم إلا بعد وضع الجزيرة[٤٢] .

ولوح الترسيم الذى أعده الإدريسى عبارة عن تطبيق لاستعمال المساقط ، فهو عبارة عن شبكة لخطوط الطول والعرض استفاد منها فى تثبيت الأماكن عليها .

وأخذ الإدريسى يثبت المواقع على هذا اللوح بعد مقارنة ما توصل إليه المصنفون الجغرافيون فى هذا العلم ، واتخذ الأكثر صحة من بين الآراء ، ثم نقل عن هذا اللوح خارطاته التفصيلية المختلفة فى كتابه (نزهة المشتاق) ، من غير أن يثبت عليها خطوط الطول والعرض . واتخذها الإدريسى أساسا يستند عليه فى أعماله ، واستند إلى الجداول الجغرافية السابقة وكان مطلعاً على طريقة سهراب فى رسم الخرائط[٤٣] .

الدور الذى لعبته الخريطة فى حياة العرب

استولى العرب خلال قرن واحد على بلاد الشام وفارس وفلسطين ومصر والعراق . ثم فتحوا بلاد ما وراء النهر ، وامتدت فتوحاتهم لتشمل السند والصين فى الشرق وسواحل المحيط الأطلسى فى المغرب وأسبانيا فى الغرب . وأوجد العرب خلال فترة وجيزة امبراطورية مترامية الأطراف . ونتيجة لهذا الكسب السياسى أصبح المجال رحبا وواسعا أمام التجارة بين الأقاليم الإسلامية . فتوغل العرب فى القارة الأفريقية جنوب الصحراء بعد فتحهم شمالها ، ووصلوا فى القرن الرابع الهجرى إلى بحيرة تشاد وامتدت طرقهم عبر قارة آسيا من بغداد عبر جبال زاكروس إلى كرمنشاه والرى ونيسابور وطوس ومرو وبخارى وسمرقند حتى الهند عن طريق بلخ وكابل . واتسعت تجارتهم مع الصين .

وأصبح للعرب طرق تجارية عظيمة يمكن حصرها بأربعة طرق رئيسية وهى :[٤٤] .

١ - طريق يقطع القارة الأوربية ، فبلاد الصقالبة حتى بحر قزوين ، فبلخ ، فبلاد التغزغز .

٣ - طريق عبر إفريقية الشمالية إلى مصر ودمشق والكوفة وبغداد والبصرة والأهواز وفارس وكرمان والسند حتى الهند .

٤،٣- يجوبان البحر المتوسط ويتجه أحدهما من سورية حتى الخليج العربى ، والآخر من الإسكندرية فالبحر الأحمر حتى البحر الهندى .

إزاء كل هذا التوسع التجارى أصبح للخريطة دور مهم للكشف عن هذه المسالك وتوضيح المدن التى يمر بها التجار أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر ، كما أصبح لها دور مهم للحكام للاطلاع على أجزاء إمبراطوريتهم ، لمعرفة ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب . وقد احتوت كتب المسالك والممالك التى صاحبت الفترة الأولى من الازدهار العربى على اهتمام أصحابها بواردات الدولة وذكرها فى هذه الكتب .

كما أن كثرة الراغبين فى أداء فريضة الحج ، وتفرق أمصارهم ودولهم وبعدها ، اضطرهم إلى الالتجاء إلى كتب المسالك والممالك وإلى الخريطة التى تحويها لاستكشاف الطرق المؤدية إلى الحج ، ومعرفة المدن التى يمرون بها والمسافات بين مدينة وأخرى .

ورحلة طلب العلم لا تقل أهمية عما سبق ، فهى الأخرى لها روادها ومحبوها وخصوصا إن الدين الإسلامى قد شجع على هذه الرحلة ، فقصد طالبو العلم أمهات المدن الكبرى كبغداد ودمشق وغيرهما ، وهذا يتطلب معرفة الطرق والاطلاع على الخرائط التى توضح كيفية الوصول إلى هذه المدن .

ولهذه الدوافع قام العرب برسم عدد كبير من الخرائط التوضيحية ، واستعملوها فى كثير من كتبهم لتصوير جغرافية البلاد الإسلامية التى تحدثوا عنها ومواقعها من العالم ، كما أوضحوا عليها طرق المسافرين التى تربط البلاد مع بعضها[٤٥] .

مراحل تطور الخريطة العربية

اطلق العرب عدة تسميات بدلا من اسم الخريطة التى نطلقها فى الوقت الحاضر ، وهذه الأسماء هى الصورة أو رسم المعمورة أو لوح الرسم أو الرسم .

وقد قسم الأستاذ الدومييلى أدوار الخريطة العربية إلى ثلاثة أقسام وهى :[٤٦]

١ - مرحلة الخريطة المأمونية .

٢ - مرحلة الخريطة الإقليمية .

٣ - مرحلة خرائط الإدريسى .

وقد ارتأيت فى هذا البحث أن أقسم المراحل التى تطورت بها الخرائط العربية إلى ست مراحل وهى :

١ - المرحلة التى سبقت الخريطة المأمونية .
٢ - مرحلة الخريطة المأمونية .
٣ - مرحلة الخرائط الفلكية .
٤ - مرحلة الخرائط الإقليمية .
٥ - مرحلة خرائط الإدريسى .
٦ - الخرائط البحرية .

١ - المرحلة التى سبقت الخرائط المأمونية :

وردت إشارات عن رسم الخرائط فى زمنى الحجاج والمنصور ، دون العثور على هذه الخرائط ، أو حتى شرح لها .

فقد ذكر ابن الفقيه(٤٧) أن الحجاج بن يوسف بعث إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلموا أو يقروا بالجزية ، فأمر أن تصور له الديلم سهلها وجبلها وعقابها وغياضها ، فصورت له . فدعا من قبله وفداً من الديلم فقال : إن بلادكم قد صورت لى فرأيت فيها مطمعا ، فأقروا لى بما دعوتكم إليه قبل أن أغزوكم بالجنود فأخرب البلاد ، واقتل المقاتلة وأسبى الذرية ، فقالوا : إرنا هذه الصورة التى أطمعتك فينا وفى بلادنا فدعا بالصورة ، فنظروا فيها فقالوا قد صدقوك عن بلادنا ، هذه صورتها .

وعن الطبرى « قال على : أخبرنا أبو الذيال ، عن المهلب بن إياس وأبو العلاء عن إدريس بن حنظلة . أن قتيبة غزا وَرْدَان خُذَاه ، ملك بخارى سنة تسع وثمانين ، فلم يطقه ولم يظفر من البلد بشىء . فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج أن صورها لى ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغَتِكَ فتب إلى الله مما كان منك وأتها من مكان كذا وكذا .

يتضح من الروايتين وجود خريطتين ، إحداهما للديلم ، والأخرى لبخارى صورت للحجاج وإن هاتين الخريطتين على مستوى جيد ، ودقيقتى المعلومات ، لأن الأولى قدر قيمتها

وشهد لها أهل الديلم عندما شاهدوها ، والأخرى استخدمت لتنفيذ الخطط العسكرية .

ووردت إشارة أخرى إلى تصوير البطائح فى منطقة البصرة . وقد قام بتصويرها المهندسون . فقد ذكر البلاذرى[٤٨] « وحدثنى عدة من البصريين منهم روح بن عبد المؤمن قالوا : لما اتخذ سليمان بن على المغيثة ، أحب المنصور أن يستخرج ضيعة من البطيحة ، فأمر باتخاذ السبيطية ، فكره سليمان بن على وأهل البصرة ذلك ، واجتمع أهل البصرة إلى باب عبد الله بن على ، وهو يومئذ عند أخيه سليمان هاربًا من المنصور فصاحوا : يا أمير المؤمنين ، إنزل إلينا نبايعك ، فكفهم سليمان وفرقهم ، وأوفد المنصور سوار بن عبد الله التميمى ثم العنزى ، وداود بن أبى هند مولى بن بشير ، وسعيد بن أبى عروبة ، واسم أبى عروبة بهران ، فقدموا عليه ومعهم صورة البطيحة ، وأخبروه أنهم يخافون أن يملح ماؤهم فقال : ما أراه كما ظننتم ، وأمر بالإمساك[٤٩] .

والضيعة التى أشار بها الموريانى ، على أبى جعفر لصالح ، هى المعروفة بالسبيطيّة من أعمال البصرة . وكان أبو جعفر تقدم إلى بعض المهندسين بتصويرها فصورها ، وعرض الصورة عليه فاستحسنها[٥٠] .

واهتم ملوك المسلمين برسم الخرائط ، فالخليفة المعز لدين الله الفاطمى ٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م عملت له خريطة سنة ثلاث وخمسين وثلاث مائة على مقطع من الحرير فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها ونجادها ومدنها وأنهارها ومسالكها وفيها صورة مكة والمدينة . وكتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه ، بالذهب أو بالفضة أو الحرير ، وأنفق عليها اثنين وعشرين ألف دينار[٥١] .

٢ - مرحلة الخريطة المأمونية :

وهى أول صورة للأرض رسمت فى زمن المأمون ، وقام على صنعها مجموعة من علماء الفلك والرياضيات ، وأنهم جعلوا لكل إقليم أبراجاً تخصه وسيارا يقتصر عليه ، فالإقليم الأول جعلوا له كوكبة زحل ، ومن برجه الجدى والدلو . والثانى كوكب المشترى ومن أبراجه القوس والحوت . وفى هذه الخريطة يبدأ خط الصفر من الساحل الإفريقى وينتهى عند الخط ١٨٠ شرق الصين . وتحوى العالم المعروف آنذاك . وفيها تفصيلات للعالم العربى وما فتحه

العرب من العالم . وكذلك الهند وأواسط آسيا ، وقليلة التفاصيل فيما يتعلق بأوربا ، وأواسط وجنوب إفريقية ، ولم ترسم الحدود بحدود فارقة ، كما لم يستعمل مقياس الرسم[٥٢] .

ويدل رسم هذه الخريطة على قدرة علمية عالية . وذكر الأستاذ ليلفيل بوجود بقايا منها ورسم تلك الخريطة بأطلسه ، ورغم اعتماد العرب فى رسمهم على الأعمال اليونانية إلا أن الإصلاحات العربية على الأصول اليونانية أساسية وجوهرية ، وإن المقارنة بين بقايا هذه الخريطة وخريطة بطليموس يتضح لنا تصحيحات كثيرة بين الخريطتين ، وقد شملت التحسينات التى أدخلها العرب على وضع الجزيرة العربية ، والمناطق الممتدة حولها دجلة والفرات ، وعلى المنطقة الممتدة من قادس إلى السند ، كما أنقص طول البحر الذى بالغ فيه بطليموس . ورسم الخليج العربى بصورة أكثر ملائمة من الصورة المستديرة التى رسمها بطليموس[٥٣] .

وذكر الأستاذ كراتشكوفسكى بأن هذه الخريطة تمثل أثراً ممتازا من الآثار الجغرافية لعصر الازدهار العربى المبكر ، وإن المعلومات التى لدينا عن الخارطة صحيحة لدرجة تسمح لنا بتكوين فكرة صحيحة ، رغم أن إعادة تصوير هذه الخارطة كاملا أمر مستحيل[٥٤] .

وقد أشار المسعودى إلى أنه رأى هذه الخريطة التى صورت الأقاليم السبعة وفاقت الخرائط اليونانية لبطليموس ومارينوس ، وهى خريطة ملونة بين الأسلاف والأخلاف من حكماء الأمم فى مقادير هذه الأقاليم السبعة وأطوالها ، وعروضها وعدد ساعاتها وابتدائها وغاياتها ، وما فيها من مساكن الأمم فى البر والبحر تنازع كثير ، وقد أتينا على شرح كثير من ذلك فيما تقدم من كتبنا ، ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ ، وأحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارينوس ، وتفسير جغرافيا قطع الأرض ، وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون ، اجتمع على صنعها عدة من حكماء أهل عصره ، صور فيه العالم بأفلاكه ، ونجومه ، وبره ، وبحره ، وغامره ، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ومارينوس وغيرهما[٥٥] .

وفى موضع آخر ذكر المسعودى : « كل ما فى الإقليم من المدن فعلى خط واحد وإن كان ذلك مختلفا عند من لا علم له بهذه الأمور ، لما يرى من اختلاف وضع هذه المدن وبعد المسافات بينها طولا وعرضا ، والأقاليم كلها مستقيمة ، كذلك رأيتها فى الصورة المأمونية[٥٦] .

يتضح من هذا النص ما يلى :

١ - إن الخارطة المأمونية اتبعت تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم ، وأوضحت ما هو موجود فى كل إقليم من المدن وما بينها من المسافات فى خطوط الطول والعرض .

٢ - إنها تفوق الخرائط اليونانية التى سبقتها ، من حيث صحة المعلومات الواردة فيها وهنا تبرز بداية استقلال الفكر العربى فى رسم الخرائط عن خرائط بطليموس ومارينوس اللذين نالا سهرة واسعة فى هذا العلم .

٣ - إن الخرائط قد استعملت الألوان لتوضيح المعلومات الواردة فيها .

٣ - مرحلة الخرائط الفلكية :

وتمثل هذه المرحلة خرائط الخوارزمى والبتانى ، وهما من رجال الفلك الذين وضعوا أزياجا مهمة .

فكتاب صورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى الذى تم تأليفه بين عامى ٢٢١ - ٢٣٢ هـ / ٨٣٦ - ٨٤٧ م ، والذى ذكره أبو الفداء فى القرن الرابع الهجرى باسم رسم ربع المعمور ، عبارة عن جداول فلكية بشكل عمودين فى كل صفحة تبين المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى ٥٣٧ موضعا موزعة على الأقاليم المختلفة حسب بعدها عن خط الصفر الذى يمر من جزر السعادة (الخالدات) فى أقصى غرب إفريقيا ثم جداول للجبال وعددها ٢٩٠ . ثم البحار والجزر والأنهار فى كل إقليم . وبذا يتضح الاختلاف بين المنهج الذى اتبعه الخوارزمى عن المنهج السابق لبطليموس . كما أن الاثنين لم يتفقا على تحديد الأبعاد الجغرافية للأماكن المختلفة ، مما يعطى دليلاً على أن صورة الأرض للخوارزمى أبعد من أن تكون ترجمة لكتاب بطليموس[٥٧] .

وهناك فروق بين جغرافية بطليموس وصورة الأرض للخوارزمى وهى[٥٨] :

١ - أن أرقام خطوط الطول والعرض لدى الخوارزمى وضعت على أساس الحرف ، بينما وضعت على أساس الأرقام لدى بطليموس .

٢ - اختلاف أسلوب البحث بين الاثنين ، فبطليموس قسم العالم إلى ثلاثة أقسام : أوربا وآسيا وإفريقيا)، ورسم لها ٧٣ خريطة موزعة كما يلى ٢٤ خارطة لأوربا ، و ٣٦ خارطة لآسيا ، و ١٣ خارطة لإفريقيا ، بينما اتبع الخوارزمى تقسيم الأرض إلى الأقاليم السبعة

الموازية لخط الاستواء ، وذكر فى كل إقليم المدن والجبال والبحيرات والأنهار والعوارض الطبيعية .

٣ - إن أغلب المدن والأنهار والجبال والبحيرات ، لازالت معروفة بأسمائها كما أوردها الخوارزمى ، بينما يندر أن تعرف عند بطليموس .

٤ - إن تأكيد بطليموس على القارات الثلاث ، بينما تأكيد الخوارزمى على العالم الإسلامى ، مع ذكر ثانوى للبلاد الأخرى ، وقد ضبطت الأسماء ودرجات الطول والعرض بخلاف بطليموس .

٥ - إن المسقط المتبع لدى بطليموس هو المسقط المخروطى ، بينما المسقط الذى اتبعه الخوارزمى هو المسقط الإسطوانى البسيط .

٦ - يبدأ خط الصفر عند بطليموس من جزر السعيدات (السعادة) بينما وضعه الخوارزمى من الساحل الإفريقى بفارق ١٠ .

٧ - المعلومات التى وردت لدى الخوارزمى أكثر دقة من حيث الضبط العلمى فقد رسم بحيرة خوارزم المفقودة لدى بطليموس ، ويصب نهرى سارداريا وموردداريا (سيحون وجيحون) فى بحر الخزر عند بطليموس ، بينما صحح ذلك الخوارزمى وجعلهما يصبان فى بحيرة خوارزم .

٨ - إن شكل بحر الخزر والخليج العربى أقرب إلى الواقع عند الخوارزمى مما عند بطليموس .

وقد وردت فى مخطوطة الكتاب المحفوظة فى استراسبورج أربع مصورات قصد بها توضيح بعض المعالم الجغرافية وأهمها مجرى نهر النيل ، وقد رسمت فيه حدود الأقاليم . وليس هناك صورة للعالم ، ولكن البيانات الخاصة بخطوط الطول والعرض ، تعطينا المادة الكافية لرسم هذه الصورة(٥٩) .

وهناك تشابه بين خريطة نهر النيل التى ذكرها الخوارزمى ، وما هو عليه فى الوقت الحاضر ، فقد ذكر بأن المنابع من جبال القمر التى يطلق عليها نفس الإسم فى الوقت الحاضر . أما البطيحتان فهما بحيرتا فكتوريا وأدورو . أمّا الصغرى فهى بحيرة إلبرت . وإن النهر الذى يخرج من البطيحة الصغرى هو نهر النيل . أما البحيرة التى تصب فى النيل ، فهى بحيرة تانا فى الحبشة . وإن أصالة هذه الخريطة تفوق خريطة الإدريسى الذى ارتكب

أغلاطا كثيرة رغم اطلاعه الواسع . فقد وضع الإدريسى النهر الذى سماه نهر غانة متصلا بنهر النيل[٦٠] .

أما البتانى فيحتل زيجه المسمى (الزيج الصابىء) المكانة الأولى ، وقد عاش بعد قرن من الخوارزمى تقريبا .

وقد ترك لنا خريطة للعالم تعتبر الأولى بعد خريطة بطليموس . وتصور العالم كما توصلت إليه آخر الدراسات الفلكية فى تلك الفترة . وخريطته ليست نسخة مترجمة من خريطة بطليموس Ptolemaeus بل تختلف عنها فى نقاط . وهذا مايوضح بأن خريطة بطليموس كانت معروفة لدى البتانى ، وأنه أصلح فيها المعلومات التى توصل إليها بإرصاداته فى مرصد الرقة خلال الفترة ٢٩٤ - ٣٠٦ هـ / ٨٧٧ - ٩١٨ م ، والتى تتصف بما يلى[٦١]:

١ - وضع الشمال فى أسفل الخريطة ، كما هو متبع لدى الجغرافيين العرب فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

٢ - رسم بحيرة أرال ونهرى ساردايا وموردايا (سيحون وجيحون) اللذين أهملهما بطليموس .

٣ - اتبع فى الرسم المسقط الذى اعتمد عليه الخوارزمى وهو الأسطوانى البسيط .

٤ - جعل البحر الهندى مفتوحا ، ويحيط الماء بقارة إفريقية ، بينما رسمه بطليموس بحيرة مقفلة .

٥ - قسم المعمورة إلى ثلاث قارات رئيسية ، ولم يتبع تقسيم العرب إلى الأقاليم السبعة . وجعل خط الصفر يمر بجزر الخالدات . وطول البحر المتوسط ٦٢ وبذلك اتفق مع بطليموس فى هذه النقاط .

٦ - جعل طول البحر الهندى بين إفريقيا ، وجزيرة سيلان ٨٠ ، بينما لم يتجاوز طوله ٤٢ ، ومنه يمر خط الاستواء قاطعا جزيرة سيلان التى سماها (طبربانى) ، وعلى هذا تقع قبة الأرض التى يتساوى فيها الليل والنهار .

٧ - جعل بحر قزوين (الخزر) الذى سماه بحر جرجان متصلا بالمحيط ، ورسمه بشكل مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب عكس اتجاهه الصحيح من الشمال إلى الجنوب بينما رسمه بطليموس بشكل بحيرة مقفلة وباتجاهه الصحيح . واتفق مع بطليموس فى رسم نهر أتيل (الفولغا) يصب فى بحر قزوين .

٨ - سمى البحر الأسود (بنطس) وقال : إن النهر المسمى (طنايس) يدخل فيه بعد أن يمر ببحيرة مايطس (أزوف) والأرجح أنه نهر دن الحالى .

٤ - مرحلة الخرائط الاقليمية :

وهى الخرائط التى ظهرت فى عصر النضج والإبداع العربى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ويمثل هذه المدرسة أصحاب مؤلفات المسالك والممالك التى تشمل فروع الجغرافية الوصفية والإقليمية . ويمثل هذه المرحلة الجيهانى فى كتابه المسالك فى معرفة الممالك . والبلخى فى كتابه صور الأقاليم ، والإصطخرى فى كتابه مسالك الممالك وصور الأقاليم ، وابن حوقل فى كتابه صورة الأرض ، والمقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، والمسعودى فى مروج الذهب والتنبيه والإشراف .

إن خرائط الجيهانى لم تصل إلينا لفقدان كتابه ، ولكن خارطة العالم كما تصورها قد وصلت . وهى تمثل نقطة تحول فى علم الخرائط ، من دون الاعتماد على الخرائط الاغريقية والفارسية إلى دور التحرر والاستقلال العربى . وقد وضع الخارطة بشكل دائرة يحيط بها المحيط الأوقيانوسى . وهى تخلو من خطوط الطول والعرض . وبذلك أصبحت تمثل بداية الاختلاف عن المراحل السابقة لها ، والتى تعتمد على خطوط الطول والعرض . وقد قسم العالم إلى سبعة أقاليم . ويظهر فيها الغموض السائد فى تصوير بحر الخزر (قزوين) والبحر الأسود خلاف الوضع فى خارطة البتانى . ونسب إليه خرائط أخرى منفردة للأقاليم الإسلامية كمصر وسورية والمغرب والجزيرة والعراق والسند وخراسان وسجستان وطبرستان والديلم . نشرها ميللر فى أطلس الخارطات الإسلامية[٦٢] .

ورغم أن قسما من الكتاب اعتبر الجيهانى مخالفا للتقليد العربى فى اتجاه الخارطات ، حيث جعل الشمال فى أعلى خارطة العراق ، والغرب فى أعلى خارطة الجزيرة ، بينما الإجماع العربى أن يكون الجنوب فى أعلى الخارطة والشمال فى أسفلها . ولا اعتقد أن الجيهانى وغيره من العلماء العرب والمسلمين ، قد خالفوا هذا الإجماع لأن تغيره سوف يؤدى إلى أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الأسفل . وأن ما وصل إلينا من الخارطات ذات الاتجاه المغاير يعزى إلى خطأ النساخ الذين قاموا بنسخ الخرائط من الأصول .

أما الخارطات المنسوبة إلى البلخى فهى مشابهة لخارطة الجيهانى للعالم فهى على شكل

دائرة يحيطها البحر المحيط ، ويمتد فيها الساحل الشرقى لإفريقيا نحو الشرق جنوب البحر الهندى حيث يتصل بالبحر المحيط . وفكرته عن البحر الأسود غامضة ، كما جعل البحر المتوسط متصلا بالبحر المحيط بواسطة قناة بين البحر المتوسط والبحر المحيط ، وظهرت بحيرة خوارزم (آرال) بشكل دائرة ، بينما لم يظهر بحر الخزر (قزوين) رغم أنه أكبر من بحيرة خوارزم ، واختفى البحر الأسود وبحر آزوف من الخريطة(٦٣)

وذكر المقدسى بأن البلخى رسم بحر فارس الممتد بين الصين والسودان على شكل طير منقاره بالقلزم ، ولم يذكر شعبة ويلة ، وعنقه بالعراق ، وذنبه بين حبشة والصين وقد رآها فى خزانة أمير خراسان ، وعلى كرباسة عند أبى القاسم بن الأنماطى بنيسابور وفى خزانة عضد الدولة والصاحب(٦٤) .

أما خرائط الإصطخرى ، فيمكن معرفتها مما ذكره فى كتابه المسالك والممالك حيث قال « فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه . واتصال بعضه ببعض ومقدار كل إقليم من الأرض . حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موضعه من الصورة ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أخذت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم ، وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إليه علمه . ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما ، وابتدأت بديار العرب فجعلتها إقليما لأن فيها الكعبة ومكة وأم القرى ، وهى واسطة هذه الأقاليم ، ثم اتبعت ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر ديار العرب ، ثم ذكرت المغرب حتى انتهيت إلى مصر فذكرتها ، ثم ذكرت الشام ثم بحر الروم ، ثم الجزيرة ثم العراق ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند والإسلام . ثم أذربيجان وما يتصل بها ، ثم كور الجبال ثم الديلم ثم بحر الخزر ثم المفازة التى بين فارس وخراسان ، ثم سجستان وما يتصل بها ثم خراسان ثم ما وراء النهر(٦٥) .

يتضح من هذا النص بأن الإصطخرى قد رسم ٢١ خريطة ، أولها خريطة للعالم يوضح

عليها كل الأقاليم بصورة مصغرة ، وهى تشبه الخريطة العامة التى تعطى دليلا لموقع الأقاليم من بعضها . ثم ما تبقى خرائط لكل إقليم من الأقاليم والكور التى ذكرناها .

وخارطة العالم للإصطخرى (صورة الكل) على هيئة دائرة يحيط بها البحر المحيط الذى يتصل به من الشرق البحر الهندى كما يتصل به البحر المتوسط من الغرب . ورسمت الممالك على هيئتها وصورتها وموقعها من بعضها البعض ، كما يعرف كل جزء بالنسبة إلى الأجزاء الأخرى . وثبت موقع بحرالخزر (قزوين) . ورسم المقاطعات المجاورة لكل منها . ولم يشر إلى البحر الأسود وموقعه من بحر الروم (المتوسط) . ولعله أهمل ذلك لأن هذا البحر وما عليه من الأماكن يقع خارج نطاق المملكة الإسلامية ، ومن الساحل الشرقى حيث ينتهى إلى البحر المحيط مقابل الصين ، وبذلك أعاد خطأ بطليموس[٦٦] .

وقد اتصفت خرائط الإصطخرى بالمميزات التالية[٦٧] :

١ - رغم خلو هذه الخرائط من مقياس الرسم ، فإنها حافظت على النسب والأبعاد بين المدن ، كما حافظت على الاتجاهات الصحيحة ، ووضحت العوارض شكل البلاد العام .

٢ - حافظت على التقليد العربى فى جعل الشمال إلى الأسفل ، والجنوب إلى الأعلى والشرق إلى اليسار والغرب إلى اليمين .

٣ - رسمت الأنهار بشكل مستقيم خالية من التعاريج ، ورسم البعض منها بانحناءات كبيرة كما جاء فى رسم نهر الفرات .

٤ - استعمل الألوان فى خرائطه ، فرسمت الأنهار باللون البنى الغامق ، والبحار والبحيرات باللون الأخضر . والمدن باللون الأصفر والأحمر ، والجبال باللون البنى والأحمر الغامق ، وطرق المواصلات والحدود الخارجية للأقاليم باللون الأحمر ، والصحارى بلون رمالها فهى إما حمراء أو بنية أو صفراء .

٥ - رسمت المدن بأشكال مختلفة ، منها بشكل الورد أو بشكل مستطيل تعلوها قبة صغيرة أو دوائر ملونة ، أما المدن الكبيرة فترسم بشكل دوائر متداخلة يكون داخلها بالأصفر والأحمر ، ومنها غير ملونة . وترسم الجبال على هيئة الصورة أو المنظر الفوتوغرافى المجسم ، وطرق المواصلات بشكل خطوط مستقيمة ، أو منحنية بانتظام ، والصحارى

بشكل مستطيل أو مدور ، ويبعثر بداخلها نقط للدلالة على الرمال . وترسم البحيرات بشكل دوائر .

٦ - إن خطوط الرسم المستعملة فى الخرائط هى الخط الكوفى للعناوين والعوارض المشهورة والبحار ، وخط النسخ لبقية الأسماء ، كما يغلب على الكلمات عدم التنقيط ، أما الحبر المستعمل فهو الأحمر بدلا من الأسود .

وتختلف خرائط الإصطخرى فى جودتها ، ودرجة شمولها من إقليم إلى آخر ، فصورة مصر ليس بها من التفصيلات ما يتناسب وأهمية ومساحة الإقليم . وليس عليها من المظاهر الطبيعية سوى نهر النيل وبحر الروم والقلزم وجبل المقطم وجبل الواحات . ومن المدن إحدى عشرة مدينة فقط ، بينما خريطة فارس رغم ازدحامها بالأسماء ، فإنه يعتذر لأنه لم يصور فيها رستاقا لانتشار ذلك وكثرته ، ولا الجبال لأنه ليس بفارس بلد إلا وبه جبل(٦٨) .

أما خرائط ابن حوقل ، فقد وصلت كاملة ، وعددها اثنتان وعشرون فى نسخة الأستانة ، لأنه رسم لمصر صورتين ، وفى غيرها إحدى وعشرون ، وهى على نفس منهج هذه المدرسة . وفى مقدمة كتابة يتضح أنه قد فصل بلاد الإسلام إقليما إقليما وصقعًا صقعًا وكورة كورة . وبدأ كعادة الذين سبقوه بديار العرب فجعلها إقليما واحدًا لوجود الكعبة فيها ومكة وأم القرى ، وأوضح فيها ما تحتويه من الجبال والرمال والطرق ، وما يصب فيها من الأنهار ، ورسم المغرب بقسمين أحدهما يمتد من مصر إلى القيروان . والأخرى يمتد حتى طنجة وأزيلى . وأوضح فيها المدن الساحلية وشبكة الطرق التى تقطع سائر أجزائها وأدخل معها صورة الأندلس . ثم صورة مصر بقسمين كما صور المغرب . وأوضح فيها المدن والجبال والخلجان والمياه والبحيرات ، ثم صور الشام وما فيه من الجبال والأنهار والسواحل والبحيرات والصحارى . ثم بحر الروم موضحا شكله وما عليه من المدن وما يصب فيه من الأنهار ، ثم خريطة لجزيرة ديار ربيعة وديار بكر ونهرى دجلة والفرات مع ذكر حدودهما وأنهارهما، ثم صورة فارس مصورا جميع أنهارها وبحيراتها ومواقع مدنها وما يقع على ساحلها من المدن . ثم صورة كرمان برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها ، ثم بلاد السند مدنها وطرقها وسبلها وبحرها وما عليه من المدن . ثم صورة لأذربيجان جبالها وطرقها وأنهارها وبحيراتها . ثم صورة الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على ما هى . ثم صورة بحيرة طبرستان وجزيرتها ، ثم صورة المفازة الواقعة بين

فارس وخراسان ، ثم صورة خراسان وصورة نهر جيحون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنة وأسبيجاب والشاش وخوارزم(٦٩) .

وتتشابه خرائط ابن حوقل وخرائط الإصطخرى ، لالتقائهما واطلاع ابن حوقل على خرائط الإصطخرى وقيامه بتعديلها وتصحيحها ، مما جعلها تتفوق عليهـا جودة وتفصيلا ودقـة . فخريطة نهر النيل وضع عليها المعالم المشهورة ، ودلتا النيل بكل فروعه وعدد كبير من المدن بلغ ١١٢ مدينة وقرية(٧٠) .

وذكر أبو الفدا بأنه اطلع على كتاب ابن حوقل ، ووجده مستوفيا صفات البلاد غير أنه لم يضبط الأسماء ، ولم يذكر الأطوال والعروض ، فصـار غالـب ما ذكره مجهـول الاسـم والمكان ، مما جعله قليل الفائدة(٧١) .

أما المقدسى ، فيفهم مما ذكره فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم بأنه رسم ثمانى عشرة خريطة ، أربع عشرة لأقاليم الإسلام ، وخريطتين للبادية والمفازة وخريطتين للبحار . فقال : « لم نذكر إلا مملكة الإسلام حسب ولم نتكلف ممالك الكفار ، لأنّا لم ندخلها ولم نر فائدة ذكرها ، بلى قد ذكرنا مواضع المسلمين منها ، وقد قسمناها أربعة عشر إقليما ، وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب . ثم فصلنا كور كل إقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأجنادها بعد ما مثلناها . ورسمنا حدودها وخططها وحررنـا طرقهـا المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها الملحة بالخضرة . وأنهارها المعروفة بالزرقة . وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام ، ويقف عليه الخاص والعام . والأقاليم العربية جزيرة العرب ثم العراق ، ثم أقور ، ثم الشام ، ثم مصر ، ثم المغرب . وأقاليم العجم أولها المشرق ثم الديلم ، ثم الرحاب ، ثم الجبال ، ثم خوزستان ، ثم فارس ، ثم كرمان ، ثم السند . وبين أقاليم العرب بادية ، ووسط أقاليم الأعاجم مفازة لابد من إفرادها والاستقصاء فى وضعها لشدة الحاجة إليها وكثرة الطرق بينها . أما البحار والأنهار فقد أفردنا لها بابا كافيا لشدة الحاجة إليه والإشكال فيه ، لم نر فى الآسلام إلا بحرين حسب أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان ، فإذا بلغ مملكة الإسلام دار علي جزيرة العرب . كما مثلنا ، وله خلجان كثرة وشعب عدة وقد اختلف الناس فى وصفه والمصورون فى تمثيله فمنهم من جعله شبه طيلسان يدور ببلد الصين والحبشة وطرف بالقلزم وطرف بعبادان(٧٢) .

يتضح من هذا النص بأنه قد رسم أقاليم العرب منفصلة عن أقاليم العجم ، وأهمل أقاليم الكفر ، وقد استعمل الألوان لتوضيح المعالم الطبيعية ، والأقاليم التى رسمت لها خرائط هى جزيرة العرب ، العراق ، أقور ، الشام ، مصر ، المغرب ، البادية . أما أقاليم العجم فهى المشرق ، الديلم ، الرحاب ، الجبال ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، السند ، المفازة الواقعة وسط الأقاليم ، ورسم صورتين للبحار . ولم يذكر أنه رسم صورة كاملة للأرض افتتح به خرائطه كباقى رواد هذه المدرسة .

والمصورات التى فى مخطوطاته فيها السمات البدائية التى عرفت بها مصورات الإصطخرى الأولى ، واختلف فى تقسيمه العالم إلى أقاليم عند التقسيم الوارد فى أطلس الإسلام . ويعتبر المقدسى آخر أتباع المدرسة الإسلامية الخالصة(٧٣) .

وقد أطلق ميللر على خارطات هذه المدرسة اسم (أطلس الإسلام) ، تحوى دائما فى نظام لا يتغير إحدى وعشرين خارطة أولها خارطة العالم المستديرة ، ثم خرائط جزيرة العرب ، وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم . ثم أربع عشرة خريطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامى ، وهى الجزيرة ، والعراق ، وخوزستان ، وفارس وكرمان ، والسند ، وإرمينيا ومعها آران وأذربيجان والجبال وكيلان ومعها طبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر . واعتبر هذا الأطلس إيرانى الأصل ، حيث حظيت كل مقاطعة إيرانية بخارطة مستقلة ، ونالت من التفصيل ما لم تنله الجهات الغربية التى خصص لها عدد أقل من الخرائط تضم مساحات جغرافية أكثر اتساعا(٧٤).

وليس لهذا الرأى سند خلاف ذلك ، ويرد عليه بأن هؤلاء الجغرافيين وهم البلخى والإصطخرى من مواطنى هذه الجهات ، مما جعل معلوماتهم عنها أكثر تفصيلا من بقية العالم ، وحذا حذوهما من أتى بعدهما من أمثال ابن حوقل وغيره(٧٥).

ومن صفات خرائط هذه الفترة ما يلى :

١ - إن هذه المصورات لا صلة لها بالخرائط الفلكية لأنها تدرس كل إقليم على حدة ، ولا يمكن جمعها معا لتكوين خارطة واحدة ، لأن هذه المصورات أريد بها أن تكون دليلا للمسافرين(٧٦) .

٢ - إن رواد هذه المدرسة رسمت العالم كقرص يحيط به الماء مع خليجين يدخلان فيه من

الشرق ، وهما الخليج العربى ، والبحر العربى ، والبحر الأحمر . ومن الغرب البحر المتوسط ، ورسمت أطلس الإسلام الذى يتألف من ٢١ خريطة ، خارطة للعالم وثلاث خرائط للبحار وسبع عشرة خريطة لمختلف الأقطار الإسلامية .

٣ - إن القسم الشرقى من العالم الإسلامى عرض بتفصيل أوسع من القسم الغربى مما أوحى إلى البعض بأن أصل هذا الأطلس هو إيرانى .

٤ - إن خرائط رواد هذه المدرسة تخلو من أى أثر لخطوط الطول والعرض ، وتخلو من صور الناس والحيوانات التى حفلت بها الخرائط الأوربية فى العصور الوسطى ، ورسمت البحار والأمصار والجزر بشكل هندسى على شكل دوائر . والجبال على شكل قطاعات من دوائر وأنصاف دوائر متصلة مع بعضها البعض ، ورسمت طرق المواصلات على شكل خطوط مستقيمة(٧٧) .

٥ - اعتقد البعض بأن هذه الخرائط ضربت بالقواعد العلمية واهتمت بتمثيل الحقائق الجغرافية بالمصورات على حساب الدقة ، لذا جاءت أقرب إلى الرسوم التخطيطية منها إلى الخرائط الحقيقية ، لذا أصبحت هذه المرحلة مستقلة تماما عن المرحلة التى سبقتها أو التى جاءت بعدها(٧٨) .

وقد أحصى لنا ميللر ٢٧٥ خارطة لرواد هذه المدرسة ، وقد ذكرها حسب المخطوطات المختلفة التى عثر عليها لكل منهم وهى مقسمة كما يلى :

اسم الخريطة	عدد الخرائط	اسم الخريطة	عدد الخرائط
صورة الأرض	١١	كرمان	١٤
ديار العرب	١٢	السند	١٤
بحر فارس والصحراء العربية	١٥	أذربيجان	١٣
المغرب	١٢	الجبال	١٥
مصر	١٣	طبرستان	١٣
سوريا	١٠	بحر قزوين (الخزر)	١٤

اسم الخريطة	عدد الخرائط	اسم الخريطة	عدد الخرائط
البحر المتوسط (بحر الروم)	١٣	الصحراء	١٣
الجزيرة	١٣	سجستان	١٢
العراق	١٤	خراسان	١٤
خوزستان	١٤	ما وراء النهر	١٣
فارس	١٣	المجمــوع	٢٧٥

٥ - مرحلة خرائط الإدريسى :

فى عام ١١٥٤ م وقبل وفاة روجر بقليل ، انتهى الإدريسى من وضع كتابه باللغتين اللاتينية والعربية للعالم ، مرفقا به خريطة رسمت على ٧٠ قطعة ، مع خارطة صغيرة دائرية الشكل للعالم . وسمى هذا الكتاب من قبل روجر بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . كما سماه الإدريسى الكتاب الروجرى والخارطة روجرينا . وفى سنة ١١٦١ م وضع الإدريسى كتاباً مفصلاً للعالم قدمه إلى وليم الثانى بن روجر ، تحت اسم جنان الإنسان وعجائب النفس مع خارطة . ومختصراً له تحت اسم جنان النعيم سنة ١١٩٢ م مع أطلس يضم ٧٣ خريطة تعرف بالإدريسى الصغير ، ونسخ هذه موجودة فى مكتبات باريس وأكسفورد ولننغراد والقسطنطينية والقاهرة . واستمر نفوذ الإدريسى على أوربا حتى القرن السادس عشر ، حتى ظهور عائلة شارفى التونسية التى تأثرت بخارطة الإدريسى وخاصة فيما يتعلق بالأجزاء الشرقية فأنتجت خارطة العالم .

وخرائط الإدريسى لم تقتصر على البلدان الإسلامية ، وإنما شملت العالم المعروف وبنيت علي درجات الطول والعرض ، مع دقة رسم الشواطىء ومجارى الأنهار ، والاتجاهات الصحيحة ، وإن التصميم الذى استخدمه الإدريسى يشابه من بعض الوجوه التصميم الذى اتخذه مركيتور فيما بعد .

والشىء الجديد الذى أدخله الإدريسى على فن رسم الخرائط هو أن كل خريطة من

الخرائط تكون جزءاً من الخريطة الكبيرة ، وإن ضم هذه الخرائط إلى بعضها البعض يتألف منها مصور للعالم المعروف آنذاك .

وقد صمم الإدريسى هذه الخريطة على شبكة من خطوط الطول والعرض سميت لوح الترسيم ، وهو تصميم جغرافى للكرة الأرضية ، دقق عليه مواقع البلدان واحدا واحدا بواسطة بركار من حديد ، وبذلك استطاع أن يحقق بكل دقة بين الآراء المتضاربة للوصول إلى الوضع الصحيح الذى وصلت إليه خريطته .

يتضح بأن الادريسى قد اتبع نفس الطريقة السابقة التى سار عليها أكثر الجغرافيين العرب . وهى تقسيم المعمور من العالم إلى سبعة أقاليم مناخية على شكل أحزمة مستطيلة أفقية تبدأ من خط الاستواء ، ومرتبة من الجنوب إلى الشمال فى موازاة خط الاستواء وبشكل متساوٍ ، باستثناء الإقليم الأول الذى جعله ٢٣ ، ثم يشتمل كل إقليم من الأقاليم الستة ، على ست درجات كما يلى :

الإقليم الأول	من صفر - ٢٣
الإقليم الثانى	٢٤ - ٢٩
الإقليم الثالث	٣٠ - ٣٥
الإقليم الرابع	٣٦ - ٤١
الإقليم الخامس	٤٢ - ٤٧
الإقليم السادس	٤٨ - ٥٣
الإقليم السابع	٥٤ - ٥٩

ثم أضاف إلى الإقليم السابع ٥ درجات ، فأصبح المجموع ٦٤ شمال خط الاستواء . وتصل الأجزاء القاصية فى خارطة الإدريسى إلى ٧٢ . وبعدها وحتى القطب لم يضع أى شيء لأنها شديدة البرودة . وجنوب خط الاستواء غير مسكونة كذلك لشدة الحر ، وقد مد العمران جنوبا حتى جزيرة سرنديب وبعض جزر البحر الهندى . ثم منابع نهر النيل ونهر النيجر ، وإلى الغرب من ذلك غير مسكون لشدة الحرارة وانعدام الرطوبة . وليس لهذا التقسيم علاقة بتقسيم بطليموس ، ولكنه أخذ من المدرسة الإقليمية فكرة ربط المتن بالخارطة . وعلى هذا الأساس قسم كل إقليم من الأقاليم السبعة عشر إلى عشرة أقسام متساوية يوضحه خارطة خاصة به

توضح مافيه من معالم طبيعية . وتبدأ هذه الأقاليم من الغرب إلى الشرق على عكس ما كان متبعا لدى الجغرافيين العرب . ووضع الإدريسى درجات العرض فى تقسيمه للأقاليم السبعة وحدودها ، عدا المنطقة الممتدة حتى درجة ٢٨ شمالا ، حيث وضع أرقامًا بجانب أسماء البلاد وجاءت درجات خطوط الطول والعرض قريبة من الواقع ، أما درجات الطول فلم يثبتها ، واستعمل الألوان فى خرائطه ، ووضع اتجاه الشمال فى أسفل خرائطه[٧٩] .

وجمع ميللر من خرائط الإدريسى السبعين ، خريطة واحدة كبيرة للعالم بطول مترين وعرض متر واحد نشرها بالحروف اللاتينية سنة ١٩٣١ ، وقد حققت من قبل المجمع العلمى العراقى ، ونشرت بعد أنْ تَمّ تحقيقها وتصحيحها بالرجوع إلى خمس نسخ مصورة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، وطائفة من الكتب العربية الجغرافية القديمة . وقد طبعت لأول مرة سنة ١٩٥١ ، ثم أعادت نقابة المهندسين العراقية ، طبعها سنة ١٩٧٠ واختصرتها من ست قطع إلى ثلاث .

إن خريطته التى نشرت عن منابع نهر النيل والبحيرات الاستوائية ، أثبتت أن معارف العرب فى جغرافية إفريقية جيدة ودقيقة أكثر مما يظن ، لأن هذه المناطق لم يكتشفها الأوربيون إلا فى الوقت الحاضر[٨٠] .

ومن مزايا خرائط الإدريسى التزامها بمقياس الرسم ، وتحديد مواضع خطوط الطول والعرض ، والتزامها كذلك بالشكل الحقيقى للمنطقة ، لذا اعتبرت قمة ما بلغته الكارتوكرافية العربية[٨١] .

إن فترة الإدريسى على الرغم من اعتبارها الأوج الذى بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب ، إلا أنّها تحمل فى طياتها بوادر الاضمحلال للأسباب التالية :

١ - اختفاء فكرة الأطوال والعروض الجغرافية ، ويلاحظ بعض آثارها فى الإقليم الأول .

٢ - رسمت الأقاليم بشكل أحزمة متساوية العرض ، مما يدل على نسيان الأساس الفلكى .

٣ - تقسيم كل إقليم من الأقاليم إلى عشرة أقسام دليل على انحطاط الكارتوكرافيا العربية .

٤ - وضع خط منتصف النهار مارا بجزر السعادة فى طرف الخريطة فيه إشارة إلى مذهب بطليموس .

٥ - إن فحص التفاصيل فى خارطات الإدريسى أصعب من فحصها عند الخوارزمى ورغم ذلك فإن أطلس الإدريسى يعتبر أهم أثر للكارتوكرافيا العربية وأهم أثر لها فى العصور الوسطى جميعها[٨٥] .

وقد استفاد الجغرافيون الأوربيون فى القرون الوسطى من الخرائط العربية وخصوصا خرائط الإدريسى حتى أوائل القرن الخامس عشر ، ويتضح ذلك من مقارنة خرائطهم مع الخرائط العربية . وعندما سرت موجة الرجوع إلى النصوص اليونانية القديمة ، بدأت حركة كراهية للتراث العربى الإسلامى منذ سنة ١٤٥٠ م فى وقت كانت أوربا لا تستطيع الوقوف على أرجلها بغير مساعدة ، فرجعوا إلى جغرافية بطليموس التى تركها العرب قبل ستة قرون ، وصححوا كثيرا من أخطائها . فنقلوا عنها كل أخطائها ، ولم تفق أوربا من هذا الحمق قبل سنة ١٥٥٠ م عندما بدأوا يعودون إلى مؤلفات المسلمين[٨٣] .

واقترن اسم الإدريسى بالكرة الأرضية الضخمة التى صنعها من الفضة للملك روجر وعمل عليها خريطة العالم . وقام النقاش برسم صورة الأقاليم السبعة عليها بكل تفاصيلها ومعالمها ، ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها ، وبحارها ومجاريها وتوابع أنهارها وغامرها وعامرها والمسافات بين مدنها[٨٤] . وقدر وزن هذه الكرة بـ ٤٠٠ رطل رومى ، فى كل رطل ١١٢ درهماً[٨٥] .

وبعد مرحلة الإدريسى ظهرت أسرة الشرفى الصفاقسى التونسية منذ منتصف القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث قدمت أربع نماذج لخارطة كبيرة للعالم ، وهى صورة منقحة لخريطة الإدريسى فى السنوات ١٥٥١ م ، ١٥٧٢ م ، ١٥٧٩ م و ١٦٠١ م[٨٦] .

كما قدم حاجى أحمد التونسى خارطة للعالم المعروف آنذاك فى عام ٩٦٦ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٨ - ١٥٦٠ م فى زمن السلطان سليمان القانونى . جمعت بين معطيات أبى الفدا ، وقواعد المساقط لأورونتيوس فينايوس التى طبقها فى وضع خارطة العالم . وقد استعار حاجى أحمد طريقة المسقط وشكل الخارطة على هيئة قلب . وخط الزوال الذى يمر بجزر الكنارى ، والجزء الأكبر من تخطيط سواحل القارات والجزر ، واحتفظت بالأسماء التركية والعربية[٨٧] .

٦ - الخرائط البحرية :

عرف العرب هذا اللون من الخرائط بحكم نشاطهم التجارى بين الجزيرة العربية وسواحل الهند ، أو مع الساحل الشرقى لإفريقيا . وكان منهم ربابين مهرة يعرفون المسالك البحرية ، ويستفيدون من النجوم فى سيرهم ليلا ، ويتضح معرفة العرب بهذا النوع من الخرائط بما رواه المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم حيث قال : « وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ، ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان سوى ما توهمت بنا المراكب إلى جزائره ولججه . وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من ربانيين وأشاتمة ورياضيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره ، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ، ويعولـون عليها ، ويعملون بما فيها فعلقت من ذلك صدرًا صالحًا بعدما ميزت وتدربت . ثم قابلته بالصور التى ذكرت ، وبينا أنا يوما جالس مع أبى على بن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن إذ قال لى : مالى أراك متفكرا ؟ قلت : أيد اللهُ الشيخ قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه أمام التجار ومراكبه أبدا تسافر إلى أقاصيه فإن رأى أن يصفه لى صفة اعتمد عليها ، وأرجع من الشك إليها فعل . فقال : على الخبير بها سقطت . ثم مسح الرجل بكفه ورسم البحر لا طيلسان ، ولا طير وجعل له معارج متلسنة وشعبا عدة ، ثم قال هذه صفة هذا البحر لا صورة له غيرها[٨٨] .

يتضح من هذا النص ما يلى :

١ - أنه قد صاحب مشايخ ولدوا فى البحر ، ونشأوا فيه وأصبحوا خبراء بطرقه ومسالكه .

٢ - أنه رأى دفاتر معهم ، ولابد أن تكون هذه الدفاتر تحوى خرائط لهذه الطرق البحرية والمسالك التى يهتدون بها فى سيرهم .

٣ - أنه التقى بأبى على بن حازم بساحل عمان ، وكان أعلم الناس بالبحر الصينى لأنه كبير التجار ، وله مراكب كثيرة تصل إلى أبعد نقطة فيه ، فسأله عن صفة بحر الصين ولوضوحه فى فكره ، ومعرفته التامة به ، استطاع أن يمسح على الرمل أمام المقدسى ، فيرسم هذا البحر موضحا له معارجه المتلسنة وشعبه الكثيرة .

ووضع المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى حوالى ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م أصول

هذه المعلومات البحرية عندما طاف بسواحل إفريقية الجنوبية ، والتى أطلق عليها الرهمانيات[٨٩] .

وعندما استعان فاسكودى كاما بالملاح العربى ابن ماجد وجد عنده خريطة بحرية اطلع عليها ، توضح ساحل الهند مرسوماً عليها خطوط الطول والعرض . ونشر كتبه الثلاثين بين سنتى ١٤٦٢ - ١٤٨٩ / ١٤٩٠ م وأشهرها كتاب الفوائد الذى يتناول فيه أصول الملاحة وهو موجز للمعرفة السائدة عن الملاحة نظريا وعمليا ، وفى هذه الكتب أوضح منازل القمر ، والإبرة المغناطيسية ، والطرق البحرية فى المحيط الهندى . وخطوط العرض لعدد من الموانىء فى ذلك المحيط فى بحر الصين ، كما يصف الساحل الغربى للهند والجزر العشر الكبرى (مدغشقر ، سومطرة ، جاوة ، الفورلو ، فورموزا ، سيلان ، زنجيبار ، البحرين ، جاوان ، سوقطرة) واختتم حديثه عن المراسى ، والمناطق الضحلة ، والشواطىء ، والشعاب البارزة فى البحر الأحمر . إن وضوح البحر بهذه الدقة لدى العرب ، واختراقهم طرقه ومسالكه بكثرة ، ثم ظهور بوادر خرائط البورتولانوا فى سنة ١٣٠٠ م بشكل متقن ، يعطى الدليل أنها لابد أن تكون قد قطعت رحلة كبيرة من التطور حتى وصلت إلى ما هى عليه فى هذه الفترة[٩٠] .

وقد استعان الإدريسى بالخارطات البحرية العربية التى تُدُولِتْ بشكل واسع بين الناس فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وهى رسوم عملية دقيقة يعتمد عليها الملاحون وعرف العرب الخرائط التى تتصل ببحار آسيا والبحر المتوسط ، وتتصل هذه الخارطات برحلات العرب فى المحيط الهندى والشرق الأقصى . وترتبط بظهور عدد من الربابنة أشهرهم أحمد بن ماجد الملاح فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . وكانت ترسم على شكل خارطات منفصلة ، أو على شكل مجموعات على هيئة أطالس ، وترسم على قطع من الجلد الرقيق ، وتركز على السواحل مع إهمالها التفاصيل الداخلية ، وبدأت توضح المناطق المحيطة بالبحر الأسود والبحر المتوسط ، ثم أضيفت لها مناطق جديدة[٩١] .

وإن أقدم الخارطات البحرية المعروفة لنا محفوظة بمكتبة الأمبروزيانا بميلانو وتمثل قطعة مكونة من ثلاث ورقات لخارطات البحر المتوسط ، ومن الكتابة المغربية يتضح أنها عملت فى الجزء الغربى من شمال إفريقية ، ومن المحتمل أنها ترجع للقرن الرابع عشر ، وأنها إيطالية الأصل من حيث الرسم وتخطيط السواحل واستعمال الميل فى قياس الأبعاد . ونظرا لاحتفاظها بالأسماء العربية وبالخط المغربى فلابد أنها اعتمدت على خارطة عربية . ولم تكن هذه

الخارطة النموذج الوحيد الذى قدمه العرب فى فن الكارتوغرافيا على سواحل البحر المتوسط[٩٢] .

ووضع أكبر أفراد أسرة الشرفى الصفاقسى التونسية الأصل ، وهو على بن أحمد الشرفى فى عام ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م أطلسا يحتوى على ثمانى خرائط تصور سواحل البحر المتوسط ، وهى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، ولعل خارطة العالم الشرفى والتى رسمت فى عام ٩٥٩ هـ / ١٥٧١ - ١٥٧٢ م والمحفوظة بأكسفورد ذات صلة بهذا الأطلس . ويحتوى الأطلس على خارطة توضح موقع جميع البلدان بالنسبة إلى القبلة ، وخارطة عامة للعالم متأثرة بالإدريسى ، ثم خارطتين توضحان سواحل أسبانيا وجزر البليار وجنوب فرنسة وأجزاء من سواحل البحر الأسود وبحر آزوف والساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فالشام فمصر ثم برقة . وخارطة منفصلة تبين بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقية المقابل لها . والخارطة الأخيرة تصور برقة وطرابلس وتونس . وقد عمل هذا الأطلس لخدمة الملاحة فى البحر المتوسط والبحر الأسود وسواحل القرم ، ولأغراض تجارية لعدم ذكر التحصينات كما ورد فى الخارطات العثمانية . وذكرت الأسماء بثلاث لغات هى الأوربية والسريانية والعربية ، لزيادة الاستفادة منه . وقدم الابن الآخر محمد بن على الشرفى خارطة للعالم سنة ١٦٠١ م على قطعة من جلد الشاة ، تعتمد فى نصفها الشرقى على الإدريسى لا تصلح كبورتولانوا لنقصها الفنى ، وعدم ذكر جميع أسماء المواضع . أما نصفها الغربى فيبين حوض البحر المتوسط ، وسواحل الإطلنطى والبحر الأسود ، وقد تأثرت بالخرائط البحرية القطلونية[٩٣] .

الخاتمـــة :

على الرغم من التأكيد بأن للعرب باعًا طويلاً فى فن رسم الخرائط ، كنتيجة حتمية لتقدم المفاهيم الجغرافية ، وإن هذا التأكيد يستند إلى ما وصل بين أيدينا من مخلفاتهم القليلة من هذا التراث القيم . فإنّه يبقى دراسة هذا الفرع من فروع الجغرافية يكتنفه الكثير من الغموض والصعوبات لضياع أكثر هذه الخرائط . ولعدم وصول الأصول الأصلية لأغلب ما تبقى منها إلينا للاطلاع عليها ، وقد صرفت فيها جهود مكثفة لتحليلها وشرحها . وقد أنصف الكثير هذا التراث وقدموا لنا معلومات قيمة أشار إليها البحث . ومن لم يطلع على هذا التراث بكل تفاصيله أعطى رأيا سريعا بعيدًا عن الصواب . فعلى سبيل المثال ذكر تولى : « بأن فن الكارتوكرافيا العربية مخيبة للآمال ، فلم يظهر العرب براعة فنية بل حافظوا على ما جاء به اليونان رغم امتداد امبراطوريتهم وكثرة أسفارهم » .

فقد اتضح من البحث أنّ العرب عرفوا رسم الخرائط قبل إنجاز الخريطة المأمونية ، وقد وردت إشارات دون الحصول على النصوص . ثم جاءت مرحلة الخريطة المأمونية التى اعتبرت فاتحة عهد جديد اشترك فيها مجموعة من العلماء ومنهم الخوارزمى . وقد أنجزت هذه الخريطة بعد اطلاع العرب على ما ترجم من الحضارات التى سبقتهم ، ورغم ذلك لم يكونوا ناسخين لهذا التراث بقدر ما أخذوا منه ما وجدوه صحيحا بعد تحقيقه فى مراصدهم ، وتوصلوا إلى نتائج جيدة عندما صححوا أكثر الأخطاء ، ويبدو أن الخريطة المأمونية ابتكار عربى خالص اعتمد على جهود مستقلة كل الاستقلال عن التأثيرات اليونانية التى أشار إليها المقدسى .

أما خرائط الخوارزمى والبتانى ، فإن الأزياج المهمة التى وضعوها توضح جهودهم القيمة فى هذا المجال ، وإن الخريطة التى وضعوها تمثل مواصلة للمرحلة المتقدمة التى وصلت إليها الخريطة المأمونية .

وقد اعتبر أكثر الباحثين لخرائط المدرسة الكلاسيكية التى أخرجت ما أطلق عليه ميللر أطلس الإسلام ، بأنها مثلت انحداراً فى فن رسم الخرائط ، وأنها مرحلة متأخرة عن المرحلة التى سبقتها ، والمرحلة التى جاءت بعدها على يد الإدريسى . وإننى أرى خلاف ذلك ، فهى مرحلة متقدمة لا تقل عن المرحلتين المذكورتين وذلك للأسباب التالية :

١ - إن رواد هذه المدرسة قد اطلعوا على الخرائط الفلكية اليونانية والعربية التى سبقتهم ، وإن هذا الاطلاع لا يسمح لهم بالتردى إلى مستوى أوطأ منها . فإذا لم يكونوا قادرين على التجديد والابتكار ، فإنهم سوف يقتبسون الخرائط السابقة لهم ويعتمدون عليها .

٢ - إن خرائط هذه الفترة عربية محضة ، لا أثر فيها لخرائط اليونان ، وهى ابتكار جديد فى إيجاد مجموعة متكاملة من الخرائط .

٣ - إن خرائط هذه المدرسة خرائط تطبيقية قائمة على التجوال الشخصى والأسفار التى قاموا بها بقصد تصويب وتكميل المعلومات المقتبسة شفويا من الكتب أو من استجواب الحجاج والتجار .

٤ - إنهم اتبعوا المنهج الجغرافى السليم فى ربط المتن الجغرافى بالخارطة التوضيحية ، وهو ابتكار جديد لهذه المدرسة ، يتفق مع المفهوم الجارى فى الوقت الحاضر .

٥ - إنها خرائط إقليمية ، انفرد كل أقليم بخريطة خاصة به ، وبذلك ابتعدت عن الأسلوب الذى ساد قبلها فى تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم تتفق مع خطوط العرض ، مما يجعل عدة دول تدخل فى إقليم واحد ، أو دولة واحدة ضمن عدة أقاليم ، وبذلك خرجوا بمفهوم آخر أكثر تقدماً من المفهوم الذى كان سائدا قبلها .

٦ - إنها خرائط ارتبطت بالمسالك والممالك ، لذا فإن هدفها توضيح الطريق للتجار والحجاج وعمال البريد . وقد استطاعت أن تغطى هذا الهدف بكل دقة .

وقد واصلت خرائط الإدريسى هذا التقدم العربى ، ووصلت إلى القمة فى رسم الخرائط وإنسانها فى ذلك الوقت ، مما جعلها تؤثر بشكل واضح بعد ذلك على المعلومات الأوربية لفترة طويلة ، واستطاع مركيتور أن يطور المسقط العربى الذى اعتمد عليه الإدريسى إلى مسقطه الذى ارتبط باسمه .

أما خرائط البورتولانو البحرية التى اشتهرت فى إيطاليا ، فإن أصولها الأولية التى استندت ، واعتمدت عليها هى أصول عربية ، حيث قدم العرب نماذج جيدة من هذه الخرائط لخبرتهم فى البحار ، وطرقه ، وخصوصا فى المحيط الهندى والبحر المتوسط . وقد طورت هذه الخرائط لتصل إلى المستوى المتقدم الذى عرفناه فى خرائط البورتولانو الإيطالية .

* * * *

الحواشي

(١) محمد كرد علي . الإسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٠ ص ٣٢٠ - ٣٢٤ .

(٢) نفيس أحمد . جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الألف كتاب ، مطابع دار القلم ، القاهرة ، ص ٢١٩ .

(٣) المقدسي . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٦ ، ط ٢ ، ص ٦ .

(٤) الإصطخري . المسالك والممالك . دار القلم ، القاهرة ، ص ١٩٩ - ٢٠٥ .

(٥) أحمد سوسة ، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية ، القسم الأول ، نشر مؤسسة كولبنكيان ونقابة المهندسين العراقية ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٤ .

(٦) كراتسكوفسكي (أغناطيوس يوليانوفتش) ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول .

(٧) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، مراجعة عبد الله الصاوي ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٨) الدكتور عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، دار الفكر ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٦١ .

(٩) كراتسكوفسكي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(١٠) الزيج : كتاب أعد لأعمال الحساب والرصد ، وأصله من اللغة البهلوية التي استخدمها الفرس في زمن الملوك الساسانيين . ومعناها السّدى الذي ينسج فيه لحمة النسيج . ثم أطلقت الفرس هذا الاسم على الجداول العددية المشابهة خطوطها الرأسية بخطوط السدى . وتشمل جميع الجداول الرياضية التي يبين عليها كل حساب فلكي مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة في الأغلب عن البراهين الهندسية . (نللينو) .

(١١) الدكتور إبراهيم شوكة ، خرائط جغرافي العرب الأول ، مجلة الأستاذ ، ص ٥ .

(١٢) قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٦٨ ، (سلسلة ألف كتاب) .

(١٣) تلاحظ المصادر التالية :

(أ) قدري طوقان وآخرون ، نشاط العرب العلمي في مائة سنة ، منشورات جامعة بيروت الأمريكية ، سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة ٤٢ بيروت ١٩٦٣ ، ص ٣٣٦ - ٣٧١ .

(ب) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ٣ ، مطابع دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢١٢ / ٢١٣ .

(جـ) الدكتور حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٧٧ ، ص ١٩٥ / ٢٠٠ .

(د) ناجي معروف ، المراصد الفلكية في بغداد ، دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٧ .

(١٤) تلاحظ المصادر التالية :

(أ) قدرى طوقان وآخرون ، نشاط العرب العلمى فى مائة سنة ، ص ٢٣٧ / ٢٣٨ .

(ب) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٣ ، ص ٢١٢ / ٢١٣ .

(جـ) ناصر النقشبندى ، الربع المجيب والمقنطر المزولة وبوصلة القبلة وكرة فلكية مجلة سومر ، مديرية الآثار العامة ، بغداد ، ج ١ - ٢ ، ١٩٦٠ ، المجلد ١٦ ، ص ٤٢ - ٦١ .

(د) الدكتور إبراهيم شوكة ، الاصطرلاب : طرق وأساليب رسمه وصنعته، مطبعة المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٧٠ ، ص ٧ .

(هـ) نفس المؤلف ، تيسير العمل بالأصطرلاب ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٩٧٣ .

(١٥) البروج : تقسم البروج إلى اثنى عشر برجا ، نصفها شمالية والنصف الآخر جنوبية . واعتبروا لكل واحد من البروج الشمالية ٣٠ يوما وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة . وللبروج الستة الجنوبية ٣١ يوما وهى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

(١٦) قدرى طوقان ، نشاط العرب العلمى فى مائة سنة ، ص ٢٣٨ .

(١٧) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٨ ، ص ٤ . ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ١٣٠٢ ، ص ٤ .

(١٨) على على السكرى ، العرب وعلوم الأرض ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٥٤ .

(١٩) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٨٢ .

(٢٠) (أ) الدكتور حكمت نجيب عبد الرحمن ، مصدر سابق ، ص ١٨٢ / ٢١٩ .

(ب) والسنيور نلينو ، علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرن الوسطى ، روما ١٩١١ ، ص ٢٨١ - ٢٩٢ .

(جـ) والدكتور شاكر خصباك ، فى الجغرافية العربية ، مطبعة دار السلام ١٩٧٥ ، ص ٣٣٣ / ٣٣٥ .

(د) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، القاهرة ١٣١٠ هـ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(هـ) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٨٣ .

(٢١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٥٠ ، ص ١٤ .

(٢٢) الفرسخ العربى يساوى ١٢ ألف ذراع . والذراع ٢٤ إصبعًا ، والإصبع ٦ حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهرا لبطن . لاحظ كتاب ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٤ . ومقدمة ابن خلدون ، ص ٤٥ . فإذا اعتبرنا حبة الشعير ٢,٥ ملم يكون طول الذراع ٢,٥ × ٦ × ٢٤ = ٣٦ ملم ويكون بذلك طول محيط الأرض مساويا إلى ٣٦ × ١٢٠٠٠ × ٢٥ × ٣٦٠ = ٣٨٨٨٠ وهو قريب من الحسابات الحديثة وأكثر دقة من حسابات اليونان .

وإذا اعتبرنا حبة السعير ٢,٥٧٥ ملم يكون المحيط ٤٠٠٤٦ كم وهو أقرب الأرقام ، فهو عند خط الإستواء ٤٠٠٧٥,٧ ، وعند دائرة من دوائر الطول ٤٠٠٠٨,٥ كم . أنظر :

١ - عمر الحكيم ، تمهيد فى علم الجغرافية الطبيعية ، الكتاب الأول ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٨ ، ص ١١٩ .

٢ - عبد المرشد العزاوى ، الجزء الأول فى الخرائط والجغرافية العامة ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٤٠ .

(٢٣) ف . بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٠ .
(٢٤) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٧٨ .
(٢٥) جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ، دار مصر للطباعة ، القاهرة (بدون سنة) ، ص ٣٩٠ .
(٢٦) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ج ٤ ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٤ ، ص ٤٦٨ .
(٢٧) ل .أ . سيديو . تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، ١٩٦٩ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ص ٣٧٣ .
(٢٨) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٨٥ .
(٢٩) الدكتور أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ٢٢٨ .
(٣٠) ناصر النقشبندي ، مصدر سابق ، ص ٤٢ / ٤٣ .
(٣١) نفيس أحمد ، مصدر سابق ، ص ١٣٢ / ١٣٣.
(٣٢) جورج فضلوحوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٨٤ .
(٣٣) المسعودي ، مصدر سابق ، ص ٣٩ .
(٣٤) الدكتور عبد الرحمن حميدة ، مصدر سابق ، ص ٤٧ .
(٣٥) الدكتور إبراهيم شوكة ، خرائط جغرافي العرب الأول ، مجلة الأستاذ ، كلية التربية مجلد ١٠ ، بغداد ١٩٦٢ ، ص ٦ .
(٣٦) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٢٢٨ .
(٣٧) نلينو ، مصدر سابق ، ص ٢٢٦ .
(٣٨) الجرجاني ، الشريف علي بن محمد ، كتاب التعريفات ، مطبعة لايبزك ، ١٨٤٥ ، ص ١٦ .
(٣٩) أبو الفداء ، مصدر سابق ، ص ٧ .
(٤٠) ل . أ . سيديو مصدر سابق ص ٣٧٣ .
(٤١) الدكتور إبراهيم شوكة ، جغرافي العرب الأول ، مصدر سابق ، ص ١٠ .
(٤٢) سهراب ، كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة ، مطبعة أدولف هولز هوزن ، فينا ١٣٤٧ ، ص ٦ - ١١ .
(٤٣) أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ٣١٥ .
(٤٤) ل. أ. سيديو ، مصدر سابق ، ص ٣٧٢ .
(٤٥) علي علي السكري ، مصدر سابق ، ص ٥٦ .
(٤٦) الدوميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وزميله ، دار القلم ، ط ١ ، ١٩٦٢ ، ص ٣٩٢ / ٣٩٤ .
(٤٧) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨٣ .

(٤٨) الطبرى ٢ / ١١٩٩ ، طبعة لايدن .
(٤٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، طبعة دى غويه ، ص ٣٧١ .
(٥٠) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، طبعة السقا ، ص ١٢٣ .
(٥١) خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ /٢٦٨ .
(٥٢) الدكتور إبراهيم شوكة ، خرائط جغرافى العرب الأول ، مصدر سابق ، ص ٧ / ١٠ .
(٥٣) الدكتور جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها فى الشرقى العالمى ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، بدون سنة ، ٣٩٤ / ٣٩٩ .
(٥٤) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٨٦ .
(٥٥) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، مصدر سابق ، ص ٣٠ .
(٥٦) نفس المصدر . ص ٤٣ .
(٥٧) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ .
(٥٨) الدكتور إبراهيم شوكة ، تفكير العرب الجغرافى وعلاقة اليونان به وحقيقة كتاب جغرافية لبطليموس وأصالته ، مجلة الأستاذ ، المجلد التاسع ، كلية التربية ، ١٩٦١ ، ص ١١ / ١٤ .
(٥٩) دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، المجلد ٧ ، ص ١٥ .
(٦٠) الدكتور إبراهيم شوكة ، جغرافى العرب الأول ، مصدر سابق ، ص ١٧ .
(٦١) الدكتور أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ١٢٧ / ١٢٩ .
(٦٢) نفس المصدر ، ص ١٤٨ / ١٤٩ .
(٦٣) نفس المصدر ، ص ١٥١ .
(٦٤) المقدسى ، مصدر سابق ، ص ١٠ .
(٦٥) الإصطخرى ، مصدر سابق ، ص ١٥ .
(٦٦) أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ١٦٢ / ١٦٣ .
(٦٧) الدكتور إبراهيم شوكة ، كتاب الأقاليم ، مصدر سابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٦٨) الدكتور محمد محمود الصياد ، من الوجهة الجغرافية ، دراسة فى التراث العربى ، دار الأحد البحيرى إخوان ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣١ .
(٦٩) ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ص ١٥ - ١٧ .
(٧٠) الدكتور إبراهيم شوكة ، جغرافى العرب الأول ، مصدر سابق ، مصدر سابق ، ص ٢٢ .
(٧١) أبو الفدا ، مصدر سابق ، ص ١ .
(٧٢) المقدسى ، مصدر سابق ، ص ٩ / ١٠ .
(٧٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مصدر سابق ، ص ٢١ .
(٧٤) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦ / ٢٠٧ .
(٧٥) الدكتور شاكر خصباك ، فى الجغرافية العربية ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .
(٧٦) دائرة المعارف الإسلامية ، مصدر سابق ، ص ٢٠ .
(٧٧) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٧ .

(٧٨) الدكتور شاكر خصباك ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

(٧٩) الدكتور أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ٣٥٧ / ٣٥٩ .

(٨٠) د. غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٤ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، نابلس ١٩٦٤ ، ص ٤٧٠ .

(٨١) د. شاكر خصباك ، فى الجغرافية العربية ، ص ١٥٩ .

(٨٢) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٢٩ .

(٨٣) جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها فى الشرق العالمى ، دار مصر للطباعة ، القاهرة (بدون سنة) ، ص ٤١٢ .

(٨٤) على على السكرى ، مصدر سابق ، ص ٥٨ .

(٨٥) قدرى حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، مصدر سابق ، ص ٣١ .

(٨٦) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٤٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٤٥٧ / ٤٥٨ .

(٨٨) المقدسى ، مصدر سابق ، ص ١٠/ ١١ .

(٨٩) آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى وعصر النهضة فى الإسلام ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . ج ٢ ، ط ٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٥٧ ، ص ١٠ .

(٩٠) نفيس أحمد ، مصدر سابق ، ص ١٣٥ / ١٣٨ .

(٩١) الدكـ . أحمد سوسة ، مصدر سابق ، ص ٣٦٢ / ٣٦٤ .

(٩٢) كراتشكوفسكى ، مصدر سابق ، ص ٤٥٥ .

(٩٣) نفس المصدر ، ص ٤٥٥ / ٤٥٧ .

ooo

المصـــادر :

١ - آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ج ٢ ، ط ٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧.

٢ - الدكتور إبراهيم شوكة ، الأصطرلاب : طرق وأساليب رسمه وصنعته ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، المجلد التاسع عشر ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٩٧٠ .

تفكير العرب الجغرافى وعلاقة اليونان به ، وحقيقة كتاب جغرافية لبطليموس وأصالته ، مجلة الأستاذ ، المجلد التاسع ، كلية التربية ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص ٨ - ٣١ .

تيسير العمل بالأصطرلاب ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٩٧٣ .

خرائط جغرافى العرب الأول ، مجلة الأستاذ ، المجلد العاشر ، كلية التربية ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٦٢ ، ص ٣٧ - ٦٨ .

كتاب الأقاليم للإصطخرى ، مجلة الأستاذ ، المجلد الثامن ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٠ ، ص ٢٢٧ / ٢٥٣ .

٣ - ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) .

٤ - ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله) ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٨ .

٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، - المقدمة - ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت (بدون تاريخ) .

٦ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، القاهرة ١٣١٠ هـ .

٧ - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمدانى) ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

٨ - أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل) ، تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٥٠ .

٩ - الدكتور أحمد سوسة ، الشريف الإدريسى فى الجغرافية العربية ، القسم الأول والثانى ، نشر مؤسسة كولبنكيان ونقابة المهندسين العراقية ، بغداد ١٩٧٤ .

١٠ - الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد) ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦١ .

١١ - إغناطيوس يوليانوفتش كرتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول والثانى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٢ - ألدومييلى ، العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى : ترجمة عبد الحليم النجار ، وزميله ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٢ .

١٣ - بارتولد ، ف . تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ط ٣ ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٨ .

١٤ - البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) ، فتوح البلدان ، طبعة دى غويه .

١٥ - الجرجانى (الشريف على بن محمد) ، كتاب التعريفات ، مطبعة لا يبزك ، ١٨٤٥ .

١٦ - جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها فى الشرق العالمى ، دار مصر للطباعة القاهرة (بدون تاريخ) .

١٧ - جورج فضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى . دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٨ - جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٣ ، مطابع دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٩ - الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) ، الوزراء والكتاب ، طبعة السقا .

٢٠ - الدكتور حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .

٢١ - دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، مجلد ٧ .

٢٢ - سهراب . كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة ، مطبعة أدولف هولز هوزن ، فينا ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م .

٢٣ - سيديو ، ل . أ . تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، نابلس ١٩٦٩ .

٢٤ - الدكتور شاكر خصباك ، فى الجغرافية العربية ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٠ .

٢٥ - الدكتور عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات عن آثارهم ، دار الفكر ، دمشق ١٩٦٩ .

٢٦ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، ٢ / ١١٩٢ مطبعة لايدن .

٢٧ - عبد المرشد العزاوى ، ج ١ ، فى الخرائط والجغرافية العامة ، دمشق ١٩٧٣ .

٢٨ - على على السكرى ، العرب وعلوم الأرض ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٣ .

٢٩ - عمر الحكيم ، تمهيد فى علم الجغرافية الطبيعية ، الكتاب الأول ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٨ .

٣٠ - الدكتور غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ج ٤ ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، نابلس ١٩٦٤ .

٣١ - نلينو ، كرلو ، علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، مطبعة روما ١٩١١ .

٣٢ - قدرى حافظ طوقان وآخرون ، العلوم عند العرب ، سلسلة الألف كتاب ، منشورات مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ .

٣٣ - نشاط العرب العلمى فى مائة سنة ، منشورات جامعة بيروت الأمريكية ، سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة ٤٢ ، بيروت ١٩٦٣ .

٣٤ - محمد رشدى ، مدنية العرب فى الجاهلية والإسلام ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩١١ .

٣٥ - محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠ .

٣٦ - الدكتور محمد محمود الصياد ، من الوجهة الجغرافية ، دراسة فى التراث العربى دار الأحد البحيرى إخوان ، بيروت ١٩٧١ .

٣٧ - المسعودى (أبو الحسن على) التنبيه والإشراف ، مراجعة عبد الله الصاوى ، القاهرة ١٩٣٨ .
٣٨ - المقدسى (شمس الدين أبو عبيد الله) ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٦ .
٣٩ - ناجى معروف ، المراصد الفلكية فى بغداد ، دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٧ .
٤٠ - ناصر النقشبندى ، الربع المجيب والمقنطر المزولة وبوصلة القبلة وكرة فلكية ، مجلة سومر ، مديرية الآثار العامة ، بغداد ج ١ - ٢ ، م ١٦ ، سنة ١٩٦٠ .
٤١ - نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة فتحى عثمان ، سلسلة الألف كتاب ، مطابع دار القلم ، القاهرة (بدون تاريخ) .

ooo

مدارس الجغرافيا عند المسلمين

دكتور / شفيق عبدالرحمن على



تقـــــديم :

إذا جاز لنا أن نعمم صفة الظلمة على العصور الوسطى ، فإن هذا التعميم لا يمكن أن يكون سليما بالنسبة للمسلمين . وليس بغريب على الغربيين أن يتخذوا ما هو قائم فى أوروبا مرآة صادقة لعكس تاريخ المدنية والحضارة الإنسانية على كافة المعمورة . وعليه ، مادامت العصور الوسطى ، عصور إظلام على أوروبا ، فإنها لابد وأن تكون هكذا على بقية شعوب الأرض .

إذا كان هذا هو الرأى السائد بين الأوروبيين ، فإنهم يقصدون شيئا واضحا ومغرضاً .. هو تكوين رأى منحرف وغير صادق عن حضارة المسلمين فى الشرق خلال الفترة التى اتصفت بعصور الإظلام على أوروبا ، وليكون هذا الرأى هو وجهة نظرهم ونهاية رأيهم عن مدنية المسلمين وحضارتهم ، سواء كانوا عربا أو غير عرب . ولا جدال فى أنهم يقصدون بخس حق الإسلام والمسلمين فى التطور والتقدم العلمى خلال هذه الفترة ، حيث كانت الجغرافيا ، وكانت الخرائط من أهم مظاهر هذا التقدم .

والعجيب فى الأمر ، حقا ، أنه عندما أحس هؤلاء بقيمة الحضارة الإسلامية حاولوا فى إصرار عجيب ، إنقاص قدر المسلمين فى هذا المجال .. فقالوا : إن المسلمين لم يحرزوا أى تقدم فى ميدان الخرائط . وهذا قول يناقض ما جاء عنهم : بأن جهود المسلمين فى ميدان الخرائط ، هى التى واصلت التراث طوال الفترة السابقة للعهد المسيحى بما فى ذلك مخلفات بطليموس ، وذلك فى قالب علمى من ابتكارهم ومن صنعهم الخاص . وقد يعتقد البعض أن أعمال المسلمين فى ميدان الخرائط ، تحوى الكثير عن الأصول الإغريقية . هذه حقيقة ، ولكن لا يمكن القول بتوقف الخرائط عند المسلمين عن أن تتضمن ، وبصفة مستمرة ، معلومات جديدة . ومادمنا نتعرض إلى تقييم إحدى مدارسهم للخرائط خلال هذه العصور ، علينا أن نوضح أمراً هاما هو : أنه بالرغم من الجهود المضنية التى بذلها المسلمون فى هذا الميدان ، فإن عددا قليلا جدا من أصول خرائطهم أو حتى من الصور المنقولة عنها ، هى التى وصلتنا . ولانشك فى أن يكون قد عثر عليها وأخفيت ، إمعانا فى محاولة إنقاص المسلمين مهارتهم فى هذا المجال ، وهذا ليس بغريب على الأوروبيين ؛ فالسوابق غير خافية ، فقد أخذوا أفكار

الجغرافيين المسلمين ونسبوها إلى أنفسهم ، وهم يعلمون تماما بأن هذه الأفكار إسلامية ، سبقتهم بعدة قرون ، ومع هذا لم يجدوا أىّ استحياء أن ينطقوا بها ، منسوبة إليهم ، كنظريات جديدة ، اعتبروها أسسا للدراسات والمدارس الجغرافية الحديثة .. والأدلة على ذلك كثيرة لا تخفى على أحد . من الحقائق الثابتة أيضا ، والتى لا يمكن أن نغمض عنها أعيننا ، إننا لم نعثر حتى اليوم على أى أثر لأصول خرائط الخوارزمى ـ صاحب الصورة المأمونية التى رسمها للخليفة المأمون والتى توضح فكرة المسلمين عن العالم وقتئذ ـ ولم نعثر أيضا على أصول مجهودات البلخى أو الإصطخرى أو ابن حوقل أو المقدسى ، حتى إن خريطة الإدريسى التى بين أيدينا اليوم ، ليست سوى صورة منقولة عن صورة نقلت قبلا إلى اللاتينية ، لا يبعد تاريخها عن القرن الخامس عشر ، قام بتعريبها أخيراً المجمع العلمى العراقى وأصدرها لنا معربة .

ومع هذا ، فإنه من الصعب علينا إصدار حكم شامل عن تقصير الجغرافيين المسلمين فى ميدان الخرائط ؛ لأن تقدم خرائط المسلمين ، كان نتيجة مباشرة لتقدم الجغرافيا الإسلامية وجغرافييها الذين كان من بينهم أئمة لفن الخرائط ، برزت معهم أصول فن التخريط ، خاصة بعد إتمام ترجمة التراث الإغريقى القديم ، والتعرف على كتابات بطليموس . وعرف المسلمون فعلا كيفية المحافظة على هذا التراث .. وعرفوا كيف يتقدمون فيه حتى فاقوا أصحابه بما فيهم بطليموس نفسه . كان ذلك كله دون أدنى اتصال بين خرائطهم وخرائط الأوروبيين . والعجيب فى أمر هؤلاء المسلمين ، أنهم لم يقفوا عند حد تراث الإغريق والمحافظة عليه ، والإضافة إليه فحسب ، بل نقحوا هذا التراث ـ فيما بين القرنين السابع والثانى عشر ، وانتقلت المعارف الجغرافية من مراكزها الأوروبية إلى مراكز الفكر الإسلامى فى كل من بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة .

ومن الملاحظات التى تسترعى النظر فى شأن الجغرافيين المسلمين ، أنه رغم اعتقادهم بأن جهود الإغريق بلغت ذروتها فيما كتبه بطليموس ، فإنهم لم يتتبعوا كتاباته متابعة تامة ، بل نقد الرحالة منهم الكثير من آرائه ، وأعادوا حساب درجة الطول ، وتوصلوا إلى نتائج كانت على غاية من الدقة ، على نحو ما هو واضح لنا فيما تركوه من جداول الأزياج .

من هذا يتضح أن المسلمين ليسوا ـ كما افترى الغربيون عليهم ـ بناقلى حضارة ، بل كانوا على حرص ، وعلى فهم وإدراك لما بين أيديهم ، فبدأوا من حيث انتهى إليه سابقوهم ـ

وهذا أمر طبيعى ـ ثم تابعوه بأنفسهم .. فبلغت جهودهم ذورتها فى القرن العاشر الميلادى بما كتبه البلخى ـ الذى نبذ الكثير من آراء بطليموس ، وإن كان يميل كثيرا إلى تصديق كوزموجرافية استرابو ، واعتبر المحيط الهندى بحرا مفتوحا ـ وبما كتبه المسعودى وغيره . والحقيقة إن بمعرفة المسلمين عن العالم اكتملت بكتابات البيرونى عن الشرق والإدريسى عن الغرب .

كان لدى المسلمين الكثير من العوامل التى أدت إلى تطوير معارفهم الجغرافية منها : الإسلام ونظام الحكم وإنشاء الطرق واختراع الأجهزة وظهور طائفة من الجغرافيين ، وما ارتبط بهم من مدارس كان للخرائط فيها شأن كبير ، على نحو ما سوف نعرض له عند حديثنا عن مدرسة البلخى فى بغداد .

فقد كان لانتشار الإسلام أثره الكبير على تقدم المعرفة الجغرافية ونهضتها عند المسلمين ، فقد سادت اللغة العربية بانتشاره لأنها لغة القرآن ، وهذا معناه تجانس التعبير عند شعوب المسلمين ، مما ساعد على سرعة التطور والتكامل فى جميع ميادين المعرفة ، كما كان لنظام الصلاة أثره على دراسة طرق تحديد القبلة الذى يتطلب مجهودا فلكيا ، وخفف الإسلام عن بعض الواجبات الدينية بما منحهم من رخص فى الصلاة (التيمم والجمع والقصر) والصوم (فعدة من أيام أخر)[1] . ولاشك أن هذا شجع الكثير من الرحالة من أمثال ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما على القيام برحلاتهم دون انتقاص لشعائر الدين . وكان للحج أثره العظيم على تكامل المعرفة الجغرافية لديهم .. فموسمه فترة فراغ من أعباء الحياة أتاحت فرصا أوسع لتبادل الخبرات بين العرب وغيرهم من أجناس أخرى قدمت من بيئات تمثل مجتمعات ذات نظم متباينة وكانت رحلة الذهاب والإياب إلى ومن أرض الحجاز ، والتى كانت تستغرق وقتا طويلا ، فترات تفرغ لدراسات جغرافية .. كل هذا فى جانب ، والآيات الكونية فى القرآن الكريم ، لها جانب آخر ؛ فقد فرضت على المسلمين التعرف على الكون وأفلاكه مما جذبهم كثيرا إلى متابعة الدراسة الفلكية دون خوف من الخروج على الدين .

نحن لا نشك مطلقا فى أن تنبثق من واقع حياة العرب الرحل ، عناية خاصة بالعلوم الجغرافية دون قصد . وهناك من الآثار العربية ذات الصلة بالمسائل الجغرافية من قبل أن يحين مولد الجغرافيا العلمية لديهم . فبعد أن انتشر الإسلام وأصبح العرب سادة على مناطق واسعة ، كانت قبلا مهادا لحضارات الفرس والروم والهند ومصر والأندلس ، أن حاولت

الحكومات الإسلامية المركزية فى بغداد أو فى غيرها دراسة أحوال البلاد التى كوّنت فى مجموعها ديار الإسلام أو الإمبراطورية الإسلامية لمحاولة تنظيم الحكم فى أرجائها بين حدود الصين فى الشرق وشبه جزيرة أيبريا فى الغرب تنظيما سليما . كما أن الخلفاء المسلمين شجعوا البحث والدراسة والترجمة ، فقد كان المأمون - على سبيل المثال - يعطى وزن الكتاب ذهبا . وكان لنظام الوقف على أعمال الخير بالغ الأثر على تشجيع راغبى الدراسة والعلم فقامت المنافسات العلمية فى مختلف مراكز الثقافة الإسلامية المنتشرة بين أرجاء الوطن الإسلامى الممتد .

ارتبط بامتداد ديار المسلمين ، ظهور الحاجة إلى جهاز للبريد ، فمدت الطرق لكى يكون اتصال الخليفة فى عاصمته وبين عماله فى مختلف الأمصار سريعا ومأمونا . ساعد هذا على ظهور مؤلفات لكثير من الجغرافيين المسلمين ، تعالج موضوع المسالك (الطرق) والممالك (الأمصار) ، من أمثال ابن خرداذبه والإصطخرى وابن حوقل . وطبيعى أن تزدهر التجارة بامتداد الطرق وتأمينها فامتد النشاط التجارى إلى خارج ديار المسلمين ، مما كان عاملا على ازدياد المعارف الجغرافية ، فضلا عن أن هذا الازدهار ووفرة الأموال ، يشجعان على القيام بالمزيد من الرحلات .. وكان للمسلمين فى هذا المجال رواد ومغامرون ، قامت على أخبارهم الأساطير التى يحفل بها الأدب العربى الإسلامى من أمثال السندباد وأسد البحار الذى استفاد فاسكودى جاما كثيرا من درايته الملاحية ، ومن خبراته فى استغلال اتجاه الرياح عندما أراد الذهاب إلى الهند من ساحل مالندى فى شرق إفريقيا بعد دورانه حول رأس العواصف الذى سماه لأول مرة : رأس الرجاء الصالح .

وكانت الخصال الحميدة التى يتمتع بها العربى آنذاك تكسبه الهيبة - فقد كان المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ، ما حبب إليهم الأسفار والرحلات . فأودعوا خلاصة تجاربهم ومشاهداتهم فى قصص رحلاتهم التى تضمنت الكثير من المعلومات عن أنماط الحياة وما يرتبط بها من ظروف جغرافية ، من أمثلتهم : المسعودى وابن حوقل والمقدسى والإدريسى ، الذين كانوا جميعا من صنّاع الخرائط .

لاشك أن معرفة المسلمين لكثير من أجهزة القياس والرصد ، كان له أثره على تقدم الرصد والملاحة ، فصنعوا الأصطرلاب : كان الفزارى - إبراهيم بن حبيب - الفلكى المشهور ، كما قال عنه ابن النديم « أول من عمل الأصطرلاب فى الإسلام » وعرف

المسلمون المزولة ، وتدل القرائن على أنهم توصلوا إلى معرفة البوصلة قبل الصينيين الذين عزوا اختراعها إلى بعض الأجانب ، الذين كانوا على الأرجح من العرب المسلمين .

المعروف تاريخيا أن العرب المسلمين عندما حرروا الإسكندرية من الرومان إبان خلافة عمر بن الخطاب (كان ذلك حوالى عام ٦٤١ م) ، أخذت تعاليم الدين الحنيف فى تحويل الثقافات القائمة نحو اتجاهات جديدة تتوافق معها ، فأزال الإسلام مثلاً عبادة الكواكب من النفوس ، وحرّمها نهائيا ، ووجه دراسات الفلك إلى الغرض العلمى البحت .. ومع هذا ، فقد ظل فريق يعتقد فى الطوالع ، سواء كانوا من الخاصة أو العامة . يقال مثلا إن أبا جعفر المنصور لم يعط إشارة البدء فى بناء بغداد عام ٧٦٢ م إلاّ بعد أن أحيط بالطالع وبعد استشارة النجوم فى أبراجها ، وصنع المسلمون الأصطرلاب ليستخدموه فى عمليات الرصد ، كما استخدم فى تعيين زوايا ارتفاع النجوم والأجرام السماوية على الأفق ، وتطور استخدامه فى حساب الوقت والتعرف على البعد عن دائرة العرض الرئيسية . والمعروف عن الجهاز أنه أقدم الأجهزة التى استخدمت فى تحقيق هذه العمليات على الإطلاق . ومن المعروف أيضا أن هيبارخس الإغريقى كان أول من خطرت له فكرة هذا الجهاز - كان ذلك عام ١٥٠ ق . م - إلا أن الجهاز لم يتحقق إلا أيام أبى إسحق بن حبيب المتوفى عام ٧٧٧ هـ أى بعد ظهور فكرته بما يزيد عن تسعة قرون .

* * *

إذا كانت الجغرافيا قد استرعت الكتاب العرب الذين تناولوا جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها وآثارها ، من أمثال : ابن زياد الكلابى ، والنضر بن شميل ، وهشام الكلبى ، وسعدان بن المبارك ، وأبى سعيد الأصمعى ، فإن غير واحد - على الأقل - من غير هؤلاء من الجغرافيين المسلمين ، قد اقتفى آثار بطليموس . وكان هذا الاقتفاء هو بمثابة نقطة الانطلاق فى ميدان الجغرافيا عند العرب ، وبالذات الجغرافيا الرياضية وميدان الخرائط على وجه الخصوص . مما ذكر عن أعمال هؤلاء ، ما جاء فى دائرة المعارف الفرنسية عن الإدريسى ، أنه « .. يعتبر أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى .. » وقال سيبولد : « .. إن الإدريسى قضى شطراً من حياته فى إعداد أول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة التى لا تختلف كثيرا عما هو معروف فى عهدنا .. » ، وكان من بين خرائطه (الإدريسى) فى كتابه نزهة المشتاق ، خريطة ، أوضح فيها موقع العالم الجديد

على الطرف الغربى للأرض ، وكان ذلك قبل اكتشافه بعدة قرون سبقت عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية . وأكد سارتون : « .. أن كتاب معجم البلدان لياقوت ، منجم غنى جدا للمعرفة ، ليس له نظير فى سائر اللغات .. » كما ترجم تقويم البلدان لأبى الفدا ـ أمير حماة ـ إلى اللاتينية فى القرن الثامن عشر ، وأصبح مرجعا للكثيرين من الجغرافيين الغربيين وعلمائهم . ونشرت مجلة نيوزويك الأمريكية ـ بتاريخ ١٠/ ٤/ ١٩٦٤ ـ أن الدكتور دى لزلى أستاذ البيولوجى (علم الحياة) بجامعة بنسلفانيا ، أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل كريستوفر كولمبس بأربعة قرون .

يهمنا من أمر المدرسة الكلاسيكية التى نحن بصددها والتى سميت بمدرسة البلخى (وأحيانا بمدرسة الكرخى) فى بغداد ، أن نتعرف على خرائطها التى أثير حولها الكثير من الجدل ، من حيث إنها تسير على نمط واحد ، وإنها أى (الخرائط) تتشابه ، كما إنها ليست سوى مجموعة معدلة لخرائط أطلس الإسلام الذى قيل عنه إنه إيرانى الأصل وضع لخدمة الإمبراطورية الساسانية القديمة .. يستند كل من يقول هذا القول إلى ظاهرة واضحة وجلية ، هى أن كل مقاطعة إيرانية ، تظفر بخريطة مستقلة فى حين أن مناطق أخرى أكثر اتساعا من إيران ذاتها ، لها عدد أقل من الخرائط ، وعدلت خرائطه لتتفق مع حاجة المسلمين فى القرن العاشر الميلادى ، لتعطى صورة واضحة عن ديار المسلمين . وبمقارنة خرائط الأطلس المعربة والمعدلة ، بخرائط الأوروبيين وقتئذ ، يتضح أنها على غاية ما تكون من الدقة ، خاصة وإنها خالية تماما من أساليب التزويق والتنميق بصور الحيوان ، وهى الصور التى ازدحمت بها خرائط أوروبا فى نفس الفترة .

من خرائط الأطلس الإسلامية ، خريطة العالم المستديرة ، تميزت بطابع خاص إذ صورت السواحل والأنهار تصويرا هندسيا . وإذا كان أطلس الإسلام يمثل كارتوجرافيا المرحلة الوسطى (الثانية) للكارتوجرافيا الإسلامية ـ وهى المرحلة الأهم فى تاريخ الكارتوجرافية الإسلامية عموما ، فإن الخرائط التى سبقت ظهوره ، تمثل المرحلة الأولى حيث كان التأثير الإغريقى ، وتمثل مدرسة الإدريسى الكلاسيكية ، المرحلة الثالثة والأخيرة لهذا التطور .

* * *

مدرسة أبى زيد البـــلخى
فى بغـــــداد

يرجع الاهتمام بالجغرافية الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، إلى سلسلة من المصنفات الجغرافية تصف العالم الإسلامى ، من طراز (المسالك والممالك) . ظهرت أول مرة على يد أبى زيد البلخى ، وزاد عليه أبو إسحق الفارسى الإصطخرى ، وأضاف إليه وأجاد أبو القاسم بن حوقل بما صحح واستدرك . وبدراسة هذه السلسلة وما يندرج فيها من مصنفات أخرى مماثلة يتبين لنا أن أهم ما تتصف به هو ظاهرة الارتباط وخاصة فى أمرين :

١ ـ ارتباطها بعضها ببعض ارتباطا وثيقا .

٢ ـ ارتباطها بسلسلة من الخرائط تخضع لنظام ثابت لم يتغير ولم يتبدل .

وعلى أساس هذين الأمرين ، وجد الدارسون المبرر الكافى لأن يطلقوا على أصحاب هذه المصنفات الجغرافية ـ ذات الخرائط ، إسما معينا لمدرسة ذات طابع خاص ، هو : المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى .. هذه ناحية ، وناحية ثانية تتمثل فى عمل فنى رائع يتصف بصفات مميزة ، أصبح له اسم خاص به هو : أطلس الإسلام ، الذى يمثل فى ذاته أوج ما بلغته الكارتوجرافيا عند المسلمين طوال هذه الفترة .

من هذا نستخلص ثلاث حقائق :

١ ـ ظهور طبقة من الجغرافيين ذوى أصالة جغرافية ، هم : البلخى والإصطخرى وابن حوقل ، يمثل كل منهم حلقة خاصة من حلقات المدرسة ، لكل حلقة منها صفات معينة وسمات مميزة . وإن كان بعضهم قد تأثر كثيرا بغيرهم من الجغرافيين المسلمين السابقين لهم ، من أمثال ابن خرداذبه والجيهانى وأبى الفرج قدامة بن جعفر .. يضاف إليهم آخر ذو أصالة ، أتم رسالة المدرسة ، هو المقدسى .

٢ ـ ظهور مصنفات جغرافية ذات طابع معين ، يقوم على الوصف ، اتخذت تسميات خاصة مثل : المسالك والممالك وصورة الأرض وصور الأقاليم وأشكال البلدان أو تقويم البلدان أو أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .

٣ ـ ظهور انطلاقة تطورية فى رسم الخرائط ، تتمثل فى مرحلة ذات طابع خاص لم تتغير أسسها ولم تتبدل .. سميت أطلس الإسلام أو أطلس المسلمين .

ومع هذا ، فإن تفاصيل علاقة جغرافيي المدرسة بهذه الحقائق الثلاث لاتزال مبهمة المعالم حتى يومنا هذا ، رغم إن دراسة هذه الحقائق لازمها الكثير من التقدم ، وهذا جعل دى جويه De Geoje الذى بدأ سلسلة مكتبة الجغرافيين العرب والذى يرجع إليه الفضل فى دراسة هذه الحقائق ، عندما حاول إلقاء الضوء على العلاقة بين الجغرافيين الثلاثة : البلخى والإصطخرى وابن حوقل ، يقول : « لعله لم يُعْرَفْ خلط على الإطلاق ، أشد من الخلط الذى يرتبط بأسماء الجغرافيين الثلاثة » .

ودراستنا لهذه المدرسة (بين العرض والتحليل) ، تضعنا أمام أربع نقط جديرة بذلك ، وهذه هى :

أولا : الجغرافيون المسلمون ذوو التأثير على جغرافيي المدرسة .

ثانيا : المصنفات الجغرافية التى ارتبطت بها المدرسة .

ثالثا : أسلوب المدرسة ومنهجها الجغرافى .

رابعا : الخرائط فى نظام أطلس الإسلام .

أولا : الجغرافيون المسلمون ذوو التأثير على جغرافيي المدرسة :

يظهر تأثير كل من أبى القاسم عبيد الله بن خرداذبه ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد ابن نصر الجيهانى ، وأبى الفرج قدامة بن جعفر .. على أسلوب جغرافيي مدرسة البلخى وبالذات على أسلوب ابن حوقل . وسوف نستعرض فيما يلى مدى تأثير الثلاثة عليهم (على جغرافيي المدرسة) .

١ ـ ابن خرداذبه :

أبو القاسم عبد الله بن خرداذبه ، كان جده مجوسيا ، وكان أبوه حاكم طبرستان (جنوب بحر الخزر) . تتلمذ فترة على يد الموسيقى والمغنى إسحاق الموصلى . بلغت مؤلفاته عشرة لا نعرف عنها أكثر من أسمائها ، منها : جمهرة أنساب الفرس ، وكتاب الشراب ، وكتاب الطبيخ ، وكتاب الملاهى ، والأسمار وكتاب فى التاريخ وكتابه : المسالك والممالك ، وهو الذى يعنينا .

كان مقربا إلى بلاط الخليفة العباسى (المعتمد) ، ويبدو أن مكانته فى بلاط الخليفة هيأت له فرصة لتشغل وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال فى إيران . ومن المحتمل أن تكون هذه

الوظيفة هى التى دفعته إلى وضع كتاب حغرافى استجابة لطلب العباسيين ، سماه كتاب المسالك والممالك . وكان أهم ما اعتنى به فيه وصف الطرق ، وبالذات :

- الطريق من بغداد إلى آسيا الوسطى شمالاً .
- الطريق من بغداد إلى الهند جنوبا .
- الطريق البحرى إلى كل من الهند والصين .
- الطريق إلى الأندلس .
- الطريق إلى بيزنطة .
- الطريق نحو الشمال إلى أذربيجان والقوقاز .
- الطريق من بغداد إلى مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية .
- طريق اليهود من أوروبا إلى الهند والصين : طريقان ، أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر والآخر يمر بأنطاكية والفرات .
- طريق التجار الروس إلى الجنوب عبر الدون والفولجا وبحر قزوين .

وتناول فى كتابه موضوع التقسيم الإدارى ، وموضوع الخراج ، ومحاصيل البحار والجزر . كما تحدث عن البوذية فى جاوا ، وعن الطبقات فى الهند ، ووصف مدينة روما عندما تناول الطريق إلى بيزنطة . وذكر فى بداية كتابه ، المعلومات التقليدية عن الجغرافية الرياضية نقلاً عن بطليموس ، كما درس موضوع القبلة ، وتكلم عن العراق كل هذا إلى جانب دراسة ملوك الفرس والروم والترك والصين ، وأنه لم يهمل موضوع تقسيم الأرض وإن كان به الكثير من الأخطاء ، وأوضح فى كتابه عجائب الدنيا ووصف الأبنية المشهورة .

ورغم هذا المجهود الكبير ، لاحظ دارسو مؤلفاته وخاصة طريقة معالجته للمسالك والممالك ، أنها تقوم على اتجاهين هما : المادة الجافة والتمسك بذكر الغرائب والعجائب . يقولون فى ذلك ، إن القارئ لكتابه لا يشعر بتجاوبه مع ما ذكره من معلومات ليجعلها فى قالب متجانس ، فضلا عن أن كتابه يفتقر إلى التبويب . ومع هذا فإن اهتمامه بالرحلات حفظ لنا مادة مفيدة فى وصف الطرق التى كانت قائمة فى زمنه فيما بين ٢٠٥/ ٣٠٠ هـ - ٨٢٠/ ٩١٢ م ، كما لا يمكن نكران تأثير ابن خرداذبة على الجغرافيين من مدرسة البلخى أو غيرهم .. فقد أخذ عنه الكثيرون من أمثال ابن حوقل والمقدسى والجيهانى كما أخذ عنه المسعودى . يقولون ، إن كان ابن خرداذبه لم يستطع تأسيس مدرسة جغرافية ، فإن مادته

الجغرافية التى جمعها وقدمها لنا ، كانت الدعامة القوية التى استند إليها كل من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين .. على نحو ما يؤكده لنا ابن حوقل عن نفسه .

٢ ـ الجيهـــــانى :

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى ، كان وزير أمير خراسان ، وكانت له فلسفته الخاصة ، كما كان على علم بالنجوم والفلك ، كتب عن أصنام الهند وعجائب السند ، وعن الخراج والردة ، وتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم . وعلى الرغم من عدم تفصيله للكور وترتيب الأخبار ووصف المدن ، اعتنى بذكر الطرق وشرح السهول والجبال والأودية والتلال والمساجر والأنهار ، على نحو ما ذكره المقدسى عنه ، الذى يذهب إزاءه مذهبا يغاير ما ذهب إليه نحو ابن خرداذبه .. يقول : إن ابن خرداذبه كان المصدر الأول للجيهانى ، ويقول فى ذلك : « ألا ترى أنك إذا نظرت فى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه .. » إلى أن يقول : « .. وبناه عليه » ، ويقول فى موضع آخر« .. رأيت مختصرين بنيسابور مترجمين أحدهما للجيهانى والآخر لابن خرداذبة ، تتفق معانيهما ، غير أن الجيهانى قد زاد شيئا يسيرا » ، ويبدو أن المقدسى سلك مسلك المتشدد إزاءه ، مع أن المسعودى يقف منه موقفا مغايراً هو أقرب إلى اللين ، فيقول فى ذلك : « .. ألف كتابا فى وصفه العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم ، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة » .

ونستطيع رغم الإيجاز الذى أشار إليه المقدسى والمسعودى عن الجيهانى ، أن نحدد النمط الذى ينتمى إليه ، فهو على الرغم من أنه من الوسط الذى نشأت فيه أول حلقة من حلقات المدرسة ، فإنه لا ينتمى إليها لارتباطه بمدرسة الجغرافيا الرياضية على شاكلة جغرافية بطليموس المصرى . فقد قسّم العالم سبعة أقاليم عرضية تنتظم الأرض من الشرق إلى الغرب ، أى أن أقاليم الجيهانى تختلف عن مفهوم أقاليم مدرسة البلخى التى اعتبرتها وحدات سياسية فى صورة الممالك والأمصار .. هذه ناحية والناحية الثانية ، هى اهتمامه البالغ بالبلاد الأجنبية ، وذلك على عكس ما ارتبطت به مدرسة البلخى من الاهتمام أساسا بديار المسلمين .. والناحية الثالثة اهتمامه بالعجائب والغرائب كمظهر مميز لأسلوبه الجغرافى .

نسبت إلى الجيهانى المعلومات الحافلة عن شرق أوروبا وغيرها ، وكان كتابه مصدرا أساسيا عن الأقطار الخارجية عن ديار المسلمين والقريبة منهم . اعترف المقدسى ، أنه كان نسيطا فى جمع المعلومات عن الأقطار المجاورة لخراسان خاصة وادى السند وبلاد الهند . وهى المعلومات التى كانت المصدر الوحيد ، والمنفذ الأساسى للشريف الإدريسى - فيما بعد - عن هذه البلاد .

وأخيرا يمكننا أن نستخلص من كتاباته ، نهجه الجغرافى ، الذى قام أساسا على الوصف . بمعنى أنه انتحى نحو الجغرافيا الوصفية وذلك فى ضوء ما قدمه من الوصف الذى تضمنته معلوماته المتنوعة . لهذا نجد مصنفه الجغرافى يتخذ عنوانا مغايرا بعض الشىء ، وإن كان لايزال قريبا من التسمية التى لازمت مصنفات المدرسة فهو كتاب : المسالك فى معرفة المالك . ويظهر العنوان نفسه طبيعة الجيهانى بالعناية بشئون الطرق ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ... وعلى هذا نقول ، إن كتابه يستحق اهتماما خاصا ، وإن العثور عليه - على أصوله ، لأن ما ذكر عن كتابه ، مأخوذ عن غيره - سيكون من شأنه إلقاء الضوء على مسائل عديدة فى ميادين الأدب الجغرافى الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى .

٣ - قدامة بن جعفر :

آرامى ينتمى إلى أسرة مسيحية أقامت فى البصرة ، كانت مقربة إلى العباسيين . اعتنق الإسلام على يد الخليفة المكتفى ، فانفسح المجال أمامه إلى المناصب الرئيسية حتى إنه شغل فى أواخر أيامه منصب صاحب البريد - وهذا هو وجه الشبه بينه وبين ابن خرداذبه ، كما يذكرنا بارتباط ميوله ونشاطه به .

وقدامة ، وإن لم يكن له مصنّف جغرافى بالمعنى الدقيق ، فإنه فى كتابه : الخراج وصنعة الكتابة - الذى أتمه عام ٩٢٨ م ، يولى فى أحد أجزائه اهتمامه بوصف طرق البريد ووصف الولايات ، مع ذكره - إلى جانب ما ذكره من معلومات هامة عن تقسيم الأرض لتقدير وجباية الخراج . هذا الاتجاه ، يذكرنا أيضا بكتاب ابن خرداذبة . وأنه إلى جانب هذا كله ، تناول تاريخ الفتوحات الإسلامية ، مستندا فيما كتب إلى البلاذرى .

لاحظ الدارسون ، من كتابات قدامة بن جعفر ، أنه أورد معلومات جغرافية ذات قيمة عن وصف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة .. ولاحظوا أيضا اتجاهه إلى الجغرافيا الرياضية مع اهتمامه الزائد بجيران ديار المسلمين ، محاكيا أسلوب الجيهانى كما يميلون إلى اعتبار الجزء

المطبوع من كتابه ، خاصة المقدمة ، تتمة ذات قيمة لابن خرداذبة ، فهو إلى جانب اعتماده فى كتاباته على الوثائق ، اهتم بتقليد أصحاب الخرائط .. لهذا قالوا عنه : إنه تتمة ذات قيمة لأعمال ابن خرداذبة .

ثانيـــا : المصنّفات الجغرافية التى ارتبطت بالمدرسة :

تتمثل هذه المصنفات فى ثلاثة ، لثلاثة من الجغرافيين .. هى : مصنّف أبى زيد البلخى ، ومصنّف أبى إسحق الإصطخرى ، ومصنّف أبى القاسم بن حوقل .. يضاف إليها مصنّف أبى عبد الله المقدسى . ويمثل كل مصنّف من هذه المصنفات الثلاثة (البلخى والإصطخرى وابن حوقل) حلقة من حلقات المدرسة .. مع إنه يجمع بينها نوع من الترابط ، الذى يؤدى إلى الخلط ، الذى وصفه دى جويه بقوله : « إنه لم يعرف خلطا على الإطلاق أشد من الخلط المرتبط بأسماء الثلاثة » وذلك على نحو ما سبقت لنا الإشارة إليه أكثر من مرة . ونحن نحاول هنا ، إلقاء بعض الضوء على هذه المصنفات ، مع الفترات الهامة من حياة مؤلفيها ، وبالذات مصنّف كل من الإصطخرى وابن حوقل .

١ ـ مصنّف أبى زيد البـــلخى :

يذكر كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليانوفتش) فى كتابه : الأدب الجغرافى العربى ، أن المصنف الذى تبدأ به السلسلة : سلسلة المسالك والمالك ، ندين به إلى عالـم معـروف لعصره ، هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى . ولد عام ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م بإحدى قرى بلخ . كانت بداية نشاطه معلما ، وساقه الاهتمام بالعلوم الشرعية إلى الارتحال إلى بغـداد ـ مركز الحضارة الإسلامية آنذاك ، فأقام بها ثمان سنوات ، أدى خلالها فريضة الحج .. إلا أن الحال لم يدم على هذه الصورة .. إذ لم تلبث ميوله أن اتخذت اتجاها مغايرا لما كان عليه فى شبابه . فقد وقع تحت تأثير الفيلسوف الكندى (المتوفى عام ٨٧٠ م) وأصبح من ألزم تلاميذه له . وبعد أن عاد إلى بلخ لم يغادرها مرة أخرى ، حيث تفرّغ للاشتغال بمسائل الفلك والفلسفة ، تماما كأستاذه الكندى ، ويقولون : إنه بالتالى ضعفت لديه اهتماماته بعلوم الشريعة ، بل ثار الشك حينا فى صحة عقيدته .

قامت بينه وبين الجيهانى ، الجغرافى ، الذى كان وقتئذ وزيراً للسامانيين ، علاقة وثيقة لدرجة أن نصحه بالمجىء إلى بخارى ، ومع امتناع البلخى عن تحقيق هذه النصيحة ، فقد

طوّقته رعايته حينا من الدهر . شغل البلخى ، فترة من حياته كاتبا لأمير بلخ ـ أحمد بن سهل ـ واعتبر نفسه عالما وأديبا ، ومن المشتغلين بالتأليف ، وارتبط اسمه بما يقرب من ستين مؤلفا ، لا نعرف منها حاليا إلاّ أسماءها ، وهى ربما تتواجد فى مخطوطات نادرة ، لم تفحص بعد .

وضع البلخى مصنفه فى شيخوخته (فيما بين عامى ٣٠٨/ ٣٠٩ هـ ـ ٩٢٠/ ٩٢١ م) ، اختلفت أسماؤه باختلاف المصادر ، فهو : صورة الأقاليم أو أشكال البلاد أو تقويم البلدان . ويدل التباين فى إسم المصنف ، على أن الكتاب لم يكن فيما يبدو معروفا فى صورته الأصلية حتى عهد قريب من حياة المؤلف نفسه . وحقيقة مصنفه ، إنه أقرب ما يكون إلى الأطلس المصحوب بالتوضيحات ، ونحن نطمئن كثيراً عندما نعتمد على ما كتبه المقدسى ، للتعرف عليه (المصنف) ، مع أن المقدسى عاش بعده بنصف قرن ، ومع هذا لاتزال كتابته (المقدسى) ، المصدر الأساسى للتعرف عنه ، يقول المقدسى : « .. وأما أبو زيد البلخى ، فإنه قصد بكتابه ، الأمثلة وصورة الأرض بعد ما قسمها على عشرين جزءا ، ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب ، وترك كثيرا من أمهات المدن ، فلم يذكرها وما دوّخ البلدان ولا وطئ الأعمال .. ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به ، فلما بلغ جيحون كتب إليه : إن كنت استدعيتنى لما بلغك عن صائب رأيى ، فإن رأيى يمنعنى عبور هذا النهر ، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ .. » .

إن كان من العسير علينا استخلاص تفصيلات وافية من مثل هذا التحليل الموجز فإنه فى ذاته يحيطنا بالشكل العام لكتاب البلخى ، بما أدخل عليه مؤخرا من تعديلات .. فلايزال الغموض الشديد يكتنف تاريخها ، أو بما أبدى عليه من ملاحظات من المقدسى . على ضوء هذا يمكن القول بأن أصل الكتاب كان نادراً حتى فى عصر صاحبه .. حتى إن ياقوت نفسه رغم أنه كان يعرفه ، فإنه يقتصر على الإشارة إلى الإصطخرى بمفرده .. ويقولون : ولعله وجد مسودة واحدة للكتاب ، اعتبر منها فقط أجزاء متفرقة قديمة ترجع إلى البلخى . وثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التى نسبت إلى البلخى ، أيضا تمثل فى الحقيقة مسودات لكتاب الإصطخرى أو كتاب ابن حوقل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ مصنف أبى إسحق الإصطخرى :

سافر الإصطخرى كثيرا ، فزار بلاد ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر . عنون كتابه على الطريقة المعروفة : المسالك والممالك ، وأنهى آخر مسودة فيما بين عامى ٩٣٠/ ٩٣٣ م ، والبلخى لايزال على قيد الحياة .

تعرّفنا عليه بأنه أبو إسحق الفارسى ، من إصطخر (باسيليوس) من أعمال فارس اهتم كثيراً كبقية جغرافيى المدرسة ، إن لم يكن اهتمامه قد اقتصر فعلا على وصف بلاد الإسلام ، فتناول أجزاءها بالدراسة ، كما قدّم لنا عن كل قطر كثيرا من المعلومات ، عن : الحدود والمدن والمسافات والمواصلات .. مع روايته لتفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة والأجناس .. وإن كانت هذه التفاصيل فى بعض الأحيان موجزة ، ومع هذا كانت ذات أهمية ، على نحو ما ذكره هو لنا عن صقلية وجزيرة القلال (فراكسينيتم Fraxinetum) المواجهة للساحل الفرنسى والتى احتلها العرب بين عامى ٨٨٢ ـ ٩٧٢ م ، وما ذكره أيضا عن الصقالبة . ورغم إيجازه فيما ذكره ، فقد كان عظيم القيمة .

يوضح لنا كراتشكوفسكى قيمة مصنف الإصطخرى بما ذكره عنه ، يقول : « لقد كان لكتاب الإصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد الأدب العربى وحده ، فللكتاب عدد من الترجمات الفارسية ترتقى إلى المسودة الأولى ، مما دعا إلى ظهور الرأى القائل بأن الإصطخرى كتب فى الأصل بالفارسية . وامتد التأثير الفارسى على المصنف فترة طويلة حتى القرن الخامس عشر .. هذا ، وظهرت ترجمة تركية له بعد خمسة قرون من حياته ، فى عصر السلطان محمد الثالث حوالى ١٥٩٦ م » .

وبالاطلاع على مصنف الإصطخرى : المسالك والممالك ، الذى نشرت له وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى مصر طبعة جديدة عام ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م بتحقيق الدكتور جابر الحينى ومراجعة المرحوم محمد شفيق غربال ، فى سلسلة : تراثنا نجده يقول عن طريقته فى دراسة ديار الإسلام : « أما بعد ، فإنى ذكرت فى كتابى هذا .. أقاليم الأرض .. على الممالك ، وقصدت منها بلاد الإسلام ، وتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمت الأرض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة (أى لها خريطة) ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن ، وما فى أصقاعه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك

الإقليم .. لأن الغرض من كتابى هذا تصوير هذه الأقاليم .. أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات وسائر ما أنا ذاكره ، فقد يوجد فى الأخبار ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شيء من ذلك من أهل كل بلد ، فلذلك تجاوزنا ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره .. » .

ونجده يتناول ، صورة الأرض ، فيقول فى مقدمته : « فاتخذت الأرض ، التى يشمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك ، صورة إذا نظر إليها ناظر ، علم مكان كل إقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعضه ، ومقدار كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا ، علم موقعه من هذه الصورة . ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حده ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع من المدن وسائر ما يحتاج إليه ، مما آتى على ذكره فى موضعه ، إن شاء الله » .

ويعرفنا فى مقدمة كتابه تفاصيل أسماء بلاد الإسلام ، فيقول : « .. ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما ، وابتدأت بديار العرب ، فجعلتها إقليما ، لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم ، ثم اتبعت ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر بلاد العرب ، ثم ذكرت المغرب ، حتى انتهيت إلى مصر فذكرتها ، ثم ذكرت الشام ثم بحر الروم ، ثم الجزيرة ، ثم العراق ، ثم خوزستان ، ثم كرمان ، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند وأذربيجان وما يتصل بها ، ثم كور الجبال ، ثم الديلم ، ثم بحر الخزر ، ثم المفازة التى بين فارس وخراسان ، ثم سجستان ، وما يتصل بها ، ثم خراسان ، ثم ما وراء النهر .. » .

بيّن لنا الإصطخرى وجهة نظره فى تقسيم الأرض ، يقول : « .. فهذه صورة الأرض ، عامرها والخراب منها ، وهى مقسومة على الممالك ، وعماد ممالك الأرض أربعة : فأعمرها وأكثرها خيرا وأحسنها استقامة فى السياسة ، وتقويم العمارات فيها ، مملكة إيرانشهر وقصبتها إقليم بابل ، وهى مملكة فارس . وكان حد هذه المملكة فى أيام العجم معلوما ، فلما جاء الإسلام أخذ من كل مملكة بنصيب .. فأخذ من مملكة الروم : الشام ومصر والمغرب والأندلس ، وأخذ من مملكة الهند : ما اتصل بأرض المنصورة والملتان إلى كابل وطرف أعلى طخارستان ، وأخذ من مملكة الصين : ما وراء النهر . فمملكة الروم تدخل فيها حدود الصقالبة وما جاورهم من الروس والسرير واللان والأرمن ، ومن دان بالنصرانية . ومملكة

الصين ، تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم . ومملكة الهند ، تدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدينهم ، ولم نذكر بلد السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم ، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولاحظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك ، غير إن بعض السودان ، مثل النوبة والحبشة نصارى يرتسمون مذاهب الروم ، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم ، فهذه الممالك المعروفة وقد زاد مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من أطراف هذه الممالك » .

وبيّن لنا وجهة نظره فى تقسيم الأرض بقوله : « .. قسمة الأرض على الجنوب والشمال موضحا : « .. فإذا أخذت من الشرق ، من الخليج الذى يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين للخليج الذى يأخذ من هذا البحر المحيط من أرض المغرب بأرض الأندلس فقد قسّمت الأرض قسمين ، وخط هذه القسمة يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلاد السند ووسط مملكة الإسلام حتى يمتد إلى أرض مصر ، إلى المغرب . فما كان فى جهة الشمال من هذين القسمين ، فأهله بيض ، وكلما تباعدوا فى الشمال ازدادوا بياضا ، وهى أقاليم باردة .. وما كان يلى الجنوب عن هذين القسمين فأهله سود ، وكلما تباعدوا فى الجنوب ازدادوا سوادا ، وأعدل هذه الأماكن ما كان فى الخط المستقيم وما قاربه » .

تناول تحديد ديار الإسلام والممالك المحيطة بها ، يقول : « .. فأما مملكة الإسلام ، فإن شرقيها : أرض الهند وبحر فارس ، وغربيها مملكة الروم وما يتصل بها من الأرض واللان والران والسرير والخزر والروس وبلغار والصقالبة وطائفة من الترك ، وشمالها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الأتراك ، وجنوبها بحر فارس » .

وتناول تحديد الممالك المحيطة بديار الإسلام : الروم والصين والهند . يقول فى تحديده لمملكة الروم : « وأما مملكة الروم ، فإن شرقيها بلاد الإسلام وغربيها وجنوبيها ، البحر المحيط ، وشماليها ، حدود الصين ـ لأنا ضممنا ما بين الأتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الأمم إلى بلد الروم » . وبالنسبة لمملكة الصين ، يقول : « .. وأما مملكة الصين ، فإن شرقيها وشماليها ، البحر المحيط ، وأما جنوبيها فمملكة الإسلام والهند ، وأما غربيها فهو البحر

المحيط . إن يأجوج ومأجوج وما وراءهم إلى البحر ، من هذه المملكة .. » وحدد أيضا أرض الهند ، يقول : « .. وأما أرض الهند ، فإن شرقيها بحر فارس ، وغربيهـا وجنوبيهـا بلاد الإسلام وشماليها مملكة الصين » .

تناول الإصطخرى دراسة البحار على الأرض ، من حيث الاتساع والأبعـاد مقـدراً بالمراحل ـ المرحلة ، هى المسافة التى يقطعها السائر فى نحو يوم . يقول : « .. وأما البحار فأعظمها بحر فارس وبحر الروم ، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط ، وأعظمها طولاً وعرضا بحر فارس الذى ينتهى إليه بحر فارس من الأرض من حد الصين إلى القلزم . فإذا قطعت من القلزم إلى الصين على خط مستقيم ، كان مقداره مائتى مرحلة ، وذلك لأنك إذا قطعت من القلزم إلى أرض العراق فى البرية ، كان نحوا من شهر ، ومن العراق إلى نهر بلخ نحوا من شهرين ، ومن بلخ إلى آخر الإسلام (يقصد آخر بلاد الإسـلام فى نفس الاتجاه) فى حد فرغانة ، نيفا وعشرين مرحلة ، ومن هناك إلى أن تقطع أرض الخزلجية كلها فتدخل فى عمل التعزغز ، نيف وثلاثون مرحلة ، ومن هذا المكان إلى البحر من آخر عمل الصين ، نحو شهرين . فأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم إلى الصين فى البحر طالت المسافة عليه لكثرة المعاطف والتواء الطرق فى البحر .

وأما بحر الروم : فإنه يأخذ من البحـر المحيط فى الخليج الـذى بـين المغـرب وأرض الأندلس ، حتى ينتهى إلى الثغور الشامية ومقداره فى المسافة نحو من سبعة أشهر وهو أحسن استقامة واستواء من بحر فارس ، وذلك لأنك إذا أخذت من فم الخليج ، ادّتك ريح واحدة إلى آخر هذا البحر . وبين القلزم الذى هو لسان بحر فارس ، وبين بحر الروم على سمت الفرما ، أربع مراحل ، غير أن بحر الروم ، يجاوز الفرما إلى الثغور بنيف وعشرين مرحلة . فمن مصر إلى أقصى المغرب ، نحو مائة وثمانين مرحلة ، فكان ما بين أقصى الأرض من المغرب إلى أقصاها من المشرق نحو أربعمائة مرحلة ، أمّا عرضها من أقصاها فى حد الشمال إلى أقصاها فى حد الجنوب ، فإنك تأخذ من ساحل البحر المحيط حتى تنتهى إلى أرض يأجوج ومأجوج ثم تمر على ظهر الصقالبة وتقطع أرض بلغار الداخلة ، وتمضى فى بلد الروم إلى الشام وأرض مصر والنوبة ثم تمتد فى برية بلاد السودان وبلاد الزنج حتى تنتهى إلى البحر المحيط ، وهذا خط ما بين جنوب الأرض وشمالها ، فأما الذى أعلمه من مسافة هذا الخط أنّ من ناحية يأجوج إلى ناحية بلغار وأرض الصقالبة نحواً من أربعين مرحلة ، وبين أرض الشام

إلى أرض مصر نحواً من ثلاثين مرحلة ، ومنها إلى أقصى النوبة نحوا من ثمانين مرحلة حتى تنتهى من هذه البرية .. فذلك مائتان وعشر مراحل ، كلها عامرة . وأما ما بين يأجوج والبحر المحيط فى الشمال ، وما بين برارى السودان والبحر المحيط فى الجنوب ، فقفر خراب ، ما بلغنا أن فيه عمارة ولا أدرى مسافة هاتين البريتين إلى شط البحر المحيط كم هى ؟ ، وذلك أنّ سلوكها غير ممكن لفرط البرد الذى يمنع من العمارة والحياة فى الشمال ، وفرط الحر المانع من الحياة والعمارة فى الجنوب ، وأما ما بين الصين والمغرب فمعمور كله » .

يوضح الإصطخرى فى كتابه فكرته عن شكل الأرض وتحديد البلدان ، يقول : « .. والأرض كلها مستديرة ، والبحر المحيط محتف بها كالطوق ، ويأخذ بحر الروم وبحر فارس من هذا البحر ، فأما بحر الخزر فليس يأخذ من هذا الخليج ، وإنما هو بحر لو أخذ السائر على ساحله من الخزر على أرض الديلم وطبرستان والمفازة لرجع إلى مكانه الذى سار منه من غير أن يمنعه مانع إلا نهر يقع فيه . وأما بحر خوارزم فكذلك (يقصد بالنهر الذى ينتهى ببحر الخزر نهر الفولجا ويقصد ببحر خوارزم بحر آرال) .

ومن أعراض بلاد الزنج ومن وراء أرض الروم خلجان وبحار لم نذكرها لقصورها عن هذه البحار ولكثرتها . ويذكر عن البحر الأسود والمضايق : « .. ويأخذ من البحر المحيط خليج ينتهى فى ظهر بلاد الصقالبة ، ويقطع أرض الروم على القسطنطينية حتى يقع فى بحر الروم . وأرض الروم حدها من البحر المحيط على بلاد الجلالقة وإفرنجة ورمية وأشيناس إلى القسطنطينية ثم أرض الصقالبة ، ويشبه أن يكون نحوا من مائتين وسبعين مرحلة وذاك أن الثغور فى الشمال إلى أرض الصقالبة ، نحو من شهرين » . وأوضح أيضا حدود الصين والأتراك وكيماك ويأجوج وبلاد الصقالبة والخزر والتبت وحدود السودان وأرض النوبة وأرض البجة والحبشة وأرض الزنج وأرض الهند ومملكة الإسلام التى يذكر فى تحديدها : « .. وأما مملكة الإسلام فإن طولها فى حد فرغانة حتى تقطع خراسان والجبال والعراق وديار العرب إلى سواحل اليمن ، نحو من خمسة أشهر . وعرضها من الروم حتى تقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط فارس ، نحو من أربعة أشهر . وإنما تركنا أن نذكر فى طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس ، لأنها مثل الكم فى الثوب ، وليس فى شرقى المغرب ولا غربيها ، إسلام .. لأنك إذا جاوزت مصر فى أرض المغرب ، كان جنوب المغرب بلاد السودان ، وشمالى المغرب بحر الروم ولو صلح أن نجعل طول الإسلام من فرغانة إلى أرض

الأندلس ، لكان مسيرة ثلاثمائة وعشر مراحل ، لأن فى أقصى فرغانة إلى وادى بلخ نحوا من خمسين مرحلة ، وقد بيننا فى مسافات المغرب أن من مصر إلى أقصاه مائة وثمانين مرحلة » .

وأخيرا يوضح القصد من كتابه فيقول : « .. وقصدت من كتابى هذا تفصيل بلاد الإسلام ، إقليما إقليما ، حتى يعرف موقع كل إقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الأقاليم . ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من تعداد الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وما يكون عليه أشكالها .. غير أنا بينا لكل إقليم مكانا يعرف به وصفه وما يجاوره من سائر الأقاليم ثم أفردنا لكل إقليم منها صورة على حدة ، فبيّنا فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما نأتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله » ... وهكذا فعل .

٣ ـ مصنف أبى القاسم بن حوقـــل :

صاحبه هو أبو القاسم محمد بن على الموصلى الحوقلى البغدادى ، من مدينة نصيبين بالجزيرة . يتضح من كتابه ـ على نحو ما يذكره بنفسه فى مقدمة مصنفه أنه اتخذ التجارة مهنة ، ولكنه كان على ما يبدو داعيا سياسيا ، زار الكثير من شمال إفريقيا والأندلس ونابلس وبالرمو وعرف العراق وإيران وجزءا من الهند .

يقولون عنه ، إن اهتمامه بالجغرافيا ظهر مبكراً لديه ، ويوعزون ذلك إلى مقابلته للإصطخرى ، كما يقولون أيضا ، أنه أخذ كتاب الإصطخرى وأضاف عليه ، وإن كان التغير قد أصاب بعض أجزائه على نحو ما جاء فى الأجزاء الخاصة بمصر وإفريقيا وأسبانيا وصقلية . كما عدّل فى الأجزاء الخاصة بالعراق وإرمينيا وما وراء النهر ، فى حين ترك الأجزاء الخاصة بإيران كما هى . يقولون : إن ابن حوقل ترسّم خطا السابقين له فى تنظيم كتابه ، وإنه فاقهم فى عرض مادته عرضاً دقيقا ومفصلاً ، مع العناية بتوضيح بعض النقط الجوهرية فيه .

تأثر ابن حوقل كثيرا بكل من ابن خرداذبه وأبو الفرج قدامة بن جعفر والإصطخرى ، يقول هو فى ذلك عن نفسه : « .. وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر » . ويقول أيضا « .. ولقيت أبو إسحق الفارسى » .. ويأخذ فى سرد تفاصيل هذه المقابلة التى نستشف منها أنه أخذ كتاب الإصطخرى ، وأضاف عليه ،

يقول فى ذلك « .. وقال (يقصد الإصطخرى) قد نظرت فى مولدك وأثرك ، وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا حيث ضللت ، فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه » . ويقول أيضا :

« .. ثم رأيت أن انفرد بهذا الكتاب - يقصد كتابه المسالك والممالك - (صورة الأرض) - وإصلاحه وتصويره ، من غير أن ألم بتذكرة أبى الفرج ، وإن كانت حقا بأجمعها ، وصدقا من سائر جهاتها ، وقد كان يجب أن أذكر منها طرفا فى هذا الكتاب ، لكن استقبحت الاستكثار بما لقب فيه سواى ونصب فيه غيرى » .. هذا يؤكد اعتماده على كتب غيره ، أو أنه اضطر إلى هذا القول كنوع من الحرص والاحتياط ، خشية أن يلام فيه ، ويوصف بأنه ناقل عن غيره .. هكذا كان فى مصنفه ، الذى عرّفه لنا بقوله : « .. هذا كتاب المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك ، وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والزمان ، وطبائع أهلها وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وحراجاتها ومستغلاتها ، وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجار ، مع ما يضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار » .

رفع ابن حوقل المسودة الأولى لمصنفه إلى سيف الدولة الحمدانى المتوفى عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م ، وترجع المسودة الثانية إلى عشر سنوات تالية ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وظهرت مخطوطة ثالثة ترجع إلى ٤٧٩ هـ / حوالى ١٠٩٠ م ، لذا يميل البعض ومنهم كرامرس إلى التأكيد بتواجد ثلاث مسودات لكتاب ابن حوقل ، تظهر بين الأولى والثالثة بعض الفوارق . هذا ونشرت مكتبة الحياة فى بيروت أخيراً ، كتاب ابن حوقل بعنوان : كتاب صورة الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبى ... فى قسمين وضمهما مجلد واحد ، يتناول القسم الأول ، مقدمة الكتاب وأجزاء من العالم الإسلامى ويتناول القسم الثانى بقية ديار الإسلام ، وأخيرا الخاتمة . وقدمت الدار للكتاب فقالت : وابن حوقل هذا ، عاش فى القرن العاشر ، وهو واحد من أولئك التجار الرحالة المثقفين الذين اتخذوا التجارة وسيلة لتفهم خصائص الأقاليم وطبائع الشعوب وتدوين ما يتعرفون عليه من ميزات الناس ونوادرهم وغرائبهم . اطلع ابن حوقل على كتاب المسالك والممالك لأبى إسحق الفارسى المعروف بالإصطخرى ، فكتبه من جديد محتفظا بعنوانه ونسبه إلى نفسه ، وقد أفاد غير واحد ممن جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين من كتابه لاسيا ياقوت فى معجم البلدان ... وتستمر الدار فى تقديمها فتقول : طبع

هذا الكتاب مرتين فى ليدن . نشرت الطبعة الأولى باسم المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . والثانية ، حسّنت الطبعة ونشرت بعنوان صورة الأرض .

يقول أبو القاسم فى مقدمة مصنفه : « .. وقد جعلت له كتابى هذا بصفته أشكال الأرض ومقدارها من الطول والعرض ، وأقاليم البلدان ، وكل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرّد بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض ، لأن الصورة الهندية (يقصد الخريطة التى بالقواذيان) ، وإن كانت صحيحة ، فكثيرة التخليط . وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكى موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار ، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات فى الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات ، إذ ذلك علم ينفرد به الملوك الساسة وأهل المروّات والسادة من جميع الطبقات . وكان مما حضّنى على تأليفه ، وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه ، أنى لم أزل فى حال الصبوة ، شغفا بقراءة كتب المسالك متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق ، وكمية وقوع ذلك فى الهمم ، والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة ، والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتابا مقنعا ، وما رأيت فيها رسما متبعا ... فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطاقى فيه وجوها من القول والخطاب ، وأعاننى فيه تواصل السفر وانزعاجى عن وطنى مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر ، والشهوة بلوغ الوطر ، بجور السلطان وكلب الزمان وتواصل الشدائد على المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان ، وكثرة الجوائح والنوائب وتعاقب الكلف والمصائب ، واختلال النعم وقحط الديم .

فبدأت سفرى هذا من مدينة السلام ، يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان ، سنة إحدى وثلاثمائة ، وفيه خرج أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان منهزما عنها إلى ديار ربيعة من أيدى الأتراك ، وقد عملوا على القبض عليه بعد أن استتبت له الأمور بها ، واتسعت به الأحوال فيها ، وشرفت به الأعمال وتناهى فى الصولة ولقب بناصر الدولة . وأنا من حداثة السن وغرته ، وفى عنفوان الشباب وسكرته ، قوى البضاعة ، ظاهر الاستطاعة .

وقد ذكرت فى آخر كتابى هذا ، كيف تعاورتنى الأسفار واقتطعتنى فى البر دون البحر ، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعها فى طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووضعت رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها من ذوى السلطان وأهل الإمكان ، والمقدمين فى كل ناحية وبلد بالإحسان ، إلى ذكر النادرة بعد النادرة من محاسنهم والفضيلة بعد الفضيلة من مكارمهم . ولم استقص ذلك ، كراهية الإطالة المؤدية إلى ملال قارئه لأن الغرض من كتابى هذا ، تصوير هذه الأقاليم التى لم يذكرها أحد ، علمته ممن شاهدها . فأما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات فيها وبعض ما أنا ذاكره ، فقد يوجد فى الأخبار متفرقا ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شىء من ذلك من سافرة أهل كل بلد ، وإن كانت المتعصبة للبلدان والقبائل جارية على خلال ما توخيته وشرعت فيه ورسمته ، من قصدها لحقائقها وإيرادها على ما هى عليه من طرائقها » .

هكذا يحصر ابن حوقل اهتمامه ، شأنه فى ذلك شأن ممثلى المدرسة فى الوصف (وصف دار الإسلام) ، مع أنه كان يتجاوز فى حالات معينة نطاقها ، فذكر مثلا هزيمة الروس للبلغار والخزر فى حوالى ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م وقتما كان المؤلف نفسه فى جرجان .

يؤكد كراتشكوفسكى فى كتابه : يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافيى المدرسة فى شئون المغرب ، ففى إحدى مخطوطات كتابه يورد وصفا مفصلا لمنطقة البجة وتاريخهم وتاريخ إريتريا مع ذكر أسماء لما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر ، كما وصف الواحات وأورد وصفا مفصلا لموقع صقلية . وكثيرا ما انعكست المصالح التجارية لابن حوقل فى تضاعيف كتابه . وتقدم المادة التى جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامى .. يذكر أنه التقى فى سجلماسة فى جنوب مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة ، وأنه أبصر صكا بدين على أحد سكان واحة أودغشت بداخل إفريقيا قيمته اثنان وأربعون ألف دينار .

الملاحظ أن الميول السياسية لابن حوقل كانت تبرز من وقت لآخر ، فله موقفه من الأمويين فى الأندلس ... فيقدم أدق صورة للأندلس خلال العصر الأموى فأورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الأندلس وبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب وإلى مصر . ويرى فيه البعض أنه كان جاسوسا للفاطميين فى حين يرى فيه البعض الآخر أنه كان أحد عملاء العباسيين . كانت له معرفة طيبة بتجار الرقيق الأوروبيين ، لهذا لم يكن غريبا أن

يكتسب كتابه صيتا فى المغرب وبخاصة فى الأندلس على الرغم من تقديمه صورة سلبية عن شجاعة أهلها ـ أوسع مما اكتسبه فى المشرق . لا ينفى ابن حوقل الجانب الإيجابى لحضارة الأندلس التى وصف حاضرتهم ببغداد الثانية . ولعل سلبية أهل الأندلس ـ على نحو ما ذهب إليه هو ـ كانت سببا فى مهاجمة المؤرخ والجغرافى الأندلسى ابن سعيد فيما بعد فى أواخر القرن الثالث عشر لآراء ابن حوقل ، وحفزه إلى أن يكمل كتاب ابن حوقل فيما يتعلق بالأندلس وصقلية وأسبانيا الغربية .

وأخيرا ، فإن ابن حوقل ، يقدم دليلا قويا على محاولة المدرسة أن تقصر موضوعها على ديار الإسلام . نحن نعلم أن ابن خرداذبة واليعقوبى وابن الفقيه وابن رستة والمسعودى وغيرهم ، اهتموا بوصف ديار الإسلام ، إلا أنهم لم يكونوا فى منهجهم قاصرين على ديار الإسلام ، فخرجوا عنها إلى غيرها من البلدان ، هذه ناحية .. وناحية أخرى ، أنهم أعطوا اهتماما كبيرا لقصص العجائب والغرائب .. فى حين تميّزت المدرسة وتميّز جغرافيوها بأنهم كانوا أكثر تشددا وتمسكا بالمنهج العلمى ، كما كانوا أميل إلى تحديد أفقهم الجغرافى بحدود ديار المسلمين .

ولا يمكننا أن نترك المدرسة ، دون أن نتناول جغرافيا آخر ذا فضل كبير على المدرسة ، ذلك هو أبو عبدالله المقدسى ، ومصنفه : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وهو بحق يمثل آخر الممثلين الكبار لها .

٤ ـ مصنف أبى عبد الله المقدسى :

قام به شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البنّاء الشامى البشارى من أهل فلسطين . ولد فى بيت المقدس عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ ـ ٩٤٧ م . حفيد بنّاء اشتهر ببنائه ميناء عكا فى عهد أحمد بن طولون ، ومن هنا كانت ميوله المعمارية الموروثة عن جده والتى نلمسها بوضوح فى كتاباته . يسرت له عوامل النسب والقرابة التعرف على مصنف ديار الإسلام (كان أبوه من فلسطين ، وكانت أمه بالقرب من خراسان) ودفعه ولعه بالأسفار إلى زيارة جميع أنحائها ، باستثناء كل من الأندلس والسند وسجستان . ويبدو أنه زار صقلية ، على ما ثبت من تحليل روايته عنها و(قام أمارى بالتحليل) . وجاء فى معلوماته عن

الأندلس ـ التى لم يزرها ، عن حَاجّين التقى بهما فى مكة عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م ، ومع أن معلوماته هذه يسودها بعض الاضطراب وتفتقر إلى الكثير من الوضوح ـ لعدم معرفته المباشرة بها ، فإن ما يرويه كان مفيدا وكان ذا فائدة وقيمة فى أحيان كثيرة .

يعرف الغرب شهرته كجغرافى .. يقول اشبرنجر Sperenger مكتشف أول مخطوطة لمصنفه : (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ، إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، وإن مصنفه من أكثر المصنفات الجغرافية قيمة فى الأدب العربى . وضع مصنفه فى سن الأربعين فى مدينة شيراز من أعمال فارس عام ٩٨٥ م . بدأه بنقد دقيق لمن سبقه من الجغرافيين ، وخلص منه إلى طريقة ـ كما يقول هو عنها ـ أحسن الطرق فى نظره .

ليس غريبا على المقدسى أن يتخذ من الجغرافيا مادة للتثقيف ، متتبعا فى ذلك مسار ابن حوقل ، يقول : « .. وعلمت أنه باب لابد للمسافر والتجار منه ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبار ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء » .

وجد مصنفه فى نسختين ، وضعت الأولى عام ٩٧٥ ـ ٩٧٦ م ورفعت إلى آل سامان ، ووضعت الثانية عام ٩٨٨ ـ ٩٨٩ م وقدمت إلى الفاطميين ، هذه هى النسخة التى استكملت بعد ثلاث سنوات ، وهى التى استفاد منها ياقوت (صاحب معجم البلدان) . يدور منهجه على تحرى الصواب والصدق مع الاستعانة بذوى الألباب وسؤال العقلاء من الناس عن الكور والأعمال فى الأطراف البعيدة ، فيثبت ما اتفق العقلاء عليه وينبذ ما اختلفوا فيه . وكان الأساس فى كل ما جاء فى مصنفه ، كما يقول هو ، ما يمكن معرفته بالمشاهدة والوقوف عليه شخصيا ، يقول : « .. أما بعد فإنه مازالت العلماء ترغب فى تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ، ولا تنقطع أخبارهم ، فأبيت أن أتبع سنتهم وأقيم علما أحيى به ذكرى ، ونفعا للخلق أرضى به ربى . ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف ، فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه وأنفرد بفن لم يذكروه ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها ... » ، يذكر أنه لا ينقل عن غيره ، ولا يشرح أمراً تحدث فيه غيره لكيلا يبخسهم حقهم ، ولكيلا يعد سارقا . أما الأخبار التى لا يطمئن إليها قلبه ، ولا يعقلها عقله ، فإنه يسندها إلى من ذكرها ، ويقول : « زعموا » وعلى هذا

انتظم كتابنا بثلاثة أقسام ، أحدهما ما عايناه ، والثانى ماسمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره .. » .

تعتبر الفصول الأولى فى كتابه (أحسن التقاسيم ..) ، مدخلا للكتاب ، وهى طويلة تبدو فيها الأصالة عند مقارنتها بكتب الآخرين ، تنعكس فيها شخصيته بوضوح . نستدل من هذه الفصول ، على أنه أعاد النظر فى المسودة ، ورجع إلى الكلام على الأماكن المجهولة الموقع ، وتعداد المدن والنواحى ـ الأمصار والقصبات ـ والنقاط المأهولة بها وتقسيم الأرض إلى الأقاليم السبعة ، وهذه هى نقطة الخلاف بين مصنفه ومصنفات المدرسة السابق ذكرها ، فكانت التفرقة بين اسم مصنفه : (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ، وأسماء المصنفات التى سبقته من سلسلة المسالك والممالك ، وعلى موضع القبلة وامتداد دولة الإسلام . تحتل هذه الفصول سدس الكتاب ينتقل بعدها بالقارئ إلى وصف البلاد ، فيقسم كل قطر أو بلد إلى ثلاثة أقسام ليس بينها تساو ، الأول : خاص بأقسامه ومدنه والمواضع العامرة منه ، والثانى : خاص بالمناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية والخراج ، والثالث : خاص بالمسافات وطرق ا لمواصلات .

يبدو لنا من هذا أن المقدسى ، وإن أولى اهتمامه بالجغرافيا الطبيعية كوصف الجبال وطبيعة المياه وغير ذلك ، فإنه قدم لنا أيضا ولأول مرة مجموعة هائلة من المعلومات عن التجارة والمعتقدات والعادات .

يقع الكتاب فى قسمين ، أى فى جزئين ، يتناول الأول المناطق المختلفة وفقا لترتيب خاص .. يبدأ بجزيرة العرب ثم العراق ثم الجزيرة ثم الشام ثم مصر ثم المغرب ثم بادية الشام . ويتناول الثانى : بقية ما يعرفه من البلاد ، يبدؤه ببلاد الهياطلة ثم خراسان ثم الديلم ثم إرمينيا ومعها أذربيجان والجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند ثم مفازة فارس .

نستدل من كتابته أيضا أنه كان كثير الأسفار والتنقل ، من أقواله التى نستدل بها على ذلك : « .. وسَميت بستة وثلاثين اسما ، دعيت وخوطبت بها مثل : مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخراسانى وسلمى ومقرئ وفقيه وصوفى وولىّ وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى وكرىّ ومتفقه ومتعلم

وفرائضى وأستاذ وداتشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول .. وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها وكثرة المواضع التى دخلتها » .

يستنتج كراتشكوفسكى من كتابة المقدسى ، أن لغته وأسلوبه ينتميان ، لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب ، بل إلى أعسر أساليب مكتبة الجغرافيين المسلمين قاطبة ، فإذا كان الإصطخرى يتبع أسلوبا مبسطا فى كتابه ـ وإن كانت به بعض الوعورة ـ فإن له فى ذلك عذره ، لأن اللغة العربية ليست لغته الأصلية ، فإن كتابة ابن حوقل لم تخل من آثار الصنعة والتكلف وكانت أميل إلى السجع ، والمقدسى ، كما يقولون ، قد أوفى على الغاية فى هذا الباب . فبالرغم من تملكه ناصية اللغة ، نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة ، فيفسح المجال للسجع ، لا فى بداية الكتاب وخاتمته فحسب ، بل وفى صلبه أيضاً ، ولداع ولغير داع . كما يحمل متنه بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال ، إذ كان يميل ، بعض الشىء إلى غريب اللغة .

وعلى الرغم من أن المقدسى ، هو ختام المدرسة التى نحن بصددها من بين المدارس الجغرافية الإسلامية ، وأنه أيضا ختام سلسلة الجغرافيين الكبار للقرن العاشر ، فإن شخصيته لا تتمتع بالكثير من الجاذبية إليه والعطف عليه ، فأسلوبه لا يخلو من التكلف ، فضلا عن اعتداده الشديد بنفسه ، وهذا فقد يحدث أحيانا بعض الضيق للقارئ . ولكن رغم هذا كله ، فإنه من غير المستطاع ، ألا نعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة ، وأنه بحق من أكبر كتاب المسلمين فى الأدب الجغرافى .

ثالثا : أسلوب المدرسة ومنهجها الجغرافى :

نستخلص من عرضنا السابق عن دراسة جغرافيى المدرسة ومصنفاتهم ، أن أسلوبها ومنهجها الجغرافى ، الذى اتبعته ، يقوم على عدة أسس ، هى :

التقسيم ، والوصف ، والاهتمام بديار المسلمين ، والتحرى والتدقيق ، والأسفار .

١ ـ يقوم المنهج على التقسيم ، والتقسيم هنا : ليس تقسيما رياضيا يقوم على أساس الأقاليم السبعة (تأثير جغرافية بطليموس) ، كما إنه ليس تقسيما جغرافيا بالمفهوم الجغرافى عن تقسيم الأرض .. بل كان تقسيما ذا صبغة سياسية إدارية ، أى إلى وحدات سياسية أو إدارية تمثلها : الأمصار والولايات والممالك .

٢ ـ يقوم منهج المدرسة أيضا على الوصف .. فقد حرص على وصف البلدان (أى الممالك) والمدن والطرق (المسالك) ، وذكر التفاصيل عن الحاصلات وتباينها ، والتجارة ونوعيات المتاجر ، وذكر الصناعات ، وما إلى ذلك من نواحى النشاط.

ولم يهمل المنهج دراسة الأجناس : بألوانها وصفاتها وعاداتها وتقاليدها وما يرتبط بها من علاقات بين سكان الممالك والولايات ، وهذا يؤكد أن المدرسة قامت فى كل ما ذهبت إليه ، على منهج وصفى .

٣ ـ الاهتمام بالجزء المعمور من الأرض ، ومعظمه يقع فى نطاق ديار المسلمين فاهتمت بالتركيز على مواطن المسلمين ، مع الإشارة إلى المناطق المتاخمة والمحيطة ، ولو كانت مواطن لغيرهم ، لأنها كما ترى المدرسة على علاقات وصلات جغرافية وتاريخية واجتماعية وحضارية أيضا بالمسلمين جيرانهم .. بمعنى أن الاهتمام الأساسى كان قبل كل شىء هو : ديار الإسلام ، فكان وصفهم لها وصفا تفصيليا ودقيقا إلى حد كبير . فاعتنى ابن حوقل مثلا بوصف بلاد المغرب ، كما كانت عناية البلخى بوصف بلاد المشرق ، مع الاهتمام بالخرائط ، على نحو ما ظهر فى لوحات : أطلس الإسلام .

٤ ـ التزم منهج المدرسة بتحرى الصدق فى جمع المعلومات والأخبار والاهتمام بالسفر والانتقال ، لكى يتحقق التصوير الدقيق للعلاقات بين مناطق ديار الإسلام ، وكان ابن حوقل ذا باع طويل فى ذلك . فقد كان منهجه يمثل حلقة أساسية من حلقات تأكيد المنهج الجغرافى الوصفى الذى اهتم خاصة بالطرق والمسالك ، وما ارتبط بذلك من مصنفات جغرافية ، عرفنا بعضا منها فيما سبق ، وما ظهر بها من خرائط ، كانت بدورها ذات طابع (إسلامى) خالص وخاص .

إذا تناولنا الدراسات الخاصة بمنهج هذه المدرسة ، تبرز لنا حقيقة هامة لم تكن واضحة تماما عندما نشر دى جويه سلسلته عن مكتبة الجغرافيين العرب ، ولكن ألمح إليها كل من كرامورس وكراتشكوفسكى فيما بعد . هذه الحقيقة هى : ضرورة دراسة النص الجغرافى (المتن) مع الخرائط . ولاشك أن الربط بين النص والخرائط ، يوضح تلقائيا التوافق الكبير بينهما . ومع أهمية هذه الحقيقة وضرورة إظهارها منهجيا ، فقد بقى الربط هذا مستعصيا بسبب قلة معلوماتنا عن مؤسس هذه المدرسة ـ حتى وقتنا الحاضر . فالبلخى ، الذى لم يصلنا كتابه عن طريق مباشر ، يكاد يكون الوحيد من بين جغرافييها على الإطلاق من نعرف

عنه معلومات صحيحة . فى حين أن كلا من الإصطخرى ، وابن حوقل ، كانا على النقيض فلم تصلنا أخبار صحيحة عنهما ، مع أن كتابيهما بين أيدينا .

إذا أردنا أن نعرف شيئا عن منهج البلخى ، فما علينا إلاّ أن نستشهد بما ذكره المقدسى عنه ، لأنه مصدرنا الأساسى عنه ـ يقول المقدسى فى هذا الشأن : « .. أما أبو زيد البلخى فإنه قصد بكتابه ، الأمثلة وصورة الأرض بعد ما قسمها إلى عشرين جزءا ، ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب ، وترك كثيرا من أمهات المدن فلم يذكرها ، وما دوّخ ولا وطئ الأعمال » . ولاشك أنه من العسير علينا أن نستخلص من هذا التحليل المختصر ، أى تفصيلات عن هذا المنهج .

واقتصر منهج الإصطخرى على وصف العالم الإسلامى فحسب ، شأنه فى ذلك ، شأن غيره من جغرافيى المدرسة : فقسمه إلى عشرين إقليما (أى ولاية) ، وتناول الربع المعمور بأبعاده وبحاره .. فوصف جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب بما فيها الأندلس ، وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران الجنوبية والهند وإيران الوسطى والشمالية بما فى ذلك إرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر ، ويختتم بوصف بلاد ما وراء النهر ...

نراه يمدنا ، وهو يتناول هذه الأقاليم الجغرافية العديدة بالمعلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، كما يروى لنا تفاصيل الحاصلات والتجارة والصناعة والأجناس . إلا أن هذه التفاصيل كانت ترتبط بالبلدان التى زارها هو فقط .

لعلّ شغف أبى القاسم بن حوقل منذ حداثته بأخبار البلاد والوقوف على أحوال الأمصار ، حددت منهجه ، فهذه أمور جعلته كثير الاستعلام والاستخبار للمسافر والتاجر وقراءة الكتب لتحقيق غايته .. كل ذلك فسره لنا فى كتابه ، وكان لأسفاره الأثر الكبير على كتاباته ، يقول إنه كان يسأل الرجل الصادق الذى يشعر بصدقه وكان يجمع ما يأخذه منه برواية ثان وثالث ، مؤكدا ذلك بقوله : « .. تتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات ، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار ، وتجاور الأقاليم الأصقاع » . ويبدو أنه تتبع ـ إلى حد ما ، طريقة جغرافيين آخرين من أمثال ابن خرداذبة والجيهانى وأبو الفرج قدامة بن جعفر ، وذلك على نحو ما تناولناه فيما سبق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعا : الخرائط فى نظام أطلس الإسلام :

ذكرنا فى البداية عند التقديم لهذه الدراسة ، أن جانبا منها خاص بالخرائط ، وليس المقصود هنا أن نتتبع الخرائط الإسلامية بين الجغرافيين المسلمين على الإطلاق وإنما نقصد خرائط هذه المدرسة ، ومع هذا فليس هناك ما يمنع من استعراض مراحل التطور العام للخرائط الإسلامية منذ الخوارزمى حتى الشريف الإدريسى . انتظمت هذه الخرائط ثلاث مراحل :

- الأولى: الخرائط المفردة ، التى كانت تحتويها مكتبات الأمراء والأفراد . ويؤكد لنا المقدسى أنه رأى ما لايقل عن أربع خرائط من هذا النوع .
- الثانية : خرائط مدرسة البلخى ـ المدرسة التى نحن بصددها ـ وهى الخرائط المقصودة بخرائط أطلس الإسلام .
- الثالثة : يمثلها الشريف الإدريسى ، وهو الذى أطلق عليه الأوروبيون : استرابو الشرق .

من المؤكد أن الصورة المأمونية التى نسبت إلى الخوارزمى ، والتى قدمت إلى الخليفة المأمون عام ٨٢٨ م ، كانت مجهود سبعين من علماء الرياضة ، وكان من بينهم محمد بن موسى الخوارزمى . فأجروا القياسات الدقيقة للمواقع والظاهرات ، وحسبوا جداول أقواس الطول ودوائر العرض . الأزياج ـ ثم رسموا الخريطة ، فجاءت مطابقة للواقع إلى حد كبير .. وهى تحوى من خطوط الطول ١٨٠ خطا أو قوسا ، تبدأ بخط الصفر على الساحل الإفريقى العربى وتنتهى بخط ١٨٠ مارا بشرق الصين . والخريطة تعتبر مثالا لخرائط المرحلة الأولى ... وإن كان أبو عبدالله محمد بن جابر البتانى المتوفى عام ٩٢٩ م قام بتصحيحها وتعديلها فى مناطق العراق والجزيرة ، وجعل خط الصفر الطولى يمر بجزر الخالدات ـ كنارى ، وهذا يجعلنا اليوم نطمئن كثيرا إلى حساباته ، لأن مرور الخط بهذه الصورة يوافق تماما خط الصفر الطولى الحالى المعروف فى خرائطنا الحالية بخط جرينتش . ولم يكن تعديل البتانى هو الوحيد الذى تعرضت له الصورة ، إذ أدخل عليها تعديل آخر أيام المعز لدين الله الفاطمى عندما أمر عام ٩٦٢ م بوضع خريطة للأرض على أساس أزياج على بن سعيد (ابن يونس) والحسن بن أحمد المهلبى ، وعلى أساس هذه الأزياج عدلت الصورة المأمونية وبالذات الأجزاء الخاصة بتفاصيل مصر .

لقد كانت هذه الفترة ولاشك ، فترة ازدهار كارتوجرافى لخرائط المسلمين ، إذ قامت على أسس رياضية فلكية صحيحة ، لكنها لم تدم طويلا ، إذ أعقبتها فترة ركود خرائطية ،

اتصفت بظهور خرائط خالية تماما من الدقة العلمية ، فاختفت منها مثلا شبكة الطول والعرض ، وظهرت خرائط أخرى هى أقرب ما تكون إلى ما نسميه الآن فى خرائطنا بالكارتوجرام ـ أى فى صورة تخطيطية هندسية بالدوائر والخطوط المستقيمة والمنحنيات . ولكن لابد وأن يكون لهذا الركود ما يبرره ، ولاشك أنه كان هناك أكثر من سبب له ، ولعل من أظهر أسبابه عدم اهتمام الخلفاء ، كثيرا ـ بعد المأمون فى بغداد ، وبعد المعز فى القاهرة بالتشجيع للعلم وللعلماء .

كان من خرائط هذه الفترة خرائط البلخى وخرائط الإصطخرى وخرائط ابن حوقل وغيرهم ، الذين استمر بهم الوضع حتى مطلع القرن الثانى عشر ، حيث تظهر فيه المدرسة الكلاسيكية الثالثة وهى مدرسة الشريف الإدريسى وحيث ظهرت خريطته للأرض التى عاد بها الانتعاش مرة ثانية إلى الكارتوجرافية الإسلامية .. وحيث قامت مدرسة الشريف على دعامات جديدة .

رسم البلخى خريطته المستديرة للعالم ، مع خرائط أخرى ، ضمّنها كتابه ، الذى وصف بأنه أقرب ما يكون إلى الأطلس . من هذه الخرائط : الجزيرة العربية وبحر فارس والمغرب والشام وبحر الروم ، إلى جانب اثنتى عشرة خريطة أخرى للجهات الوسطى والشرقية من ديار الإسلام .. وللأسف لم يبق من خرائط البلخى سوى خريطته عن العالم ، أوردها كل من القزوينى وابن الوردى فى كتابيهما ، وجاءت كواحدة من خرائط العالم المستديرة التى أوردها الإدريسى فى كتابه : نزهة المشتاق ...

يذكر الأستاذ فيليب حتى فى كتابه تاريخ العرب : أن الإصطخرى زيّن كتابه بالخرائط الملونة لكل ولاية على حدة ، ويرى بعض المشتغلين بدراسة الجغرافيين المسلمين ، أن الإصطخرى اعتمد فى كتابه ، وفى رسم خرائطه على أبى زيد البلخى وذلك على نحو ما فصلناه فى حينه ، كما كان لكتابه تأثير هام على جغرافية المسلمين .

وكان من أعمال المسعودى ـ وهو جغرافى عاصر المدرسة ـ خريطة عن العالم ، التى تعتبر من أدق خرائط المسلمين لتحديد المعالم المعروفة فى عصره ، فاعتقد باستدارة الأرض ، فرسمها مستديرة ، يخترقها خطان رئيسيان متعامدان هما : خط الاستواء مارا بجزيرة سرنديب وخط العرين ـ خط قبة السماء ، مارا بجزيرة زنجبار .

وتعتبر خريطة العالم لابن حوقل ، نوعا فريداً فى ذاته ، بالنسبة لخرائط هذه الفترة .. رسم فيها السواحل خطوطا مستقيمة وأقواسا ، وأظهر الجزر والبحار الداخلية (قزوين وآرال) فى صورة دوائر كاملة الاستدارة ، كل ذلك بطريقة هندسية تخطيطية ، على نحو ما سبقت الإشارة إليه. وقد نعتبر هذه الخريطة ولا نجنى فى ذلك مثالا لفترة الركود التى لاحقت الكارتوجرافيا الإسلامية، والتى بقيت حتى بعثها الشريف الإدريسى من جديد .

ورسم المقدسى خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة لديار المسلمين ، مستخدما طرقا فنية خاصة لتمثيل الظاهرات الجغرافية ... فرسم الطرق المعروفة باللون الأحمر والرمال باللون الأصفر والبحار باللون الأخضر والأنهار باللون الأزرق والجبال المشهورة باللون المغبر . يقول فى ذلك : « .. ورسمنا حدودها وخططها ، وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام » .

بعد هذا العرض الموجز لأعمال الجغرافيين المسلمين فى ميدان الخرائط داخل نطاق المدرسة ، قد نتساءل عن مركز خرائطهم ؟ ، جاء فى كتاب الأدب الجغرافى العربى (اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى) لبيان وتقييم مركز خرائط هذه الفترة « .. والطابع الثانى الأكثر تمييزا للمدرسة ، هو الدور الذى لعبته الخرائط » . وسبق أن عرفنا ، أن الطابع الأول للمدرسة ، يتمثل فى سلسلة المصنفات التى عرفت بالمسالك والممالك ـ كما نوّهنا أيضا عند تناول مصنف أبى زيد البلخى ، أنه يمكن اعتبار نصوصه توضيحا لمجموعة خرائطه فيه .

والواقع أننا لو نظرنا إلى طابع الخرائط التى سبقت المدرسة ، بتلك اللاحقة بها ، فيما ظهرت عليه كل منهما ، لوجدنا أن خرائط المدرسة بدلا من أن تكون مرحلة على طريق التطور المتقدم لخرائط الجغرافيين المسلمين ، بعد الخرائط المفردة التى تأثرت كثيرا بالتراث الإغريقى وخاصة تعاليم بطليموس الجغرافية ، نجدها تخلو تماما من القواعد الرياضية وخاصة المرتبطة بشبكة الطول والعرض . ولعل السبب فى ذلك كما يبدو لنا واضحا ، أن معظم الجغرافيين المسلمين للمدرسة فارسيون أصلا ، أو ينتمون بشكل ما بالتراث الموروث عن الحضارة الفارسية . وثبت أن كان للدولة الساسانية ـ وهى فارسية ـ مجموعة خاصة من الخرائط ، أطلق عليها أطلس الإسلام . وهو هنا حجر الزاوية فى طريق المعرفة الكارتوجرافية لدى المسلمين ،

فجاءت خرائطهم على نهجه ، وسوف نرى فى دراستنا لخرائط هذا الأطلس ، أثره الواضح فى هذا المجال ، ولذا إليه استندنا .

أطلـــس الإســـلام :

من الثابت المعروف لنا ، كارتوجرافيا ـ أن خرائط المدرسة ، تسير جميعا على نمط واحد ، وأنها تتشابه ، لأنها ليست سوى مجموعة معدلة لخرائط أطلس الإسلام . بينما كانت المصنفات الجغرافية للمسلمين خلال العصور التالية باستثناء الشريف الإدريسى ، لا تضم سوى خرائط مفردة مستقلة ، بمعنى عودة ظهور هذا النوع مرة أخرى . ولكن ليس معنى هذا القول ، أن الخرائط المفردة (المنفردة) كانت غير معروفة زمن المدرسة ... بل إنها سبقت المدرسة ذاتها ، ثم إنها تلتها فى خرائط الشريف ، بمعنى أنها تمثل الطابع المستمر للخرائط الإسلامية ، ولكن بعدها عن الأضواء زمن مدرستنا التى تقوم بعرضها ، إنما هو فى ذاته دليل ضمنى على تأثر الجغرافية الإسلامية كثيرا وخاصة فى مجال الخرائط، بما كان يسبقها قبلا فى إيران، مركز الدولة الساسانية فى فارس ... وما لبث هذا النوع من الخرائط أن عاد مرة أخرى إلى الظهور على نحو ما كان عليه فى مدرسة الشريف الإدريسى التى تمثل المرحلة الثالثة فى مجال التطور الكارتوجرافى فى مدارس المسلمين .

من الأدلة على ذلك ما يذكره البلاذرى عن خريطة الديلم التى رسمت للحجاج بن يوسف الثقفى ، وخريطة البطيحة (مستنقعات قرب البصرة) التى رفعت للخليفة المنصور . كما يذكر صاحب الفهرست ، أن الفلكى ثابت بن قرّة المتوفى عام ٩٠١ م نسب إلى نفسه رسما منفردا سماه : صفة الدنيا . ويذكر كراتشكوفسكى ، إنه رأى بعينى رأسه هذا الرسم على نسيج دبيقى (دبيقى ، نسبة إلى دبيق وهى مدينة كانت بين الفرما وتنيس) ، لوّن بألوان مثبتة بالشمع . كل هذا إلى جانب رواية تقول : إنه عندما نهبت خزينة الخليفة الفاطمى ـ المستنصر ، فى القرن الحادى عشر ٣٦ . ١٠٩٤ هـ ، وجدت خريطة مفردة كانت للمعز لدين الله الفاطمى ، مطرزة على نسيج تسترى (نسبة إلى تستر أو شستر ، وهى من أعمال إيران) ، مبين عليها مختلف البلدان ، والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق ، طرّزت اسماؤها بالذهب والفضة والحرير ، وكانت تقدر وقتئذ بإثنين وعشرين ألف دينار .

وهكذا ارتبطت المدرسة بحقائق ثابتة :

ـ أنها غير ذات علاقة بخرائط أو نماذج بطليموس ، فهى تمثل فى ذاتها شيئاً قائما بذاته وخاصا بها هو أطلس الإسلام ، الذى رسم بغرض تصوير بلاد المسلمين وفقا لمفهوم اللفظ عند كل من الإصطخرى وابن حوقل .

ـ يحوى الأطلس دائما ، وفى نظام ثابت لا يتغير ، إحدى وعشرين خريطة . خريطة العالم المستديرة .

خرائط جزيرة العرب ـ المغرب ـ مصر ـ الشام ـ بحر الروم .

أربع عشرة خريطة أخرى تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية لديار الإسلام ، هى : الجزيرة ـ العراق ـ خوزستان ـ فارس ـ كرمان ـ السند ـ إرمينيا ـ آران وأذربيجان ـ الجبال ـ كيلان ومعها طبرستان ـ بحر الخزر ـ فارس ـ سجستان ـ خراسان ـ ما وراء النهر .

أثير جدل كبير حول أطلس الإسلام ، فقيل : إنه إيرانى الأصل .. استنادا إلى ظاهرة واضحة ، تجلت فى أن كل مقاطعة إيرانية فيه ، كان لها خريطة مستقلة ، فى حين ظهر فيه ، غيرها ـ فى عدد أقل من الخرائط ، بل ربما تنتظم فى مساحة أكثر اتساعا وامتدادا من إيران كلها .. ومعروف أن هذا هو شأن من ينتج أطلسا ، أن يعتنى بخرائط بلاده ـ وهذا اتجاه لايزال قائما بيننا فى وقتنا الحاضر .

والحقيقة أن الخوض فى محاولة معرفة أصل الأطلس بصفة تأكيدية ثابتة لايزال الغموض يكتنف الظروف التى أحاطت بظهوره ، يدل على ذلك ما يأتى :

ـ يعتقد أن أبا زيد البلخى ، اعتمد أصلا على خرائط أبى جعفر الخازن الفلكى وذلك إستنادا إلى إشارة مبهمة وردت فى كتاب الفهرست ، مال إليها كل من اعتنى بدراسة خرائط المسلمين ، خاصة من الغربيين ، من أمثال اشبرنجر ونالينو ، مع إن الخازن الفلكى توفى (على ما يبدو) عام ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م ، بمعنى أنه كان أصغر سنا من البلخى (الذى عرف عن مولده أنه حوالى عام ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م ، كما أنه (البلخى) وضع مصنفه فى شيخوخته وكان ذلك حوالى عام ٣٠٨ ـ ٣٠٩ هـ/ ٩٢٠ ـ ٩٢١ م) .

ـ لا توجد أية علاقة بين خرائط الأطلس وبين الخرائط الفلكية على نحو ما ظهرت عليه خرائط الإصطخرى وابن حوقل .. بدليل خلوها من أى أثر لخطوط الطول والعرض ، مما يؤكد انعدام هذه الصلة .

ـ إنها خالية تماما من أى أثر للتقسيم إلى الأقاليم السبعة المأخوذة عن جغرافيى المدرسة الرياضية التى تأثرت بتعاليم بطليموس الجغرافية ، وإن لفظ إقليم المستخدم ما هو إلا للدلالة على المنطقة الجغرافية للخريطة .

ـ جميع خرائط هذه المجموعة ، خرائط مستقلة الواحدة عن الأخرى ، ولا يمكن وصل بعضها ببعض لتكون مثلا خريطة عامة .. وربما كانت الفكرة الأساسية التى قامت عليها هذه الخرائط ، كانت أصلاً لبيان الطرق ومواقع المدن ، لارتباطها بسلسلة مصنفات المسالك والممالك .

تناول كراتشكوفسكى ، دراسة هذه الخرائط من زاويتين ، تتناول الأولى نظام التوزيع ، والثانية تخص الخرائط ذاتها . يقول فى ذلك : « .. يسوقنا نظـام توزيع هذه الخرائـط إلى الافتراض بأنها ترجع أصلا إلى أطلس إيران القديم بعد أن أجريت عليه التعديلات الطفيفة بما يتناسب مع واقع ديار الإسلام آنذاك ، فأضيفت خريطة العالم ، التى يقال عنها : إنها مرتبطة بالصورة المأمونية ، وأضيفت المقاطعات الإيرانية الأصلية ، وبقية الخرائـط .. تمثـل المقاطعات القديمة للدولة الساسانية أو إنها خرائط لمقاطعات كانت تخضع لها حينا من الدهر .. مثل بلاد العرب وإرمينيا وسواحل بحر قزوين وما وراء النهر والسند . ومع أن الشام وفلسطين كانتا من أراضى الدولة الرومانية الشرقية ، فإنهما تمثلان معبرا أساسيا للاتصال الذى يربط إيران بالغرب بالبحر المتوسط (بحر الروم) .. لهذا كانت لهما أهمية خاصة عند الساسانيين ، فاظهروهما فى خرائطهم .

ويؤكد كراتشكوفسكى ، أن الأطلس وضع أصلا للامبراطورية الساسانية القديمة وبقى دون تعديل أو تحوير إلا فى حدود قليلة جدا ، لكى يتفق مع حاجة المسلمين فى القـرن العاشر ـ زمن هذه المدرسة .

أما الخرائط ذاتها ، وهى الزاوية الثانية التى يتناولها كراتشكوفسكى ، فدليل على معرفة الحقائق الجغرافية بدرجة أدق مما كانت عليه الصورة فى أوروبا وقتئذ وهذا أمر يمكن الحكم عليه عند المقارنة بخريطة ترجع إلى القرن الثامن للراهب الأسبانى بياتوس Beatus ، فقد خلت خرائط المسلمين من صور الناس والحيوان التى كانت تزخر بها خرائط أوروبا فى العصور الوسطى .

المصـــــادر :

١ ـ البـــلخى : صـــور الأقاليـــم .
٢ ـ الإصطخـــرى : المسالك والممالك . سلسلة تراثنا بإشراف وزارة الثقافة ـ القـــاهرة .
٣ ـ ابن حـــوقل : كتاب صورة الأرض . دار الحياة/ بيروت .
٤ ـ المقدســـى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
٥ ـ ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك .
٦ ـ القــــزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد .
٧ ـ أبـــو الفـــدا : تقـــويم البـــلدان .
٨ ـ ياقـــوت الحمـــوى : معجــــم البـــلدان .
٩ ـ البـــلاذرى : فتـــوح البـــلدان .
١٠ ـ سهراب (تصنيف) : كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة . عن مخطوطة بخط ابن البهلول ـ هانزفون مزيك . فييـــنا ١٩٢٩ .
١١ ـ نفيس أحمـــد : جهود المسلمين فى الجغرافيا . الألف كتاب ـ القاهرة .
١٢ ـ كراتشكوفســـكى : (اغناطيوس يوليانوفتش) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ـ مترجم/ القاهرة .
١٣ ـ طبـــــانة : (بدوى أحمد) أبو الفرج قدامة بن جعفـــر .
١٤ ـ عبد الحكيـــم : (محمد صبحى وماهر الليثـــى) . علم الخرائط . الجزء الأول ـ القاهرة .
١٥ ـ وزارة الثقافة : (وزارة الثقافة والإرشاد القومى ـ القاهرة) . مجلة تراث الإنسانية .

الحواشـــى

(١) سورة البقرة الآية ١٨٤ ، ١٨٥



جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط الجغرافية

دكتور / عبدالعال عبدالمنعم الشامى



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمـــــة :

تضم المؤلفات الجغرافية الإسلامية مئات الخرائط والأشكال والمصورات الجغرافية. ومثل هذا العدد لا يمثل كل ما ساهم به جغرافيو الإسلام فى مجال رسم الخرائط . وذلك لضياع العديد منها ، بدليل ما ورد عن خرائط ـ لم تصلنا ـ ضمن الكتابات الجغرافية التى كانت تتضمنها أول مرة . وكذلك ضاعت خرائط أخرى مع مؤلفاتها الجغرافية فيما فقدته الحضارة الإسلامية من تراثها الفكرى والذى يستدل عليه بالنقول عن هذه المصادر ، أو بمجرد ذكر أسماء تلك المؤلفات الجغرافية ضمن الإنتاج الفكرى لأصحابها فى الكتب التى تهتم بتراجم الرجال من العلماء .

ـ يضاف إلى ما سبق أن التراث الجغرافى للمسلمين قد تعرض فى العصور المتأخرة للتحريف والتصحيف من قبل النساخ . ومثل هذا الخلل قد جاء بصورة أكبر فى الخرائط والأشكال عنه فى النصوص ، ويتضح ذلك من مقابلة النسخ المختلفة للخرائط المنسوبة لأى من الجغرافيين من أمثال الإصطخرى وابن حوقل والإدريسى[١] .

ـ وإذا كان انتقال المعرفة من حضارة إلى أخرى يتطلب بالضرورة أن يأخذ اللاحق عن السابق ما وصل إليه ، فإن جغرافيى الإسلام قد نقلوا عن حضارات الشرق والغرب ما وصل إليهم من كتابات قد قرؤها بلغاتها الأصلية أو مترجمة ، واستطاعوا بذلك المحافظة على التراث الجغرافى العالمى فى تطوره ، ثم أضافوا ـ وهو الأهم ـ إلى المعارف الجغرافية ـ خلال العصر الوسيط ـ ما نقل الجغرافية والخرائط من مرحلة العصور القديمة السابقة إلى بداية عصر النهضة والجغرافية والخرائط الحديثة .

ـ وفى مجال جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط الجغرافية نجد اتجاهين واضحين :

أولهمـا : اتجاه عام متأثر بالجهود السابقة للجغرافية والخرائط الإسلامية ، فقد عرف جغرافيو الإسلام تلك الخرائط العالمية السابقة لحضارتهم فنقلوها ، وأضافوا إليها ما وصلت إليه معارفهم ، ووقعوا على خرائطهم ما تمت معرفته من أطراف المعمور خلال العصر

الوسيط : هذه المدرسة الجغرافية الإسلامية العامة فى رسم الخرائط قد بدأت بداياتها فى أعمال الخوارزمى والخريطة المأمونية ، وبعد ذلك فى أعمال الزهرى ، ثم وصلت ذروتها بما أخرجه الإدريسى فى القرن السادس الهجرى من خرائط للعالم .

وثانيهما : اتجاه خاص قائم فى ظل الجهود الإسلامية الخالصة ، بمعنى أنه نمط فريد أو متفرد فى الخرائط جاء وليد جهود الجغرافيين الإسلاميين الخالصة ومن ابتكارهم ، وقد تمثل فى سلسلة خرائط أطلس الإسلام فى القرن الرابع الهجرى ، الذى يمثل بحق عصر النهضة الإسلامية فى شتى مناحى الحياة ومختلف صور الحضارة .

- ويمكن أن نحدد بعض العوامل التى ساعدت على ازدهار فن الخرائط الإسلامية وتنوعها على أيدى الجغرافيين فنجد من ذلك :

أ - مانقله الجغرافيون المسلمون وغيرهم من دراسات جغرافية وخرائط عن الأمم السابقة سواء فى ذلك ما قرىء بلغته الأصلية أو مترجما أو تم الإطلاع عليه فقط . ومن أمثلة ذلك ما ذكره(٢) ابن النديم من أن كتاب جغرافيا فى المعمور وصفة الأرض لبطليموس قد نقله الكندى(٣) نقلا رديئا ثم نقله ثابت بن قرة الحرانى(٤) (٢٢١هـ/٢٨٨هـ) نقلا جيدا .

ويعتبر المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ت ٣٤٦هـ ٩٥٧م) مثالا واضحا للجغرافيين المسلمين الذين استطاعوا الإطلاع على ما وصلت إليه الجغرافية والخرائط عند اليونان ، والنقل عنهم ، بل وتقييم ما وصلوا إليه ، وذلك ما نجده فى مواضع متفرقة من كتبه ، فعند التعرض لنهر النيل يقول : فرأيت فى « جغرافيا » النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتىعشرة عينا ، فتصب تلك المياه فى بحيرتين هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء جاريا فيمر برمال هناك وجبال ويخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج(٥) وهو بهذا يشير إلى اطلاعه على خريطه بطليموس لنهر النيل فى كتابه المشهور .

وينقل المسعودى أيضا معرفته الكاملة بكتاب بطليموس صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ... ويذكر أن هذا الكتاب (جغرافيا) فيه ألوان جبال الدنيا من الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك من الألوان ... وأما البحار وهى خمسة فكلها مصورة بأنواع الأصباغ مختلفة المقادير فى الصورة(٦) .

ولم يقتصر المسعودى على ما سبق ، وإنما رأى أيضا الأقاليم السبعة مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ . وإن أحسن ما رأى من ذلك ما هو فى كتاب جغرافيالمارينوس، وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون واجتمع على صنيعتها عدة من حكماء أهل عصره ، صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرها[٧] .

وهكذا يقارن المسعودى بين الخرائط اليونانية وغيرها وبين الخرائط الإسلامية فى عصره مقرراً تفوق مستوى إخراج الخريطة الإسلامية على مثيلاتها . ومن الواضح أن مثل هذه الجهود المبذولة فى الترجمة والنقل قد أفادت المدرسة الجغرافية العامة بصورة مباشرة . وهناك أمثلة أخرى تظهر عند الخوارزمى وفيما كتبه إخوان الصفا من رسائل خاصة بالجغرافيا .

ب **تأثير الجداول الفلكية وكتب الزيوج**[٨] التى بلغت حداً من الإتقان والدقة لم تبلغه جداول الهند وفارس وغيرها[٩] وقد حدث توجيه لهذه المعارف الفلكية والرياضية بما ساعد على تطوير علم الخرائط الإسلامية . ولعل أوضح الأمثلة على أثر كتب الزيوج والجداول ما نراه فى كتابات البيرونى (أبوالريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى ٣٦٢/٤٤٢هـ) مثل : القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم[١٠] ، وخاصة فى الباب العاشر فى إثبات أطوال البلدان وعروضها فى جداول تتضمن أسماء البلاد التى فى الأقاليم موضحا أمام كل اسم درجة الطول والعرض وموقع هذه البلدان بالنسبة للممالك والنواحى الواقعة فيها ، وفى كتاب « تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن »[١١] الذى وضع فيه البيرونى منهج المسلمين فى تحديد المسافات اعتماد على ما نقل عن بطليموس ثم أرصاد المسلمين الخاصة وثالثا الاستفادة من أخبار الرحالة وأصحاب البريد ، فضلا عن ملاحظاته الشخصية

ويكفى ـ أيضا أن ننظر إلى ما أبدعه أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل ... صاحب حماة ٦٧٢/٧٣٢هـ) من جداول استحدثت لأول مرة اعتماداً على جداول الزيوج والمعلومات الجغرافية الوصفية لمدن الأقاليم[١٢] .

جـ ـ ما استفاده بعض الجغرافيين من علم الملاحة الجغرافية وخاصة الخرائط البحرية (المرشدات البحرية) وخير مثال على ذلك نجد المقدسى يذكرمـا فى أيدى الملاحين من دفاتر

يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ، وأنه قد تدبرها وقابلها بالخرائط التى معه ، ثم إنه حادث أيضا شيخا عارفاً بصورة البحر[١٣] واستفاد منه حقيقة صورة البحر الأحمر بشعبتيه . وبهذا تميز المقدسى عن سابقيه فى مجال رسم الخرائط وفاخر أقرانه وانتقد سابقيه[١٤] .

وكذلك فإن المسعودى ـ هو الآخر ـ كان على علم بالخرائط البحرية أو العملية التى يستعملها الربابنة فى المحيط الهندى والبحر الرومى[١٥] ، وقد أشاد بأهميتها لما لأصحابها من بصر وحذق يدفع السالكين فى البحر أن يهتدوا بما يقولونه.[١٦]

وإذا كان كراتسكوفسكى قد قلل من تأثير مثل هذه المرشدات الملاحية على الجغرافية الإسلامية فإن النصوص تشير إلى الاعتماد عليها فى مجال رسم الخرائط وهو الأمر الذى نحن بصدده ، وكذلك فإنها تثبت أن التجربة العملية الملاحية كانت الأساس الجديد للجغرافية الملاحية عند المسلمين مما نقض الكثير من التصورات الجغرافية اليونانية القديمة وحرر المسلمين من تلك النظريات السابقة[١٧] .

د ـ **الرحلات الجغرافية فى داخل العالم الإسلامى وخارجه** التى قام بها الجغرافيون المسلمون وغيرهم من هواة الرحلات وأعضاء الوفود الرسمية ورجال السفارات ومحترفى التجارة مع الشرق والغرب ... فهؤلاء جميعا لهم الفضل فى اتساع مدى المعرفة الجغرافية بأرجاء العالم المعروف حيث امتد النشاط إلى أقاليم منعزلة لم تكن مطروقة من قبل مثل أواسط وشمال آسيا (رحلة ابن فضلان فى وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ) وفى غرب أفريقيا (رحلة ابن فاطمة) وإلى سودان وادى النيل (رحلة ابن سليم الأسوانى) وفوق ما سبق المعرفة الكاملة بسواحل المحيط الهندى وجزره بل ورسم الساحل الشرقى لأفريقيا[١٨] وكذلك معرفتهم بالشرق الأدنى والأقصى عن طريق الرحالة (أمثال ابن بطوطة) والتجار وربابنة البحر حتى لقد وصلت معرفتهم بالصين واليابان وكوريا . « ولا شك أن هذا النشاط فى مجال الرحلات إنما جاء نتيجة اتساع الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام والحضارة الإسلامية فى رقعة أوسع من حدود الدولة الإسلامية .

هـ ـ **وأخيرا نجد منهج الجغرافيين المسلمين فى الدراسة وأثره فى ازدهار فن رسم الخرائط** عندهم ، فقد امتازت المدرسة الجغرافية الإسلامية بوجه عام بالاعتماد على استيعاب المصادر

الجغرافية السابقة بعد النقد والتمحيص والتدقيق . ثم هناك الدراسة الحقلية التى تعتمد على الرؤية والمشاهدة وجمع المعلومات من الحقل من خلال الرحلات والزيارات والسؤال ، ولذلك تفاوت الجغرافيون بمقدار ما التزموا بهذا المنهج ، وهذا يفسر ارتقاء بعضهم إلى القمة من أمثال ابن حوقل والمقدسى والإدريسى ، مما ميز جهودهم فى رسم الخرائط عن أقرانهم من السابقين واللاحقين لهم .

وقبل أن ننتقل إلى تفاصيل القول عن الاتجاهين الواضحين لدى الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط نذكر بعض آراء الدارسين فى تحديد مراحل تطور علم الخرائط الإسلامية على أيدى الجغرافيين فنجد الدوميلى[١٩] يميز بين ثلاثة عهود مختلفة أو بعبارة أصح ثلاثة أنواع من المناهج وطرق التنفيذ تـلا بعضها بعضا من الناحية الزمنية على وجه التقريب وهى : -

المرحلــة الأولــى :

ويمثلها فى القرن الثالث الهجرى الخوارزمـى ، وهـذا هو فن الخرائـط المنسـوب إلى بطليموس .

المرحلـة الثانيــة :

على خلاف الأولى كانت مستقله تماما فى التصور العام والتنفيذ ، وهى خرائط أطلس الإسلام للبلخى والإصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

المرحلـة الثالثــة :

يمثلها الإدريسى على وجه الخصوص - وهناك تأخذ ضروب العناية الجغرافية ، أو بعبارة أدق العناية بالجغرافية الرياضية مظهراً عظيماً ، ويتسع الرسم من جديد فيشمل كل العالم المعروف .

وأما أحمد سوسة[٢٠] ففى مستهـل دراستـه المستفيضـة للإدريسى حدد عدة مدارس للجغرافية والخرائط قبل الإدريسى وهى : .

المدرسة الأولـــى : متأثرة بالفكر الجغرافى الهندى والفارسى .
المدرســة الثـانية : الخوارزمى ومن أخذ بطريقته وهى مدرسة خالصة .

المدرسة الثالثة : أطلس الإسلام التى تمثل عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

المدرسة الرابعة : الجغرافية التاريخية الأندلسية المغربية .

المدرسة الخامسة: الإغريقية المتمثلة بجغرافية بطليموس .

وقد أخذ الإدريسى من هذه المدارس الخمس فكون المدرسة السادسة التى تمثل نقطة تحول هامة فى تطور الخرائط والجغرافية فى العالم .

والخلاصه أن الفكر الجغرافى عند المسلمين فى تطوره كانت فيه مزاوجة بين اتجاهين :

أولهما : الاتجاه القديم المستمر مع التطور الطبيعى للمعرفة الجغرافية عبر التاريخ والذى تم السير به قدماً بفضل الإضافة التى أدخلها الجغرافيون على هذا النمط من الخرائط العالمية .

وثانيهما : الاتجاه الحادث الجديد المميز للحضارة الإسلامية والمتفق مع اتساع الدولة ، وزيادة المعرفة التفصيلية بأقاليمها والهادف إلى توضيح كل الظاهرات الطبيعية والبشرية داخل الأقسام السياسية أو الأقاليم الجغرافية التى قسموا العالم الإسلامى إليها ، وذلك فى القرن الرابع الهجرى الذى شهدت فيه الشعوب الإسلامية عظمة كبيرة حيث كان العالم الإسلامى فى أوج عظمته وازدهاره ، بينما كان العالم المسيحى فى أوروبا أقرب إلى مرحلة الجمود والتوقف عن النمو والتطور الحضارى .

وثمة ملاحظة هامة وهى أن الخريطة لا تمثل بالضرورة الواقع الجغرافى ، بل إنها لايمكن مهما بلغت إجادتها أن تعطى معرفة تساوى فى تفاصيلها الواقع ... وإذا كان هذا ينسحب على الوقت الحاضر بما وصل إليه العلم من إمكانيات ، فإن خرائط أو صور العصر الوسيط الإسلامى يجب أن ينظر إليها فى ضوء عصرها وإمكانياته حتى يكون التقويم منطقيا وأن تقارن بالخرائط الأوربية وغيرها التى عاصرتها .

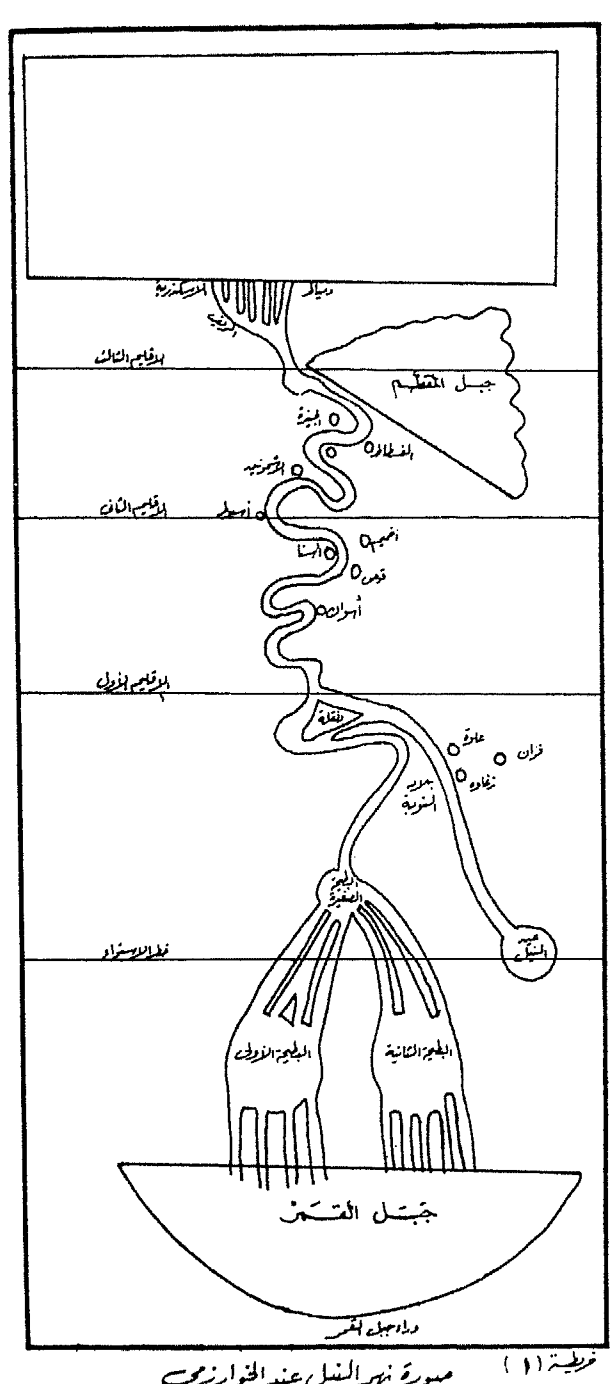
لقد كانت الخرائط الإسلامية أكثر دقة من خرائط أوروبا المسيحية فى العصر الوسيط حيث كانت الأساطير ذات الطابع الدينى تمثل الملامح الرئيسية فى خرائط العالم الأوربى دون الاهتمام بمطابقتها للأفكار التى أثبتها العلم .... ومع كثرة القيود التى كانت تعرقل رسامى

الخرائط فى أوروبا فإنهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا الخطوات الواسعة التى خطاها جيرانهم المسلمون ، فكان أثر النظريات الإسلامية واضحا فيا صنعوه من خرائط[٢١] .

ويمكن أن نتصور مدى الفائدة التى كان من الممكن أن يحققها علم الخرائط فى تطوره لو اتصلت بدايات عصر النهضة الأوروبية بالحضارة الإسلامية فى أوجها بدلا من أن تتعرف أوروبا على آثار الحضارة الإسلامية ـ فى هذا المجال ـ فى عصر التدهور والجمود .

وكذلك علينا أن ننظر إلى أثر الخرائط الإسلامية فى الخرائط الأوروبية من خلال التطوير الذى طرأ على علم الخرائط ، بمعنى أن الخرائط الحديثة قد أخذت تعتمد فى رسمها على مصادر غير تلك التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، فلم يعد الأمر قاصراً على ما يقدمه أصحاب الرحلات والبحارة والجغرافيون من معلومات وإنما أصبح للخرائط البحرية دورها فى خدمة الخرائط ، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى المرحلة التى وصلتها الحضارة البشرية حيث استطاعت أن تلج المحيط الأطلسى وتمخر عبابه لتصل إلى العالم الجديد . وتدور حول رأس الرجاء الصالح فى طريقها إلى شرق أفريقيا ، ومن هناك قادها الملاحون المسلمون عبر المحيط الهندى إلى العالم الآسيوى ... فلا شك إذن فى أن الكشوف الجغرافية وتطور فن الملاحة البحرية (وكان للمسلمين دورهم الهام فى ذلك وخاصة فى عصر ابن ماجد . القرن التاسع الهجرى) قد تم على ايدى دول أوروبا سواء من عالم البحر المتوسط أو غرب أوروبا وقد جعل إمكانيات أوروبا ليست فى حاجة ماسة لنقل وترجمة الخرائط الإسلامية بقد ما احتاجت إلى علوم وفنون أخرى إسلامية . ومعنى ذلك أن الجانب العملى أو التطبيقى فى فن الخرائط كان هو الأهم وقد أخذت به أوروبا .

○○○



خريطة (١)
صورة نهر النيل عند الخوارزمي

المصدر : يوسف كمال . مجموعة الكمالات

أولا : المدرسة الجغرافية الإسلامية العامة فى رسم الخرائط

١ ـ الخوارزمى : (أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى توفى حوالى ٢٠٦هـ ـ ٨٢١م)

تضمن كتابه « صورة الأرض »[٢٢] عدة خرائط ينظر إليها على أنها تسير إلى حد ما وفقاً لمنهج بطليموس واعتماداً على خريطته المشهورة . ولكن هناك من يرى فيها محاولة للمزج ـ قدر المستطاع ـ بين الخريطة المأمونية وخريطة بطليموس ، وإن تلك المحاولة لم يكتب لها التوفيق التام[٢٣] .

ويذهب آخرون إلى أن نهج الخوارزمى فى معالجة الخرائط مستقل وإن له طريقته الخاصة فى تقسيم الأقاليم السبعة ، وأنه لم يقلد بطليموس لأن معرفته بالخرائط والجغرافية سابقة لعصر الترجمة لجغرافية بطليموس[٢٤] .

ولعل أهم ما فى خرائط الخوارزمى أنها تمثل أقدم ما وصل إلينا من آثار الكارتوجرافيا الإسلامية ، وإن كان من الصعب الحكم عليها[٢٥] .

وفى خريطة نهر النيل (شكل (١)) التى تمثل أهم ما يوجد من خرائط الخوارزمى ، وهى من الخرائط ذائعة الصيت ومن مفاخر علم الخرائط عند المسلمين لأن النهر فيها يبدو قريبا إلى حد بعيد من صورته الحقيقية[٢٦] ونجد فيها حدود الأقاليم موقعة بالإضافة إلى عدد من الظاهرات الجغرافية . وقد أضاف الخوارزمى فى خريطته لمنابع النيل الاستوائية بحيرة ثالثة عند التقاء النهرين الخارجين من البحيرتين عند خط عرض ٢° شمالا «البطيحة الصغرى» وفى هذا مثال للإضافات الجديدة التى لم تكن موجودة عند بطليموس ، كذلك جعل نقطة التقاء النيل الأزرق بالأبيض عند خط عرض ١٥° شمالا هى أقرب ما تكون للواقع ـ فى حين جعلها بطليموس عند ٣٠ ١١° شمالا[٢٧] وهناك من يحاول إطلاق أسماء المنابع الحالية لنهر النيل على المصور فى خريطة الخوارزمى[٢٨].

وأما الخريطة المأمونية المشار إليها ـ فهى « مصور جغرافى للعالم موضح عليه أسماء

الأقطار والمدن المعروفة فى كل إقليم » وقد عملت للخليفة العباسى المأمون (١٩٩ ـ ٢١٨هـ ٨١٤ ـ ٨٣٣م) واجتمع على صناعتها سبعون من علماء عصره[٢٩] منهم الخوارزمى ، الذى كان ينتمى إلى دائرة فلكيى المأمون وعلى صلة وثيقة بدار الحكمة المشهورة[٣٠] .

وهناك من يرى أن خريطة المأمون هى أول خريطة للعالم من نتاج الحضارة الإسلامية وإن كانت ساذجة بدائية لم يراع فيها أطوال البلدان وعروضها واكتفى فيها بتقسيم الأقاليم السبعة وذكر أسماء المدن الشهيرة فى الأماكن التى خمنوها لها[٣١] .

ولقد كان أمر هذه الخريطة وما سبقها ـ من مثيلاتها عند اليونان وغيرهم ـ من الأمور المعروفة لدى الجغرافيين ، على نحو ما ذكر المسعودى[٣٢] وقد بنيت عليها كتب الجغرافية . هذا وقد اطلع الخوارزمى على مثل هذه الخرائط وشارك فى رسم خريطة المأمون وقد جاءت خريطته أدق وأصح وأكثر تطوراً مما سبقها فاستحق بهذا أن يكون أول الجغرافيين الخرائطيين من المسلمين .

٢ ـ الزهرى[٣٣] (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الزهرى توفى ٥٤٥هـ)

نشير إليه لعلاقته بخريطة المأمون ، وهو بهذا استمرار للمدرسة العامة التى بدأت بالخوارزمى وبلغت قمتها أو ذروتها عند الإدريسى ، ويقول الزهرى فى مستهل كتابه « **الجغرافية** »[٣٤] إنه نسخ هذه الجغرافية من نسخة من جغرافية الفزارى التى نسخت من جغرافية أمير المؤمنين عبدالله المأمون بن هارون الرشيد ..[٣٥] .

وواضح أن لفظ جغرافية عند الزهرى يشمل الخريطة (خريطة الدنيا) ووصفها أو شرحها كذلك ، وربما كان يتصور أن الخريطة لا تتم إلا إذا كان معها شرح مفصل لما فيها[٣٦] .

وقد أجمل الزهرى فى ختام مؤلفه ما قام به فى خريطته يقول : وقد رسمنا فى الجغرافية كل أعجوبة فى موضعها ، وكل نهر فى موضعه وكل جبل فى مكانه وكل بحر فى موضعه ، كما بلغ إلينا من كلام الفلاسفة المتقدمين والحكماء الماضين ، واختصرنا ماشك فيه ، ومارسمنا فى كتابنا هذا إلا ماصح وثبت ، وجعلنا هذا الكتاب مختصرا فى ذكر الجغرافية ناطقا بما رسم فيها ، ووهبناها لينظر الناس فيها فيعلموا شرقها وغربها وجنوبها وشمالها[٣٧] .

هذا وقد صور الزهرى على خريطته صوراً وأشكالاً للطيور والمعادن .[٣٨] ولعل أهم ما فى مؤلفه الصلة الوثيقة بين الخريطة والمعارف الجغرافية حيث نجد الزهرى قد قام بشرح الخريطة التى وصلته[٣٩] . اعتماداً على مشاهداته الشخصية ـ وخاصة بالنسبة للأندلس موطنه وعلى ما سمعه من معاصريه وما نقله بلفظه من فلاسفة وحكماء وأطباء وفلكيين ومنجمين ومؤرخين وأخيرا ما أخذه عن الجغرافيين « المشارقة والمغاربة » [٤٠] .

٣ ـ الإدريسى [٤١] : (أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن إدريس الحسينى ٤٩٣/٥٦٤ هـ) .

إذا كان الإدريسى أعظم جغرافيى الإسلام ، فإنه قد نال هذه المكانة على وجه الخصوص ، بفضل ملكاته الممتازة فى رسم الخرائط[٤٢] . وقد اعتبر أطلسه أهم أثر للخرائط التى رسمت فى العصور الوسطى ، ويمثل فى نفس الوقت القمة التى بلغها المسلمون فى رسم الخرائط[٤٣] .

وقد تمثلت خطوات الإدريسى فى رسم الخرائط ـ على نحو ما صور فى مقدمة كتابه ـ فى أنه :

١ ـ أراد أن يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها ، فأحضر إليه « لوح الترسيم » وأقبل يختبرها بمقاييس من جديد شيئا فشيئا مع نظره فى الكتب المتقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأنعم النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها .

٢ ـ أمر عند ذلك بأن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن ٤٠٠ رطل رومى (فى كل رطل منها ١١٢ درهما) فلما كملت ، أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها وما بين كل بلد منها ، وبين غيره من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة والمسافات المشهورة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم لايغادرون منه شيئا ويأتون به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه .

٣ ـ أن يؤلفوا كتاباً مطابقا لما فى أشكالها وصورها[٤٤] وواضح أن الإدريسى قد قام بعمل

كرة أرضية(٤٥) أى خريطة مجسمة عليها المعالم الجغرافية واضحة بارزة ، وهى بذلك أول كرة أرضية دقيقة عرفت فى التاريخ على هذا الشكل وإن كانت قد تعرضت للضياع ولم يبق من آثار الإدريسى إلا مخطوطات كتابه وخرائطه وهى« سبعون مصورة » غير النهايتين اللتين إحداهما نهاية المعمور فى جهة الجنوب ، وأكثرها خلاء لشدة الحر وقلة المياه، والنهاية الثانية نهاية المعمور فى جهة الشمال وأكثرها خلاء لشدة البرد(٤٦) .

وقد استطاع كوفرد ميللر (١٨٤٤ ـ ١٩٣٣) أن يستخرج من مجموع خرائط مخطوطات كتاب الإدريسى خريطة جامعة للعالم ، كما صوره الإدريسى وطبعت سنة ١٩٣٨ ملونة وبحروف لاتينية، وفى سنة ١٩٥١ عنى المجمع العلمى العراقى بتحقيق الخريطة وإعادتها إلى الأصل العربى ، ولكن مازال التصحيف قائما فى الأسماء لأن الأصل أو المخطوط لم يحقق(٤٧) وهو أمر لابد من أن يقوم به المتخصصون . ويمكن الرجوع إلى الشكلين (٢ ، ٣) كمثال لخرائط الإدريسى بعد تصحيح الأعلام الجغرافية .

وهكذا نرى أن الإدريسى قد رسم صورة الأرض مرتين : ـ

الأولى : فى صورة كرة أودائرة وهى من الناحية الخرائطية أقرب للدقة من الصورة .

الثانية : وهى المبسوطة على مسقط مركاتور وهى المشهورة . وأما عن الصلة بين خريطة الإدريسى هذه والخرائط السابقة فمن الواضح أنه « عرف النتائج التى وصل إليها سابقوه كبطليموس والخوارزمى واستخدمها استخداما صحيحا ، بل لقد صحح أخطاء السابقين ، وأضاف مواضع كثيرة فى خريطته(٤٨) ، التى تشكل أول أطلس متكامل للعالم .

ولقد اعتمد الإدريسى إلى جانب المصادر التى حددها فى مقدمته على خرائط بحرية (عملية) بدليل وصفه الدقيق للأندلس ، والذى لايتأتى إلا عن اطلاع أو اعتماد على خرائط تشبه أدلة الموانى التى يستخدمها البحارة وكذلك استخدامه للبوصلة وسؤال الملاحين والرحالة والتجار(٤٩) .

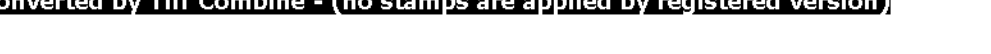
والخلاصة .. أن الإدريسى بخرائطه للعالم فى عصره ـ يقف على رأس القافلة التى أنشأت علم الجغرافية الحديث والخرائط(٥٠) .

فخرائطه تعد نقطة تحول فى تطور علم الخرائط فقد تغيرت نوعية الخرائط وبدأ الأهتمام بتقسيم خط نصف النهار وخط الاستواء ، وضبط درجات الطول والعرض للمدن والبلدان بدقة كما فى الخرائط الحديثة .(٥١)



صورة نهر النيل عند الإدريسي

المصدر: يوسف كمال: المجموعة الكمالية ص٨٦١ . وترجع هذه الخريطة إلى القرن السادس أو السابع الهجريين
والأصل في إستنبول - مكتبة أيا صوفيا (٣٥٠٢ مخطوطات)



ولقد كان الإدريسى همزة الوصل بين الشرق والغرب بحكم البيئة التى أبدع فيها خرائطه .. وسبيلا لانتقال النشاط الخرائطى من الشرق الإسلامى إلى الغرب الأوربى ولقد ظل الاعتماد على خرائطه فى أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادى[٥٢] وبهذا أسهم العرب فى إحياء النشاط العلمى العالمى .

المدرسة العامة بعد الإدريسى

١ ـ ابن سعيد المغربى : (أبو الحسن على بن موسى بن عبدالملك بن سعيد ٦١٠هـ/٦٨٥هـ)

على الرغم من اتساع النشاط العلمى لابن سعيد فإن نشاطه فى محيط الجغرافية يتصل بالدرجة الأولى بالاتجاه الذى يمثله الإدريسى ، ويتضح ذلك من عنوان قصص جغرافيا الأقاليم السبعة «أو الجغرافيا »[٥٣] وأحيانا يطلق عليه «بسط الأرض فى الطول والعرض »[٥٤] .. وكل هذا يشير إلى المذهب الذى ينضوى تحت لوائه[٥٥] فقد اتخذ ابن سعيد من منهج الإدريسى فى نزهة المشتاق أساسا للدراسة بالإضافة إلى مصادر أخرى وخاصة كتاب الخوارزمى ثم ما ينقله عن الرحالة من أمثال ابن فاطمة ، وكذلك ما جمعه خلال رحلاته التى شملت مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وامتدت فى شرق الممالك الإسلامية وشمالا إلى إرمينيا ... وقد استغرقت رحلاته قرابة العشرين عاما »[٥٦] .

ويمكن أن نتصور عمل ابن سعيد فى أنه بدأ أولا برسم خطوط الطول والعرض ودرجات كل منها ودقائقها على صفحة كبيرة ، ثم مضى يقرأ قوائم الخوارزمى فى صورة الأرض ـ موقعا كل مدينة أو جبل أو نهر أو بحيرة فى موضعها من الطول والعرض على الصحيفة .... وهكذا أصبحت أمامه خريطة هندسية للعالم المعلوم فى عصره ، ثم عاد فقسم الأقاليم إلى أجزائها متبعا فى ذلك منهج الإدريسى ومعتمدا على خرائطه بدليل ما يكرره بين الحين والحين بقوله « على ما صور فى الجغرافيا »[٥٧] .

والخلاصة أن ابن سعيد يمثل حلقة من حلقات الدراسة العامة للجغرافيين المسلمين فى مجال رسم الخرائط لها أهميتها بما أضافه من معلومات عن المناطق النائية فى شمال المعمور

وجنوبه وذلك داخل الإقليمين وما وراء الإقليم السابع شمالا ، والذى انتهى إلى خط عرض ٨٠° شمالا وما وراء الإقليم الأول جنوبا ، والذى يمتد إلى خط عرض ١٦° جنوبا[٥٨]

وعلى الرغم من أن نسخ الكتاب لاتشتمل على خرائط ابن سعيد إلا أن الكتاب يؤكد ذلك وفى بعض النسخ من التعليق ما يشير إلى خريطة[٥٩] ، كما أن مخطوطة باريس تضم خريطة دقيقة وغنية بالأسماء الجغرافية »[٦٠] .

٢ ـ ابن فضل الله العمرى : (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى الدمشقى ٧٠٠هـ/٧٤٩هـ)

يمثل هو الآخر امتداداً للمدرسة العامة (العالمية) المعتمدة على الإدريسى وإن خالف فى تناوله الجغرافى للعالم إذ قسم العالم فى موسوعته « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار[٦١] » على أساس الممالك أى الوحدات السياسية دون الاعتماد على التقسيم السباعى (الأقاليم السبعة) كما عند الإدريسى وابن سعيد ، أو تقسيم جغرافيي القرن الرابع الهجرى أصحاب المدرسة الخاصة (الخالصة) وهى مدرسة الأقاليم الجغرافية داخل العالم الإسلامى .

ويبدو اهتمامه بالخرائط من مقدمة موسوعته بقوله « إنه بين ما أراده فى كل مملكة بالتصوير (الرسم) ليعرف كيف هو ، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان مما اعتمدت فى ذلك على تحقيق معرفتى له ، فيما رأيته بالمشاهدة وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها[٦٢] .

وبالإضافة إلى هذه الخرائط التفصيلية لكل مملكة فقد ضمن كتابه خريطة للعالم ـ نقلا عن الإدريسى ـ ويظهر ذلك عند عرضه للأقاليم السبعة، وما وقع فيها من المدن والجزائر العامرة وذكر تصويرها بأشكالها[٦٣]. ويؤكد ما سطره بعد استعراضه لكل مفردات المعمور بقوله : وذلك منقول من لوح الرسم أو محقق بالسؤال ، وإن حصل فى بعضه إخلال وفيما أتينابه غنى عما سواه ...[٦٤]

وإذا كان أحمد زكى قد رجح رسم ابن فضل الله العمرى لصورة الأقاليم السبعة اعتمادا على الإدريسى إلا أنه لم يجدها فى المخطوطات التى جمعها لموسوعة ابن فضل الله العمرى بدار الكتب المصرية[٦٥] ، فإن نسخاً أخرى قد اشتملت على رسم مجموع الكرة برا وبحرا وعامرا وخرابا ووضع الأقاليم فى موضعها ووقوع جمليات البلاد حيث وقعت شرقا وغربا[٦٦] .

بالإضافة إلى الجهود الجغرافية فى رسم الخرائط واتخاذها أساساً للدراسة الجغرافية عند السابقين من الجغرافيين المسلمين نجد أن خريطة العالم التى ترسم وفقا لنهج المدرسة العامة هذه قد وردت فى كتب العجائب وخاصة فى مستهل هذه الكتب كخريطة مستديرة للعالم وكذلك نجد فى تلك الكتب أشكالا جغرافية ، ويحسن أن نشير هنا إلى أشهر هؤلاء :

ا : **القزوينى** : (زكريا بن محمد بن محمود القزونى ٦٠٠هـ/٦٨٢/١٢٠٣/١٢٨٣ م)

ففى كتابه « **آثار البلاد وأخبار العباد** »[٦٧] يصف أقاليم الأرض موزعة على الترتيب المعروف (الأقاليم السبعة) وفى داخل كل إقليم يرد وصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار ... وهو بهذا يسير وفق سابقه . وإن كان قد رتب المادة الجغرافية داخل الأقاليم وفقا لحروف المعجم.[٦٨] ويحتوى الكتاب على خريطة مستديرة للعالم[٦٩] وهناك خرائط وأشكال أخرى لصورة الكعبة والمسجد الحرام حولها ، وصورة مدينة تنيس فى بحيرتها (بحيرة المنزلة) وصورة مدينة قزوين وصورة مدينة قسطنطينية[٧٠] ومثل هذه الخرائط تدخل فى مجال عناية الجغرافيين المسلمين فى توضيح الظاهرات الطبيعية والبشرية بأشكال توضيحية ، وتؤكد الصلة بين الجغرافيا ، والخرائط عند الجغرافيين المسلمين ومن الراجح أن هذه الخرائط والأشكال قد نقلها القزوينى عن ياقوت الحموى الذى ضمنها معجمه « معجم البلدان » .

ب ـ **الدمشقى** : (شيخ الربوة : شمس الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى ٦٥٤هـ/٧٢٧ هـ) فقد ذكر فى مستهل كتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ... »

أنه قد ختمه بصورة جغرافية دهانا بالأصباغ وتخطيطا محررا على مثل مواقع الأطوال والعروض والأصقاع فى المعمور ، لتكون مثالا حسيا مشاهدا بالحسن يشهد منه ما وصف من الهيئة وليكون الوصف برهانا على ما مثلث أمثلته بالجغرافية (الخريطة) المذكورة ... ثم ذكر الألوان المستخدمة ودلالاتها والاصطلاحات بالخريطة ، وما ترمز إليه من ظاهرات بشرية كالأسوار والأبراج والهياكل والمدن .[٧١]

وعلى الرغم من هذه الإشارة الواضحة فى المقدمة عن رسم خريطة للعالم إلا أنه لم يتم الكشف عنها حتى الآن فى أية واحدة من مخطوطات الكتاب ، بيد أنه إذا أخذنا فى الاعتبار أن جميع كتب الكوزموغرافيا « وصف الكون » من هذا الطراز كمصنف القزوينى من قبله وابن الوردى من بعده ـ قد وجدت بها خريطة مستديرة للعالم فإن الإحتمال قائم بوجود مثل

هذه الخريطة عند الدمسقى ، خصوصا وإن بعض مخطوطات الكتاب تحمل عددا كبيرا من الرسوم التخطيطية التى يقدم لنا كونرد ميلر تحليلا لثلاثة منها من بينها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم(٧٢) ورسم للبحر المتوسط(٧٣) .

جـ ـ ابن الوردى : (سراج الدين أبو جعفر عمر بن الوردى توفى سنة٨٦١هـ)

يمثل مرحلة تدهور المدرسة العامة للخرائط، وقد ضمن بداية كتابه : «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» خريطة مستديرة للعالم مع وصف لها مفصل(٧٤) فيقول: «وضعت دائرة على صورة شكل الأرض فى الطول والعرض بأقاليمها وجهاتها وبلدانها وصفاتها وعرضها وهيئاتها وأقطارها وممالكها وطرقها ومسالكها ومفاوزها ومهالكها وعامرها وغامرها وجبالها ورمالها وعجائبها وغرائبها وموضع كل مملكة وإقليم من الأخرى ، وذكر ما بينهما من المتالف والمعاطب برا وبحرا ، وذكر الأمم المنقسمة فى الجهات والأقطار(٧٥).»

هذا ويعتبر ابن الوردى كتابه رسالة لطيفة فى توضيح مافى هذه الدائرة (الخريطة) تبين للناظر فيها أحوال الجبال والجهات والبحار والفلوات وما اشتملت عليه من الممالك(٧٦) ولكن هذا المؤلف يمثل مجرد مدخل عادى للغاية فى الجغرافيا وصورة ضامرة متخلفة لما أصاب الجغرافيا فى أواخر القرن التاسع الهجرى .

○○○

ثانيا : المدرسة الجغرافية الإسلامية الخاصة فى رسم الخرائط

تتمثل هذه المدرسة فى نتاج مجموعة الجغرافيين الخرائطيين الذين اعتمدوا أساسا فى كتاباتهم الجغرافية على تصوير الأقاليم ، أو رسم الأشكال وقد أطلق « مللر » عليهم اسم أصحاب أطلس الإسلام .

وهذه المجموعة من الخرائط نوع فريد أو نسيج وحيد قد جاء إنتاجاً إسلامياً خالصا من ابتكار هؤلاء الجغرافيين ، ويمثل أقصى ما وصله علم الخرائط عند المسلمين على يد جغرافيى القرن الرابع الهجرى .

وقد جاءت هذه الخرائط الممثلة لأقاليم العالم الإسلامى فى مستهل كتابة كل مؤلف جغرافى عند دراسته لكل إقليم ، ثم كانت المعلومات الجغرافية التالية للخرائط كشرح مفصل لتلك الخرائط ، وأحيانا يقتصر على مافى الخريطة من معلومات بدلا من تدوينها فى متن الكتابة أو تجنبا للتكرار مادامت الخريطة تحقق الفائدة المرجوة .

وتكاد تتشابه أهمية خرائط هذه المدرسة مع ماسار عليه الإدريسى من حيث اعتبار نزهة المشتاق شرحا لما فى خريطته من معالم جغرافية .. ومع هذا فهناك أكثر من فرق يميز بين المدرستين فضلا عن مستوى الرسم والطريقة المتبعة فى توقيع الظاهرات . فقد اقتصر أصحاب أطلس الإسلام على العالم الإسلامى بأقاليمه الجغرافية ، فى حين جاءت خرائط الإدريسى عامة وشاملة للعالم .

الأمر الثانى : اعتماد أصحاب أطلس الإسلام على التقسيم الإقليمى (الجغرافى) فى دراسة العالم الإسلامى فى حين اتبع الإدريسى طريقة تقسيم العالم على الأقاليم السبعة .

والأمر الثالث : إنه فى ضوء اختلاف الطريقتين أمكن تجميع أجزاء خرائط الإدريسى فى لوحة واحدة للعالم فى حين من المتعذر تجميع أجزاء المدرسة الخاصة فى خريطة واحدة عامة .[٧٧]

أما عن الخصائص العامة لخرائط هذه المدرسة ، فإنه فى ضوء الهدف العام لهذه الخرائط

يمكن أن تتحدد من سماتها وخصائصها ما يلي :

ا - إنها خرائط توضيحية فقط ، وليست وظيفتها الأساسية تحديد المواقع على وجه الدقة الكاملة ، وإنما مجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها وتوقيع البلاد بالنسبة لبعضها البعض.[٧٨] .

ب - إن هذه الخرائط لم يلاحظ واضعوها أطوال البلدان وعروضها[٧٩] عند رسمها ولعل الاهتمام بخطوط الطول والعرض إنما كان مرتبطا بالجغرافيا الفلكية وكتب الزيوج المعتمدة على التقسيم السباعى .

جـ - هذا النوع من الخرائط أقرب إلى الكارتوجراما[٨٠] فالسواحل فيها تظهر إما على شكل خطوط مستقيمة أو أقواس من دوائر ، وتظهر الجزر والبحار الداخلية على هيئة دوائر كاملة ، ويعنى ذلك أن الخرائط مرسومة بطريقة هندسية تخطيطة[٨١] .

د - خلو هذه الخرائط من صور الناس والحيوانات التى كانت تحفل بها الخرائط الأوروبية فى العصور الوسطى[٨٢] ولكن تضمنت الخرائط معلومات وبيانات مكتوبة عليها خاصة بما تتضمنه من ظاهرات الطبيعة من جبال ورمال وبحيرات ومن ظاهرات بشرية كالقبائل الضاربة فى الصحارى على نحو ما هو فى خريطة مصر لابن حوقل (انظر شكل ٦) وكذلك توقيع المنشئات البشرية الهامة لعجائب الدنيا ومن أمثلتها فى خرائط مصر الهرمان ومنارة الإسكندرية ، وهناك أيضا تحديد بعض المواضع التاريخية الهامة على نحو ما حدد المقدسى (انظر شكل ٢) موضع غرق فرعون فى خليج القلزم .

هـ - فى الوقت الذى كانت فيه الخريطة الأوروبية مجرد زخرفة وتزويق للكتب الدينية ، نجد أن أعلام هذه المدرسة الجغرافية الإسلامية كانوا أكثر دقة وفهما للغرض من الخريطة فالمقدسى - مثلا يقول : وقد طولنا الكتاب بوصف المدن ... وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد[٨٣] ثم يشير بعد ذلك إلى استخدام الطرق المختلفة لتمثيل الظاهرات الجغرافية ويعلل هذا بقوله ليقرب الوصف إلى الأفهام ويقف عليه الخاص والعام[٨٤].

هذه الخرائط الإسلامية الخالصة لم تأت من فراغ، وإنما كانت لها بدايات بدائية ممثلة فى خرائط منفردة[٨٥] رسمت لعدة أسباب منها السياسية والحربية ثم تطورت بعد ذلك حتى وصلت إلى أكمل صورها فى أطلس الإسلام[٨٦].

١ ـ البلخــــى : (أبو زيد أحمد بن سهل البلخى توفى ٣٠٧هـ)

هو أول السلسلة فى مجموعة الخرائطيين أصحاب أطلس الإسلام . ولقد كان تلميذا للفيلسوف الكندى (وقد سبقت الإشارة إليه)، كما أن له علاقته الوطيدة بالجيهانى[٨٧]. والبلخى جغرافى رياضى[٨٨] ألف كتابه المسمى بالمسالك والممالك متضمنا الأشكال أو صور الأقاليم وهو أشبه بالأطلس المصحوب ببعض التوضيحات[٨٩] وإذا كانت مجموعة خرائط البلخى وكتابه لم يصلنا إلا أن معظم الكتاب وصل إلينا برواية الإصطخرى فى كتابه[٩٠] ويحتوى كتاب الإصطخرى على نفس مجموعة الخرائط التى نسبت للبلخى وقد توجد ملونة فى بعض مخطوطات كتاب الإصطخرى[٩١] .

ولعل أصدق ما وصل إلينا عن البلخى وخرائطه وما ذكره المقدسى[٩٢] فى مقدمته بقوله « وأما أبو زيد البلخى فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعد ما قسمها على عشرين جزءا ثم شرح كل مثال واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب وترك كثيرا من أمهات المدن فلم يذكر ، ومادوخ البلدان ولا وطىء الأعمال . »

ولم يكن هذا هو النقد الوحيد الذى وجهه المقدسى لأعمال البلخى ، بل عاد بعد ذلك إلى نقد خرائطه ، مثل خريطة بحر القلزم إذ يقول : وأبو زيد البلخى جعله شبه طير ، منقاره بالقلزم ولم يذكر شعبة ويلة (أيلة) وعنقه بالعراق وذنبه بعد حبشة والصين[٩٣] .

وقد أثار اعتماد الإصطخرى على خرائط البلخى عدة تساؤلات من مدى هذه العلاقة ، ولم يكن هذا التنازع حديثا فقط بل كان منذ القرن الرابع الهجرى ذلك أن الإصطخرى قد ألف كتابه ورسم خرائطه فى حياة البلخى . وقد أشار إلى هذا التنازع المقدسى ،[٩٤] الذى عاش بعد نصف قرن من البلخى ، وكذلك أشار إلى هذا الأمر ياقوت[٩٥] وذهب آخرون إلى أن هذا الكتاب للإصطخرى ، ويعول على ما كتبه البلخى ، ولقد اعترف أكثر من بحث فى أمر هذا الكتاب بأنه لم يصلنا شىء مما كتبه البلخى .[٩٦]

٢ ـ **الإصطخرى** : (أبوإسحق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرخى توفى حوالى٣٢٣هـ أو ٣٤٠هـ) .

يشير الإصطخرى فى مستهل كتابه « المسالك والممالك » إلى منهجه بقوله « الغرض فى

كتابى هذا تصوير هذه الأقاليم التى لم يذكرها أحد علمته ، أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها ، والمسافات وسائر ما أنا ذاكره فقد يوجد فى الأخبار ، ولا يتعذر على من أراد تقصى شيء من ذلك من أهل كل بلد . فلذلك تجوزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لايسلك صورة ، إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل إقليم من الأرض حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما سيستحق كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إليه علمه ، مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى ، ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما(٩٧) ..

من هذا النص الهام يمكن أن نخرج بعدة ملاحظات :

أولهـــا :

إن الإصطخرى يحتفل بالخريطة الجغرافية إيما احتفال فهى عنده أساس الدراسة الجغرافية ، وهذا ما تقول به جغرافية القرن العشرين ، وهو فى هذه الناحية منطقى إلى أبعد الحدود . إذ يتخذ للعالم المعروف على عهده خريطة يفتتح بها الكتابة ليعرف من يطلع عليها موقع الإقليم الذى بصفه من العالم ، وهذا هو المنهج الجغرافى السليم ، ثم يتبع هذه الخريطة للعالم بالخرائط الإقليمية ، فيفرد لكل إقليم صورة على حدة(٩٨) .

ثانيهـا :

إنه لم يتخذ الأقاليم السبعة أساسا لتقسياته عن العالم الإسلامى ، بل اعتمد على الإقليم بمدلوله الجغرافى والإدارى والسياسى معا ، فكل إقليم عنده قائم بذاته كوحدة جغرافية إدارية (أى يتمشى مع التنظيات الإدارية التى عرفت منذ الفتح الإسلامى) وهو يقرر فى مستهل كتابه أنه ذكر أقاليم الأرض على الممالك وقصد منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها ، ولم يقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض ، بل جعل لكل قطعة أفردها صورة منفردة ، تحكى موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكر ما يحيط به من الأماكن ، وما فى أضعافه من المدن والبقاع والمشهورة والبحار والأنهار .

وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم ، من غير أن يستقصى ذلك كراهة الإطالة التى تؤدى إلى ملال القراء[٩٩].

ثالثهـــا :

تقسيمه العالم الإسلامى إلى عشرين إقليما ، وقد سار ابن حوقل على نفس التقسيم وإن خالفهما بعد ذلك المقدسى الذى قسم العالم الإسلامـى إلى أربعـة عشر إقليما . على أن التطابق ـ فى عدد الأقاليم ـ بين الإصطخرى وابن حوقل ليس وليد الصدفة فهما متعاصران وقد تقابلا ، وعرض الإصطخرى بعض خرائطه على ابن حوقل .

وقد ذكر ابن حوقل هذا اللقاء بقوله : « ولقيت أبا إسحاق الفارسى وقـد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها ، وصور فارس فجودها ، وكنت قد صورت أذربيجان التى فى هذه الصفحة فاستحسنها والجزيرة فاستجادها ، وأخرج التى لمصر فاسدة ، وللمغرب أكثر خطأ وقال الإصطخرى لابن حوقل فى هذه المقابلة ـ قد نظرت فى مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا حيث ضللت ، فأصلحت (ابن حوقل) فيه غير شكل وغزوته إليه »[١٠٠] .

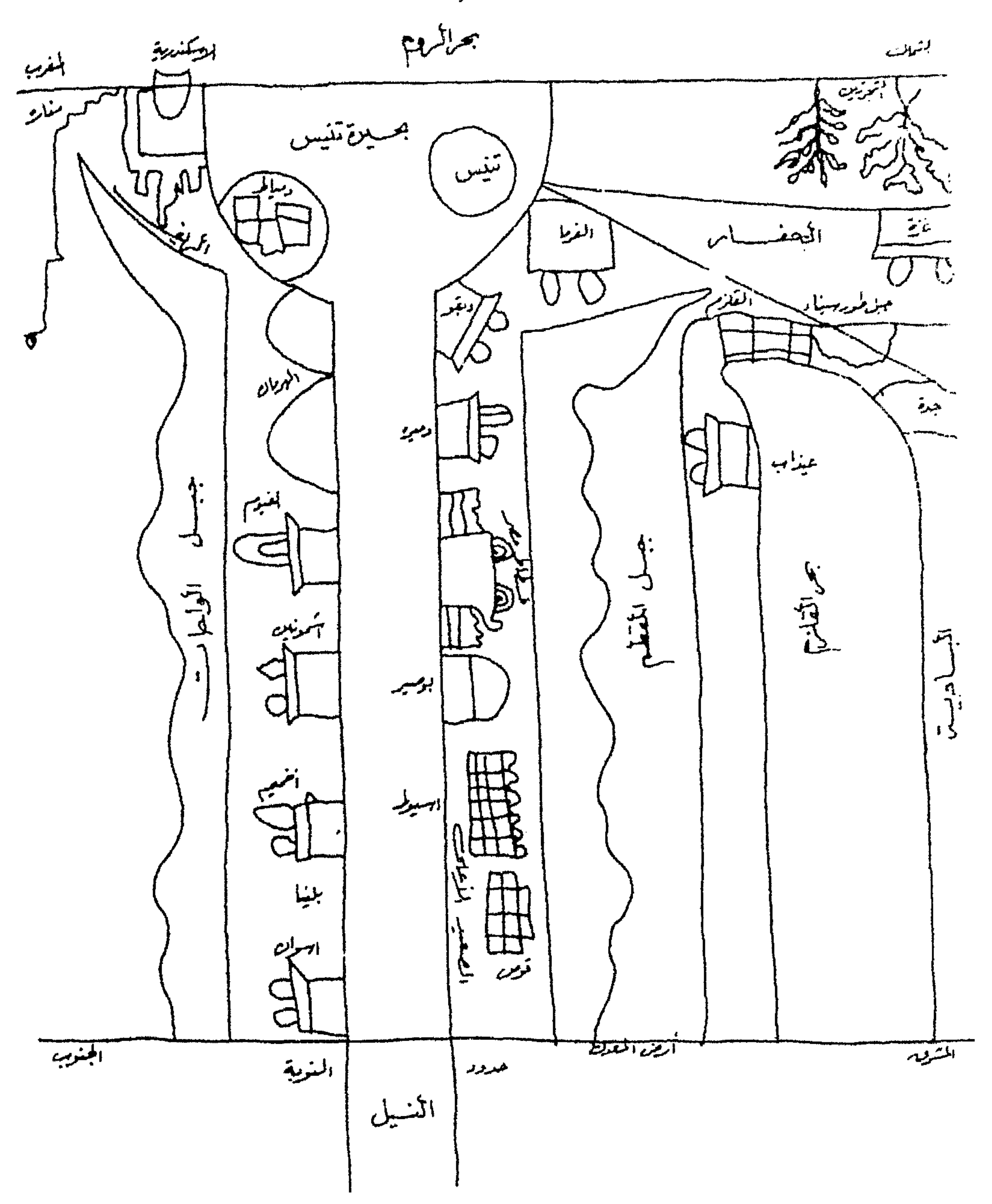
ومن هذا يتضح أهمية الخرائط فى هذه المؤلفات الجغرافية ، حتى إنها هى التى تعرض للتصويب وطلبا لإجازتها باعتبارها أهم ما يتفرد به الجغرافى ويشتهـر به ، أما المعلومـات الجغرافية فيمكن تحصيلها من بطون الكتب والمشاهدة والسؤال وإنما الجديد حقا هو تحويل هذه المعلومات إلى رموز مصورة على الخرائط بحيث يستغنى الناظر إليهـا عن النظـر فى المؤلفات ـ وهذا ما فعله الإصطخرى على نحو ما هو مشاهد بالشكلين (٤ ،٥)

والخلاصة أن الإصطخرى قد أدخل مفاهيم جديدة لعلم الخرائط عند المسلمين بجعله الخريطة أساسا للبحث الجغرافى [١٠١]وهو اتجاه سوف يزداد تعمقا وأهمية عند كل من ابن حوقـل والمقدسى بحيث يصبح اتجاهاً مميزا للمدرسة الجغرافية الإسلامية الخاصة فى رسم الخرائط يحق لها أن تنفرد به وتفخر أيضا .

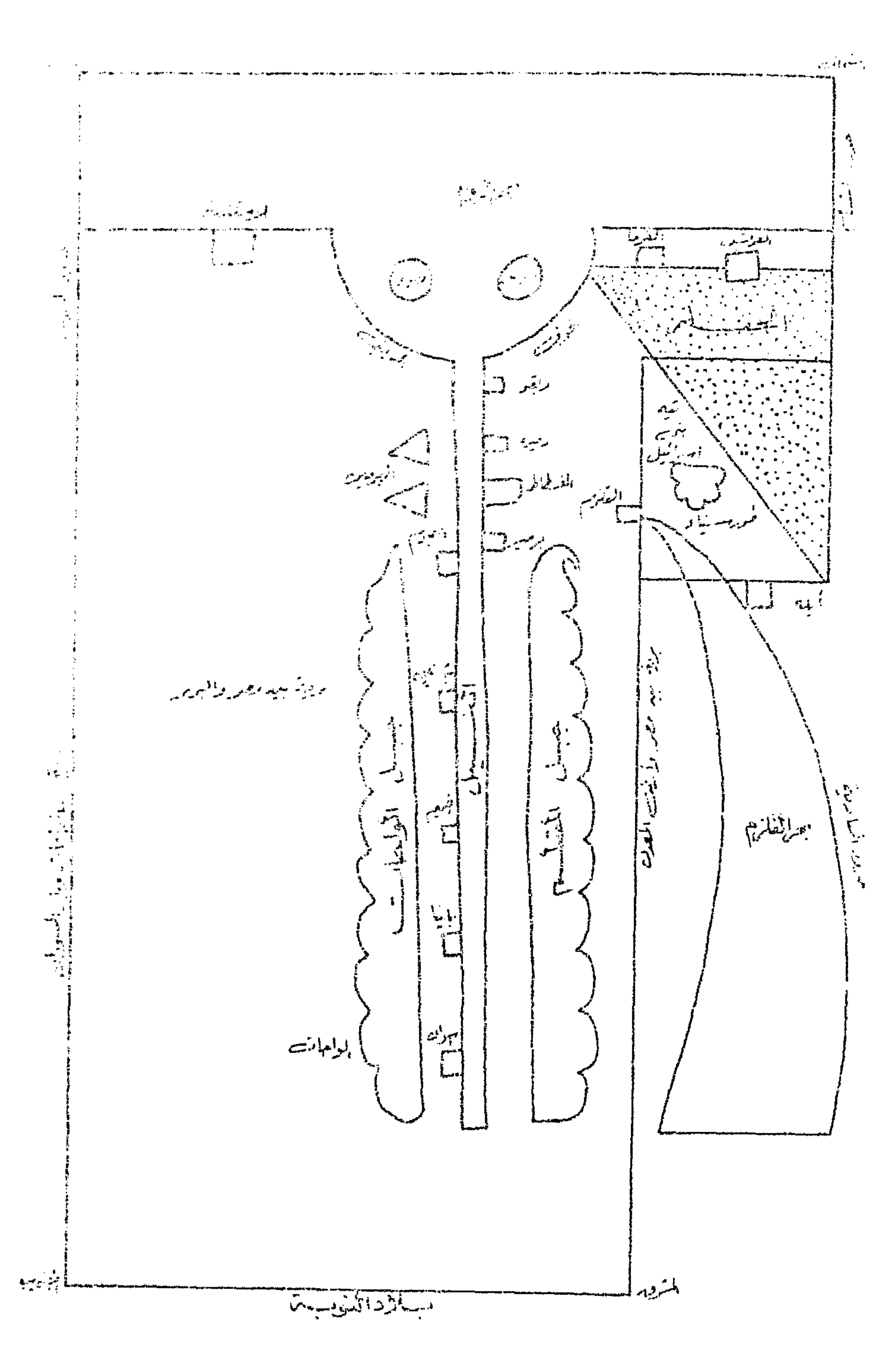
٣ ـ **ابن حوقل** : (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى توفى حوالى ٣٦٦ هـ ـ ٩٧٧ م)

سبقت الإشارة إلى أن ابن حوقل قد اقتفى أثر الإصطخرى فى التأليف الجغرافى ورسم الخرائط ولكنه فاقه وبزه فى هذا المجال وخاصة فى تصـوير الأقـاليم ، ومـع هذا لايخفـى

صورة مصر عند الإصطخرى



المصور : يوسف كمال : المجموعة الكمالية ص ٥٩٨



المصدر : يوسف كمال : المجموعة الكمالية ...

ابن حوقل أثر الإصطخرى بقوله ـ بعد ذكره المقابلة وإصلاح بعض الخرائط ـ ثم رأيت أن انفرد لهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره وجمعه وإيضاحه .[١٠٢] ويعلق محقق كتاب الإصطخرى[١٠٣] لينصف الإصطخرى بقوله « لقد ظل ابن حوقل لاتفارقه كتب ابن خرداذبة والجيهانى وقدامة بن جعفر حتى لقى الإصطخرى فأخذ كتابه واستغنى به عن غيره من الكتب » ولهذا لاتختلف كثيرا مقدمة ابن حوقل[١٠٤] عما ذكره الإصطخرى فى مستهل كتابه إلا فى بسط القول وإيضاحه بصورة أكبر .

أما من حيث عدد الخرائط أو الصور فقد تفرد ابن حوقل بتقسيم مصر إلى لوحتين الأولى لأسفل الأرض والثانية للصعيد (أنظر شكل٦) وبالمثل فعل بالمغرب (شرق القيروان والمهدية وغربها) ، هذا ويعلل ابن حوقل مااتخذه بشأن خريطة مصر بقوله « ومافى بطن هذه الصفحة صورة مصر ، ولم أجد سبيلا إلى إيراد صورة مصر فى صفحة واحدة فأثبتها فى صفحتين ، والصورة الأولى صورة الصعيد من أسوان إلى الفسطاط وشطنوف عند انفصال النيل منها ، والثانية من انفصال النيل فى خليجين أحدهما يأخذ شرقى شطنوف إلى تنيس وأعمال دمياط ، والآخر من غربى شطنوف آخذا إلى رشيد من ساحل الإسكندرية » .[١٠٥]

وأما عن تقسيم خريطة المغرب فقد قال : وقد صورتها بذاتها ورسمت فيها مواقع مياهها ومجاريها وأمكنة مدنها ومواقعها من شرقها وغربها وجنوبها وشمالها فى جملة صورة المغرب . وابتدأت منها بصورة ما بين مصر إلى القيروان والمهدية ، ومافى أضعاف ذلك ، واتبعتها بما فى باقى الصورة من القيروان والمهدية إلى طنجة ...[١٠٦]

وهذا التفصيل عن مصر والمغرب قد جاء عن مشاهدة ورؤية بفضل رحلاته وهو يشير إلى ذلك صراحة بعد ذكره المغرب « فهذه صورة المغرب وكان كل عمل ومدينة فيها وموقعها من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها حسب ما أدت الاستطاعة إليه ووقفت بالمشاهدة والخبر الصحيح بالمفاوهة عليه » .[١٠٧]

وابن حوقل صريح فى إثبات ما وضعه على التقريب ، دون الحقيقة على خرائطه ، فقد وضح ذلك عند تصويره بحر الروم (البحر المتوسط) فقال « هو خليج من البحر المحيط وعليه أكثر هذه الديار ، وقد أثبت به على التقريب لا على الحقيقة إذ بعضه أشبه شىء بالدائرة المحدودة .... وإن كنت سقته على ما أثبت به من الاستطالة فى صورة المغرب فهو من الاستدارة على هذا الشكل »[١٠٨].

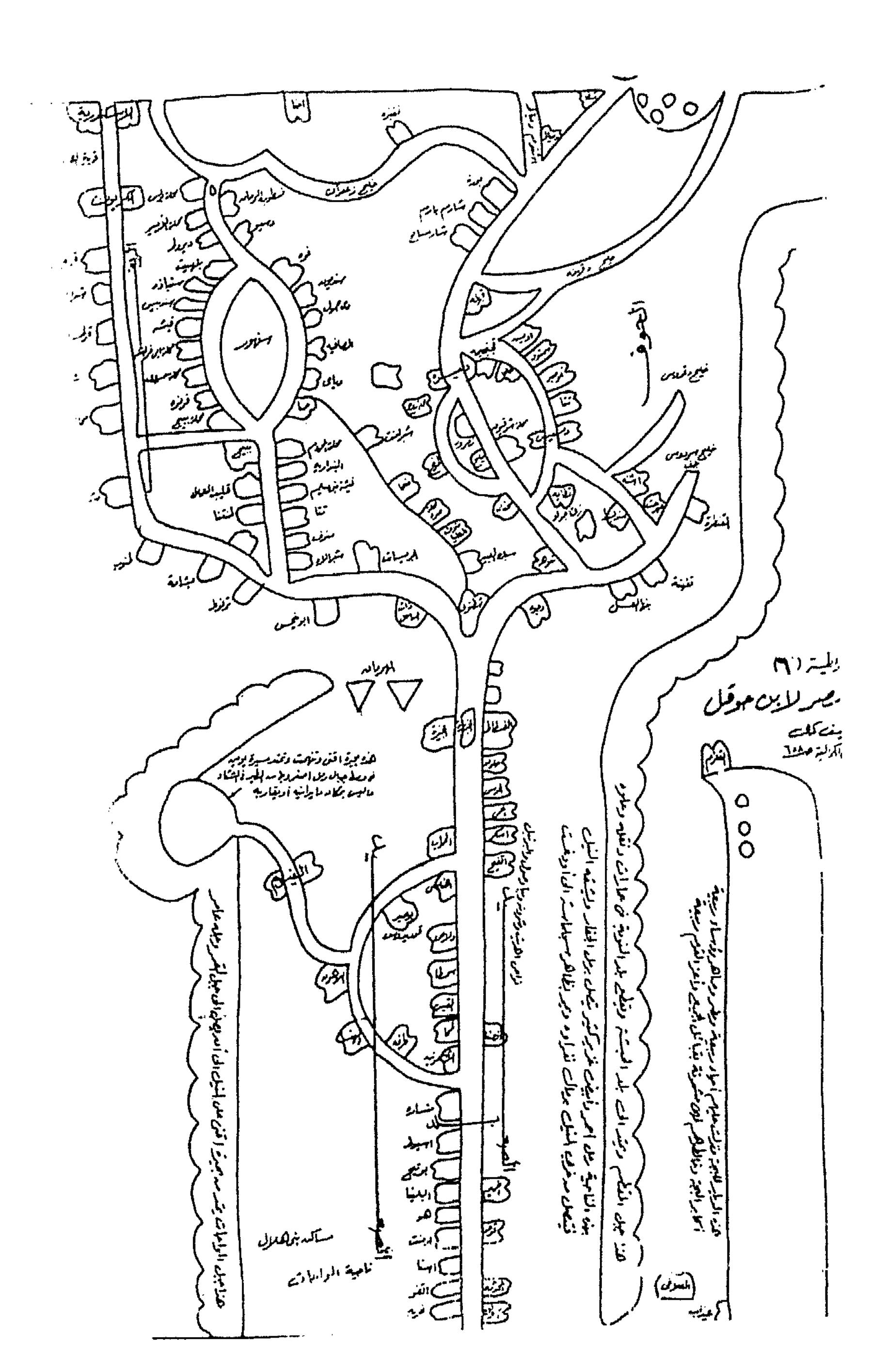
وهكذا نرى أن تفاصيل الخرائط وما تشمله من ظواهر مسجلة ليست على قدر واحد من الأصالة ، وانما يحكم هذا ما جمعه ابن حوقل من معلومات عن طريق الرحلة والرؤية والمسافهة والسؤال ثم ما تضمنته المؤلفات السابقة له علما بأن دراستهم كانت عن العالم الإسلامى فقط .

ومن الملاحظات الهامة عن خرائط ابن حوقل أنه يستغنى فيها أحيانا عن ذكر التفاصيل الإدارية إذا كانت متعددة حتى لاتزدحم الخريطة وتطمس المعلومات الواجب إبرازها ، وبالمثل فعل ابن حوقل بالنسبة لمظهر السطح السائد فى فارس (المظهر الجبلى) فليست هناك حاجة لتوقيع كل جبل ، وكذلك بالنسبة لمراكز الاستقرار العديدة المنتشرة فى الأقاليم ومن ثم فقد اقتصر على المدن المشهورة فقط وفى هذا يقول : « وقد صورت فارس بحدودها ولم آت فيها برستاق لانتشار ذلك وكثرته ، ولا الجبال لأنه ليس بفارس بلد إلا وبه جبل أو يكون الجبل بحيث تراه إلا اليسير ، ولم أصور إلا مدينة لها منبر مذكور مشهور وقد تحريت واجتهدت فى هذه الرسالة فيما يعلم من قراها موقع كل كورة برساتيقها ومواضع المدن بها(١٠٩) . »

هذا وقد ساعد ابن حوقل على إبداع هذه الصور ما حكاه من أنه كان شغفا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحى ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها(١١٠) وبعد أن يعرض لطريقته فى الوثوق بما يحكى إليه ومدى التنافر فى الأقوال والتضارب بينها يقول : وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحس فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم(١١١) .

وملاحظة أخرى هامة تتمثل فى استغناء ابن حوقل بالخريطة أحيانا . عن ذكر التفاصيل بمتن الكتاب من ذلك قوله عند تصوير فرع دمياط فى دلتا النيل « وأما الشعبة الآخذة من شطنوف مشرقة إلى دمياط وتنيس فقد ذكرت بين أشكال مدنها مسافاتها ، ويستغنى بذلك عن إعادة لفظ فيه وتكرير قول منه(١١٢) . »

والخلاصة أن الاختلاف بين خرائط الإصطخرى وابن حوقل تدل على تقدم ظاهر عند ابن حوقل فى تصوير الأطالس الإقليمية تقسيمها ورسمها(١١٣) مما يؤكد أصالته فى هذا المجال وعظيم الخطوة التى سارها فى تطوير رسم الخرائط الإسلامية مما يجعله على قمة من قمم هذا الفن وتكفى خريطة دلتا النيل كدليل لما تحفل به الخريطة الإسلامية من ظاهرات طبيعية وبشرية صحيحة .


مصر لابن حوقل

٤ ـ **المقدسي** : (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المعروف بالبشارى ٣٣٥هـ / ٣٩٠ هـ) .

ينضم كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم إلى ما سبقه من مؤلفات أصحاب أطلس الإسلام ويعتبر آخر ممثل لهذه المدرسة بالمعنى الدقيق وعلى قمة من قممها . وتبدو الصلة بين أقطاب هذه المدرسة فى الخرائط أكثر مما فى متون الكتب نفسها ، ولكن يلاحظ أن تقسيم المقدسى لأقاليم العالم الإسلامى يختلف بعض الشىء عما عليه الحال عند سابقيه وكذلك فإن الفرق بين المشرق والمغرب واضح جدا لديه[١١٤] وقد قسم العالم الإسلامى إلى أقاليم عربية غربية عددها ستة وأقاليم عجمية شرقية وعددها ثمانية .

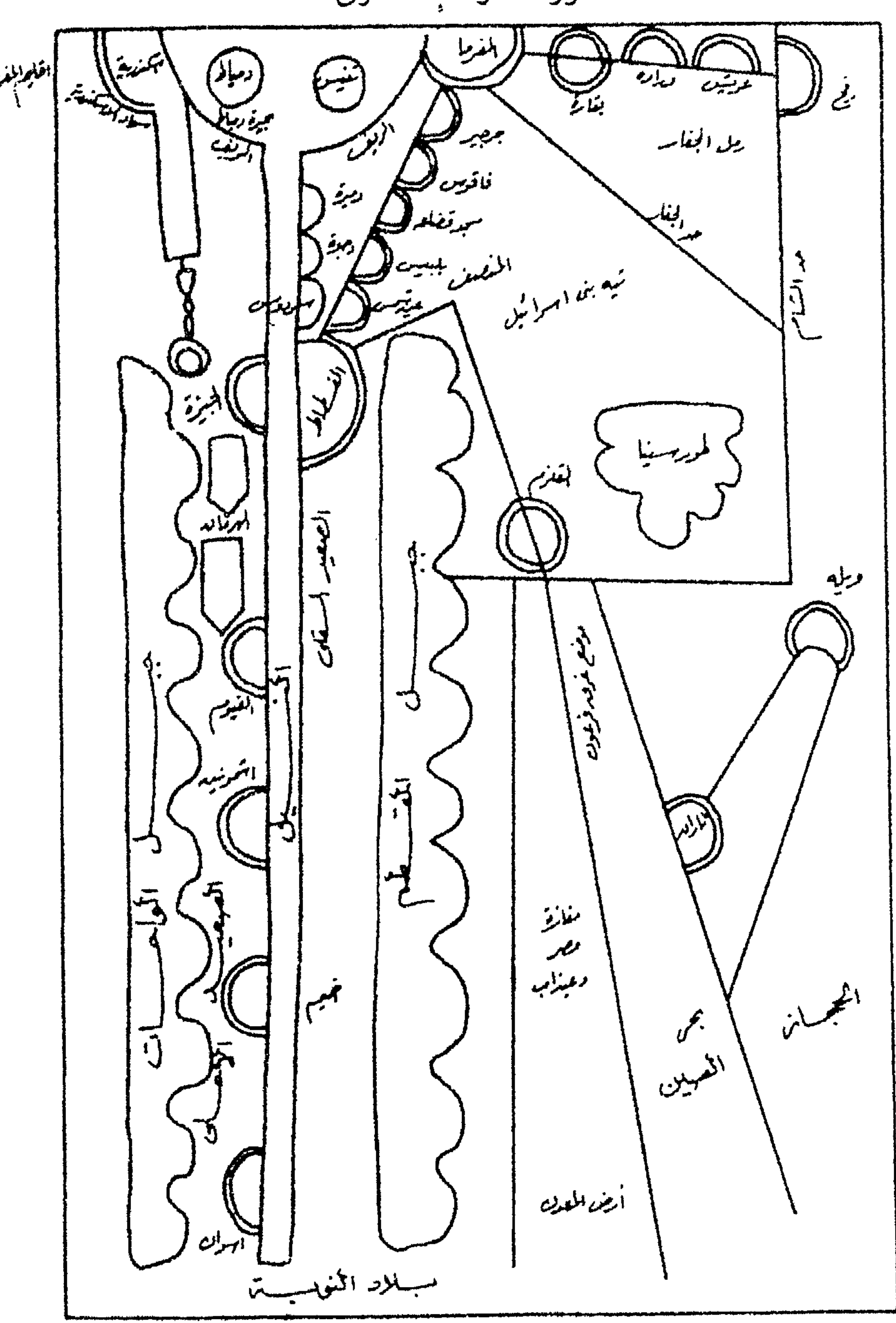
ولقد كان هدف المقدسى وصف المدن ، وتوضيح الطرق وتصوير الأقاليم لأن المعرفة بها أروج وتفصيل الكور لأن ذلك أصوب[١١٥] وقد جمع إلى جانب توقيع هذه الظاهرات الجغرافية على الخرائط استخدام الأصباغ فى الدلالة على هذه الظاهرات فرسمت الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة والأنهار بالزرقة والجبال المشهورة بالغبرة[١١٦] .

ولم يكتف المقدسى بما أضافه من طرق تمثيل الظاهرات الجغرافية بالألوان ، بل أخذ على عاتقه ـ كما سبقت الإشارة ـ نقد خرائط السابقين إظهاراً لما بها من أخطاء ، وهذه ميزة للمقدسى تنسحب أيضا على المؤلفات الجغرافية السابقة . كما أنه تعرض للفصل فى الخصومة القائمة فى نسبة بعض الخرائط لكل من البلخى والاصطخرى بقوله :

« ورأيت كتابا بخزانة الصاحب ينسب إلى أبى زيد البلخى بأشكاله ورأيته بعينه بنيسابور قد حمل من عند الرئيس أبى محمد الميكالى غير مترجم زعموا أنه من تصنيف ابن المرزبان الكرخى ، ورأيته ببخارى مترجماً لإبراهيم بن محمد الفارسى (الإصطخرى) وهذا أصح لأنى لقيت جماعة ممن لقيه مشاهدة يضيفه منهم الحاكم أبو حامد الهمدانى ، والحاكم أبونصر الحرير الحربى ، وهو كتاب أجاد أشكاله إلا أنه قد خلط فى مواضع كثيرة ولم يبالغ فى الشرح ولا كور الأقاليم[١١١٧] .

ومن أوضح الأمثلة فى تصويب المقدسى لأخطاء السابقين فى خرائطهم مع الإشارة إلى

صورة مصر للإصطخرى



المصور : يوسف كمال : المجموعة الكمالية ص ٦٧٢

منهجه فى رسم الخرائط حيث الاعتماد على المشاهدة فى رحلاته الطويلة ، وسؤاله أهل الخبرة والمعرفة ، واطلاعه على ما تحت أيديهم من دفاتر حين يعرض لبحر القلزم ورسمه « لم نر فى الإسلام إلا بحرين أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب كما مثلناه وله خلجان كثيرة وشعب عدة وقد اختلف الناس فى وصفه والمصورون (وأصحاب الأشكال) فى تمثيله ، فمنهم من جعله شبه طيلسان يدور ببلد الصين والحبشة وطرف بالقلزم وطرف بعبادان وأبو زيد البلخى جعله شبه طير منقاره بالقلزم ولم يذكر شعبه ويلة (أيله خليج العقبة) وعنقه بالعراق وذنبه بين حبشة والصين .

ورأيته ممثلا على ورقة فى خزانة أمير خراسان وعلى كراسة عند ابن القاسم بن الأنماطى بنيسابور ، وفى خزانة عضد الدولة والصاحب وإذا كل مثال يخالف الآخر ، وإذا فى بعضهن خلجان وشعب لاأعرفها ، وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان سوى ما توهت بنا المراكب فى جزائره ولججه ، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشئوا من ربانيين وأشاتمة ورياضيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ، فعلقت من ذلك صدرا صالحا بعدما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت وبينما أنا يوما جالس مع أبى على بن حازم انظر فى البحر ونحن بساحل عدن إذ قال لى ، مالى أراك متفكرا ؟ قلت : أيدالله الشيخ ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه ، والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه إمام التجار ومراكبه أبداً تسافر إلى أقاصيه ، فإن رأى أن يصفه لى صفة أعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل ، فقال على الخبير بها سقطت ، ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير وجعل له معارج متلسنة وشعبا عدة» ثم قال هذه صفة هذا البحر لا صورة له غيرها . وأنا أصوره ساذجا وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة ويلة لشهرتها وشدة الحاجة إلى معرفتها أو كثرة الأسفار فيها وأدع ما اختلفوا فيه واسم ما اتفقوا عليه ، وعلى الأحوال كلها لاشك أنه يدور على ثلاثة أرباع جزيرة العرب وإن له لسانين كما ذكرنا من نحو مصر يفترقان على طرف الحجاز بموضع يسمى فاران « تاران »[١١٨] .

من هذا النص الهام يتضح منهج المقدسى فى رسم الخرائط بعد التأكد من صحة البيانات التى يوقعها ، خصوصا وإنه لم يظهر مؤلفه حتى بلغ الأربعين ووطىء جميع

الأقاليم[١١٩] وكذلك تميز المقدسي باعتماده على الدفاتر الملاحية ، والعاملين في حقل الملاحة الإسلامية مما جعل حسين مؤنس يعتبر مثل هذا الأمر أكثر ما يميزه في مجال الخرائط عن سابقيه وإنه بذلك حلقة وسطى بين مدرسة أطلس الإسلام التي يمثلها ، ومدرسة الإدريسي التي تمثل الاتجاه العام العالمي في رسم الخرائط[١٢٠] وإن كان هذا الفرض قابلاً للمناقشة .

ولاشك أن خرائط المقدسي لو وجدت لأضافت الكثير مما أدخله من تطور على الخرائط الإسلامية خصوصا وأنه قد قال في مستهل كتابه :

وأما الأشكال التي مثلناها ، فقد بذلنا فيها المجهود حتى صحت بعدما تأملت عدة من الصور ، منها صورة وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة مثال مربع لم اعتمده وأخرى على كراسة عند أبي القاسم بن الأنماطي بنيسابور أيضا مربعة ، وما صوره الإصطخري وهي أقرب إلى الصحة يعتمد عليها وقد أخل وخلط في مواضع كثيرة . ورأيت شيخا بسرخس قد فصل الأشكال وصور بلد الكفر والإسلام كله خطأ إلا القليل ، وقلت له هل سافرت ؟ قال : ما جاوزت سرخس قلت:قد سمعت بمن شرح الأقاليم بالخبر وقد وقع في ذلك ما وقع من التخليط ولم أر من صور الأقاليم بالنقل غيرك[١٢١].

وهكذا لم يكن المقدسي حاطب ليل يجمع دون تمييز بل كان صاحب منهج يلتزم به ويعيب من لا يأخذ بالمنهج العلمي السليم في التأليف الجغرافي ورسم الأشكال . ومثل هذا القول يجعلنا نفسر اقتصار أصحاب هذه المدرسة على دراسة العالم الإسلامي دون غيره ، لأنهم لم يكونوا على علم ببلاد الكفر بمثل ما هو عليه بالنسبة للعالم الإسلامي الذي درسوه من خلال :

المعاينة والمشاهده الشخصية ...
السماع من الثقات واختيار أقوالهم ...

ما وجد في الكتب المصنفة بعد تمحيصه ، حتى ما بقيت خزانة ملك ـ كما يقول المقدسي ـ إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحها[١٢٢] .

ooo

الحواشـــى

(١) **انظر حسين مؤنس** . تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٣٨٦هـ/١٩٦٧ . ص ٢١٢ حيث يشير إلى أن خرائط الإدريسى فى نزهة المشتاق قد أصابها تحريف شديد بسبب قلة مهارة النساخين فى نقل الرسوم .

(٢) **ابن النديم** . الفهرست ، مكتبة خياط ـ بيروت ص ٢٦٨ .

(٣) **الكندى** :(أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الكندى) فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها ويسمى فيلسوف العرب وكتبه فى علوم مختلفة وله رسالة فى تسطيح الكرة .. انظر : ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٥ ، ص ٢٥٧ . ويرجح كراتشكوفسكى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ١٠٥) أن تأثير ترجمة جغرافيا بطليموس قد ظهر فى تأليف الكندى لكتابه رسم المعمور من الأرض ، وأن المسعودى قد اطلع على هذا المؤلف واستعان به فيما أخرجه عن المحيط الهندى من كتابه ... وأنظر أيضا جويدى محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب ، ١٩٠٨/١٩٠٩ ص ١٦ .

(٤) يذكر ابن النديم (الفهرست ص ٢٨٥) أن الفلكى ثابت بن قرة قد نسب لنفسه رسما للأرض (صفة الدنيا) من صنع قرة بن قميطا الحرانى ، وقد رأى ابن النديم هذه الصفة فى ثياب دبيقية خام بأصباغ وقد سميت الأصباغ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٦٤ ،١ ص ٩٧

(٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ١ ص ٨٨ / ٨٩ .

(٧) المسعودى : التنبية والإشراف ، تصحيح ومراجعة عبد الله إسماعيل الصاوى القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٣٠/٣١

(٨) انظر حسين مؤنس : مرجع سابق ، ص ٣٦١/٣٦٣

(٩) أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح . أعلام العرب (٦٣) ، ص ٣٤ .

(١٠) كراتسكوفسكى : مرجع سابق ص ٢٢٥/٢٥٤ . يوسف كمال : المجموعة الكمالية ص ٧١٠ .

(١١) انظر تقديم الكتاب ص ١٣ . ص ٢٨/٢٩ وقد أصدرته مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية المجلد الثامن ـ الجزءان الأول والثانى (مايو نوفمبر ١٩٦٤) وقد حققه د . بيولجاكوف وراجعه إمام إبراهيم أحمد .

(١٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ـ طبع باريس ، ١٨٤٠ م .

(١٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٠/١١

(١٤) أنور عبد العليم : ابن ماجد ص ٣٠/٣١

(١٥) المسعودى مروج الذهب جـ ١ ص ٢٨١/٢٨٣ ، أنور عبد العليم : ابن ماجد ص ٣٢ ، وعن الخرائط العملية أنظر حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢٦٧/٢٦٨

(١٦) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٥٦٥/٥٦٦ .

(١٧) أنور عبد العليم : ابن ماجد ص ٣٠ .

(١٨) أنور عبد العليم : المرجع السابق ص ٤١ وخاصة ما كتبه ابن سعيد المغربي في هذا المجال ومن قبله المسعودى وأنظر جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة في المحيط الهندى في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ترجمة السيد يعقوب بكر ، الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٥٨ ،ص ٢٣٢/٢٢٩ .

(١٩) الدوميلىّ : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمى ، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، مراجعة حسين فوزى . دار القلم ١٩٦٢ ، ٣٩٥/٣٩٢

(٢٠) أحمد سوسة : الشريف الإدريسى في الجغرافية العربية المقدمة دد / هـ هـ

(٢١) محمد محمود الصياد : الفكر الجغرافي العربى وتطوره ، مجلة الثقافة العربية تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص ١٣٣/١٣٢ ، العدد الثالث ١٩٧٥ .

(٢٢) الخوارزمى : صورة الأرض اعتنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مجيك ، طبع فينا ، ١٩٢٦ ، ولدراسة الخوارزمى يمكن الرجوع إلى كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٣/٩٨ . نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ترجمة فتحى عثمان ، مراجعة على أدهم ، الألف كتاب (٢٧٢) دار القلم ص ٤٣ ، ص ١٤١/١٤ . السعيد عبد العزيز عبد الدايم : الدراسات الجغرافية عند المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجرى . رسالة ماجستير (غير منشورة) آداب القاهرة ١٩٦٩ . جويدى : محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب ص ١٣ .

(٢٣) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ١٠٣ ، عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى . الطبعة الثالثة . الأنجلو . القاهرة ، ١٩٧٣ ص ٢٣٩/٢٣٨ .

(٢٤) أحمد سوسة : الشريف الإدريسى في الجغرافيا العربية ص ١٢١ ، ص ٢٣٤ .

(٢٥) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ١٠٢ .

(٢٦) حسن مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٥٠٣ .

(٢٧) هيام عبد الرحمن سليم : شرق أفريقية عند الكتاب العرب من القرن الثالث إلى القرن العاشر الهجرى (٩ م ـ ١٦ م) رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ ص ٥٧/٥٦ .

(٢٨) إبراهيم شوكت : خرائط جغرافي العرب الأولى ، مجلة الأستاذ ، المجلد العاشر ، ١٩٦٢ ، بغداد ص ٦٢/٣٧ .

(٢٩) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٨٧/٨٦ ، أحمد سوسة : مرجع سابق ص ١١٣ ، عبد المنعم ماجد : مرجع سابق ص ٢٣٨ .

(٣٠) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٩٩ ، نفيس أحمد : مرجع سابق ص ٤٣ ، ص ١٤٠

(٣١) أبو الكلام أزاد : أبو الريحان البيرونى وجغرافية العالم ، مجلة ثقافة الهند ، ديسمبر ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

(٣٢) المسعودى : التنبية والإشراف ، ص ٣١/٣٠ .

(٣٣) الزهرى : كتاب الجغرافية اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق ، المعهد الفرنسى بدمشق ، ١٩٦٨ .

(٣٤) بالعين المهملة وهذا ليس تصحيفا وإنما هو رسم معروف للفظ في كثير من الكتب الأندلسية خاصة ، وذكره ياقوت وابن خلدون .. أنظر مؤنس : مرجع سابق ص ٣٦٩ .

(٣٥) الزهرى : الجغرافية ص ١ .

(٣٦) حسين مؤنس : مرجع سابق . ص ٣٦٨ .

(٣٧) الزهرى : مرجع سابق ص ١٤٠

(٣٨) الزهرى : المرجع السابق ص ٧ ،ص ١٦ .

(٣٩) يرى محمد حاج صادق محقق الكتاب في مقدمته أن الزهري من تلامذة الأصمعي وأنه هو صاحب كتاب تسطيح الكرة الذي اتخذه سائر الكتاب مثلاً على ما قيل . ولعل هذا الكتاب هو الذي تضمن الخريطة التي نسخ الزهري منها وهي بدورها منقولة عن جغرافية المأمون ويرى حسين مؤنس (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٣٧٢/٣٧١) أن خريطة الزهري مجهولة النسبة وأنها ربما كانت واحدة من الخرائط الكثيرة المتداولة بين أيدي الملاحين في النواحي الإسلامية بالأندلس . وقد وافقه على ذلك أحمد سوسة . مرجع سابق ص ١١٦/١١٣ .

(٤٠) محمد حاج صادق : مقدمة كتاب الزهري ، حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٣٦٣ .

(٤١) تعتبر الدراسة التي قدمها حسين مؤنس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (من ص ١٦٥ حتى ص ٢٨٠) أوسع وأدق ما كتب عن الشريف الإدريسي وكذلك كتاب الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية لأحمد سوسة (من ص ٣١١ إلى ص ٣٦٨ على وجه الخصوص) .

(٤٢) الدوميلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ٣٨٧ .

(٤٣) كراتشكوفسكي : مرجع سابق ص ٢٩ .

(٤٤) الإدريسي : المقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة إيطاليا طبع روما سنة ١٨٧٨ ص ٦/٥ .

(٤٥) عن هذه الكرة والاختلاف حول كونها على شكل قرص أو كرة مجسمة أنظر مختلف الآراء عند أحمد سوسة مرجع سابق ص ٣١٦ / ٣٢١ .

(٤٦) الإدريسي : المقدمة ، ص ٢١ .

(٤٧) شرع المعهد الإيطالي للشرقين الأدنى والأقصى بروما في السنوات الأخيرة في إعادة طبع كتاب الإدريسي كاملاً بعد تحقيقه بمعرفة مجموعة من المتخصصين وقد ظهر من هذه الطبعة الأجزاء الأول والثاني والثالث ...

(٤٨) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ١٩٩ . أحمد سوسة ، مرجع سابق ص ٣٦٦ .

(٤٩) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢٦٧ .

(٥٠) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٧٣/٢٧٢ .

(٥١) أحمد سوسة : العراق في الخوارط القديمة ص ٢٠ . أحمد سوسة : الكعبة الجغرافية مقال مجلة الجمعية الجغرافية العراقية المجلد الأول ١٩٦٢ ، ص ٢٤٥ .

(٥٢) أبو الكلام آزاد : أبو الريحان البيروني ص ٢٧ .

(٥٣) كتاب الجغرافيا لابن سعيد حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي . منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

(٥٤) نشر وتحقيق خوان فرنيط خمنيس ، تطوان ، معهد مولاي الحسن ١٩٥٨ .

(٥٥) كراتشكوفسكي : مرجع سابق ص ٣٥٧ .

(٥٦) إسماعيل العربي : مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد ص ١٢ .

(٥٧) اعتمد في هذا التلخيص على : حسين مؤنس مرجع سابق ص ٤٩٥ : إسماعيل العربي مقدمة الجغرافيا لابن سعيد .

(٥٨) إسماعيل العربي : مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد ص ٥٧/٥٦ .

(٥٩) إسماعيل العربي : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٦٠) زكي محمد حسن : مقدمة كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ص ٢١ .

(٦١) نشر الجزء الأول بتحقيق أحمد زكي ، دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .

(٦٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٢ .
(٦٣) ابن فضل الله العمرى : المرجع السابق ص ٨٠ .
(٦٤) ابن فضل الله العمرى : نفس المرجع ص ٩٠ .
(٦٥) ابن فضل الله العمرى : المرجع السابق جـ ٢ ص ١ هامش ٢ (ملازم مطبوعة بدار الكتب.)
(٦٦) محمد عبد الجواد الأصمعى : تصوير وتجميل الكتب العربية فى الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب فى العصور الإسلامية دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ ص ٦٢ وهذه الأشكال فى ص ٢٩٤/٢٩٢ من القسم الثانى من الجزء الأول المخطوط رقم ٥٥٩ معارف عامة دار الكتب المصرية .
(٦٧) نشر دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٩ .
(٦٨) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٣٦٤ .
(٦٩) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٣ .
(٧٠) القزوينى : المرجع السابق ص ١٦٥ ، ١٧٦ ، ص ٤٣٤ ، ص ٦٠٤ على الترتيب .
(٧١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ليبزج ، ١٩٢٣ ، ص ٣ .
(٧٢) الدمشقى : مرجع سابق ص ٢١ وهذه موجودة عند ياقوت الحموى والقزوينى .
(٧٣) الدمشقى : نفس المرجع ص ١٤ .
(٧٤) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٥٠
(٧٥) ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، طبع مصر ، ١٩١٠ ص ٣ .
(٧٦) ابن الوردى : المرجع السابق ، ص ٦ .
(٧٧) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٢٠٧ .
(٧٨) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢٦٧ .
(٧٩) أحمد سوسة : العراق فى الخوارط القديمة ص ١٧ .
(٨٠) الكارتوجراما عبارة عن خرائط بيانية تعتمد على وجهة نظر معينة ، فيقصد بها أحيانا ظاهرات محددة دون غيرها ، وهى ليست دقيقة المقياس .
(٨١) محمد صبحى عبد الحكيم وماهر عبد الحميد الليثى : علم الخرائط الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، الأنجلـو ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٣ ، كراتشكوفسكى مرجع سابق ص ٢٠٧ .
(٨٢) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص ٢٠٨ .
(٨٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٨ .
(٨٤) المقدسى : المرجع السابق ، ص ٩
(٨٥) من أمثلة ذلك ، خريطة الديلم التى عملت للحجاج بن يوسف الثقفى .. أنظر ابن الفقيه الهمدانى : كتاب البلدان ص ٢٨٣ ، أحمد سوسة : المكتبة الجغرافية ص٢٣٥ ، أحمد نجم الدين قليجه : الجغرافيا العملية والخرائط الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ٢٧/٢٦ . وخريطة البطيحة ـ وهى منطقة الأهوار غرب البصرة . على نحو ما ذكر فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى . أنظر أحمد سوسة : المكتبة الجغرافية ص ٢٣٥ .
(٨٦) يحسن أن نشير هنا إلى أن كراتشكوفسكى يفترض الارتباط بين أطلس الإسلام وأطلس إيران القديم ، وقد استعرض ذلك فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب ص ٢٠٨/٢٠٧ .
(٨٧) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ، ص ١٩٨ .

(٨٨) الدوميلى : مرجع سابق . ص ٢٣٣ .

(٨٩) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ، ص ١٩٨ ، أحمد سوسة : مرجع سابق ص ١٥١ .

(٩٠) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢١٧ .

(٩١) الدوميلى : مرجع سابق ص ٢٣٣ ، أحمد سوسة : مرجع سابق ص ١٥٤ .

(٩٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٤ .

(٩٣) المقدسى : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٩٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ... ص ٥ .

(٩٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ١٢٢ حيث يقول : قرأت فى الكتاب المتنازع بين أبى زيد البلخى وأبى إسحاق الإصطخرى فى صفة البلدان .

(٩٦) إبراهيم شوكت : خرائط كتاب الأقاليم للإصطخرى مجلة المجمع العلمى العراقى المجلد ١٧ . بغداد ، ١٩٦٩ ص ٤ .

(٩٧) الإصطخرى : المسالك والممالك : تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، مراجعة شفيق غربال ، دار القلم القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥ .

(٩٨) محمد محمود الصياد : المسالك والممالك للإصطخرى ، مجلة تراث الإنسانية المجلد الأول ، ص ٧٢٤ . الإصطخرى : مرجع سابق ص ١٩٥ ، ١٩٦ تعليقات محقق الكتاب محمد جابر الحينى .

(٩٩) الإصطخرى : مرجع سابق ، ص ١٥ .

(١٠٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ص ٢٨٤ .

(١٠١) أحمد سوسة : مرجع سابق ص ١٥٩ .

(١٠٢) ابن حوقل : مرجع سابق ص ٢٨٤ .

(١٠٣) محمد جابر الحينى : مقدمة كتاب المسالك والممالك للإصطخرى ص ٨

(١٠٤) ابن حوقل : مرجع سابق ص ١٠ ، ١١ ص ١٥/ ١٨ .

(١٠٥) ابن حوقل : المرجع ص ١٧٤/١٧٥ .

(١٠٦) ابن حوقل : المرجع السابق ص ٦٦ .

(١٠٧) ابن حوقل : المرجع السابق ص ٦٩ .

(١٠٨) ابن حوقل : نفس المرجع ص ١٧٤/١٧٥ .

(١٠٩) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(١١٠) ابن حوقل : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

(١١١) ابن حوقل : نفس المرجع ، ص ٢٨٣/٢٨٤ .

(١١٢) ابن حوقل : نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(١١٣) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢١٩ .

(١١٤) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ، ص ٢١١ .

(١١٥) المقدسى : مرجع سابق ص ٨ .

(١١٦) المقدسي : نفس المرجع والصفحة .

(١١٧) المقدسى : نفس المرجع ص ٥ .

(١١٨) المقدسي : المرجع السابق ص ١٠/١٢ .
(١١٩) المقدسي : نفس المرجع ص ٨
(١٢٠) حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٢٢٠/٢٢١
(١٢١) المقدسي : مرجع سابق ص ٦
(١٢٢) المقدسي : مرجع سابق ص ٤٣ .



جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط

محمد بن أحمد العقيلى



أولا : المعلومـات الجغرافيـة قبـل اليونـان

يظهر ـ وإن كان لايوجد الدليل ـ أن الفينيقيين هم أول من وضع أو أسهم ولو بوضع الخطوط الأولى فى علم الجغرافيا ، يهتدى إلى ذلك من معرفة رحلاتهم البحرية ، ونشاطهم التجارى .

فالفينيقيون هم من عرفوا بترويضهم للبحار فى أسفار موسمية ، وركوبهم أثباج الأمواج ، ومسحهم الشواطىء جيئة وذهابا ، واقتحموا الصعاب . واتخذوا من البحـر الأبيض مجـالاً حيويا ، وقبله من الخليج العربى ، والبحر الأحمر . قبل انتقالهـم من الخليج إلى لبنـان ، وتسميتهم مدن مهجرهم الجديد بأسماء مدنهم فى الخليج ، كصور و(الجبيل) وغيرهما . منذ ما يقارب خمسة وثلاثين قرنا .

كانت مدينة صور عاصمتهم وقاعدة تجارتهم ، يصلون إليها بمحاصيل أقطار العالم ، ومنتوجات الدنيا ومن صور توزع على الأسواق تجارياً ، وتتداول اقتصاديا ، بين الهند وشمال أفريقيا ، وبين بلاد العرب السعيدة موطن البخور إلى بلاد اليونان شمالا .

من فوائد تلك الرحلات ، ومن نتائج مغامرتهم الجريئة ، وأسفارهم التجارية الناجحة ، استفادوا علميا باختباراتهم وتجاربهم ، واقتصاديا بتبادل المنتوجات وجلب السلع والعروض ، فأصبحوا دهاقين التجارة ، وسادة البحار .

فنمت معلوماتهم بخطوط المواصلات البحرية والمسالك العالمية ، وأحوال الأمم ـ المعروفة آنذاك ومعرفة المدن ، والمسافات بين البلدان ، وأنسب الفصول للأسفار ، ومواسـم هبـوب الرياح واتجاهاتها والاستدلال بمعرفة النجوم وغير ذلك .

فاتقنوا فن الملاحة ، مما مكنهم من معرفة عالم عصرهم ، ودنيا عهدهم ، والسيطرة على التجارة حتى حطمهم الرومان وتفردوا بالسيطرة ـ كما هو معروف .

ولا يبعد أن يكون للبابليين والأشوريين والحيثيين مع ما وصلوا إليه من شأو حضارى بعض المعلومات الجغرافية ، وإن كان شأنها أقل بكثير من المعلومات الفينيقية ، والتى يقال:إن بعضها وصل إلى اليونان .

ثانيا اليونان والجغرافيا

بعد نحو ما يقارب ألف سنة من عهد النبى موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، أهل العهد اليونانى ، الذى عاش فيه شاعر اليونان الكبير (هومير) الذى نظم معلوماته الجغرافية فى ملحمته المشهورة (الإلياذة) .

ظل اليونان على تلك المعلومات الضحلة ، حتى ظهور مؤرخهم هيرودت فى سنة ٤٨٤ ق . م وبعد استكمال دراسته قام برحلاته ـ المعروفة ـ إلى ممالك عصره ، فزار ضمن ما زاره من البلاد (مصر) وسجل معلوماته عن البلاد التى زارها ومنها مصر التى أفاد عنها بمعلومات جيدة .

واليونان هم بدورهم - أيضا - جعلوا من البحر الأبيض نقطة إرتكاز، ومجالاً حيوياً لنشاطهم التجارى والسياسى ، وامتد نشاطهم الملاحى إلى البحر الأحمر لتجارة البخور وغيره .

ومن ما وصل إليهم بالرواية حتى عن الفينيقيين ، ومن أخبار روادهم الأوائل ، ومما جاء فى الإلياذة تكونت معلوماتهم الأولية التى كانت أساسا لدراسة الجغرافيا .

ثالثا : حملة الإسكندر لفتح العالم

فى سنة ٣٣٤ ق . م تقدم الإسكندر بحملته المشهورة ، وكان بصحبته رجال من العلماء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم فاشتغل كل منهم فى دائرة اختصاصه .

ومن حصيلة جهودهم منذ خروجهم إلى أن وصلوا الهند ، ومن المعلومات التى جمعها المختصون عن أساطيله تجمعت حقائق ومعلومات عن البلاد التى شملتها فتوحاته .

وكان لخلفائه وبالأخص البطالسة، شغف علمى دفعهم إلى العناية بجمع المعلومات

الجغرافية عن شواطىء البحر الأحمر والحبشة ، أضيفت إلى معلوماتهم السابقة ومعلومات رجال حملة الإسكندر .

من كل تلك المعلومات المتفرقة قام (اراتستين) اليونانى المتوفى سنة١٩٦ق.م فى عصر البطالسة بتأليف كتاب سجل فيه كل ما وصل إلى علمه وعما يروى عن الفينيقيين وعن الرواد الأوائل وما سجله (هيرودت) ، وما جاء عن معلومات علماء حملة الإسكندر وغيرهم .

وجاء بعده الرحالة (استرابون) والجغرافى (بلينيوس) وسجلا ما وصل إلى علم كل منهم ، وقد كتب البقاء لكتاب الرحالة (استرابون) إلى هذا التاريخ .

وفى أواسط القرن الثانى ألف بطليموس كتابه الخالد (جغرافيا) أو (الجغرافيا) فحدد المدن وغيرها بالحسابات الفلكية ، والطرق الرياضية ، ورسم الخرائط المتقنة على خطوط الطول والعرض .

رابعا : الرومان والجغرافيا

من المعروف ما بلغ إليه سلطان روما واتساع امبراطوريتها ، وما شملته فى الثلاث القارات ، وما يتطلب ذلك من معلومات جغرافية ، بمعرفة مناطقها ، ومدنها ، ومسافاتها ، والطرق المؤدية إليها ، وطبيعة كل منطقة وموقعها ، الأمر الذى استدعى من الدولة الاهتمام بالمعلومات الجغرافية ، والتشجيع على جمعها ، والأخذ بيد المؤلفين .

وكان أكثر معلومات الرومان مستقاة من التجارة وقوافلها ، أو مراكبها ، فمعلوماتهم بالطرق التجارية الرئيسية والأكثر أهمية ـ بالنسبة إليها ـ تجاريا وحربيا ، والأمم التى حولها ، والشعوب الأكثر ارتباطاً ومصالح تجارية بها ، معلومات صحيحة فى الغالب .

إن ترامى أقطار تلك الإمبراطورية وتنوعات محاصيلها ، ووفرة انتاجاتها ، جعلتها تقرب من الاكتفاء الذاتى ، إلا ماندر ، فكانت لاتستورد من الخارج إلا وسائل الترف ، أو المواد الكمالية ، ومنها العنبر ، الذى كانت له سوق نافقة ، فيجلب إليها من شواطىء البلطيك ، ويرسل إلى مناطق البحر المتوسط ، فى طريق تقطع نهر الدانوب ، ومنه تدور حول مرتفعات الألب الشرقية ، فالبحر الأدرياتى .

فتوفرت لديها معلومات عن أوروبا مستقاة من تجار تلك المادة . ووفرة المال . وبـذخ أشراف روما يتطلب الحصول على الأحجـار الكريمـة ، والـطيوب ، والعـاج ، والبخـور ، والمنسوجات الرفيعة ، وهى مواد ومنتوجات مصدرها الهند ، وعدن من البلاد العربية ، وبعد ذلك الحرير والورق من منتوجات الصين ـ وروما تتقاضى رسوما جمركية على كل تلك السلع تعد من مواردها الرئيسية ، وذلك يستدعى حراسة الحدود . برا وبحرا ، فضلاً عما يقتضيه موقفها العالمى كامبراطورية ، كل ذلك يستوجب سواء فى الدوائر الرسمية ، أم من الباحثين ما يلقى التشجيع ، ومع كل ذلك فإنه يغلب عليه الطابع الاقتصادى والسياسى أكثر من غلبة الطابع العلمى .

لما سبق حرصوا على معرفة طريق الهند عبر المحيط الإطلنطى ، متحاشين بقدر المستطاع الابتعاد عن الساحل خشية القراصنة ، وقـد يقـول قائـل ـ إن طريق المحيط إلى الهنـد لم يكتشفها إلا (فاسكودى جاما) ، سنة١٤٩٨ م بإرشاد الربان العربى ابن ماجد ، فنقول له : إن المعارف الجغرافية اليونانية والرومانية ، قد أسدل عليها الجهل الأوروبى حجباً كثيفة فتوارت فى ظلام النسيان ومهامه الإهمال ، ولم تعد تلك المعارف إلى أوروبا ثانية إلا بفضل المسلمين فترجمها الأروبيون من العربية بعد أن أتموا تحصيلهم العلمى فى طليطلة ، وقرطبة وغيرها .

لقد كان السفر من (عدن) إلى الهند للأساطيل التجارية الرومانية يستغرق مدة ثلاث سنوات إيابا وذهابا وشغف أغنياء وأشراف روما بمنتوجات الهند من المنسوجات المفضضة والمذهبة والعطور والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، والأفاويه ـ وبالأخص (الفلفل) ومـا يدره من الأرباح الجزيلة تغرى بتحمل تلك المشاق . فظلوا على تلك الحال ، حتى تمكن بحار جرىء يسمى (هيبالوس) بذكائه الخارق ، من اكتشاف موسم هبوب الرياح الموسمية التى تدفع مركبه إلى الهند ، والعكس ، فكان ذلك اكتشافا له أهميته القصوى بالنسبة إلى عصره بحيث اختصر المدة إلى اثنى عشر شهرا ذهابا وإيابا . فازدهرت التجارة بين الهند وروما .

وبذلك استطاع رائد علم الجغرافيا (بطليموس) فى عهد الإمبراطور (هدريان) أن يحصل على معلومات جديدة ومفيدة عن الهند والبلاد التى وراءها .

وأتى بعد ذلك اهتمام الرومان بالتجارة مع الصين عبر آسيا الصغرى ، وجبال التركستان ،

الذى كان المحتكر الوحيد لإنتاج الحرير من نسيج دودة القز.

ومن عهد الإمبراطور (يوليوس قيصر) أصبح الحرير مادة الحصول على الأرباح الطائلة والمال الوفير لايدرها أى شيء آخر فى أوروبا بأسرها.

فسار الاتجار مع الصين إلى القرن السادس وبعدها تمكن الرومان من إغراء بعض المجازفين بجلب دودة القز إلى القسطنطينية، وبذلك تمكنوا من تصنيعه، وهكذا كانت التجارة وسيلة الرومان للمعلومات الجغرافية.

خامسا: الجغرافيا عند العرب

الشعر بالنسبة إلى العرب أولاً، والمسلمين ثانياً، هو المادة الأولى لعلم الجغرافيا، أو بالأصح علم تقويم البلدان.

لقد تضمن الشعر الكثير من أسماء الأماكن والمعالم والرياض، والمنتجعات والمراعى، والجبال، والأودية والغدران والبلدان وموارد المياه.

كان العربى يسجل مشاعره فى شعر رفيع وبيان مشرق نحو مهاد طفولته ومراتع صباه ومواضع لهوه ولعبه ومسارح أنعامه ومواقع غزواته، وميادين معاركه. فى شعر ينبض بالأحاسيس ويشع بدفء العواطف، ويجيش بأسمى المشاعر.

وفى شعر الأعشى الشاعر الجوال، الذى كان يجوب أنحاء الجزيرة، من مشارف حضرموت، إلى أقاصى الشام ما يعرفه الجميع.

وفى المعلقات السبع، أو العشر - على رأى البعض - مادة غنية بما يسمى بالجغرافيا الوصفية، فهذا امرؤ القيس يقول فى مستهل معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فذكر ثلاثة مواضع وهى (سقط اللوى - الدخول - حومل) فى بيت واحد.

إلى أن يقول:

أصَاحِ تَرَى برقاً أريك وميضَه كلمعِ اليدين فى حَبِى مكلل

قعدَتُ وأصحابى له بين (ضَارِج) وبين (العُذَيْب بعدَ ما مُتَأمَّلِ

على قَطَن بالشَّيْم ايمُن صَوْبه وأيْسَرُهُ على الستار و(يذبُل)

فأضحى يُسُحُّ الماءَ حولَ (كتيفَة) يكب على الأذقان دوح (الكَنَهْبَلِ)
ومرّ على (القنان) من نَفَيانه فأنزلَ منه العُصْمَ من كل منزل
و(تياءَ) لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلا مَشيداً بجندلِ

فقد ذكر فى الستة الأبيات أسماء (ضارج) و (العذيب) وجبال (قطن ـ الستار ـ يذبل) ومواضع (كتيفة ـ القنان ـ تيماء) .

وهذا (زهير بن أبى سلمى) يقول فى معلقته :

تبصر خليلى هل ترى من ظَعَائن تَحَمَّلْنَ بالعَلياء من فوق « جُرْثُمِ »
جعلن القَنانَ عن يمين وحَزْنَهُ وكم بالقنانِ من مُحِلٍ ومُحْرِم
وَوَرَكْنَ بـ (السُّوبان) ثم جَزَعْنَهُ عليهن دلُّ الناعم المتنعم
بكرن بكوراً واستحْرنَ بِسُحْرَةٍ فهن ووادى (الرسّ) كاليدِ للفم

وعنترة العبسى يحدد لنا محلة محبوبته (عبلة) ومنتجع قومه فيقول :

وَتحُلُّ (عبلةُ) بـ (الجَواء) وأهلُنا بالحَزْنِ فـ (الصَّمَّانِ) فالمُتَثَلَّمِ

وجاء دور الأسواق العربية ، من دومة الجندل ـ فى شمال مملكتنا إلى (عثر) فى جنوبها ، إلى أسواق جنوب جزيرتنا العربية ، فاقتضت الرحلات والنشاط التجارى فى مواسم معروفة ، من التجار والمتسوقين ، ثم قوافل التجارة بين الشرق والغرب ، وهى تقطع الجزيرة من مواطن البخور والطيوب إلى فارس وأقاصى الشام وآسيا الصغرى ، وفى البحر تجتاز التجارة العربية إلى الحبشة ، وأيضا إلى الهند . وكانت بعض القوافل تبلغ إلى ثلاثة آلاف جمل .

وكان للحج قدسيته فى الجاهلية ، عند العرب ، فيحج إليه من أنحاء الجزيرة ، كل ذلك أسهم فى معارف العرب الجغرافية عن جزيرتهم وما حولها .

وجاء الإسلام بنوره الساطع وهديه القويم ، وفرقانه المبين الذى لا يأتيه الباطل ، جاء لهداية العالمين ، وقص سبحانه وتعالى أحوال الأمم الماضية والحضارة البائدة ، والمدن المندثرة والباقية ، ما فيه ذكرى وعبرة وعِظة ، فاستنارت البصائر واتسعت المدارك .

وكان لغزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، وسراياه الريادة الأولى لتعرف المسلمين على معلومات جديدة بالنسبة لما سبق ، فمن هجرة إلى الحبشة إلى غزوات فى شرق الجزيرة

وشمالها ، ثم إلى جنوبها ، وكان لا يطرقها أحد منهم فضلا عن أن تغزى ، إلا بدليل أو صاحب .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة استصحب معه دليلاً ، وجاء دور البعوث ، والوفود فَسلكت السُبل وتسهلت الطرق ، التى كان قل من يسلُكها .

وكانت السنة العاشرة للهجرة (عام الوفود) فأقبلت وفود العرب من أرجاء جزيرتهم إلى المدينة من كل صقع وصوب ، معلنة إسلامها ، فاتسعت آفاق المعرفة وترسخت المعارف ، فإن الرحلات على الركاب والخيل ، مع الحل والترحال تتيح للمسافر المشاهدة والمعاينة .

والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ـ كما تُروى سيرهم ـ لايبعثون بعثاً ، أو يرسلون جيشاً إلا بعد أن يسألوا عن الطريق الذي سوف يسلكونه والبلاد التى ستغزى[١] .

وفرض الله الحج على المسلمين فى سنة ست ـ عند الجمهور ، واختار ابن (القيم) فى الهدى أنه فرض سنة تسع أو عشر وفيه خلاف ـ وبعد فتح مكة أقبل المسلمون على الحج ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وساد الأمن ، وانتشر الإسلام وأقبلت وفود الحجاج ، فأضيف رصيد أثرى المعارف الجغرافية .

وجاء دور الفتوح ، فى عهد الخليفة الأول ، فاستنفر أبناء الجزيرة العربية ، فأقبل مجاهدوها من جميع الأقطار إلى مركز التجمع فى عاصمة الإسلام ، فسيرهم صوب العراق والشام وفلسطين ، وهى أقطار كان لا يصلها إلا التجار أو الممتار فى أعداد محدودة ، مشتغلين بما وصلوا لأجله ، ليس إلا .

أما هذه الجموع والحشود ، من جيوش المسلمين الذين همهم الأول إعلاء كلمة الله ثم معرفة البلاد التى يفتحونها أولاً ويستوطنونها ثانيا ، فيقتضيهم الحال كفاتحين ترسيخ المعرفة بأرضها وجبالها وسهولها ، وأنهارها ووديانها ودروبها ، وبيئتها وطبائع أهلها .

ودخل الناس من أهل البلاد المفتوحة فى دين الإسلام ، وأقبلوا لأداء فريضة الحج أو الاتصال بعاصمة الإسلام لشتى الأغراض ، واحتاجت الخلافة لتأمين طرق المواصلات ولإرسال الإمدادات والمؤن واستقبال الخراج واتصالات البريد ، فتجمعت المعلومات الجغرافية من جراء ذلك ، من أخبار الغزاة ، ورواية الإخباريين والقصاص وغيرهم ، ومن علم الأمم التى شملهم الفتح ، فأصبحت معارف المسلمين تتعدى محيط جزيرتهم إلى العراق ، وفارس ،

والشام ، ومصر ، فليبيا ، والمغرب ، وما انتهى عهد الخلفاء الراشدين إلا وهناك معلومات جغرافية عن تلك الأقطار التى فتحت فى كل من آسيا ، وأفريقيا ، وحصل اختلاطهم بأهل البلاد بالمصاهرة والحلف ، والمجاورة ، والمشاركة ، وهم أمم ذات حضارات وثقافات ومفاهيم وتصورات حضارية ، من فرس ، وروم ، وقبط وسريان ، وبحكم الاختلاط والاحتكاك تفهم العرب ما لديهم ، ومنها المعلومات الجغرافية ، التى هم فى أمس الحاجة إليها فى تطلعاتهم المستقبلية ، وحاضرهم المتفتح لتطور سير الحياة فى الإدارة والقيادة والسياسة والسيادة ، واتصلت بالرواة والإخباريين والقصاص فرووها بدورهم - مؤخراً - للمؤلفين ، فسجلوها كحقائق بدون تحقيق أو تحرٍ أو تمحيص ، وأضيف إليها مادة جديدة هى فضائل البلدان ، كفضائل اليمن ، وما أورده ابن عبد الحكم فى كتاب (فتوح مصر) .

لم يمض قرن على سطوع شمس الإسلام حتى خفق علمه المظفر على أغلب أقطار آسيا وأفريقيا وقسم من أوروبا .

وبطبيعة الحال فإن إدارة تلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، الشاسعة المساحة ، المختلفة الأجناس تتطلب المعرفة العلمية ، ومنها المعلومات الجغرافية ، الوصفية فى المرحلة الأولى ، والفلكية فى المرحلة اللاحقة .

لقد استولت الفيالق الإسلامية على العراق وما يليه من بلاد فارس ، واجتاحت سوريا سنة ١٦هـ - ٦٣٨م ، وبلاد ما بين النهرين سنة٦٤٠ م تقريبا - واستولت بعدها على ما تبقى من بلاد فارس . وإرمينية ، وكردستان ، وأذربيجان وما وراء النهر ، هذا فى المشرق .

أما بالنسبة إلى المغرب ، فقد فتحت مصر سنة٢٠ هـ- وسارت لفتح ليبيا - بعد ذلك - ولم يتوقف القائد التابعى البطل عقبة بن نافع إلا على شاطىء المحيط الأطلسى .

وفى سنة٥٤هـ استأنفت الجيوش الإسلامية نشاطها الحربى حتى أشرفت على سور الصين ومن الناحية الأخرى ، اجتاحت مقاطعة السند بعد ذلك بفترة على يد القائد البطل محمد بن القاسم الثقفى .

أما فى الميدان الغربى فقد تطلعت الجيوش الإسلامية إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، فغزا القائد البطل طارق بن زياد الأندلس ، وبعد أن وطد دعائم هذا الفتح العظيم، تقدمت الفيالق الإسلامية حتى توقفت على نهرى الرون والسين، وشعرت أوروبا

بما ينتظرها بعد ذلك ، فالتفت تحت قيادة شارل مرتل ، ودارت معركة بوتييه سنة ١١٤ هـ .

ومن الناحية الأخرى تراجعت الجيوش الإسلامية من تحت أسوار القسطنطينية ، فكان من جراء ذلك انحسار المد الإسلامى عن أوروبا من الشرق ومن الغرب ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى غير ما قدر لكان الآن تسمع أصوات الآذان تدوى فى أجواء أوروبا بأسرها .

إن علم الجغرافيا بدأ لدى اليونان شعراً فى إلياذة هوميروس ، كما بدأ لدى العرب أولاً ولدى المسلمين ثانياً ، بدأ شعراً يزخر بالعواطف ويجيش بالمشاعر ، وفى بعض ما أوردناه عن الشعر الجاهلى ما يغنى عن الإعادة .

أما فى الشعر الإسلامى فهذه نماذج غنية بالجغرافيا الوصفية لافى الجزيرة العربية فقط بل فى البلاد التى فتحت : قال كعب بن الأشقر الأزدى :

تلبسوا لقراع الحرب بِزَّتَها ... فأصبحوا من وراء الجَسْرِ قد عبروا
ساروا بألوية للمجد قَد رُفِعَتْ ... وتحتهن ليوث فى الوغى وقُر
حتى إذا خلفوا (الأهواز) واجتمعوا ... بـ(رامهرمز) وافاهم بها الخَبَر
حتى اجتمعنا بـ(سابور الجنود) وقد ... شبّت لنا ولهم نارٌ لها شرر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا ... بـ (كازرون) فما عزوا ولا ظفروا
بـ(دشت بارين) يوم الشعب إذ لحقت ... أسد بسفك دماء الناس قد زأروا
لما زواهم إلى (كرمان) وانصدعوا ... وقد تقاربت الآجال والقدر
تأتى علينا حزازات النفوس فما ... نبقى عليهم ، ولايبقون إن قدروا

ورغبة فى الاختصار ، فإن شعر (كثير) الذى هو من أغنى الشعر بذكر الأماكن ، وشعر (ذى الرمة) و (الشماخ) و (شبيب بن البرصاء) و (عدى بن الرقاع) و (كعب بن الأشقر) ما يغنى .

ومن شعر الرجز ، قصيدة أحمد بن عيسى الرداعى وهى من أهم الاراجيز التى وصفت طريق الحج ، والتى عدد فيها المراحل من أقاصي اليمن إلى مكة المكرمة ، ويكفى فى الإشادة بهذه الأرجوزة أن جميع الباحثين عن موقع سوق (عكاظ التاريخى) استرشدوا بها ، واستناروا بما ورد فيها إذ يقول :

ياهند لو أبصرت عن عان ... قلائصا يوضعن من (جلدان)

وجلدان موضع معروف باسمه إلى هذا التاريخ .

إلى أن يقول :

إذا انتحى القوم على الخوص العنق ... عن ذات (أصداء) سنامى (الفتق)
العيدهيّاتْ العياهيم السحق ... وقد طوت (حنطوة) الخرق الأمق
حيث بريد الصخر عن غرب الطرق ... أقول للبارق وهنا إذ برق ..
لوامض البرق اليانى المؤتلق ... أيسر من (نعمان) إذ شق الأفق

* * *

فقلت لما ناب لى احتفاظى ... والقلب فيه شبه الشواظ
سل الهوى عن قلبك المغتاظ ... والعيس تطوى الأرض بالمظاظ
مسفقة من زاجر كظاظ ... مسهلة للخبت من (عكاظ)

* * *

فانجردت بالرفق العصائب ... عيدية مفعمة المناكب
تاركة (قُران) لـ (المناقب) ... بحيث خط الميل كف الكاتب
و(شربا) فى جنح الليل واقب ... بكل محض حسن الضرائب

ويقول الهمدانى فى شرح الثلاثة الأبيات الأخيرة و(قران) و(شرب) مكانان من أرض عكاظ ، وهذه المواضع من الجرداء ـ الصحراء ـ وشرق جميع هذه المواضع جبل (حضن) من المحجة على يوم وكسر ، ويسير الناس من (قران) وشرب ذات اليسار ، فيصعدون رأس السرة ، وتسمى (المناقب)وينزلون على (قرن) وهو ميقات أهل نجد .

ولأستاذنا الشيخ حمد الجاسر رسالة قيمة قديمة تعد أفضل تحقيق كتب عن موقع عكاظ التاريخى وخارطة للموقع وما حوله .

ويجىء ـ بعد الشعر ـ كمادة لعلم الجغرافيا الوصفية الرواة والإخباريون والقصاص ، كمصدر ثرٌ لتفسير الشعر .

لقد تغيرت المفاهيم ـ فى القرن الثانى وأول القرن الثالث ـ لما طرأ من الحضارة فى الإسلام فأصبح مولدو الحواضر ليسوا فى مستوى العربى الذى يعيش فى البادية ، فى رعى أنعامه ، ضاربا فى أجواز الفلاة فى طلب الكلأ يمارس الغارة والرعى ، على علم وبصيرة بأرضه وما حولها لما تقتضيه ضرورة الانتجاع والحل والترحال ، وهو على معرفة بمسالكها

ودروبها ، وأعلامها ومجاهلها ، وموارد المياه ومواطن الرعى ، فقد يضل الطريق ، أو تعمى عليه السبيل ، فيسترشد بالبيت من الشعر ويستنير بمضمونه ، إلى معرفة ما حوله من جبل شامخ ، أو صحراء منداحة ، أو كثبان منهالة ، أو غدير رقراق .

فجاء الرواة الذين ضربوا فى أجواز الصحراء ، وطرقوا مضارب العرب ، لطلب رواية الشعر وتلقى الفصحى من أفواه الصرحاء ليقوموا بدور الشرح والتفسير .

ومن أشهر الرواة والإخباريين الذين تجمعت لديهم روافد الرواية والأخبار وقاموا بدور التأليف فى مادة تقويم البلدان ـ الجغرافيا الوصفية .

١ ـ أبو سعيد عبد الملك الأصمعى ـ وكتابه من مصادر معجم البلدان لياقوت .

٢ ـ أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى ـ صاحب كتاب تقويم البلدان وقد أشار إليه ياقوت .

٣ ـ أبو عبيد السكونى .

٤ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد ـ صاحب كتاب جزيرة العرب .

٥ ـ أبو الأشعث الكندى ـ صاحب رسالة جبال تهامة .

٦ ـ أبو محمد الغندجانى ـ صاحب كتاب مياه العرب .

٧ ـ أبو سعيد السيرافى .

٨ ـ محمد بن إدريس بن أبى حفصة ـ فى كتابه مناهل العرب .

٩ ـ محمد بن موسى الحازمى .

١٠ ـ أبو الفتح الإسكندرى .

هذا على سبيل الاختصار ليس إلا .

إن معلومات الأمم تبدأ بالشعر وتليه الرواية ثم يأتى دور تسجيل المعلومات وتدقيقها وتمحيصها ثم التحقيق والتسجيل الأولى ، وأخيراً دور الدراسة العلمية والتطبيق العملى الذى يليه دور الإبداع والابتكار ، وهكذا بدأ علم الجغرافيا لدى المسلمين بالشعر فالرواية ، وتطور بحكم ما يقتضيه التطور إلى علم الجغرافيا الفلكية .

سادسا : جهود الجغرافيين المسلمين

الجغرافيون المسلمون منحوا العالم أسنى العطاء وأجزل المكاسب العلمية، وأفرزت معارفهم ضياء خالداً ، وعلماً نافعا ، وخرائط رائدة ، ظلت نحو أربعمائه سنة ، هى القبس المشع ، والنور الهادى ، والمصدر الثر لعلماء الغرب .

بدأت الترجمة فى العهد الأموى ـ على نطاق محدود وجهود فردية ـ ورسمت بعض الخرائط الأولية وإن كانت لم تصل إلينا ، وهذا ابن الفقيه الهمذانى يذكر فى كتابه (البلدان)ص ٢٨٣ أنه رسمت للحجاج بن يوسف الثقفى خريطة لبلاد الدَّيلم ، ومن البديهى أنه لو لم يسبق إلى علم الحجاج مثل ذلك لما أمر به .

وترجم ابن المقفع المولود سنة١٠٦هـ أى قبل زوال الدولة الأموية بست وعشرين سنة ، كتاب كليلة ودمنة من لغته الفارسية ، كما ترجم من اليونانية كتاب تحليل القياس لأرسطو .

وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ ـ ٧٥٠ وبعد موت مؤسسها أبى العباس السفاح ، خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، الذى أمر برسم خريطة لقنوات البصرة ، كما أورد ذلك البلاذرى ص ٣٧١ فى كتابه فتوح البلدان .

أفلا يكون ـ وامبراطوريته المترامية الأطراف وهى أهم عليه من قنوات البصرة ـ قد أمر برسم خريطة أوخرائط لها .

وفى عهده بدأت الترجمة على المستوى الرسمى ، فقد بعث رسله إلى الهند وفارس والروم . فى طلب الحصول على كتب علوم الأوائل ، فوصله كتاب (السند هند) فأمر رائد علم الهيئة والجغرافيا فى عهده محمد بن إبراهيم الفزارى بنقله إلى العربية .
ولم يقف نشاط الفزارى عند الترجمة ، بل ألف كتاباً فى الفلك استنار به العرب ، وقد يكون هو أول كتاب فى الفلك بالعربية لمؤلف مسلم .

لم نجد فيا لدينا من المصادر تاريخ مولده ، وإنما نستنتج من تأريخ ابتداء قيامه بترجمة

الكتاب المذكور فى سنة ١٥٦ هـ ـ ٧٧١ م أنه قام به وهو فى كمال نضوجه العلمى ـ أى فى سن ٤٥ سنة ـ فإذا صدق استنتاجنا ، فيكون مولده سنة إحدى عشرة ومئة ، فى العهد الأموى ، فأظله العهد العباسى وعمره واحد وعشرون عاما أى إنه ولد ونشأ وتعلم وحفظ بعض اللغات فى العهد الأموى .

إن الفزارى مفخرة إسلامية ، وحسبه تنويها وإشادة قول الوزير يحيى بن خالد بن برمك : أربعة لم يدرك مثلهم .

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدى .

٢ ـ محمد بن إبراهيم الفزارى .

٣ ـ الإمام أبو حنيفة .

٤ ـ ابن المقفع .

ومن مؤلفات هذا النابغة المسلم الكتب الآتية .

١ ـ كتاب الزيج .

٢ ـ كتاب المقياس للزوال .

٣ ـ كتاب الأصطرلاب المسطح .

٤ ـ أرجوزة فى علم النجوم .

وقد أورد المؤرخ والجغرافى المسعودى فقرة من كتاب الزيج فى كتابه مروج الذهب تضمنت وصفاً للعالم المعروف آنذاك .

ثم أمر أبو جعفر المنصور بترجمة كتب بطلميوس التى وصلت إليه ، وهى الترجمة الأولى ، وقد مرت ترجمة علوم الأوائل بأكثر من دور .

لقد أقبل المسلمون فى الدور الأول على الترجمة وهم مدفوعون بزخم رغبة التطلع العارم ، ونهم العقل الراغب فى التفوق ، فترجموا فى عجلة الألفاظ، وأبقوا المصطلحات العلمية والمسميات الفنية بألفاظها الأعجمية مثل :

١ ـ الهيولى (المادة الأولى) .

٢ ـ الجغرافيا علم تقويم البلدان .

٣ ـ الارثماطيقى (علم الحساب) .

٤ ـ الاسطرقوميا (علم النجوم) .

وغير ذلك .

أما فى الأدوار التالية وهو دور المراجعة والتروى والتدقيق والتمحيص ، فكانت الترجمة فى ترو وأناة والتعريب الصحيح الجاد ووضع أسماء عربية لتلك المصطلحات الأعجمية فاخترعوا لبعضها أسماء عربية بطريق المجاز ، أو الاشتقاق أو المصدر الصناعى ، فقالوا :

المادة الأولى	الماهية	الكيفية	الكروية
والجوهر الفرد	الشعوبية	الكمية	
العرض	الطائفية	الثقل	
الجزء	المذهبية	الحركة	

كما أضافوا لا النافية فقالوا : ألا إدارية ، الانهائية ، وغير ذلك ، بل ألفوا كتبا مستقلة للتعريف بالمصطلحات العلمية مثل كتاب (مفاتيح العلوم) .

إن العلماء المسلمين قاموا بدورهم البنّاء فى تقدم الحضارة والعلوم وطوعوا لغتهم ، فاستوعبت حضارة من تقدمها ، ومدنية من سبقها ، فأغنوها بمفردات لم تكن معروفة فى موطنها ، من جذورها الأصيلة فأوجدوا الأسماء لكل المصطلحات الفنية والكلمات الحضارية .

وبعد فمن المعلوم أن العناية بالترجمة لعلوم الأوائل بلغت عنفوانها ، وأوج نشاطها فى عهد الخليفة المأمون ، منشىء دار الحكمة ، أول مؤسسة أكاديمية فى الإسلام .

إن الخليفة المأمون ملك من طراز فريد ، سعد ـ بحق ـ التفوق العلمى ، والنبوغ الفكرى فى ظل ملكه وهو الذى أمر بإجراء أول تجربة على الطبيعة ، وتطبيق عملى لدورة الأرض ، عندما اطلع فى بعض المصادر أنها أربعة وعشرون ألف ميل ، فأمر بنى موسى بن شاكر بأن يقوموا بالتجربة ، فساروا إلى صحراء سنجار ، وكانت التجربة المعروفة تاريخيا ، وحققوا مساحة الدرجة الواحدة ستة وستين ميلا وثلثى الميل .

ومن المعروف أن الأرض مقسمة إلى ثلاثمائة وستين درجة $\frac{٢}{٣}$ ٦٦×٣٦٠ = ٢٤٠٠٠
وفى عهد المأمون رسمت أول خريطة ، أو خرائط على مستوى العالم وعرفت بالخرائط المأمونية ، ولا غرو فدولة الإسلام فى عهد المأمون هى أكبر دولة فى عهدها ولها شبه سلطانها العالمى بالنسبة إلى غيرها .

لقد سبق فى جغرافية بطلميوس مصور للعالم فى عصره ، كما يشير ياقوت فى معجم البلدان إنه ، رسمت لأزدشير من الملوك الساسانيين خرائط للعالم ، وروى أحمد الطوسى أنه

رسمت كذلك لـ(قباذ) وإنما ريادة الجغرافيين المسلمين تفوق كل ماسبقها .

لم تكن تلك الجهود الجغرافية فى عهد المأمون إلا بداية رائدة لما بعدها ، ومن رجالها محمد بن موسى الخوارزمى صاحب كتاب صور الأرض وغيره مثل أبى جعفر الخازن الذى يشير صاحب الفهرست أنه أول واضع لهذا النوع من المصورات الجغرافية .

وجاء العالم الجغرافى الشهير أبو عبد الله محمد بن جابر البتانى المولود سنة خمس وثلاثين ومائتين وهو صاحب كتاب الزيج الصابى المشتمل على :

١ ـ خرائط لـ٩٤ بلدا .
٢ ـ جداول لأطوال وأعراض الأرض .
٣ ـ الأرصاد التى قام بها .
٤ ـ الآلات المستعملة فى زمانه للرصد .

لقد بنى أرصاده على ما قام به بنفسه فى مدينتى (الرقة) فى العراق و (أنطاكية) فى سوريا ، وحققها على كتاب الزيج الممتحن لأحمد بن عبد الله الحاسب من فلكيى وجغرافيى عصر المأمون ، وعلى كتاب بطلميوس من الترجمة السريانية .

ومن أعماله المهمة ـ أيضا ـ الأرصاد التى قام بها ابتداء من سنة ٢٦٧ ـ ٣٧٠هـ لقياس ارتفاع الشمس فى الظهيرة عند المنقلبين الصيفى والشتوى ... وقد وجد قمة الزاوية ٣٥ ٢٣، ويقول الدكتور (إمام إبراهيم أحمد) أثبتت الحسابات الحديثة أن القيمة الصحيحة لاتختلف إلا بمقدار دقيقة . هذا مع مافى آلات الرصد القديمة من بدائية وقصور عن الآت الحديثة المتطورة .

لقد تعدت شهرة البتانى العالم الإسلامى إلى الغرب فهو يعد لديهم فى الدرجة الأول فى علم الفلك وقد أشاد به غير واحد منهم .

١ ـ نوه به (كاروجوى) فى كتابة (تاريخ الرياضيات) .
٢ ـ عده (لالاند) من عشرين فلكيا شهروا فى العالم .
٣ ـ نعته (سارتون) بأعظم فلكيى زمانه ومن أعظم علماء المسلمين فى فنه .

إن جهود الجغرافيين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع ـ التاسع والعاشر الميلادى هى الغرة الشادخة والصفحة اللامعة فى سجل تاريخ الجغرافية .

لقد عاصر البتانى عالم من أبرز الجغرافيين المسلمين صاحب مدرسة رائدة لها تأثيرها فى طريقة رسم الخرائط فى عصرها ، وما بعد عصرها ، هو أحمد بن سهل المعروف بأبى زيد البلخى ، صاحب كتاب (صورالأقاليم) المشتمل على خرائطه المشهورة المشتملة على :

١ ـ مصورات ـ خرائط للعالم .

٢ ـ مصورات ـ خرائط للجزيرة العربية .

٣ ـ مصورات ـ خرائط للخليج العربى .

٤ ـ مصورات ـ خرائط لبحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط .

٥ ـ مصورات ـ خرائط للمغرب .

٦ ـ مصورات ـ خرائط لمصر .

٧ ـ مصورات ـ خرائط للشام ـ سوريا .

٨ ـ مصورات ـ خرائط أربع عشرة خريطة أخرى لأقطار من أواسط العالم الإسلامى وشرقه .

وقد اطلق المستشرق مللر (K. miller) فى كتابه (Mappae Arabicae) اسم أطلس الإسلام على تلك الخرائط .

وتلاه عبيدالله بن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ ـ العالم الجغرافى (الجنتلمان) الذى جمع بين نشاط العالم وظرافة النديم ، فقد كان من ندماء الخليفة المعتمد العباسى ، وألف له كتبا فى الغناء والموسيقى ، والمنادمة ، والشراب ، والطعام ، ولكن شاءت الأقدار ألا يكون إلا جغرافيا من الطراز الأول ، فضاعت مع تلك المؤلفات ما عدا كتابه الخالد فى الجغرافيا الموسوم بـ (المسالك والمهالك) ، وهو وإن كان عربى المنشأ واللغة ، فهو بحكم أصله الفارسى يتقن الفارسية ، ويجيد اليونانية ، نستدل على ذلك من قوله : فى مقدمة كتابه (المسالك والمهالك) : لقد وجدت بطلميوس قد أبان الحدود وأوضح الحجة ، فى وصفها بلغته الأعجمية ، فنقلتها إلى اللغة الفصيحة لتقف عليها .

وكتابه المسالك الموجود والمطبوع هو مختصر لأصل كتابه الكبير الجليل ، المزين بالخرائط الملونة التى هى من التراث الخالد .

فهو يقول فى مقدمة الكتاب : لقد عملت كتابى هذا بصفة أشكال الأرض ، ومقدار

طولها والعرض ، ومحل البلدان والعامر والغامر منها فى جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما انفرد بالأعمال المجموعة إليها .

لقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلا ، يحكى موضع تلك الأقاليم ، ثم ذكر ما يحيط بها من الأماكن والبقاع ، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، ومالها من القوانين والارتفاع ـ الخراج .

وكتابه عرف فى الغرب ، وعنى به غير واحد من المستشرقين ، وأول من نشره منهم المستشرق (اباربييه ده متيار) وترجمه (دى غوى) .

إن المسلم ليشعر بالفخر والاعتزاز ، وهو يجول بناظريه فى مآثر الجغرافيين المسلمين ، الذين بريق أسمائهم يخطف الأبصار ضياء ، وأثارهم العلمية تهز الأعطاف نشوة .

ومن هؤلاء الأعلام ثلاثة عاشوا فى القرن الرابع وهم :

١ ـ الإصطخرى .

٢ ـ ابن حوقل .

٣ ـ سهـراب .

فالأول هو إبراهيم بن محمد الإصطخرى ، صاحب كتاب (المسالك والممالك) فى الجغرافيا المستمل على الخرائط المعروفة قام برحلاته إلى بعض أجزاء الجزيرة العربية ، ومصر ، والشام ، والعراق ، وفارس وما حولها .

التقى بزميله العالم الجغرافى أبو القاسم محمد بن حوقل سنة٣٤٠ ـ ببغداد وعرض عليه خرائطه لمراجعتها .

كما أن المقدسى ـ وهو من أتباع مدرسة البلخى ـ ذكر أنه استعان بعدد من الخرائط ـ فى رسم خرائط كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ومنها خرائط الإصطخرى ، ثم أشاد بها قائلا إنها :

(تدنو من الحقيقة وتستحق التعويل عليها ، وإن كان فيها خلط وخطأ) .

وشهادة ابن حوقل والمقدسى تنفى تهمة المستشرق (دى غوى) بأن خرائط الإصطخرى ليست إلا نسخة من خرائط أبى زيد البلخى .

ويشرح لنا فى منهجه فى مقدمة الكتاب بقوله : ـ

١ ـ إنه أورد فى كتابه أقاليم الأرض وقصده منها مدن الإسلام ، ولم يقصد الأقاليم السبعة التى قسم الأرض إليها من تقدم قبله ومن فى عصره .

٢ ـ جعل لكل قطعة ـ جهة ـ مفردة مصوراً يحكى وضع ذلك الإقليم .

٣ ـ إن الغرض من تأليف كتابه وخرائطه ، هو تصوير تلك الأقاليم التى لم يذكرها أحد « علمه » ـ واعتقد أن فى قوله ما يجافى الحقيقة فقد سبقه البلخى وغيره .

٤ ـ إنه اتخذ لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط خارطة ـ صورة ـ إذا نظر إليها الناظر علم مكان ذلك الإقليم .

ومصور الإصطخرى للعالم مأخوذ عن المخطوط العربى الموجود بمبرة (فارتر) بـ (ليدن) تحت رقم ١٧٠٢ والمخطوط نسخ سنة ٥٨٩ هـ .

أما محمد بن حوقل ضريع الإصطخرى فهو أشهر من أن يعرف ، وهو من أهل (نصيبين) وكان مع علمه وفضله يشتغل بأعمال التجارة ، وصل بغداد للمرة الأولى ، ثم رحل عنها فى رحلة تجمع بين اشتغاله بالعلم وتكسبه من التجارة ، جال خلالها فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه .

وكأنه عاد إلى بغداد للمرة الثانية بعد رحلته الطويلة ، والتقى بالإصطخرى فيها وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وعرض عليه الإصطخرى خرائطه لتصحيحها ومراجعتها ، وهذا يدل على ما لابن حوقل من المكانة العلمية ، ويظهر أنه بعد تلك الرحلة ألف كتابه المعروف (المسالك والممالك) المشتمل على الخرائط المشهورة ، ويظهر أن اسم (المسالك والممالك) قد استهوى غير واحد من علماء الجغرافيا ، فسمى الكثير منهم مؤلفاتهم بهذا الاسم ومنهم :

١ ـ أبو العباس جعفر بن أحمد المروزى المتوفى سنة٣٦٨هـ ويرى البعض أنه أقدم كتاب سمى بهذا الاسم ، والبعض يرجح أن كتاب بن خرداذبه أقدم منه .

٢ ـ عبيد الله بن خرداذبه وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٣ ـ أحمد بن محمد السرخسى وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٤ ـ الوزير أبو عبيد الله الجيهانى وكتابه موسوم بالاسم نفسه وهذا الكتاب فى حكم المفقود .

٥ ـ إبراهيم بن محمد الإصطخرى وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٦ ـ محمد بن حوقل وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٧ ـ المهلبى وكتابه موسوم بالاسم نفسه . لم يبق منه حسب علمى إلا مقتطفات فى البلدان وفى تقويم البلدان لأبى الفدا .

٨ ـ محمد بن يوسف الوراق وكتابه موسوم بالاسم نفسه المتوفى سنة٣٤٠هـ

٩ ـ البكرى أبوعبيد وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

١٠ ـ أبو محمد الحسن الهمدانى وكتابه موسوم بالاسم نفسه ذكر ذلك (القفطى) كما ذكره (الصفدى) .

١١ ـ أبو عبد الله الإدريسى وكتابه موسوم بالاسم نفسه ولم يبق من هذا الكتاب إلا مختصر فى مكتبة « أوغلى » باستنبول واسمه الكامل (روض الأنس ونزهة النفس فى المسالك والممالك) .

وقد يكون هناك كتب غيرها سميت بهذا الاسم ولم تصل إلى علمى . ويذكر أن فى المسالك والممالك لابن حوقل معلومات ذات قيمة وبالأخص عن أفريقيا والأندلس ، وواضحة فى خرائطه المتقنة .

ومن أبرز جغرافيى القرن الرابع أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وغيره . وكتاب صفة جزيرة العرب يعد من أهم ما ألف عن الجزيرة العربية ، وكل باحث فى القديم أو الحديث يحتاج إلى هذا الكتاب القيم ، فقد مسح مسحاً جغرافيا ، واجتماعيا الجزيرة العربية ، وجاب أكثرها بنفسه .

ويقول عنه المستشرق (أغناطيوس كراتشكوفسكى) : لم يكن الهمدانى جغرافيا فحسب بل وخبيرا كبيرا بأنساب العرب ، وتاريخ الجزيرة ، خاصة أثارها القديمة ، ومما يدعو إلى الدهشة حقا أنه استطاع فك رموز الكتابة القديمة العربية فى جنوب الجزيرة .

وفى منتصف القرن الرابع عاش الجغرافى الفلكى المعروف باسم (سهراب) صاحب كتاب (صور الأقاليم) ويظهر من إسمه أنه مسلم من أهل فارس، وقد طبع كتابه (B. A. H. Dmsik) والكتاب من حيث معلوماته الجغرافية الإسلامية يشتمل على فوائد ذات قيمة علمية ، ومن حيث تبويبه وترتيبه فقد سار على طريقة كتاب وخرائط الخوارزمى ، واهتمام ذلك المستشرق به وطبعه يعطى فكرة عن قيمة الكتاب الجغرافية .

ولم يقف النشاط على العلماء المتفرغين ، بل شارك فيه وزير عالم من وزراء الدولة السامانية مع تبعته بمهام الوزارة وشئون الدولة ، هو الوزير أبو عبد الله الجيهانى ، فألف كتابه ـ الذى سبقت الإشارة إليه باسم (المسالك والممالك) ورسم خرائطه بعد ما قسم الأرض إلى عشرين جزءا ، وجعل كتابه شرحا وتبيانا لتلك الخرائط ، المصورة لأشكال الأرض ، بل ولمواقع النجوم بالنسبة إلى البلدان ، وهذا الكتاب هو مصدر مهم لكثير من المؤلفين ومنهم المقدسى . الذى يخالف من قال بتقسيمه الأرض إلى عشرين جزءا ، ويقول : بل جعل العالم سبعة أقاليم ، وجعل لكل إقليم كوكبا .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسى عاش فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وشد ما يعجبنى فيه مع مجهوده العلمى الجغرافى الكبير التزامه ـ كمسلم ـ بالخلق الإسلامى الرفيع ، فهو بعد أن يوضح لنا منهجه فى رحلته الطويلة وجمعه المعلومات واتصالاته بالناس فى كل إقليم دخله وبلد وصلها دارسا منقبا مسجلا محصيا بما لم يسبقه أحد قبله يقول : مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ... وترك المعصية ولزوم النصح للمسلمين ، والمراقبة لله والخشية منه ، بعدما رغبت النفس فى الأجر وخوفتها من الإثم .الخ .

وهو جال وجاب البلاد الإسلامية وجزيرة العرب ، وأورد عنها معلومات مفيدة ، وبالأخص عن جنوبها وكعادته فى التقصى ، يورد المذاهب السائدة والعملات المتداولة ، والموازين والمكاييل واللباس .

كما يفيدنا عن المكتبات العامة والخاصة فى بعض مدن الإسلام ، والخرائط الموجوده بها مثل :

١ ـ مكتبة الصاحب بن عباد ومن محتوياتها كتاب أبى زيد البلخى بأشكال الأرض وصورها .

٢ ـ مكتبة عضد الدولة بنيسابور ومن محتوياتها كتاب أبى زيد البلخى بأشكال الأرض وصورها وغيره .

وغير ذلك .

ويورد فى كتابه دراسة عن الجغرافيا الفلكية ، ويشير إلى المصادر التى استعان بها ، وإن كان يتحامل وينتقد أكثرها .

كما يشير إلى مصادره من الخرائط التى استعان بها فى رسم خرائطه فيقول : وأما الأشكال التى مثلناها فقد بذلنا فيها جهدنا حتى صحت بعد تأمل عدة من الصور منها :

١ ـ صورة ـ خارطة ـ وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة مثال مربع .
٢ ـ صورة ـ خارطة ـ على كراسة عند أبى القاسم الأنماطى بنيسابور ، مربعة أيضا .
٣ ـ صورة ـ خارطة ـ لإبراهيم الفارسى .
٤ ـ صورة ـ خارطة ـ لشيخ ب(سرخس) .

كما يورد إشارة فى مقدمته ، يفهم منها أنه انتهى من كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) سنة٣٧٥هـ

ويفيدنا أنه قسم الأرض إلى أربعة عشر إقليما ، وأنه اقتصر على ممالك الإسلام ، وأفرز أقاليم العرب عن أقاليم العجم،وفصل كل إقليم بمصور خارطة توضح أمصاره ، وقصباته ، ومدنه ، وخطط إليها الطرق ، كمارسم خرائطه بالألوان على الوجه الآتى : ـ

١ ـ الطرق باللون الأحمر .
٢ ـ البحار = الأخضر .
٣ ـ الأنهار = الأزرق
٤ ـ الرمال = الذهبى .
٥ ـ الجبال = الأغبر .

وبلغ ما قطعه فى رحلته بحرا ألفى فرسخ ، وأنه دار على الجزيرة العربية من القلزم إلى عبادان .

والمقدسى من كبار مشاهير الجغرافيين الفلكيين الذين عرفهم الغرب وأشاد بأعمالهم :

١ ـ عده المستشرق (اشبرنجر) أعظم الجغرافيين فى كل العصور .
٢ ـ قال سبرنغر(Sprenger) لم يتجول سائح فى البلاد كما تجول المقدسى ، ولم يحسن ترتيب عمله أحد مثله .
٣ ـ وقال المستشرق (ميستر Cild Meister) امتاز المقدسى عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة اطلاعه .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين فى القرن الرابع أبو الريحان البيرونى المولود سنة ٣٦٣ ـ صاحب كتب (التفهيم) المشتمل فى مخطوطاته الخمس ، مصوراً ـ خارطة ـ مستديرة لمواضع البحار . و (القانون المسعودى) والذى وإن كان من كتب الفلك ، فإنه يحتوى على بعض المعلومات الجغرافية القيمة ، و (الآثار الباقية) الذى أورد به بعض الطرق الهندسية لمساقط مصورات السماء والأرض .

لقد قضى البيرونى عمره فى الرحلات العلمية حتى نعت فى وطنه بالغريب ، وبعد مضى سبع وثلاثين سنة فى الأسفار عاد إلى وطنه . ثم استأنف السير فى ركب الملك المسعود إلى الهند . وكان يتقن اللغات الآتية .

١ ـ العربية .

٢ ـ الخوارزمية .

٣ ـ الفارسية .

٤ ـ الهندية .

٥ ـ السريانية .

٦ ـ اليونانية .

فالبيرونى مفخرة من مفاخر علماء المسلمين .

وعلى بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الفلكى ، والجغرافى المعروف صاحب كتاب الزيج الحاكمى المشتمل على أربعة مجلدات ، صحح به أغلاط من سبقه من مصنفى الأزياج . وقد ذكر فى زيجه خطوط الطول والعرض وفق الأقاليم السبعة .
ويقول صاحب (حضارة العرب) وضع ابن يونس فى القاهرة الزيج الحاكمى ، فأنسى كل زيج قبله فى العالم حتى عنى به فلكيو الصين فذكره أحدهم المدعو (كوشيوكينغ سو) ١٢٨٠ م .

وترجم أستاذ العربية فى كلية فرنسا المسيو (كوسان) سنة ١٨٠٤ بعض فصول الزيج الحاكمى إلى الفرنسية ولابن يونس عدد من المؤلفات القيمة غير كتابه الزيج الحاكمى .

ومن مشاهير الجغرافيين المسلمين أبو عبدالله محمد الإدريسى المتوفى سنة٥٦٠هـ ولد فى مدينة سبته ، وتلقى تعليمه فى جامعة قرطبة بالأندلس ، وكان خدن أسفار وجواب آفاق ، حتى استقر فى بلاط ملك صقلية روجرالثانى ، وهناك تفرغ لعمله الكبير المشتمل على واحد وسبعين مصورا ، ونقش خريطته المستديرة على دائرة من الفضة ، وألف كتابه المشهور (نزهة

المشتاق) ليكون بمثابة الشرح والتوضيح لخرائطه الرائدة (التى ظلت مرجع جغرافيى الغرب زهاء ثلاثمائة سنة) ، التى قضى مدة طائلة فى إعدادها ، وهى أول خريطة للعالم قريبة من أصول علم الجغرافيا وتخطيطها الفنى بالنسبة إلى عصره .

ومن الجهود المبرورة والآثار العلمية المشهورة فى علم الجغرافيا كتاب (ابن سعيد على بن موسى بن عبدالملك بن محمد بن سعيد الأندلسى المولود سنة ٦١٠هـ فى قلعة يحصب قرب غرناطة ، المسمى (جغرافيا الأقاليم السبعة) وهو من طراز كتاب الإدريسى مقسم إلى سبعة أقاليم ، وكل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ووضح خطوط الطول والعرض مما يضفى على الكتاب أهمية كبيرة ، وبه تفصيلات عن جنوب الجزيرة العربية ومدنها ـ وقواعدها ، وكذا حقائق جديدة بالنسبة إلى عصره عن أفريقيا استفادها من رحلة ابن فاطمة الذى جاب شواطىء أفريقيا وغير ذلك ، ويوجد من الكتاب جزء فى مكتبة باريس تحت رقم ٢٢٣٤ ، وفى المتحف البريطانى القسم الشرقى تحت رقم ١٥٢٤ .

وذكر الزركلى فى الأعلام جـ ٥ص ١٧٩ فى ترجمته ، مؤلفاته ومنها فى الجغرافيا :
١ ـ وصف الكون .
٢ ـ بساط الأرض .
وكلاهما مخطوط .

ويأتى كتاب (عجائب المخلوقات) للقزوينى المتوفى سنة ٦٨٢ هـ ـ ضمن المجهودات الجغرافية الكبيرة ، وإن كان به حقائق جغرافية ومصور للعالم فإنه يصنف فى قسم الجغرافيا الطبيعية ، أو التاريخ الطبيعى .

لقد أورد فى هذا الكتاب معلومات قيمة لأرقى ما وصل إليه العلم فى عصره ، بل ومنها مايتجاوز عصره إلى وقتنا الحاضر .

تكلم عن السماء ووصف الكواكب والنجوم ، والشهب ، والأبراج وحركاتها ، ومداراتها وما يترتب على ذلك ، من فصول السنة ، والشهور والأيام ، والأنواء والعواصف . ووصف الأرض وما عليها ، ونشوءها وتكوينها ، وطبيعتها ، والغلاف الهوائى والتخلخل الجوى ،

وما ينتج عنه ، واليابس من الأرض ، والمغمور بماء البحر ، وما يحيط بها من البحار ، واختلاف آراء الأقدمين ومن بعدهم فى كرويتها ، ودورانها وتكلم عن الجاذبية .

وعن الحيوان ، والجماد ، والمعادن ، والتوالد ، والزلزال ، والأنهار ، والأمطار ، والرعد والبرق والظواهر الطبيعية ، وأقاليم الأرض ، وخواص البلاد ، وتاثير البلاد فى السكان ، والحيوان ، وفى النبات والحيوان ، وحاجة الإنسان الاجتماعية إلى إحداث المدن والقرى .

وخرائطه أقرب إلى الإقليمية منها إلى الخرائط العالمية ، وفى ما أورده عن ديار العرب معلومات شبه مفصلة . ولا تخلو من الدقة أحيانا ، وبعض الأساطير .

وجاء أبو الفداء بكتابه القيم تقويم البلدان ، والمحتوى على جداول الطول والعرض ، وأضاف معلومات عن غير الممالك الإسلامية ، وقسم العالم إلى ثمانية وعشرين إقليما .
ولقد عرف الغرب كتابه القيم لأول مرة عن طريق المستشرقين (جوليوس) Gol!us و (ريسكه) Reiske والكتاب مطبوع متداول .

وأبو الفداء هو أمير حماة من الأسرة الأيوبية ولد سنة٦٧٢هـ - وتوفى سنة٧٣٢هـ بمدينة حماة بسوريا .. ولاننسى كتاب معجم البلدان الذى جمع بين الجغرافيا الوصفية والفلكية فهو أضخم وأوفى كتاب .

وتلاه (ابن الوردى) بكتابه المعروف (خريدة العجائب والغرائب) فى تقويم البلدان - الجغرافيا - وبه مصور للعالم .

وقد ترجم بعض المستشرقين جملا منه ، وتوفى ابن الوردى سنة٨٦١هـ - ومن بعد ذلك التاريخ ركد نشاط التأليف الجغرافى فى العالم العربى ، وإن كان استأنف بعض نشاطه فى فارس وتركيا المسلمتين .

إن جهود الجغرافيين المسلمين أعظم من أن تحيط بها محاضرة ، وإنصافا للحقيقة نورد فى ختام هذه المحاضرة بعض ماقاله المنصفون من علماء الغرب .

قال غستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب تحت عنوان (التقدم الذى حققه العرب فى الجغرافيا) . (كان من نتائج ريادة العرب ومعارفهم الفلكية ، أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدم

مهم ، ولاغرو فالعرب الذين اتخذوا فى البداءة علماء اليونان ، ولاسيا بطليموس أدلاءهم فى علم الجغرافيا ، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم) .

كانت مواقع المدن الكثيرة التى عينها بطليموس تعييناً جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدر غلطه فى تعيين البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ .

ويكفى أن نقابل بين الأمكنة التى عينها الأغارقة والأمكنة التى عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذى تم على يد العرب ، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذى حققه العرب يقرب من الصحة بما لايزيد على بضع دقائق ، وأن الخطأ لدى الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة .

وكان تعيين الطول صعباً على العرب وذلك لما يعوزهم فى ذلك الحين من مقياس (كروتومتر) ومن تقاويم مضبوطة للقمر ، ومغالطهم أظهر من ذلك وإن لم تزد على درجتين إلا نادرا ، أى وإن كانت دون غلط الأغارقة بمراحل .

حقا إن أغاليط اليونان كانت فى تعيين الطول فاحشة فى بعض الأحيان ، ومنها غلط بطليموس ، الذى اتخذ الإسكندرية مبدأ للطول ، فى طول طنجة نحو ١٨درجة فجعله ثلاثاً وخمسين درجة وثلاثين دقيقة بدلا من خمس وثلاثين درجة وإحدى وأربعين دقيقة .

ومنها إن جعل بطليموس فى تقويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة إلى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة عن الحقيقة ، أى ما يعدل أربعمائه فرسخ تقريبا ، مع أن غلط العرب فيه أقل من درجة واحدة .

وكتب العرب التى انتهت إلينا فى علم الجغرافيا مهمة للغاية ، وكانت أساساً لدراسة هذا العلم فى أوروبا قروناً كثيرة .

وخريطة الإدريسى التى اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة لم يكتشفها الأوروبيون إلا فى العصر الحاضر ، تثبت أن معارف العرب فى جغرافية أفريقيا أعظم مما ظن زمنا طويلا .

ويحتاج إحصاء أهم جغرافيى العرب وما ألفوا من كتب إلى بيان طويل ، فقد ذكر

أبو الفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافيا من الذين ظهروا قبله .

والعرب هم الذين نشروا كتباً جغرافية قامت مقام الكتب التى ألفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونا كثيرة .

ويقول صاحب دائرة معارف (لاروس) إذا أراد القارىء أن يجد عجيبة من العجائب الجغرافية فلا يبحثن عنها فى أوروبا التى صارت آنذاك بربرية ، ولكن فليبحث عنها عند العرب ، كان الخلفاء كلما أمعنوا فى الفتوح أمروا برسم الأرض التى يفتحونها .

الحــــواشى

(١) كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص صف لى مِصرّ فأجابه : مصر - يا أمير المؤمنين - تربة غبراء وسجرة خضراء طولها شهر وعرضها شهر ، يخط وسطها نهر مبارك الروحات ميمون الغدوات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرية الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا أصلح عجاجه وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول أهل القرى إلى بعضها إلا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته أنكفأ على عقبيه كأول ما بدأ فى شدته ، وطمى فى حدته ، عند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون الأرض ، ويرجون الثمر من الرب .

وعندما أراد عمرو بن العاص غزو البحر ، استأذن عمر ، فكتب إليه صف البحر ، فكتب إليه يا أمير المؤمنين البحر خلق كبير يركبه خلق صغير ، فراكبه دود على عود ، إن هاج أزاغ العقول ، وإن ركد أمض القلوب داخله مفقود ، وخارجه مولود .

(٢) الزيج اسم يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية ، الخاصة بخطوط الطول والعرض .



المصـــادر

اسـم المؤلــف	اســم الكتــاب
١ ـ ابن خرداذبة	المسالك والممالـك
٢ ـ المقدســى	أحسن التقاسـيم
٣ ـ أبو الريحان البيرونى	الآثار الباقية
٤ ـ ابن الفقية الهمذانــى	البلـــدان .
٥ ـ الحسن بن أحمد الهمدانى	صفة جزيرة العرب
٦ ـ ياقـوت الحمـوى	معجـم البلــدان
٧ ـ جـــواد علـــى	تاريخ العرب قبل الإسلام
٨ ـ ــــــــــــــ	تراث العالـــم
٩ ـ لـويـس معلــوف	المنجـــد
١٠ ـ أحمـد أميـن	ضحـى الإسـلام
١١ ـ جـرجـى زيـدان	تاريخ التمدن الإسلامـــى
١٢ ـ دائرة معـارف وجـدى	فـريـد وجـدى
١٣ ـ ــــــــــــــ	المعـارف الإسـلامية
١٤ ـ الفهرست لابن النديـم	ابن النديم
١٥ ـ المسعـــودى	مروج الذهب
١٦ ـ خير الدين الزركلى	الأعـــلام
١٧ ـ الخـــوارزمـى	مفاتـيـح العلــوم
١٨ ـ قـدرى قلعجـى	اكتشاف جزيـرة العـرب
١٩ ـ ترجمة قسـم الترجمـة بوزارة التـربية بمصر	تاريخ العالـم
٢٠ ـ البــلاذرى	فتـوح البلـدان

المصـــادر

اسم المؤلــف	اســم الكتــاب
٢١ ـ جستاف لوبــون	حضارة العرب
٢٢ ـ بروكلمــــــان	تاريخ الشعوب الإسلامية
٢٣ ـ ــــــــــــــ	مجلة الفيصـــــل
٢٤ ـ ــــــــــــــ	أوراق خاصة من جمع صاحب المحاضرة .
٢٥ ـ ابن خلكــان	وفيات الأعيــان
٢٦ ـ الطــــبرى	تاريــخ الطــبرى



مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسى

دكتور / محمد محمود محمدين



تمهيـــد :

المقدسى هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى البشارى .

ولد سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٧) م ببيت المقدس ، ومن هنا اشتهر بالمقدسى . وقد دعاه ياقوت الحموى فى القرن ١٣ م « بالبشارى » والمقدسى حفيد لبناء اشترك فى بناء مدينة عكا فى عهد الدولة الطولونية .

وقد صنف المقدسى مؤلفه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) فى سن الأربعين بمدينة شيراز سنة٣٧٥ هـ ، ٩٨٥ م[١] وقد اعتمد الباحث على هذا المصنف فى استخلاص مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسى ، ويقع كتاب المقدسى « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » [٢] فى ٤٩٨ صفحة من القطع المتوسط ، وقد توفى المقدسى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠) م أى فى سن الخامسة والخمسين .

مفهوم الإقليم عند المقدسى :

قبل أن نتناول مفهوم « الإقليم » عند المقدسى يجدربنا أن نتتبع تطور هذا المفهوم عند الجغرافيين المسلمين لنرى كيف تطورت أبعاد هذا المفهوم حتى صارت إلى ماهى عليه عند المقدسى ، وحتى يتضح لنا مدى التباين أو التشابة بين مفهوم الإقليم عند المقدسى وغيره من الجغرافيين المسلمين .

إن من يدرس تراث الجغرافيا عند المسلمين يسترعى انتباهه تعدد ورود كلمة « الأقاليم » فى كتب المسالك والممالك ، وتقسيمهم المعمور من الأرض إلى أقاليم مختلفة ، كما أن بعض الكتب اتخذ من « الأقاليم » عنوانا له .

ومن أول الكتب فى هذا المجال « كتاب الأقاليم »[٣] الذى كتبه هشام الكلبى (توفى

سنة٢٠٦هـ = ٨٢٠م) وكتاب « صور الأقاليم » للبلخى فى القرن الرابع الهجرى (بداية القرن العاشر الميلادى) وكتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم « للمقدسى فى نهاية القرن العاشر الميلادى .

وحينما نتلمس معنى لفظ « الإقليم » نجد تباينا كبيرا بين مفهوم هذا اللفظ وأصل اشتقاقه عند الجغرافيين المسلمين . يقول ياقوت الحموى[٤] وأما اشتقاق الأقاليم فذهبوا إلى أنها كلمة عربية واحدها إقليم ، وجمعها أقاليم ، مثل إخريط وأخاريط . والإقليم إنما سمى إقليما ، لأنه مقلوم من الأرض التى تتاخمه أى مقطوع ، والقلم فى أصل اللغة القطع ، ومنه قلمت ظفرى .. وبه سمى القلم لأنه مقلوم أى مقطوع مرة بعد مرة ، وقال حمزة الأصفهانى[٥] : الأرض مستديرة الشكل المسكون منها دون الربع ، وهذا الربع قسمان برا ، وبحرا[*] ثم ينقسم هذا الربع سبعة أقسام ، يسمى كل قسم منها بلغة الفرس كشخر ، وقد استعارت العرب من السريانيين للكشخر اسما وهو الإقليم ، والإقليم اسم للرستاق .

وقال محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى[٦] الإقليم على ما ذكر أبو الفضل الهروى فى المدخل الصاحبى هو الميل ، فكانهم يريدون بها المساكن المائلة عن معدل النهار .

ومن دراسة الأقوال السابقة يتضح لنا أن أبا الفضل الهروى قد أصاب الحقيقة إذ إن كلمة « إقليم » محرفة عن الكلمة اليونانية كليما Klima التى استخدمها العالم اليونانى الفلكى هيباركوس Hipparchus [٧] فى القرن الثانى قبل الميلاد (فى سنة١٤٠) ق م تقريبا) حين ابتكر نظاما من الخطوط الموازية لخط الاستواء والتى تقسم سطح الأرض إلى مناطق وفقا لطول النهار فى كل منطقة وقت الانقلاب الصيفى ، وقد أطلق على كل منطقة Klima وعلى المناطق Klimata بحيث يختلف طول النهار فى كل منطقة بمقدار نصف ساعة عن الأخرى . ولقد اشتقت كلمة Climate الدالة على المناخ فى اللغة الإنجليزية من هذا الأصل الإغريقى Klimuta ويبدوأن الرومان الذين هزموا اليونان عسكريا قد أخذوا الكثير من الإغريق ، وليس من المبالغة فى شىء إذا قلنا إن الرومان كانوا أسرى الفكر والثقافة اليونانية ، ومن هنا أخذوا كلمة Kima أيضا ، ونقلها عنهم العرب ، ولا يخفى على أحد ما بين الكلمتين من تقارب فى النطق ، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره حمزة الأصفهانى من أن العرب قد استعارت اسم الإقليم من السريانيين .

ومن الأمور التى تلفت النظر تأثر الجغرافيين المسلمين بنظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، وكل إقليم عبارة عن شريط عريض يمتد بموازاة خط الاستواء ، وهذه الأقاليم مرتبة من الجنوب إلى الشمال .

ويقول كراتشكوفسكى(٨) إنّ هذا التقسيم وضعه اليونان ، والواقع أن اليونان لم يقسموا العالم إلى سبعة أقاليم ولكنهم ابتكروا نظام Klimata الذى سبقت الإشارة إليه ، أما التقسيم إلى سبعة أقاليم فهو تقسيم للفرس قديم حيث قسموا الأرض المعمورة إلى سبعة أقسام تسمى كشورات(٩) . ويقول أبو الريحان(١٠) قسم الفرس الممالك المطيفة برانشهر ، فى سبع كشورات ، وخطوا حول كل مملكة دائرة وسموها كشورا وكشخرا (اشتقاقا من كشته ، وهى اسم الخط فى لغتهم) والأصل فى هذه القسمة ما أخبر به زرادشت ، صاحب ملتهم ، من حال الأرض وأنها مقسومة بسبعة أقسام .

ويذكر المقدسى(١١) أن التمسك بالسباعيات فى التقسيم يرجع إلى : أن الله عز اسمه خلق السموات والأرض سبعا سبعا ، والأيام والليالى سبعا سبعا والأرزاق من سبع ، ونزل القرآن على سبعة أحرف ، والمساجد سبعة .

أما مفهوم الإقليم عند المقدسى الذى يمكن التعرف من كتاباته فهو يتلخص فى أن المقدسى اعتمد فى تقسيمه لأقاليم العالم على ما كان سائدا ويعترف بذلك ويقول(١٢) :

اعلم أن كل مصنف فى هذا الباب جعل الأقاليم أربعة عشر سبعة ظاهرة عامرة وسبعة خرابا وسمعت بعض المنجمين يقول الخلق كلهم فى المغرب .. ونحن ننقل منها وعن من لقينا من كبراء المنجمين هذا الباب لأنه علم يحتاج إليه فى سمت القبلة ...

ثم يبدأ المقدسى فى تتبع الأقاليم السبعة(١٣) التى يعتمد تحديدها على أساس طول الظل إذا استوى الليل والنهار وذلك وقت الظهيرة ، فالإقليم الأول :(١٤) أوله حيث يكون الظل نصف النهار إذا استوى مع الليل قدما واحدة ونصفا وعشرا وسدس عشر قدم ، وآخره فى هذا الوقت قدمان وثلاثة أخماس .... والإقليم الثانى أوله حيث يكون الظل إذا استوى الليل والنهار كما قلنا عند الظهيرة قدمان وثلاثة أخماس . .

وبعد أن يتتبع المقدسى تحديد الأقاليم السبعة ويحدد أطوالها وعرضها بالفراسخ ، يتناول

ذكر مملكة الإسلام معتمدا على أسس جديدة ، ومتحررا من نظرية تقسيم المعمورة إلى النطاقات العريضة المرتبة من الجنوب إلى الشمال فى موازاة خط الاستواء ، والتى التزم بها فى تقسيمه للعالم على أساس ما كان سائداً ، حتى لايخرج عما كان مألوفا ومتعارفا عليه آنذاك . ويتناول المقدسى ذكر مملكة الإسلام فيقول[١٥] : « اعلم أن مملكة الإسلام حرسها الله تعالى ليست بمستوية فيمكن أن توصف بتربيع أو طول أو عرض ، إنما هى متشعبة يعرف ذلك من تأمل مطالع الشمس ومغاربها ودوخ البلدان وعرف المسالك ومسح الأقاليم بالفراسخ » ثم يحاول المقدسى تحديد أبعادها بالفراسخ تارة ، وبالمراحل والأيام تارة أخرى ...

ومما تجب الإشارة إليه أن الاتجاه إلى وصف العالم الإسلامى والاقتصار عليه قد بدأ كاتجاه جديد فى القرن العاشر الميلادى ... ويصف كراتشكوفسكى هذا الاتجاه بالمدرسة الكلاسيكية لجغرافيى القرن العاشر الميلادى ... ويقول[١٦]: إن هذا النمط من المصنفات الجغرافية الذى يرجع فى الأصل إلى وصف العالم الإسلامى وضعه رجل أصله من بلخ ويقصد بذلك « أبازيد البلخى » وأخذه عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران ويقصد بهذا العالم أبا إسحق الفارسى الإصطخرى » ومن الجغرافيين الذين عاصروا الإصطخرى وتأثروا به « أبو القاسم بن حوقل » والذى قابل الإصطخرى سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) وقد اهتم ابن حوقل بوصف (دار الإسلام) .

وقد قسم المقدسى « مملكة الإسلام » إلى أربعة عشر إقليما ، ستة منها عربية هى « جزيرة العرب ـ العراق ـ آقور ـ الشام ـ مصر ـ المغرب » وثمانية للعجم هى : المشرق ـ الديلم ـ الرحاب ـ الجبال ـ خوزستان ـ فارس ـ كرمان ـ السند ، ويعلل المقدسى اقتصاره فى كتابه أحسن التقاسيم على ذكر الأقاليم الإسلامية وعدم دراسته لبقية أجزاء العالم أو أقاليم الكفار بقوله :[١٧] «لم ندخلها ولم نر فائدة من ذكرها ، بل قد ذكرنا مواضع المسلمين فيها». ويختلف المقدسى فى تقسيمه عن الإصطخرى الذى قسم العالم الإسلامى إلى عشرين إقليما .

وقد حدد المقدسى كل إقليم من الشمال والجنوب والشرق والغرب (وإقليم مصر يأخذ من البحر الرومى طولا إلى بلد النوبة ، ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب ، ويمتد (إقليم المغرب) من تخوم مصر إلى البحر المحيط مثل الشريطة بضغطه من قبل الشمال بحر الروم ومن قبل الجنوب بلدان السودان)[١٨].

وما نلاحظه على تقسيم المقدسى أنه اعتمد على الدين كرابطة للأقاليم التى تناولها وبذلك حل « الدين » « محل » طول الظل ثم اعتمد على اللغة فقسم الأقاليم الإسلامية على أساسها إلى أقاليم عربية ، وأقاليم العجم ، ثم اعتمد فى تقسيمه الأقاليم العربية على أساس إدارى أو سياسى ، فالإقليم عند المقدسى رفعة حددت على أساس دينى ولغوى وإدارى ، إذ أن العالم الإسلامى فسيح المساحة يضم فى رحابه ظاهرات مختلفة ، فكان لابد من التقسيم إلى أقاليم حتى يمكن إدراك ما بها من ظاهرات طبيعية وبشرية قد تتشابه أو تتباين .

ويُدافع المقدسى عن تقسيمه أحيانا بالمقارنة مع التقسيمات المختلفة فيقول :(١٩) فإن قال قائل لم جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبين قيل له : أما اليمن فالنبى صلى الله عليه وسلم جعلها حيث فرق مواقيتها فى الإحرام ، وأما خراسان فإن أبا زيد جعلها إقليمين وهو إمام فى هذا العلم وبخاصة فى إقليمه فلا عيب أن جعلناها جانبين فإن قال فلم خالفته بعد ما نصبته إماما ، فصيرت خراسان إقليما واحدا قيل له : لنا فى هذا جوابان : أحدهما أنا لم نحب أن نفرق مملكة آل سامان .. والجواب الثانى أن أبا عبدالله الجيهانى أيضا إمام فى هذا العلم وهو لم يفرق خراسان .

وقد قسم المقدسى الإقليم إلى كور ، ثم لكل كورة قصبة ، ثم لكل قصبة مدن . ويقول(٢٠) أعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند والقرى كالرجال .

مصادر المقدسى فى دراسته الإقليمية :

يقسم المقدسى مصادره فى دراسته لأقاليم العالم الإسلامى إلى ثلاثة أقسام كانت على حد قوله(٢١) أحدها ماعايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة .

ويقصد بالمصدر الأول (ماعايناه) وهو الدراسات الميدانية المبنية على المقابلة وما تم جمعه بعد الجولات فى البلدان ، ودخول الأقاليم الإسلامية ومعايشة أهلها ، ولقاء العلماء ومجالسة القضاة والدرس على الفقهاء والاختلاف إلى الأدباء .

أما بالنسبة لقوله (ماسمعناه من الثقات) فيذكر المقدسى :[٢٢] سؤال ذوى العقول من الناس ، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال فى الأطراف التى بعدت عنها ولم يتقدر لى الوصول إليها ، فما وقع عليه اتفاقهم أثبته ، وما اختلفوا فيه نبذته .... وما لم يقر فى قلبى ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو قلت زعموا ...

وقد اطلع المقدسى على كثير من الكتب وقرأها قراءة فاحصة ، وانتقدها جميعها ولم يسلم كتاب واحد من عيب أو نقيصة يراها فيه المقدسى وعلى سبيل المثال لاالحصر يذكر المقدسى[٢٣] «وأما ابن الفقيه الهمدانى فإنه سلك طريقة أخرى ولم يذكر إلا المدائن العظمى ولم يرتب الكور والأجناد وأدخل فى كتابه ما لايليق به من العلوم وأما الجاحظ وابن خرداذبه فإن كتابيهما مختصران جدا لايحصل منهما فائدة كثيرة» .

أسلوب الدراسة الإقليمية عند المقدسى :

انفرد المقدسى باتجاهات جديدة فى دراسة الأقاليم إذ أنه حاول جاهدا فى معالجته لكل إقليم أن يبرز شخصيته وهذا ماتسعى إليه الجغرافيا الحديثة . فهو يذكر : [٢٤] (أظرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب ، وأحد للذهن ... وأشدها حرا وقحطا ونخيلا جزيرة العرب ، وأكثرها عبادا وقراء وأموالا ومتجرا وخصائص وحبوبا مصر .))

وقد أعجب سبرنجر Sprenger بالمقدسى واعتبره أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة[٢٥] ويرى كرامرس Kramers أن المقدسى أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، وأن كتاب « أحسن التقاسيم » أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة .

ويبدأ المقدسى فى دراسة أقاليمه بالاتجاه التقليدى الذى كان سائدا آنذاك ، أو ما يمكن أن نسميه بالجغرافيا الفلكية ، وكان من أول من ساروا وفق هذا الاتجاه ابن خرداذبه[٢٦] ، ويمكن القول إن هذا الجزء الفلكى الذى يتناول وصف الأرض ووضعها فى جوف الفلك ويشرح الجاذبية الأرضية قد نقله المقدسى عن أبى القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه ، ويمكن التوصل إلى ذلك إذا ما قارنا ما ذكره ابن خرداذبه فى كتابه (المسالك والممالك)[٢٧] ص ٤ ، وما أورده المقدسى(ص ٥٨)[٢٨] إذ يتضح لنا أن المقدسى قد نقل عشرة سطور لم يغير فيها سوى تعبير فى «أبدانهم» جعلها لما فى «أيديهم» ولم يذكر المقدسى مصدر

العشرة السطور المنقولة حرفيا مع أنه ذكر فى كتابه[٢٩] : اجتهدنا فى أن لانذكر شيئا قد سطروه ولا نشرح أمرا قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولانسرق من تصانيفهم . ويبدأ المقدسى فى معالجته من « الكل إلى الجزء » أو مايعرف بطريقة « الجشتالط » أو الطريقة الكلية ، حيث يبدأ بوصف الكرة الأرضية ، ثم أقاليمها السبعة ويحددها ، ثم يحدد مملكة الإسلام فيقسمها إلى أقاليم عربية ، وأقاليم عجم .

ويبدأ اهتمام المقدسى بالجانب الدينى بوضوح ، وذلك فى أسلوب دراسته للأقاليم المختلفة . وقد بدأ دراسة أقاليمه « بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام ، ومدينة النبى عليه السلام ، ويذكر المقدسى قبلة كل إقليم ، ويذكر المذاهب والذمة فيقول :[٣٠] اعلم أن المذاهب المستعملة اليوم فى الإسلام التى لها خاص وعام ودعاة وجمع ، ثمانية وعشرون مذهبا ، أربعة فى الفقه وأربعة فى الكلام ، وأربعة فى الحكم فيهما ، وأربعة مندرسة ، وأربعة فى الحديث وأربعة غلب عليها أربعة وأربعة رستاقية . فأما الفقهيات فالحنفية والمالكية والشافعية والداودية وأما الكلاميات فالمعتزلة والبخارية والكلابية والسالمية ... ويذكر المقدسى كذلك القراءات المنتشرة فى الأقاليم الإسلامية مع توزيع المذاهب . ويمكن أن يندرج اهتمام المقدسى بذكر كل ما يتعلق بالنواحى الدينية مع توزيع ذلك على الأقاليم المختلفة تحت ما يسمى بالجغرافيا الدينية .

وقد تعددت الجوانب الجغرافية التى تحدث عنها المقدسى فى تناوله لكل إقليم من أقاليم العالم الإسلامى (ومافيها من المنافذ والبحار والبحيرات والأنهار ، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة ، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات ، واختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم ، وذكر مواضع الأخطار فى المفازات وعدد المنازل فى المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال السهول والجبال .... ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود ... والمخاليف والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر) .

ولو صنفنا هذه الجوانب لوجدناها تشمل جميع فروع الجغرافية الحديثة حاليا ، إلا أن المقدسى لايلتزم بتغطية جميع هذه الجوانب التى ذكرها عند دراسته لكل إقليم .

ويسير المقدسى فى تناوله دراسة الأقاليم المختلفة على نهج متشابه ، فهو يبدأ بإبراز أهمية الإقليم الدينية وارتباطه بتاريخ الإسلام وعلى سبيل المثال عند تناوله لجزيرة العرب يقول[٣١] **إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبى عليه الصلاة والسلام ، ومنها انتشر دين الإسلام ، وفيها كان الخلفاء الراشدون والأنصار والمهاجرون ، وبها عقدت رايات المسلمين ، وقويت أمور الدين ، وأيضا فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر .....**

وحينا يتناول إقليم العراق يقول[٣٢] أخرج أبا حنيفة فقيه الفقها ، وسفيان سيد القرا ، ومنه كان أبو عبيدة والفرا ... به مولد إبراهيم الخليل ، وإليه رحل كل صحابى جليل ...

وعند دراسة إقليم أقور يقول[٣٣] : به مشاهد الأنبياء ومنازل الأولياء ، به استقرت سفينة نوح على الجودى .

ونلاحظ بصفة عامة ميل المقدسى إلى السجع المتكلف أحيانا مما جعل المستشرقين يجدون صعوبة فى فهمه ، حتى إن كراتشكوفسكى المستشرق الروسى الذى يجيد العربية يقول فيه [٣٤] :

ولعل لغة المقدسى وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة[٣٥] فحسب بل إلى أعسر أساليب مكتبة الجغرافيين العرب ... ويحفل متن المقدسى بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال ، لأنه كان يميل بعض الشيء إلى غريب اللغة . وبعد أن يفرغ المقدسى من إبراز أهمية الإقليم الدينية والتاريخية ، يقسم الإقليم إلى كور وبالنسبة لإقليم جزيرة العرب يقول : وقد جعلناه أربع كور جليلة ... أولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر ، ويذكر بعد ذلك قصبة كل إقليم ، فأما الحجاز فقصبته مكة ثم يذكر المدن المختلفة من حيث موقعها ومناخها وتجارتها ومبانيها ومياهها .

ولعل أبرز ما ابتكره المقدسى فى دراسته للأقاليم هو محاولة إبراز شخصية كل إقليم بعد

دراسته فى خلاصة موجزة تحت عنوان « جمل شؤون هذا الإقليم » وأهم ما تشتمل عليه هذه الخلاصة عادة ، إبراز أهم سمات المناخ من حيث الحرارة والمطر ، والمذاهب الدينية السائدة ، وأهم اللغات واللهجات السائدة ، والقراءات الشائعة ، والتجارات والأسواق وأهم السلع ومزاياها ، والمكاييل والموازين المتداولة ، والنقود وأنواعها ، والأزياء . ويتناول كذلك « المياه » ومصادرها المختلفة مع المقارنة بينها ، ويتناول الجوانب الصحية فيذكر المضار التى يتعرض لها الإنسان فى هذا الإقليم ويتكلم عن الثروة المعدنية ، والمشاهد أى الأماكن ذات الشهرة التاريخية ثم يتكلم عن الأخلاق ، وتوزيع القبائل وخصائص كل قبيلة ثم يتكلم عن الضرائب والمكوس ثم يتتبع الطرق والمسافات بين المدن المختلفة .

ويمكن أن تصنف المادة الجغرافية الهائلة المتعددة الجوانب التى وصف بها المقدسى « أقاليمه » إلى فرعين أساسيين هما الجغرافيا الطبيعة ، والجغرافيا البشرية .

اولا : جوانب الجغرافيا الطبيعية التى تناولها المقدسى فى وصف أقاليمه :

اهتم المقدسى فى حديثه عن «جمل شؤون الإقليم» وهى الخلاصة التى اتبع بها دراسة كل إقليم ، وحاول فيها إبراز شخصيته بملامحها الطبيعية والبشرية ـ بتناول الظروف الطبيعية ويبدأ عادة بذكر المناخ وعلى سبيل المثال ، يبدأ كلامه فى جمل شؤون إقليم جزيرة العرب بالقول[٣٦] : « هو إقليم شديد الحر إلا السروات فإن هواءها معتدل » وكذلك يبدأ كلامه عن جمل شؤون العراق بقوله[٣٧] : « هواء هذا الإقليم يختلف ، فبغداد وواسط وما دخل فى هذا الصقع بلد رقيق الهواء سريع الانقلاب ربما توهج فى الصيف وآذى ثم انقلب سريعا » ويسير المقدسى على هذا المنوال فى ذكر جمل شؤون كل إقليم حيث يبدأ بإعطاء فكرة عامة عن المناخ فيما يعرف بحالة الهواء ، الذى يوصف غالبا بالجهة التى يأتى منها كقوله شامية الهواء .

واهتم المقدسى فى دراسته لبعض الأقاليم بوصف مظاهر السطح ، وعلى سبيل المثال قسم المقدسى إقليم الشام من حيث التضاريس إلى أربعة صفوف[٣٨] . فالصف الأول يلى بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرطبة وجميع مدن السواحل .

والصف الثانى « الجبل » مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت

جبريل وإيليا ونابلسى ... والصف الثالث الأغوار ذوات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ... والصف الرابع سيف البادية وهى جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذوات قرى وعيون وأشجار .

وفى إطار الجغرافيا الطبيعية يتناول المقدسى ذكر البحار والأنهار إذ يقول(٣٩) اعلم أنا لم نر فى الإسلام إلا بحرين ، أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب ، (ويقصد المقدسى بذلك المحيط الهندى وما تفرع عنه من خلجان) والبحر الآخر خروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس يخرج من المحيط عريضا ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام (البحر المتوسط) .

وسمعت بعض مشايخ المغرب يفسر هذه الآية :

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ »

قال : المغربان هذان الوجهان من البحر مغرب الصيف عن يمينه ومغرب الشتاء عن يساره(٤٠) .

ثانيا : جوانب الجغرافيا البشرية التى تناولها المقدسى فى دراسة أقاليمه :

تناولت دراسة المقدسى للأقاليم الكثير من جوانب الجغرافيا البشرية ، إذا أن المقدسى قد تناول الجغرافيا اللغوية للأقاليم المختلفة فهو يذكر(٤١) : هذا الإقليم (جزيرة العرب) لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية ..... وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه ، وليديه يدينه وقس عليه ، ويجعلون الجيم كافا فيقولون لرجب ، ركب ، ولرجل ركل . ويذكر كذلك(٤٢)وجميع لغات العرب موجودة فى بوادى هذه الجزيرة إلا أن أصح لغة بها هذيل ، ثم النجدين ثم بقية الحجاز الا الأحقاف فإن لسانهم وحش .

ويصف المقدسى لغات العراق فيقول(٤٣) : ولغاتهم مختلفة أصحها الكوفية لقربهم من البادية وبعدهم عن النبط ثم هى بعد ذلك حسنة فاسدة بخاصة بغداد ، وأما البطائح فنبط لالسان ولا عقل .

ويتناول المقدسى اللغة فى مصر فيقول :[٤٤] لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية .

ومما هو جدير بالذكر أن المقدسى اهتم بأسماء الأماكن أو « جغرافية الأسماء » فهو يذكر تحت عنوان « ذكر الأسامى واختلافها » [٤٥] اعلم أن فى الإسلام بلدانا وكورا وقرى تتفق أسماؤها [٤٦] وتتباين مواضعها ويشكل على الناس أمرها ... السوس كورة بأقصى المغرب ومدينة بأوله وأخرى بهيطل وكورة بخوزستان وبالمغرب سوسة أيضا .

وتناول المقدسى الجغرافيا الإدارية للأقاليم حيث قسم الأقاليم إلى كور ثم فصل كور كل إقليم وحدد أمصارها وذكر قصباتها ورتب مدنها .

وعلى سبيل المثال قسم المقدسى إقليم أقور على النحو التالى:[٤٧] وقد قسمنا هذا الإقليم على بطون العرب لتعرف ديارهم وتميزها ، وجعلناه ثلاث كور على عدة بطونهم ، أولها من قبل العراق ديار ربيعة ثم ديار مضر ثم ديار بكر وبه أربع نواح ، وأما ديار ربيعة فقصبتها الموصل ...

ويقول :[٤٨] وقد جعلنا إقليم مصر على سبع كور ، ست منها عامرة ولها أيضا أعمال واسعة دوات ضياع جليلة ..... فأولها من نحو الشام الجفار ثم الحوف ثم الريف ثم إسكندرية ثم مقدونية ثم الصعيد والسابعة الواحات .

واهتم المقدسى بوصف المدن ومواقعها فيما يمكن أن يندرج تحت ما يسمى حاليا بجغرافية المدن ، فهو يقول وصف مدائن هذه الكورة ثم يصف مدن الكورة وعلى سبيل المثال ما ذكره عن الطائف فهو يقول:[٤٩] الطائف مدينة صغيرة شامية الهواء، باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها ، موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيد والفواكه الحسنة وهى على ظهر جبل غزوان ، ربما يتجلد بها الماء ، عامتها مدابغ ، إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها .

واهتم المقدسى بصفة خاصة بذكر التجارات فى كل إقليم ، ويندرج هذا الاهتمام تحت ما يسمى « بالجغرافيا التجارية » ومن أمثلة ذلك ما ذكره بالنسبة للجزيرة العربية إذ يقول : [٥٠] والتجارات فى هذا الإقليم مفيدة ... فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران ... وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش ..

وفى كلامه عن إقليم العراق يقول :[٥١] ولا بأس بالتجارات فيه ألم تسمع بخز البصرة وبزها ... وبالأبله تعمل ثياب الكتاب الرفيعة ... وبالكوفة عمائم الخز والبنفسج . وعند حديثه عن إقليم الشام ذكر[٥٢] ((يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون ... ومن بيت المقدس الجبن والقطن ... والتفاح ..)) وهكذا لايغفل المقدسى ذكر تجارات كل إقليم عند حديثه عن جمل شؤون الإقليم ولايغفل عن ذكر النقود المستخدمة والمكاييل والموازين مع عقد المقارنات بين الأقاليم المختلفة ، ولايغفل المقدسى عن ذكر العجائب فى كل إقليم ، ومناطق الزيارات والمشاهد المختلفة فيما يعد من اهتمامات « الجغرافيا السياحية » ومن أمثلة ذلك مغارة إيليا إذ يقول :[٥٣] ((وفيها طرق يدخل فيها بالمشاعل بين فلسطين والحجاز))

وعن إقليم مصر :[٥٤] وفيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة شبه عمارتين ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع بذراع الملك ...... وبعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة على رأسهما شبه حربة تسمى المسلتين .

وقد تناول المقدسى الكثير من الحقائق الجغرافية عند دراسته للأقاليم المختلفة وتناولت هذه الحقائق ذكر الملابس والأطعمة والعادات وتشكل هذه الدراسات بعض جوانب الجغرافيا الحضارية .

ونالت جغرافية النقل من المقدسى اهتماما كبيرا فهو يذكر الطرق بين المدن المختلفة تارة بالمراحل أو المناهل وتارة أخرى بالأيام أو الأميال . ويشغل ذكر الأبعاد بين المناطق المختلفة جزءا لايستهان به من دراسته للأقاليم .

بعد هذا العرض يتضح لنا أن أسلوب المقدسى فى دراسته لأقاليمه اعتمد على وصف جميع جوانب الإقليم الجغرافية من طبيعية وبشرية وصفا دقيقا يكاد لا يهمل شيئا وخصوصا للمناطق التى عاينها بنفسه ، ومن المعروف أن المقدسى قد تميز باتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التى جمعها لصياغة منظمة مما دفع كراتشكوفسكى إلى القول[٥٥] بأننا لانملك إلا الاعتراف بأنه قد أبدى فى هذا الصدد الكثير من التمحيص والتدقيق فى منهج دراسته للأقاليم .

خاتمـــــــة

المقدسى أبرز الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا الجغرافيا الإقليمية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وعلى الرغم من أن المقدسى قد تناول تقسيم العالم إلى الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك ، إلا أنه حينما يتناول مملكة.الإسلام تحرر من أسس التقسيم السابقة التى كانت تعتمد على ميل الشمس وطول الظل (درجة العرض) واعتمد على الأساس اللغوى حيث قسم المملكة الإسلامية إلى أربعة عشر إقليما ، ستة منها للعرب وثمانية للعجم ، ثم قسم هذه الأقاليم إلى أقسام أخرى وفق أسس سياسية وإدارية .

وعالج المقدسى فى دراسته لأقاليم العالم الإسلامى كل الجوانب الجغرافية تقريباً ، متبعاً منهج المقارنة لإبراز التشابه والتباين بين أقاليم العالم الإسلامى المختلفة .

ولقد سعى المقدسى فى دراسته نحو إبراز شخصية كل إقليم ، تحت ما يسمى (ذكر الخصائص فى الأقاليم « وجمل شؤون الإقليم » ولاشك ؛ بأن إبراز شخصية كل إقليم هو محور دراسة الجغرافيا الإقليمية الحديثة وروحها ، ولا عجب إذا ما عده بعض المستشرقين بأنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، بل ومن أكبر الجغرافيين الذين عرفتهم البشرية .

OOO

الحواشي

(١) نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، بدون تاريخ طبع ، ص ٥٧ .

(٢) طبعة مكتبة خياط - بيروت - اعتمادا على الطبعة الثانية التى أصدرها دى غوية سنة ١٩٠٦ م .

(٣) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، سنة١٩٦١ ،جـ ١ ، ص ١٢٦.

(٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، طبعة بيروت سنة ١٩٥٥ م ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

(٥) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

* هكذا وردت فى النص والصحيح أن تكون « وهذا الربع قسمان بر ، وبحر» .

(٦) البيرونى ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، طبعة مكتبة المثنى ببغداد ، بدون تاريخ طبع ، ص ص ١٤٤ - ٢٣٨ .

(7)Rummey, George R., climatoloyy and the world climates, New York 197o, P.3.

٨) كراتشكوفسكى ، جـ ١ ، المصدر السابق .

(٩) كرلونلينو ، علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، طبعة روما سنة ١٩١١ م

(١٠) ياقوت الحموى ،معجم البلدان ، ص ٢٦ .

(١١) المقدسى أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة مكتبة خياط ، سنة١٢٨٩ هـ ص ٤١ .

(١٢) المقدسى ، المرجع السابق، ص ٥٨ .

(١٣) يسود اعتقاد غير صحيح أن محمد بن موسى الخوارزمى قد نقل تقسيم العالم إلى أقاليم سبعة عن بطليموس ، وأن « صورةالأرض » للخوارزمى ترجمة لجغرافية بطليموس ، وللأسف أن من يردد ذلك هم بعض الجغرافيين العرب ، والحق أنه ليس من الإنصاف أن نقول إن صورة الأرض ترجمة لجغرافيا بطليموس لأن الخوارزمى رتب المادة الجغرافية وأضاف الكثير من ميدان الجغرافيا العربية ، وعلى سبيل المثال قسم بطليموس العالم إلى إحدى وعشرين منطقة ، بينما قسم الخوارزمى العالم إلى سبعة أقاليم حسب درجات العرض ، وهو تقسيم جديد فيه ابتكار وأصالة .

(١٤) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(١٥) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(١٦) كراتشكوفسكو ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(١٧) المقدس ، أحسن التقاسيم ،ص ٩ .

(١٨) المقدسى ، المرجع السابق ،ص ٦٣ .

(١٩) المقدسى المرجع السابق ، ص ص ٦٧ ـ ٦٨

(٢٠) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢١) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ص ٣ ـ ٨ .

(٢٢) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٣ .

(٢٢) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٣ .

(٢٣) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٤ .

(٢٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٢ .

(٢٥) كراتشكوفسكى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢٦) توفى ابن خرداذبة سنة ٣٠٠هـ .

(٢٧) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، طبعة المثنى ببغداد .

(٢٨) المقدسى ، أحسن التقاسيم .

(٢٩) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٦

(٣٠) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣١) المقدسى ،المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٣٢) المقدسى المرجع السابق ، ص ١١٣

(٣٣) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣٤) كراتشكوفسكى ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٣٥) يقصد المدرسة الجغرافية الكلاسيكية العربية فى القرن العاشر الميلادى .

(٣٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٥ .

(٣٧) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٣٨) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٣٩) المقدسى ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٤٠) هذا تفسير جيد وصحيح ، لأن الشمس تتعامد وقت الانقلاب الصيفى على مدار السرطان ، ووقت الانقلاب الشتوى على مدار الجدى .

* سورة الرحمن الآية ١٧

(٤١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٦ .

(٤٢) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٤٣) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٤٤) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣

(٤٥) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ويعتقد الباحث أن ياقوت بن عبد الله الحموى قد تأثر كثيرا بهذا الفصل فى كتابه « المشترك وضعا والمفترق صقعاً» الذى وضعه فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

(٤٦) **المقدسى** ، المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٤٧) **المقدسى** ، **المرجع السابق** ، ص ١٩٣ .

(٤٨) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤٩) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٥٠) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٥١) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٥٢) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

(٥٣) **المقدسى** ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٥٤) **كراتشكوفسكى** ، المرجع السابق ، جـ ١ ،ص ٢١٠ .

OOO

الجغرافيون والرحالة العرب وماكتبوه عن الساحل الإفريقى الشرقى فى العصور الوسطى

دكتور / عبدالرحمن زكى



العربية والإسلام :

العلاقة بين شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقية قديمة ، وقامت فى بادىء الأمر على تبادل التجارة بينهما . وفى أيام فجر الإسلام قدم المسلمون إلى شرقى أفريقية لما اشتد إيذاء قبيلة قريش للرسول فى مكة ، واعتداؤها على المسلمين فاضطرت جماعة منهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة والاستقرار فيها بعدما لقوه من حسن استقبال النجاشى ، وامتناعه عن ردهم إلى قريش . ومع ذلك فإن المسلمين لم يستقروا فى بلاد الحبشة إلا بعد مرور زمن طويل .

وعندما نشب الخلاف بين العرب حول منصب الخلافة ، لاسيا عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، انقسم المسلمون إلى شيع أثناء خلافة على بن أبى طالب ، ونشب الصراع بين الفئات المختلفة ، كل منها تنتصر لمبدئها أو مذهبها .

كان النضال مريرا ألجأ بعض المتشيعين إلى الهجرة من مواطنهم إلى شرق أفريقيا ، وكان المهاجرون من العرب والفرس على السواء وصلوا إلى الساحل الإفريقى الشرقى وشيدوا محلات صغيرة وأصبحوا إلى حد ما بعيدين عن انتقام أعدائهم . وكان هؤلاء يعرفون ثروة الموطن الجديد ، لاسيا فى تجارة العاج والذهب والرقيق والجلود .

وتتابعت الأحداث التى وصلت إلينا بعض أنبائها وأحوال نشاطها ، واستطاع العلماء عن طريق القصص المحلية ومن آثار المدن القديمة المتناثرة على الشاطىء الشرقى والجزر الصغيرة القريبة ـ الاهتداء بمعالم الحضارة العربية أو الهندية أو الفارسية التى انتقلت هناك . وقد كان لما دونه الجغرافيون والرحالة المسلمون فيا بعد أهمية كبرى فى معرفة أحوال المجتمع العربى فى شرق أفريقيا أثناء العصور الوسطى .

وقبل أن نتكلم عن جهود هؤلاء الجغرافيين المسلمين سنتحدث عن أهم تلك الهجرات الآسيوية العربية التى تدفقت تدريجيا ثم استوطنت الساحل البرى .

١ ـ هجرة سليمان وسعيد (بين عامى ٦٩٦ و ٧٠٤ م)

اهتم الخلفاء الأمويون بتجارة الشرق عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى فأقاموا محطات

تجارية على الساحل الشرقى لأفريقيا لتأمين هذه التجارة . ويشهد على ذلك ما قام به الخليفة الأموى عبدِ الملك بن مروان من إرسال قوات فى سنة ٧٥ هـ/٦٩٥ م إلى الساحل المذكور حيث اتخذت القوات قاعدة لها فى جزيرة لامو الواقعة فى المياه الساحلية ما بين الصومال وكينيا (الحديثة) .

ونتكلم الآن على هجرة سليمان وسعيد فنقول إنه سبقتها هجرة لم تصلنا أنباء مفصلة عنها ، وكانت هذة هى الهجرة الثانية وتعتبر أول استيطان عربى وصلنا عنه بعض المعلومات فى أوائل القرن الثامن فى أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥م) ، فقد هب شعب عمان وموطنه الأصلى عند الشاطىء الغربى للخليج العربى الفارسى تحت زعامة زعيمين هما سليمان وسعيد بثورة ضد الخليفة الأموى وقد فاز الثائرون فى بداية الأمر ثم تغلبت عليهم قوات الحجاج فى عمان (٦٩٥م) واضطر الزعيمان إلى الفرار للخلاص بحياة رجالهم تاركين وطنهم وهاموا فى جموع من أسرهم وقبائلهم مولين وجوههم شطر الساحل الإفريقى ولا يعلم تماما أين نزلوا على البحر ، ويحتمل أن يكونوا نزلوا فى باتا (Pata) فى أرخبيل لامو .

٢ - هجرة اليزيـديـن (قرابة ٧٥٠م)

وفرت الجماعة الثانية من مهاجرى العرب إثر نشوب صراع بين الشيعة وكان ذلك بداية القرن الثامن عندما انشقت صفوف الشيعة إلى طائفتين متخاصمتين . وقد كان على رأس ، الطائفة الأولى زيد أكبر أحفاد الإمام على زوج بنت الرسول وأطلق على هذه الجماعة أهل زيد . وقد هزم رجال الخليفة تلك الجماعة حوالى ٧٣٩/٧٤٠م واضطر أتباع زيد إلى الفرار ، وجاء بعضهم إلى ساحل شرق أفريقيا ، واستقروا حينئذ عند ساحل بنادر (الصومال الشرقى) بالقرب من موقع مقديشو عند شنجايا .

٣ - هجرة الإخوة السبعة من الأحساء (بعد ٩٠٣/٩٠٤) :

وفى خلال المائتى سنة تمكن أتباع زيد من السيطرة على ساحل بنادر حتى وفد إليهم طوائف من ولاية الأحساء (شرق الجزيرة العربية) ، وكان على رأسهم سبعة إخوة جاءوا فى ثلاث سفن ونزلوا عند ساحل بنادر حيث شيدوا مدينتى مقديشو وبراوة ، ورفض أتباع زيد الاعتراف بسيادة هؤلاء ، وفضلوا الانسحاب إلى قلب البلاد حيث اختلطوا بالأهالى .

٤ ـ هجرة حسن بن على وأبنائه الستة :

قدم حسن بن على إلى الساحل الإفريقى يصحبه أبناؤه وعدد كبير من اتباعه ، ويقال : إن حسنا ابن سلطان شيراز فى فارس أوإنه كان السلطان نفسه(ولاتعرف الأسباب الحقيقية التى أدت إلى مغادرته شيراز فى عام ٩٧٥ م) وصلوا فى سبع سفن ، ونزلوا فى أماكن شتى على الشاطىء الشرقى ، واحدة منها فى منبسة ، والثانية فى بمبا ، والثالثة فى كلوة ، وهى التى كان عليها حسن ورابعة فى جوهانه[١].

وفى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالى من الإفريقيين الأصليين يدخلون تدريجيا فى الإسلام ، والمعروف أن هؤلاء يتبعون الآن المذهب الشافعى (سنيون) ، ولما كان حسن بن على ومن صحبه شيعيين من ذوى السلطة والنفوذ ، فإنه لايعرف متى تحول غالبية السكان من شيعيين إلى سنيين[٢]، واستوطن العرب إقليم سفالة جنوبى موزمبيق بين عامى ٩١٠ و ١٢٢٠ م . كما انتشر هؤلاء فى جزيرة مدغشقر لاسيا فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وتكون من الإفريقيين والملايو سكان مدغشقر الجنس المالجاشى .

وعلى مر الأيام أوغل الشاطىء الإفريقى فى أنحاء المناطق الإفريقية المحاذية للساحل وشقوا سبيلهم شمالا إلى الحبشة ، وإلى أوغندة وتنجانيقا وإلى إقليم نياسا ، بل وربما أيضا إلى أقصى القارة جنوباً ومن المدن التى بناها العرب على الساحل الشرقى واتخذوا منها مرافىء للسفن : سفالة وكلوة وزنجبار ومنبسة ومالندة[٣] .

٥ ـ غزوة آل النبهانى (قرابة ١٢٠٣م) :

وفى فجر القرن الثالث عشر قام ابن عثمان ـ سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى على رأس أتباعه الكثيرين وقصدوا جزيرة باتا ، ثم تزوج من ابنة زعيم سواحلى اسمه إسحق حاكم باتا ، ومن ثم آلت إليه السلطنة ، فأسس الأسرة النبهانية التى تولت حكم شطر كبير من الساحل الإفريقى حتى القرن التاسع عشر .

تلك هى مقدمة كان لابد منها لنتعرف على مواطن التعريب الأولى على الساحل الإفريقى حينما عرفها الجغرافيون العرب ووضعوها فى مؤلفاتهم وكما شاهدها رحالتهم .

الجغرافيون والرحالة العرب وكتاباتهم عن ساحل شرق أفريقيا
القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى

أشار عبد الله بن خرداذبة فى كتابه « المسالك والممالك » فى عام ٨٨٦م إلى بلاد الزنج ، فقد ذكر عدن وأشاد بأهميتها بين ثغور المحيط الهندى وبتجارتها وبحاصلات الصين والهند والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والسويس[٤] توفى حوالى عام ٩١٣ م . وقد استعان بمؤلفاته كثير من الجغرافيين ـ كابن الفقيه وابن حوقل .

القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى

• وفى أوائل القرن العاشر يقابلنا كتاب ابن الفقيه « البلدان » الذى لم يصلنا منه سوى أجزاء قليلة لفقد معظمه ، وقد أشار ابن الفقيه إلى الرياح الموسمية التى تسابق الملاحين فى المحيط الهندى على الوصول إلى شاطىء الزنج فى خلال مقاومتهم العواصف والأمواج العاتية ، كما أنه أمدنا ببعض عادات الزنج وتقاليدهم .

ويعتبر أبو زيد السيرافى (٨٧٧ ـ ٩١٥م) أول من أمدنا بمعلومات متصلة بساحل شرق أفريقيا[٥] .

• كما يعتبر كتاب أبى إسحق إبراهيم المشهور بالإصطخرى الجغرافى (ح٩٥١) صاحب « المسالك والممالك » أول مؤلفات تقويم للبلدان العربية التى احتوت على خرائط مرسومة وضحت على إحداها المدن والثغور التى تقع فى بلاد الزنج . وقد ذكر عن تلك البلاد أنها واسعة وتمتد شمالا إلى تخوم الحبشة وتقابل اليمن وفارس والهند . ويبدو أن الإصطخرى أفاد كثيراً مما كتبه أبو زيد البلخى فى كتابه « صور الأقاليم » .

• ويمدنا الجغرافى العربى أبو القاسم أحمد المعروف بابن حوقل (توفى ح ٩٧٧م) فى كتابه « المسالك والممالك » بشىء من رحلتيه بعد أن جاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب ما يقرب من ثلاثين سنة وكان قد بدأها عام ٩٤٣ م وقد صحح كثيرا من المعلومات التى

أوردها الإصطخرى فى كتابه وقد نشر كتابه ضمن مطبوعات المكتبة الجغرافية بليدن (١٨٧٠ ـ ١٨٩٣) وأعيد طبعه مرات .

على بن الحسين بن على المسعودى :

ويعتبر من أشهر جغرافيى العرب . ولد فى بغداد وتوفى بالفسطاط حوالى عام (٩٥٧)م وأهم مؤلفاته «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذى يعتبر من المراجع الجغرافية عن أحوال العالم الإسلامى وقد تردد على منطقة ساحل شرقى أفريقيا فى الفترة من عام ٩١٦ إلى ٩٢٦ م كما طوف بأصقاع كثيرة حتى وصل إلى مدغشقر ، ويمكن القول أن المسعودى أضاء الطريق أمام الباحثين فى جغرافية شرق أفريقيا وتاريخها . قال المسعودى عن خطورة بحر الزنج مايلى : « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها الأهوال مالا أحصيه كثرة ، فلم أجد أهول من بحر الزنج » ثم قال عن الزنج : « إنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعبا واحدا . يعيشون فى إقليم يمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب فى المنطقة الممتدة فيا يعرف حاليا بالقرن الإفريقى شمالا إلى موزمبيق جنوبا ..» ويواصل المسعودى حديثه قائلا : وسكنت الزنج فى ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى سفالة وهى أقاصى بلاد الزنج وأقاصى بحر الزنج وبلاد سفالة وأقاصى بلاد واق الواق وهى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة واتخذها الزنج دار مملكة وملكوا عليها ملكا سموه « دقليمى » والفيلة فى أرض الزنج فى نهاية الكثرة وحشية كلها ، والزنج لا تستعمل شيئا منها فى حرب ولا فى غيرها ، بل تقتلها ، والزنج يقاتلون على البقر بدلا من الإبل والخيل ، وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم .

القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر

ويمدنا العلامة أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ١٠٣٨ بمؤلفات شتى فى الرياضيات والفلك والتاريخ ... والبيرونى أول من حقق صفة بلاد السند وبلاد الهند الشمالية وقد صحب السلطان محمود الغزنوى فى غزواته من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٠١١ وأصلح ما وجده من الخطأ فى خريطة تلك البلاد وضبط مواقع مدنها . وقال أبو الريحان فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » عن شرق أفريقيا : « إن ساحل القارة الشرقى والجزر الجنوبية منه تسكنها

قبائل متفرقة من الزنج . وأشار أيضا إلى شؤون التجارة التى كانت قائمة بين سفالة فى جنوب الساحل والهند والصين ، لكنه لم يعطنا معلومات مفصلة عن دور العرب فى تلك التجارة .

القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى

الشريف محمد بن عبد الله الإدريسى :

وفيما بين عامى ١١٠٠و١١٦٦ م يقابلنا الشريف الإدريسى (١٠١٩ - ١١٦٦م) فى كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه للملك روجر أحد ملوك صقلية النورمان المتنورين ، وأهمية كتاب الإدريسى أنه أول المراجع التى تتحدث عن مدن الساحل الأفريقى وجزره ، ومن ذلك كلوة التى كانت لها تجارة هامة مع سفالة ومالندة على الشاطىء ومع ذلك فإن الإدريسى لم يقدم لنا معلومات وافية عن تلك المدن . وإذا عرفنا أن الإدريسى انتهى من كتابه « نزهة المشتاق » عام ١١٥٤ فإن من المهم أن نعرف أيضا أن فى هذه الفترة كانت تجارة العرب متسعة فى المنطقة اتساعا كبيرا وذكر الإدريسى تجارة الحديد وقال : إن الزنوج يمتلكون مناجم الحديد ، ويستخرجونه منها ، ويتاجرون فى الحديد المطاوع منه ، ويربحون من تجارتهم هذه أرباحا كثيرة وتحدث الإدريسى عن منبسة التى كان يشتغل أهلها فى تجارة الحديد أيضا مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانوا يصنعون فى بلادهم السيوف الجيدة .

القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى

• وفى أوائل القرن الثالث عشر صنف شهاب الدين ياقوت الحموى « معجم البلدان » ويعتبر هذا المعجم من أهم ما صنفه العرب فى هذا الميدان ، ويقابلنا فيه بعض أسماء مدن شرقى أفريقيا كمقديشو، وقال عنها: إنها مدينة فى أول بلاد الزنج جنوب اليمن فى بحر البربر فى وسط بلادهم ، وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج جنس متوسط من الحبش والزنوج . وإذا قصدهم التاجر لابد له من أن ينزل على واحد منهم ويستجير به ، فيقوم بأمره ، ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعنبر والعاج ، وقد يكون عندهم

غير ذلك مجلوبا إليهم . ولم يزد ياقوت معلومات جديدة عن المدن الأخرى عما جاء فى كتاب الإدريسى .

• ثم يقابلنا الشيخ زكريا بن محمد القزوينى (توفى١٢٨٣) وله كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد» • وله أيضا كتاب « عجائب المخلوقات » جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد ولكن فيه الغث والثمين وتاريخ تأليفه سنة١٢٧٥ وقد طبع الكتابان فى كوتنجن سنة٨٤٩ م ، وقد ذكر القزوينى فى كتابه الأول أن سفالة هى آخر مدينة معروفة فى أرض الزنج ، وفيها مناجم الذهب ويمارس أهلها التجارة (المقايضة) الخفية .

• ويقدم لنا ابن سعيد المغربى الغرناطى (١٢١٣ ـ١٢٨٦) المعاصر للقزوينى كتابه الذى صنفه على نهج الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » فقد رحل إلى القاهرة وإلى حلب ودمشق وحج ، وكان نزوله فى ساحل أفريقيا سنة ٦٥٢هـ ومن ثم قدم لنا بعض المعلومات عن مدن الساحل الأفريقى كالندة ومنبسة ومقديشو بترتيبها من الشمال إلى الجنوب .

• ويقابلنا أبو الفداء إسماعيل بن على عماد الدين (١٢٧٣ ـ ١٣٣١) فى كتابه الهام « تقويم البلدان » ونلاحظ أنه نقل كثيرا فيما يتصل بشرق أفريقيا وقد نقل كتابه إلى اللغة الفرنسية فى ثلاثة أجزاء وكان ذلك عام١٨٤٨ م .

القرن الثامن الهجرى ـ القرن الرابع عشر

• وفى خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر نهض الرحالة المغربى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧) من طنجة مسقط رأسه فى المغرب وتونس وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين والشام وفارس والعراق وبلاد ما بين النهرين ، ثم عرج نحو الساحل الإفريقى الشرقى من تعز باليمن فقصد مقديشو ، فمنبسة ، فكلوة وأمدنا بمعلومات قيمة عن مجتمع كل مدينة . فذكر عن مقديشو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوما وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وتحدث عن نشاطها الاقتصادى ، وأكد اتصالها بمصر تجاريا وذكر أن سلطانها يتحدث العربية وإن كان يتكلم لغة مقديشو ، وذكر ابن بطوطة التقاليد المتبعة فى جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء ووجوه وأحفاد ، كل حسب مرتبته ، وأن الأطفال والأنفار والأبواب كانت تضرب عند جلوس السلطان ، ثم يمضى ابن بطوطة فى

وصف الحياة الاجتماعية فالاقتصادية ومدى ما وصلت إليه هذه السلطنة فى اتساع النفوذ ، وعزٌ فى التجارة والمال .

وذكر ابن بطوطة عن منبسة ـ أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين فى البحر . وأشجارها الموز والليمون والأترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهى تشبه الزيتون ولها نوى كنواه إلا أنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وإصلاح ومساجد من الخشب محكمة الاتقان .

• وكتب رحالتنا ابن بطوطة عن كلوة ، يقول : إنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج المستحكى السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم ، وقد ذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من كلوة ، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميتين شهر ، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة ، ومدينة كلوا من أحسن المدن واتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب ، وكان سلطان كلوا فى أيام دخول ابن بطوطة إلى كلوا ـ أبو المظفر حسن بن سليمان الذى تولى الحكم(١٣١٠ ـ ١٣٣٣ م) أى حوالى أربع وعشرين سنة . وبعد وفاته تولى داود الملك وكان على نقيض أخيه فى كل شىء[٦] .

• ولزين الدين عمر بن المظفر بن الوردى (توفى ١٣٤٨) كتاب « جريدة العجائب وفريدة الغرائب »[٧] وقد أشار فيه إلى ذهب مدينة سفالة التى تجاور أرض الزنج ويقول عنها : إنها أرض واسعة بها جبال فيها مناجم الحديد ، ولكن معادن سفالة أطيب وأصلح وأرطب والهنود يصنعونه فيصير فولاذاً لمعا . ومن عجائب أرض سفالة أن بها التبر الكثير ظاهرا ، وكل تبرة مثقالان وثلاثة وأكثر . ومع ذلك لايتحلون إلا بالنحاس ويفضلونه على الذهب وأرض سفالة متصلة بأرض واق الواق .

• ويقابلنا فى موسوعة الأعشى لابن العباس أحمد القلقشندى المصرى (توفى١٤١٨م) بعض الإشارات عن المناطق الإسلامية فى الحبشة وشرق أفريقيا ، كما أن هناك فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى تلميحات قليلة .

وهكذا نرى أنه منذ القرن الخامس عشر تصبح المراجع العربية نادرة جدا ، ثم يتضاءل عددها لشعوب غرب أفريقيا ، ثم تحل مكانها المؤلفات الأفريقية الوطنية والبرتغالية ، ومن أهمها الوثائق التاريخية المعاصرة لغزوهم بلاد السواحل الشرقية والغربية ، ويمتاز هذا العصر بالكشوف الجغرافية التى نهض بها الملاحون البرتغاليون إبان نهضتهم ...

الجغرافيون والرحالة العرب فى غرب أفريقيا

فى القرن التاسع تحدث ابن عبد الحكم (٨٠٣ ـ ٨٧١) صاحب « فتوح مصر والغرب » عن السودان الغربى (غرب أفريقيا) وعن الحملات العربية التى وصلت إلى جنوب الصحراء قال : « وغزا عبيدالله حبيب بن أبى عبيد الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب . وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر « أجان » ثم غزا أيضا البحر ثم انصرف .

ولدينا اليعقوبى الجغرافى والمؤرخ (توفى ٨٩٧ م) صاحب البلدان تحدث عن تاريخ ممالك السودان: «الزفاوة وكاكو، ومارندا، وغانا وتداريز وغـام وسامـا وكرار وأودغشـت». كما أنه أشار إلى مناجم الذهب فى غانا وقوافل العبيد .

وابن حوقل الذى ألف كتابه « المسالك والممالك » حوالى عام ٩٨٨ فى أعقاب رحلته التى قام بها عام ٩٧٧ وتحدث عن بلدة أودغشت على حافة الصحراء فقال : إن لزعماء تلك المدينة صلات بملك غانا أغنى ممالك العالم لما فى أرض بلاده من التبر .

والمسعودى (توفى ٩٥٧) الذى طوف فى أنحاء العالم العربى والهند والأندلس ، ويرجح أنه زار مدغشقر ثم توفى فى مصر ، ونجد فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » إشارات مفيدة عن عدة ممالك فى غرب أفريقيا وشرقيها .

وأشار الإصطخرى (توفى في النصف الأول من القرن ٤ الهجرى) فى كتابه « المسـالك والممالك » إلى بلاد السودان عامة (ص ٣٤ ـ ط . القاهرة) .

ولدينا أبو عبيد عبد الله البكرى (١٠٤٠ ـ ١٠٩٤ م) الجغرافى الأندلسى الذى كتب حوالى عام١٠٧٧ م وصفا لأفريقيا ، دون أن تطأها قدمه يعتبر من أهم ما كتب فى تلك

الفترة ، وقدم لنا معلومات دقيقة عن مملكة غانا القديمة ، وهى فى أزهى أيامها وأشار إلى محاولات المرابطين لاختراق الصحراء من أجل الوصول إليها .

والإدريسى (١١٠٠ ـ ١١٦٤) صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى عنى بتحقيقه ونشره هنرى بيربس ، عنى كثيرا بأحوال غرب أفريقيا ولاسيا غانة ، فقد وصف فى أماكن كثيرة من كتابه ما كان عليه ملوك هذه الدولة فى الثراء ، كما وصف أحوال مالى وتكرور ، أكبر مدنها وأكثرها تجارة ، فكان يسافر إليها أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم .

وياقوت الحموى (١١٧٩ ـ ١٢٢٨ م) الذى جمع خلال رحلاته شتى المعلومات الجيدة عن غانة وتكرور وذكرها فى معجمه المعروف ، وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية ، منها ترجمة وستنفلد التى صدرت فى ليزج (١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ م) .

وذكر زكريا بن محمد القزوينى (توفى ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) فى آثار البلاد (ط. بيروت) السودان وتكرور (ص ٢٦ ـ ٢٧) وغانة (ص ٥٧) بلاد التبر .

وذكر على بن سعيد المغربى (توفى٦٨٥هـ/١٢٨٦ م) فى كتابه « بسط الأرض فى الطول والعرض » (نشره خوان فرنيقط خمبنس ، بتطوان ١٩٥٨ م ،ص ٢٤ ، ٢٨) التكرور وكانم ومدنها .

كما ذكر أبو الفداء (توفى ٧٣٢ ـ ١٣٣١م) فى تقويم البلدان (ط ـ باريس ص١٥٣،٢) بلاد التكرور ، وقد نقل عن ابن سعيد ما كتبه عن مدينه أودغشت (ص١٣٧) .

وابن أبى زرع (توفى ١٣٢٦) صاحب « الأنيس المطرب بروضة القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وقد حققه المستشرق تورنبرج عام ١٨٣٩ . وترجمه إلى الفرنسية Beumier بعنوان « روضة القرطاس » عام ١٨٦٠ م .

وفى القرن الرابع عشر يقابلنا أحمد بن فضل الله العمرى (١٣٠١ ـ ١٣٩٨) القاهرى فى كتابه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» الذى ألفه فيما بين١٣٤٢ـ١٣٤٦. وهو لايزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية (رقم ٢٥٦٨) ويقع فى ٢٠ جزءا وقد حقق المرحوم أحمد زكى باشا الجزء الأول من هذا المخطوط ونشره عام ١٣٢٤ ، وكثيرا ما يقتبس القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ويأخذ منه فقرات كاملة .

وتقى الدين أحمد المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) صاحب الخطط المعروفة له كتاب بعنوان « الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشره لأول مرة الأستاذ جمال الدين الشيال فى عام١٩٥٥ ضمن سلسلة مكتبة المقريزى الصغيرة ذكر فيه منسا موسى أول من حج من ملوك التكرور (مالى) (ص .١ ـ ١١٣) .

ومن أهم المراجع العربية فى القرن الرابع عشر أبو عبدالله محمد بن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧) ، صاحب كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وهذا الكتاب عامر بوصف وأحوال دول غرب أفريقيا ، ولاسيا مالى قاعدة الدولة الإسلامية التى زارها ابن بطوطة وأمضى فيها ثمانية أشهر ، وقد شاهد ابن بطوطة نهر النيجر وظنه متصلا بنهر النيل ، كما زار تنبكتو حينما كانت مركزا للحضارة الإسلامية وأخذ يجول فى بلاد السودان الغربى وواحاته حتى وصل تاكدا وهى حينذاك أكبر مدن الطوارق كان ذلك فى أثناء رحلة ابن بطوطة الثالثة التى خصها بالسودان الغربى حوالى عام ١٣٥٢ م .

وزودنا المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) فى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (تاريخ البربر والأسرات الإسلامية ، ٣أجزاء) بحقائق هامة عن السودان الغربى وبمعلومات دقيقة للمرة الأولى عن قبائل الطوارق الذين كانوا فى منطقة اير (أسبن) فى الصحراء الكبرى وأهم مدنها أجادس التى بنيت فى القرن ١٥ الميلادى وجميع سكانها مسلمون .

وأحمد بن عبدالله القلقشندى (توفى ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م) صاحب صبح الأعشى الذى أمدنا بصورة جلية لمجتمع دولة مالى الإسلامية ، وأورد ثبتا لحكامها قبل وبعد اعتناقهم الإسلام ، كما يبين لنا الصلات الوطيدة التى كانت تربط سلطنة برنو بمصر على أيام السلطان الظاهر سيف الدين بن برقوق ، وعثمان برى بن إدريس وسلطان برنو حوالى سنة٧٩٤ هـ ١٣٩١ ـ ٩٢ .

الحسن بن الوزان (ليون الإفريقى) :

ومن أهم المراجع ، ماكتبه الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٤٩٢ ـ ١٥٥٢) اسمه المعروف ليون الإفريقى[١] . ولد فى غرناطة عام ١٤٩٢ وتلقى العلم فى فاس ثم رافق عمه فى

بعثة سياسية أوفدها سلطان مراكش إلى بلاط محمد اكسبا امبراطور سنغاى فى جانح وقام بعد ذلك برحلة طويلة فى غرب أفريقيا ، ثم وقع أسيرا فى قبضة بعض الفرسان المسيحيين فى البحر ، فأخذوه إلى روما وتعهده البابا ليونى فشجعه على الدرس والمطالعة ، عاش سنين طويلة فى روما وزار فى خلالها عدة مدن إيطالية ليعلم اللغة العربية فيها ، ولما مات البابا عاد الحسن بن محمد إلى تونس واتخذها مقاما له حتى توفى عام١٥٥٢ م ولقد أفاد الحسن من رحلته الأولى فأمدته بكثير من المعلومات التى دونها فى كتاب رحلته . وكان رحالتنا قد مربجنى ومالى وتنبكتو وجوجو وجوبر ، وكانو ، وكتسبنا وزنفرا ونقاره ، وبرنو وغيرها . وقد وصف تلك الأماكن وصفا جيدا وتكلم عن أحوال مجتمعاتها بإفاضة رالجدير بالذكر أن الحسن خص مصر ، ولاسيما القاهرة بفصل طويل فى كتابه ، وكانت البلاد حينذاك قد خضعت لحكم العثمانيين ، وقد ذكر الرحالة الحسن فى كتابه المؤرخ والشاعر أبا إسحاق إبراهيم المعروف بابن الرقيق القيروانى (توفى حوالى ١٠٢٦ م) صاحب كتاب « تاريخ إفريقيا والمغرب » الذى أفاد منه كثيرا المؤرخ ابن خلدون » .

محمد بن عمر التونسى (توفى ١٨٥٧) :

صاحب كتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم دارفور الذى قامت فيه سلطنة إسلامية كانت تكون حلقة فى سلسلة الممالك الإسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال ، وبين الغابات الاستوائية فى الجنوب ، وتمتد من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، وتشمل ممالك سنار وكردفان ودارفور ووادای وباجربی وبرنو أو غانم وممالك الهوسا ثم مالى . أما كتابه الثانى ، فهو « رحلة وادادى ، (جمهورية أفريقيا الاستوائية اليوم) وقام المستشرق بيرون بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها فى باريس عام ١٨٥١ ، ولم ينشر النص العربى لهذه الرحلة إلى اليوم ، ولعله فى حوزة أسرة بيرون الذى كان مديرا لمدرسة الطب بالقصر العينى عام ١٨٣٩ م.

وللتونسى مؤلفات أخرى ساعده على كتابتها عمله كمصحح أو ككبير لمراجعى الكتب المترجمة فى مدرسة الطب بالقاهرة ومنها :

الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، صنفه بتكليف من الطبيب كلوت بك ، وهو مازال مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٦٤١ ويوجد منه بدار الكتب المصرية أربع نسخ

مصورة من نسخة باريس ـ وقد طبع منه الجزء الأول فقط .[٧]

وجرى محمد بن عمر التونسى فى أواخر أيامه ، على إلقاء دروس فى الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٧٤هـ(١٨٥٧) بعد أن عمر سبعين سنة .

والجدير بالذكر أن عمر التونسى تلقى علومه الدينية فى الأزهر ، وتزوج من فتاة مصرية أنجب منها ابنه محمداً ، عام١٧٨٩ م ، بدأ رحلته إلى دارفور عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف السنة ، ألم خلالها بأحوال البلاد إلماما تاما ، ثم سافر إلى واداى فى غربها حيث قضى فيها ثمانية عشر شهرا ثم استأذن السلطان صابون فى السفر إلى تونس ، فأذن له وبلغها حوالى عام١٨١٣ ثم عاد إلى القاهرة ليلتحق بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التى حاربت فى المورة سنة١٨٢٧ م ولما عاد منها عام ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطب المترجمة إلى العربية ، مدرسة الطب التقى بالدكتور بيرون الفرنسى الذى أخذ يتعلم العربية على يد محمد بن عمر التونسى . ولما علم الطبيب برحلة التونسى فى بلاد السودان ودارفور وواداى شجعه على كتابة مذكراته عنها . ففعل .. ويعتبر كتاب « تشحيذ الأذهان » « أهم مراجع واداى ولاسيما بعد ما أصابها من الخراب فى أعقاب إقامة الإمبراطو رابح السودانى . وبداية الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد .

وقبل أن نختم هذا الثبت الضخم بمنجزات علماء العرب فى حقل الأفريقيات نذكر العمل العلمى الجدير بالثناء الذى نشره على نفقته الأمير يوسف كمال فى خمسة مجلدات ضخمة بين ١٩٢٦ ، ١٩٥١ وقد جمع ما كتبه المسلمون وغيرهم عن البلدان الأفريقية ولاسيما مصر فى اللغتين العربية والفرنسية ، وبالإضافة إلى ما ورد فى مؤلفاتهم من الخرائط النادرة .

نعوم شقير (توفى ١٩٢٢) :

مؤلف تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية مطبعة المعارف عام ١٩٠٣ ومازال ، هذا الكتاب الجليل يعتبر من أهم المراجع العربية ، ليس فقط عن سودان وادى النيل حتى عام ١٩٠٠ ، بل إنه يحتوى على كثير من المعلومات التاريخية التى تتعلق بدارفور (بالسودان) وسلطنتها منذ أول نشأتها إلى الفتح المصرى الأول (٨٤٨ ـ ١٨٧٥) ثم استعادة فتحها بعد ذلك ، ولذلك يعتبر تتمة لما كتبه التونسى من قبل .

عبد الرحمن زكى

الحـــواشي والتعليقات : -

(١) تذكر بعض المراجع أنهم نزلوا فى موقع مدينة حدابو التى أسسوها شمالى مدينة منبسة .

(٢) بدأ الإمام محمد بن إدريس الشافعى صاحب المذهب المعروف باسمه يدعو لمذهبه حول عام ٨١٣ ويذهب بعض المؤرخين أن ذلك التحول حدث فى أوائل القرن العاشر عن طريق جماعة من مسلمى الأحساء الشـافعيين .

(٣) كان إقليم سفالة يمتد على الساحل الإفريقى فيما يلى مصب نهر زبينرى جنوبا وقد اختلف فى تسمية هذا الاسم فكتبه ابن ماجد الملاح العربى أرض السقال ... دولة الزنج .

وفى المدة التى توسطت وصول مسجد بن على (٩٧٥ م) ومجىء البرتغاليين (١٤٩٧) وهى حوالى خمسمائة سنة نهضت دولة الزنج وقد قامت أثناء المدة المذكورة عدة دويلات من أصل عربى أو فارسى كما نشأت أيـضـا عدة سلطنات على الشاطئ الشرقى ، وكان لدولة كلوة السيادة على معظم الدويلات الساحلية الأخرى وفى خلال تلك المدة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والذهب بين الساطىء وآسيا ، ونمت ثروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقياً فى الحضارة .

(٤) ذكر كراتسكوفسكى المستشرق الروسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى (القسم الأول ص١٤١) أن مؤلفات ابن خرداذبة (وأشهرها كتاب المسالك والممالك لانعرفها إلا من اسمائها فقط ومن المقتطفـات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشا رات إليها .

(٥) Ferrand, Gabriel : relation de Vouyage, Tome 1.8.35

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ، مجلدان ، طبعة القاهرة عام ١٩٣٣ .

(٧) طبعة القاهرة عام١٣٢٨هـ/١٩١٠ .

العمران فى المشرق العربى فى القرن السادس الهجرى
قراءة فى رحلة ابن جبير

دكتورة / نوال محمد عبدالله



الرحلة والرحالــة :

أما الرحلة فهى إحدى رحلات الحج ، وتحصيل العلم ، التى قام بها الكثير من العلماء والكتاب من المغرب إلى المشرق العربى ، وقد رأى صاحبها ـ أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى والمعروف بأحمد بن جبير ـ تدوينها فى شكل مذكرات لتكون دليلاً لقومه فى رحلتهم ، متبعا فى ذلك طريق أبى بكربن محمد العربى الذى بدأ كتابة رحلته فى القرن الخامس الهجرى ، وقد دون أحمد بن جبير الجزء الأول منها والذى يختص ببلاد الأندلس باختصار شديد ، ثم بدأ يفصل الكلام من بعد ركوبه البحر من سبتة ، حتى عودته مرة ثانية إلى بلده .

وتعتبر هذه الرحلة ـ التى قد تأخذ اسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ـ من أفضل نماذج رحلات المغاربة ، لأصالتها ، وصدقها ، وبساطة أسلوبها ، ولما كانت على شكل مذكرات يومية فإن المعلومات التى تأتى بها تتبع خط الرحلة ، وأهم ما يميزها ـ على الرغم من انها من أدب الرحلات ـ قلة الانطباعات الذاتية فيها إذا قورنت برحلات أخرى ، ثم الملاحظة الدقيقة لكثير من المظاهر ، والمقارنة بين ما يراه ويجد له نظيرا فى موطنه ، وهو إلى جانب اهتمامه بالمشاهد والمزارات ومجالس العلماء ، ووصفه المفصل للحرم المكى والمسجد النبوى ، يبدى اهتماما مماثلا بالعمران فى مختلف أشكاله فى هذه المنطقة فيتحدث عن المدن ، والقرى ، ومراكز الاستيطان الصغيرة على طول طرق الرحلة ، وتحظى المدن من بين كل هذه المظاهر ، بقدر كبير من اهتمامه ، ولعل نشأته الحضرية من ناحية ، وتنوع وتعقد ظاهرات المدن من ناحية أخرى ، كانا سببا فى هذه الحظوة ، وجدير بالذكر أن الناس لاتلقى مثل هذا الاهتمام عند أحمد بن جبير ، وتظهر الانطباعات الذاتية فى الأجزاء المتناثرة التى يأتى ذكرهم فيها .

وإذا قيل إن القرن الرابع الهجرى يمثل قمة ازدهار الحضارة العربية ، فإن العمران كان لايزال يتطور حتى القرن السادس الهجرى ، مما دعا إلى ظهور مزيد من الكلمات القديمة بمدلولات جديدة لتلائم أشكالا من العمران لم تكن لها تسميات من قبل ، كما جدت أنواع من العمارة لتلبية حاجات الناس .

وتلقى رحلة ابن جبير ضوءاً على العمران فى المشرق العربى فى عدة اتجاهات .

١ ـ تعدد الكلمات المستخدمة للدلالة على العمران ومراكز الاستيطان فى القرن السادس الهجرى ، وتغير مدلولات بعض الكلمات التى كانت مستخدمة من قبل .

٢ ـ مكونات وحياة ووضع المدن المختلفة فى أقطار المشرق العربى .

٣ ـ الريف والقرى .　　　　٤ ـ طرق الحج والتجارة .

تعدد مدلولات العمران وإتساع مفهوم المدنية .

بمقارنة الكلمات الدالة على الاستيطان والتى استخدمها ابن جبير فى كتابه ، بتلك التى وردت فى القرن الرابع الهجرى عند الجغرافيين من أمثال المقدسى وابن حوقل نجد غنى فى هذه الكلمات ، فبينما كانت كلمتا « القرية » و« المدينة » هما المستخدمتين حتى القرن الرابع الهجرى للدلالة على مستويات الاستقرار ، نجد ابن جبير ـ فى القرن السادس الهجرى ـ يستخدم كلمات أخرى مثل البلدة والمحلة بالإضافة إلى الكلمتين السابقتين . فالبلدة أصبحت تعنى ـ إلى جانب معناها اللغوى المعروف ـ مرتبة من الاستيطان تقع بين القرية والمدينة ، وهى المرتبة التى احتار كل من المقدسى وابن حوقل فى تسميتها ، فيقول عنها المقدسى « غير أنه لما لم يكن لها قوة المدن فى الأريـن ولا ضعف القرى فى الخمول وتردد أمرها بين الرتبتين ، وجب أن نستظهر بذكرها ونبين مواضعها » وفى مثل ذلك يقول ابن حوقل « مدينة صغيرة كالقرية تعرف بمسجد إبراهيم » بينما نجد ابن جبير يسمى هذه المرتبة فيقول « بلدة بزاعة ، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى » ، وقد شاع هذا الاستخدام بعد ذلك ، فنجد كلاً من ياقوت الحموى والقزوينى يستخدمان كلمتى بلدة وبليدة ، لمراكز الاستيطان غير الزراعية مثل محطات خدمة القوافل .

كذلك ظهر عند ابن جبير استخدام كلمة المحلة بمعنى القسم من المدينة ، بدل كلمة خطة ، التى استخدمها العرب منذ القرن الأول الهجرى ، للدلالة على أقساء المدينة حسب نزول القبائل . وإذا رجعنا إلى كلمة المحلة وجدنا أنها تعنى لغويا « مائة بيت » مما يدل على أن أقسام المدينة لم يعد ينظر لها نظرة قبلية ، وإنما هى تقسم على أساس عددى ، أى على أساس مجموعات من البيوت لا على أساس القبائل ، مما ينبىء عن اختفاء النزعة القبلية فى المدن ، واندماج العرب مع السكان الأصليين .

أماّ عن اتساع مفهوم بعض كلمات العمران ، فيظهر فى مدلول كلمة « المدينة » فقد كادت أن تختفى كلمتا المصر والقصبة ، وتضاءل استخدامهما ، وحلت كلمة « المدينة » محلهما لتدل على جميع درجات المدن ، ويبدو أن ما ذكره المقدسى من استخدام العامة لكلمة المدينة لجميع درجات المدن دون تمييز ، قد أصبح لغة العصر فى القرن السادس الهجرى ، كذلك فإن كلمة المدينة لم تعد تعنى السكن الذى يحتوى على منبر ، وإنما كل سكن يقوم بنفس الدور الذى تقوم به المدينة وتتوفر فيها خدمات معينة ، فاستخدم ابن جبير الكلمة للدلالة على عكا ومسينا وبلارمة (باليرمو)

مكونـات المدينـــة :

أما مكونات المدينة ، فمن خلال عرض ابن جبير للمدن التى توقف أو مرَّ بها فى أقطار المشرق العربى المختلفة ـ مصر والحجاز والعراق والشام ـ نتبين أن هذه المدن كانت تشترك كلها فى وجود مجموعة من المؤسسات تمثل ركائـز تكوين مدن هذه المنطقـة ، وبعض هذه المؤسسات قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم ، وبعضها جديد نبع من بعض المبادىء الإسلامية ، أو بعض الأفكار التى دخلت الإسلام . وأول هذه المكونات السور ، وهو معلم قديم أصبح جزءا من المدينة الإسلامية لفائدته الدفاعية ، وفى القرن السادس الهجرى ، أصبحت الأسوار لها دورها الهام فى المدن التى تتعرض للهجمات ، أما فى بقية المدن فقد تهدم بعضها واختفى من البعض الآخر ، وحتى فى المدن التى ظل فيها قائما ، امتدت هذه المدن خارجا عنه فى أرباض تحتوى على المساجد والجوامع والخانات والأسواق والمدارس والأربطة وغيرها ، كما فى الموصل وبغداد ودمشق وقوص وغيرها ، أما الجامع فقد ظل من مكونات المدينة المسلمة ولكنه لم يعد جامعا وحيدا تميز به المدينة وإنما زاد عدد الجوامع مع اتساع المدن وزيادة عدد المسلمين ، فقامت الجوامع فى أجزاء المدينة المختلفة وحتى خارجا عنها ، بل إن الجامع لم يعد قاصراً على المدن ، فظهر فى القرى الهامة مثل طندته (طنطا) فى مصر وصرصر فى العراق والنيرب والمزة قرب دمشق . كذلك توزعت المساجد فى أرجـاء المدن ، وزادت أعدادها حتى إن ابن حبير قد أوصلها إلى أعداد كبـيرة كما فى الإسكندرية وبغـداد . وأصبحت المدارس من معالم مدن المشرق العربى فى ذلك القرن . وقد ارتبط بعضها بالجوامع والمساجد ، وقام البعض الآخر منفردا . وارتبطت السوق كذلك بالجامع الرئيسى وقد اتخذت السوق كما يتضح من وصف ابن جبير لها فى عديد من المدن أشكالا متعددة ، وقد تميزت

معظم هذه الأسواق بتسقيفها بالخشب ، كما أن القيساريات كانت أحد معالمها البارزة وخاصة فى الشام ، كما ظهر تقسيم هذه الأسواق بين الحرف المختلفة ، فاختصت كل صناعة بشارع من الشوارع ، أو بدهليز من دهاليز الجامع . كذلك اقترب من الجامع بعض الفنادق ، وإن ظهرت مجموعة أخرى منها قرب البوابات الهامة وخارجها مرتبطة بمحطات المسافرين . ومن أبرز مكونات مدن المشرق العربى فى ذلك الحين المارستانات ، التى انفردت بها مدن هذه المنطقة ، والحمامات ، والزوايا والرباطات والخوانق .

أما القلاع فرغم تواتر ذكرها ، إلا أنها كانت أكثر وجوداً فى الشام وشمال العراق ، أما فى مصر فلم يكن هناك إلا قلعة صلاح الدين فى القاهرة ، وقد بناها متأثرا بالقلاع فى موطنه الأول ، كذلك لايأتى ذكرها فى الجزيرة العربية ، وإنما هناك حصون متناثره منفردة فى مواقع مختلفة من طريق الحج الذى اجتازه .

أما الدور فيفهم من كلام ابن جبير أن البناء فيها كان يغلب عليه الآجر فى العراق ، والطين والقصب فى كل من مدن الشام ومصر .

حياة المدينــــة :

وعن حياة المدينة فى المشرق العربى فإن ابن جبير لا يهتم كثيراً بالسكان ولا يذكرهم إلا فى مواضع متفرقة ، وأكثر من يهتم بذكرهم من سكان المدن خاصة جماعات المغاربة ، ونخلص من حديثه أن مدن المشرق العربى كانت تعج بأعداد مختلفة من البشر ، وخاصة تلك المدن التى تشتهر بمجالس علمائها أو الواقعة على طرق التجارة ، ومن ثم فقد انتشرت الفنادق والخانات من جهة وأماكن الإيواء المجانية فى المدارس والمساجد والزوايا والرباطات وغيرها من جهة أخرى ، بل كان يخصص لهم فى بعض المدن مارستان ، وبعض الحمامات كما كان الحال فى الإسكندرية ، وكانت مدن المشرق تقدم الخدمات التعليمية والصحية من خلال مؤسساتها التى سبق الإشارة إليها كالمساجد والمدارس والمارستانات والحمامات وقد تعرض ابن جبير لطريقة الحصول على الماء فى هذه المدن ويتضح من كتابته أنه كان يختلف من مدينة لأخرى فبعضها كان يحصل على حاجته من آبار والبعض الآخر كان ينقر الصخر فتمتلىء تلك النقر بماء المطر ، على حين أن غالبية المدن كانت تحصل على الماء من الأنهار والعيون ، وقد لاحظ أن مجارى الماء فى الإسكندرية كانت مغطاة ، على حين أنها كانت

مكشوفة فى المدن الأخرى ، وقد وضح أن هناك قلة من المدن تحدث قانون ارتباط المدينة بمورد الماء فكانت تجلب الماء من مناطق تبعد عنها كما هو الحال فى مدينتى حمص وعيذاب .

أما أحوال مدن المشرق العربى فقد تفاوتت تبعا للأقطار التى تقوم بها ، والظروف التى مرت عليها ، ففى مصر مثلا زادت أعداد المدن عما كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى ، وإن لم تظهر مدن هامة فى قلب الدلتا ، وقد انتعشت مدن الصعيد القديمة مثل أسيوط وقنا وقفط وقوص ، كما نشطت ميناء الإسكندرية لتصبح أولى موانىء مصر ، وبدأت القاهرة منافسة الفسطاط .

وفى الحجاز كانت جدة تعانى تدهوراً وخمولا ، بينما يمسك على مكة والمدينة حالها اهتمام الخلفاء والأمراء بهما لوضعهما الدينى .

وبينما كانت مدن العراق تعانى من التدهور والإهمال ، فإن مدن الشام كانت لا تعانى مثل هذا التدهور رغم قربها من الصليبيين ، فكانت دمشق مركزا تجاريا وزراعيا مزدهرا ، كما كانت مدن الشمال تقف أمام هجمات الصليبيين صامدة ، أما عكا وصور فقد كانتا مينائين نشيطين لأنهما منفذ تجارة كل من المسلمين والصليبيين .

الريف والقرى فى المشرق العربى :

ظلت القرى كما كانت من قبل تلحق إداريا بالمدن ، فيقال قرى بغداد ، وقرى الموصل ، وقرى حلب ، وكان العمران الريفى مزدهرا فى كل من مصر والعراق والشام ، حيث تنتشر الزراعة وتتوالى القرى وراء بعضها . وحديث ابن جبير عن الريف والقرى ليس فى غنى حديثه عن المدن ، وما يذكره عنه ليس بالكثير ، ففى مصر يذكر مقياس الروضة وأوان استحقاق الخليفة للخراج وفى الحجاز يتحدث عن اشتغال المغاربة بالزراعة فى منطقة الطائف ، ولعل أهم ما يذكره عن الزراعة هو النظام القائم فى المناطق المشتركة بين حدود المسلمين والصليبيين ،حيث يشترك كلا الطرفين فى الزراعة ويقتسمان المحصول بينهما، كما يقومان بالرعى فى منطقة واحدة بالاتفاق بين الطرفين ، كذلك نتبين من حديثه اتساع بساتين النخيل والفواكه حول المدن بدرجة أكبر بكثير مما هى عليه فى الوقت الحاضر .

أما القرى فكانت لها هى الأخرى أسوارها ، وكانت القرى الكبيرة لاتخلو من مسجد ، ومدرسة ، وحمام ، أو حمامين ، كما كانت قرى الشام تحتوى على خان للمسافرين ، كذلك

كانت للقرى الكبيرة أيام معلومة للأسواق تخدم بها المنطقة المحيطة ، كما امتلكت بعض القرى الكبيرة حصونا تحميها ، أما فى منطقة الصليبيين فقد كان الحصن يستخدم للسيطرة على القرى ، فكان كل حصن يهيمن على مجموعة من القرى ، كما كان الحال فى أوروبا آنذاك .

طريق الحج والتجارة :

إن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكرات ابن جبير هو اطلاع مواطنيه على طرق الحج إلى مكة المكرمة ، ووصف أحوال هذه الطرق ، وما يقابله المسافر فيها ، ولذا حرص ابن حبير على تدوين طريق حجه وعودته ، بل إنه أزجى النصح لمواطنيه ، بأى الطرق يتبعون فى حجهم ، بعد أن مر بتجارب أغضبته فى بعضها ، ومن وصفه لطريق حجه تتضح الحقائق الآتية :ـ

١ ـ سيطرة العنف مرة أخرى على بعض أجزاء من الطريق المألوف الذى يربط القاهرة بشمال الحجاز عن طريق شبهجزيرة سيناء ، مما أدى إلى تحول قوافل الحج والتجارة إلى الصعيد حتى قوص ثم إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر .

٢ ـ فقدان المسلمين لسيطرتهم على البحر المتوسط ، بينما عادت أوروبا إلى مد سلطانها عليه ، وازدهار موانى صقليةوموانىء الصليبيين فى عكا وصور ، وقد ظهر ضيق المسلمين من ذلك ، من اختفاء تسميته ببحر الروم ، ويكتفى ابن جبير بأن يذكره بالبحر بدون تعيين .

٣ ـ محاولة الصليبيين مد نفوذهم فى البحر الأحمر ، وقيامهم بأعمال القرصنة فيه ، وتصدى صلاح الدين لذلك ، مما وأد هذه المحاولة .

٤ ـ فقدت القلزم أهميتها كميناء فى هذا القرن ، وتحولت التجارة والمسافرون إلى عيذاب ، مما أدى إلى تضاؤل تسمية « بحر القلزم » واستخدام ابن جبير عدة أسماء أخرى ، مثل بحر فرعون ، وبحر عيذاب ، وبحر جدة .

٥ ـ لم تستطع عيذاب أن تنمو وتكبر بعد أن حلت محل القلزم ، وذلك لفقدها الظهير الحى الذى يساندها ، وتطرف موقعها بعيدا عن العمران .

٦ ـ كانت الطريق بين قوص وعيذاب قاصرة على الآبار فى كل مرحلة ، فلم يعمرها أحد

على حين كان درب الحاج من المدينة المنورة إلى العراق عامرا فى مناطق السقيا ، وذلك لكثرة البدو والرعاة فى هذه المنطقة

٧ ـ كانت طرق القوافل فى كل من الحجاز والعراق غير آمنة لوجود قبائل تقطع الطرق من ناحية وهجمات الأكراد من ناحية أخرى ، فضلا عن قطاع الطرق من اللصوص .

٨ ـ استمرت طرق القوافل بين العراق والشام ، حتى ساحل الليفانت متواصلة لحاجة كل من المسلمين والصليبيين لها ، وكان التجار المسلمون يستخدمونها حتى فى أوقات الحروب .

خاتمة

إن العمران أحد الموضوعات الجغرافية ، التى لا نستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة ، إلا من خلال دراسة عملية التطور التى مر بها ، وقد أعانت مذكرات أحمد بن جبير هذه الدراسة فى اتجاهين ، الأول هو الكشف عن استمرار تطور ونمو مدلولات السكن ، بما ينبىء « بتطويع اللغة العربية لتلائم الواقع الذى يستجد ، أما الاتجاه الثانى ، فهو تقديم تلك المادة الأولية الوافرة للجغرافية الاجتماعية لمنطقة المشرق العربى ، بعد تأصل الحضارة العربية فيه ، مما يساعد على تفسير بعض ملامح الشخصية الجغرافية الخاصة للمنطقة التى وإن تمايزت أقاليمها بعضها عن البعض فى القدم ، إلا أننا لانستطيع أن ننكر أن دخول العرب إليها ، وانتشار الإسلام ، واللغة العربية فيها ، قد أديا إلى وجود مظاهر تجمع بينها ، وتفرقها عن مناطق العالم الأخرى .

ooo



الأرض والانسان عند الجغرافيين المسلمين

دكتور / عبدالعزيز كامل



مقـــــدمة

(١)

فى ربيع ١٩٧٧ م (١٣٩٧ هـ) شهدت قرطبة مؤتمرا للحوار الإسلامى المسيحى ، كان المشاركون فيه من جنسيات متعددة ، ومعظمهم من أساتذة الجامعات فى العالمين الإسلامى والمسيحى .

وفى محاضرة لأحد زملائنا المسلمين ، وكان يومها مجهدا أخطأ فى شكل حرف من آية يقرؤها .. فإذا بالمسلمين الحاضرين وفى صوت واحد يفتحون عليه بالنطق الصحيح ، تم هذا بعفوية ودون إتفاق ولحظت هزة سريعة كأنها مس كهربائى هزت زملاءنا المسيحيين . ومرت دقائق وطوى الصديق صفحات ، وغلبه الجهد ، فأخطأ مرة ثانية . وفى صوت واحد نطق المسلمون الصواب ، فصحح المتحدث النطق ، وتكررت الهزة من الزملاء المسيحيين . وجمعنا حفل عشاء ، وكان جلوسى إلى جوار صديقين من كبار رجال الدين المسيحى فى أسبانيا . وسألانى :

ما الذى حدث ؟ المحاضر نطق كلمة . فإذا بالحاضرين يقولون : كلمة واحدة فى صوت واحد ، فيقولها دون أن يراجعهم . حدث هذا مرتين ؟ هذا ليس معروفاً عندنا .. نرجو أن تفسره لنا .

قلت : إنه أخطأ فى حرف من كلمة القرآن الكريم ؟

قالوا : ألا تصبرون عليه حتى ينتهى من حديثه ؟

قلت : لو كان فى الصلاة ، وفى المسجد ، ويؤم الناس ، لوجب علينا تصحيحه فورا ، لئلا ينتقل الخطأ منه إلى أحد السامعين .

قالوا : تصححون المتحدث فورا مهما كانت مكانته الدينية ؟ ألا ترون فى هذا إحراجا لشخصية مرموقة أمام الناس ؟

قلت : إن النص القرآنى أكبر منه ومنا . لو توقف الإمام فى القراءة لكان على من وراءه من المصلين أن يعينوه ويفتحوا عليه ليتابع القراءة ، ولو أخطأ لوجب عليهم أن يقولوا الصواب فورا ..

قالوا : ولكن السامعين لا يحملون نسخا من القرآن ، فكيف يثقون فى قدرتهم على الصواب وفى أن المتحدث أخطأ ؟ مع أننا فى الكنيسة ، نقدم النص إلى رجل الدين ليقرأ منه ، وهو يؤدى الصلاة دون اعتماد على ذاكرته ، ولا يراجعه أحد . وأنتم بدون نص فى أيديكم ، والمتحدث فى يده النص ، وترددونه جميعا فى صوت واحد ؟ !

قلت : هذه هى طبيعة الصلة بيننا وبين القرآن .

وعدت إلى نفسى استرجع هذا الحوار الذى أبان أمام العقلية الغربية . عمق صلتنا بالقرآن عمقا نمارسه ممارسة طبيعية ، يرونها غريبة وغير منطقية .

بل أكاد أقول : غير لائقة - من وجهة نظرهم - ممارسة تبدو بها مكانة النص القرآنى فى مؤتمر علمى عالمى .. وتلقى - بالتالى - ضوءاً على مدى ارتباط الانتاج العلمى بكتابنا الأكبر القرآن الكريم .

ولازلت أذكر مدى تأثر الزملاء المسيحيين بثقة زملائهم المسلمين فى حفظ النص مهما يكن موقعه فى أى سورة من سور القرآن ، واستعداد المسلم الفورى لتصويب أى خطأ فيه فى رجع القول .

(٢)

السطور الأولى

من أجل ذلك اذا رجعت إلى كتاب من إنتاجنا الإسلامى الأصيل ، وجدته يبدأ - كما يبدأ القرآن - بسم الله الرحمن الرحيم وبحمد الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ..

هذا المدخل ليس سطورا تقليدية فى مطلع الكتاب ، وإنما يكاد يكون عهدا وموثقا من الكاتب أن يتحرى المنهج الذى يرضى عنه الله وجاء به المصطفى (ص) . ويحدد مستوى الصدق والموضوعية التى ينبغى أن يتوخاها الكاتب ..

وعند هذا المدخل : وهذه السطور الأولى أود أن أقف قليلا ..

ذلك بأن ترجع إلى قسم الثقافة الإسلامية فى أى مكتبة ، واختر من فروعها ما تشاء .. يستوى فى هذا ما اصطلحنا على تسميته بالعلوم النقلية أو العقلية : ستراها جميعا وقد استوت فى هذا المدخل الربانى : ذكر اسم الله وحمده ، والصلاة والسلام على خاتم رسله .

(٣)

حضـــارة ربانيـــة

ذلك لأن نظرة المسلم إلى المعرفة فى شمولها ، نظرة فيها احترام عميق : فالعلم صفة من صفات الله . وهو أول ما أمر الله به رسوله . فيما أوحى إليه ، « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (العلق : ١) . وفى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » تأكيد على هذه الصلة بين العلم ومصدره الأعلى ، وأن أوامر الله من تحرى الحق والعدل فيما نقول ونكتب قائمة بالنسبة لكل عالم أو طالب علم ..

ويزيد الإسلام من كرامة العلم فيكون القلم أول أداة يذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم) .. (العلق : ٣ - ٤) وأول ما يقسم به ربنا فى ثانى سور القرآن نزولا « ن والقلم وما يسطرون » (القلم : ١ - ٢) .

وتأمل قوله تعالى « وما يسطرون » ما تسطر أنت وما أسطر أنا .. وما يسطر كل حامل لأمانة القلم .

هذا هو المستوى الأعلى لمكانة العلم فى الإسلام .. ومن هذا المعين الأول استقى علماؤنا ومنهم الجغرافيون ، مصدقين أن الوحى هو المصدر الأعلى للمعرفة بكل ما أمر به من الفقه والموضوعية .

(٤)

فى المنهج العلمى

ومن هذا التعميم ننتقل إلى شىء من التخصيص .. وسأركز الدراسة على كتاب أساسى مستعينا بكتب أخرى . هذا الكتاب هو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة) لأبى الريحان البيرونى . والمعروف بكتاب « الهند » مع الاستعانة بكتب أخرى من التراث الجغرافى الإسلامى .

والتساؤل الأول : لماذا هذا الكتاب بالذات ؟

وأقول : إن أساس اختيار هذا الكتاب يرجع إلى ظروف تأليفه . كان البيرونى مع الجيش الاسلامى المغولى المنتصر الذى ثبت أقدام الإسلام . فى شبه القارة الهندية . وكانت

الحضارة الهندية فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى تراجع أمام المد الإسلامى الزاحف .

موقف قد يدعو الكاتب إلى الاستعلاء بما عنده وامتهان ما عند غيره ، ومحاولة تصويره من زوايا التحامل عليه ، تبريرا لحربه وانتقاص أطرافه والسيطرة عليه إن استطاع . ولموقف الاستعلاء هذا شواهد كثيرة فى كتب الغرب عن أفريقيا وآسيا ، والحضارات الأمريكية السابقة للكشوف الجغرافية منذ أواخر القرن الخامس عشر . وما كتب رجال الغرب عن تأخر هذه الشعوب وهمجيتها وأساليبها فى الحياة . وما ذكروه عن « مسئولية الرجل الأبيض » فى نقل الحضارة الحديثة إلى هذه الأقطار واعتبار ذلك مهمة إنسانية نبيلة .

وكيف تعاونت الدولة مع الكنيسة مع التجار فى هذا السبيل ، وما ارتبط بهذا من استنزاف رهيب للأرض وخيراتها وللإنسان ، فى حركة هجرة عبر المحيط الأطلسى لعلها أوسع حركات الهجرة المنظمة اللا إنسانية ، فى تاريخ الإنسانية ، ومازالت آثار التفرقة العنصرية ماثلة فى الحياة الغربية ، رغم مواثيق حقوق الإنسان والإعلانات العالمية عن مقاومة التمييز العنصرى ، والمساواة بين الناس فى أصل الخلقة وفرص الحياة ، نعم لقد قام الملونون بجهود جبارة من أجل حقهم فى الحياة ، ولازالت الصراعات دائرة بينهم وبين البيض الذين بيدهم مقاليد الأمور . ولكن وجود هذه الجهود هو وحده إدانة للحضارة الغربية ، وتصحيح لبعض كبائرها .

فإذا ما جاء البيرونى فى كتاب الهند ليكتب فى موضوعية بريئة من استعلاء المنتصر ومن الاستهانة بالمهزوم ، فقد توخى نظرة موضوعية فى دراسته ، هى المدخل الأول لأى منهجية علمية منصفة .

(٥)

بين الخبر والعيـــــان

ويفتتح البيرونى كتابه بهذه العبارة المنهجية « إنما صدق قول القائل » « ليس الخبر كالعيان » لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده ، وفى مكان حصوله . ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على

الوجود الذى لا يتعدى آفات الزمان ، وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضى الأزمنة وما بعدها من مقتبلها ، حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا . (ص ١) .

فالمعاينة عند البيرونى لا تعدو أن تكون « لقطة » لقطاع زمانى ومكانى محدودين . فيهما الدقة ولكن ينقصهما الشمول والامتداد الزمانى والمكانى . هذا الامتداد الذى نستطيع استكماله بالخبر لولا آفات تعروه .

وفى مجتمعاتنا المعاصرة درجت الدول على أن تحجز بعض وثائقها عن التداول سنين ثم تفتحها للنشر العلمى بعدها .. فالعيان الآنى وحده عمليا وعلميا لا يغنى ، لأنه عيان قاصر ، لا يختلف عن ضوء مصباح لا يكشف أبعد من البشرة وأنت فى بعض العلاج تحتاج إلى أشعة عميقة تكشف ما وراء ذلك . وهذه الوثائق المغلقة أشعة عميقة لابد منها لاستكمال الصورة .

فالعيان درجات . والخبر درجات . وأعلى درجات الموضوعية ما توفر له أكبر قدر من درجات العيان والخبر . عن طريق الاتصال المباشر والتفاعل القوى مع مقومات الموضوع محل الدراسة .

(٦)
مثـــال عملـــى

وأود أن أوضح هذا بمثال عملى :

ففى عام ١٩٥٣ قضيت شهورا فى السودان الشرقى أجمع المادة العلمية عن دلتا خور القاش . وهو خور فصلى الجريان ينبع من جبال إرتريا وينتهى بدلتا داخلية فى أرض السودان إلى الشمال من مدينة كسلا . وأرض دلتا القاش هى أخصب أراضى السودان . بل إن د . توتهل خبير التربة والمشرف على كتاب الزراعة فى السودان (ط . أكسفورد : ١٩٤٨) يضعها فى الذروة من الخصوبة على المستوى العالمى . وظلت الإدارة البريطانية فى السودان سنين تعتمد على دلتا القاش فى الحصول على بذور القطن الطويل التيلة التى سبق أن جلبتها من مصر . وكان المسئولون عن الزراعة فى أرض الجزيرة بالسودان يختارون كل عام حقولا من القاش يخصصونها للإكثار . ويزرعون منها أرض الجزيرة . ولايزال قطن الجزيرة العمود

الفقرى للاقتصاد السودانى . وقد استطاعت الإدارة السودانية بعد هذا أن تقوم بالإكثار محليا فى أرض الجزيرة دون اعتماد على القاش .

القصة التى بين أيدينا ترجع إلى فترة الاعتماد على القاش . والقطن هناك يروى مرة واحدة مع فيض الخور فى فصل الخريف على نظام الحياض الذى كان معروفا فى صعيد مصر وأجزاء من شمال السودان على ضفاف النيل . ومن المفروض أن يظل الماء فى الحوض مدة لا تقل عن خمسة وأربعين يوما تمتص فيها الأرض حاجتها من الماء ولا تحتاج بعد هذا إلى أى رى آخر ..

ولكن يحدث أحيانا أن تسقط أمطار محلية شديدة ورياح تدفع الماء إلى جسور الحياض فتكسرها ، ويتدفق الماء إلى أرض لم تكن معدة لزراعة القطن ، وتصبح الأرض التى سبق إعدادها غير صالحة لزراعته .

- فما الذى يحدث فى هذه الظروف ؟

كان الإشراف الزراعى فى السودان وقتئذ فى يد الإدارة البريطانية ومنهم مدير المشروع ومفتشو المحطات وكبير المهندسين . ويصل خبر الكسر إلى المفتش المسئول فيطلب من الأهالى أن يعينوه على إصلاح الجسر وحفظ الماء ، فيقولون :

- لو أراد الله أن نزرع هذا المكان قطناً لما كسر الجسر . هذه إرادة الله ولا نريد أن نتدخل فيها .

ويحاول المفتش الإنجليزى أن يستنجد بعمال من محطة أخرى ، فلا يستطيع إما لانقطاع الطرق نتيجة للمطر الشديد ، أو لرفض العمال الآخرين التدخل فى إرادة الله ..

ولايجد المفتش الإنجليزى فى هذه الحالة إلا أن يرجع عن زراعة القطن فى هذا الحوض ، وأن يتركه بمائه القليل لزراعة الذرة ، وهو يحتاج إلى ماء أقل مما يحتاج إليه القطن .

وأرجع إلى التقارير السنوية لمدير المشروع وكبير المهندسين فاجد لوما شديدا لسكان القاش الذين لا يتعاونون مع الإدارة ، ونقدا لعقليتهم القدرية المتخلفة ، وللفكر السلبى الذى يعيشون به . وإذا كان المدير لم يقلها صراحة ، فإنه يكاد يذم الإسلام الذى يعتنقون ، وإليه يستندون فى هذا التصرف .

وأحاور المدير فى هذا فيقول لى : هذه عقليتهم . وأحاور إخوانى السودانيين فيقولون لى : هذه إرادة الله ..

ومرت شهور وتوثقت بينى وبين الإخوة السودانيين صلات المودة . وقرب موعد عودتى إلى مصر . وفى أمسية هادئة جلست مع مسئول سودانى كبير فى المشروع . فقال لى :

- اعلم أن أمرا لازال عندك غير واضح . وستعتمد فى كتابة أبحاثك على التقارير وما رأته عينك . وستقول عنا أننا قدريون سلبيون كما يقول الإنجليز .. ولكن وقت خروجهم قد اقترب . وسأقول لك حقيقة الأمر ، ولاداعى لأن تكتبه الآن فى رسالتك .. حتى يخرجوا .. أعطنى كلمتك وسأقول لك الحقيقة فوعدته . فقال :

- نحن الذين نكسر السدود فى الليالى الشديدة المطر .

قلت : من « نحن » هذه ؟

قال : الزراع السودانيون بموافقتنا ، دون علم الإدارة الإنجليزية . هذه الأرض كانت تزرع الذرة وهى قوام حياتنا . وجاء الإنجليز فأرادوها قطنا وأصبحنا - أحيانا - نشترى الذرة ونحن نعيش فى أخصب أراضى السودان نزرع القطن ليسعد به الغزال والنساج البريطانى ، ولا مانع عندهم من أن يجوع أولادنا . فإذا جاءت ليلة ممطرة كسرنا جسر حوض من الحياض ، وإذا طلب المفتش إصلاحه قلنا : هذه إرادة الله . فيضطر إلى تحويله إلى زراعة الذرة فنكفل بهذا الحصول على غذائنا السنوى . نفعل هذا بتعاون وهدوء ودون إفراط ولا تفريط هذه هى القصة .

فالإنجليز فى السودان عاشوا نحو نصف قرن منذ المعاهدة الثنائية ١٨٩٩ هـ إلى إعلان الاستقلال فى ١٩٥٦ ، وما سبقه من فترة انتقال قدرها ثلاث سنوات . واستطاعوا أن ينفذوا إلى جانب من الحقائق ، ولكن جانبا آخر كان خافيا عنهم . أخفاه أهل الأرض عنهم عمدا . والاعتماد على الوثائق الرسمية هنا وحده لا يكفى . ولا على مجرد الاتصال بالسكان . وإنما يحتاج هذا الاتصال إلى عمق يستطيع به الباحث أن يضع أذنه على قلب البيئة ويسمع نبضها وأن يفتح له أهل الأرض قلوبهم .

وصفوة القول أن الخبر والعيان العاجلين لا يكفيان للبحث العلمى ، وإنما يحتاج كل منهما إلى عمق وامتداد وربط . ويأتى بعد هذا التفسير والتعليل .

(٧)

عمق التفاعل مع البيئة

من أجل ذلك حرص الجغرافيون المسلمون على عمق التفاعل مع الأرض والناس وتحقيق الأخبار ، وتحمل بعضهم فى هذا رهقا وعنتا . ولكنهم كانوا يستمدون العون على هذا من الله فى حب صادق للمعرفة ومنهجية فى الوصول إليها .

ويربط الجغرافى المسلم بين عقيدته ومنهجه العلمى ليستطيع النفوذ إلى الصحيح من المعلومات .

ولنرجع هنا إلى ما ذكره المقدسى تحت عنوان مقدمات وفصول لابد منها :

« اعلم أنى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة .. وتحريت جهدى الصواب . واستعنت بفهم أولى الألباب ، وسألت الله - عز اسمه - أن يجنبنى الخطأ والزلل .. فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعليه رفعت البنيان » . (ص ٣) فالمقدسى يؤكد هنا أولا « المشاهدة » ثم ينتقل إلى « الخبر » فيقول: ومن قواعده أيضا وأركانه وما استعنت به على بنيانه ، سؤال ذوى العقول من الناس ، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال فى الأطراف التى بعدت عنها ، ولم يتقدر لى الوصول إليها . فما وقع عليه اتفاقهم أثبته ، وما اختلفوا فيه نبذته ، ومالم يكن لى بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته ، ومالم يقر فى قلبى ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو قلت زعموا .. (ص ٣)

وهو فى أسئلته هذه يتحرى أهل الذكر فهو يتحدث عن عمق صلته بالأرض والناس قائلا : « ... وماتم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ، ودخولى أقاليم الإسلام ، ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ، ومجالستى القضاة ، ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء ، وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حررتها .. » (ص ٢) .

فهذا الارتباط القوى بين الباحث والإنسان والبيئة له عدته العلمية من خبرات علمية عليه أن يتزود بها - طبيعية وبشرية - وممارسات عليه أن يقوم بها فى أثناء جمع المادة العلمية

لكتابه . ويأخذ المقدسي على من سبقوه نقص هذه الخبرات أو الممارسات أو التقصير في الاعتماد عليها فيذكر عن الجيهاني أنه « جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك إليها » .. وطال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الجياد » (ص ٣ ـ ٤) . وأخذ على أبي زيد البلخي أنه مادوّخ البلدان ولا وطىء الأعمال .. » (ص ٤) .

(٨)

مشكلات البحث في الأقطار غير الإسلامية

وإذا كان المقدسي قد ركز جهوده على مملكة الإسلام ، وذكر عدة الباحث فيها ، فإن البيروني ركز على البحث العلمي ومشكلاته في غير ديار الإسلام . والبحث فيها أشق . ومدخل البيروني في كتاب الهند يعتبر نموذجا دقيقا لما ينبغي أن يتحلى به الدارس في غير بيئته (ص ٢٠ - ٢٥) .

وبدأ البيروني بالمخبرين وما يلحق بهم من مشكلات :

١ ـ محاولة المخبر تعظيم شأن قومه والانتقاص من غيرهم .

٢ - محاولته مدح طبقة لارتباطه به ارتباط مصلحة أو ذمها لعداوة ، وهو مقارب للأول .

٣ ـ محاولته الحصول على خير أو اتقاء شر منتظر .

٤ - وهناك مخبرون من طبيعتهم الكذب والخبث .

٥ ـ ومنهم من يتحدث عن جهل محاولا أن يبدو كالعالم وهو غير ذلك .

والبيروني يصف هذه الآفات وصفا أخلاقيا ، دون الاقتصار على تصنيفها « الموضوعي » فهي عنده « شهوة وغضب .. أو دناءة طبع أو خبث مخابىء الطبيعة » . وهنا نجد الربط الوثيق من أول الكتاب بين مستوى الدقة العلمية والمستوى الأخلاقي . فالدقة العلمية أخلاق . ومن أجل هذا يستشهد على ما يقول بالرجوع إلى القرآن والإنجيل . ويربط بين الشجاعة في ميدان القتال والشجاعة في قول الحق ، بل وإنه ليتنقل بالقول حتى تظنه يعظنا بقوله عن الشجاعة أما جنسها العالي على أنواعها فهو الاستهانة بالموت ، ثم سواء كانت في قول أو كانت في فعل ، وكما أن العدل مرضي محبوب لذاته مرغوب في حسنه ، كذلك الصدق إلا عند من لم يذق حلاوته أو عرفه وتحاماه ... » (ص ٣) .

بل إن القول ليسير به بعيدا لتأكيد وجهة نظره فى الصدق والدقة العلمية فيعرض لبعض الأقوال عن المعتزلة ، ولكنه يمهد بهذا للحديث عن مشكلات دراسة أديان الهند ، وصعوبة تحرى الدقة فى أمرها وذلك « لبعدها وخفاء السبيل إلى تعرفها ، والموجود عندنا فى كتب المقالات وما عمل فى الآراء والديانات لا يشتمل إلا على مثله » (ص ٤) .

ويحدد البيرونى هنا ما يعرض للكاتب نفسه ، وأن عليه أمرين أساسيين :

١ - تحرى الدقة العلمية وبخاصة إذا كان الموضوع بعيدا عن المألوف عند قومه وإلا « ضاف سهمه عن الهدف » .

٢ - العرض الموضوعى لما حققه ، وننقل هنا نص عبارته « وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منها عن الحق وإنما هو كتاب حكاية » (ص ٥) .

فإذا ما حقق هذين الأمرين من الدقة والعرض الموضوعى - أو قل من دقة الحكاية إذا أردنا أن نجمع الأمرين فى أمر - انتقل مرحلة ثالثة إلى العرض الموضوعى المقارن فيقول « وأورد كلام الهند على وجهه ، وأضيف إليه ما لليونانيين مثله لتعريف المقاربة بينهم ... ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم فى الحلول والاتحاد » (ص ٥ ـ ٦) .

فالبيرونى فى منهجه يتحرى دقة الحكاية والعرض المقارن الموضوعى ، محاولا ما وسعه الجهد - أن يضع النصوص أمامك ، دون أن يفرض رأيه عليك أو يقحم نفسه بينك وبين النص .

وينتقل بعد هذا التعميم إلى التخصيص عندما يبدأ فى دراسة الهند تحت عنوان « ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم » (ص ١٣ - ١٩) . ودراسته هنا يمكن منهجيا تطبيقها على أقطار أخرى .

١ - ويبدأ أولا بعائق اللغة « وإن تباينت الأمم بمثلها ومتى رامها أحد لإزالة المباينة لم يسهل ذلك لأنها فى ذاتها طويلة عريضة تشابه العربية » (ص ١٣) .. ثم درس جانبا من هذه المشكلات كرفع الاسم الواحد على عدة مسميات تحتاج فى تحديدها إلى مزيد من الصفات لا يفرق بينها إلا ذو فطنة . ثم يعرض للغة المبتذلة والفصحى وما فيها من دقائق النحو والبلاغة .. ومشكلات النطق وعدم تطابق بعض حروفها مع العربية « لا تكاد ألسنتنا

ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها ، ولا آذاننا تسمع بتمييزها من نظائرها وأشباهها ولا أيدينا فى الكتابة لحكايتها ، فيتعذر بذلك إثبات شئ من لغتهم بخطنا لما نضطر إليه من الاحتيال بضبطها » (ص ١٣) .

وبعد أن يعرض البيرونى لمشكلات النساخ يذكر تطبيقا عمليا لبعض هذه المشكلات فيقول « ويكفيك معرفة أنه ربما تلقفنا من أفواههم اسما ، واجتهدنا فى التوثقة منه فإذا أعدناه عليهم لم يكادوا يعرفونه إلا بجهد » (ص ١٤) .

٢ - ويعود إلى الدين وأنهم « يباينوننا بالديانة مباينة كلية لا يقع منا شئ من الإقرار بما عندهم ، ولا منهم بشئ مما عندنا » (ص ٢٤) . وعرض للمنبوذين وهو « القذر لا يستجيزون مخالطته فى مناكحته أو مقاربة ومجالسة ومؤاكلة ومشاربة من جهة النجاسة .. ثم لا مطمع فى صلاح ذلك بحيلة كما يطهر النجس بالانحياز إلى حال الطهار ، فليس يطلق لهم قبول من ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبا إلى دينهم ، وهذا مما يفسخ كل وصلة ، ويوجب أشد قطيعة » (ص ١٥) . وواضح هنا أن البيرونى يقارن أمرهم بالإسلام .. وأن الإسلام يجب ما كان قبله كما جاء فى الحديث الشريف (رواه الإمام أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص) . ولكن البيرونى ـ كما اشترط - يضع الحقائق ـ أمام القارئ - متجاورة ، يبين نتائجها المنطقية فى القطيعة .

٣ ـ ومن اللغة والدين انتقل إلى المباينة فى الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا وهيآتنا ، وينسبوننا إلى الشيطنة (ص ١٥) . ويرجع هذا إلى آثار الحروب وما تولده من الحزازات والتباعد وإفراط أهل الأرض فى الاعتزاز بما عندهم من علم .

ويعقب البيرونى بقوله « ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم » (ص ١٧) . وفى هذه العبارة الموجزة يفرق بين المجتمعات المنطوية والمتفتحة . وهى فى هذا درجات وصور يغلب فيها طابع ، ثم يضعف ليخلى مكانه لصورة جديدة .

وبعد الدراسة المقارنة وما للبيرونى فيها من تجارب ذاتية مع علماء الهنود يعود إلى منهجه ليؤكد موضوعية الدراسة قائلا « وأنا فى أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة » (ص ١٩) ومفتاح هذه الجملة كلمة « حاك » ..

ويستوقف النظر أن الفصل الثاني بعد هذه المقدمة كان عن « ذكر اعتقادهم فى الله سبحانه » . وبهذا يعنى البيرونى بالعقيدة عند الهنود أول ما يعنى ..

وهو بهذا لم يبدأ (بالأرض) لينتقل منها إلى (الناس) كما هو شائع فى الدراسات الجغرافية. ويتتبع العقيدة وفروعها فى سبعة أبواب، ليخصص الباب الثامن لأجناس الخلائق وأسمائهم (ص ٦٧) ثم التكوين الاجتماعى .. ويسير فى هذا شوطا ليصل فى الباب الثامن عشر إلى معارف شتى من بلادهم وأنهارهم وبحرهم وبعض المسافات بين ممالكهم وحدودهم (ص ٥٥) . فالخط الأساسى فى الكتابة بعد المقدمة : العقيدة ثم الإنسان ثم الأرض ثم عبادات تتصل بجوانب من ظاهرات الطبيعة ، أو تحتاج إلى تمهيد بها كالحج والصوم والأعياد وأحكام النجوم .

(٩)

المنهج العلمى فى الدراسة الطبيعية

ومع العرض المعتمد على « الحكاية والمقارنة » مع عدم اللجوء إلى النقد إلا عن « ضرورة ظاهرة » يتبع البيرونى منهجا علميا يربط فيه الظاهرة بأسبابها ونتائجها فى دراساته للأرض والإنسان ولنبدأ بنماذج من الجغرافيا الطبيعية :

١ - ففى دراسته للجزر شرق الهند شرح نوعا منها (إنها تنشأ فتظهر فى البحر قطعة رملية لاتزال تعلو وتنبسط وتنمو حتى تستحكم ، وأخرى منها على الأيام تضعف وتذبل وتنذوى حتى تغوص وتبيد) . (ص ١٦٩) ثم يربط هذه الظاهرة الطبيعية وموقف الإنسان منها « فإذا أحس أهلها بذلك طلبوا جديدة متزايدة الطراوة ، فنقلوا إليها النارجيل والنخل والزرع والأثاث وانتقلوا إليها » (ص ١٦٩) .

٢ - ونحس دقته فى التفسير المناخى بعد هذا فيقول « وأرض الهند تمطر الحميم فى الصيف ... وكلما كانت البقعة أشد إمعانا فى الشمال وغير محجوب بجبل ، فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر ، (ص ١٧٠) . ثم ذكر بعد هذا توزيعاته الإقليمية وعلاقاته بالجبال . ويفرق بين الجبال المواجهة للرياح الممطرة وما يقع فى ظل الجبال فيقول ، وذلك لأن هذه الغيوم ثقيلة قليلة الارتفاع عن وجه الأرض ، فإذا بلغت هذه الجبال صدمتها وعصرتها ولم تتجاوزها ، ولأجل هذا تعدمه كشمير . والعادة فيها أن تتوالى الثلوج فى شهرين ونصف . فإذا جاوز (ذلك) توالت أمطار يسيرة فأذابت الثلوج وأظهرت الأرض ، وهذا فيها قلما يخطىء . فأما من خرج من النظام فلكل بقعة منه نصيب » (ص ١٧٠)

٣ - ويربط بين ظاهرات وجه الأرض والأمطار الساقطة عليها .. بل بين ما فى وديانها من الحصى وشكله ومدة جريانه فى مياه الأنهار ، وتكوين الأودية الفيضية فيقول : « وأرض الهند من تلك البرارى يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ ، وإليها مصاب مياهها . بل لو تفكرت عند المشاهدة فيها وفى أحجارها المدملكة الموجودة إلى حيث يبلغ الحفر عظيمة بالقرب من الجبال ، وشدة جريان مياه الأنهار وأصغر عند التباعد ، وفتور الجرى ، ورمالا عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر لم تكن تصور أرضهم إلا بحرا فى القديم قد انكبس بحمولات السيول » (ص ١٥٧) .

ففى مجال الجغرافيا الطبيعية لا يكتفى البيرونى بالربط بين الظاهرة وسببها ونتيجتها ، وإنما يتوسع ليربط الظاهرة بما يشبهها وما يخالفها فى نظرة شاملة .

٤ - ويضيف البيرونى إلى ذلك ففى التفسيرات الأسطورية ، وإن ذكرها على سبيل الحكاية محددا المستوى الفكرى الذى تتردد فيه .

ويبدو ذلك عند دراسته للمد والجزر وكيف يعرض تفسيره على ثلاثة مستويات :

أ - مستوى العامة : ويقول فيه إنهم يعتقدون « أن فى البحر نارا اسمها « بروانل » دائمة التنفس ، ويكون المد منها بجذب النفس والانتفاخ بالريح ، ويكون الجزر بإرسالها النفس ، وزوال الانتفاخ عنها ، كمثل اعتقده « مانى » لما سمع منهم أن فى البحر عفريتا يكون المد والجزر من تنفسه جاذبا ومرسلا » (ص ٤٣١) .

ب - وأما خاصتهم فيعرفونها فى اليوم بطلوع القمر وغروبه وفى الشهر بزيادة نوره ونقصانه .. (ص ٤٣١)

جـ - ويعقب على هذا بقوله « وإن لم يهتدوا للعلة الطبيعية فيهما » (ص ٤٣١) .

فالبيرونى يعتقد فى العلة الطبيعية ، ويقرر وجودها ، ولم يهتد إليها خاصة الهنود وقتئذ . ويتابع دراسة الظاهرات المرتبطة بها كنشوء الجزائر وتحللها وهى التى سبقت الإشارة إليها ، فيتحدث عن قلعة « باروى الذهبية » المنعزلة عن الشاطئ فيقول عنها : « وأما ظهور القلعة فى الماء فليس ببديع فى ذلك البحر ، وذلك لأن جزائر الديبجات على هذا المثال تنشأ وتبرز فى الماء ككثيب رمل مجتمع ، وتزداد ارتفاعا وانبساطا وتبقى حينا من الدهر ثم يصيبها الهرم فتتخلى عن التماسك ، وتنتشر فى الماء كالشىء الذائب وتغيب .. ونسبة القلعة أيضا إلى

الذهب ممكن أن يكون اسما وضعيا ، وممكن أن يكون اسما حقيقيا ، فإن جزائر الزنج (وقد يكون الزابج كما جاءت فى هامش الكتاب) تسمى أرض الذهب ، لأن الذهب الكثير يرسب فى غسالة التراب القليل منه » (ص ٤٣١ - ٤٣٢) .

(١٠)

المنهج العلمى فى الدراسة البشرية

ويبدو هذا أولا فى التزام الموضوعية فى العرض ولنأخذ نموذجين ، أولهما من دار الإسلام والثانى من خارجها :

١ - أما النموذج الأول فمن وصف مصر للمقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم (ص ١٩٣ - ٢١٥) فهو يبدأ بذكر مكانة الإقليم ، وبخاصة ما يتعلق فيه بقصص الأنبياء ومشاهدهم : .. يتحدث عن طور سيناء وعن يوسف وهجرة مريم بعيسى . وكيف كرر الله ذكر مصر فى القرآن وأظهر للخلق فضلها : « أحد جناحى الدنيا ومفاخره مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار » (ص ١٩٣) . إلا أنه يربط بين الوضع الاقتصادى وارتفاع النيل وانخفاضه فيقول عن القحط : « جريه سبع سنين متوالية .. وفى كل حين تحل بهم الداهية (ص ١٩٣) وهنا نتحفظ علميا على سبع سنين فى أنها ليست سنة دائمة فى ارتفاع النهر وانخفاضه . ثم يقسم إقليم مصر إلى سبع كُوَرٍ ست منها عامرة .. والسابعة الواحات .

والذى تلحظه فى منهج المقدسى - تحريا لمزيد من الموضوعية أنه يستخدم فى كل إقليم يدرسه ، مصطلحات أهله وأسلوبهم فى التعبير . وهذا ما جعل ترجمة هذا الكتاب إلى غير العربية مجهودا شاقا وقف أمامه العلماء ، وإن رأى هو فى هذا دقة فى التصوير وأمانة فى العرض ، بل إنه ليستشهد بالأمثال المحلية إذا كانت تحمل مدلولا جغرافيا .. وهذا يدل على كثرة اختلاط المقدسى بالناس من مختلف الأوساط ، وتقيده ما استطاع بهذه النصوص . من أمثلة ذلك ما يذكره عن القلزم - ميناء على رأس خليج السويس والقلزم بلد قديم على طرف بحر الصين (البحر الموصل إلى الصين والشرق الأقصى) . يابس عابس ، لا ماء ولا كلأ ، ولا زرع ولا ضرع ، ولا حطب ولا شجر ، ولا عنب ولا ثمر يحمل إليه الماء فى المراكب ومن موضع على بريد يسمى سويس على الجمال ماء آجن ردئ . ومن أمثالهم « ميرة أهل القلزم

من بلبيس ، وشربهم من سويس ، يأكلون لحم التيس » . وبلبيس على أطـراف الأرض الزراعية شرق الدلتا . بعبارة أخرى على خط التقاء بين الأرض الخضراء والأرض الصفراء ، أو بين الرمل والطين ، إلى الشمال الشرقى من رأس الدلتا ولقلة المراعى فى هذا الجزء كانت الماعز أكثر الحيوانات الرعوية فيه . أما الماء فى منطقة رأس خليج السويس - كما فى كل منطقة القنال الحالية - فمصدره الأساسى النيل أو فروعه أو ترعه القريبة ... وبعـد هذا يستدرك المقدسى ليبرز مكانتها التجارية باعتبارها الباب الشرقى لتجارة مصر فى عالم البحر الأحمر فيقول : « ... غير أن مساجدها حسنة وبها قصور جليلة ومتاجر مفيدة هى خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج » (ص ١٩٦) .

وعلى هذا المنهج يعرض المقدسى ما يراه كأنه جهاز تصوير دقيق يذكر مكونات الإقليم فى جمل قصيرة كأنها برقيات فيها ما يرضى عنه أهل الإقليم ، وما لا يرضون . ويؤكد ما يذهب إليه ، بتجاربه الذاتية أو وجهة نظره . يقول عن الفسطاط وازدحامها « وسمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير ، فرأيت الأمر قريبا مما قالوا » (ص ١٩٨) .. غير أنه حينما يتكلم عن المساكن فيه يقول .. « إلا أنه ضيق المساكن .. كرب البيوت .. مياه كدرة وآبار وضرة .. » (ص ٢٠٠) . وفى المقدسى حدة فى الوصف لم تسلم منها حتى بعض مدن الأرض المقدسة .

٢ - أما النموذج الثانى - خارج أرض الإسلام - فمن المسعودى فى مروج الذهب عند دراسته للزنج . يقول « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم فى القرب من بارئهم ، ويحثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه ، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم ، وليس لهم شريعة يرجعون إليها ، بل رسـوم لملوكهم وأنواع من السـياسات يسوسون بها رعيتهم » (٢ : ١٧) وحديث المسعودى هنا عن قوم غير مسلمين . ولنذكر أنه « وهو العربى » والعرب أهل فصاحة ومعجزة الإسلام الكبرى هى القرآن الكريم يصف الزنج بقوله إنهم : « أولو فصاحة فى ألسنتهم . وكذلك لا يهوّن فى شأن النوبة فى الحرب وإنما يقول عنهم « وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون ، فوجدهم يرمون الحدق » (٢ : ٢١) فمن دقة الرامى منهم أنه إذا صوب سهمه أصاب حدقة العين .

٣ - ويربط المسعودى بين العوامل الطبيعية بعضها ببعض ، وبالعوامل البشرية محاولا رد الظاهرات إلى أسبابها فيقول ، وقد ذكرنا فى كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها فى حيوانها من الناطقين وغيرهم ، وما تؤثر البقاع فى الناس من النبات ، وفيما ليس بنام ، كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك فى جمالهم ، فقصرت قوائمها وغلظت رقابها ، وابيض وبرها » (١ : ٥١ - ١ - ٢) .

٤ - كما يربط البيرونى بين العوامل البشرية بعضها وبعض محاولا تفسير بعض الظاهرات الدينية فى الهند بأسباب اقتصادية واجتماعية ، وعند دراسته تحريم لحوم البقر يقول بعد أن يعرض ما سمعه من آراء « وأنا أظن فى ذلك أحد أمرين : أما السياسة فإن البقرة هى الحيوان الذى يخدم فى الأسفار بنقل الأحمال والأثقال ، وفى الفلاحة بالكرب والزراعة وفى الكذخذاهية بالألبان وما يخرج منها ثم ينتفع بأخثائه (روثه : انظر لسان العرب) بل فى الشتاء بأنفاسه ، فحرم كما حرمه الحجاج لما شكى إليه خراب السواد ، وحكى لى أن فى بعض كتبهم : أن الأشياء كلها شئ واحد وفى الحظر والإباحة سواسية ، وإنما تختلف بسبب العجز والقدرة ، فالذئب يقتدر على حطم الشاة فهى أكلته ، والشاة تعجز عنه وقد صارت فريسته ، ووجدت فى كتبهم ما شهد بمثله إلا أن ذلك يكون للعالم بعلمه إذا حصل فيه على رتبة .. وإذا كان كذلك استوت عنده أيضا سائر الأشياء فى الكف عنها ، فسواء كانت كلها حلالا إذ هو مستغن عنها أو كانت حراما فإنه غير راغب فيها ، فأما من له فيها أرب باستحواذ الجهل عليه فبعض له حلال وبعض عليه محرم والسور بينهما مضروب » (ص ٤٦٨ - ٤٦٩) .

ويستوقفنا هنا رأيه الأول المرتبط بالأوضاع الاقتصادية أكثر من رأيه الثانى الأشد ارتباطا بالأوضاع الدينية ومستوياتها ، وإن بناها على تفاوت فى القدرة . فما دامت للبقر هذه المكانة فى حياتهم فمن الأنسب المحافظة عليه والإستفادة منه حيا .. وشئ قريب من هذا نجده فى القبائل الزنجية النيلية فى جنوب السودان كالشلوك والدنكا والنوير وفى هذا يختلفون عن قبائل البقارة العرب الذين يعاملون البقر استخداما وبيعا وشراء وذبحا كما هو معتاد فى الإسلام .

(١١)

عودة إلى المنبـــع

أشرت فى صدر هذا البحث إلى الرباط بين علماء الإسلام والعقيدة الإسلامية ، بمصدريها الأساسيين : القرآن والسنة النبوية . وأن الكتاب فى الفكر الإسلامى لا يعدو أن يكون تنفيذا لعقد بين المؤلف والقارئ ، أن يكتب فيه الصدق فى الموضوع الذى تتناوله الدراسة . وتناولت العرض الموضوعى فى الجغرافيا الإسلامية ، والمنهج النسبى ، والربـط والتعليل والتـوزيع ، والتقسيم .. وهى دعائم أى دراسة جغرافية .

وإذا كانت هذه هى أهم معالم « المنهج » إلا أن هذا المنهج نابع من العقيدة نفسها ، وبها تتحدد نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان .

الأرض :

وينص القرآن الكريم على أن الله خلق الأرض لنا :

١ - « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (البقرة : ٢٩) .

٢ - « والأرض وضعها للأنام » (الرحمن : ١٠) .

٣ - « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (إبراهيم : ٣٢ - ٣٤) .

فكل ما حوله من هذا الكون الكبير إنما هو مسخر له . والأرض أمامه ممتدة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥) .

والقرآن يجعل الإنسان جزءا من مادة الأرض . « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (نوح : ١٧) فالإنسان ليس غريبا عنها ولا مطرودا عنها ، وإنما هو خليفة الله فيها . يعيش عليها ويثوى فى جوفها ، ويبعث منها « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه : ٥٥) .

ويعبر الرسول (ص) عن هذا فيقول « تمسحوا بالأرض فإنها بكم برّة » (الطبرانى فى المعجم الصغير عن شيخه حملة بن محمد)

ومن أجل ذلك لا تقوم العلاقة فى الإسلام بين الإنسان والكون بعامة والأرض بخاصة

على أساس من العداوة والاستغلال الهدّام والتخريب ، وإنما تقوم على أساس من استخراج خيراتها فى تآلف وتناغم ومودة . ويمتد هذا التآلف ليشمل مادة الأرض نفسها . فأبو بكر الصديق يقول : فى وصيته ليزيد بن أبى سفيان وهو على رأس جيش متجه إلى الشام « لا تقطع شجرا مثمرا ولا تخرب عامرا .. ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه » (البخارى من رواية عبد الله بن عمر) ...

الإنســـان :

وانعكست هذه النظرة الودود على الإنتاج العلمى الإسلامى فلا تكاد تجد فيه ألفاظا شاعت وتواترت بعد هذا فى التأليف مثل « الصراع مع البيئة .. التحدى .. الانتصار على الطبيعة .. السيطرة على البيئة .. وهى العبارات التى تحمل معنى من « عداوة » البيئـة ، عداوة نجد جذورها فيما جاء فى العهد القديم ، سفر التكوين فى روايته لقصة آدم وقول الله له « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكا وحسكا تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل ، يعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ؛ لأنك من تراب وإلى تراب تعود » (٣ : ١٧ - ١٩) .

مفهوم العقوبة بالأرض وفى الأرض ، لا نجد له ظلا فى القرآن الكريم وإنما خلق الله الأرض له . وهو خليفة الله فيها وإليه بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

والقرآن يصور الإنسانية أسرة كبيرة واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (النساء : ١)

فالخالق واحد ، والنفس الإنسانية واحدة . ومن هذه النفس خلق الله زوجها ومن هذه الأسرة الأولى جاء الناس : رجالا كثيرا ونساء .

واختلاف الألسنة والألوان لا يعدو فى الإسلام أن يكون مظهرا لقدرة الله .. ويأتى ذكر هذا الاختلاف وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية .. « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وإن فى ذلك لآيات للعالمين » (الروم : ٢٢) هذا الاختلاف له مكانته وقداسته - من هذه الزاوية - « وهو فى الإسلام سبيل إلى خشية الله ، خشية مرتبطة بالعلم والعلماء :

- « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد (جمع جدة وهى الطريق) بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (أسود غربيب أى شديد السواد) . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور » (فاطر : ٢٧ - ٢٨) .

وفى الآيات ربط بين الظاهرات وضرورة البحث العلمى فيها ، وإن مجالات الدراسة والبحث ستزيد من قوة الأساس الذى يقوم عليه البناء كله من أن الناس كلهم إخوة وأن الأرض موطن ذلول للإنسان وأن الإنسان من نبات هذه الأرض .

ولنا أن نقول إن الإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون لأى لون فضل على الآخر.. وإنما أكرم الناس اتقاهم لله . (راجع : عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية ، ص ٢٧ - ٣١ ط اليونسكو ١٩٧٠) .

ooo

(١٢)

خاتمـــة

والذى أود أن أخلص إليه من هذا العرض لمصادر التوجيه فى الفكر الإسلامى ومنه الفكر الجغرافى ، وللنماذج الجغرافية المختارة من كتب الجغرافيا الإسلامية لتوضيح موقفها من الأرض والإنسان هو ما يأتى :

١ ـ أن التراث الجغرافى الإسلامى جزء من التراث الإسلامى العام (وهنا استخدم لفظ التراث بالمعنى الشامل النامى الذى يضم هذا الانتاج فى عصوره المتتابعة . دون توقف عند عصر معين) وأن هذا التراث الشامل له طابعه العام الـذى نراه . فى تآليفـه الفكرية كما نراه فى قطع الفن الإسلامى سواء بسواء . وبعبارة أخرى إن هناك وحدة فكرية وترابطا عضويا يشتمل الفكر الإسلامى والجغرافيا جزء منه .

٢ ـ أن هذه الوحدة مردها إلى الأصلين الأساسيين فى الإسلام : الكتاب والسنة المطهرة .

٣ ـ أن نظرة الإسلام - وبالتالى الجغرافيا الإسلامية - إلى الكـون نظرة صداقة ومودة وليست نظرة صراع وانتصارات وهزائم .

٤ ـ أن نظرة الإسلام وبالتالى الجغرافية الإسلامية إلى الإنسان أنه خليفة الله فى أرضه وأن الأخوة الشاملة تجمعهم . فكلهم من خلق الله ، جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . والتقوى أمر كسبى لا يعود إلى عصبية لون أو طبقة أو جنس أو وضع اقتصادى أو اجتماعى .

٥ ـ أنه إذا ما وجدنا نظرة استعلاء أو تفاخر فى إنتاج من المكتبة الإسلامية فهو لا يعبر عن روح الإسلام ، ولا عن الخط الرئيسى المتبع فى تراثنا الجغرافى .

٦ ـ وأن آخر ما انتهى إليه الفكر العالمى المعاصر (وما صدر عن اليونسكو نموذج له) يؤكد وحدة الأصل فى الإنسان ، وأن الفروق بين الجماعات لا ترجع إلى عوامـل طبيعية فيها ، وإنما إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى عاشت بها .. وبهذا وبعد رحلة طويلة تصل سفينة العلم الحديث إلى المرفأ الذى رفع الإسلام عليه علم الإخاء من قديم ، داعياً إلى إنسانية كبيرة تعيش السلام فى أرض تؤمن بالحق والسلام .

٧ ـ وفى ضوء من هذا التوجيه التزم الجغرافيون الدقة الموضوعية فى البحث ، واتبعوا منهجهم العلمى فى جمع المعلومات وتصنيفها وتحقيقها ، والربـط بينهـا والمقارنـة والتقسيم فى التحليل والتعليل .

مكتبة البـــحث

أولا :

١ - القرآن الكريم

٢ - التوراة : سفر التكوين .

ثانيـــا :

٣ - البيرونى :

تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة .

ط . دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن . الهند ١٣٧٧ هـ إ ١٩٥٨ م .

٤ - المسعودى :

مروج الذهب ومعادن الجوهر .

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

ط . التجارية القاهرة ١٣٨٤ هـ إ ١٩٦٤ م .

٥ - المقدسى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .

تحقيق دى غوية ط . بريل . ليدن ١٩٠٦

ثالثـــا :

٦ - عبد العزيز كامل :

الإسلام والتفرقة العنصرية

اليونسكو ١٣٩٠ هـ إ ١٩٧٠ م



الجغرافية والثقافة الإسلامية

دكتور / عبدالفتاح محمد وهيبة



الثقافة والحضارة والمدنية كلمات لاتزال تعريفاتها موضع خلاف كبير بين المتخصصين ، ولا يتسع المقام هنا لأن نعرض لها بالبحث والاستقصاء . ولكن يكفى أن نشير إلى أن الثقافة هى روح الحضارة وجوهرها ، لا تحيا إلا بها وتذبل بذبولها . ثم هى - فى بساطة - ثمرة البحث عن الحقيقة والخير والجمال . وتاريخها هو تاريخ حياة أولئك الأفذاذ من بنى البشر الذين أضاءوا لغيرهم الطريق بعد أن نجحوا فى تأصيل معتقدات وأفكار عن الكون وطبيعته وغايته وعما يسعد البشرية ويشقيها ، اهتدوا إليها من خلال اطلاعاتهم الواسعة وتأملاتهم الكثيرة . وثقافات الأمم كحضاراتها تأخذ وتعطى ولكن يختلف مقدار ما تأخذ وما تعطى باختلاف ما بلغه أصحابها فى بحثهم عن الحقيقة والخير والجمال .

ثقافة العرب قبل الإسلام وبعده :

وعلى الرغم من تشتت العرب السياسى فى الظاهر قبل الإسلام فلقد ربطت بينهم أفكار معينة حول الديانة وخطبوا ونظموا الشعر بلغة فنية ارتفعت فوق لهجاتهم المحلية ، مما يدفعنا إلى القول بأنهم حتى فى أيام جاهليتهم كانوا أمة واحدة وثقافة واحدة . وما إن بزغ نور الإسلام حتى صار القرآن الكريم والسنة عماد الثقافة العربية يكملها ويثريها ما كان للعرب قبل الإسلام من فنون الأدب والمعرفة . وبفضل سماحة الدين الجديد وحضه على تحصيل العلم ولو فى الصين ورفعه من شأن العلم والعلماء ، لم يتردد العرب ورثة الحضارات القديمة فى نقل ثقافات الشعوب المغلوبة إلى العربية فى محاولة لاستيعابها بعد استخلاص ما ينفع وما يفيد .

وقد كان عملهم فى هذا الشأن سريعا ورائعا . فبعد أقل من قرن من قيام بغداد كان التراجمة من اليهود والمسيحيين النساطرة قد ترجموا إلى العربية مؤلفات أرسطو فى الفلسفة ، وجالينوس فى الطب وكتابى « المجسطى » فى الفلك و « الجغرافيا » لبطليموس إلى جانب كثير من كتب الفرس والهنود فى العلوم المختلفة . ويحدثنا المؤرخون أنه لأول مرة فى التاريخ كان العرب أيام العباسيين يطلبون إلى المغلوبين عند إملاء شروط الصلح أن يقدموا لهم كتب العلم والفلسفة والطب غرامة حربية . فعلوا ذلك مثلا فى صلحهم مع الروم مما يؤكد أنهم كانوا على

استعداد لقبول هذه العلوم . هكذا انتهت إلى العربية روافد الثقافة من شتى أقطار الأرض حتى إذا ما استوعبتها حملت لواء العلم والحضارة عدة قرون .

ولقد مضى العهد الذى كان فيه تاريخ الثقافة مجالا للمفاضلة بين الأمم . والرأى أن هذا التاريخ يجب أن يكون موضوعيا يضع كل أمة فى مكانها اللائق بعد تقويم إسهامها وعطائها . ولعله من الصواب القول بأنه ليس ثمة أمة لم تسهم بنصيب فى بناء صرح الثقافة العالمية ، كما أنه ليس ثمة ثقافة بغير حدود محلية . وإنها لدعوى ظالمة تلك التى تقول بأن العرب لم يكن لهم ثقافة تستحق الذكر حتى جاء العلم اليونانى فأثراها بعد إمحال . ذلك أن العرب كانت لهم علوم خاصة بهم لها مناهجها وطرائقها فى البحث نذكر منها الفقه وعلوم اللغة والنحو والعروض وعلوم التفسير والحديث . وقد شارك المسلمون فى شتى أقطارهم بالكتابة فيها بعد أن صارت العربية هى لغة العلم والثقافة الواسعة . ونحن نميل إلى الرأى القائل : بأن نجاح المسلمين وفى مقدمتهم العرب فى علوم الفلك والطب والجغرافيا وسبقهم فيها رغم أنه لم يكن لهم بها عهد إنما يرجع فى المقام الأول إلى أنها تقوم على تفكير قريب من تفكيرهم كما تطبق مناهج شبيهة بمناهجهم . وتظهر حيوية الثقافة الإسلامية وقدرتها الفائقة على تكييف المعارف الدخيلة وفق حاجات المسلمين ثم خلقها بعد ذلك خلقا جديدا . فلم يكن المسلمون مجرد نقلة وإنما أصحاب رسالة وأصالة وليس أدل على ذلك من إسهامهم الكبير الذى يعترف به المنصفون حين يتحدثون عن بناء صرح الحضارة الإنسانية .

المعارف الجغرافية قبل الإسلام :

كان العرب الذين قدر لهم أن يحملوا راية الإسلام يتمتعون بحس جغرافى صادق ، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب التى تعيش بالفطرة . فكانوا على دراية تامة بمواقع الأشياء فى بيئاتهم ، لا تنقطع بهم السبل إليها ليلا أو نهارا ، بل إن حياتهم البسيطة أفسحت لهم مجال الملاحظة للتحقق من مواضع الخطر والتماس أسباب الخير من عشب وماء وثمر . وتحدثنا كتب التاريخ والأدب بما عرف عن العرب قبل الإسلام من تصورات واضحة لبلادهم ففى شعرهم ونثرهم شىء كثير عن طبيعة بلادهم وصفاتها وإشارات عديدة إلى الأماكن وما بها من نباتات وحيوانات وطرقها ومسالكها ومضارب القبائل ومنازل القمر وأسماء الكواكب والنجوم . ولم يكن العرب فى واقع الأمر فى عزلة عن العالم القريب والبعيد . فسفنهم كانت تسعى بين الهند

والشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وقوافلهم ربطت مكة ويثرب باليمن والشام وبلاد ما بين النهرين . ومع التجارة انتقلت إليهم بعض المعلومات عن بلاد غير بلادهم وتسربت إليهم بعض أقوال الإغريق والرومان والفرس فى الفلك والجغرافيا .

الجغرافيا بعد ظهور الإسلام :

وما إن بزغ فجر الدين الجديد وقويت دعوته حتى تحولت شبه الجزيرة العربية إلى وطن من الأبطال يدعون للإسلام ويحاربون فى سبيله ، فاتسعت دولة الإسلام فى مدى ثمانين عاما بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما لم تتسع دولة من قبل . إذ امتدت من حدود الصين شرقا إلى جبال البرانس غربا .. أما الإسلام فكان قد نفذ إلى قلوب كثير من أبناء الشعوب المغلوبة ، فتعلموا العربية لغة القرآن ليفهموا الدين الجديد وعلومه ويقيموا شعائره .

وقد تميزت الثقافة الإسلامية بعدة مميزات لعل أهمها أنها تخيرت غذاءها تخيرا دقيقا يتفق مع روح الإسلام . فالتعرف على المكان والنظر فى مظاهره والبحث عن مكوناته من أهداف الجغرافية الأصيلة ، وهذا ما يدعو إليه الله فى كتابه الكريم فيقول تعالى : « أَفَلَمْ يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أَوْ آذانٌ يسمعون بها فإنها لاتعْمَىٰ الأبصارُ ولكِنْ تَعْمَىٰ القلوبُ التى فى الصّدور »[1] . وعملا بهذه الآية الكريمة اعتمد النابهون ممن كتبوا فى ميدان الجغرافية على التجربة الشخصية التى اكتسبوها من خلال سفراتهم الطويلة فى البر والبحر . وحرصا منهم على التعرف على ما يفيد من علم الأقدمين فى الفلك والجغرافيا الرياضية لم يترددوا فى ترجمة كتاب بطليموس فى القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) كما أشرنا . وربما يفسر ذلك اصطباغ الجغرافية العربية فى مراحلها الأولى بصبغة فلكية يونانية الأصل . ولكن سرعان ما نمت أفرع للجغرافية فى تربة عربية إسلامية خالصة . وكانت تلك هى البداية الحقيقية لعلم الجغرافية العربى الذى امتدت آثاره إلى كل بلاد الإسلام فيما بعد . ومهما يكن من أمر هذا التطور فإنه من الحق القول : إنه من حيث الكم ظلت الكتابات الجغرافية على غزارتها خلال القرون ، أما من حيث الكيف فقد حل بها الضعف ، وفقدت القدرة على التجديد منذ أن سيطر العثمانيون على العالم العربى وربما قبل ذلك بقليل .

مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية :

ولقد ظهرت البدايات الأولى للجغرافية الوصفية فى الشرق العربى إبان القرن الثانى

للهجرة (٨ م) على أيدى اللغويين . ولكن نافسهم فى هذا المجال المؤرخون مثل هشام الكلبى (ت ٢٠٤ هـ ـ ٨١١ م) وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م) ، .كذلك اهتم المؤرخون الجغرافيون فى المغرب العربى بكتابة الجغرافية الوصفية وكان فى مقدمتهم الرازى (ق ٤ هـ ـ ١٠ م) الذى وضع قواعد علميْ التاريخ والجغرافية معا ، وبمرور الزمن نجد أن أدباءً وكتابا وعلماء أسهموا فى إثراء المعرفة الجغرافية الإسلامية دون أن يكونوا هم أنفسهم جغرافيين . وكان ذلك يتفق تماما مع روح العصر الذى لم يعترف بالتخصص الدقيق الذى نعرفه الآن فى مجالات العلوم والآداب . فالجاحظ أعظم الأدباء والمثقفين على زمانه ضمّن كتبه كثيراً من المعارف الجغرافية . بل إنه أصدر كتابا فى الجغرافية الإقليمية أسماه كتاب « البلدان » وكتب رسالة قيمة فى الجغرافية التجارية أطلق عليها « التبصر بالتجارة » .

وينطبق ذلك على إخوان الصفا فى بغداد . ففى رسائلهم معلومات حول الظواهر الجوية والجيولوجيا ، ويمكن تفسير سبب تزايد اهتمام المثقفين المسلمين بالكتابة فى الجغرافية أن هذا العلم كان يعد من بين فنون الأدب بصفة عامة كما أن المعارف الجغرافية كانت لا تقل أهمية فى تكوين المثقف المسلم عما كان يلم به من علوم وآداب ، وكان أفضل ما يرغب فى الإحاطة به إلى جانب شئ من الجغرافية والفلك شيء من الأدب وأنساب العرب والسيرة المحمدية وأخبار فتوح الإسلام وتواريخ الخلفاء والدول الإسلامية . لذلك لم يكن غريبا أن نسمع عن الأديب الجغرافى والمؤرخ الجغرافى والعالم الجغرافى بل والفقيه الجغرافى . ومن ناحية أخرى نجد أن أولئك الفريق غلبت عليهم النزعة الجغرافية ولم يترددوا فى الكتابة فى الأدب والتاريخ والفلك فالإدريسى ناقل الثقافة الجغرافية الإسلامية إلى أوربا المسيحية قرض الشعر وابن الفقيه (ق ٣ هـ = ٩ م) قدم فى كتابه « البلدان » عرضا للاتجاهات الأدبية فى أيامه وتعرض أبو الفدا (ق ٨ هـ ـ ١٤ م) فى كتابه « تقويم البلدان » لمسائل فلكية .

وربما كانت الفوائد التطبيقية للجغرافية وخاصة الرياضية من بين أهم العوامل التى حفزت كثيرا من رجال الدين وقادة الجيوش والتجار والمثقفين المسلمين بعامة إلى معرفة شيء منها ؛ فابن يونس الفلكى المصرى (ت ٣٩٩ هـ ـ ١٠٠٩ م) يذكر أن « للشمس والقمر ارتباطا بالشرع فى معرفة أوقات الصلاة ، وبداية الفصول وطلوع الفجر ومغيب الشمس وأوائل الشهور حتى يتم صوم رمضان لمن شهده ويتوجه الحجاج إلى بيت الله دون تأخير . ويبدو أن الاهتمام بالجغرافية الرياضية كان على القدر اللازم لمطالب العبادة ، وهذا ما يظهر من

تصفح كتاب « دلائل القبلة » الذى وضعه الفقيه أبو العباس أحمد بن القاضى (ت ٢٣٥ هـ ـ ٩٤٦ م) ففيه تحديد اتجاه الصلاة ومواقيتها والموقع المركزى الذى تحتله الكعبة على الأرض .

وعندما فقدت الجغرافية بعض أصالتها ، وغلب عليها الاتجاه النقلى والاهتمام بالعجائب والغرائب على حساب الحقائق ، عمدت كتب التراجم إلى إغفال ذكر مؤلفات تحتوى معارف جغرافية على أساس أنها لا ترفع من أقدار أصحابها ورغم ذلك لم تتدن منزلة الجغرافية فى ديار المسلمين إلى الدرجة التى بلغتها فى أوربا المسيحية حتى قبل أن يبدأ عصرها المظلم . ويعبر عن ذلك القديس أمبروز Ambrose بقوله : « إن البحث فى طبيعة الأرض ومركزها بالنسبة للكون لا يفيدنا فى الحياة الأخرى » .

إزاء هذه المنزلة المتدنية للجغرافية فى رأى أصحاب كتب التراجم كتب ياقوت الحموى فى مقدمة معجمه الشهير « معجم البلدان » يبرر تأليفه له بذكر فوائد ما جاء فيه للمثقفين المسلمين . ومن بين الفوائد التى عددها ياقوت المعاونة على تحديد الأسماء بدقة ، وهذا فى رأيه أمر مهم للإمام الجليل والأمير الكبير ، وتقديم مادة هامة لأهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار . ثم إن المعجم لا غنى عنه لأهل الحكمة والتطبب : « فالأطباء يسعون لمعرفة أمزجة البلدان وأهويتها ذلك أنه من كمال المتطبب أن يتطلع إلى معرفة مزاجها وهوائها وصحة أو سقم منبتها ومائها » .

ويأتى عبد الله الحميرى المغربى الأصل (ق ٩ هـ = ١٥ م) فيقدم لمعجمه « الروض المعطار فى خبر الأقطار» بقوله : « فقد لمت نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمره الآخرة ، ثم رأيت ذلك من باب ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمتاح لمن ينشط إلى ما هو به أعنى » ثم يستعيذ بالله من علم لا ينفع ويبدأ كتابة المعجم ..

أسباب ازدهار الجغرافية فى ديار المسلمين :

لعل من الحق القول إن جمع المعارف الجغرافية وتسجيلها كان فى بداية ظهور الدولة الإسلامية من قبيل خدمة دولة تتسع حدودها وتضم إليها بلادا وشعوبا غير عربية . فقد رغب الخلفاء وقادة الجيوش فى معرفة شىء عن جغرافية البلاد التى فتحها الله على المسلمين . من

ذلك ما ذكره الرواة من أن عمر بن الخطاب كتب إلى أحد الحكماء حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض يقول : « إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار ، فصف لى المدن وأهويتها ومسالكها وكيف تؤثر الترب والأهوية فى سكانها » . ويكتب عمر بن عبد العزيز فى أواخر القرن الأول للهجرة إلى واليه بالأندلس أن يوافيه « بصفة الأندلس وأنهارها » .

ويصف ابن حوقل (ق ٤ هـ = ١٠ م) علم الجغرافية فى مقدمة كتابه « صورة الأرض » بأنه علم « يتفرد به الملوك الساسة وأهل المروات والسادة من جميع الطبقات » . وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على مدى أهمية هذا العلم فى إدارة شئون الدولة الناشئة ومعرفة أحوالها وثرواتها ووجوه أموالها . وعندما زاد اهتمام الأمويين بالبريد كان من الضرورى إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق اعتمد عليها فيما بعد كتاب العصر العباسى ولم تقف المعلومات العملية أو الدراسات التطبيقية عند هذا الحد ، فقد رسمت مصورات استفاد منها قادة الجيوش الإسلامية . ففى عام ٨٩ هـ = ٧٠٨ م بعث الحجاج إلى قائده فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذلك عندما استبطأ حصاره لبخارى أن يرسل إليه « صورة » المنطقة ويقال : إن الحجاج بعث بتعلياته العسكرية اعتماداً على هذه الخارطة .

إلى جانب رغبة الحكام فى معرفة جغرافية البلاد المغلوبة والطرق إليها طمعا فى حسن الإدارة ودرءاً للأخطار ، كان الحج إلى بيت الله الذى فرض على المسلمين من بين أهم العوامل التى شجعت النابهين من الحجاج على تحديد الطرق إلى مكة والمدينة وذكر مسافاتها ووصف ما تخترقه من بقاع . وما كتب « الديارات » التى ظهرت خلال القرون إلا تعبير عن هذا النمط من الأدب الجغرافى وهو من غير شك أوفى وأخصب من نظيره الأوربى الذى تركه حجاج بيت المقدس .

وإذا كان حج البيت قد شجع النابهين على الكتابة الجغرافية من واقع الملاحظة والاتصال الشخصى فإن روح الأخوة الإسلامية التى انتشرت بعد ظهور الإسلام قد أفسحت المجال لكل مجتهد أن يجوب أقطار الإسلام بحثا عن علم أو طلبا لتجارة بغض النظر عن لونه أو عنصره . فقد دعا الدين الإسلامى إلى نبذ العنصرية البغيضة وقرر ألاّ فرقَ بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى . وواقع الأمر أن الدين وكذلك اللغة ظلا كما سبق أن ألمحنا من الروابط القوية التى جمعت المسلمين بعد تفكك دولتهم سياسيا . فكان طلاب العلم والتجار

وجوابو الآفاق يشعرون أينما حلوا أنهم فى أوطانهم فلا تمييز ولا عنصرية وإنما كرم ومودة وأخوة إسلامية . وفى أخبار رحلة ابن بطوطة الشهيرة الدليل الساطع على ذلك . وينبغى أن نضيف أن نظام الوقف فى الإسلام ـ الوقف على أعمال الخير ومساعدة الغرباء ـ شجع طلاب العلم وعشاق الأسفار على الرحلة .

ومنذ أن ظهر الإسلام والصلة وثيقة بين الجغرافية والتجارة ، فالعالم الإسلامى كان رقعة متصلة ـ حتى بعد تفكك الدولة - تمتد من السند إلى المحيط الأطلسى . وقد شجع ذلك على ظهور طرق القوافل تسعى عليها وتربط بين محطاتها سفينة الصحراء . ومن ناحية ثانية كانت سواحله تشرف على مياه المحيط الهندى والبحر المتوسط أهم مجالات النشاط التجارى البحرى فى العالم خلال العصور الوسطى . وكان لتنوع حاصلات هذا العالم وثرواته واختلاف مطالب شعوبه وعاداتهم وتوسط موقعه ، مما سمح لطرق التجارة بين الشرق والغرب المسيحى أن تمر عبره ، أعمقُ الأثر على نشاط التجارة البحرية خاصة بعد ظهور خارطات بحرية دقيقة واستخدام أدوات وأجهزة ملاحية متطورة عرفها المسلمون قبل الأوربيين كما شهدت بذلك مذكرات رحلة فاسكودى جاما .

ولكن هذه الأسباب لم تكن وحدها المسئولة عن نشاط تجارة المسلمين وما تبع ذلك من أخذ وعطاء فى مجالات الفكر والثقافة . فقد كان للتجارة إغراء شديد فى المجتمع الإسلامى بفضل ما كان يتمتع به التاجر من احترام أينما حل . كيف لا وقد كان الرسول عليه السلام قبل البعثة تاجرا . ثم إنه امتدح التاجر المؤمن الصادق ووعده بمنزلة الشهداء يوم القيامة . لذلك كله عظم نشاط التجار المسلمين داخل ديار الإسلام وامتد خارجها إلى بلاد الصين وبلاد البلغار وشمال أوربا وبلاد الزنج . ولا نكون بعيدين عن الصواب إذا ما قلنا : بأن قصة « السندباد البحرى » المعروفة ما هى إلا أخبار وتجارب تجار وملاحين مسلمين مجهولين فى البحار الشرقية .

مصادر المادة الجغرافية الإسلامية :

استمدت الجغرافية الإسلامية مادتها عن طريق الملاحظة والاستخبار والنقل . وكان النقل إما عن الرواة من تجار وملاحين وكتاب من أهل الثقة أو عن كتب غير عربية (يونانية ـ وفارسية ـ وهندية) أو كتب عربية تنتمى إلى عصر سابق . ومهما يكن من أمر

مصدر المادة الجغرافية ، فلقد كان تقصى الحقائق - وهو مبدأ إسلامى - هدف كل من أخذ نفسه بقول ما يعتقد أنه حق وصواب . ومن أسف أنه بمرور القرون اختلط على كثير من الكتاب ما هو الحقيقى من الأمور بسبب وقوعهم فى إسار نظريات ومفاهيم خاطئة ذكرها أسلافهم ولم يجرؤوا على رفضها إجلالا لهم وتعظيما لما جاء فى تصانيفهم . لذلك اتسعت الهوة بين الواقع والنظرية فى الكتابات الجغرافية الإسلامية ، وظهرت بمرور الزمن ثنائية جغرافية تكشف عن البون الشاسع بين الخبرة العملية والواقعية التى اكتسبها الملاحون والتجار وجوابو الآفاق من ناحية ، وما تردد فى الكتب من مفاهيم السلف وأقوالهم من ناحية ثانية . وربما كان هذا سر ذهاب أصالة الجغرافية الإسلامية ونضارتها فى عصر الاضمحلال وفى جمود فن صنع الخارطات فى بلاد الإسلام بعامة .

ولعل الجغرافية الرياضية هى من بين أفرع جغرافية التراث التى ترجع فى أصلها إلى مصادر غير عربية خاصة الإغريقية منها . وقد تمت ترجمة هذه المصادر فى فترة بلغ فيها النشاط العلمى قمته تلك هى فترة حكم المأمون الذى أغدق على المترجمين ، ورعى العلم والعلماء وكرمهم حتى ليروى أنه طلب من الامبراطور البيزنطى أن يبعث إليه بأحد مشاهير العلماء لقاء خمسة أطنان من الذهب ، وعرضا للسلام الدائم بين الفريقين . وقد سبق أن أشرنا إلى ما ترجم لبطليموس القلوذى فى الفلك والجغرافيا . وقد سار على نهجه فى خارطاته ونظرياته كثير ممن كتبوا فى الجغرافية الرياضية الإسلامية . وربما كان محمد بن موسى الخوارزمى (ق ٣ هـ = ٩ م) هو أول من احتذى حذو بطليموس فى كتابه صورة الأرض . ومن بين الذين ظلوا يتمسكون بنظرياته حول توزيع اليابس والماء وعلاقة الأرض بالشمس وتقسيم اليابس إلى أقاليم ، نذكر اليعقوبى وابن حوقل والإدريسى والمتأخرين من أصحاب الموسوعات والمعاجم .

أما الجغرافية الوصفية بكل فروعها الإقليمية والعمرانية والملاحية والتجارية فهى وليدة البيئة العربية والإسلامية بعامة ، ظهرت إرهاصاتها كما سنشير فى مكان آخر منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ذلك فى الأخبار المتواترة . ولا يمكن أن نتجاهل أدب الرحلة فى هذا المقام فقد أضاف إلى الأدب الجغرافى بأنواعه لمحات وضاءة وثراء ومتعة . لكن لا جدال فى أن اعتياد هذه الأنماط على النقل من مصادر سابقة فى الغالب ودون التعريف بها أحيانا خاصة فى فترة الاضمحلال أساء إليها كثيرا .. على خلاف ذلك ما كانت عليه الحال فى فترة الازدهار فقد

استمدت المادة الجغرافية فى معظمها من واقـع الملاحظـة وتقصى الحقائـق خلال رحـلات واتصالات واسعة وهادفة .

دور المسلمين فى زيادة المعرفة بالعالم :

ولكن ما هو دور المسلمين فى زيادة المعرفة بالعالم ؟ وما هى تلك الأنماط التـى ميزت الأدب الجغرافى الإسلامى وكيف تطورت فى الزمان والمكان وأسهمت فى إرساء قواعد ثقافة جغرافية إسلامية أغنت الفكر الإسلامى بعامة ، وأفادت أوربا عن بعض آثارها منذ العصر المدرسى حتى عصر النهضة ؟ .

ربما كان دور المسلمين فى زيادة المعرفة بالعالم من أبرز إسهاماتهم الثقافية على مستوى العالم . وقد كان السفر فى مهام رسمية والرحلة من أجل الكشف عن المجهول أو طلبا لعلم أو تجارة أو طمعا فى زيارة الأراضى المقدسة من أهم الوسائل التى ساعدت على توسيع معرفة المسلمين بجغرافية ديار الإسلام من ناحية ، وجغرافية تلك الأقطار غير الإسلامية من ناحية أخرى . ولم يكتب إلا القليل من الرحالة أخبار رحلاتهم فى كتب قائمـة بذاتهـا . أمـا غالبيتهم فقد اعتمدوا على ما جمعوه من مشاهدات وملاحظات فى كتابة مصنفاتهم . وقد سبق أن أشرنا إلى أن اتساع رقعة الإسلام دفع الحكام والقادة إلى طلب المزيد من المعلومات عن البلاد المغلوبة تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة ، ورغبة فى حسن إدارتها وحمايتها من الأعداء ومعرفة ثرواتها ومواردها ومدى ما يمكن أن تسهم به فى بيت مال المسلمين . ثم إن السعى للحج وانتقال طلاب العلم بحرية فى أرجاء العالم الإسلامى كان عاملا مساعداً فى زيادة المعرفة بجغرافية جملة بلاد أو بلد من البلاد . فالمقدسى (ق ٤ هـ = ١٠ م) يكتب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » عن جغرافية كل بلاد الإسلام ، بينما يوجه ابن سليم الأسوانى (ق ٤ هـ = ١٠ م) اهتمامـه إلى دراسـة بلاد النوبـة دون غيرهـا . ورحلـة ابن جبيـر (٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) وصفٌ حى لطريق الحج من المغرب العربى إلى مكة ، لا يخلو من إشارات جغرافية قيمة . ويمثل عبد اللطيف البغدادى ذلك العالم الذى ضرب فى جميع العلوم بسهم ، وتنقل فى أغلب بلاد الإسلام واستقر به المقام فى مصر لسنوات (فى أواخر القرن السادى الهجرى) . هذا النوع من الكتاب أصدق تمثيل ، ويعد ما كتبه فى وصف مصر فى كتاب « الإفادة والاعتبار » ... من أمتع ما كتب فى جغـرافية هذا القطـر خلال العصـور الوسطى ..

هذا ما كان من أمر رحلات وأسفار من كتبوا عن قطر من أقطار الإسلام أو عن بعضها أو كلها فى وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وغير المأهولة . أما من كتبوا عن بلاد خارج ديار الإسلام بعد أن قاموا بأسفار ورحلات برية وبحرية واسعة حبا فى المغامرة ، أو طلبا لمال أو معرفة ، فقد تركوا تراثا ضخما ومصنفات هامة بدأت برحلة سلام الترجمان إلى إقليم بحر قزوين خلال سنوات (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م) إلى رحلات ابن بطوطة الشهيرة فى القرن الثامن هـ (١٤ م) . وربما يتبادر إلى الذهن أن رحلات ابن بطوطة كانت ختام الرحلات الإسلامية ، فالواقع أن عربا وأتراكا واصلوا هذه الرحلات فى أوربا وآسيا ولكن على نطاق ضيق نوعا ما .

ولعل أفضل من كتب فى الجغرافية الإقليمية عن بلاد خارج دار الإسلام أبو الريحان البيرونى (ق الخامس هـ = ١١ م) والإدريسى (ق السادس هـ = ١٢ م) . فيعد كتاب البيرونى عن الهند أهم المؤلفات فى تاريخ الثقافة الجغرافية الإسلامية بل العالمية ، بينما يعتبر ما كتبه الإدريسى عن أوربا أفضل الكتابات العربية . وهنا يجب أن نقف وقفة قصيرة لنذكر بما سبق أن أشرنا إليه ، وهو أن ما عرفه الملاحون ورجال القبائل وجوابو الآفاق والرحالة من المعارف الجغرافية كان واقعيا وإن امتزج ببعض الخرافات والأساطير أحيانا . ولكنه أخذ يتناقص تدريجيا مع ما جاء فى تصانيف المتزمتين من الكتاب . فعلى سبيل المثال كان النواخذة وربابنة البحر يعرفون الكثير عن سواحل المحيط الهندى وجزره وخلجانه ورياحه وتياراته ومواقع موانيه كل ذلك موضح على خارطات ومصورات . ومع ذلك مضى أصحاب التصانيف الجغرافية فى التمسك بما قاله السلف مترسمين إلى حد كبير ما جاء فى الخريطة البطلمية المشوهة عن هذا المحيط . بل إن المقدسى (القرن الرابع الهجرى = ١٠ م) وهو جغرافى قدير علم من أحد ربابنة الوصف الحقيقى لسواحل جزيرة العرب من القلزم حتى رأس الخليج العربى ومع ذلك لم يحاول أن يسجلها فى كتابه « أحسن التقاسيم » تمسكا « بنظريات « الفلاسفة » التى سار عليها من سبقوه . وشبيه بذلك ما وقع فيه المسعودى (ق ٤ هـ = ١٠ م) فقد تحقق من الاختلاف بين أخبار النواخذة ومعارفهم عن البحر ، وما جاء فى الكتب ومع ذلك كان موقفه سلبيا .

ويمكن القول إن القرن الثالث للهجرة (٩ م) كان بداية اتصال التجار العرب والمسلمين من كل عنصر (مباشرة أو بالوساطة) بسكان أوربا الوسطى والشمالية وجماعات

الأتراك فى آسيا الوسطى وزنوج أفريقية فيا وراء الصحراء عن طريق البر ، وبسكان سواحل المحيط الهندى وجزره بحرا .

وتكشف كميات العملات العربية التى عثر عليها فى شمال أوربا ، وأيسلنده عن مدى نشاط العلاقات التجارية بين العرب وسكان هذه المناطق . ومع التجارة انتقلت القيم العربية الإسلامية إلى أوربا وشعوب أفريقية وآسيا ، فضلا عن عديد من الكلمات العربية فى مجال التجارة والملاحة العملية والفلك تكشف عن مدى رقى الثقافة الإسلامية وتفوقها فى ذلك الزمان . وفى المقابل زادت معرفة المسلمين بجغرافية هذه الأقطار وشعوبها خاصة وأن التاجر المسلم لم يجد غضاضة فى أن يجمع بين طلب المال وطلب المعرفة .

وفوق ذلك فإن أوربا لم تتطلع إلى ثروات أفريقية جنوبى الصحراء ، إلا بعد أن قرأت ما جاء فى كتاب البكرى عن أفريقية فى القرن الخامس للهجرة (١١ م) وازدادت طمعها فى هذه القارة وثرواتها بعد أن ألف أبو الحسن الوزان (ق العاشر هـ = ١٦ م) الذى عرف فى أوربا باسم ليون الأفريقى كتابه القيم عن أفريقية ، وضمنه أحدث ما تجمع لديه من معلومات عن قسم كبير من هذه القارة . وكان لظهور خارطة لأفريقية جنوبى الصحراء اعتمد صانعها اليهودى على ما جاء فى كتاب أبى الحسن الوزان الأثر المدوى فى أوربا لأنها أظهرت ما فى القارة من ثروات ومدن وأنهار .

بل لقد ظهر بين الكتاب الأفارقة المسلمين فى غربى أفريقية من أسهم فى رسم صورة واضحة عن جغرافية هذا الجزء من أفريقية وتاريخه نذكر منهم عبد الرحمن السعدى (ق ١١ هـ = ١٧ م) الذى ظهر فى مدينة تمبكتو عاصمة إمبراطورية مالى وكتب مصنفا عن تاريخ السودان .. ولقد كان انتشار العرب ومن ثم الدين الإسلامى واللغة العربية فى أفريقية جنوبى الصحراء إما عن طريق الهجرة السلمية أو التجارة (خاصة تجارة الذهب والنحاس والحديد والرقيق) أو عن طريق غزوات من بلاد المغرب العربى . وكوّن أخلافُ العربِ الممالكَ والإمارات التى اشتهرت بغناها وبأسها حتى قضى عليها الأوربيون الطامعون بعد صراع غير متكافئ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ودور العرب فى كشف مجاهل وسط أفريقية قبل مجئ الأوروبيين دور مشرف ، وإن كان سير الأحداث فيه غير مدون . ففى هذا الإقليم ظهر أفراد من العرب الخلص والمتزنجين اقتحموا مجاهله ، وبسطوا عليه نفوذهم ، وتحكموا فى تجارته ثم أذاع أحفادهم فيا بعد الذعر بين

الدخلاء من الأوربيين لا تسعدهم حكومة ولا تعضدهم جماعة . من هؤلاء سعيد بن جمعة وغيره من أهل التجارة والسياسة فى أوغندة ، والشريف ماجد ورفاقه من أهـل المال فى تنزانيا . ولكن أشهرهم جميعا كان (طُبوطب) الرجل الداهية العليم بكل شبر فى الجبال والغابات والبحيرات . ولكن نهايته كانت محتومة بعد أن دخـل فى صراع مع البلجيك فى الكنغو . من ذلك يتبين الدور الاستكشافى والتعميرى الرائد للعرب فى أفريقية وانعكاساته على الثقافة الإسلامية العامة .

وفى آسيا تجاوزت معرفة المسلمين بأقاليمها الجنوبية والشرقية معرفة الإغريق بصورة ملحوظة . فمعرفة الإغريق بالبلاد الواقعة شرقى بحر قزوين كانت ناقصة بشكل واضح . كما لم يكن لديهم علم بالساحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما عرف المسلمون سواحل آسيا إلى كوريا شمالا ، وربما عرفوا جزر اليابان أيضا . ولكن من المؤكد أنهم عرفوا طريق البر الذى يبلغ أعالى نهرى إرتيش وينسى .

وقصة المسلمين ونشاطهم فى المحيط الهندى ليست أقل إثارة من قصتهم فى أفريقية فقد خرجت سفنهم إليه منذ القرن الثانى الهجرى (٨ م) تحمل مهاجرين وتجارا ورحالة حتى تحول إلى محيط إسلامى تعيش على سواحله وجزره جاليات إسلامية ، تقيم فى مدن ورباطات ترفع راية الإسلام ، لعل أشهرها تلك التى سكنت جنوبى الصين وجاوة وماليزيا ، وبعض سواحل الهند وأفريقية الشرقية . وبفضل روح المخاطرة البحرية تمكن الملاحون المسلمون من إتقان فن الملاحة العملية وصار منهم « نواخذة » وربابنة انعقدت لهم شهرة اعترفت بها أوربا المسيحية فى بداية عصر الكشوف الجغرافية . نذكر منهم المعلم شيخ الربابنة أحمد بن ماجد صاحب كتاب « الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد » ودليل فاسكودى جاما فى الطريق إلى الهند .

وربما لم يكن المسلمون فى حاجة إلى الدوران حول أفريقية للوصول إلى بلاد التوابل فى الشرق البعيد لأنهم كانوا فى موقع يمكنهم من الوصول إليه بسهولة دون أن يضطروا إلى الالتفاف حول أفريقية كما فعل فاسكودى جاما أو عبور بحر الظلمات الغربى كما فعـل كريستوفر كولمبس . ومع ذلك فقد حاول نفر من أهل الأندلس والمغرب ومالى أن يكتشفوا ما وراء بحر الظلمات الغربى ربما فى محاولة منهم للدوران حول العالم . والإشارات فى الكتب العربية كثيرة عن مثل هذه المحاولات . فالإدريسى يكتب عن رحلة الفتية المغررين من أهل

لشبونة ، ولكنهم لم يذهبوا أبعد من جزر كنارى على ما يبدو. ويتحدث أبو الفدا (ق ٧ هـ هـ = ١٣ م) فى رحلات حول العالم ويخلص إلى القول بأن الأرض كروية . ويورد العمرى (ق ٨ هـ = ١٤ م) فى كتابه « مسالك الأبصار » قصة توحى بأن ملاحين مسلمين من غرب أفريقية ركبوا بحر الظلمات الغربى أيام حكم الامبراطور كان موسى (ق ٧ هـ = ١٣ م) امبراطور مالى ، وأنهم اتجهوا غربا فى ألفى سفينة ولكن واحدة منها لم تعد . على أن الأمر الذى لا يفوتنا تسجيله هو أنه بدخول البرتغال المحيط الهندى قبل أن ينتهى القرن التاسع للهجرة (١٥ م) طويت صفحة مجيدة فى تاريخ الملاحة الإسلامية بل والثقافة الإسلامية . وقد نبه إلى ذلك قطب الدين النهروالى صاحب « البرق اليانى » الذى أدرك ولكن بعد فوات الأوان مدى الخطر الداهم الذى حل بالعالم الشرقى بدخول « الفرتقال » كما أسماهم .

أنماط من الأدب الجغرافى الإسلامى :

شهد القرن الثانى للهجرة (٨ م) مولد بعض أنماط الأدب الجغرافى على يد لغويين فى الغالب . وقد اهتم اللغويون بجمع ما عرفه عرب الجاهلية عن الأنواء ، واستخلاص ما جاء فى شعرهم ونثرهم عن الأماكن المعروفة والظاهرات الجغرافية الأخرى فى الجزيرة العربية . كما كتب المؤرخون الجغرافيون فى نمط الفضائل ، وأشاروا إشارات سريعة غامضة أحيانا إلى ما يمكن أن نصفه بالجغرافية الوصفية خدمة للإدارة وتعريفا بالأنشطة الاقتصادية بالدولة . أما حديث الرحلة فيتميز بالخيال الجامح .

وقبل أن ينتهى القرن كانت الجغرافية الرياضية قد بدأت تظهر وهى أساسا جغرافية منقولة عن التراث اليونانى - كما سبق أن ألمحنا - ثم أخذت تتطور تحت رعاية العباسيين فى بغداد . وهكذا ظهرت للعرب جغرافيتهم الرياضية ومصنفاتهم الفلكية (الزيجات) منذ القرن الثالث للهجرة (٩ م)[٢] . ومن ناحية أخرى أخذت المادة الجغرافية الوصفية فى النمو ولو بشكل بطىء لتظهر فى كتب الأنواء التى ألفها اللغويون ، وضمنوها صنوف الملاحظات عن الطقس والظواهر الطبيعية الأخرى ، مصحوبة بتعليقات لغوية وغير لغوية . ومن أشهر كتب الأنواء فى القرن الثالث للهجرة كتاب الصفات « وهو موسوعة كتبها النضر ابن شميل » الذى قضى معظم حياته فى خراسان عن الحياة البدوية . ومن أسف أنها لم

تصلنا وإن كان قد نقل عنها المتأخرون . وكما اهتم اللغويون بالأوصاف الجغرافية العامة ، فقد وجهوا اهتمامهم إلى ما يمكن أن نسميه بالجغرافية الإقليمية ، ولكن فى إطار محدود هو إطار الجزيرة العربية فى الغالب . ولعل أشهر من كتب فى هذا المجال هو المؤرخ اللغوى هشام الكلبى (ت ٢٠٦ هـ = ٨٢٠ م) الذى ألف عشرة كتب فى الجغرافية كما يذكر ابن النديم (ق ٤ هـ = ١٠ م) أفاد منها من جاءوا بعده خاصة الإدريسى . واشتهر فى هذا المجال أيضا الأصمعى (ت ١٢٦ هـ = ٨٣١ م) صاحب كتاب « جزيرة العرب » الذى رجع إليه ياقوت كثيرا عند كتابته معجمه الشهير .

وهكذا بدأت أنماط من الأدب الجغرافى فى الظهور فى اوائل القرن الثالث للهجرة لم تلبث أن صارت لها الغلبة فى القرن التالى ، من تلك نذكر الجغرافية العامة والتاريخ الطبوغرافى للمدن والجغرافية الإقليمية المنهجية والكوزموغرافية مع ذكر العجائب . وهى كلهـا وريثـة لنمطى الفضائل والأنواء . كذلك لا ننسى فى هذا المقام تلك المعلومات التى تجمعت عن طريق الرحلة والسفر وحوتها كتب لا تنتمى إلى فن معين .

وممن أسهموا بكتاباتهم فى الجغرافية العامة فى القرن الثالث للهجرة على سبيل المثال لا الحصر : ابن خرداذبة الذى صنف كتاب « المسالك والممالك » ضمنه معلومات عن طرق التجارة ، خاصة بين أوربا والشرق ، والمسافات بين المدن وخراج أقاليم الدولة . واليعقوبى معاصر ابن خرداذبة ومؤلف كتاب « البلدان » يولي هو الآخر عناية بالخراج ولكنه يبدى اهتماما بالنواحى الطبوغرافية كذلك . إلى جانب هذه المصنفات ذات الصبغة الجغرافية العامة ظهرت فى هذا القرن أيضا أشكال من المعارف الجغرافية الإقليمية مختلطة بكثير من المواد التاريخية والأسطورية . من بين هذه المعارف ما جاء فى مصنفات تواريخ المدن ، فمقدماتها أوصاف طبوغرافية تليها سير من عاش فيها من المشاهـير وإشـارات إلى أعمالهـم نذكر من هذه المصنفات كمثال « تاريخ مكة » للفاكهي (ت ٢٧٢ - ٨٨٥ م) ولقـد اكتسـب الأدب الجغرافى الطبوغرافى هذا انتشارا واسعا خاصة فى مصر بدأ « بفتوح مصر » لابن عبد الحكم ، وبلغ أوجه بظهور الخطط المقريزية فى القرن التاسع للهجرة (١٥ م) وهى أساسا ضرب من ضروب الجغرافية التاريخية .

ولقد وجدت الجغرافية الإقليمية طريقها إلى المغرب . ويعد المؤرخ الجغرافى الكبير أحمد ابن الرازى (ت٣٤٤ هـ ـ ٩٩٥ م) أول من كتب فيها ، وتشير جميع المصادر إلى أنه وصع

مؤلفا كبيرا فى طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى ويقال : إنه وضع أيضا مصنفا خاصا فى وصف مدينة قرطبة .

ولابد لنا أن نذكر أنه من بين المجموعة الضخمة من المصنفات فى القرن الرابع للهجرة (١٠ م) كتاب فريد ألفه الهمداني وأسماه « صفة جزيرة العرب » ويعتبره اشبرنجر Sprenger هو وكتاب المقدسي من أبرز ماأنتجه العرب فى الجغرافية وأعظمه قيمة. ولم يكن الهمداني مؤرخا جغرافيا بل لغويا أثريا استطاع بكل مقدرة أن يفك رموز الكتابة العربية القديمة فى جنوب الجزيرة العربية . بيد أن أهم ما تميز به القرن الرابع الهجرى هو ظهور المدرسة الجغرافية السلفية (الكلاسيكية) فى المشرق العربى . ولقد أثرت هذه المدرسة فى علم الجغرافية ، بما انتجته فى الجغرافية الإقليمية من مؤلفات توضحها خارطات مميزة يطلق عليها فى مجموعها أطلس الإسلام . نذكر من رواد هذه المدرسة فى العراق والشام أبا زيد البلخى صاحب كتاب « صورة الأقاليم » وهو عبارة عن أطلس تصحبه بعض التوضيحات . والإصطخرى مؤلف كتاب « المسالك والممالك » . والمقدسى مؤلف كتاب « أحسن التقاسيم » فى معرفة الأقاليم ، والذى سبق أن أشرنا إلى إعجاب شبرنجر بغزارة علمه وصدقه ، ومع ذلك فمن وجهة نظر شخصية نرى أن المقدسى عابه تعسفه فى نقد من سبقوه وعدم تحليه بتواضع العلماء وتمسكه بنظريات السلف خاصة فيما يتصل بمركز الأرض من المجموعة الشمسية وشكل المحيط الهندى شبه المقفل .

ويشتمل أطلس الإسلام على ٢١ خارطة مرتبة فى نظام لا يتغير : يبدأ بخارطة مستديرة للعالم ، تليها خارطات لأقاليم الإسلام فى الشرق والغرب . وتدل الخرائط على معرفة أدق بالحقائق الجغرافية مما كان عليه الحال فى أوربا فى ذلك العهد ، كما تكشف عن تطور فى الفن الخارطى العربى . وكما أشرنا فإن المادة الجغرافية فى مصنفات المدرسة السلفية تلك تشرحها وتوضحها هذه الخارطات كما أن المادة نفسها خضعت لمنهج صارم ومحدد . فيبدأ وصف كل إقليم بالكلام على المدن والأنهار فالجبال فالسكان ، ويعقب ذلك وصف الطرق والمواصلات . وربما كان هذا الترتيب ملائما لضم أية معلومات جديدة مستقاة من الوثائق الرسمية أو أقوال الرحالين أحيانا .

إلى جانب مصنفات المدرسة الجغرافية السلفية تميز هذا القرن برسائل إخوان الصفا فى بغداد . وعلى الرغم من أنها لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالجغرافية إلا أنها لا تخلو من مفاهيم

جغرافية تجاوزت عصرها . مثال ذلك القول بأن ارتفاع حرارة الغلاف الجوى هو نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض ، وأنه بمرور الزمان تصبح السهول بحارا ، وتتحول البحار إلى سهول وجبال وتتحول الأراضي المزروعة إلى صحارى والصحارى إلى أرض مزروعة . ومن الجدير بالذكر أن البيرونى عالم الإسلام الشهير أثبت هذه المفاهيم في القرن الأول بأدلة محسوسة ، وإذا ما غضضنا النظر عما ظهر من تصانيف فى مصر والشام وما تركه جغرافيون رحالة فى بغداد ، وما ألفه فلكيون في بلاد الشرق بعامة فإن هذا القرن يفخر بمؤرخ جغرافي رحالة هو أبو الحسن المسعودى الذى أثرى الثقافة الإسلامية عامة والجغرافية خاصة بما تركه من أعمال ، لعل أهمها كتاب « مروج الذهب » ، وكتاب « التنبيه والإشراف » . ويضم كتاب « مروج الذهب » معلومات جغرافية قيمة ، ففيه موازنة بين آراء الأقدمين من الفلاسفة الإغريق والهنود فيما يتصل بنشأة العالم وفيه ، ورأى يقول بامتداد أفريقية إلى الجنوب من خط الاستواء وبوجود أرض مجهولة تقع إلى الجنوب منها ، ويعرض المسعودى بعد ذلك لأقاليم العالم المعمور مشيراً إلى ما بها من سكان وما يحيط بها من بحار .. أما كتاب « التنبيه والإشراف » فهو نظرات فى التاريخ والجغرافية والفلسفة . لكل ذلك فإن القرن الرابع للهجرة (١٠ م) يعد بحق القرن الذهبى للثقافة الجغرافية بل والإسلامية بعامة .

وفى القرن الخامس نجد أن أبا الريحان البيرونى من أعلام من كتبوا فيه ، في موضوعات ومسائل جغرافية على الرغم من أنه لم يكن جغرافيا كما سبق أن ألمحنا . ففي تضاعيف مصنفاته الشيء الكثير عن الجغرافيا العامة والإقليمية والرياضية ، كذلك اشتغل بعمل الخارطات وله في ذلك مبتكرات فى كيفية نقل صور الأرض الكروية إلى الورق المسطح ، أو ما يعبر عنه اليوم بمساقط الخارطات . ويحمد له وضع منهج متكامل لدراسة جغرافية الهند الإقليمية . وتعد هذه الدراسة فريدة فى بابها لا مثيل لها فى الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء فى الشرق أو الغرب . وهذا الكتاب يعرض بشيء كثير من الدقة للتضاريس والمناخ والأنهار والنبات والحيوان والمواصلات والطرق والمسافات والتجارة والسلع والمدن . وهو فى عرْضه هذا لا يختلف كثيرا عما يتبعه الجغرافيون المحدثون . ومن أسف أن الأندلس لم يعرف مؤلفات البيرونى جيدا ، ولذا ظلت مجهولة فى أوربا لفترة طويلة . ومن طريف ملاحظات البيرونى غير الجغرافية وإن كانت تمس الثقافة الإسلامية تأكيده على مدى طواعية اللغة

العربية فى الكتابة العلمية مقارنة باللغة الفارسية . وفى هذا رد مناسب على من ينكرون ذلك هذه الأيام .

وفى الوقت الذى اندثرت فيه فى المشرق أنماط كالمعاجم الجغرافية اللغوية كان الأدب الجغرافى فى المغرب العربى قبل القرن الخامس للهجرة محليا باستثناء بعض أعمال تركها الرازى فى الجغرافية الإقليمية . ولكن منذ منتصف هذا القرن أخذت مصنفات جغرافية تظهر فى المغرب العربى وتظفر بمكانة خاصة لعل أهمها كتاب « المسالك والممالك » الذى صنفه أبو عبد الله البكرى أكبر جغرافى أخرجته الأندلس . ولا يمكن أن نترك الغرب الإسلامى فى القرن السادس للهجرة (١٢ م) بغير ذكر الشريف الإدريسى ناقل الثقافة الجغرافية العربية إلى أوربا المسيحية ، وابن جبير ذلك الرحالة الأندلسى الذى زار مصر والجزيرة العربية والعراق والشام وصقلية فى رحلة خرج فيها حاجا ، وترك ملاحظات قيمة عن المدن والمشاهد والقبور والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لبعض تلك البلاد التى زارها . ويعد كتاب رحلة ابن جبير قمة فيما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى بعامة . ولقد عرفت أوربا المسيحية صورة العالم الإسلامى وجغرافيته ، وكذلك صورة العالم المعروف إذ ذاك وجغرافيته من خلال كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه الإدريسى عندما عمل فى بلاط الملك روجر الثانى فى صقلية . وإذا كان الإدريسى لا يمكن أن يكون فى مصاف علماء الإسلام المبرزين إلا أن كتابه الذى قدمه لملك مسيحى يكشف عن مدى تفوق الثقافة الجغرافية الإسلامية فى ذلك العصر مقارنة بالثقافة الأوربية فى هذا المجال . ويروى مؤرخو الحضارة أن أوربا تقبلت هذا الكتاب بما يستحقه من تقدير وإكبار وظل من أكثر كتب الإسلام ذيوعا فيها لعدة قرون .

وإذا ما رجعنا إلى المشرق العربي مرة أخرى نجد أن مصر لم تخرج فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١ و ١٢ م) مصنفات اكتسبت شهرة فى العالم الإسلامى إلا أنها من ناحية أخرى حافظت كعهدها على إنتاج تلك المراجع الرسمية فى الإحصاء والإدارة نذكر منها على سبيل المثال كتاب ابن مماتي « قوانين الدواوين » . كذلك استقبلت مصر فى القرن السادس للهجرة العالم العراقي الشهير عبد اللطيف البغدادى ، وابن جبير الرحالة الأندلسي ، وقد سبقت الإشارة إلى ما جاء فى أثريهما . أما فى الأقطار الإسلامية إلى الشرق من مصر فإننا نجد أنها شهدت فى القرن السادس للهجرة (١٢ م) انتاجا غزيرا فى

المعاجم ، وأدب الرحلة ومصنفات فى الجغرافية الإقليمية ، ولكن أحدا منها لم يحتل منزلة هامة . في هذا القرن أيضا بدأ الأدب الجغرافي الفارسي يظهر بعض الحيوية . ومن الفرس الذين كتبوا بالفارسية ولكن وفقا للنهج العربي واعتمادا على مراجع عربية أو تقليدا لها ، ابن البلخى الذى ألف « فارسنامه » وفيه وصف تاريخي وجغرافي لولاية فارس ، وأحمد الطوسي مؤلف كتاب باللغة الفارسية في الكوزموغرافية .. وعنوانه المترجم « عجائب المخلوقات » وهو شبيه بمؤلف القزويني الذى ظهر بعد ذلك بنحو قرن من الزمان . وقد نما هذا الأدب الجغرافي فى القرن الثالث عشر ويمثله مؤلف محمد عوني الذى ترجمه بنفسه إلى اللغة العربية تحت اسم « جامع الحكايات ولوامع الروايات » ويعد مصنف عوني هذا أهم مصنف باللغة الفارسية فى علم الجغرافية .

على أن الأمر الذى يجب أن نذكره باعتزاز هو ظهور جغرافية دينية عقب سقوط القدس فى أيدي الصليبيين قبل أن ينتهى القرن الخامس الهجرى (عام ١٠٩٩ م) ارتبطت ارتباطا وثيقا بنمو حركة تحرير القدس ، وأرض فلسطين من أيدى الغاصبين . ولقد اشترك فى التعريف ببلاد الشام ومنها فلسطين ، والحض على تحرير مدينة بيت المقدس والدعوة إلى زيارتها بعد تحريرها مؤرخون جغرافيون بل وفقهاء . ومن الدلائل الثابتة على أن الأدب الجغرافي من هذا النوع كان يرتبط ارتباطا فعليا ومصيريا بالدعوة التحريرية التى لم تقف عند حد القول فقط ؛ بل خرجت أحيانا إلى حد الفعل - خروج عالم من علماء دمشق هو المؤرخ الجغرافى سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) على رأس حملة لمحاربة الفرنجة فى نابلس . وهكذا أسهمت المفاهيم الجغرافية فى خدمة الإسلام والحفاظ على مقدساته حتى تحررت القدس نهائيا على يد صلاح الدين الأيوبى بعد انتصاره فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ م .

وقبل سقوط بغداد بنحو قرن من الزمان كان معجم ياقوت قد عرفه المثقفون فى المشرق . وأهمية هذا المعجم الثقافية تتجاوز أهدافه الجغرافية ذلك أنه يعكس الوحدة المثالية للعالم الإسلامى والثقافة الإسلامية . وأما من حيث قيمته الجغرافية فهو أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى فى العصور الوسطى . فهو سفر تبلغ عدد صفحاته ٣٨٩٤ صفحة زاخرة بالمعارف الجغرافية التى اعتمد فى جمعها على الملاحظة والخبرة الشخصية والاطلاع الواسع فقد رجع إلى عدد كبير من المصادر بعضها غير معروف لنا .

ولم تمس وطأة الغزو المغولى جميع البلاد الإسلامية فى النصف الأول من القرن السابع

للهجرة ، لذلك استمرت أنماط من الأدب الجغرافى تنمو وتترعرع فى البلاد التى سلمت منه ، أما تلك التى نكبت بالغزو خاصة بعد سقوط بغداد (٦٥٣ هـ = ١٢٥٨ م) . فقد انتكست فيها الحياة الثقافية ، وانتقلت مراكز النشاط العلمى والأدبى إلى الشام ومصر . ولا يعنى ذلك أن التأليف الجغرافى قد اختفى من المشرق كله ، فقد ظهرت كتب جغرافية باللغة الفارسية كما سبق أن أشرنا ، وظهرت كوزموغرافية القزوينى (ت ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) التى بلغت الأوج فى نمط العجائب وقد أسماها « عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات » وهو تحتوى على كثير من المعارف الفلكية والجغرافية حول السماء والأرض والمخلوقات جميعها ـ كما يقول ـ بطريق السمع والبصر والفكر والنظر . ومما يجدر ذكره أنه بينما كان القزوينى أهم الأسماء فى جغرافية العجائب فى أواخر القرن السابع للهجرة كان ابن سعيد فى نفس الوقت هو أهم الأسماء فى أدب الرحلة فى المغرب العربى . وبالمقارنة تتضاءل أسماء أولئك الرحالة الذين اكتسب كل منهم أهمية معينة فى محيطه الخاص مثل العبدرى وابن العبرى . من هذا يمكن أن نخلص إلى القول بأن الانتاج الجغرافى لم يتناقص فى كمه خلال القرن السابع للهجرة ولكننا مع ذلك لا نلمس فيه الإبداع الذى رأيناه فى القرن الرابع الهجرى وإن كان بلغ القمة فى نمط العجائب والغرائب كما ألمحنا .

بعد الغزو المغولى نشط التأليف الجغرافى باللغة الفارسية ، بل ظهرت مصنفات محلية باللغة التركية . وفى الوقت الذى ظهرت فيه الموسوعات الكبرى وكتب الخطط فى مصر والشام (ق ٨ هـ = ١٤ م) كان العراق قد توقف عن أن يلعب دوراً ذا بال فى مجال التأليف الجغرافى . وينطبق هذا القول إلى حد ما على الأندلس ، بسبب انشغال المسلمين فى غرناطة بحرب غير متكافئة ضد الأسبان فى سبيل البقاء . ومع ذلك فإن أدب الرحلة فى المغرب العربى قاوم عوامل الضعف وإن كان اهتمام المغاربة تجاوز اهتمام الأندلسيين ؛ فقد ظهر من بينهم رحالة الإسلام الأشهر ابن بطوطة الذى قدم لنا صورة صادقة لآراء وتصورات مواطن مسلم من أهل القرن الثامن الهجرى . وقد وصفه ابن جُزَىّ الكاتب الذى دون الرحلة بقوله : « ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد » ولا يسعنا أن نترك المغرب العربى فى هذا القرن دون الإشارة إلى ابن خلدون رغم أنه لم يكن جغرافيا ، ففى مقدمته أفكار جديدة حول العلاقة بين البيئة والإنسان وجغرافية العمران والجغرافيا الاقتصادية لم تعرف أوربا مثلها إلا بعد مضى عدة قرون .

وقد كانت الموسوعات علامة من العلامات المميزة للأدب الجغرافى المصرى فى هذا القرن وضعها كتاب الدواوين فى مصر المملوكية ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر شهاب الدين النويرى (ت ٧٣١ = ١٣٣٢ م) صاحب موسوعة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وهى موسوعة ضخمة تتألف من ٩٠٠٠ صفحة ، تتضمن تلخيصا لجميع العلوم الاجتماعية ومنها الجغرافية . ولذا فهى تعد من أهم المصادر التى نرجع إليها إذا ما أردنا التعرف على ثقافة العصر . وقد استمر نمط الموسوعات فى ازدهار خلال القرن التاسع للهجرة (١٥ م) فى مصر ولكن لم يكن أقل منه ازدهارا الأدب الجغرافى الإدارى الذى تمثل خير تمثيل فى كتاب ابن الجيعان « التحفة السنية فى أخبار الديار المصرية » ونمط الخطط الذى مثل مزيجا من التاريخ الطبوغرافى والجغرافية التاريخية بلغ ذروته فى الخطط المقريزية .

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عما أسهمت به أقطار الإسلام فى محيط الأدب الجغرافى أن نذكر أن بلاد الشام أنجبت فى القرن الثامن الهجرى عالمين لا يمكن تجاهلهما : الأول هو شمس الدين الدمشقى (ت ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ م) الذى ترك لنا « تحفة الدهر فى عجائب البر والبحر » . وهى موسوعة على نسق موسوعة القزوينى ولكنها تعد مصدراً أساسيا بالنسبة لجغرافية الشام وتاريخه . والعالم الثانى هو أبو الفدا معاصر الدمشقى ومواطنه . وهو فضلا عن إسهامه فى مجال الجغرافية بكتاب اسماه « تقويم البلدان » كان أديبا وشاعرا وقائداً عسكريا . وإذا كان الكتاب تنقصه الأصالة فإن طريقة تبويب المادة الجغرافية فى إطار المناطق موضع الدراسة لا تخلو من أهمية .

وبنهاية القرن التاسع الهجرى (١٥ م) كانت الكتابات الجغرافية العربية قد فقدت بريقها وطاقتها الخلاقة بسبب ما أصاب الأمة العربية من ضعف انعكس على ثقافتها ، فقد صار النقل عن السلف دون تمحيص هو القاعدة . ولكن علينا أن نفرق هنا بين نتائج الخبرة الشخصية التى اكتسبها ملاحون من شرقى أفريقية وجنوب الجزيرة العربية ومن بلاد البحر المتوسط الشرقى وبين المعارف النظرية التى تضمنتها أغلب مصنفات ذلك القرن والقرون التالية . فبينما كان النواخذة أو الربابنة على علم دقيق بالسواحل والطرق البحرية والتيارات المائية والموانى وصنوف السلع التى تحملها السفن ذهابا وإيابا كان الكتاب يرددون ما قاله السلف على الرغم من تغير الزمان والأحوال .

و المتصفح لكتاب « الفوايد » لابن ماجد الربان العربى ، وكتاب « محيط » للملاح

التركي والأديب علي ريس سيكتشف مبلغ تطور الجغرافية الملاحية ، وفن الملاحة من واقع الخبرة والتجربة الشخصية فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين (١٥ و ١٦ م) ، وقد تنبهت أوربا إلى قيمة الخبرة الشخصية فى الكتابة الجغرافية فأخذت تنبذ الأفكار والنظريات القديمة بعد أن تأكدت من خطئها وراحت تستفيد من تجارب الملاحين المسلمين فى المحيط الهندى خاصة ، ومن تجارب الرحالة والمستكشفين فى جهات الأرض المختلفة . هكذا سارت أوربا فى الطريق السليم نحو وضع جغرافية حديثة . بينما اكتفى المسلمون بمن فيهم الأتراك العثمانيون بترديد ما ذكره السلف . وكانت النتيجة أن صاروا طلبة فى مدرسة الجغرافية الغربية وضاقت معرفتهم بالعالم ، وانقطعوا تدريجيا عن مجرى الأحداث العالمية خاصة بعد أن تعرضت أكثر أقطارهم للسيطرة الأوربية فى القرن الثالث عشر هـ (١٩ م) وأوائل الرابع عشر (٢٠ م) .

وبعد ، فهذه هى مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية فى الزمان والمكان ودورها أخذا وعطاء فى سبيل حياة أخصب وعلم أنفع . وهذا ما بلغته يوما من تألق وأصالة وما آلت إليه من ضعف بعد أن فقدت القدرة على الخلق والعطاء والتساؤل الذى قد يخطر ببالنا الآن هو : أيحفزنا ذلك بعد أن عرفنا الداء إلى استعادة دورنا الرائد فى ميدان الدراسات الجغرافية إسهاما فى خلق ثقافة إسلامية تشع بنورها على العالم ؟ .

ندعو الله أن يساعدنا على خلق الحاضر بما اكتسبناه من معرفة بالماضى إنه سميع مجيب .

عبد الفتاح وهيبة

ooo

الحواشى

(١) الحج : ٤٦

(٢) نذكر من الفلكيين : فى العراق البتانى (ق ٣ هـ = ٩ م) وفى مصر ابن يونس (ت ٤ هـ = ١٠ م) وفى الأندلس الزرقالى (ق ٥ هـ = ١١ م) وفى إيران نصير الدين الطوسى (ق ٧ هـ = ١٣ م) .

ooo

مصــــادر عربيــــة

١ ـ ابن إياس ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ م

٢ ـ ابن بطوطة ـ تحفة النظار فى عجائب الأمصار ، بيروت ١٩٢٧ .

٣ ـ ابن جبير ـ رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤ - ابن حوقل ـ المسالك والممالك - بيروت ١٩٧٠ .

٥ - ابن خرداذبه ـ كتاب المسالك والممالك - ليدن ١٨٨٩ .

٦ - ابن خلدون ـ المقدمة ـ بيروت ١٩٠٠ .

٧ - ابن عبد الحكم - فتوح مصر - القاهرة ١٩١٤ .

٨ - ابن الفقيه ـ كتاب البلدان ـ ليدن ١٨٨٣ .

٩ - ابن مماتى ـ قوانين الدواوين ـ القاهرة ١٩٤٣ .

١٠ - ابو الفدا ـ تقويم البلدان ـ باريس ١٨٤٠ .

١١ - أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ج ٣ ـ القاهرة ١٩٢٩ .

١٢ ـ الجاحظ ـ « التبصر بالتجارة » تحقيق حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ١٩٣٢ .

١٣ ـ خسرو (ناصر سفرنامه) ـ ترجمة يحيى الخشاب ـ القاهرة

١٤ ـ إخوان الصفا ـ رسائل إخوان الصفا ـ بمباى ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ .

١٥ ـ البغدادى (عبد اللطيف) ـ الإفادة والاعتبار ـ باريس ١٨١٠ .

١٦ ـ البكرى (عبد الله) ـ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ـ باريس ١٩١١ .

١٧ ـ البيرونى ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة لندن ١٨٨٧ .

١٨ ـ الإدريسى ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن ١٨٦٦ ـ ١٨٩٤ .

١٩ ـ الدمشقى ـ نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ـ سنت بطرس برج .

٢٠ ـ الإصطخرى ـ كتاب مسالك الممالك ـ ليدن ١٨٧٠ .

٢١ ـ العمرى ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ـ القاهرة ١٩٢٥ .

٢٢ ـ المسعودى ـ مروج الذهب ـ باريس ١٩٢٤ .

٢٣ ـ المسعودى ـ التنبيه والإشراف ـ ليدن ١٨٩٣.
٢٤ ـ المقريزى ـ الخطط ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧.
٢٥ ـ القزوينى ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ـ جونتجن ١٨٤٩
٢٦ ـ قدامة (أبو الفرج) ـ كتاب الخراج ـ ليدن ١٨٩١.
٢٧ ـ القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ الجزء الثالث القاهرة ١٩٧٨.
٢٨ ـ المقدسي ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ليدن ١٩٠٦.
٢٩ ـ النويرى ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ القاهرة ١٩٥٣.
٣٠ ـ ياقوت ـ معجم البلدان (١٢ جزءا) ـ القاهرة ١٩٠٦.
٣١ ـ اليعقوبى ـ كتاب البلدان ـ ليدن ١٩٠٥.

مراجع باللغـــة العربيـــة

١ ـ إبراهيم الإبياري ـ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري تراث الإنسانية . المجلد الرابع ص ٣٣٧ ـ ٣٥١.

٢ ـ أنور عبد العليم ـ ابن ماجد الملاح ـ سلسلة أعلام العرب ـ القاهرة ١٩٦٧.

٣ ـ الدومييلي ـ العلم عند العرب ـ نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى ـ القاهرة ١٩٦٢.

٤ ـ باذل رافدسن ـ أفريقية تحت أضواء جديدة ـ ترجمة جمال أحمد ، بيروت ١٩٤٧.

٥ ـ حسين فوزى ـ حديث السندباد القديم ـ القاهرة ١٩٤٧.

٦ ـ حسين فو زى ـ المعارف الملاحية العربية فى العصور الوسطى من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٣١ ـ ٣٥٣.

٧ ـ حسين مؤنس ـ الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٥٩ ـ ١٩٦٠) .

٨ ـ جمال موسى بدر ، نهر النيل ـ تاريخ الفكر الجغرافى ـ مجلة المجلة ، العدد العاشر اكتوبر سنة ١٩٥٧.

٩ ـ جورجى زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ، ٥ أجزاء القاهرة ١٩٥٨.

١٠ ـ جوستاف جرينباوم ـ حضارة الإسلام ـ ترجمه إلى العربية عبد العزيز جاويد وراجعه عبد الحميد العبادى ـ القاهرة ١٩٦٥.

١١ ـ زكى محمد حسن ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى القاهرة ١٩٤٩.

١٢ ـ عباس محمود العقاد ـ أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٦٠.

١٣ ـ عبد الحليم منتصر ، فى العلوم الطبيعية عن كتاب العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، القاهرة ١٩٧٠ص ٣٣١ ـ ٣٥٣ .

١٤ ـ عبد الحليم منتصر ـ عجائب المخلوقات للقزوينى ـ تراث الإنسانية ـ المجلد الأول للجزء التاسع .

١٥ ـ عبد الفتاح وهيبة ـ جغرافية العرب فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٥.

١٦ ـ عبد العزيز كامل ـ جغرافية الإسلام فى أفريقية ـ القاهرة ١٩٦٧.

١٧ ـ عبد الواحد وافى ـ « مقدمة ابن خلدون » تراث الإنسانية مجلد (سنة ١٩٦٣ ص ٢٨٦ ـ ٣٠٦) .

١٨ ـ على حسنى الخربوطلى ـ « مروج الذهب للمسعودى » ـ تراث الإنسانية العدد الرابع ١٩٦٦ ـ ص ٢٥٣ ـ ٢٦٩ .

١٩ ـ كراتشكوفسكى تاريخ الأدب الجغرافى العربى ـ جزءان ـ جامعة الدول العربية ، القاهرة ـ ترجمه من الروسية إلى العربية صلاح الدين هاشم ـ ١٩٦٥.

٢٠ ـ محمد كامل حسين : « فى الطب والأقرباذين » من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية القاهرة ١٩٧٠ ـ ص ٢٦٧ ـ ٢٧١ .

٢١ ـ محمد محمود الصياد ـ فى الجغرافيا من كتاب أثر العرب فى النهضة الأوربية ص ٣٠٩ ـ ٣٢٧ .

٢٢ ـ نفيس أحمد ـ جهود المسلمين فى الجغرافيا ـ ترجمة فتحى عثمان/ القاهرة .

٢٣ ـ نيقولا زيادة ـ الرحالة العرب ـ القاهرة ١٩٥٦.

مراجع بلغات أجنبية

1- Beaeley, C, R : The Dawn of Modern Geography. 3 Vols. N. Y. 1949
2- De la Ronciere : Charles : Le Decouverte de L' Afrique au Moyen Age, LeCaire 1925 .
3- Ferrand, G : Relations des Voyages et texes geographiques Arabes, Persans et Turcs relatif au L' Externe- Orient du Vill su XVIII , Paris 1913 - 1914.
4- Gibb, H : Ibn Batutta, Travels in Asia & Africa, London, 1929 .
5- Heyd, W : Histoire du Levant au Moyen Ages. 2 Vols, Leipzig et Paris 1825 -
6- Hitti, Ph. : History, of the Arabs, London, 1937.
7- Ibn Magid : Instrucfions Nautiqes et Roritiers Arades des XV et XVI Siecies, et Ferrand, Paris 1921.
8- Krsmers, J. H : Geography and Commerce - The Legacy of Islam ed. by Sir Thomas Arnold and Alferd Guillaume, Oxford, 1930, p. 79 - 107 .
9- Lelewel, J. : Geographie du moyen Age. I- II, Bruxelles, 1852 .
10- Kimble, T. : Geography in the Middle Ages, London, 1938 .
11- Khosrau, N : Sefer Namsh - Paris 1881 .
12- Marco Polo : The Book of Sir Marco Polo, ed. by Sir H. Yule, London1903 .
13- Newton, A (Ed) : Travel and Travellers in the Middle Ages, London 1949 .
14- Reinaud, M : Geographie d' Aboulfeda, T. I, Paris, 1948 .
15- Sarton, G : Introduction to the History of Science Baltimore, 1946 .
16- Schoy, G : The Geography of the Moslems of the Middle Ages, Geog. Rev. 14, 1924, pp. 227- 269 .
17- Wright, J : Geographical Lore of the Crusades, N. Y. , 1924, Chap. ii .
18- Youssef Kamal : Monumenta GeographicasAfricas et Aegypti T. III, epoque Arabe.





أثر التجارة والرحلة فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب

دكتور / محمد رشيد الفيل



تمثل الملاحظة الشخصية أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية إلى جانب المصادر الأخرى ، كالاعتماد على تراث السلف والحساب الرياضى والرصد الفلكى .. الخ ، وكنتيجة لاتساع الدولة الإسلامية غدت المعطيات الجغرافية لدى العرب أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من اليونان والرومان[1] . ولقد امتدت معرفتهم الجغرافية إلى جزر اليابان (واو واق) وكوريا (سيلا أو شيلا) شرقا ومعظم آسيا بما فيها كتلة انجارا وجزر الهند الشرقية . أما فى أفريقيا فقد عرفوا جيدا شمال أفريقيا حتى خط عرض ١٠° شمالا ، كما تاجروا مع الساحل الشرقى لأفريقيا حتى موزمبيق (سفالة) ، بل وصلوا حتى الناتال جنوبا ويعتقد البعض أنهم داروا حول رأس الرجاء الصالح منذ القرن العاشر الميلادى[٢] . ولقد أرفق الأميرال البرتغالى الفونسو البوكيرك فى تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢ خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة موضحاً عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج العربى وجزائر الملوك ومسالك ملاحية إلى الصين وجزر فرموزا[٣] كما عرفوا جزر كنارى (الخالدات والسعادات) وفى أوروبا عرفوا جنوب أوروبا ووسطها كما عرفوا بريطانية وإيرلندة والدول الإسكندنافية ومعظم روسيا . ويعتقد البعض أنهم عرفوا أمريكا قبل كريستوفر كولمبس بخمسة قرون على الأقل[٤] .

وهنالك عوامل كثيرة ساعدت على ظهور وتقدم الأدب الجغرافى عند العرب وهى :

١ ـ اتساع أراضى الخلافة الإسلامية فقد امتدت الفتوحات الإسلامية من حدود الصين الغربية شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا وجميع جزر البحر المتوسط وأسبانيا .. الخ .

٢ ـ الدين الإسلامى (الحج) .

٣ ـ الرحلة فى طلب العلم .

٤ ـ التجـــارة .

٥ ـ استعداد العرب الفطرى وواقع حياتهم فى جزيرتهم .

٦ ـ حب الاستطلاع والرحلات من أجل البحث الجغرافى وغيره من العلوم .

٧ ـ الاتصال بالثقافات الأجنبية (عامل الترجمة) .

فى الأعوام الأولى للخلافة عندما بدأت الفتوحات الإسلامية ، تلك الفتوحات التى

حملت العرب إلى حدود الصين شرقا والمحيط الأطلسى غربا هذا من غير شك ساعد على اتساع أفقهم الجغرافى نتيجة للملاحظة المباشرة والتجربة الواقعية ، ولقد تجمعت لديهم معلومات جغرافية قيمة ظلت مدة طويلة مقتصرة على الأوساط العسكرية والإدارية ومن ثم خرجت إلى الوسط العلمى . وقد تطلبت الدولة معرفة الطرق والمسافات ومناطق الاستيطان والإمكانيات الاقتصادية .. الخ . وكانت المعرفة الجغرافية مقتصرة فى الفترة الأولى على الأماكن المقدسة أوذات الصلة بحياة الرسول (ص) كمكة والمدينة وبيت المقدس .. ويقترن باسم الحجاج أول ذكر معروف لدينا عن الخرائط عند العرب(٥) .

وكانت أول محاولة فى الجغرافية الإدارية والاقتصادية عام ١٠٠ هـ (٧١٩ م(٦) وبتطور الفتوحات الإسلامية ، واتساع رقعة الإمبراطورية تطلب تلك العناية بوصف الأقاليم ودراسة ثروتها وقدرتها على دفع الضرائب ومن هنا كانت انطلاقة الجغرافية الإدارية والسياسية كما تبدو واضحة فى المسالك والممالك الذى وضعه ابن خرداذبه(٧) ، وفى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر. وبدأت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الإقليم والمناطق دراسة وافية ، وصارت المعرفة الجغرافية هى الغاية . ويمكن القول بأن القرن الرابع الهجرى يمثل دور النضج فى الجغرافية العربية ، وكان التأليف الجغرافى قد أخذ الاتجاهات التالية :

١ ـ العناية بأقطار العالم الإسلامى كما عند البلخى والإصطخرى وابن حوقل والمقدسى .. الخ

٢ ـ التخصص فى قطر واحد كالهمدانى فى « صفة جزيرة العرب » والبيرونى فى « الهند » .

٣ ـ وضع المعاجم الجغرافية والتى بدأت فى القرن الخامس الهجرى « كمعجم ما استعجم للبكرى » ومعجم البلدان لياقوت الحموى .

٤ ـ وضع الموسوعات الجغرافية التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن للهجرة كنهاية الأرب « للنويرى » وصبح الأعشى « للقلقشندى » ومسالك الأبصار « لابن فضل الله العمرى» . ولقد طرق العرب جميع الفروع الجغرافية الوصفية والطبيعية والسياسية والإدارية والاقتصادية والتاريخية والمدن والسكان .. الخ .

وكان انتاج الجغرافيين العرب غزيرا فيرى كراتشكوفسكى أن الأدب الجغرافى العربى يمثل المصدر الأساسى الموثوق ، ليس لدراسة ماضى العالم الإسلامى فحسب ، بل يمدنا

بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التى بلغها العرب أو التى تجمعت لديهم معلومات عنها .

وتعتبر الرحلة والتجارة أهم العوامل التى أدت إلى تطور علم الجغرافية والوصول به إلى أعلى المستويات .

١ ـ الرحـــلة :

كانت الرحلة عنصرا قويا فى حياة المجتمع الإسلامى حيث أوصى القرآن الكريم المسلمين بالسعى فى طلب الرزق « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »(٨) . وكانت الرحلة تتم لأسباب وغايات متعددة :

أ ـ رحلة الناس لزيارة مهبط الوحى والأماكن المقدسة .

ب ـ رحلة الناس فى طلب العلم .

جـ ـ رحلة الناس فى سبيل التجارة

د ـ رحلة الرسل المترددين بين الملوك والأمراء .

هـ ـ رحلة المغامرين وجوابى الآفاق .

وكان لاتساع شبكة طرق المواصلات والأمن السائد أثره على أن يشدوا الرحال ويطوفوا فى البلدان ، وكانوا يشعرون فى أى بلد يحلون فيه كأنهم فى بلدهم ، فالتجانس فى العقيدة والدين بين ابناء تلك البلدان وتعلم اللغة العربية كان خير زاد يمكن أن يتزود به المسافر سواء لأداء فريضة الحج أو التجارة ... الخ .

فرض الله على المسلمين حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا فأخذ المسلمون يلبون داعى الله ويفدون من كل جهة من جهات العالم الإسلامى المترامى الأطراف ، وكان من الطبيعى أن يقضى الحاج أشهرا بل سنوات فى طريقه إلى مكة والمدينة ، وفى هذا الطريق الطويل سوف يتزود بالمعلومات الجغرافية والبشرية فى كل منطقة يمر بها أو كل جماعة يصادفها ، وحين تصل وفود الحجاج إلى بيت الله الحرام سيكون هنالك تبادل فى المعلومات والآراء سواء كانت جغرافية أم أدبية أم اقتصادية وجوانب أخرى من المعرفة ، كما ستعقد هنالك ندوات علمية تطرح فيها قضايا العالم الإسلامى ، ولاشك بأن ذلك سيحرك الشوق عند الكثيرين للسفر إلى بلاد الإسلام ، وبالفعل فإن كثيراً من الرحلات الجغرافية الطويلة بدأت بالحج كرحلة ابن بطوطة وابن سعيد المغربى وغيرهما كثيرون .

أما الرحلة فى طلب العلم فترتبط بالدين والدنيا معا فقد روى عن الرسول (ص) « اطلبوا العلم ولو فى الصين » كما حث الإسلام على طلب العلم وميز العلماء على غيرهم « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٩) وميز مداد العلماء على دماء الشهداء ، وهكذا فقد غدا الارتحال فى طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة الدورة الدراسية ، ففى طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة ، وهنا نشير إلى الفقيه الأندلسى أسعد الخير الأنصارى المتوفى عام ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) الذى نعت بالصينى لارتحاله إليها طلبا للعلم ، كما أورد مؤرخ الأندلس المقرى اسماء (٢٨٠) شخصا رحلوا إلى المشرق فى طلب العلم وحده وليس لغرض التجارة أو الحج .

وكان لاتساع الامبراطورية الإسلامية أثره على إرسال البعوث والسفارات إلى الخارج كسفارة ابن فضلان . الذى أوفده الخليفة المقتدر فى صفر سنة ٣٠٩ هـ (يونيو سنة ٩٢١ م) من قبله إلى ملك البلغار حتى وصل فى ١٣ محرم سنة ٣١٠ هـ (١١ مايو سنة ٩٢٢ م) . وفى طريق عودته إلى بغداد دون وصفاً لرحلته فى كتاب لعله أول ما يعول عليه بالنسبة لمنطقة لم يكن يعلم عنها حتى ذلك الوقت إلا القليل ، ولقد لقيت كتاباته عن إقليم الفلجا وقزوين تقديرا عظيما . كذلك رحلة أبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى الخزرجى إلى الصين . أوفده إليها الأمير السامانى نصر بن أحمد عام ٩٤٢ م ، وهى من الرحلات التى زودت العرب بمعلومات طيبة عن الصين(١٠) كذلك بعثة هارون الرشيد إلى شارلمان . ولقد ورد فى الحوليات الصينية عدد كبير من البعثات العربية قد وفدت إلى الصين فى مختلف الفترات . كما أن حب الاستطلاع والتفتيش عن المغامرة دفع الكثير من المسلمين للانطلاق من مدنهم إلى العالم المترامى الأطراف ، كرحلة محمد بن فو إلى أمريكا ورحلة أولئك الشباب المغرورين (أو المغررين) الذين ورد ذكرهم عند الإدريسى فى (نزهة المشتاق) حيث ورد خبر أولئك الفتية الذين أبحروا فى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) فى عهد المنصور بن أبى عامر يتحدون الظلمات فى بحر الظلمات حتى وصلوا إلى جزيرة كثيرة الأغنام والخير ثم جزيرة فيها عمارة وحرث ثم اعتقلوا وأعيدوا معصوبى الأعين من مسافة شهرين عن بلدهم الأول .

ومما شجع المسلمين على مثل هذه الرحلات وحدة العالم الإسلامى أول الأمر ثم بعد التفكك السياسى بقيت الوحدة الدينية واللغوية ، فلا يشعر المسلم المسافر بأنه غريب فى أى

بلد إسلامى ؛ لأن المسلمين إخوة ـ « والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ـ كما أن الايمان بأن مصير المسلم مقدر عليه « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »[١١] . سهل كثيرا من المصاعب التى يحسب لها غير المسلمين ألف حساب .

وهكذا انطلق الجغرافيون العرب وطلاب المعرفة فى أرجاء العالم الإسلامى المترامى الأطراف ، وتمكنوا من أن يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الإسلام ، وذلك عن طريق المشاهدة الشخصية والسؤال والاستقصاء ، مما لم يكن مهيئا للجغرافيين السابقين . وكان من أثر هذه الرحلات ظهور القصص البحرى وأدب المغامرات فى وقت مبكر ممثلاً فى رحلة التاجر سليمان (٨٥١ م) والتى زاد عليها أبو زيد حسن السيرافى فيما بعد وقصة السندباد البحرى ... إلخ . وتحوى هذه القصص وصفا ممتعا وشيقا لأخبار الملاحين والتجار بين سيراف على الخليج العربى والصين ، وما تعرضوا له من الأهوال فى تلك الرحلات[١٢] .

وتمثل الرحلة الوجه المشرق للجغرافية العربية وفى بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية عن جميع مناطق العالم الإسلامى . ولقد اعتمد كبار الجغرافيين المسلمين على الرحلة فى جمع معلوماتهم ، أو التأكد مما سمعوه أو نقلوه ، فزاروا معظم البلدان التى كتبوا عنها ، وألفوا كتبا تحدثوا فيها عن رحلاتهم فعرفت الناس بأجزاء كثيرة من العالم كانت مجهولة تقريبا قبلهم . وكان دافع أغلب كتاب الرحلات الحج إلى بيت الله الحرام ، وتهيأت لهم الفرص لزيارة ديار الإسلام ، فدون البعض مشاهداتهم ولم يدون البعض الآخر . ولقد وردت فى كتاباتهم المعلومات البشرية والاقتصادية والمعالم الطبوغرافية للمدن والبلدان التى زاروها ، وتعتبر رحلة ابن جبير أفضل نموذج لهذا النمط من الكتابة الجغرافية ثم رحلة ابن بطوطة ... الخ . وهكذا نجد بأن الرحلة تمثل المصدر الأساسى للمعلومات الجغرافية ، ولا نكاد نلتقى بأى جغرافى عربى مرموق لم يكن قد اعتمد فى كتاباته اعتمادا أساسيا على رحلاته الشخصية ومما سهل عليهم مهمتهم وحدة العالم الإسلامى سياسيا ودينيا ولغويا . ويقسم الرحالة إلى مجموعتين :

أ ـ صنف يطوف البلدان لغرض علمى لكى يسجل المعلومات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية تسجيلا أمينا .

ب ـ صنف يطوف لأغراض سياسية ـ تجارية ـ دينية ثم يدون ملاحظاته فى كتاب ،

وينتمى إلى هذا الصنف الرحالة الأدباء ؛ حيث يغلب على هذه الرحلات الطابع الأدبى (١٣) .

وسنذكر فى الصفحات التالية على سبيل المثال لا الحصر بعض الجغرافيين العرب الذين اعتمدوا فى جمع معلوماتهم وكتابة مؤلفاتهم على الرحلة بالدرجة الأولى :

١ ـ اليعقوبى : يذكر اليعقوبى فى كتابه فتوح البلدان ... « سافرت حدث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... الخ .

وقد تنقل اليعقوبى فى ديار الإسلام ، وكان حريصا على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية للمناطق التى مر بها والمجتمعات البشرية التى تعرف عليها . ولقد سافر إلى أرمينية وبلاد فارس والهند والجزيرة العربية وبلاد الشام والمغرب والأندلس . ولقد اعتمد فى وصفه للمناطق التى مر بها على ملاحظاته الخاصة .

٢ ـ الإصطخرى : زار الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وبلاد ما وراء النهر بالإضافة الى موطنه فارس .

٣ ـ المسعودى : أمضى المسعودى ربع قرن من عمره فى الرحلات حيث جاب الممالك المختلفة ، ودرس أحوال الشعوب والأمم التى مر بها وتحمل فى سبيل ذلك أذى كبيرا . رحل المسعودى من بغداد سنة ٩٠٥ م ، وظل يتجول بين فارس وكرمان حتى سنة ٩٠٨ م .

ووصل إلى مجاهل الهند وغابات سرنديب (سيلان أو سيرالانكا) وعبر البحر العربى ، وبعد تجواله فى العراق رحل إلى فلسطين ومنها إلى الفسطاط ، ثم رحل جنوبا حتى يقال : إنه وصل منابع النيل حيث يقول : « رأيت النيل ينبع من اثنتى عشرة عينا تصب إلى مجرى هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء جاريا حتى يخترق السودان ويصل مدينة أسوان :

ولقد وصل إلى بحر الصين وجزر المحيط الهندى وأذربيجان وجرجان وبلاد ما وراء النهر ووصل إلى سواحل البحر الأسود .

٤ ـ ابن حوقل : بدأ رحلة طويلة سنة ٩٤٢ م من بغداد وعاد إليها بعد ٢٨ سنة (أى سنة ٩٧٠ م) . وخلال رحلته هذه زار جميع أقطار العالم الإسلامى فى الهند إلى أسبانيا ، ووصل بلاد البلغار والحوض الأدنى لنهر الفولجا ، ولقد لقى الإصطخرى سنة ٩٥١ ـ ٩٥٢ .

ووضع كتابه صورة الأرض الذى يعتبر موسوعة جغرافية ؛ فقد وصف فيه المدن والأنهار والغدران والقفار كما تطرق إلى ثروة البلاد التى زارها .

٥ ـ المقدسى : عاش فى القرن الرابع للهجرة . كان يهوى الأسفار ولا يبخل بوقت أو جهد أو مال فى سبيل تحقيق هوايته ، ويقال : إنه انفق ١٠,٠٠٠ درهم وذكر فى كتابه :

« جبت البلدان والصحراء وقُطِعَتْ على قوافلنا الطرق ، وسجنت فى الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس كما نلت العزة والرفعة ، ودبر قتلى غير مرة ، وكسيت خلع الملوك وأمر لى بالصلات » .

ولقد دفعه حبه للأسفار إلى زيارة جميع أنحاء العالم الإسلامى باستثناء الأندلس والسند وربما سجستان . . ويلوح أنه قد زار صقلية ؛ ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة المتواصلة ونشاطه الجم ، فقد استطاع المقدسى أن يضع كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . ولقد زار جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب ومعظم أقطار العجم كمنطقة الديلم والجبال ، وخوزستان وفارس وكرمان ... الخ .

٦ ـ الإدريسى : ولد فى ثغر سبتة ودرس فى قرطبة بالأندلس بدأ أسفاره فى سن مبكرة حيث جاب شبه جزيرة أيبريا وعبر إلى إنجلترة ، وقام بجولات فى المشرق والمغرب وفى عام ١١١٦ م زار آسيا الصغرى ، ولقد تمكن من جمع حصيلة جغرافية طيبة وكتب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وفى سنة ١١٣٨ عبر البحر إلى صقلية حيث استبقاه روجر الثانى النورماندى . ولقد طلب روجر من الإدريسى أن يقدم له معلومات دقيقة عن جغرافية الدول القريبة من صقلية فقام بسلسلة من الرحلات العلمية جاب فيها معظم أنحاء المنطقة ، ولقد جاب حوض البحر المتوسط شرقيه وغربيه ونجح فى تحديد منابع النيل والبحيرات الاستوائية . ولم يزر الإدريسى الأقطار الإسلامية البعيدة .

٧ ـ ناصر خسرو : ولد بجوار بلخ سنة ١٠٠٣ م مر بفلسطين فى طريقه إلى مكة وفى سنة ١٠٤٧ م كان فى بيت المقدس ، ورحل فى فترة سابقة إلى بلاد الهند وعاش فى بلاط السلطان محمود . ودون مذكراته بالفارسية . كتب رحلته سفرنامة (زاد المسافر) التى حوت ملاحظات قيمة عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلدان العربية وبصورة خاصة فلسطين ومصر وسوريا والحجاز كما تضمن كتابه مشاهداته فى فارس والعراق ... الخ .

٨ ـ سليمان التاجر وبزرك بن شهريار الناخذاه : سجل ذكريات سليمان التاجر (القرن

٩ م أو ٣ هـ) أبو زيد السيرافى . ونشر كتاب برزك بعض المستشرقين تحت اسم « عجائب الهند بره وبحره وجزائره » .

٩ ـ ابن جبير : توجه إلى الحج فى سن مبكرة فغادر إلى سردينيا وصقلية ثم دخل ميناء الإسكندرية ثم غادرها إلى صعيد مصر ، فوصل إلى مرفأ عيذاب على البحر الأحمر وركب سفينة إلى جدة وأخذ قافلة إلى مكة فالمدينة ثم إلى الكوفة وزار بغداد وسامراء والموصل (فى العراق) ومنها إلى دمشق ، ومن عكا أخذ سفينة إلى صقلية وفى عام ١١٨٥ وصل إلى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من سنتين ثم خرج فى رحلته الثانية التى استغرقت عامين . ولقد نجح فى رسم صورة واضحة مملوءة بالحياة للمدن التى زارها .

١٠ ـ أبو حامد الغرناطى : جال فى أقطار عديدة فى أوربا وآسيا إضافة إلى البلدان العربية . غادر مسقط رأسه الأندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وطاف بنواحى المغرب الأقصى ووصل إلى سجلماسة ، ثم انتقل إلى تونس فالإسكندرية (نزل فى سردينية) ثم إلى القاهرة عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م .

ثم زار دمشق وبغداد عام ٥١٦ هـ / ١١٢٣ م . ثم عبر إلى إيران وزار أردبيل وخوارزم التى دخلها عن طريق بلاد البلغار . كما زار جنوب روسيا إذ عبر البحر الأسود فى آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة القرم إلى بحر آزوف ، وأتاه شرقا إلى مصب نهر الفولجا ، ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم مارا ببحر خزر ـ ولقد أقام فى مدينة سجسين أواتل (تقع آثارها بالقرب من استراخان) كما أقام فى بلاد المجر التى يسميها « أنقورية » ويسمى أهلها « الباشفرو » ثم غادر المجر قاصدا سجسين ومرّ ببلاد الصقالبة ووصل خوارزم سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٣ م . ثم قصد الحج ماراً ببخارى ومرو ونيسابور والرى وأصفهان والبصرة وبعد أدائه لفريضة الحج عاد إلى بغداد ثم إلى الموصل فحلب وإلى دمشق التى توفى فيها وهو فى ٩٢ من عمره وكتب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب و« المغرب عن بعض عجائب المغرب » .

١١ ـ الهروى : أبو الحسن على بن أبى بكر المتوفى سنة ١٢١٤ م ويطلق على رحلته « اسم الإشارات فى معرفة الزيارات » ولقد زار مدينة حلب والشام والساحل وبلاد الفرنج وفلسطين وبيت المقدس ومدينة الخليل وديار مصر بأسرها (الصعيد والبلاد البحرية) وبلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق والهند والحرمين الشريفين واليمن وبلاد العجم .

١٢ ـ على بن سعيد المغربى : قضى الجانب الأكبر من حياته متنقلا فى طلب العلم ، حيث انتقل من المحيط الأطلسى غربا إلى الخليج العربى شرقا . حيث زار شمال أفريقية ومصر ثم الشام فالموصل وبغداد والبصرة ثم رحل إلى حلب ودمشق . واستقر فى بلاط أمير تونس سنة ١٢٥٤ وفى عام ١٢٦٧ خرج فى رحلته الثانية حيث مر بالإسكندرية ثم إلى حلب ثم أرمينية . وكتب جغرافية ابن سعيد المغربى .

١٣ ـ محمد العبدرى : هو محمد بن على بن عبد الدار القرشى . كتب رحلته « الرحلة المغربية سنة ١٢٨٩ م » . ولقد زار فى رحلته بلاد الشرق الأوسط وتلمسان والجزائر وبجاية وقسطنطينة وتونس وليبيا والإسكندرية والقاهرة واتبع الطريق البرى إلى مكة ثم عاد مارا بفلسطين والقاهرة ثم إلى الإسكندرية .

١٤ ـ ياقوت الحموى : ولد عام ١١٧٩ م . ولقد بدأ حياته العملية بالرحلة والأسفار فى تجارة سيده ، وكان يسجل ما يستحق التسجيل فى مذكراته . ومن أكثر السفرات التى تركت أثرا فى نفسه هى رحلاته العديدة إلى كيش (قيس) ، بدأ تجواله مارا بتبريز والموصل والشام ومصر ثم عاد إلى دمشق وحلب وإربيل (فى العراق) فأورمية وتبريز ومنها إلى إيران الشرقية . ولقد أمضى عامين فى نيسابور ثم غادرها إلى هراة وسرخس إلى أن بلغ مرو . ثم هرب إلى خراسان بعد سماعه بغزوات جنكيز خان ، حيث مر بالرى وقزوين وتبريز إلى أن بلغ الموصل . وفى عام ١٢٢٧ سافر إلى فلسطين ومصر ثم رجع إلى حلب حيث قام بتهذيب معجمه « معجم ياقوت » وتوفى سنة ١٢٢٩ م .

١٥ ـ ابن بطوطة : ويمثل آخر جغرافى عالمى من الناحية العملية . أى أنه لم يكن نقالا معتمدا على كتب الغير ، بل كان رحالة بلغ محيط أسفاره ٧٥٠٠٠ ميلاً . ولد فى طنجة سنة ١٣٠٤ م . غادر موطنه طنجة وهو فى (٢٢) من عمره بهدف الحج وعاد وعمره قد شارف على الخمسين . ولقد زار فى رحلته نجداً والحجاز والبحرين وعمان وحضر موت واليمن والعراق ومصر وبلاد الشام وأقطار المغرب العربى وساحل أفريقيا الشرقى وبلاد فارس وبلاد الأناضول وأواسط آسيا وتركستان والحوض الأدنى لنهر الفولجا والهند وجزر الساحل الجنوبى الغربى للهند وجزر المالديف وسرنديب (سيلان سيرالانكا) والملايو وجنوب الصين وربما تقدم إلى شمال الصين . ثم عاد من جولته إلى الأندلس . ولم يكد يستقر فى فاس حتى عبر الصحراء الكبرى متجها إلى السودان الغربى ووصل حتى تمبكتو . وكان كما يقول لا يسلك

طريقا سبق له أن سلكه من قبل ، ولهذا فقد استحق عن جدارة لقب أمير الرحالة المسلمين الذى أطلقته عليه جامعة كبردج ، ولقد أملى رحلته « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

هذا بعض من أردنا ذكرهم من الرحالة العرب وهنالك الكثير ممن لم نذكرهم ، وهذا يقدم الدليل على اتساع الأدب الجغرافى العربى الإسلامى وأثر الرحلة فيه .

٢ ـ التجـــارة :

إن البيئة الصحراوية الحارة لشبه جزيرة العرب دفعت سكانها للعمل منذ القديم فى التجارة برا وبحرا . كما أن خلو السماء من الغيوم ، وارتفاع درجة الحرارة نهارا وخلو المنطقة من المعالم الطبيعية دعت إلى السير ليلا والإفادة من حركات النجوم والقمر والرياح وحركة الشمس نهارا واستعمال الأزياج الدقيقة للإفادة منها فى حركتهم(١٤) وكان لقوة ملاحظة البدو وأثرها على تتبع النجوم جيدا ومعرفة مواقعها حتى إن ٥٠٪ من اسماء النجوم مستعملة بلفظها العربى فى اللغات الأجنبية(١٥) ولقد لعبت بلاد العرب دوما دور الوسيط فى التبادل التجارى بين الهند وأفريقية والعراق والامبراطورية الرومانية .

ولقد كانت التجارة الحرفة الرئيسية للمجتمعات العربية فى مكة والمدينة حيث كونت القاعدة الأساسية لحياتهم الاقتصادية والاجتماعية . وكانت القوافل من الجمال تربط الصحراء مع المناطق الزراعية فى الشمال (الهلال الخصيب) وفى الجنوب اليمن .

« لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف »(١٦) . صدق الله العظيم . وتكون التجارة العمود الفقرى لحياتهم الاقتصادية ومصدر ثروتهم الرئيسى . ولقد كان الرسول (ص) فى أول حياته تاجرا وكذلك الخلفاء الراشدون ، وهذا أعطى تزكية عظيمة للتجارة كحرفة ولقد تمتع التجار بمركز قيادى فى ذلك المجتمع البدائى . وكان الخلفاء المسلمون يشجعون التجارة للأسباب التالية :

أ ـ توفير الحاجات الضرورية والتى يعطون فى سبيل الحصول عليها بكل سخاء .

ب ـ توفير ما يحتاجه الشعب من الغذاء والفواكه والمواد الأولية المختلفة .

جـ ـ توفير الخامات الأولية للصناعة(١٧) .

ولقد اهتموا كثيرا بدراسة المسالك وأبعادها وتعبيد الطرق ، وتأمين السفر عليها حتى إن

فكرة حفر قناة السويس مرت بخاطر هارون الرشيد قبل ١٠٠٠ سنة على الأقل من ظهور هذه الفكرة عند دلسبس . ويشير القلقشندى إلى أن المشروع لم ينجح لأن مستوى ماء البحر الأحمر كان أعلى من مستوى ماء البحر المتوسط[١٨] .

ومما دفع الناس للتجارة بالإضافة إلى عامل البيئة عوامل كثيرة نذكر منها ما يلى :

أ ـ هنالك بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تشجع على التجارة .

ب ـ ساعد الحج إلى مكة العرب والمسلمين على تقدير المسافات ومعرفة المحطات التى تؤدى إلى مكة وقد سُجلت .

جـ ـ إن الاسلام كدين دفع الإنسان بعيداً عن موطنه فى طلب الرزق وذلل له المصاعب التى يخشاها غيره لإيمانه بأنه سيلاقى ما كتب عليه :

« قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا » (٥١ التوبة)

د ـ ساعد الدين الإسلامى على ربط أواصر الأخوة بين المسلمين كما فرض قراءة القرآن باللغة العربية كل هذا جعل التاجر المسلم لا يشعر بالغربة أينما ذهب .

ولقد شجع الخلفاء التجار إذ أعفوا بضائعهم من الضرائب بل وفى بعض الأحيان قدموا لهم الهدايا . ولقد احتل التجار مراكز مهمة فى الدولة كالوزارة وكانوا يحضرون مراسيم تنصيب الخلفاء وكان التجار الأجانب يدعون أيضا لمثل هذه الحفلات[١٩] .

وكوّن التجار ثروات ضخمة حتى إن الحكومة كانت تقترض منهم أيام الحاجة[٢٠] . وعملوا كسفراء فى بعض الأحيان[٢١] . وكان التجار يتكلمون عدة لغات بالإضافة إلى العربية[٢٢] . وبلغوا من الثروة حدا كبيرا حتى إن أحد تجار البصرة أنفق مليون دينار على زواج ابنته وآخر فى البصرة كان يملك أُسطولا كاملا . ولقد صادرت الدولة العباسية من ابن الزيات ١٦ مليون دينار ولم تؤثر على ثروته[٢٣] . ولقد تعامل تجار العرب مع زنوج سفالة (موزمبيق)[٢٤] . وسكان ساحل أفريقيا الشرقى[٢٥] . ومع سكان النيكوبار (جزائر الهند الشرقية) واتبعوا طريق الإشارات ولمس الأيدى فى التجارة مع من لا يعرف اللغة العربية[٢٦] . وكانت هنالك مناطق معينة يقف عندها التجار الأجانب أو العرب والمسلمون تسمى المآصر لتقدير الكمارك المفروضة على بضائعهم ، كما كان التجار العرب يدفعون مثل هذه الكمارك فى المناطق التى يقصدونها للتجارة . فقد كان الصينيون يتقاضون ٣٠٪ من التجارة[٢٧] وفى بلغاريا يدفعون ١٠٪[٢٨] . أما التجار المسلمون فكانوا يدفعون فى ديار

الإسلام ٢,٥٪ من قيمة بضائعهم كمارك ، بينما الذميون يدفعون ٥٪ أما التجار الهنود والصينيون فكانوا يدفعون ١٠٪[٢٩] . ولقد اندفع التجار فى تجارتهم حتى كوريا (سيلا أو شيلا) والجزر اليابانية (ربما واق واق) شرقا والمحيط الأطلسى غربا وجنوبا فى أفريقية حتى سفالة (موزمبيق) والناتال وفى أوربا فى شمالها .[٣٠] ولقد جاب التجار العرب المسلمون جميع البحار المعروفة ولكن البحرين الأساسين لنشاطهم التجارى كانا المحيط الهندى والبحر المتوسط . ولقد وصلنا وصف دقيق للبحار المعروفة آنذاك وأدقها ذلك الوصف الذى أورده البيرونى حيث يقول:

« تصور العمارة أنها فى نصف الأرض الشمالى ومن هذا النصف فى نصف .. .. ويطيف به بحر يسمى من جهة المغرب والمشرق محيطاً ويسمى اليونانيون ما يلى المغرب منه وهو ناحيتهم أوقيانوس وهو قاطع ما بين المعمورة وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر فى الجهتين من بر وعمارة فى جزيرة . أما من جهة الشمال فالعمارة تنقطع بالبرد ... الخ . ويضيف أما البحر الذى فى غرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سمى البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس . ولا يلج فيه وإنما يسلك بالقرب من ساحله .

وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ، ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة ويمتد إلى قرب بلغار بلاد المسلمين ويعرفونه ببحر ورنك (بحر بلطيق)[٣١] .

وكان البحارة المسلمون يعرفون طريقهم فى هذه البحار معرفة تامة ، ولو أنهم لم يعرفوا استعمال البوصلة حتى القرن الحادى عشر . إلا أنهم كانوا يستعينون بالشمس والنجوم لمعرفة طريقهم ، وكانوا يعتمدون على الحمام الزاجل فى مراسلاتهم ، ويعتمدون على الرياح الموسمية وانتظامها فى حركتهم . وكان للبحارة خرائط يعملون بما فيها بكل ثقة واطمئنان[٣٢] . وفى القرون التالية امتلك البحارة العرب المسلمون خرائط ممتازة وأدوات بحرية أخرى دقيقة[٣٣] . ولقد أخبرنا باروس Baros أن البحار أحمد بن ماجد (القرن ١٥ م) اطلع فاسكودى جاما على خريطة مفصلة لساحل الهند . ولقد اطلع فاسكودى جاما أحمد بن ماجد على أصطرلاب خشبى وآخر معدنى ولكن البحار العربى لم يبد أى استغراب لما شاهده وأجاب جاما قائلا :

« إننا نملك خيرا من هذه المعدات بالإضافة إلى استعانتنا بالنجوم[٣٤] ، كما كانت القوافل من الجمال (التى يبلغ عدد جمالها فى بعض الأحيان أكثر من ١٠,٠٠٠ جمل) تسير

على الطرق المشهورة كطريق الحرير الأعظم (طريق خراسان) الذى يبدأ من البحر المتوسط ـ بغداد همذان ـ قزوين ـ الرى ـ نيسابور ، وإلى مرو ثم إلى بخارى وسمرقند والصغد حيث يتفرع إلى فرعين يؤديان إلى الصين ، حاملة التجارة العربية التى وصلت إلى أقطار العالم المعروفة آنذاك . ولقد أفادت الجغرافية من التجارة وبالعكس أفادت التجارة من الجغرافية فقد جاء فى كتاب المسالك والممالك لابن حوقل ما يلى :

« هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وذكر جباياتها وخراجها وذكر الأنهار الكبار واتصالاتها بشطوط البحار وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة ... الخ » .

كما جعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى ، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافى ، وجعلته يكتب عن مناطق لم يرها بل سمع عنها من التجار والرحالة فيذكر المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ما يلى :

« واستعنت على تبيانه بذوى العقول من الناس وممن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال فى الأطراف التى بعدت عنها ، ولم يتعذر لى الوصول إليها » ... الخ .

ولقد تكلم الجغرافيون العرب عن مختلف القارات كما سنرى ، ومعظم معلوماتهم تلقوها من رحلاتهم ومن الرحالين والتجار . ولقد أقاموا علاقات تجارية مع معظم مناطق العالم المعروفة آنذاك .

التجارة مع آسيا :

كانت التجارة نشطة مع معظم المناطق الآسيوية قبل الإسلام بمدة طويلة . وكانت القوافل تقطع آسيا من البحر المتوسط حتى بكين . وكانت البواخر تمخر عباب المحيط الهندى حتى الجزر اليابانية ، ولقد أقام العرب المسلمون علاقات تجارية قوية مع الدول المعروفة آنذاك .

١ ـ العلاقات التجارّية مع الصين :

كانت التجارة مع الصين نشطة منذ القديم وكانت المستوطنات التجارية الإسلامية قد تركزت فى الصين فى خانقو (كانتون) وزيتون وهانج شو ومراكز أخرى[٣٥] . واستنادا إلى

ابن بطوطة الذى زار الصين فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أنه فى كل مدينة من مدن الصين كان للمسلمين حى خاص بهم يسكنون فيه ولهم جوامعهم . أما فى سن كالان - Sin as- Sin فكان للمسلمين جوامعهم وحتى أسواقهم ، وعندما زار ابن بطوطة هذه المدينة نزل فى دار أوحد الدين من سنجار[٣٦] . وكان فى كل مدينة فى الصين يوجد قاضٍ ومفت (شيخ للمسلمين) يحلون مشاكل المسلمين ، بل ويعملون كوسطاء بين الحكومة والجالية الإسلامية . فى سنة ٦٥١ م أرسل ملك العرب Ta - Shih رسولا إلى البلاط الصينى لأول مرة[٣٧] . ويعتقد أن التجار المسلمين كانوا من بين الجماعة الذين دانت لهم مدينة كانتون سنة ٧٠٠ م . وفى عام ٧٥٨ م أصبح بإمكان التجار العرب الاستيلاء على ميناء كانتون بالاتفاق مع بعض الثوار الأهليين وفرضوا شروطهم على حاكم المدينة[٣٨] .

واستمروا يفدون على كانتون حتى سنة ٧٩٥ م . وخلال الحكم العباسى قصدت بلاد الصين عدة وفود سجلت فى حوليات عائلة Tang .

وكان العباسيون معروفين عند الصينيين باسم Heb- i- Ta- Shih (العرب ذو الأردية السوداء) ثم أطلق عليهم Hui- Hui [٣٩] . وخلال القرن التاسع الميلادى كانت هنالك سفرات منتظمة بين الصين والعراق إذ كانت السفن الصينية تصل إلى البصرة التى كانت من المراكز التجارية الإسلامية الرئيسية ، ولكن فى سنة ٨٧٧ ـ ٨٧٨ م استولى أحد الضباط الصينيين على خانفو وقتل معظم السكان ، ويعتقد أنه قد قتل فى هذه المعركة حوالى ١٢٠,٠٠٠ مسلم ويهودى[٤٠] ، وهاجر الباقون إلى كالا Kala على الساحل الغربى لشبه جزيرة الميلايو[٤١] . ومنذ القرن العاشر أصبحت كالا المركز التجارى الرئيسى فى المحيط الهندى حيث تلتقى السفن الإسلامية والصينية لتبادل البضائع[٤٢] ولقد عملت الحكومة الصينية جهدها لإعادة التجار المسلمين إلى كانتون وزيتون وفى نهاية القرن العاشر نجحت محاولاتها وعادت التجارة المباشرة مع كانتون وزيتون[٤٣] . وفى خلال القرن الرابع عشر كان التجار الصينيون يفدون إلى أسواق بغداد والتجار المسلمون يذهبون إلى الصين[٤٤] .

وكان الوصول إلى الصين يتم عن الطريق البرى والبحرى . ولكن الطريق البحرى كان أسهل وأحسن حتى إن التجار من سمرقند وبلخ وبخارى يفضلون الطريق البحرى ، ولهذا

كانوا يأتون إلى البصرة ومنها يذهبون إلى الصين بحرا . وكانت السفرة إلى الصين تتم فى عامين[٤٥] .

كانت السفن تسير من شبه جزيرة العرب إلى جنوب الهند وتستمر السفن مع امتداد الساحل الجنوبى لسرنديب حتى جزر النيكوبار وخليج ملقا .

ثم تدور السفن حول شبه جزيرة الملايو حتى خليج سيام ومنه تمتد الرحلة ما بين ١٠ - ٢٠ يوما حتى جزيرة Polo- Condor حيث يمكن الحصول على الماء العذب وبعد رحلة شهر يصل التجار العرب المسلمون إلى ميناء خانقو جنوب الصين . واستنادا إلى ابن بطوطة فإن الرحلة بعد كاليكوت كانت تتم بسفن صينية[٤٦] . أما الطريق البرى فيعرف بالطريق الحريرى العظيم . ويبدأ من البحر المتوسط إلى بغداد ثم إلى همذان وقزوين والرى ونيسابور - ومرو وبخارى وسمرقند والصغد حيث يتفرع الطريق إلى فرعين يؤديان إلى الصين وكان هنالك طريق آخر يمر بهضبة التبت ولكنه كان طريقاً وعراً واستعمل لتجارة المسك فقط[٤٧] .

٢ - العلاقات التجارية مع الهند وجنوب شرق آسيا :

كانت الهند تجذب نحوها التجار العرب ولذلك كانت هنالك جاليات عربية تستوطن الساحل الهندى قبل الفتح الإسلامى . وفى سنة ٨٩ هـ / ٧١٢ م تم فتح السند من قبل محمد بن القاسم الثقفى ، فانتشر العرب برا وبحرا فى جنوب شرق آسيا والمحيط الهندى وكونوا جاليات فى جاوة ، كما تزوجوا من نساء محليات[٤٨] . وكان الوصول إلى الهند سهلا سواء بالبر أو بالبحر . وكان الطريق البرى يسير مع طريق خراسان حتى كابل ثم ينحدر نحو البنجاب[٤٩] .

أما الطريق البحرى فيسير إلى ديبل ، إلى مدخل نهر مهران (السند) ومن مهران إلى Bakim أول محطة فى (الهند)[٥٠] . وكانت مراكز التجارة الكبرى ديبل (على نهر السند)[٥١] ، والمنصورة على نهر السند[٥٢] . وملتان عاصمة السند[٥٣] . واستنادا إلى المسعودى كان هنالك ١٠,٠٠٠ رجل من بغداد والبصرة وعمان وسيراف يعيشون فى صيمور[٥٤] . إلى جانب التجارة مع الهند والصين كانت العلاقات التجارية نشطة مع سرنديب (سيرالانكا) وكانت لهم جالية فيها ، ويعتقد أن العرب وصلوا سرنديب قبل الإسلام[٥٥] . وكان للعرب جاليات عربية فى الملبار تنتشر بكثافة على الساحل فى تاريخ مبكر[٥٦] . وكانت

أهم مدن الملبار هى Hili (٥٧) ، وكاليكوت وكاولام Kawlam أو Quilon وقد اندثرت كلتا المدينتين فى القرن السادس عشر الميلادى(٥٨) . كما تاجر العرب المسلمون مع ملقا وبصورة خاصة مع مستوطنات الساحل الغربى المشهور بمناجم القصدير . وكانت مذبحة خانقو السبب فى نقل التجارة إلى كالا حيث ملتقى التجارة العربية والصينية ، كما كانت للعرب جاليات فى الملايو وشمال سومطرة (الزابج) حيث كانوا يترددون على ميناء Barris وميناء Lambri (٥٩) . وكان للعرب جاليات فى جزر النيكوبار(٦٠) . كما تاجروا مع سكان بورنيو(٦١) . وكانت لتجارتهم أسواق فى كوشين صينى(٦٢) . ومن الصين اندفع التجار العرب المسلمون شمالا إلى اليابان وكوريا التى وصفوها بكثرة الذهب وكانت هنالك جالية إسلامية(٦٣) .

٣ ـ العلاقات التجارية مع وسط آسيا :

امتدت الإمبراطورية العربية الإسلامية حتى حدود الصين شرقا . لهذا فقد تم فتح أسواق أواسط آسيا أمام التجار العرب المسلمين . وكانت التجارة تتبع الطريق الحريرى العظيم (طريق خراسان) الذى يمر من البحر المتوسط إلى بغداد وإلى سمرقند ثم يتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالا إلى خوارزم والآخر يؤدى إلى الصين . وكان لانتشار الإسلام بين أقوام أواسط آسيا أثره على قيام مستوطنات عربية فى سمرقند وقندس (فى أفغانستان) ومناطق أخرى من أواسط آسيا(٦٤) .

وهكذا نجد بأن آسيا كانت مفتوحة أمام التجار والرحالة المسلمين برا وبحرا ، فنقل التجار معلوماتهم وكذلك الرحالة والجغرافيون . لذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن الجغرافيين العرب عرفوا الكثير عن آسيا .

فقد وصف الجغرافيون العرب بحر خزر على أنه بحر مغلق ، كما تكلموا عن نهر الفولجا الذى كانوا يسمونه نهر (اتل) ووصفوا مجراه ومصبه فى بحر خزر ويذكر أبو الفداء فى هذا الصدد .

« حكى لى بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر أنهم لما انتهوا فى الشمال إلى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافى .. الخ »

كما تكلموا عن شعوب حوض الفولجا الأدنى ، ومنطقة بحر خزر وخاصة أن بعض تلك الشعوب قد اعتنقت الديانة الإسلامية ، وأقدم تسجيل جغرافى عن منطقة الفولجا الأدنى هو

ما ورد فى مذكرات ابن فضلان فقد تحدث عن بلاد الفولجا وشعبها واصفا بعض المظاهر الطبيعية والتقاليد الاجتماعية ، ولعله أول من تكلم عن ظاهرة قصر الليل والنهار فى تلك الجهات .

أما معلومات الجغرافيين العرب المسلمين عن أقاليم وسط آسيا وتركستان (بلاد ما وراء النهر) فكانت غزيرة خاصة أن بعض الجغرافيين كانوا من تلك المناطق كالبيرونى . ولقد شملت الدراسات الجغرافية عن آسيا الوسطى الطبوغرافية والمناخ والاقتصاد والمدن وتخطيطها وتطورها التاريخى إلى جانب المعلومات الانثروبولوجية .

أما عن شمال آسيا فإن البيرونى هو أول من سمى نهر أنجارا ، وتحدث عن شعوب إقليم بيكال فى سيبريا الشرقية . وكان العرب يطلقون على شمال آسيا اسم « بلاد الظلمة » ولقد تحدث ابن بطوطة عن أهم السلع التى كان السكان يتاجرون بها وشرح طريقتهم فى التجارة وهى الطريقة الصامتة .

أما معلومات الجغرافيين العرب عن الصين فهى غنية من جميع النواحى حيث وصل العرب إليها برا كما أبحروا إليها وساروا على امتداد الساحل الصينى شمالا حتى كوريا (شيلا) واطلقوا على بحر الصين اسم (بحر صخى) وتوغلوا فى داخل الصين وتكلموا عن زراعاتهم وصناعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحبهم للفنون وعلى الأخص الرسم .

أما الهند فكان الجغرافيون العرب يعرفونها جيدا ، ولقد تكلم الإدريسى عن طبقات المجتمع فى الهند :

١ ـ الساكهرية : وهم الأشراف ورجال الدين .

٢ ـ الكسترية .

٣ ـ الشودرية الفلاحون وأصحاب الزراعات .

٤ ـ أصحاب المهن والصناعات .

٥ ـ السندالية .

أما البيرونى فقد قدم لنا عن الهند دراسة إقليمية ممتازة فقد درس الأوضاع الطبيعية لشبه القارة الهندية وتتبع ساحلها الغربى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وعدد أبرز الموانئ التى تقع عليه ، وذكر أهم الجزر جنوب الهند ووصف كشمير والمجرى المتعرج لنهر السند وتكلم عن جبال هممنت (هيملايا) ثم أشار إلى جبل ميرود (ربما قمة إفرست) ،

ثم شرح سهل الهند الفسيح الواقع إلى الجنوب من جبال هملايا ، وفسر كونه عبارة عن مخلفات بحرية قديمة ويعتقد بأن وادى السند كان يوما ما قاعا للبحر ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج (سهل فيضى) . ثم تكلم عن منابع أنهار الهند ومناخها بفصوله الأربعة والأمطار الموسمية .

كما تكلم عن مدن الهند والمسافات بينها بكل دقة . كما تكلم عن الانتاج الاقتصادى للهند من زراعة وصناعة .

وتكونت لدى الجغرافيين العرب معلومات قيمة عن جزر المحيط الهندى لاسيا جزيرة سرنديب . فقد ذكر أبو زيد السيرافى عنها :

« يدعونها الديبجات وبجانب منها مغاص اللؤلؤ » .

ولقد وصف البيرونى هذه الجزيرة بدقة . وتكسب معلومات ابن بطوطة عن جزر الملديف بالذات أهمية خاصة ، لأنه أقام فى تلك الجزر ما ينيف عن عام ونصف وخبر الحياة فيها عن قريب .

أما عن البلاد العربية وتركيا وإيران فقد حظيت بدراسات مفصلة ودقيقة .

العلاقات التجارية مع أفريقيا :

كانت التجارة مع أفريقيا نشطة برا وبحرا . وكانت القوافل تعبر شبه جزيرة سيناء إلى مصر ومنها إلى شمال أفريقيا ، أو عن طريق النيل إلى السودان أو عبر الصحراء الكبرى إلى غرب أفريقيا[٦٥] . وكان الخط البحرى صالحا للملاحة طول العام ولكن يوجد فيه قراصنة وعلى الأخص فى جزيرة سقطرة عش القراصنة الهنود[٦٦] .

ولقد مرت التجارة مع القارة الأفريقية بعدة مراحل :

١ ـ بعد فتح مصر وشمال أفريقيا اندفع التجار العرب إلى جنوب الصحراء ، وأقاموا علاقات جيدة مع السودان ، ولقد وصلوا حتى السنغال والنيجر كما توغلوا فى حوض النيل الأعلى .

٢ ـ يبدأ مع فتح المسلمين لجزيرة كمبالو Kampalu[٦٧] . فى نهاية الحكم الأموى[٦٨] .

ولقد أقيمت مستوطنات عربية إسلامية فى مالندى وممباسا وموزمبيق والتى ربما أدت إلى الاستيلاء على الجزر الواقعة قريبا من الساحل[٦٩] ، حيث قام بعض المغامرين العرب فى القرن العاشر بالاستيلاء على زنجبار والجزر الأخرى عند ساحل أفريقيا الشرقى . ولقد

تاجر العرب مع سكان الساحل الشرقى حتى سفالة جنوبا (موزمبيق) ، وكما يقول أحمد نفيس حتى ساحل الناتال الحديثة[٧٠] .

كما توغلوا فى إقليم البحبة إلى الشرق من Aswan وإلى العلاقى (الإقليم الرئيسى لمناجم الذهب منذ زمن الفراعنة) . وفى غرب أفريقيا كانت التجارة نشطة مع غانا حيث كانت قوافل الجمال تقطع الصحراء إليها ولكن كانت هنالك بعض الأخطار تحيط بهذه القوافل وبصورة خاصة العواصف الرملية[٧١] . وكان سكان غانة يحترمون العرب ويحبونهم كثيرا ، وكانوا مولعين بالتمر . وكانت هنالك علاقات تجارية نشطة مع بربر شمال أفريقيا ، وكانت هنالك مستوطنات عربية فى سجلماسة ، وأخرى على الساحل الشرقى الأفريقى فى مقديشو وساحل الصومال[٧٢] . وكنتيجة لهذه العلاقات التجارية النشطة مع أفريقيا وارتياد التجار العرب لمناطقها المختلفة أصبحت لدى الجغرافيين العرب معلومات غزيرة ودقيقة عن أفريقيا . فقد كانت معلومات الإدريسى عن جهات أفريقيا الداخلية لاسيا غينيا والنيجر والسنغال ذات أهمية بالغة ، فقد تحدث عن أنهارها وأهم مدنها وزراعتها وعاداتها ، كما تحدث عن إقليم السودان الشرقى وإقليم منابع النيل ، ودفع الإدريسى المنطقة المسكونة إلى جنوب خط الاستواء[٧٣] . كما عرض معلومات عن النيجر فى الجزء الواقع أعلى تمبكتو ، وعن إقليم منابع النيل ومناطق كثيرة من السودان بدقة لا تنازع فيها . ولقد توصل البيرونى إلى معلومات قيمة عن أفريقيا الجنوبية وموزمبيق (سفالة الزنج) عن طريق التجار المسلمين .

وبناء على هذه المعلومات كان فى وسعه أن يلاحظ أنه فى خلال الصيف عندنا يسود الشتاء هناك . وبسط وجهة نظره باتصال البحر الجنوبى (المحيط الهندى) بالمحيط الأطلسى أى أن المياه تحيط بها من الجنوب[٧٤] . ولقد أورد المهلبى معلومات هامة عن السودان الشرقى . ولقد تضمنت رحلة ابن بطوطة معلومات اقتصادية وبشرية عظيمة الأهمية عن أفريقيا الغربية . ولقد شملت معلوماتهم ساحل أفريقيا الشرقى إلى خط عرض ٢٠ جنوبا ، فشملت ساحل موزمبيق الذى أطلقوا عليه اسم سفالة الزنج ، وانتشرت مناطق استيطانهم فى ممباسا وزنجبار وكلوا وملندة ، بل حتى جزيرة مدغشقر (قمر أو قمار) .

العلاقات التجارية مع قارة أوروبا :

إن العلاقات بصورة عامة بين العرب المسلمين والأوربيين أو بين العالم الإسلامى والعالم الأوروبى مرت بعدة مراحل :

أ ـ بدأت بفتح العرب لأسبانيا وجنوب فرنسا ، وجزء من إيطاليا وجميع جزير البحر المتوسط وقد تم فتح باري في إيطاليا سنة ٨٤٨ م ، وكان انقسام المسلمين على أنفسهم هو الذي حال دون إكمال فتح إيطاليا . وفي عام ٨٧٠ م غدت نابولي محطة للتجارة الإسلامية وكذلك بالرمو . وفي سنة ٩٣٥ م استولى بعض المغامرين المسلمين على جنوا(٧٥) .

ب ـ تبادل السفارات : وأشهر سفارة كانت تلك بين هارون الرشيد وشارلمان وكذلك سفارة ابن فضلان(٧٦) . وكان لحرية التجارة التي تحققت من هذه السفارات أثرها على أن يصبح الفرنجة وسطاء تجاريين بين عرب أوروبا والعالم الإسلامي .

جـ ـ انتشار الإسلام السلمي وإقامة مستوطنات إسلامية عربية لتشجيع التجارة .

د ـ الحروب الصليبية وانتقال الأوروبيين إلى قلب العالم الإسلامي .

وكان الوصول إلى أوروبا يتم برا وبحرا وذلك :

١ ـ من استراباد على بحر خزر وجورجيا إلى أراضي الخزر وهم أهم وسطاء تجاريين بين العرب ووسط وغرب أوروبا .

أو من Traxonia إلى Khiva على نهر Oxus إلى نهر الفولجا(٧٧) .

٢ ـ من البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا وعن طريق الأديج إلى البو ، كانت البضائع تصل إلى قلب إيطاليا وعن طريق مضيق برنر Brenner ، والمضائق الأخرى يتم الوصول إلى المانيا ووسط أوروبا .

٣ ـ عن طريق أسبانيا إلى جنوب فرنسا أو وسطها وغربها .

٤ ـ إلى بريطانيا وإيرلندة عن طريق البحر .

وكان التجار العرب يقصدون باستمرار شرق أوروبا ، وكانت لهم تجارة نشطة مع البلغار والروس . ولقد تم العثور على نقود عباسية ـ من عهود متأخرة (ذهبية وفضية) في مناطق كثيرة ، حيث وجدت بالقرب من بحيرة لادوجا وبالقرب من موسكو وفي منطقة حوض الفولجا الأوسط في ياروسلاف Jaroslave وفالديير وفي أستونيا(٧٨) .

وعمليا وجدت نقود في كل دول البلطيق من مخرج الأودر حتى خليج فنلندة والسويد والنرويج وأيسلندة وبريطانية(٧٩) . ولقد تم الكشف على أكثر من ١٣,٠٠٠ قطعة نقود (فضية وذهبية) في حدود روسيا الحديثة ، وبصورة خاصة في الحوض الأعلى والأوسط لنهر الفولجا ، وتعود هذه النقود إلى الفترة بين القرن السابع إلى بداية القرن السادس عشر(٨٠) .

ومن غير شك أن رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة ووصفه الجالية الإسلامية فى Alil ، والقبائل المختلفة فى وسط وغرب آسيا وشرق أوروبا أثرت على وضع معلومات قيمة تحت تصرف الجغرافيين كما فتحت الطريق أمام الرحالة العرب للسفر إلى تلك المناطق[٨١] .

ولقد وصل التجار والرحالة العرب إلى إسكندناوة ، فقد ذكر البيرونى أقطار الدول الإسكندنافية وأعطى معلومات عن البحر الجليدى إلى الشمال الشرقى من أوروبا[٨٢] . كما قدم إبراهيم الطرطوشى والقزوينى وصفا لشمال وسط أوروبا وغربها[٨٣] . كما استعمل الفن Finns اسماء عربية مثل سالم ، عمر ، سلمى ، ليلى .. الخ[٨٤] . ووصف ابن بطوطة وصفا دقيقا الزلاقات وطرق التعامل مع أهالى أراضى الظلام . ولقد حاول أن يزور تلك المناطق[٨٥] ، وكل هذه الشواهد تؤكد أن العرب قاموا برحلات تجارية مع الدول الإسكندنافية .

وكان الإسكندنافيون يصلون إلى البحر الأسود عن طريقين :

١ ـ الطريق الأول يسير مع النهاية الشمالية لشبه جزيرة إسكندناوة إلى البحر الأبيض (White Sea) .

٢ ـ الطريق الثانى يقطع بحر بلطيق إلى مدخل الدون ثم إلى الدنيبير وإلى القسطنطينية ، ومنذ القرن العاشر جابوا عباب الأزوف وعبر الدون والفولجا إلى بحر قزوين .

ولقد مرت العلاقات التجارية مع أوروبا بمرحلتين :

١ ـ من القرن السابع الميلادى إلى القرن العاشر الميلادى عمل العرب كوسطاء بين الشرق الأقصى والهند من ناحية وأوربا من ناحية ثانية حيث كان العرب يحملون البضائع من الصين والهند والشرق الأوسط إلى أسواق أوروبا ويحملون من أوروبا منتجاتها إلى الشرق الأوسط والهند والصين .

٢ ـ المرحلة الثانية بدأت مع الحروب الصليبية عندما بدأ الأوروبيون يفتشون عن أسواق تجارية ، ولقد أقام العرب علاقات تجارية طيبة مع مختلف الأقطار الأوربية .

١ ـ التجارة مع روسيا وبلاد القفجاق Al- Kapchak

إن النقود الفضية والذهبية الكثيرة التى تم العثور عليها فى روسيا تحمل بين طياتها الدليل القاطع على عمق العلاقات التجارية بين العرب وروسيا . ولقد تكلم ابن خرداذبة عن التجار الروس الذين اعتبرهم سلافاً والذين كانوا يسيرون مع الدون والفولجا إلى بحر

قزوين ، ثم يحملون جمالهم ويأخذونها من جنوب بحر قزوين إلى بغداد . وكانت تجارتهم تتكون من فراء الثعالب السود والسيوف .. الخ(٨٦) .

أما الخزر فى جنوب روسيا الذين يعيشون بين القفقاس والفولجا ، فكانوا وسطاء تجاريين نشطين وكان خط تجارتهم نهر الفولجا(٨٧) . وعندما زار ابن بطوطة مدينة سارا (Sara) كان هنالك تجار من العراق وسوريا ومصر ومناطق أخرى يعيشون فى أحياء معينة من المدينة(٨٨) .

٢ ـ العلاقات التجارية مع البلغار :

كانت العلاقات التجارية مع البلغار قوية ونشطة واعتاد المسلمون الذهاب إلى Bulgar ، ولقد استمرت التجارة نشطة ففى سنة ١٣٣٧ ذكر أن شمس الدين الكربلائى ذهب إلى البلغار واشترى العبيد من عوائلهم(٨٩) .

العلاقات التجارية مع دول البحر المتوسط الأوربية :

كانت العلاقات التجارية مع دول البحر المتوسط الأوربية نشطة ، وكان العرب يعرفون البحر المتوسط جيدا وقد حرروا جميع جزره .

ولقد أخذت التجارة مرحلتين :

١ ـ عندما فتح المسلمون العرب أسبانيا ، وجزءا من إيطاليا وجزر البحر المتوسط .

٢ ـ تبادل السفارات التى ساعدت على انتشار التجارة ، ولقد وجدت مستوطنات عربية إسلامية منتشرة على سواحل البحر المتوسط .

أ ـ العلاقات التجارية مع بريطانية :

ترجع العلاقات التجارية مع أوروبا إلى القرن السابع الميلادى ، وربما قبل ذلك ولقد امتدت هذه التجارة حتى بريطانية . وكانت هنالك اتصالات رسمية ووفود وسفارات متبادلة(٩٠) .

كان من نتيجة التجارة والرحلة أن أصبح لدى الجغرافيين العرب والمسلمين صورة واضحة عن أوروبا . فقد أشار البيرونى والمسعودى إلى شمال أوروبا على أن تلك المناطق يسودها البرد الشديد بحيث تتعذر الزراعة فيها ، وأما سكانها البحريون فيقتاتون على السمك . ولقد

حدد البيرونى بصورة صحيحة موقع المحيط الشمالى الذى يلتف حول شبه جزيرة إسكندناوه كما أطلق على سكانها اسم الورنك وأشار إلى براعتهم فى صناعة السيوف الحديدية . وقد سمع البيرونى بقصة ذلك الملاح الذى ضرب فى الأصقاع الشمالية فبلغ بقعة لا تغرب عنها الشمس صيفا ، ويورد لنا تفاصيل فريدة عن صناعة السيوف لدى الفرنجة والروس . وأمدنا البيرونى بمعلومات دقيقة ذات قيمة علمية عن بحر الثلج Ice- Sea فى الشمال الشرقى من أوروبا فكان ذلك تمهيداً لارتياد التجار العرب لتلك الأصقاع البعيدة .

أما الإدريسى فقد مد الأرض المعمورة فى شمال أوربا حتى فنلندة ، وشمال روسيا وبلاد اللال ووضعها فى الإقليم السابع الذى يمتد عمليا حتى درجة ٧٢ شمالا . كما تكلم الإدريسى عن صقلية وأسبانيا وإيطاليا ، وأعطانا معلومات قيمة لأنها تعتمد على الملاحظة الشخصية للمؤلف ، كما يدل وصفه لأوروبا الغربية : فرنسا وألمانيا واسكتلندة ، وإيرلندة وسواحل بحر الشمال على المقدرة والمهارة ، كما قدم لنا معلومات عن بولندة وروسيا ولكن بدقة أقل ، ولو أن ما قدمه عنهما لا يخلو من معلومات هامة . ولقد ظفرت رومانيا وسائر دول البلقان بتفصيل كبير ربما مرده إلى الحروب الصليبية ونمو العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى والشرق العربى الإسلامى .

ولقد أشار الجغرافيون المسلمون إلى أن النهار يطول فى جهات شمال القارة حتى يتجاوز (٢١) ساعة ، بينما تنعكس الآية فى فصل الشتاء . وتكلم القزوينى فى كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) عن بلاد (ويسو) حيث قال : إنها بلاد وراء بلاد البلغار بينهما مسيرة ٣ أشهر ، ذكروا أن النهار يطول عندهم حتى لا يروا شيئا من الظلمة ، ثم يطول الليل حتى لا يروا شيئا من الضوء ، وأهل بلغار يحملون إليها بضائعهم للتجارة . وقالوا عن بلاد (يورا) :

« إنها بلاد بالقرب من بحر الظلمات وإن النهار طويل جدا فى الصيف حتى إن الشمس لا تغيب عنهم مقدار أربعين يوما ، وفى الشتاء ليلهم طويل جدا حتى تغيب الشمس عنهم مقدار ٤٠ يوما » .

ولقد توغل العرب شمالا حتى قرب المنطقة القطبية الشمالية وتبادلوا البضائع مع سكان هذه المناطق الجليدية .

وهكذا ساهمت التجارة والتجار والرحالة فى إغناء معلومات الجغرافيين مساهمة كبيرة ،

ولعبت دورا هاما فى تطوير المعرفة الجغرافية ، بل إن البعض من الجغرافيين كان يمارس التجارة فضلا عن هوايته العلمية ولقد أفادت التجارة من الجغرافية كثيرا إذ بدأت الجغرافية تدرس المسالك والطرق والمسافات والبرود لفائدتها للتجار والرحالين ، كما قدمت معلومات قيمة عن المدن المختلفة والمسافات بينها والموانىء والبحار والمخاطر التى تكتنفها . كذلك قدمت الجغرافية معلومات قيمة عن الإنتاج الزراعى والصناعى للأقطار المختلفة والخامات الأولية المتوفرة فيها ليفيد منها التجار . كما فتحت التجارة آفاقا جديدة وواسعة أمام الجغرافى الذى طرق مواضيع ومناطق لم يسبق أن طرقها غيره من الجغرافيين السابقين من الأمم الأخرى .

ولقد تكلم الجغرافيون عن العادات والتقاليد والحرف والأديان والطبقات الاجتماعية والمأكل والملبس ، كما درسوا علاقة البيئة الطبيعية بالإنسان . فقد تكلم ابن خلدون فى مقدمته على أثر الحرارة على أخلاق البشر وبين ارتباط بنائهم الفسيولوجى بالأقاليم المناخية وأثر الخصب والجوع على سلوك الإنسان . كما تكلموا عن جغرافية المدن والخطط وحفلت أبحاثهم بالمعلومات الطبوغرافية والاقتصادية والبشرية . وقد أورد ابن خلدون فى مقدمته دراسة فذة عن نشأة المدن وتطورها . كما تناول الجغرافيون العرب النواحى المناخية والهيدرولوجية والجيومرفولوجية كما قدموا دراسات قيمة عن توزيع البحار والبحيرات والأنهار والنهيرات .. الخ ويمكن القول : إن العرب طرقوا جميع الفروع الجغرافية فبعضها مسوه مسا خفيفا ، والبعض الآخر قدموا فيه معلومات دقيقة وذات فائدة عظيمة .

٥٥٥

الحواشى

(١) أطلق العرب على الجغرافية الكلمة اليونانية عدة اسماء فسميت بعلم الأطوال والأعراض وعلم تقويم البلدان (وصف البلدان) وأما الجغرافية الوصفية فسميت « بعلم المسالك والممالك » أو علم البرود وفى بعض الأحيان سميت « علم عجائب الدنيا » كما فى عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى .

(٢) وردت إشارة عند المسعودى تفيد أنه رأى مراكب من النوع الذى يمخر عباب المحيط الهندى فى البحر المتوسط . هذه الإشارة يمكن الإفادة منها على أن هذه البواخر دارت حول رأس الرجاء الصالح وسارت مع الساحل الغربى لأفريقيا حتى مضيق جبل طارق ثم دخلت إلى البحر المتوسط .

(٣) عبد العليم ، الدكتور أنور « ابن ماجد الملاح » . ص ٣٣

(٤) أشار المرحوم عباس محمود العقاد « أن العرب سبقوا سائر الأمم إلى معرفة تيار الخليج الدافئ وخواصه وحركته من المكسيك إلى إيرلنده . فكانوا يركبونه من موطن إلى موطن بحيث كانوا يدهشون سكان جزر المانش (أى جزر القصدير) وأهالى جزر إيرلندة ، فكانوا إذا ظعنوا إلى أنحاء المكسيك مكث بعضهم وعاد القليلون منهم إلى بلادهم . ونعرف أنهم كانوا يقيمون فى الديار التى عرفت بعد ذلك بالمكسيك من اسماء الحيوانات التى سموها بها ، وهى أسام تعرف بها إلى اليوم لكن لا يفقه أهلها معانيها ولا علماء الغرب الذين اتخذوها .

« أثر العرب فى الحضارة الأوربية » ص ٥٤ .

وفى مقال للدكتور شاكر مصطفى أشار إلى أن العرب هم المكتشفون الحقيقيون للقارة الأمريكية وصاحب النظرية الأستاذ Jeffreys أستاذ الإنثربولوجيا الاجتماعية فى جامعة Witwatersrand فى ترانسفال ، وهو يرى بأن هذا الكشف قد تم حوالى سنة الف للميلاد أو بعد ذلك بقليل أى قبل كولمبوس بخمسة قرون ، ويورد الدكتور شاكر الأدلة التالية .

أ ـ وجود جماجم ترتبط بالمجموعة الحامية فى بعض كهوف جزر بهاما وتعود إلى أكثر من ١٠ قرون .

ب ـ وجود البطاطا فى جزر البحر الكاريبى حين وصول كولمبوس وهى زراعة أفريقية الأصل .

ج ـ وجود زراعة الذرة والبوكا فى أفريقيا قبل مولد كولمبوس بكثير وهما زراعتان أمريكيتان معروفتان . وإن القلقشندى الذى كتب صبح الأعشى قبل قرن من كولمبوس يذكر عن أهل بلاد تكرور قوله « وعندهم الذرة وهى أكثر حبوبهم » .

د ـ لقد أثبت كتاب عصر الاكتشافات أمثال (ارفنج) و(بدروماريتير) من وجود قبائل من المغاربة السمر فى بعض البقاع المكتشفة (مثل منطقة كاراكاس) وقد وصفوهم بأنهم متكبرون قساة .

هـ ـ ما ذكره فاسكودى بلباو مكتشف المحيط الهادى (قبل ماجلان) عبر برزخ داريان ـ بانما من أنه وجد ثمة شيوخ القبائل يعتمرون العمائم ويرتدون الجلاليب الواسعة من النسيج القطنى الأبيض على النمـوذج العربى .

و ـ فى كولومبيا شعب أسمر فاتح السمرة ولنسائه جمال يحاكى جمال العروق البيضاء وهو يزرع البطاطا وينسج القطن ويعتقد الدكتور شاكر مصطفى أن محمد بن فو سلطان المنطقة الإسلامية بين جنوب المغرب حتى

السنغال ومالى والتى عرف القدماء بعضها باسم شنقيط وتكرور ومالى هو الذى اكتشف أمريكا . إذ جهز ألفى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد وسار بنفسه .

« من اكتشف امريكا » ص ١٦ ـ ٢١ جامعة الكويت والمجتمع ١٩٦٨/٦٧ .

ولقد أشار الأب أنستاس مارى الكرملى إلى الألف واللام الموجودة فى اللهجات الأمريكية وهى عربية . كذلك عثر على بعض المعادن المخلوطة بنسب معينة لا توجد إلا فى غرب أفريقيا بنفس النسبة . كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن العرب وصلوا أمريكا قبل كريستوف كولبس بمدة طويلة .

(٥) طلب الحجاج أن تصور له الديلم سهلها وجبالها وعقابها وغياضها فصورت له .

(٦) بعث عمر بن عبد العزيز إلى واليه فى الأندلس السمح بن مالك الخولانى بأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها .

(٧) فارسى الأصل بغدادى النشأة توفى حوالى ٣٠٠ للهجرة وقد تولى إدارة البريد فى منطقة الجبال ، ووضع كتاب المسالك والمالك فى أواسط القرن التاسع الميلادى ، وكان وضع الكتاب بعد تكليف من الخليفة المعتمد .

(٨) سورة الملك الآية ١٥ .

(٩) سورة الزمر الآية ٩ .

(١٠) خصباك ، دكتور شاكر فى الجغرافية العربية : ص ١٠٥ .

أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي الينبعي . ولد فى ينبع بجوار المدينة عاش فى بلاد الأمير السامانى نصر بن أحمد بن اسماعيل ما بين ٣٠١ ـ ٣٣١ هـ (٩١٣ ـ ٩٤٢) روى أن مبعوثا هنديا من قبل الأمير الهندى كلا تلى بن شخبار قصد بلاط الأمير السامانى فى سفارة ودية فلما عادت البعثة رافقها أبو دلف الذى زار كشمير وكابل وسجستان وساحل ملبار وكرماندل .

أحمد ، نفيس : جهود المسلمين فى الجغرافية ص ٥١ ـ ٥٢ .

(١١) سورة النساء الآية ٧٨ .

(١٢) عبد العليم الدكتور أنور : ابن ماجد الملاح : ص ٣٠ .

(١٣) خصباك ـ دكتور شاكر نفس المصدر : ص ٢٣٩ .

(١٤) للبدو معين لا ينضب من تجاربهم فى مجال الجغرافية الفلكية ولترحالهم فى الليل والاهتداء بالقمر والنجوم . فاستطاعوا توقيت ساعات الليل بفضل طلوعها ومغيبها وحددوا عدد منازل القمر الـ ٢٨ منزلا وأعطوا لكل واحد اسما عربيا وعرفوا حوالى ٢٥٠ نجما اطلقوا عليها اسماء عربية جمعها الفلكى عبد الرحمن الصوفى المتوفى سنة ٣٧٦ هـ / ٩٧٦ م .

(١٥) راجع صروف ، الدكتور يعقوب : بسائط علم الفلك .

كانت بعض جوانب الفلك يطالب المسلم بمعرفتها كتعيين أوقات الصلاة واتجاه المسلمين إلى الكعبة وصلاة الخسوف التى يقتضى معرفتها معرفة حركات النيرين (الشمس والقمر) وكذلك هلال رمضان ... الخ .

(١٦) سورة قريش الآية ٢/١ .

(١٧) Al- Feel, The Historical Geography of Iraq : Vol. ii P. 50

(١٨) « صبح الأعشى » ح٢ ص ٩٣ .

(١٩) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة : ص ٥٥ ، ١٦٠ .

حتى فيليب : تاريخ العرب : ح٢ ص ٣٧٩ .

(٢٠) ابن الفوطى : نفس المصدر ص ٤٣٠ .

(٢١) المقريزى : كتاب السلوك فى معرفة الملوك : ح ٢ ص ٤٤٦ .

العزاوى المحامى عباس « تاريخ العراق بين احتلالين » : ح ١ ص ٢٦٠ .

(٢٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك : ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢٣) Beazley: The Dawn ot Modern geography: Vol. Ip. 409 Al- Feel, op. cit: Vol. ii p. 65

(٢٤) الدورى دكتور عبد العزيز : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ص ١٦٢ .

(٢٥) ابن بطوطة : رحلة بن بطوطة : ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٢٦) Broomhall : Islam in china : p. q

(٢٧) Ibid. p.8

(٢٨) ابن رستة « الأعلاق النفيسة : ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، اليعقوبى : فتوح البلدان : ص ٥٤٠ .

(٢٩) ابن خرداذبه : نفس المصدر : ص ١٥٤ Beazley. vol. I. P. 417. Broomhall P. 47

(٣٠) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى : ح ١ ص ٢٩٨ ، عواد : المآصر فى بلاد الروم والإسلام : ص ١٣ Al- Feel, op. : vol ii p. 79

(٣١) البيرونى : كتاب الهند . ص ٩٦ ، خصباك . « فى الجغرافية العربية » : ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

(٣٢) الدورى ، دكتور عبد العزيز . نفس المصدر : ص ١٤٤ الفيل العلاقات التجارية بين العراق والصين فى القرون الوسطى ص ١ .

(٣٣) Arnold, Legacy of Islam: p. 96.

(٣٤) أحمد نفيس : جهود المسلمين فى الجغرافية ص ٦٥ .

(٣٥) Arnold: Legacy of islam: p. 95

Broomhall. op: cit. p. 8

استنادا إلى ابن بطوطة (ص ٢٨٨) أن المسلمين كانوا يعيشون فى مدينة زيتون والمدن الأخرى فى أحياء خاصة بهم .

(٣٦) نفس المصدر : ص ٢٩٠ .

(٣٧) Broomhall. pp. 13- 14. Beazley. Vol. Ip. 348

(٣٨) Ibid. P.8

(٣٩) حتى فيليب : تاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

(٤٠) Broomhall. P. 25

Arnold. P. 95

(٤١) الدورى ص ١٦١ Beazley vol. IP. 417. Arnold. P. 95

(٤٢) Chesney: The expedition For the surveyof the River Euphrates Ond Tigris: Vol. P. 584

(٤٣) المسعودى ج ١ ص ٣٠٢ ـ ٣٧ الدورى ص ١٦١ Beazley. Vol. Ip. 398

المسعودى ج ١ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٧ Beazley. Vol. Ip 398

(٤٤) الفيل ص ٤ ـ ٥ Beazley. Vol. II p. 444 (Foot note)

(٤٥) الدورى ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ المسعودى ح ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ Beazley. Vol. I p. 401

(٤٦) الدورى ص ١٦١ .

(٤٧) المسعودى ح ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ الدورى ص ١٥٠ Beazley. Vol. Ip 401

(٤٨) Spies, Otto: An Arab account of India in the 14 th Century: p. 3

(٤٩) Beazley. Vol. Ip. 401

(٥٠) Spies. pp. 58-59

(٥١) ميناء بحرى على بعد ٢٤ ميلاً جنوب غرب Tatta الحالية .

الدورى ص ١٤٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٣٤٩ القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٤ .

(٥٢) كانت على بعد (٥) أميال غرب بهمان آباد .

(٥٣) المسعودى ج ١ ص ٣٧٥ ، ٣٧٨ الدورى ص ١٤٥ ، ابن بطوطة ص ١٨٤ ، ابن حوقل ص ٣٢٢ . ابن رسته ص ١٣٧ .

(٥٤) صيمور تقع بالقرب من بمباى الحالية . المسعودى ح ٢ ص ٨٥ .

(٥٥) الدورى ص ١٤٦ Beazley. vol. Ip 398

(٥٦) فى القرن التاسع الميلادى اعتنق حاكمها الإسلام وفتح دولته للتجار المسلمين Beazley vol. I pp. 398-399

(٥٧) يمكن أن Hill تمثل Nileshwar ابن بطوطة ص ٢٣٤ .

(٥٨) اندثرت كلتا المدينتين بعد أن أنشأ البرتغاليون المحطات التجارية فى القرن السادس عشر الميلادى .

(٥٩) آدم متز ح ٢ ص ٢٦٣ ، الدورى ص ١٤٦ ـ ١٥٠ Beazley. Vol. Ip 234

(٦٠) الدورى ص ١٥٠ .

(٦١) آدم متز ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٦٢) Beazley. Vol. Ip 398

(٦٣) آدم متز ح ٢ ص ٣٢٢ Beazley. Vol I pp 35-424, Arnold p 95

(٦٤) ابن خرداذبة « المسالك والممالك » ص ١٧٨ .

مسكويه : تجارب الأمم ح ٣ ص ٦٤ .

أحمد نفيس : ص ١٣ .

(٦٥) الفيل . نفس المصدر ح ٢ ص ١٠٢ .

(٦٦) الدورى ص ١٦١ ـ ١٦٢ Beazley. Vol. Ip 400

(٦٧) أحمد نفيس ص ١٣ .

(٦٨) يعتقد أن كمبالو إما مدغشقر أو زنجبار أو بمبا .

(٦٩) تم فتح جزيرة كمبالو من قبل الأمويين الفارين من الحكم العباسى .

(٧٠) نفس المصدر ص ١٢ .

سافر المسعودى إلى زنجبار ولاحظ بأن الحكام كانوا مسلمين : نفس المصدر ح ٣ ص ٣١ .

(٧١) الفيل ح ٢ ص ١٠٤ Beazley vol. II p 260

Arnold. P. 101

(٧٢) Beazley. Vol. III P. 147

(٧٣) كان الاعتقاد السائد عند اليونان والرومان حتى عند بعض الجغرافيين العرب أن منطقة خط الاستواء غير مسكونة نظرا لشدة الحرارة فيها وتعامد الشمس عليها مرتين على الرغم من أن العرب تاجروا مع سكانها من الزنوج .

(٧٤) نفيس أحمد ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٧٥) Beazley. Vol. ip. 168, 204 vol. II p. 418

الجزر التى فتحها العرب :

قبرص ـ رودس ـ كريت ـ صقلية ـ سردينيه ـ كورسيكا ـ ميورقا ـ ماجورقا ـ مالطة .

الفيل ج ٢ ص ١١٢ حاشية .

(٧٦) فى سنة ٩٢١ م أرسل الخليفة المقتدر بالله سفارة إلى البلغار فى الفلجا من الذين دخلوا الإسلام حديثا . ولقد كتب ابن فضلان هذه الرحلة حيث ذكر ما وجد فى أراضى الأتراك والخزر والروس والصقالبة والأقوام الأخرى ابن رستة ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

Beazley vol. I P. 435

Blakeand Frye, Notes on the Risala of Ibn Fadlan. P. Q

(٧٧) Arnold p. 100, Beazley vol. ip. 402

(٧٨) الفيل فى ٢ ص ١١٥ .

(٧٩) الدورى ص ١٥٣ ، حتى فيليب ص ٣ ـ ٤ Kirk, 'A short History of the Middle East From the rise of Islam to modern times', P. 28

Beazlay. vol II p. 462, Volipp. 200 — 201 Arnold. p. p. 100- 101

(٨٠) الدورى ص ١٥٣ Kirk p. 28, Eeazley vol. II p. 462

(٨١) Arnold p. 100

(٨٢) نفيس أحمد ص ١١ Blake pp. Q, 19

(٨٣) Lewis, Bernard, the Moslem Discovery of Europe p. 410

(٨٤) الفيل ح ٢ ص ١١٧ .

(٨٥) نفس المصدر : ١٥٠ .

(٨٦) ص ١٥٤ .

(٨٧) الفيل ح ٢ ص ١٢٣ .

(٨٨) تقع بالقرب من مدينة تساريف (Tsarev) الحالية ٢٢٥ ميلا فوق استرخان . ابن بطوطة ص ٣٥٨ .

(٨٩) الفيل ح ٢ ص ١٢٥ .

(٩٠) Howorth, History of the Mongols From the 9 th Century A.D. to the 19 th Century, vol III. p. 353

فى عام ١٢٧٤ تسلم أباقا خان (الألخانى فى العراق) رسالة من الملك ادوارد البريطانى .



المصـــادر الإفرنجيـــة

Al - Feel, Dr. M. R: The Historical Geography of Iraq between the Mongolian and otto man Conquests 1258 - 1534
Vol. ii
Baghdad 1967
Arnold, Sir Thomas: The Legacy of Islam:
oxford 1931
Beazley. C. Raymond: The Dawn of Modern Geography:
3 Vols.
London 1897
Broomhail, Marshal: Islam in china:
London MCMX
Chesney, Lt. Col: The expedition For the Survey of the rivers Euphrates and Tigris 2 Vols. London 1938.
Spies, Otto: Ar Arab account of India in the 14 th century:
Stuttgart 1936.



المصـــادر العربيـــة

١ ـ ابن بطوطة : رحلات فى آسيا وأفريقيا ١٣٢٥ ـ ١٣٥٢

ترجمة Gipp

London 1929

٢ ـ ابن جبير : رحلة ابن جبير :

القاهرة ١٩٠٨ .

٣ ـ ابن حوقل : صورة الأرض : ١٩٣٨

٤ ـ ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك :

ليـــدن ١٣٠٦ هـ .

٥ ـ ابن رستة : كتاب الأعلاق النفسية :

ليـــدن ١٨٩١ م .

٦ ـ ابن سعيد المغربى : كتاب عجائب الأقاليم السبعة :

« جغرافية ابن سعيد المغربى » .

٧ ـ ابن الفوطى : الحوادث الجامعة :

بغداد ١٣٥١ هـ .

٨ ـ أبو الفداء : تقويم البلدان :

باريس ١٨٤٠ .

٩ ـ أحمد نفيس : جهود المسلمين فى الجغرافية : القاهرة .

ترجمة : فتحى عثمان .

مراجعة : على أدهم .

١٠ ـ آدم متز : نهضة الإسلام : القاهرة ١٩٤١ .

١١ ـ الادريسى : كتاب نزهة المشتاق :

باريس ١٨٤٠ .

١٢ ـ البكرى ، الأندلس ، أبو عبيد الله : كتاب معجم ما استعجم :
القاهرة ١٩٤٥

١٣ ـ البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ·

١٤ ـ الإصطخرى : كتاب الأقاليم : ١٨٦٦ ·
كتاب المسالك والممالك : القاهرة ١٩٦١ .

١٥ ـ التوانسى ، أبو الفتوح محمد : ياقوت الحموى :
القاهرة ١٩٧١ ·

١٦ ـ الحموى ، ياقوت : معجم البلدان : ليبزج ١٨٦٦ .

١٧ ـ الدورى ، دكتور عبد العزيز : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى :
بغداد ١٩٤٧ .

١٨ ـ العزاوى ، المحامى عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٣٦ ـ ١٩٤٩ .

١٩ ـ العقاد ، عباس محمود : أثر العرب فى الحضارة الأوربية : القاهرة .

٢٠ ـ الصيحى ، محمد ابراهيم : العلوم عند العرب : القاهرة .

٢١ ـ الفيل ، دكتور محمد رشيد : العلاقات التجارية بين العراق والصين فى القرون الوسطى : بغداد ١٩٦٤ ·

٢٢ ـ القزوينى : كتاب آثار البلاد وأخبار العباد : جوتنجن ١٩٤٨
كتاب عجائب المخلوقات : جوتنجن ١٩٤٩ ·

٢٣ ـ القلقشندى : صبح الأعشى :
القاهرة ١٩١٣ ·

٢٤ ـ المسعودى : مروج الذهب : باريس
التنبيه والإشراف :
ليدن ١٨٩٣ ·

٢٥ ـ المقدسى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم :
ليدن ١٨٧٧ .

٢٦ ـ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب :
القاهرة ١٩٢٣

٢٧ ـ الهرمزى ، بزرك بن شهريار : كتاب الهند برها وبحرها وجزائرها :
ليـــدن ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦ .
٢٨ ـ اليعقوبى : كتاب البلدان :
ليـــدن ١٨٩١ .
٢٩ ـ بارتولد ، ف : تاريخ الحضارة الإسلامية :
القاهرة .. ترجمة حمزة طاهر .
٣٠ ـ جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى :
القاهرة ١٩٠٢ .
٣١ ـ حوارنى ، جورج فضلو : العرب والملاحة فى المحيط الهندى :
القاهرة : ترجمة : الدكتور السيد يعقوب بكر .
٣٢ ـ خصباك الدكتور شاكر : فى الجغرافية العربية :
بغـــداد ١٩٧٥ .
٣٣ ـ ديلاسى أوليرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ :
القاهرة ١٩٦١ .
ترجمة : دكتور تمام حسان
مراجعة : دكتور محمد مصطفى حلمى .
٣٤ ـ عبد العليم ، دكتور أنور : ابن ماجد الملاح :
الإسكندرية ١٩٦٦ م .
٣٥ ـ عواد ، ميخائيل : المآصر فى بلاد الروم والإسلام
بغـــداد ١٩٤٨ .
٣٦ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب :
بيـــروت ١٩٥٣ .
٣٧ ـ كراتشكوفسكى ، اغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافى العربى :
القاهـــرة ١٩٦١
ترجمة : صلاح الدين هاشم .
٣٨ ـ محمد حسن ، صبرى : الجغرافيون العرب : الجزء الأول
النجف ـ العراق ١٩٥٩ .

٣٩ ـ مسكويه : تجارب الأمم :
أوكسفورد ١٩٢٠ .
٤٠ ـ مظهر جلال : مآثر العرب على الحضارة الأوربية :
القاهـــرة ١٩٦٠ .
٤١ ـ ناصر خسرو علوى : سفرنامه : القاهرة ١٩٤٥
ترجمة : الدكتور يحيى الخشاب .

ooo

المخطوطات الجغرافية الإسلامية فى مكتبات إستانبول

دكتور / عثمان أوزتورك



اسم المخطوط : الروض المعطار فى خبر الأقطار (العربية) .
اسم المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أبى عبد الله محمد الحميرى/ت٠/٩٠٠ هـ .
اسم المستنسخ : محمد بن محمد زين الدين القبانى .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجـــد .
عدد الأوراق والخط : ٤٠٩ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٧٩ × ١٨٥ ، ١٩٩ × ١١٩ سم٢ ٣١ سطراً .
مكتبة : نورى عثمانية (بقسم بايرام باشا) رقم ٤٥٠٤/٤٤ .
ملاحظة : يضم معلومات واسعة عن الجبال والأنهار .
والبحار والمسافات بين البلاد مرتبة على حروف الهجاء .

اسم المخطوط : أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك (العربية) .
اسم المؤلف : محمد بن على بن السباهي (سباهي زاده) ت٠/٩٩٧ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجد ، من المحتمل أن يكون خط المؤلف .
تاريخ التأليف : ٩٨٤ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٢١٩ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢١٠ × ١٤٥ ، ١٣٧ × ٨٠ سم٢ ١٩ سطراً .
مكتبة : نورى عثمانية ، رقم ٤٦٩٣/٤١٥٦ .
ملاحظة : يحتوى على معلومات نافعة عن البلدان والممالك مرتبة على حروف الهجاء .

اسم المخطوط : اسماء البلدان (العربية) .
اسم المؤلف : أبو الفتح محمد بن جعفر بن محمد الهمداني (ابن المراغي) .
ت٠/ ٣٧١ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجـــد .

تاريخ الاستنساخ : ٩٤٥ هـ .
عدد الأوراق والخط : ١٨٣ ورقة ، تعليق .
الأبعاد والسطور : ٢١٠ × ١٤٥ ، ١٢٠ × ٧٠ سم^{2} ١٧ سطراً .
مكتبة : فيليج على باشا (السليانية) رقم ٧٢٣ .
ملاحظة : يتحدث عن المدائن والبقاع والأمكنة .

اسم المخطوط : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار (العربية) .
اسم المؤلف : محمد بن إياس الحنفي ت٠/٩٣٠ .
اسم المستنسخ : منصور بن سالم الأزهرى .
تاريخ الاستنساخ : ١٠٤٤ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٢٤٤ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٩٩ × ١٦٩ ، ٢٠٠ × ١٠٩ سم^{2} ، ٢٥ سطراً .
مكتبة : نور عثمانية ، رقم ٢٦٠٢/٣٠٣٩ .
ملاحظة : يضم معلومات عن الأقاليم السبعة والأفلاك وأشكال الأراضي والزراعة .

اسم المخطوط : خريدة العجائب وفريدة الغرائب (العربية) .
اسم المؤلف : زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى ت/ ٧٤٩ هـ .
اسم المستنسخ : شرف الدين موسى بن جمال الدين .
تاريخ الاستنساخ : ٩٨٧ هـ .
عدد الأوراق والخط : ١٨٤ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ١٩٥ × ١٢٩ ، ١٣٧ × ٨٠ سم ، ١٩ سطراً .
مكتبة : نور عثمانية رقم ٢٥٨٤/٣٠٢٠ .
ملاحظة : يعطى معلومات مفيدة عن البلاد والأمكنة والجبال والأنهار والجزر .. ويحتوى خريطة .

اسم المخطوط : آثار البلاد وأخبار العباد (العربية) .
اسم المؤلف : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ت٠/٦٨٢ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجـد .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجـد .
عدد الأوراق والخط : ٢٤٣ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٥٠ × ١٦٥ ، ١٦٨ × ٩٨ سم ، ٢٣ سطراً .
مكتبة : يكى جامع (السليمانية) رقم ٨١٢ .
ملاحظة : يتحدث عن المدائن والبقاع والأمكنة .

اسم المخطوط : كتاب الممالك والمسالك (العربية) .
اسم المؤلف : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ت٠/٤٨٧ .
اسم المستنسخ : يوسف الكمرى .
تاريخ الاستنساخ : ٧٣٧ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٧٧ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٩٠ × ٢٠٠ ، ٢٣٠ × ١٤٠ سم^{٢} ، ٣١ سطراً .
مكتبة : لاله لى (السليمانية) رقم ٢١٤٤ .
ملاحظة : فى بداية المخطوط يعطى معلومات عن الأنبياء عليهـم السـلام وبعـد هذه المعلومات التاريخية يتحدث عن البلدان والبقاع .

اسم المخطوط : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (العربية) .
اسم المؤلف : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت٠/٧٣٩ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجـد .
تاريخ الاستنساخ : ١١٠٠ هـ (قد استنسخ من نسخة المؤلف) .
عدد الأوراق والخط : ٢٤٥ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٣٧ × ١٦٠ ، ٢٠٠ × ١٠٦ سم ، ٢٧ سطراً .

مكتبة : فاتح (السليمانية) رقم ٣٤١٣ .
ملاحظة : يعطى معلومات واسعة عن الجبال والأنهار والجزر والبحار .
مرتبة على حروف الهجاء .

اسم المخطوط : تحفة العجائب وطرفة الغرائب (العربية) .
اسم المؤلف : عز الدين على بن محمد بن الأثير الجزرى .
اسم المستنسخ : لا يوجـد .
تاريخ الاستنساخ : ١٠٣٤ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٢٤٩ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٠٩ × ١٤٢ ، ١٥٦ × ٧٦ سم٢ ، ٢١ سطراً .
مكتبة : رئيس الكتاب (السليمانية) رقم ١٠٠٧ .
ملاحظة : يعرف بالبلدان والأنهار والجبال والبحار والجزر التى تحتويها .

اسم المخطوط : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (العربية) .
اسم المؤلف : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت/٩١١ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجـد .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجد .
عدد الأوراق والخط : ١٦٣ ورقة ، تعليق .
الأبعاد والسطر : ٢٨٧ × ١٧٣ ، ١٩٤ × ٩٠ سم٢ ، ٢٩ سطراً .
مكتبة : يكى جامع (السليمانية) رقم ٧٩٣ .
ملاحظة : يضم معلومات مختصرة عن كل بلدان العالم .

اسم المخطوط : تقويم البلدان (العربية) .
اسم المؤلف : أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن على الأيوبي ت/٧٣٢ هـ .

اسم المستنسخ : لا يوجـــد .
تاريخ التأليف : ٧٢١ هـ (بخط المؤلف) .
عدد الأوراق والخط : ١١٦ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٧٧ × ١٦٥ ، ٢٠٠ × ٨٠ سم ، ٢٩ سطراً .
مكتبة : نور عثمانية رقم ٢٥٦٧/٣٠٠٢ .
ملاحظة : يحتوى على معلومات واسعة عن الأقاليم السبعة والبلدان والممالك ويضم الجداول التى تشير إلى المسافات بين البلدان والأمكنة .

اسم المخطوط : روض الفرج ونزهة الماهج (العربية) .
اسم المؤلف : محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسينى .
اسم المستنسخ : محمد مهدى .
تاريخ التأليف : ٥٨٨ هـ .
عدد الأوراق والخط : ١٢٠ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٤٠ × ٢٤٠ ، ٢٤٠ × ١٣٥ سم ، ٢١ سطراً .
مكتبة : حسين حسنى باشا (السليمانية) رقم ١٢٨٩ .
ملاحظة : يتحدث عن بلدان العالم ويحتوى على الخرائط المفيدة التى تشير إلى الأمكنة والجبال والأنهار والجزر .

اسم المخطوط : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (العربية) .
اسم المؤلف : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ت/٦٢٦ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجـــد .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجد .
عدد الأوراق والخط : ٢٢٦ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٣٠ × ١٣٥ ، ١٦٤ × ٧٨ سم^2 ، ٣١ سطراً .
مكتبة : رئيس الكتاب (السليمانية) رقم ١٠١٠ .

ملاحظة : يعرف بالبلاد من الناحية الجغرافية مرتبة على حروف الهجاء .

اسم المخطوط : أسنى المطالب وأنس اللبيب الطالب (نسخة للمؤلف) « العربية » .
اسم المؤلف : عبد الله بن صلاح بن داعر .
اسم المستنسخ : لا يوجد .
تاريخ التأليف : ١٠١٣ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٦٦ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢٥٣ × ١٦٩ ، ١٨٩ × ١٠٩ سم ، ١٥ سطراً .
مكتبة : نور عثمانية رقم ٢٥٥١/٢٩٨٦ .
ملاحظة : يضم معلومات مختصرة عن البلدان والممالك والمسافات بين البلاد والأمكنة.

اسم المخطوط : نزهة القلوب (الفارسية) .
اسم المؤلف : حمد الله بن أبي بكر بن أحمد القزويني ت٠/٧٥٠ هـ .
اسم المستنسخ : أنوري بن بياني .
تاريخ الاستنساخ : ٨٨١ هـ .
عدد الأوراق والخط : ٣٥٤ ورقة ، تعليق .
الأبعاد والسطر : ٢٥٧ × ١٧٦ ، ١٨٥ × ١٠٠ سم ، ١٩ سطراً .
مكتبة : فاتح (السليمانية) رقم ٤٥١٧ .
ملاحظة : يتحدث عن الممالك والبقاع والجبال والأنهار والبحار والجزر .

اسم المخطوط : مرآة الكائنات (التركيـة) .
اسم المؤلف : حسام الدين جليل بروسوى ت٠/١٠٤٢ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجد .
تاريخ الاستنساخ : ١١٢٦ هـ .

عدد الأوراق والخط : ١١٩ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢١٣ × ١٥٨ ، ١٥٥ × ١٠٥ سم٢ ، ١٩ سطراً .
مكتبة : عاشر أفندى (السليمانية) رقم ١٧٠/٢.
ملاحظة : يعرف بالبلاد من الناحية الجغرافية ويعطى معلومات عن البلدان والممالك ويحتوى على أشكال مختلفة .

اسم المخطوط : كتاب فى الجغرافية (التركيــة) .
اسم المؤلف : لا يوجــد .
اسم المستنسخ : لا يوجــد .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجد .
عدد الأوراق والخط : ١١٣ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ١٨٤ × ٢٤٧ سم٢ ، ١٩ سطراً .
مكتبة : أسعد أفندى (السليمانية) رقم ٣٠٤٣.
ملاحظة : يحتوى على خرائط كثيرة ويشير فيها إلى الجبال والأنهار والجزر والأماكن .

اسم المخطوط : تحفة الزمان وخريدة الأوان (التركيــة) .
اسم المؤلف : مصطفى بن على الموقت ت٠/٩٧٩ هـ .
اسم المستنسخ : لا يوجــد .
تاريخ التأليف وتاريخ الاستنساخ : لا يوجد .
عدد الأوراق والخط : ٢٢٨ ورقة ، نسخ .
الأبعاد والسطر : ٢١٢ × ١٣٣ ، ١٣٣ × ٧٠ سم٢ ، ١٩ سطراً .
مكتبة : نور عثمانية رقم ٢٥٥٦/٢٩٩٣ .
ملاحظة : يضم معلومات نافعة عن الجغرافية والنجوم .



منهج العلماء المسلمين فى البحث الجغرافى

دكتور / محمد محمود الصياد



أسهم العلماء المسلمون إسهاما فعالاً فى تطوير الفكر الجغرافى ، فقد كان الحج إلى بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا ركنا من أركان الإسلام . والحج رحلة تتطلب معرفة الطرق إلى البيت الحرام ، وما على هذه الطرق من موارد الماء ، وما بها من منازل القبائل وأماكن الراحة . وكان تجمع المسلمين فى الحج عاملا له أهميته فى زيادة التعارف بينهم ، وتبادل المعلومات عن أقطارهم ، وهم من أجناس مختلفة ، تنتمى إلى بيئات طبيعية واجتماعية متباينة . ومن ثم كان لقاؤهم أشبه بالمؤتمرات فى العصر الحديث يتبادل فيها الرأى ، وتتسع آفاق المعرفة .

واتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبح من الضرورى الوقوف على أحوال البلاد التى فتحها الله على المسلمين ومعرفة الطرق التى تربط بين أجزاء الدولة المتباعدة ، والمسافات بين الأماكن بعضها وبعض . فظهر لفيف من العلماء أولوا اهتمامهم بما أسموه « تقويم البلدان » وكثرت فى هذا الميدان كتبهم ومصنفاتهم ، ولاتزال هذه المصنفات وإن بعد بها العهد ـ تمثل مرحلة بارزة فى التاريخ العام للفكر الجغرافى .

ومع اتساع الدولة اتصل المسلمون بالحضارات القديمة ، وكان علماؤهم من رجاحة العقل ورحابة الفكر بحيث أخذوا من هذه الحضارات ما وجدوه يتفق مع المنطق السليم ، ولا يتعارض مع الدين الحنيف ، وهكذا أصبحوا ورثة العلم القديم الذى كان على وشك الاندثار بسبب ما فرضته الكنيسة من قيود على الدراسات العلمية ، وبخاصة ما يتصل منها بالكون ، وعدت مثل هذه الدراسات ضربا من ضروب الهرطقة فى حين كان الإسلام يدعو إلى التبصر فى آيات الله فى الآفاق ؛ ففيها أصدق الدليل على وجوده وعظمته وقدرته .

« إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ » (١)

« فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » (٢)

« وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (٣)

وهذه وأمثالها آيات يرددها القرآن الكريم. وكلها تدعو إلى النظر فى الكون، ومأأودعه

الله فيه من آيات . فلم يكن غريبا بعد هذا أن يهتم علماء المسلمين بالجغرافية ، فهى ليست سوى دراسة الأرض . وما لها من مظاهر ، وما فيها من بحار ، وما يسقط عليها من مطر ، وما ينمو فيها من نبات ، وما يعيش عليها من أحياء . وإن يكن هؤلاء العلماء لم يستخدموا لفظ « الجغرافية » للدلالة على العلم الذى يدرس الأرض إلا فى القرن الرابع الهجرى . وكانوا من قبل يستعملون اللفظ عنوانا لكتاب بطليموس الذى نقلوه عن اليونانية .

وكانت الجغرافية الفلكية والرياضية هى أول الفروع التى استأثرت باهتمام العلماء المسلمين . فقد كان هذا هو شأن المدرسة القديمة التى نقلوا عنها . وترجموا الكثير من تراثها ، ولكنهم أضافوا الجديد من عندهم إلى ما نقلوا ، حتى أصبحت لهم فى نهاية الأمر مدرسة إسلامية خاصة بهم . وكان من رواد هذا الميدان الخوارزمى وسهراب ويعقوب الكندى وغيرهم .

ثم ما لبث العلماء أن اتجهوا إلى الجغرافية الطبيعية ، فكتبوا فيها فصولا ممتعة ، وأثروا الفكر الجغرافى بإضافاتهم المبتكرة فى شتى نواحيها ، فكان لهم فضل السبق فى وضع الأسس العلمية لدراستها ، وكان منهجهم فيها أنها تشمل الأغلفة الثلاثة : الغلاف الصخرى Lithosphere والغلاف الجوى Atmosphere والغلاف المائى Hydrosphere . ومن ثم عنوا بها جميعا . فدرسوا أشكال سطح الأرض . وأرجعوا التجوية إلى فعل أشعة الشمس المستمر ، ونظروا إلى الأمطار والأنهار كعوامل أساسية فى النحت والإرساب . وكان مما يدعو إلى الإعجاب أن يدرك « المقدسى » أن نصف الكرة الجنوبى يتكون معظمه من الماء بعكس النصف الشمالى الذى يتركز فيه اليابس . وهو أمر لم يلتفت إليه علماء الغرب إلا بعد حركة الكشوف الجغرافية . وفهم « البيرونى » حركة المد والجزر وربط بينها وبين أوجه القمر . وكان لا يستبعد أن يكون النصف الغربى من الكرة الأرضية معمورا كنصفها الشرقى . وهذا قبل أن تُكْتَشَفَ الأمريكتان بعدة قرون .

وقامت دراسة علماء المسلمين للغلاف الجوى على أساسين هما : دراسة الظاهرات الجوية فى إقليم بعينه ، ودراسة التوزيع الجغرافى لمعدلات الأحوال الجوية ، ولكنهم كانوا متأثرين فى دراسة الغلاف الغازى بالمنهج اليونانى الذى يجعل من الجو طبقات بعضها فوق بعض . ونتيجة لهذا قالوا بوجود ثلاث طبقات هى عندهم :

- طبقة الأثير : وهى أعلى الطبقات وأقربها إلى القمر ، وهى شديدة الحرارة للغاية .
- طبقة الزمهرير : وهى الطبقة الوسطى ، وتتميز ببرودتها القارصة .

ـ طبقة النسيم : وهى أقرب الطبقات إلى الأرض ، وأكثرها اعتدالاً فى حرارتها .

وهم فى تقسيمهم هذا لا يختلفون عن أحدث النظريات العلمية ، فهواء سطح الأرض يبرد بالتدرج مع الارتفاع حتى إذا ما وصل إلى حد معين عادت الحرارة إلى الارتفاع مرة أخرى فى الطبقة التى يطلق عليها العلماء المحدثون ، اسم التروبوبوز Tropopose ، ولكنهم على الرغم من تقسيمهم الغلاف الغازى إلى طبقات ، لم يفتهم أن يؤكدوا أن هذه الطبقات وإن تميزت عن بعضها البعض فإن الهواء يستطيع أن يتوغل فيها جميعا .

وقد أدرك علماء المسلمين أن سطح الأرض يتعرض لأشعة الشمس بنسب تختلف حسب موقع المكان من الشمس ، فكلما ضاقت زاوية ميل الأشعة قلت درجة الحرارة التى تبلغ أقصاها مع الأشعة العمودية ، ويؤثر هذا الاختلاف الحرارى فى اتجاه الرياح وكمية المطر. والمطر يسقط عندما يتصاعد بخار الماء بسبب تسخين الشمس ، حتى إذا ما وصل إلى طبقة الجو البارد تكاثف وثقل وزنه بعد أن كان خفيفا ، وتساقط مطرا أو ثلجا أو بردا . وهم يرجعون بأسباب الرياح إلى تصاعد الهواء المرطوب ، وإلى توزيع الجبال التى تتحكم فى توجيه الرياح . وعلى هذا الأساس فسر « المسعودى » حركة الرياح الموسمية ، واختلاف مهبها من فصل إلى فصل .

وأدى تطور العلوم الإسلامية وتقدمها إلى ظهور مؤلفات جغرافية جيدة تتناول الجغرافية الإقليمية والاقتصادية والبشرية . وفى المراحل الأولى لنمو الجغرافية الإقليمية درس علماء المسلمين الأرض على أساس الأقاليم السبعة التى قال بها الإغريق وعرفوها بأنها نطاقات هندسية تمتد من الشرق إلى الغرب محددة بدوائر العرض ، وبين الواحد والآخر ساعة من طول النهار. وكانت هذه الأقاليم تشمل الجزء من الأرض الذى اطلقوا عليه اسم (الربع المعمور) ولكى يضموا فى الأقاليم معظم الأجزاء المهمة من المربع المعمور. لم يبدأ العلماء المسلمون تقسيمهم من خط الاستواء ، بل بدأوا من خط عرض ١٦° شمالا وانتهوا إلى خط عرض ٥٠° شمالا . ويختلفون فيما بينهم اختلافا يسيرا فى تحديد عروض كل إقليم فيجعل الفرغانى مثلا الإقليم الأول يبدأ من عرض ٤٠ ١٦° شمالا وينتهى بالسابع عند عرض ٣٠ ٥٠° بينما يبدأ الإقليم الأول عند البتانى بخط عرض ٣٥ ١٦° ، وينتهى السابع عند عرض ٥٣° ٤٨° شمالا .

ولكن العلماء المسلمين لم يلبثوا أن خرجوا على هذا المنهج اليونانى فى الدراسة فى القرن الرابع الهجرى ، عندما ظهر ثلاثة من أعلام الجغرافيين هم الإصطخرى . وابن حوقل

والمقدسى عدلوا فى منهج الدراسة الإقليمية ، وبدلا من أن يتخذوا الأقاليم السبعة أساسا لدراستهم ، تخيروا مناطق محددة كوحدات جغرافية متميزة ، فيقول الإصطخرى فى مقدمة كتابه « المسالك والممالك » : « أما بعد فقد ذكرت فى كتابى هذا ، أقاليم الأرض على الممالك ، وقصدت فيها بلاد الإسلام وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض » . ويقول ابن حوقل فى صدر كتابه « صورة الأرض » : « ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض ؛ لأن الصورة الهندية وإن كانت صحيحة فكثيرة التخليط » .

والواقع أن اتخاذ المنطقة كوحدة جغرافية أكثر صلاحية للدراسة الإقليمية فهى جزء من الأرض واضح التحديد يختلف عن الأجزاء الأخرى ، أما فى ظروفه الطبيعية أو الانتولوجية أو الحضارية . ثم يقسم هذا الجزء إلى أقسام ثانوية على أسس متعددة ، قد تكون الأحوال المناخية أو الظروف الطبيعية أو القبائل النازلة فيه . فالمقدسى مثلا يقسم العراق على أساس قبائله إلى ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر . وهو أحيانا يتخذ شكل التضاريس أساسا للتقسيم الثانوى ، كما فعل فى دراسته لبلاد الشام إذ قسمها إلى أربعة نطاقات هى : ساحل البحر الأبيض المتوسط الذى تتكون أرضه من رمال ناعمة ، ونطاق الجبال التى تكسوها الأشجار ، وتنتشر فيها القرى والمزارع . ثم إقليم الأغوار ، وأخيرا الهضبة الشرقية المتاخمة للصحراء .

أما الإصطخرى فاعتمد على المناخ فى تقسيم بلاد فارس فهى عنده قسمان : فارس الشمالية أو « الصرود » « وفيها أماكن يبلغ من شدة البرد فيها ألاّ ينبت عندهم شئ من الفواكه » . وفارس الجنوبية أو « الجروم » وبها ما يبلغ من شدة الحر ألاّ يبيت عندهم شئ من الطيور ، والصروم كلها صحيحة الهواء ، والجروم يغلب عليها فساد الهواء » .

ومجال الجغرافية الإقليمية فى منهج العلماء المسلمين واضح . يحدده ابن حوقل إذ يقول : « وقد عملت كتابى هذا بصفة أشكال الأرض ، ومقدارها فى الطول والعرض . وأقاليم البلدان . ومحل الغامر منها والعمران .. ثم ذكرت ما يحيط (بالإقليم) من الأماكن والبقاع . وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار ، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم . من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات ، والمسافات فى الطرقات ، وما فيه من المجالب والتجارات ... » ويذكر الإصطخرى فى تحديد منهجه كلاماً لا يخرج كثيرا عن هذا . وهكذا

يفعل المقدسى . ولاشك أن فى هذا تحديدا واضحا لمفهوم الإقليمية .

وطريقة الجغرافيين المسلمين فى معالجة الجغرافية الإقليمية لمنطقة ما تتناول ناحيتين : الأرض والناس ، فيدرسون الأرض على أساس موقعها ، ومابها من جبال وأودية وأنهار وسهول وصحارى وما إلى ذلك ويدرسون الناس على أساس لباسهم وطعامهم ومعتقداتهم الدينية ونظمهم الاجتماعية ، ونشاطهم الاقتصادى فى الإنتاج والتجارة . وهم يهتمون أساسا بالهيئة الطبيعية Physical Landscape للمكان دولة كان أو إقليما ، فيدرسون مظاهره الطبوغرافية ولا يغفلون الظروف المناخية فى كثير من الأحوال ، وهم فى الوقت نفسه يهتمون بالهيئة الحضارية Cultural Landscape للإقليم ، وملاحظات المقدسى عن عادات السكان وأحوالهم جديرة بالاهتمام .

ومن منهج أصحاب الجغرافية الإقليمية من علماء المسلمين وضع مصورات للبلاد التى يصفونها ، وهى مصورات كان الهدف الأول منها فيما يبدو توضيح طرق المواصلات الرئيسية ، والمدن الكبرى والجبال والأنهار والبحيرات وحدود الممالك . ولم يكن لها مقياس رسم خاص ، وكانت الاتجاهات توضح عادة على هوامش الصورة .

وترك لنا علماء الجغرافية المسلمون تراثا ضخما فى الجغرافية الإقليمية بعضه يتناول العالم الذى كان معروفا والبعض الآخر يختص بأقاليم معينة . وأقدم ما وصل إلينا من النوع الأول فيما نظن هو كتاب « المسالك والممالك » الذى كتبه ابن خرداذبه فى نحو سنة ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م وهو لا يقتصر على العالم الإسلامى ، بل يتعداه إلى جهات بعيدة كالصين وكوريا واليابان معتمدا على ما سمعه عن هذه الجهات من معلومات . كذلك كتب أبو يوسف يعقوب الكندى (ت ٢٦١ هـ = ٨٧٣ م) كتابه « رسم المعمور من الأرض » وكتب تلميذه أحمد ابن الطيب السرقسى (ت ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م) كتابا اسماه باسم كتاب ابن خرداذبه أى « المسالك والممالك » لم يصل إلينا . ومن هذا القبيل « كتاب البلدان » لابن واضح اليعقوبى . وهو جغرافى ساح كثيرا فى البلاد الإسلامية . فشرق حتى الهند ، وغرب حتى سواحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) ثم عاد إلى وطنه مصر ومات بها فى عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م ويعطى كتابه وصفا مفصلا لكثير من الأماكن ، ويعنى بالإحصائيات وبالوصف الطبوغرافى للمدن . ثم كتب الإصطخرى وابن حوقل والمسعودى الذى يبدو أنه كان قد درس بتعمق المؤلفات الجغرافية التى كانت موجودة فى عصره ومن ثم كان فى استطاعته أن يشير إلى مراجع كثيرة لم تصل إلينا وقد دعم دراساته برحلات طويلة وصل

فيها إلى بحر الصين وإلى سواحل أفريقية الشرقية . وفى القرن السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى كتب الإدريسى كتاب « نزهة المشتاق » الذى يعد أحسن كتاب تلتقى فيه الجغرافية القديمة بالجغرافية الحديثة . وفى نفس القرن (٦٢٧ هـ = ١٢٢٨ م) أتم ياقوت « معجم البلدان » ورتبه على حروف المعجم . وكان ياقوت على دراية واسعة بالمعارف الجغرافية التى تركها السلف وكان من أعظم العلماء الرحالة فى عصره ، فجاء معجمه فريداً فى بابه ، وكان أول معجم للأعلام الجغرافية فى أى لغة .

وإذا تركنا هذه المجموعة من الكتب العامة ، وهى كثيرة العدد اكتفينا بالإشارة إلى أمثلة فيها نجد هناك مجموعة أخرى عنيت بدراسة أقاليم بعينها ، ويأتى فى مقدمتها كتاب صنعه ابن الأصبغ السلمى فى نحو سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م بعنوان « اسماء تهامة وأماكنها » وكتاب « صفة جزيرة العرب » الذى صنعه جغرافى يمنى هو ابن يعقوب الهمدانى (ت ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م) وتناول فيه جغرافية شبه الجزيرة العربية ، فتحدث عن سطحها وسكانها ونباتها وغلاتها وطرقها ومسالكها كما وصف محمد بن الوراق (ت ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) فى مصنفه « المسالك والممالك » بلاد المغرب ، وقد فقد الكتاب ، ولكن البكرى فى القرن التالى اعتمد عليه كثيرا فى كتاباته . وأوفد الخليفة العباسى المقتدر أحمد بن فضلان فى سفارة إلى ملك بلغار اتيل (الفلجا) فى عام ٣٠٩ هـ = ٩٢١ م وعند عودته إلى بغداد وصف رحلته فى كتاب يعتبر أقدم ما يمكن أن يعتمد عليه فى وصف تلك الجهات التى لم يكن معروفا عنها حين ذاك سوى الشىء القليل . وألف المهلبى كتابا فريدا فى جغرافية السودان كتبه للعزيز الفاطمى فى سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م وكان أول كتاب من نوعه فى جغرافية هذا الإقليم .

وأهم ما نلاحظه على منهج أصحاب هذه الكتب فى نوعيها أنهم فهموا الجغرافية مختلطة بالتاريخ ، نلحظ هذا فى كتب اليعقوبى والبلخى والمسعودى وغيرهم ، ولكنهم لم يخلطوا بين العلمين ، بل نجد كاتبا مثل عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب (كتبه فى سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م) يؤكد معرفتهم بالفرق بين العلمين ، ولكنهم يعرفون أيضا أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به .

أما فى ميدان الجغرافية الاقتصادية فقد كان منهج العلماء المسلمين يقوم على الاهتمام بضوابط الانتاج الاقتصادى فيتحدثون عن موارد المياه وشئون الرى وتوزيع الغلات الزراعية ، والثروة المعدنية ، والصناعات والتجارة .

ولما كان الرى يلعب دورا بارزا فى الاقتصاد الزراعى ، وبخاصة فى الأقطار الإسلامية التى يقع معظمها فى مناطق جافة أو شبه جافة ، يتذبذب فيها المطر ، فقد عنى الجغرافيون المسلمون بهذا الجانب ، فنجد المقدسى مثلا يرى فى مشكلة الرى فى فارس مشكلة خطيرة ، ويذكر أن الجزء الشرقى من البلاد حيث لا توجد أنهار ذات أهمية يصبح من الضرورى فيه أن يجمع ماء المطر والمياه الجوفية حتى لا تضيع قطرة منه . وفى نيسابور قنوات تحت الأرض تجرى بالماء ويظهر بعضها فوق السطح بالقرب من المزارع والمدن والقصور ، وفى سجستان كثير من القنوات تجرى بالماء إلى الحقول والقرى . ويشير المقدسى إلى أعمال الرى التى أنشأها عضد الدولة بن بويه بين شيراز وإصطخر ، حيث أقام على النهر سدا يرفع الماء لرى القرى ومزارعها . ويصف الهمدانى طرق صيانة الموارد المائية فى جزيرة العرب إذ تجمع مياه الأمطار فى برك تحاط بالحجارة ، ويصف ابن حوقل نظام القنوات فى الصغد وسمرقند وأثرها فى الحياة الزراعية . ويعنى الكتاب المسلمون فى دراساتهم الاقتصادية بالحديث عن الغلات الزراعية وتوزيعها الجغرافى وأهميتها المحلية ، بل ويتوسع المقريزى فيتحدث عن مركز الغلات المختلفة فى الدورة الزراعية وعن كمية التقاوى اللازمة لزراعة الفدان ، وعن محصول الفدان من كل غلة وكيف تختلف غلة الفدان من جهة إلى أخرى بحسب جودة الأرض ووفرة مياه الرى .

ولا يغفل الكتاب الحديث عن الثروة المعدنية وتوزيعها واستخداماتها الاقتصادية وطريقة استخراجها ، ويعرجون على الصناعات القائمة فى ديار الإسلام فيتحدثون عنها فى شئ غير قليل من التفصيل ، فيعددون أنواعها ومراكز قيامها والتجارة فيها وأهم مراكز التجارة والطرق التى تربط بين هذه المراكز. ويتناول ابن خلدون فى مقدمته الجغرافية الاقتصادية فيحلل عوامل قيام الزراعة الراقية فى الأندلس على عهد المسلمين ، ويناقش نشأة الصناعات ونموها ، ويحلل تجارة الصادر والوارد ويتتبع تطورها واختلاف اتجاهاتها . وهكذا كان للعلماء المسلمين فى دراسة الجغرافية الاقتصادية منهج سليم لا يختلف كثيرا عن المناهج العلمية التى تسير عليها الدراسة فى العصر الحديث .

وكان من بين الفروع التى عنى بها الجغرافيون المسلمون جغرافية المدن ، وربما كانوا هم أول من أرسى قواعد دراسة هذا الفرع من فروع الجغرافية ، وكان منهجهم يهتم بالتركيز على أهمية الموقع الجغرافى للمدينة . فمن المدن ما يستمد أهميته من موقعه الاستراتيجى ، ويذكر المقدسى مثلا لهذا النوع مدينة آمد التى ترجع أهميتها إلى موقعها الحصين وقلاعها ويقارن

بينها وبين أنطاكية بأسوارها وأبوابها وقلعتها التى بنيت على الجبل ، ومن المدن ما اكتسبت شهرتها لعوامل دينية كمكة والمدينة وبيت المقدس ومنها ما تدين بأهميتها لوقوعها على طرق التجارة ويذكرون أمثلة لها بغداد والموصل وسيراف وغيرها .

ويحاول المسعودى أن يفسر قيام المدن فى مواضعها بالعوامل الجغرافية المحيطة بها ويرى : « أن أصناف اختلاف البلدان أربعة ، أولها النواحى (وهو يقصد من ذلك الموقع) والثانى الارتفاع والانخفاض (أى طبوغرافية الموضع) والثالث مجاورة الجبال والبحار ، والرابع طبيعة تربة الأرض « وهو لا يكتفى بمجرد سرد العوامل بل يحلل كلا منها ويبين أثره على المدينة » فارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن ، ويختلف جوها باختلاف موقعها من الجبال فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد ؛ لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الريح الشمالية فقط . وعلى العكس من ذلك إذا كان الجبل من ناحية الشمال . ولموقع البلد من البحر أثره « فإذا كان البحر من ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب ، وإذا كان من البلد فى الشمال كان أبرد وأيبس » وكذلك لطبيعة التربة أثرها « فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت البلد أبرد وأجف ، وإذا كانت جصية جعلته أسخن وأجف ، وإذا كانت طينية جعلته أبرد وأرطب » .

ويناقش ابن خلدون عوامل قيام المدن وازدهارها وأسباب اضمحلالها بعد ذلك ، وينقد المسلمين الأوائل لإنشائهم كثيرا من حواضرهم دون النظر إلى البيئة الجغرافية وظروفها ، مما أدى إلى زوال هذه الحواضر بزوال النفوذ السياسى الذى كان من ورائها .

ومن منهج الجغرافيين المسلمين فى دراسة المدن العناية بموارد مياهها فيقول الإصطخرى مثلا عن سمرقند : إنها كثيرة المياه « فلم ير خانا أو زاوية فى شارع أو ميدانا إلا وقد رتبت فيه السبل للمياه المثلجة .. ولها ماء جار يدخل إليها فى نهر من رصاص ، وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة يجرى عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله » .

وليست المدن فى منهجهم متساوية فى أهميتها ووظيفتها ، ولذلك نجدهم يقسمون المدن إلى خمس فئات رئيسية : حاضرة الدولة ، والقصبات الإقليمية . والمدن الإقليمية والضواحى والقرى . والقصبة الإقليمية كما عرفوها مدينة كثيرة السكان بها والٍ أو عامل ، وتنفق على المرافق والخدمات العامة من مواردها الخاصة ومن أمثلتها دمشق والقيروان ، وتختلف المدينة عن القرية فى أن الأولى بها منبر ، وهم لا يغفلون الإشارة إلى وصف المساكن والدور فيذكر

الإصطخرى مثلا عن آمد : « أن الغالب على أبنيتها الخشب والبوص .. وسطوحها فسيحة » لأنها كثيرة الأمطار شتاء وصيفا .

ولعمر الحق فإن منهج الجغرافيين المسلمين فى دراسة المدن منهج علمى سليم للغاية ، ولكن الذى يؤخذ على هذا المنهج أنه قلما يوجه عناية كافية على عدد سكان هذه المدن . وإن هو فعل ذلك فهو يقدر عدد السكان بناء على عدد المساجد أو عدد الحمامات العامة الموجودة بالمدينة .

واضح أن المسلمين اهتموا بالجغرافية فى شعبتيها الرئيسيتين : الطبيعية والبشرية ، وكان لهم منهج علمى سليم ساعدهم على تفهم كثير من المشكلات وتفسير العديد من الظاهرات ، ولم يعتمد منهجهم فى جمع المعلومات على مجرد السماع والنقل ، بل سلكوا السبيل الصحيح للبحث . وهو طريق التجربة والمشاهدة والملاحظة الدقيقة فأجروا دراساتهم فى الجغرافية الفلكية والرياضية فى عدد كبير من المراصد أنشئت فى شتى جهات العالم . وكان من أشهرها مرصد « شماسية » فى سهل تدمر ومرصد جبل قاسيون فى دمشق . ومرصد باب الطاق على نهر دجلة . ومرصد المقطم فى مصر وغيرها كثير .

واستعان العلماء المسلمون فى دراساتهم بالأجهزة العلمية التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم وحسنوا من أمرها . وقد كان لصفيحة الزرقالى ، أبو إسحق إبراهيم بن يحيى (ت ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧ م) وهى نوع جديد من الأصطرلاب بلغ حد الكمال ، كان لها أبعد الأثر فى أوربا . وظلت هذه الصفيحة معروفة لعدة قرون عند الفلكيين والملاحين .

وقد صنع الخوقندى الذى عاش فى بلاد فخر الدولة البويهى جهازا عرف باسم « سداس الفخرى » يستخدم فى معرفة ارتفاعات الأمكنة ، وهو أساس الجهاز الحديث المعروف باسم « صندوق سكستان » وكان فى مرصد شرف الدولة فى أواخر القرن الرابع الهجرى = العاشر الميلادى كثير من مهرة صناع الأجهزة العلمية من بينهم الكوهى والصاغانى .

ولم يكتف علماء المسلمين فى دراساتهم بما ورد فى ا لكتب من معلومات ولم يقبلوها كحقائق مسلم بها بل لجأوا إلى التجربة للتأكد من صحة هذه المعلومات . فمثلا كان بطليموس أبو الجغرافية القديمة قد حدد الدرجة العَرْضية بستة وستين ميلا وثلثى الميل ، ولكن التجربة التى قام بها نفر من علماء المسلمين فى سهل الجزيرة عام ٢١٢ هـ = ٨٢٧ م أثبتت خطأ بطليموس وبينت أن الدرجة العرضية هى ستة وخمسون ميلا وثلثا الميل . ولم تتكرر مثل هذه التجربة إلا بعد سبعة قرون ، أى فى القرن العاشر الهجرى = السابع عشر الميلادى ،

وكانت النتائج التى توصل إليها علماء المسلمين أقرب النتائج إلى الدقة فحسابهم للدرجة العرضية لا يقل سوى بضع مئات من الأمتار عن حساب النصف الثانى من القرن العشرين الذى عرف التقدم التكنولوجى والأجهزة العلمية المتطورة .

وفى دراساتهم للجغرافية الإقليمية اعتمد العلماء المسلمون على العمل الميدانى ، فرحلوا وانتقلوا فى البر والبحر على السواء ، ونقرأ كثيرا عن جغرافيين مسلمين قضوا سنوات طويلة وهم يجوبون ديار الإسلام ، بل ومنهم من تخطاها وأوغل فى بلاد لم يكن قد وصل إليها الإسلام ، وكان من أعظم هؤلاء الرحالة فى البر اليعقوبى وابن حوقل والمقدسى والبكرى وكان من رجال البحر سليمان السيرافى والمهرى وشهاب الدين أحمد بن ماجد وغير هؤلاء وهؤلاء كثير .

وينتقد ا لمقدسى الجغرافيين الذين لم يحفلوا بالرحلة والأسفار والذين « لم يدوخوا البلاد ولا وطئوا الأعمال » ثم يشرح منهجه فى الدراسة فيقول : إنه لم يبق شئ مما يلحق المسافرين إلا أخذ منه بنصيب وأنه أنفق فى أسفاره أكثر من عشرة آلاف درهم ، ويتحدث عن تجاربه فيروى : « وقد تفقهت وتزهدت وتعبدت ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتى العصائد .. وسحت فى البرارى ، وتهت فى الصحارى ، وأشرفت مرارا على الغرق ، وقُطِعَتْ على قوافلنا الطرق ، ومشيت فى السمائم والثلوج ، ونزلت عرصة الملوك ، وسكنت بين الجهال » . أفبعد هذا كله تجارب يحتاج إليها الجغرافى الممتاز ؟

وعندما كلف روجر الثانى ملك صقلية الشريف الإدريسى بأن يضع له كتابا فى الجغرافية ، وضع الرجل خطة علمية لجمع مادة الكتاب ، وكان قد طاف فعلا بكثير من البلاد وشاهدها مشاهدة عيان ، وقرأ كتب الجغرافيين الذين سبقوه قراءة دارسٍ واعٍ ، ولكن بقيت أجزاء كثيرة من العالم لم يشهدها ولم يقف على أحوالها ، وكثير من الكتب التى بين يديه تختصر الحقائق فى كثير من الأحيان فتبدو الأمور غامضة مبهمة ، بل وربما ناقض بعضها البعض أحيانا فتستعصى عليه معرفة الحقيقة .

فكر الإدريسى فى هذا كله وقد قبل مهمة وضع الكتاب الشامل ، فصارح روجر بما يدور فى خاطره ، وأقره الملك على رأيه ، واتفق الرجلان على أن خير وسيلة لجمع الحقائق هى أن يرسل الملك أشخاصا اختارهم الإدريسى بنفسه ممن اتصفوا بالفطنة والذكاء ، وشرح لهم الإدريسى طريقة العمل فى الجهات التى أوفدوا إليها وسفر معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عيانا وأمرهم بالتقصى والاستيعاب ، حتى إذا ما عادوا راح يدقق فى كل ما جمعوا

من معلومات ، ويقارنها بما قرأ فى الكتب ، أو شاهد بالعيان ، فإذا ما تأكد من صحتها أثبت ذلك عنده ، واستمر فى هذا العمل خمسة عشر عاما ، يأتيه الموفدون بالمعلومات فيمحصها ويقيدها . حتى إذا ما تجمعت لديه ثروة ضخمة من المعلومات راح يتبع المنهج العلمى السليم فى كتابة الجغرافية الذى لا يختلف فى شئ عما نتبعه اليوم على الرغم من مضى ثمانية قرون منذ أن كان الإدريسى يكتب فى بالرم كتابه « نزهة المشتاق » .

بدأ الإدريسى بتمحيص المعلومات التى جاءت بها الرسل . وراح يقارنها بما علم من التجار والجوالين فى تلك الأصقاع ، وما قرأه عنها من كتب ، مما اتفق فيه قول هؤلاء جميعا أثبته وأبقاه فى مذكراته ، وما اختلفوا فيه ألغاه أو أرجأه ، ثم اتخذ الإدريسى الخطوة العلمية العملية الأولى التى يتخذها أى جغرافى يعيش معنا الآن ، وهى توقيع هذه المعلومات على خريطة وهى التى يسميها لوحة الترسيم ، فجاء بلوحة رسمت عليها خطوط الطول والعرض ، وراح يثبت عليها مواقع البلدان والجبال والبحار والبحيرات والخلجان والأنهار ، مستخدما الفرجار والمثلث والبوصلة وهى كل ما تجمع لديه من أدوات ، ومستعينا بالجداول الجغرافية والزيجات التى وضعها من سبقوه من القدماء وكان الذين جاءوه بالمعلومات يقدرون المسافات بالرحلة والغلوة والميل الرومانى والميل العربى وغير ذلك من شتى المقاييس ، مما ألقى على الإدريسى عبئا ثقيلا ، إذ كان عليه أن يحول كل بعد من الأبعاد إلى مقياس الرسم الذى اتخذه أساسا للوحة الترسيم . وهذا عمل لا يعمله إلا الجغرافى الذى يتبع المنهج العلمى السليم .

ولما كان الإدريسى يعرف أن الأرض كرة وأنها تنقسم إلى أقاليم مناخية تبدأ من خط الاستواء وتنتهى عند القطب ، ولما كان الملك روجر قد طلب منه « أن يضع له شيئا فى شكل صورة العالم » فلابد أن يكون هذا الشئ على صورة كرة ، ولهذا فقد طلب من الملك شيئا من المعدن ليصنع منه ما يريد ، فلبى طلبه وحمل إليه شيئا من الفضة ، فأمر الإدريسى الفعلة بأن يشكلوا من هذه الفضة كرة ضخمة ، فلما أتموا عمل الكرة « أمرهم أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة على نص ما يخرج من لوحة الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه » ولاشك أن الإدريسى قد لقى فى ذلك كثيرا من المشقة ، فتحويل الرسم من خارطة مسطحة إلى كرة ، عملية تتطلب كثيرا من العمليات الحسابية حتى تكون المسافات والمواقع مضبوطة .

وإذا كانت الكرة قد أعطت الملك صورة للعالم ، فهى ليست كافية بل لابد لها من كتاب يصف ما عليها من معالم وما يرتبط بها من حياة الناس . وهكذا وضع الإدريسى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وزوده بالخرائط ، ولكنه لم يكن مقلدا لمن سبقه ، بل رأى أن يكون له منهجه الخاص الذى يتمثل فى أن تكون الخريطة جزءا من البحث يكمله ، وعلى هذا الأساس قسم الأرض إلى أقاليمها السبعة ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام متساوية ، وجعل لكل قسم من هذه الأقسام خارطة توضح ما فى داخله من مدن وجبال وبحار وجزر ... الخ . وهكذا أصبح العالم المعروف للإدريسى مقسما إلى سبعين جزءا ، ولكل جزء خريطة وفصل فى الكتاب . واستخدم الإدريسى الألوان فى خرائطه . فظهرت البحار مرسومة باللون الأزرق . بينما استخدم اللون الأخضر للأنهار واللون الأحمر والبنى للجبال ، أما المدن فقد رسمت بدوائر مذهبة .

وبعد أن أتم الإدريسى خرائطه السبعين رأى أن من المفيد أن يضيف إلى كتابه خريطة جامعة للعالم رسمها فى شكل دائرة وصدر بها كتابه ، وقد نقل هذه الخريطة عن الكرة الفضية التى عملها فيما يبدو ، يدل على ذلك أن خط الاستواء وخطوط العرض الأخرى مرسومة على شكل منحنيات وليس على شكل خطوط مستقيمة .

وكان علماء المسلمين قبل الإدريسى قد أدركوا أهمية الخارطة كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية ، وارتبطت جغرافيتهم الإقليمية منذ بدايتها برسم الخارطات التى أطلقوا عليها مصطلحات « الصورة » و« الرسم » و« لوح الترسيم » ، ولم يستعمل مصطلح خارطة وخريطة إلا فى القرن التاسع عشر .

وكانت الخارطات الإسلامية ترسم بحيث يكون الجنوب فى أعلى الخارطة والشمال فى أسفلها والشرق إلى يسارها والغرب إلى يمينها أى بعكس ما هو عليه الوضع فى الخارطات الحديثة ، ولعل السبب فى ذلك أن المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة كانتا فى جنوب العالم المعروف .

وكان محمد بن موسى الخوارزمى من أسبق العلماء المسلمين التفاتا إلى الخريطة كجزء من منهجه الدراسى . فأضاف مجموعة منها إلى كتابه صورة الأرض . وحذا حذوه البلخى الذى ألحق بكتابه « صورة الأقاليم » أطلسا كاملا فكان له الفضل فى تثبيت قاعدة لاتزال من أهم قواعد الجغرافية الإقليمية ، وهى ضرورة جعل الخارطة أساسا للشرح الجغرافى وكانت خارطات البلخى أساسا لما رسمه الإصطخرى وابن حوقل فى كتابيهما ، وإن يكن

الإصطخرى يدعى أنه أول من ابتدع أسلوب شرح الجغرافية بالخارطات ، فيقول « الغرض من كتابى هذا تصوير الأقاليم التى لم يذكرها أحد علمته » ويشرح أهمية الخارطة فى المقدمة فيذكر أن المدن والجبال والأنهار قد توجد فى الأخبار وتتعذر معرفتها على من أراد . ولذلك فإن الخارطة عنده هى الأكثر أهمية ولهذا اتخذ « لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة ، إذا نظر إليها ناظر علم مكان الإقليم كما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موقعه من هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم » ثم يذكر الإصطخرى أنه بعد رسم هذه الصورة الجامعة للعالم قد أفرد لك إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة يبين فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن وغيرها .

وقد سلك ابن حوقل نفس المنهج الذى سار عليه الإصطخرى فوضع الخارطة فى صدر بحثه عن كل إقليم ، وقد وصلت إلينا خارطات الإصطخرى وابن حوقل كاملة ، أما مصورات البلخى فلم يصل إلينا منها سوى ثلاثة مصورات .

وكان المقدسى من أعظم من اهتم بالخارطة كأداة جغرافية ، فرسم خارطة لكل قسم من الأقسام الأربعة عشر التى قسم إليها العالم الإسلامى ، واستخدم فى خارطاته طرقا لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة حتى يمكن للجميع أن يفهمها على وجهها الصحيح ، فرسم الطرق المعروفة بالحمرة ، والرمال الذهبية بالصفرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار بالزرقة والجبال المشهورة بالغبرة « وذلك » ليقرب الوصف إلى الأفهام ويقف عليها الخاص والعام » .

وتمثل خارطات الإدريسى الأوج الذى بلغته صناعة رسم الخرائط فى العصور الوسطى ، فقد ابتكر طريقة لمساقط خارطات الأرض والسماء ووضع خارطات للعالم فكانت من أدق خارطات العصر ، وتتميز خرائط الإدريسى بأنها تلتزم بمقياس رسم ، وبتحديد مواقع خطوط الطول والعرض ، كما تلتزم بالشكل الحقيقى للإقليم ، وهى فى هذا تختلف عما سبقها من خارطات ، وتكاد تتشابه مع الأسلوب الحديث .

وكان من منهج علماء المسلمين الأمانة فى النقل ، فكثيراً ما أشاروا إلى الكتب التى نقلوا عنها أو نقدوا ما ورد بها ، وكانت هذه الأمانة العلمية هى التى عرفتنا بمؤلفات كثيرة ضاعت مع ما ضاع من تراثنا العظيم .

وهكذا كان علماء الجغرافية المسلمون روادا فى وضع المنهج العلمى السليم ، وضعوا اللبنات الأولى فى صرح ظل يعلو حتى وصل إلى ما هو عليه الآن .

الحواشـــى

(١) سورة الجاثية الآية ٣
(٢) سورة الروم الآية ٥٠
(٣) سورة الذاريات الآية ٢١

ooo

الحسن بن محمد الوزان الزياتى
أو • ليون الأفريقى
٨٩٤ ـ ٩٦٢ هـ ؟ ١٤٨٨ ـ ١٥٥٤ م ؟

دكتور / عبدالرحمن حميدة



هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي ، ولد في غرناطة في تاريخ يقع بين ١٤٨٨ و ١٤٩٥ م ، ويدل اسم عائلته « الوزان » على أن أحد أجداده كان يعمل موظفا في مصلحة الموازين العامة .. أما لقبه الزياتي فيدل على الأرجح ، على اسم القبيلة العربية التي تحدر منها ، ويرد في كتاب « نزهة الهادى » أنه عاش في المغرب خلال القرن السادس عشر والسابع عشر عالمان يحملان نفس الكنية ، أولهما المفسر الشارح حسين الزياتي والثاني : سيدى الحسن الزياتي .

وفي أعقاب سقوط غرناطة في الثاني من شهر كانون الثاني ١٤٩٢ م على يدى الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزبللا ، أجلى المسلمون الذين رفضوا التخلي عن دينهم ومن هؤلاء أسرة الحسن التي لجأت إلى مدينة فاس ، حيث احتلت مكانة مرموقة بعد إقامة قصيرة في تونس . وأنفق الحسن سنى حداثته في فاس ودرس فيها حسب الطريقة التي كانت معهودة حتى عهد قريب في مدارس فاس التقليدية وفي جامعة القرويين الإسلامية . وهكذا درس النحو والشعر والأدب والتاريخ والفلسفة والشريعة .

ويذكر أنه درس كتاب « عقائد النسفي » والظاهر أنه كان يعيش مع أسرته في سعة ورغد ، فكانت أسرته تقضي فصل الصيف في قصر سابق مهجور يقع على مسافة ستة أميال من فاس ، وكان أبوه يستأجر الأراضي المجاورة لهذا القصر ويعيش في تلك العزلة المشجعة على البحث والدراسة .

وقد عمل خلال سنتين في مارستان المجانين بفاس ، إذ تولى فيه خطة العدالة بأجر شهرى قدره ثلاثة دنانير مما أكسبه معرفة في الطب ظهرت في معجمه الذى وضعه من أجل الطبيب يعقوب بن سيمون ، الذى كان على الأرجح الطبيب الخاص للبابا باولو الثالث . وقد سافر في أنحاء المغرب وكان فضوله العلمي يدفعه لاستنساخ كتابة شواهد قبور مشاهير الرجال ، وعمل منها كتابا قدمه لشقيق سلطان فاس . وتعطينا هذه التفاصيل فكرة عن مستواه الاجتماعي والغالب على الظن أن أباه كان موظفا كبيرا .

ورحل إلى تومبوكتو في عام ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) وهو فتى في السابعة عشرة من عمره وكانت من أهم رحلاته ، إذ رافق أحد عميه ، الذى كان خطيبا مفوها ، في سفارة أرسلها السلطان محمد إلى الملك السوداني الكبير اسكيا محمد توره . وشهد فيما بعد الكثير من

الأحداث الهامة التى كانت تعتور المغرب الذى أصبح يتعرض لهجمات البرتغاليين المتكررة على ثغوره .

وفي عام ١٥٠٨ م كان الحسن في خدمة مولاى محمد سلطان فاس الذى نهض لاسترداد ثغر أصيلا من أيدى البرتغاليين ، وفي ١٥١٢ سار مرة ثانية فى ركب السلطان المذكور لتأديب الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادا فى بوادى المملكة ، كما شهد عن كثب سقوط آسفى بأيدى البرتغاليين سنة ١٥٠٨ . وبعدئـذ قام بعـدة رحـلات هامـة في الشمال الإفريقـى ، وإلى القسطنطينية ومصر وجزيرة العرب حيث أدى فريضة الحج وبلاد أرمينية وشمالي فارس .

ويبدو أنه كان يقوم فى البداية بوظيفة محاسب لدى التجار ، وذلك حسبما يحدثنا خلال رحلته الأولى إلى مصر ، حيث قام تجاه الساحل البرقاوى بشراء الأغنام والسمن ، ولما أراد شحنها بحراً إلى مصر اضطر للفرار خشية مباغتة القراصنة الأوروبيين . وقد ثابر على التجوال فى أرجاء المغرب قبل أن يقوم برحلته الثانية إلى بلاد السودان حيث زار تومبوكتو ومنها إلى مصر مارا ببلاد الهوسة ومملكة غاوغة في شرقي بحيرة التشاد وعاد إلى المغرب عن طريق البحر . وقد أمضى معظم أيام عامي ١٥١٤ و ١٥١٥ في المغرب في خدمة السلطان وبعض قواده الكبار .

ومما لاشك فيه أنه قام بمهمات سياسية وربما تجارية ، وتزايدت أهمية هذه البعثات مع الزمن لأنه أصبح فى وقت من الأوقات المفاوض بين سلطان فاس محمد البرتغالى وسلطان مراكش الناصر بن يوسف الهنتاتي وبين أمير السوس وحاحة الشريف أحمـد الأعـرج ، مؤسس أسرة السعديين الذى كان زميلا للحسن على مقاعد الدراسة فى إحـدى مدارس فاس .

وفى آذار ١٥١٤ م كانت له مقابلة مع حاكم بادية آسفي الذى كان خاضعا لحماية ملك البرتغال واسمه يحيى أو تعفوفت . وفي ١٥١٥ م كان له نشاط سياسى كبير وذلك بمناسبة الحملة التى قام بها سلطان فاس في منطقة دكالة على ساحـل المحيط ، حيث اسـتشف السلطان المذكور المزيد من كفاءاته وثقافته الواسعة فكلفه ببعثة سياسية إلى المشرق فذهب بسرعة إلى فاس في شهر آب ١٥١٥ .

وليس من المؤكد أنه قام بسفارة إلى السلطان سليم الأول العثمانى كما يفترض بعض الباحثين ، إذ يذكر أنه اشترى وحده وبنفسه حبالا لخيمته من سوق مدينة معسكر بالجزائر .

وإذا كان يذكر أنه كان في مدينة رشيد المصرية أثناء وجود السلطان سليم فيها ، فهو لا يتكلم عن السلطان العثماني بإسهاب كما لو كان قد قابله فعلا .

ولكنه على كل حال لم يكن موظفا دبلوماسيا عاديا لأننا نراه فى نفس الرحلة يتحادث مع حاكم مدينة دبدو ، ويقابل سلطان تلمسان أبا عبد الله محمد ، وفي الجزائر يستضيفه وجيه من أصل أندلسى كان قبل قليل موفدا من طرف سكان مدينة الجزائر ليتفاوض فى أمر عقد هدنة مع الحكومة الأسبانية ، وبعدئذ يلتقى فى « بجاية » مع أمير البحر التركي الشهير عروج ، شقيق خير الدين بربروس .

ويستمر الحسن في رحلته باتجاه تونس مرورا بمسيلة ، في منطقة الحضنة الجزائرية ، ويروى أنه بلغها ومعه زوج من الخيل ولاقى صعوبة فى تأمين علفهما من الشعير ، مما يدل على ضآلة استعداده كسفير .

وعند وصوله إلى تونس لم يجد السلطان الذى كان في جولة في جنوبي البلاد ، ولما قصد بلاط السلطان المذكور لم يحظ باستقباله السلطان أبو عبد الله محمد . ولكن خلال إقامته القصيرة في بلاط هذا السلطان جمع قدرا لا بأس به من المعلومات عن بلاد تونس الشمالية ، ويعتقد أنه زار « قفصة » و « قابس » وهما آخر المدن التونسية التى رآها عيانا .

هذا ولانزال نجهل المكان الذى أبحر منه الحسن قاصدا القسطنطينية ، وتاريخ سفره ، كما لا نعرف شيئا عن إقامته فى أقطار المشرق سوى أنه كان فى مصر فى شهر حزيران ١٥١٧ م ، أى في رشيد في نفس الوقت الذى كان فيها السلطان سليم كما ذكرنا آنفا . وفى هذه الفترة أدى فريضة الحج وعاد إلى المغرب عن طريق مصر مبحرا من الإسكندرية ، وتوقف فى طرابلس سنة ١٥١٨ م وهنا يبدأ باستعمال التأريخ الميلادى لأول مرة .

وأثناء توقف سفينته في « جزيرة جربة » سقط أسيرا في يد القرصان الصقلى « بيتروبوفاديفليا » الذى اقتاده إلى إيطاليا . ولسبب ما لا نعلمه لم يفتد الوزان بالمال ، وقد يكون سبب ذلك الأساسي أن القراصنة رأوا فيه أسيراً غير عادى يمتاز بعلمه فنقلوه إلى نابولي ومنها إلى روما وقدموه مع زرافة هدية للبابا ليون العاشر ، واسمه السابق « حنا دوميديتشي » . وقد استقبله البابا المذكور استقبالا طيبا جدا ، وهو الحبر المستنير الذى كان يحمي ويشجع أرباب الفنون والآداب والعلوم . وقد ناشده البابا أن يعتنق النصرانية إلى أن تم له ذلك على أيدى ثلاثة أساقفة فى « قصر سانتانج » حيث كان الأسير العظيم يقضي مدة إقامة إجبارية امتدت عاما كاملا .

وأخيرا جرى تعميد الحسن بن محمد الوزان الزياتي بيد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس فى روما بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٥٢٠ وصار اسمه « جوهانيس ليود وميديشي » وهو اسم البابا سابقا ، وسمى نفسه بعد ذلك « جان ليون غرانا تينو » وبالعربية « يوحنا الأسد الغرناطي » واحتفظت الأجيال التالية باسم « حنا ليون الإفريقي » وهو الاسم الذى أطلقه عليه « راموزيو » ناشر كتابه « وصف أفريقيا » استنادا إلى التسمية التى اشتهر بها بين معاصريه .

هذا ولا نعرف الكثير عن إقامته فى إيطاليا ، وكل ما وصلنا أنه كان يدرس اللغة العربية فى مدينة بولونية الايطالية ، وأنه كان يتردد على رجال الفكر والأدب ، ولكن هل انتهت حياته فى روما قبل عام ١٥٥٠ م كما تذكر مقدمة النشرة الرابعة لكتابه التى أصدرها راموزيو عام ١٥٥٠ ؟ أم هل عاد إلى تونس كما عبر عن رغبته تلك بصورة صريحة فى كتابه ابتداء من عام ١٥٢٥ ؟ وهل عاد إلى حظيرة الإسلام كما تؤكد ذلك بعض النصوص ؟ وهذا هو الأرجح .. كما يؤيد ذلك غالبية المستشرقين الطليان . والواقع لم يكن سنه يتجاوز الأربعين عاما عندما حرر كتابه « وصف أفريقيا » ، وقد كان نشاطه الثقافى واسعا جدا استنادا إلى المشروع الذى خطط له والذى يعرضه علينا فى نهاية كتابه الثامن وهو كتاب عن وصف أوربا ، ثم عن الجزء الآسيوى الذى زاره ، ثم وصف أفريقيا ، كما أنه شرع ، أو ربما أنجز بكتابه « الوجيز فى التواريخ الإسلامية » الذى كثيرا ما تكلم عنه مما يبعث على الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد صدر فعلا ، كما كتب « تاريخ أفريقيا الحديث » و« علم البيان العربي » و« كتاب النحو العربي » .. الخ .

وحتى الوقت الحاضر لم يتم العثور إلا على النص العربى لكتابه « المعجم المتعدد اللغات » وقد كتب في بولونية ويحمل تاريخ كانون الثاني ١٥٢٤ والموجود فى مكتبة الأسكوريال بمدريد .

ومما لا ريب فيه أن لكتابه « تاريخ أفريقيا الحديث » أهمية فريدة بالنسبة لمؤرخى تلك الفترة الشديدة الاضطراب . وقد ظل كتاب الحسن ، الجغرافى ، مرجعا أساسيا موثوقا خلال مدة ثلاثة قرون من الزمن .. إذ ذاع صيت كتابه وعرفه العلماء المختصون منذ عام ١٥٢٩ م ، فقد كان المرجع الجغرافى الأساسى ، ولاسيا بالنسبة للمشتغلين بعلم الخرائط الذين استفادوا من مصادر أخرى إلى جانبه إ ذ كان عصره عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى . ولايزال

كتابه يثير دهشة الكثيرين لدقة بعض التفاصيل التى يوردها الحسن فضلا عن ملاحظاته التى تنم عن روح عصرية متفتحة رغم تكوينه العلمي التقليدى . وكان يتصف بروح النزاهة والتجرد وهو لا يضمر كرها إلا للأعراب الذين عزى إليهم مسئولية تدمير بلاد المغرب العربى من الداخل ، تماما حسب رأى ابن خلدون ، مما هيأ البلاد للغزو الأوربى .

وفي هذا المجال لا نجد مندوحة من توضيح أمر هام وهو أن « عرب » القرن السادس عشر لم يكونوا سوى جماعات بدوية تنحدر من قبيلتي « بنى هلال وسليم » الذين حاول فاطميو مصر التخلص من فوضاهم ، فدفعوا بهم نحو الغرب في حدود عام ١٠٥٠ ميلادية . وكانوا عبارة عن محاربين مرتزقة أو قطاع طرق ، والدور الإيجابى الوحيد الذى ينسب إليهم هو تعريب المغرب بالعمق .

وإذا كان كتاب الحسن يتصف بالكثير من المزايا ، فيقدم لنا وثيقة ثمينة للغاية ، فإنه لا يخلو من كثير من المآخذ الناجمة عن أسباب عدة . والواقع لقد ارتكب أخطاء جغرافية وتاريخية فريدة من نوعها ، إذ نسب لنفسه روايات غير صحيحة استقاها من سفار وثق بهم ، أو معلومات غير وثيقة ، وأحيانا كان لا يراجع ما سبق أن كتبه بحيث لا يمكن متابعة نصوص كتابه دون شرح مفصل .

وأخيرا يقول المستشرق آلدوميلي الإيطالي : إن إقامة الحسن الوزان بمعزل عن محيطه الأصلى كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه . ويروى راهب معاصر اسمه « فيد ماتشتات » أن ليون غادر روما بين ١٥٢٨ أو ١٥٣٠ (٩٣١ هـ) قاصدا تونس فعاد إلى الإسلام ومات فيها سنة ٩١٤ هـ أى حوالي ١٥٤٥ م وربما ١٥٥٤ ليحظى بالوفاة فى أرض الإسلام المقدسة وفي حمى دينه الحقيقي ، ونفتقد آثاره من ذلك الحين ، ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته على الضبط .

وإذا كان كتاب « وصف أفريقيا » قد نشر على يد راموزيو سنة ١٥٥٠ م (٩٥٧ هـ) في مدينة البندقية أى قبل ٤٤٢ عاما هجريا ، أو بعد فراغ الوزان من تأليفه بمدة لا تزيد عن ٢٤ عاما ، باللغة الإيطالية ، فإن التعريف بالحسن الوزان الزياتي في الأوساط العلمية العربية قد جاء ـ ويا للأسف ـ متأخرا جدا . فقد ورد ذكره لأول مرة فى مجلة المقتطف المصرية ضمن « بحث الجغرافية وجغرافيي الإسلام » ج ٧ ، ص ٥٩٣ ـ ٧١٣ ، ضمن خطبة ألقاها سليم ميخائيل شحادة ، في المجمع العلمى الشرقي ، في جلسة آذار ١٨٨٣ م ،

كما خصص له الباحث المغربي ، محمد المهدى الحجي (أو الحجوى ؟) مقالة بالفرنسية نشرت في مجلة هسبيريس ، الصادرة عن دار كولان ، فى باريس ، ج ٢ ، ص ٩٤ ـ ٩٨ ، مثلما تعرض له الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله فى كتابه « الطب والأطباء فى المغرب » المطبوع سنة ١٩٦٠ ، وذكره بإيجاز أحمد أبو أسعد فى كتاب « أدب الرحلات » المنشور فى بيروت سنة ١٩٦١ في جملة منشورات دار الشرق الجديد . وفى سنة ١٩٦٢ كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان مقالة عن الحسن الوزان أو ليون الإفريقى فى مجلة العربي الكويتية ، عدد ٤٣ ، وبعد عشرة أعوام ، عادت المجلة المذكورة فنشرت فى عددها ١٦٣ مقالة ثانية تحت عنوان « الحسن ابن محمد الوزان ، رحالة عربى ، ومصنف أجنبى » للدكتور جمال زكريا قاسم ، من جامعة الإسكندرية .

وفى سنة ١٩٧٠ كتب زميلنا الأستاذ الدكتور مصطفى مسعد بحثا يقع في ٢٥ صفحة في مجلة جامعة القاهرة فى الخرطوم ، العدد الأول ، تحت عنوان : الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقى) ، أضواء على رحلته في بلاد السودان ومصر . وفى عام ١٩٧٢ م كتب المرحوم الأستاذ شوكت الشطي ، أحد أساتذة كلية الطب فى جامعة دمشق ، والذى توفى في صيف ١٣٩٨ هـ ـ بحثا يحمل عنوان « نظرات إلى ثقافة الغرب الطبية فى الحضارة الأندلسية » خصصه للحسن الوزان . ويشرف الأستاذ الدكتور/محمد السيد غلاب ، مدير معهد الدراسات الأفريقية ، على رسالة ماجستير عن الحسن الوزان والتى ينتظر أن تتم مناقشتها فى أواخر هذا العام .[١]

ويكتفى أن نورد هنا بعض الشواهد من كتابات العلماء الأوربيين للتدليل على قيمة كتاب الوزان على الصعيد العلمى ، « إذ ظل كتابه ـ حسب قول توماس ديكين ـ المرجع العمدة طيلة قرنين من الزمن فى أوربا ، فى كل ما يختص بالأقطار العربية الأفريقية ودول شعوب أقطار الساحل أى الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى » . ويقول العالم الألمانى هارتمان بعد قرنين من الزمن من ظهور كتاب « وصف أفريقيا » « إن ما يتصف به مصنفه من ميزات أمر معروف للجميع ، ولن أتردد فى تكرار ما قاله البحاثة قبلى من أن كتابه كنز من الذهب ، ولولا وجوده بين يدى لخفيت على أشياء كثيرة » ، ويقول شيفر فى أواخر القرن الماضى أن ما يورده ليون الأفريقى من تفاصيل فى وصف المغرب تتميز بالدقة الشديدة ، بل لقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى فى المواضيع التى أثارت الشك فيما مضى » .

هذا ولايزال الكثير من جوانب حياة الحسن الوزان غامضا ، ولاسيا عن فترة إقامته في إيطاليا ، وعلى الأخص بعد عودته إلى تونس . فالمعروف أن ولادته كانت سنة ٨٩٤ هـ ، وأنه سقط بالأسر عام ١٥١٨ م ٩٢٦ هـ) وكان عمره حينذاك في حدود ٣٢ سنة ، وأنه ألف كتابه « وصف أفريقيا » لقرائه الطليان سنة ١٥٢٦ م ، أى بعد ثمانية أعوام من الإقامة فى إيطاليا ، درس خلالها الإيطالبة واللاتينية ، وقرأ كتاب بلين الرومانى الشهير ، وألم بالثقافة الأوربية التى كانت تعيش عصر النهضة » ويبدو أن تعلمه الإيطالية واللاتينية لم يكن عسيراً عليه ، إذ يرى كراتشكوفسكي أنه كان يعرف اللغة الأسبانية التى كانت بالنسبة له لغة مفهومة ، لأنه أمضى طفولته فى غرناطة التـى غادرهـا بعـد سقوطهـا بأيدى الملـكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢ م

هذا كما تشير أكثر المصادر التى أوردناها إلى أنه استطاع الإفلات من إيطاليا ، رغم عتقه بين عامي ١٥٢٨ . ١٥٣ عائداً إلى تونس ، بعد إقامة في الغربة لم تتجاوز عشرة أعوام أو اثنى عشر عاما . ويدعم هذه الرواية كاتب معاصر اسمه فيد ماتشتات الذى يقول : إن الوزان مات في تونس سنة ٩٤٢ هـ ـ عن عمر يناهز الخمسين عاما . ويقول آلدوميلى « إن إقامة الحسن الوزان بمعرب عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه ، والواقع أنه عاد إلى تونس سنة ١٥ م ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام المقدسة وفى حمى دينه الحقيقى ، ونفتقد آثاره منذ ذلك الحين .. ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته » (ترجمة آلدوميلى ص ٥٣٣) ، مما يدل على أن إقامته فى إيطاليا امتدت على فترة تناهز اثنين وثلاثين عاما ، أى عاد إلى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريبا .

ويقول كراتشكوفسكى : « وعقب فراغه من تصنيف كتابه بقليل ، وربما كان ذلك في عام ١٥٢٨ تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعا إلى أفريقية وما لبث أن اطرح المسيحية إلى دينه القديم ، وقد توفى الوزان على ما يبدو بتونس فى عهد آخر ملوك بني حفص ، وذلك عام ١٥٥٢ م ، عن عمر يناهز الستين عاما » .

ooo

« نصوص مختارة من كتابه وصف أفريقيا »

أ ـ أصل اسم أفريقية

يطلق على بلاد أفريقيا اسم أفريقية باللغة العربية ، وجاءت من كلمة فرق . وهناك قولان في أصل هذه التسمية . فالأول يستند على أن هذا الجزء من العالم ينفصل عن أوربا وعن جزء من آسيا بواسطة البحر الأبيض المتوسط . والقول الثاني أن هذا الاسم اشتق من « أفريقوس » وهو ملك بلاد العرب السعيدة ، فى اليمن ، وهو أول من قدم إليها واستوطنها فهذا الملك ، الذى انكسر فى معركة مع ملوك آشور ، اضطر فى أثرها إلى الهرب من وجههم ولم يستطع العودة إلى مملكته فعبر النيل بسرعة وتابع طريقه غربا ، ولم يتوقف إلا فى ضواحي قرطاج . ولهذا ينحصر اسم أفريقية بمنطقة قرطاج ذاتها في حين تطلق تسمية المغرب على مجمل أفريقيا .

والواقع هو أن الرومان أطلقوا كلمة آفر وجمعها آفرى على سكان إقليم قرطاج البوني ، وذلك عندما اجتاحوا مدينة « قرطاج » سنة ١٤٦ ق . م ، ودمروا المدينة المذكورة ، وأوجدوا المقاطعة الأفريقية ، أو إقليم الآفر ، وذلك اختصارا لكلمة أفريقا ، التى أصبحت أفريقية على ألسنة العرب ، وهو الاسم الذى كانوا ولازالوا يقصدون به القسم الشمالى من القطر التونسي ، فى حين أطلقوا اسم المغرب على كل المنطقة المحصورة بين ضفاف النيل والمحيط الأطلسى .

ب ـ حدود أفريقيا :

استنادا إلى أقوال العلماء الأفارقة والجغرافيين ، فإن بلاد أفريقيا يحدها النيل من الشرق ، ابتداء من روافد بحيرة غاوغة فى الجنوب[٢] حتى مصب النهر المذكور في البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وتبدأ أفريقيا في الشمال من مصب نهر النيل وتمتد غربا حتى أعمدة هرقل .[٣] وتمتد من هذا المضيق غربا حتى « نون » وهو آخر موقع من ليبيا على المحيط .[٤]

وتبدأ أفريقيا جنوبا من نون وتمتد على طول المحيط الذى يطيف بها كلها حتى صحراء غاوغة .[٥]

أقســـام أفريقيـــا :

تنقسم أفريقيا حسب أقوال المؤلفين المعاصرين إلى أربعة أجزاء هى : بلاد البربـر ، نوميديا ، ليبيا ، وبلاد الزنوج .

فبلاد البربر تبدأ شرقا من جبل « معيز » وهو آخر نتوء من جبل الأطلس على مسافة ٣٠٠ ميل من الإسكندرية .(٦)

أما من الشمال فيحدها البحر الأبيض المتوسط ، ابتداء من جبل معيز حتى أعمـدة هرقل ، وتبدأ حدودها غربا من هذا المضيق ، وتساير ساحل المحيط حتى آخر بروز من جبل الأطلس ، أى حتى النهاية الغربية لهذه الجبال ، وعلى حافة المحيط ، فى اتجاه المكان الذى تقع فيه مدينة مسة ، وتنتهى جنوبا قرب جبل الأطلس ، أى على سفح هذه الجبال التى تطل على البحر الأبيض المتوسط ، وهذا هو أشرف قسم في أفريقيا ، أى القسم الذى يقطنه أناس من العرق الأبيض والتى يحكمها العقل والقوانين .

أما القسم الثاني ، فهو الذى يسميه اللاتين نوميديا ، والعرب بلاد الجريد ، أى البلاد التى تجود فيها أشجار النخيل .(٧)

هذا وتبدأ « نوميديا » إلى الشرق من الواحات وهي مدينة تقع على مسافة ١٠٠ ميل من مصر ،(٨) وتمتد غربا حتى نون ، الواقع على المحيط ، وتبلغ شمالا جبل الأطلس على سفحه الشمالي ، وتتاخم رمال الصحارى الليبية من الجنوب ، ويطلق « العرب » نفس الاسم على كل هذه الأصقاع التى تنتج التمور لأن لها جميعا نفس الموقع .

أما الجزء الثالث الذى يدعى « ليبيا » باللاتينية ، فليس له من اسم باللغة العربية سوى الصحراء ،(٩) ويبدأ شرقا من جوار الواحات ويمتد غربا إلى المحيط ، وتتاخم ليبيا من الشمال نوميديا إلى بلاد النخيل ، وتتاخم من الجنوب بلاد السودان ، بدءا من مملكة والاته من الشرق والواقعة على المحيط .(١٠)

والقسم الرابع ، أى بلاد السودان ، فيبدأ شرقا من مملكة غاوغة ويستمر غربا حتى مملكة ولاته وتتاخم بلاد السودان من الشمال الصحراء الليبية ، وتنتهى جنوبا على المحيط في أمكنة نجهلها ..(١١) ولكن وصلت إلينا معلومات عنها من التجار الذين يأتون من تلك المناطق إلى مملكة تومبوكتو . ويمر نهر النيجر من أواسط بلاد الزنوج ، وينشأ فى صحراء تدعى صحراء سو حيث يخرج من بحيرة كبيرة ..(١٢) واستنادا إلى ما يعتقده جغرافيونـا المعـاصرون ، فإن

النيجر هو فرع من النيل يغور في الأرض ويخرج منها كي يؤلف هذه البحيرة . ويقول البعض إن هذا النهر ينبع من الغرب فى جبال ،[١٣] ويجرى فى اتجاه الشرق كي يتحول إلى بحيرة ، وهذا الزعم غير صحيح . فقد ركبنا متن هذا النهر من شرقي تومبوكتو وواكبنا مسيرة مياهه حتى مملكة غينيا ..[١٤] وحتى مملكة مالي ، وتقعان إلى الغرب من تومبوكتو ..[١٥] وأجمل بلاد السودان هى تلك التى تمتد بمحاذاة نهر النيجر . ولنلاحظ أنه استنادا إلى ما يقوله الجغرافيون ، فإن قسما من بلاد السودان ، التى يخترقها نهر النيل فى قسمها الغربى تمتد شرقا حتى نهر الهند وتصل في بعض نقاطها إلى البحر الأحمر من الشمال ، أى فى الجزء الواقع ما وراء المضيق الذى يفصل هذه البلاد عن بلاد العرب السعيدة .[١٦] ولايمكن اعتبار هذا القسم تابعا لأفريقيا لأسباب عديدة وردت فى مؤلفات طويلة . ويطلق اللاتين على هذه البلاد اسم أثيوبيا التى يأتي منها رهبان من ذوى الوجوه الموسومة بالنار . ويحكم هذه البلاد زعيم هو نوع من بطريق يطلق عليه الطليان اسم « الكاهن يوحنا » والقسم الأعظم من هذه المنطقة يقطنه نصارى ، ولكن هناك أمير مسلم يملك فيها منطقة واسعة .[١٧]

ممــالك في أفريقيــا

تقسم بلاد البربر إلى أربع ممالك :

الأولى : هى مملكة مراكش التى تقسم بدورها إلى سبع مناطق **هى** : حاحة ، السوس ، مراكش ، جزولة ، هسكورة ، حسكورة ، وتادلة .

الثانيــة : وهى مملكة فاس التى تضم عددا مماثلا من المناطق وهى : تامسنة ، إقليم فاس ، أزغار ، الهبط ، الريف ، غارت ، والحوز .

والمملكة الثالثة : هى مملكة تلمسان التى تشتمل على ثلاث مناطق هى : الجبال ، وتينس ، والجزائر .

والرابعة : هى مملكة تونس التى تنضوى تحتها أربع مناطق هى : بجاية ، قسنطينة ، طرابلس الغرب ، والزاب .. وتنتسب المنطقة الأخيرة فى معظمها لنوميديا .

وقد كانت منطقة بجاية دوما موضع نزاع ، فتارة كانت تتبع ملك تونس ، وتارة أخرى يختص بها ملك تلمسان ، والواقع أنها تؤلف فى أيامنا هذه مملكة مستقلة إلى أن سقطت عاصمتها بيد الكونت بيار نافارو لحساب الملك فرديناند الأسبانى ..[١٨]

مدينــــة آســـفى :

آسفى مدينة بناها قدماء الأفارقة على ضفاف المحيط ، وتحوى حوالي أربعة آلاف أسرة والسكان فيها متكاتفون ، ولكنهم يفتقرون للدماثة . وقد كان في آسفي سابقا عدد كبير من الصناع وحوالي مائة عائلة من اليهود . وتعتبر أراضيها المجاورة خصبة جدا ، ولكن الناس ليسوا حاذقين ولا يعرفون كيف يزرعونها حتى ولا كيف يغرسون فيها الكرمة . ولكنهم يملكون مع ذلك بضعة بساتين صغيرة تنتج الخضار . وعندما أخذت سلطة ملوك مراكش بالانحطاط ، استولى على الحكم فى آسفى أسرة تدعى عائلة فرهون ، وفى أيامي[١٩] كانت فى يد أمير باسل اسمه عبد الرحمن الذى عمد إلى قتل أحد أعمامه كي يستولى على السلطة .[٢٠]

سقوطها بيد البرتغاليين :

« على أثر نزاع عائلى شديد التعقيد ، يسرد لنا محمد الحسن الوزان تفاصيله بدقة ، استطاع البرتغاليون أن يستولوا على آسفى بعد أن بقيت تحت حمايتهم لفترة من الزمن » .

في غضون ذلك نصح بعض التجار البرتغاليين ـ الذين لم يكونوا قلة فى آسفى ـ أقول نصحوا ملكهم بأن يجهز أسطولا يستطيع الاستيلاء على المدينة بسهولة . غير أن الملك لم يعزم على القيام بهذه الحملة إلا بعد أن أقنعه التجار المذكورون بأن سكان آسفى منقسمون إلى عدة أحزاب ، وأنهم ـ أى التجار ـ استطاعوا بفضل الهدايا أن يقيموا علاقات وثيقة مع رئيس أحد الأحزاب المذكورة ، وعقدوا اتفاقا معه بحيث أصبح من الممكن الاستيلاء على المدينة دون صعوبة وبأقل التكاليف . وتوصل هؤلاء إلى إقناع هذا الزعيم بالسماح لهم ببناء حصن على ساحل المحيط كي يخزنوا فيه بضائعهم بصورة تدعو للاطمئنان ، بدعوى أنهم فقدوا قسما كبيرا من أرزاقهم على أثر موت الأمير السابق مثلما تخربت بعض مخازنهم ونهبت .

وهكذا شيدوا ثكنة حصينة للغاية ونقلوا إليها بالسر مدافع[٢١] وبواريد ضمن براميل الزيت الضخمة وداخل طرود البضاعة ولم تكن السلطات المحلية تطلب منهم سوى الرسوم . وعندما امتلك البرتغاليون ما يكفيهم من أسلحة الهجوم والدفاع راحوا يبحثون عن مناسبات مختلفة لخلق الاضطرابات وفتح باب النزاع مع المسلمين .

وهكذا بينما كان غلام أحد هؤلاء التجار يشترى لحما أثار حفيظة الجزار الذى نفذ صبره

وصفعه على وجهه ، فاستل الولد خنجره وأغمده فى صدر المسكين الذى توفى حالا . والتجأ القاتل الى الحصن البرتغالى . وقد أدى موت هذا الرجل إلى هياج السكان الذين امتشقوا السلاح ، وانقضوا على الحصن البرتغالى لتخريبه وتقطيع أوصال الذين فيه ولكن هؤلاء تركوا الهائجين يقتربون أكثر فأكثر وراحوا يطلقون عليهم نيران مدافعهم وبواريدهم وسهام أقواسهم الفولاذية .

ولم يلبث المغاربة أن هربوا مذعورين ، وفقدوا أكثر من مائة قتيل بفعل هجومهم المرتجل ، ولكن هذا لم يمنعهم من محاصرة الحصن مدة بضعة أيام ، وعندها ظهر الأسطول القادم من لشبونة والذى جهزه الملك لهذه الغاية ، وكان مزودا بمختلف أنواع الأسلحة وبقطع ضخمة من المدفعية فضلا عن مؤن ذخيرة ، وعلى ظهره خمسمائة جندى من المشاة ومائتي فارس[٢٢] وهكذا وبعد أن بلغ الذعر مبلغه من المغاربة أخلوا المدينة ولجأوا إلى جبال بنى ماجر ..[٢٣] ولم يبق فيها سوى أسرة الزعيم الذى وافق على بناء الثكنة الحصينة مع بعض أتباعه . واحتل قائد الأسطول المدينة واستدعى الزعيم المذكور واسمه يحيى ، وأوفده إلى ملك البرتغال الذى خصص له معاشا طيبا ومنحه عشرين مملوكا . وبعدئذ أعاده ملك البرتغال كي يحكم البوادى المجاورة لآسفى ، لأن قائد الأسطول[٢٤] لم يكن يعرف عادات هذا الشعب الجاهل وطريقة التعامل معه ، ومنذ ذلك الوقت ظلت آسفي خاوية وخربت منطقتها .[٢٥]

لقد أسهبت نوعا ما في هذه القصة بقصد تبيان سبب خراب آسفي وكل منطقة حاحة بسبب الأحزاب السياسية . وعندما ذهبت إلى آسفى كنت ولدا فى سن الثانية عشرة ، ولكن بعد أربعة عشر عاما أتيح لى مقابلة حاكم بوادى المنطقة المعتمد من قبل ملك فاس ، ومن الشريف أمير السوس وحاحة وكان حينئذ قرب مراكش مع جيش مؤلف من خمسمائة فارس برتغالى وأكثر من ٢٠٠٠ فارس عربي ، وكان يجبى كل الإتاوات وضرائب المنطقة لحساب ملك البرتغال وكان ذلك فى عام ٩٢٠ هـ أو ١٥٢٠ م ، كما ذكرت ذلك بالتفصيل في كتاب التواريخ .

الربـــــاط :

الرباط مدينة كبيرة شيدها المنصور فى الأزمنة الأخيرة ، وهو ملك وخليفة مراكش . ويعر

نهر أبو الرقراق من جانبها الشرقي وعندها يصب في البحر . وقد بنى رباط المدينة عند مصبه فيحدها من طرف النهر ومن الطرف الآخر البحر .

وتشابه هذه المدينة مراكش من وجهة النظر إلى أسوارها وعمائرها ، ولأن المنصور بناها لغرض معين ، ولكنها تبدو صغيرة جدا بالموازنة مع مراكش . وإليك سبب تأسيس الرباط . فقد كان المنصور يحكم حينذاك كل بلاد غرناطة وجزءا من أسبانيا . ولما كانت هذه البلاد بعيدة جدا عن مراكش ، فقد رأى الملك أنه في حالة مهاجمتها من قبل النصارى فلن يكون من السهل عليه النهوض لنجدتها .

وقد نصحه البعض بأن يقيم فى سبتة وهى مدينة واقعة على مضيق جبل طارق . ولكن الملك لم ير في هذا الموقع مدينة قادرة على تأمين معيشة جيش مرابط خلال فترة تمتد على ثلاثة شهور أو أربعة بسبب جدب الأرض فى هذه المنطقة وفقرها . كما توقع أيضا بأن هذا لن يمر دون أن يسبب استياء أهالى سبتة بسبب إقامة الجند بين ظهرانيهم ، ولوجود موظفي الحاشية الملكية . وهكذا بنى مدينة الرباط خلال بضعة أشهر، وزودها بالمدارس والمساجد والقصور المتنوعة الأغراض والبيوت والدكاكين والحمامات والصيدليات . كما بنى فى خارج الباب المطل على الجنوب برجا يشابه برج مراكش ،[٢٦] وله درجات أكثر عرضا بكثير إذ يستطيع ثلاثة من الخيالة أن يصعدوا عليه على صف واحد ، ويقال : إنه من الممكن رؤية سفينة وهى في عرض البحر على مسافة كبيرة من الساحل ، واعتقد أن هذا البرج يعتبر نظرا لارتفاعه من أجمل الأبنية التى يمكن للعين أن تراها .

ورغب الملك أن يقيم فى المدينة العديد من الصناع والعلماء والتجار ، مثلما أمر أن ينال كل مواطن فيها علاوة تتناسب مع الربح الذى تحققه له مهنته . وما إن شاع هذا القرار حتى تقاطر عليها أناس من كل الطبقات ومن كل الحرف ، حتى إن الرباط أصبحت فى وقت قليل من أجمل وأغنى مدن أفريقيا .. لأن سكانها كانوا يتمتعون بدخل مضاعف أى من العلاوة ومن التجارة مع الجند وأفراد البلاط الملكى . وبالفعل راح المنصور يقيم في هذه المدينة بدءا من أول شهر نيسان حتى أيلول (سبتمبر) . ولما كانت هذه المدينة قد قامت فى مكان يخلو من الماء الجيد لأن الماء البحر يتسلل إلى النهر بفعل المد الذى يصعد لمسافة عشرة أميال فى اتجاه العالية .. ونظرا لملوحة مياه الآبار فقد جر المنصور إليها ماء عين تقع على مسافة اثنى عشر ميلا فوق حنايا متقنة البناء ، قائمة فوق أقواس تماثل تلك التى تشاهد فى كل إيطاليا ، ولاسيا بجوار روما .

وتتفرع الحنايا الرئيسية إلى عدة فروع تسوق بعضها المياه إلى المساجد والأخرى إلى المدارس والقصور الملكية ، كما أقيمت موارد عامة فى كل الأحياء ..(٢٧)

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة بالانحطاط ؛ بحيث لم يبق منهـا قائما سوى عشرها . وقد تخربت الحنايا ، وتقطعت بفعل حروب الملوك المرينيين مع أسرة المنصور ، وتبدو الرباط اليوم فى أسوأ وضع عرفته ، وأعتقد أنها لا تضم أكثر من ٤٠٠ بيت قرب الرباط ، فضلا عن بعض الحوانيت الصغيرة .

هذا كما أنها مهددة بالسقوط على الأرجح بأيدى البرتغاليين . وفعـلا كان كل ملـوك البرتغال السابقين يَحْلُمُون فى احتلالها ، لاعتقادهم بأن مجرد امتلاكها سيجعل احتياج مملكة المغرب ميسورا ، ولكن ملك فاس زود هذه المدينة بذخائـر ومـؤن كبـيرة ويساندهـا قدر استطاعته .

لقد قصدت هذه المدينة وأشفقت عليها عندما تصورت ما كانت عليه فى الماضى وما آلت إليه حالتها اليوم .

مدينــة ســـلا :

سلا مدينة صغيرة بناها الرومان قرب نهر أبي الرقراق على مسافة ميلين تقريبا من ساحل المحيط ، وعلى ميل واحد من الرباط ،(٢٨) ولكن تخربت هذه المدينة بصورة جزئية خلال حرب المرتدين من بغوراته . ومن ثم أعاد المنصور بناء أسوارها وشيد فيها مارستانا بديعا وقصرا لسكنى الجند ، مثلما شيد فيها جامعا رائعا يحتوى على قاعة فخمة للصلاة ازدانت بالرخام المجزع وبالفسيفاء وبنوافذ مزدانة بالزجاج الملون . وقد أوصى وهو على فراش الموت بأن يدفن فى الجامع المذكور ، وبعد وفاته في مراكش(٢٩) نقل جثمانه حيث ووري التراب فيه حسب وصيته . ووضع على قبره شاهدتان من رخام الأولى فوق رأسه ، والثانية فوق قدميه وقد نقشت عليها أبيات شعر رقيقة المعاني جدا هى رثاء مؤثر نظمها شعراء عديدون . وقد احتفظ كل أمراء هذه الأسرة بعادة دفنهم فى ردهة هذا المسجد ، وعمل الملوك المرينيون نفس الشئ فى أبهى فترة حكم أسرتهم ، وقد دخلت هذه القاعة وأحصيت ثلاثين قبرا هـؤلاء الأمراء ، ونقلت كل كتابات شواهدها وذلك فى العام ٩١٥ للهجرة ..(٣٠)

مدينــة فــاس :
العطارون وأرباب المهن الأخــرى

لقد أسهب محمد الحسن الوزان فى وصف فاس التى كانت فى أيامه أزهى مدن المغرب إذ كانت قاعدة الملك ، ويصور لنا بكل أمانة ودقة حياة الناس فى كل تفاصيلها ونشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وإلى الشمال من هذه القلعة(٣١) قام سوق العطارين الذين يشغلون دربا ضيقا فيه مائة وخمسون دكانا . وينغلق الطريق من نهايته ببابين بديعين لا يقل تحصينهما عن كبرهما .

ويوظف العطارون حراسا يتجولون ليلا مع فوانيس وكلاب وأسلحة . وهنا تباع منتجات الطب والعطارة ، ولا تجهز هنا الشرابات أو العقاقير أو المعاجين العسلية . فالأطباء يركبون هذه المواد فى منازلهم ويرسلونها إلى حوانيتهم حيث يبيعها موظفوهم بناء على وصفـة طبية مكتوبة . وتكون غالبية دكاكين الأطباء محاذية لدكاكين العطارين . غير أن معظـم أبنـاء الشعب لا يعرفون الأطباء ولا الطب . وللعطارين دكاكين بديعة كثيرة الزخارف ولها سقوف جميلة جدا وخزائن .. وأعتقد أنه لا يوجد فى سائر أنحاء العالم سوق للعطارين يماثل سوق عطارى فاس . والحقيقة هى أنى رأيت سوقا كبيرا للعطارين فى مدينة طوريس فى بلاد العجم ولكن الحوانيت كانت هناك عبارة عن أنفاق مظلمة نوعاً ما رغم أناقة بنائها بالأعمـدة الرخامية ، ويعجبنى سوق فاس أكثر بكثير من سوق طوريس نظرا لأنه عملى بسبب تنويره على خلاف الآخر أى سوق طوريس المظلم إلى حد ما . وبعد العطارين نجد صناع الأمشاط من خشب البقص أو من خشب آخر سبق لنا الكلام عنه .

وإلى الشرق من سوق العطارين نجد صناع الإبر الذين يشغلون خمسين دكانا . ومن بعدهم تأتى دكاكين الخراطين ، وهى أقل عددا ؛ لأنها منعزلة فى الأسواق ومبعثرة بين دكاكين أخرى يشغلها أناس من مهن مختلفة . وبعدئذ تأتى دكاكين باعة الطحين، وباعة الصابون، وباعة المكانس الذين يحاذون سوق العقادين ، أو باعة الخيوط . ولكن عدد هؤلاء لا يتجاوز العشرين لأن بقيتهم موجودة فى أماكن أخرى كما سنرى ذلك . وبين باعة القطن وباعة الخضار نجد أولئك الذين يصنعون اللحف والصقارين وباعة لوازم الخيام . وعلى مسافة غير بعيدة من هؤلاء نجد تجارا آخرين يبيعون الطيور الصالحة للأكل ، والعصافير المغردة ولكن عدد دكاكينهم قليل ويسمى هذا المكان سوق الطيارين .

وتباع حاليا فى معظم هذه الدكاكين حبال القنب والخيوط . وبعدئذ نجد صناع القباقيب التى يلبسها الوجهاء عندما تكون الشوارع موحلة . والحقيقة تبدو هذه القباقيب بديعة الصنعة ، مع زخارف ومزودة برقائق الحديد فى أسفلها فضلا عن سيور جلدية مطرزة بالحرير . ولا يرضى أكثر الأشراف فقرا أن يلبس قبقابا يقل سعره عن دوكا واحد ، وهناك قباقيب يبلغ سعرها دوكاتين ، ويصل سعر بعضها إلى عشر دوكات ، بل وحتى ٢٥ دوكا ..[٣٢] وتصنع هذه القباقيب عادة من خشب التوت الأسود أو الأبيض ، ولكن يصنع بعضها من خشب الجوز أو خشب البرتقال أو خشب العناب . وتكون القباقيب المصنوعة من النوعين الأخيرين من الخشب أكثر جمالا وأناقة ولكن قباقيب خشب التوت تدوم مدة أطول .

وعلى مسافة ما نرى صناع الأقواس الفولاذية وهم من مسلمى أسبانيا ولا يتجاوز عدد دكاكينهم العشرة . وبعدئذ تنتشر دكاكين صناع المكانس الذين يصنعون مكانسهم من نخيل الدوم ، كتلك التى تصدر من صقلية إلى روما . ويجلب صناع المكانس بضاعتهم إلى المدينة فى قفاف كبيرة ويقايضونها مقابل النخالة أو الرماد أو ببعض الأحذية المثقوبة . وبعد ذلك نجد دكاكين الحدادين الذين يصنعون المسامير ، وبعدهم نجد الذين يصنعون أوعية كبيرة من الخشب على شكب سطول ، ولكن سعتها تعادل « برميلا » ،[٣٣] ويصنعون أيضا مكاييل الحب والتى يراقبها الأمين مقابل كواترينو[٣٤] لكل مكيال .

وبعد ذلك يأتى باعة الصوف الذين يشترون جلود الخراف من الجزارين ، ولديهم عمال يقومون بغسلها ، وينزعون عنها الصوف ويدبغونها . ولكن هؤلاء لا يهتمون بغير جلود الأغنام ، غير أن جلود الماعز والأبقار تدبغ فى مكان آخر ؛ لأن مهنة هؤلاء تقوم وحدها . .

وبعدئذ يأتى صناع القفاف والحبال والقيود التى تعقل بها قوائم الخيول حسب العادة المتبعة فى أفريقيا ، وتتجاور دكاكينهم مع دكاكين النحاسين .. وبجوار صناع المكاييل نجد صناع أدوات حلج الكتان والصوف .. وفيما وراء ذلك نجد سوقا كبيرة فيها أناس من مختلف المهن ، ومن هؤلاء البرادين الذين يبردون الأدوات الحديدية وركابات السروج والمهاميز لأنه ليس من عادة الحدادين برد مصنوعاتهم .

وبعد هذا نشاهد العمال المعلمين الذين يعالجون الخشب ولكنهم لا يصنعون سوى أشياء كبيرة مثل المحاريث والعربات ودواليب الطواحين وسواها من الأشياء الدارجة الاستعمال ، ثم نصادف الصباغين الذين أقاموا دكاكينهم قرب النهر وفى سوقهم عين بديعة يغسلون فيها

شلل الحرير . وبعدهم يأتى البياطرة ، ومن ثم نصادف الصناع الذين يثبتون أقواس الفولاذ على راشقات السهام . وأخيرا نجد العمال الذين يقومون بصقل الأقمشة وهنا تنتهى أسواق قسم من المدينة ، أى الأسواق الواقعة فى الغرب . وكان هذا القسم فى الماضى ، كما سبق وقلنا مدينة متفردة قامت بعد تلك التى شيدت على الطرف الآخر من النهر أى إلى الشرق .(٣٥)

تومبــوكتــــو :

اسم هذه المملكة حديث العهد ، فهو اسم مدينة بناها ملك يدعى منسي سليمان سنة ٦١٠ للهجرة .(٣٦) على مسافة ١٢ ميلا من أحد فروع نهر النيجر ..(٣٧)

وبيوت تومبوكتو عبارة عن أخصاص مصنوعة من أعمدة خشبية مطلية بالطين وسقوفها من القش . ونجد فى وسط المدينة جامعا مبنيا بالحجارة المنحوتة مع ملاط من الكلس تم بناؤه على يد مهندس أندلسي ولد فى مدينة المانة ، والذى شيد أيضا القصر الكبير الذى يقطنه الملك ..(٣٨) وتكثر دكاكين الصناع والباعة ولاسيا الذين يعملون فى نسج القطن ، وتصل الأقمشة الأوروبية أحيانا إلى تومبوكتو بواسطة الباعة المغاربة .

ولاتزال عادة نساء المدينة لبس الحجاب ، باستثناء الإماء اللواتى يبعن كل أصناف المأكولات . والسكان أغنياء جدا ولاسيا الأجانب الذين أقاموا فى هذه البلاد ، حتى إن الملك الحالي ..(٣٩) قد زوج اثنتين من بناته من أخوين من التجار نظرا لثرائهما . وفى تومبوكتو بضعة آبار ماء عذب ، وفضلا عن ذلك تصل المياه عند فيضان نهر النيجر حتى المدينة بواسطة قنوات . وتكثر فى هذه المنطقة الحبوب والماشية مما يجعل استهلاك الحليب والسمن عظيما .

ولكن المنطقة تفتقر كثيراً للملح الذى يجلب إليها من تغازة ، الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل تقريبا من تومبوكتو ..(٤٠) وقد كنت فى هذه المدينة فى وقت كان فيه حمل الملح يساوى ٨٠ دوكا ،(٤١) ويملك الملك خزانة كبيرة من النقود ومن سبائك الذهب وتزن إحدى هذه السبائك ١٣٠٠٠ ليبرة .(٤٢) هذا ويعتبر البلاط الملكى جيد التنظيم للغاية ورائعا فعندما يذهب الملك من مدينة لأخرى مع حاشيته يمتطى جملا فى حين تقاد الخيول باليد من قبل السيافين ، وعند المعركة يعقل السيافون الجمال ويركب الجند خيولهم .

وإذا رغب إنسان فى مخاطبة الملك عليه أن يركع أمامه ويأخذ حفنة من التراب يحثوها على

رأسه وكتفيه وهذه هى طريقة التعبير عن الإجلال ، ولكن هذا الصنع لا يقوم به سوى الذين لم يسبق لهم مخاطبة الملك أو السفراء . ولدى الملك حوالى ٣٠٠٠ فارس وعدد غير محدود من المشاة الرماة المسلحين بالأقواس المصنوعة من خشب الشمار البرى ..(٤٣) ويرمون بسهام مسمومة ، ولا يحارب الملك سوى جيرانه من الأعداء وأولئك الذين لا يدفعون له الجزية . وإذا كسب معركة من المعارك فإنه يقوم ببيع غنائمه فى تومبوكتو حتى أولاد الأسرى الذين غنمهم فى المعركة .

هذا ولا يولد فى هذه البلاد من الخيل سوى صغار الرهاوين ، أى البراذين ، وهى التى يستخدمها التجار فى أسفارهم ورجال الحاشية أثناء تجوالهم فى المدينة ، أما أصائل الجياد فتأتى من المغرب على شكل قوافل بعد مسيرة تستغرق عشرة أو اثنى عشر يوما . ويشترى الملك العدد الذى يروق له ويدفع الثمن المناسب .

وهذا الملك هو العدو اللدود لليهود ، ولا يريد أن يقيم أحد منهم فى بلدته ، وإذا بلغه أن تاجرا مغربيا يتردد عليهم أو يتعامل معهم صادر أمواله . ويوجد فى تومبوكتو عدد كبير من القضاة والفقهاء من العلماء الذين يعينهم الملك جميعا وهو يسبغ على رجال العلم النعم ويوليهم مكانا ساميا . وتروج تجارة عدد كبير من المخطوطات المجلوبة من أقطار المغرب ، فسوق تجارة الكتب أوسع الأسواق رواجا .

ويتداول الناس قطع التبر النقية عوضا عن النقد المسكوك ، أما بالنسبة للسلع الرخيصة فتستعمل الكوريات ..(٤٤) أى القواقع المجلوبة من بلاد فارس وتبلغ قيمة كل ٤٠٠ قطعة من هذه القواقع أى الودع دوكا واحدة ..(٤٥) وست دوكات وثلثان من عملتهم تساوى أونسا رومانيا من الذهب ..(٤٦)

ويتصف سكان تومبوكتو بطبيعتهم البشوشة . ومن رسمهم التجوال فى المدينة ليلا بين الساعة الثانية والعشرين والواحدة صباحا ، وهم يقرعون آلاتهم الموسيقية ويرقصون ، ويعمل فى خدمة سكان المدينة الكثير من الرقيق من رجال ونساء .

وتتعرض هذه المدينة كثيرا لخطر الحريق وخلال وجودى فيها فى الرحلة الثانية ..(٤٧) احترقت المدينة فى مدة خمس ساعات . ولكن الريح كان عنيفا ، وأخذ النصف الآخر من سكان المدينة يخلون ممتلكاتهم خوفا من أن يمتد الحريق لباقى المدينة .

ولا نجد حول تومبوكتو أى بستان أو مزرعة أشجار مثمرة ..(٤٨)

خاتمــــة كتـــــابه :

« ذلك إجمالا ما رأيته ، أنا حناليون ، من خير ومن جدير بالتذكار ، فى كل أفريقيا التى تجولت فيها من طرف لآخر . وقد قمت بتسجيل كل الأشياء التى تستحق الذكر كما رأيتها يوما فيوما . أما ما لم تتح لى فرصة رؤيته فقد أخبرت عنه بصدق معتمدا على أشخاص موثوقين ، ثم رتبت هذه المذكرات على أفضل شكل حسب الإمكان .. وأخيرا صنفت منها مؤلفا أثناء وجودى فى روما بتاريخ العاشر من آذار عام ١٥٢٦ من ميلاد المسيح .

وهكذا ينتهى كتاب حناليون ، المولود فى غرناطة والناشئ فى بلاد المغرب » .



الحواشى

(١) أى عام ١٣٩٩ وهو العام الذى كتب فيه هذا البحث .

(٢) بحيرة غير معروفة لأن أعالى النيل لم تكن محددة بدقة عند الجغرافيين العرب فى القرن السادس عشر .

(٣) مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق .

(٤) وادى نون وادٍ مأهول وتجارى ، يعتقد أنه عند منطقة إيفني فى مقابل جزر الخالدات (كنارى) .

(٥) وهنا يجب أن نلاحظ أن الأوربيين كانوا يعرفون حينذاك أن البرتغاليين قد طافوا حول القارة السوداء لبلوغ الهند ، لكن هذه المعلومات لم تكن قد انتقلت للعرب بعد بسبب الحصار المحكم حول سواحلهم فى تلك الأيام من قبل الأساطيل البرتغالية .

(٦) يعتقد بعض الجغرافيين العرب فى ذلك العصر أن الأطلس هو سلسلة مستمرة تمتد من بحر الظلمات حتى العقبة الكبرى ، جنوبى خليج السلوم ، وجبل معيز الذى يشير إليه المؤلف على مسافة ٥٠٠ كيلو متر تقريبا من الإسكندرية لم يمكن التأكد منه ، وربما كان يقصد به الجبل الأخضر فى إقليم برقة .

(٧) الواقع هو أن اللاتين كانوا يقصدون بإقليم نوميديا الكتلة الجبلية التى تؤلف تقريبا حوض نهر المجردة ، لأن السهل الشرقى ، فى منطقة قرطاج ، كان مأهولا بالأفرى . أما الأقوام التى كانت تعيش إلى الغرب من ذلك حتى ساحل المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) فكانت مشمولة تحت اسم مورى ، ومنه جاءت تسمية موريتانيا، وكانوا يسمون كل السكان المحليين الذين يعيشون فى الهضاب العليا الجزائرية وما وراءها ، ابتداء من الساحل التونسى حتى الساحل الأطلسي ، بالجتوليين أو الجتول بالفرنسية . أما النوميديون فهو اسم يظهر أنه من أصل بربرى ، ولكنه اختلط منذ القديم مع العبارة الإغريقية Nomodes التى يقصد بها الرعاة والبدو ، حتى إن هذه التسمية المحلية للقبائل الجبلية المستقرة اتسعت ولاسيا فى الكتابات الأدبية ، فشملت الأقوام الرعاة ، وليس هناك من وثائق قديمة معروفة تتكلم خاصة عن الواحات لهذا احتفظت باسم بلاد الجريد أى بلاد سعف النخيل .

(٨) ويقصد بها واحة الخارجة التى تتصل حاليا مع النيل بواسطة خط حديدى يصل الواحة المذكورة بوادى النيل وتقع على مسافة ١٠٦ أميال (١٧٠ كم) من نهر النيل .

(٩) لم يقصد بليبيا فى ذلك العصر المناطق الصحراوية الحالية ، بل كل البلاد التى يقطنها العرق الأبيض والواقعة بين النيل والمحيط الأطلسى .

(١٠) لم تبلغ منطقة ولاته فى موريتانيا الحالية ، والتى لم تكن مملكة ، أقول لم تبلغ ساحل المحيط مطلقا .

(١١) ويقصد بذلك خليج غينية .

(١٢) لقد كانت ضفاف بحيرة تشاد مأهولة بقوم من الزنوج يدعون « ساءو » .

(١٣) أى من مرتفعات هضبة « فوتاجالون » فى جمهورية غينيا الحالية .

(١٤) أى جنه ، وهى مدينة فى جمهورية مالى الحالية على نهر النيجر وتقع فى منتصف الطريق بين تومبوكتو والعاصمة .

(١٥) تدل هذه الجملة فيا إذا كانت ترجمتها عن النص الأصلي صحيحة ــ على أن المؤلف لم يقم بهذه الرحلة أو أن الأمر اختلط عليه .

(١٦) أى مضيق باب المندب واليمن .

(١٧) ولعله يقصد بذلك منطقة هرر .

(١٨) والواقع أن بجاية سقطت بيد الحفصيين ملوك تونس الذين انتزعوها من سلاطين تلمسان الزيانيين فى عام ١٣٦٠ م . وظلت تابعة لهم إلى أن احتلها الأسبان فى شهر ماى (أيار) ١٥٠٩ وكانت فى معظم الأحيان تحت حكم الأمراء الحفصيين ، وكانت تتمتع باستقلال كان يتحول أحيانا إلى تمرد على سلطة حكومة تونس المركزية .

(١٩) يذكر الحسن الوزان فى آخر بحثه عن آسفى أنه قصد هذه المدينة المذكورة عام ٩٠٦ هـ أو ١٥٠٠ م ، وكان عمره حينئذ ١٢ سنة .

(٢٠) وهذا العم كان يدعى أحمد بن على ، والمشهور باسم حمادوش بن فرهون . وبتاريخ ١٦ تشرين الأول من عام ١٤٨٨ م منح ملك البرتغال حنا الثانى هذا الشخص منصب قائد آسفى ، التى كانت خاضعة فعلا للحماية البرتغالية من قبل سنة ١٤٨١ . وفى أيلول ١٤٩٨ قررت الحكومة البرتغالية التخلص من القائد أحمد المتقدم فى السن وتنصيب أخيه عبد الرحمن وأوفدت بالسر مندوبا لشرح موقفها للقائد أحمد . ولكن الأمور لم تتم بسلام إذ حدث شجار أدى بعد نزاع عنيف إلى أن يقتل عبد الرحمن شقيقه بأن اخترق جسمه برمحه ولكن الجمهور نادى بعبد الرحمن أميرا ، كما أن القائد السابق الذى تصالح مع ابن أخيه ناشد الجمهور طالبا منه الطاعة لعبد الرحمن .

(٢١) مدافع جنوية منفرجة الفوهة شاع استعمالها فى القرن السادس عشر .

(٢٢) لقد جاء قسم من هذا الأسطول من جزر ماديرا بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٥٠٧ وقدمت أربع سفن من البرتغال فى مطلع شهر كانون الثانى ١٥٠٨ ، ويبدو أن عدد أفراد هذه الحملة لم يتجاوز ١٥٠٠ مقاتل . وظل الأسطول مرابطا تجاه آسفى مدة ثلاثة أشهر .

(٢٣) ولانزال نجهل تاريخ احتلال آسفى بدقة ولكن استنادا إلى هذا النص فقد حدث بعد وصول الأسطول بقليل .

(٢٤) واسمه نونو فرناندز دوآتيد

(٢٥) ويبدو أن عرض هذه الأحداث قد كتب نقلا عن ذكريات سردها أحد حكام آسفى وهو على بن أوشيان إلى محمد الحسن الوزان مباشرة .

(٢٦) أومنارة الكتبية الشهيرة ، أما مئذنة الرباط فلاتزال قائمة وتدعى برج حسان ، وترتفع ٤٤ مترا ، ويمنحها موقعها منظرا بديعا ويبلغ عرض درجاتها المترين .

(٢٧) الرباط يعنى عند مسلمى المغرب ما يعنيه الثغر عند مسلمى المشرق ، أى الموقع المحصن الذى يرابط فيه المجاهدون المتأهبون على طول الجبهة الأرضية والبحرية لأرض الإسلام وقد نشأ الرباط على الضفة اليسرى لنهر أبو الرقراق . أما رباط سلا على الضفة اليمنى فقد نشأ كرأس جسر لمحاربة قبيلة بغوارتة المنشقة عن الإسلام . وفى أواسط القرن التاسع الهجرى كان يضم الرباط والرباطات المجاورة قرابة ١٠٠ ألف مرابط فى وقت واحد ، وظلت المنطقة المجاورة للرباط تدعى بلد المجاهدين . ويبدو أن قيام مدينة فى هذه المنطقة إنما يعود للخليفة عبد المؤمن الذى قمع آخر تمرد قامت به بغوارتة سنة ١١٤٩ م والتى عجز المرابطون عن إبادتها فى حملة ١٠٥٩ ـ ١٠٦٠ م . وقد شيد المدينة فى موقع قصر كان يخص بنى كنانة وأطلق عليها اسم المهدية تخليدا لذكرى المهدى بن تومرت . ولكن غلب عليها اسم رباط الفتح وذلك بسبب النصر الذى أحرزه على قبيلة بغوارتة . وفى ١١٥٠ م جلب عبد المؤمن إليها الماء من عين غابولة الواقعة إلى الجنوب منها على مسافة ٢٠ كم . وبعد ٣٥ عاما قام حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور وخطط مشروعا لنظام عسكرى فيها قبل أن يجتاز البحر

إلى أسبانيا حيث كسب معركة الزلاقة الشهيرة (آلاركوس) فى ١٩ تموز ١١٩٥ وأوجد فى الرباط مركزا لتجميع الجيوش وحصونا ومراحل تمتد حتى القصر الصغير بين سبتة وطنجة . وبنى فى المدينة حصن الفرح الذى لانزال نرى حتى اليوم بابه الرائع الذى لايزال يدعى حتى اليوم باب الأوداية وكذلك الجامع الكبير الذى لازالت منارته قائمة أو برج حسان . هذا كما أعاد بناء أسوار سلا حيث بنى مدينة ملكية ودينية وعسكرية لأن الرباط كانت مدينة التجار والصناع . وقد سمحت الموارد الضخمة التى غنمها من حملته المظفرة فى أسبانيا بين ١١٩٥ ـ ١١٩٨ بتمويل كل هذه المشاريع وسواها فى مملكته . وإذا كان عام ١١٩٧ م يعتبر تاريخ تأسيس الرباط فإن تنفيذ كل هذه المشاريع العمرانية فيها استغرق زمنا طويلا نوعا ما .

(٢٨) لقد تم كشف المدينة الرومانية سالاكولونيا ، التى خلفته بلدة بونية وربما فينيقية ، وذلك بصورة جزئية فى سلا الحالية .

(٢٩) فى ٢١ كانون الثانى ١١٩٩ م .

(٣٠) أى بين ٢ نيسان ١٥٠٩ إلى نيسان ١٥١٠ م .

(٣١) أى القيصـــرية .

(٣٢) عملة إيطالية فى ذلك العصر تعادل دينارا .

(٣٣) أى ما يعادل ٣٤ و ٥٨ ليترا .

(٣٤) سنت من الذهب .

(٣٥) الأولى هى ما يسمى اليوم بالمدينة والتى شيدها إدريس بن إدريس عام ١٩٣ هـ/٨٠٩ م وسماها العالية ، وسميت مدينة القرويين بسبب سكنى ٣٠٠ أسرة من القيروان أقامت فيها بعد تأسيسها بقليل . أما الثانية فيبدو أنها سيدت على يد إدريس بن عبد الله ابتداء من خريف عام ١٧٣ هـ أو ٧٨٩ م وسميت فاس ، أو مدينة الأندلسيين بعد نزوح ٤٠٠٠ أسرة من قرطبة بعد ثورة الربض الدامية عام ٢٠٢ هـ أو ٨١٧ ـ ٨١٨ م . وبعد أن تلاحمت المدينتان فى واحدة بعد انتصار المرابطين عام ١٠٧٠ م لم يعد الناس يميزون سوى عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين . ولكن منذ بضعة قرون لاتزال تحتفظ الأخيرة باسم عدوة ، ولازال جامعها يحمل اسم جامع الأندلسيين ، مثلما احتفظ جامع الضفة الأخرى باسم جامع القرويين .

(٣٦) أى ١٢١٣ ـ ١٢١٤ م . ومما يجدر ذكره أن منسى سليان هذا حكم فعـلا من عام ١٣٣٦ إلى ١٣٥٩ م وابن بطوطة هو أول من ذكر اسم تومبوكتو عام ١٣٥٤ م .

(٣٧) تشير الروايات إلى أن تومبوكتو شيدها الطوارق الذين أقاموا فيها مخزنا للبضائع عهدوا بحراسته إلى عبد أسود اسمه تينبوتو ومعناه « السرة » وتحول هذا الاسم عند الزنوج الى تونبوتو وعند العرب إلى تومبوكتو . وقد قصدها كثير من التجار المسلمين والعلماء من ولاته كي يقيموا فى هذه المدينة التى راحت تنمو بسرعة . وقد احتلها الامبراطور كنكان موسى أثناء عودته من الحج سنة ١٣٢٤ م بعد أن قدم من غاءو التى قدمت ولاءها ، بيد أن الطوارق استردوها بقيادة آمينوكال عقيل آغا ميلول سنة ١٤٣٣ م ونصبوا عليها أميرا من صنهاجة شنقيط . وفى هذا العصر لم يكن الطوارق من قبيلة تادمكت قد هبطوا بعد من مرتفعات أدرار دس آفوراس ، وكانت هذه المنطقة حتى ولاته ذاتها تحت حكم قبائل المسوفة الملثمين الذين يعودون لأصل طارقي زناتي . والغالب على الظن أن عقيل تنتسب لهذه العشيرة وظلوا محتفظين بالزعامة حتى عام ١٤٦٩ م حيث جاء الزعيم الزنجى من قبيلة سونغاى واجتاح مدينة تومبوكتو .

(٣٨) ويدعى المهندس المعمارى هذا إسحق الساحلى الغرناطى الذى استصحبه كنكان موسى معه من مصر أثناء

مروره بالقاهرة وإليه ينسب أيضا بناء مسجد غاءو ، والمسجد الذى بناه كنكان موسى تهدم فيا بعد وأعاد بناءه القاضى العقيل بن محمود أما القصر فلا وجود له حاليا .

(٣٩) لم يكن هناك ملك فى تومبوكتو بل مندوب أو عامل امبراطور غاءو الذى كان يحمل لقب تومبوكتو كوى . والعامل الذى كان موجودا أثناء زيارة محمد الحسن الوزان كان يدعى عمر بن محمد الندى والذى ولاه اسكيا الحاج محمد عام ١٤٩٣ م وتوفى سنة ١٥٢١ وكان أحد أكبر ولاة الامبراطور إذ كان يتمتع بالعديد من الصلاحيات وخاصة امتلاك الطبل وهو رمز القيادة العليا .

(٤٠) ٨٠٠ كم ويعتقد أن تغازة المذكورة تقع إلى الشمال من موريتانيا الحالية حيث يكثر الملح الصخرى .

(٤١) أى حوالى ١٦٨ و ١ جنيه من الذهب لكل أربعة ألواح من الملح .

(٤٢) أى حوالى ٤٤٠ كيلو جرام حسب الليبرة أو الرطل المصرى . وذكر البكرى عام ١٠٦٧ م ، وجود كتلة كبيرة من التبر عند ملك غانا . ويوضح الإدريسى فى سنة ١١٥٤ م أن هذه القطعة كانت تزن ٣٠ رطلا ، وكان الملك يربط بها حصانه . ومما لاريب فيه أن هذه القطعة هى التى تكلم عنها ابن خلدون والتى باعها الملك الماند ينج ماريديات الثانى (١٣٥٩ ـ ١٣٧٤) لتجار مصريين وكانت هذه الكتلة تزن ٢٥ قنطارا ، وهكذا يبدو أن الرقم الذى يذكره الحسن الوزان مبالغ فيه .

(٤٣) نبات غير معروف بدقة ولكن قد تصنع الأقواس فى المناطق الجنوبية من السودان من خشب البامبو .

(٤٤) واسمها اللاتينى العلمى C. annulus و cypraea monetas وهى عبارة عن ودع تأتى بالحقيقة من جزر الملديف فى المحيط الهندى

(٤٥) أى أن الكورية الواحدة تعادل تقريبا ٣ سنت من الذهب .

(٤٦) الأونس يعادل ٢٨,٢٥ جراما .

(٤٧) وربما كان ذلك فى سنة ١٥١٢ م .

(٤٨) يوجد فى الوقت الحالى بساتين واقعة قرب الآبار غربى المدينة .

○○○



نماذج حول إطلاق المصطلحات الجغرافية وتعريفها من خلال كتب الجغرافيين المسلمين

دكتور / عبدالحى عبدالحق عبدالغنى



مقـــدمة :

إن تدوين الفكر الجغرافى الإسلامى أول ما بدأ به هو استخلاص ما خلّده الشعراء فى أشعارهم وقصائدهم ، تسجيلا لمشاهداتهم فى حلهم وترحالهم ، واهتم اللغويون قبل أن يظهر الجغرافيون فى المسرح بتدوين المعارف الجغرافية فى شكل رسائل ومباحث متخصصة ، رغم أنهم لم يستخدموا كلمة « جغرافيا » ولم يشغلوا أنفسهم بتقسيم المادة المدونة إلى فروع الجغرافية التى عرفت فيما بعد بأسمائها الخاصة من تضاريس ومناخ وبحار ونبات وأقاليم وحيوان ، إذ إن الجانب اللغوى كان هو المطلوب أولا وقبل كل شئ لتفسير بعض الأمور التى جاءت فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والغزوات والفتوحات الإسلامية فيما بعد ، ومن المعلوم أن النهضة العلمية فى المجتمع الإسلامى قامت أساسا لخدمة قضايا دينية .

وخلفت المعلومات التى جمعها المجاهدون فى غزواتهم ، والتجار إبان رحلاتهم الطويلة أوصاف الطرق المختلفة التى تخترق الأماكن والأودية والآبار وموارد المياه ، والجبال وسواحل الخليج والبحر الأحمر وغير ذلك مما وقفوا عليه أو سمعوا به .

ونتيجة للتداخل الثقافى بين المسلمين والفرس* والرومان فى العصر العباسى ، اكتسب المسلمون معارف غيرهم عن البحار كما فعلوا الأمر نفسه فيما يتعلق بالأرض ..(١)

ومن الجهود اللغوية فى المجال الجغرافى مسائل ومباحث تحمل العناوين الآتية : الأنواء - صفة الجبال والشعاب والأمتعة - الغنم والطيور - الشمس والقمر - الليل والنهار - الآبـار والحياض - الزرع والكرم والعنب - أسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار - صفة الأرض والسماء والنباتات - مياه العرب - أسماء جبال تهامة - جزيرة العرب - اشتقاق البلدان - الأمصار - تسمية من بالحجاز من أحياء العرب - تسمية الدارات والبيع والحرات والبرق .

وقد ساهمت هذه الرسائل المتخصصة فى ظهور المعاجم العربية الجامعة ، ولذا كثيرا ما يعثر الباحث فى سياق المعجميين وإيرادهم للمفردات ودلالاتها على استشهاد بما جاء فى تلك الرسائل بروايات مصنفيها ..(٢)

ثم جاء دور البلدانيين ومن تفرغوا للمباحث الجغرافية ، فبدأوا يبحثون فى تلك المادة الضخمة ومتعوا منها كتبهم بالإضافة إلى مشاهداتهم وتجاربهم الخاصة ، ثم تقدم الزمان وبدأ

المحدثون بتفريغ المادة وتشكيلها وتوزيعها إلى فروع علم الجغرافيا .

وكانت تآليف الجغرافيين القدماء لا تتجاوز العناوين الآتية :

المسالك والممالك ـ البلدان ـ صورة الأرض ـ رسم المعمور من الأرض ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ الإكليل ـ نزهة المشتاق ـ بالإضافة إلى المعاجم الجغرافية ، وجميعها لمؤلفين مشهورين .

وقد فضل أكثر من جغرافى عنوان : المسالك والممالك ، أو البلدان فى مؤلفاتهم الأمر الذى يكشف عن اهتمامهم بوصف البلاد طرقها وأنحائها ، وهذا هو شأن الجغرافية الوصفية حيث اعتمادها على المشاهدة الشخصية والحس ، وندرة الإحصاءات فيما يصفونها .

وإذا أردنا أن نقف مع كل جانب من فروع الجغرافية التى تناولها القدماء فى مؤلفاتهم ، فإننا سنحتاج إلى فترة طويلة وجهد أكبر .

وليس هذا محله ،[٣] ولكننا هنا سنجتزئ بلمحات عن الجغرافية الطبيعية وسنورد فى كل لمحة ألفاظا توضح جهود القدماء حول إيجاد كلمات جغرافية أو مصطلحات ، لو سار على نهجهم المحدثون فى العالم العربى لما برزت مشكلة الاصطلاح واللغة فى ميدان البحث العلمى .

إن كثيرا من أسماء الجغرافية الطبيعية ـ كما أوردها القدماء ـ يمكن تحويلها مصطلحات موحدة وثابتة فى الجغرافية الحديثة ، كما أن الأعلام الجغرافية أكثر يسرا فى إطلاقها مصطلحات علمية ، فاسم العلم والاصطلاح كلاهما مرتبط بالدائرة التخصصية « وإذا كان الاصطلاح اسم علم على مفهوم معين .. فاسم العلم اصطلاح على شخص ، ولكن الدائرة العرفية للاصطلاح أوسع بكثير جدا من الدائرة العرفية لاسم العلم فى الأحوال العادية ..[٤]

وفى ضوء ماسبق سأتناول بعض الألفاظ التى استخدمها القدماء فى مجال الجغرافية الطبيعية ، آملا أن يوجد الجغرافى اللغوى الحديث ليحل مشكلة المصطلح الجغرافى بين الجغرافيين العرب المحدثين بمدارسهم المختلفة ، حسب اختلاف مناهلهم العلمية من الغرب .

أولا : الأرض تربتها وتضاريسها :

هناك ثلاث عبارات فى كتب الجغرافية العربية ، القديمة منها والحديثة وهى تضاريس الأرض ـ أشكال الأرض ـ صفات بقاع الأرض ، وكلها لمدلول واحد فى المصطلح الجغرافى .

فالتضاريس فى اللغة هى من مادة (ض ر س) والضرس بفتح الضاد تعني : اشتداد

الزمان ، والأرض التى نباتها هنا وهاهنا ، إلى جانب دلالات أخرى . أما بكسر الضاد فتسير إلى : الأكمة الخشنة .. والمطرة القليلة ..[٥] وقد اشتق من مادة الضرس فى ميدان الجغرافية الحديثة صيغة التفاعيل فقالوا : تضاريس كتباريح .

وعبارة « أشكال الأرض » مرادفة اصطلاحا للتضاريس فى الدلالة .. أما عبارة « صفات بقاع الأرض » فهى من التراث الجغرافى القديم ، عنون بها الهمدانى فى كتابه « صفة جزيرة العرب » لفصل شرح فيه ما تدل عليه العبارتان المتقدمتان ، حيث أوضح بعض تضاريس الأرض ، وميز فيه بين متنوعات الجزء الواحد من التضاريس وهى : الجبل والنجد والسهل والوادى ، وهى تتفاوت فى ارتفاعاتها .

وتتضح « صفات بقاع الأرض » عند الهمدانى وغيره من الجغرافيين الإسلاميين بالوصف ، أو بالإضافة أى أن يضاف إلى الأرض ما له علاقة بها وهو كثير ..

ولكن الموقف فى القرآن الكريم يشير إلى أن الغالب من المضاف لا يكون صورة محسوسة ، وإذا كانت محسوسة فليست من أجزاء الأرض ولكنها من غلاتها أو نحو ذلك ، هذا واضح فى نحو :

ملك ، غيب ، خلق ، فاطر ، مقاليد ، أقطار ، خلفاء ، خزائن ، نبات[٦] ـ أما بقاع الأرض فهى فى الأصل صفاتها ، ثم انفصلت عن الوصفية ، وتحولت إلى البعضية ... أى أصبحت جزءا من الأرض ، ثم بدأت الأجزاء تتلقى الصفات من كل لغة ولهجة ، لتمييزها عن بعضها ، وصارت الصفات أسماء فى بعض المراحل ، فكان الترادف والتداخل الدلالى . ولنعط أمثلة على ذلك ، نحو :

(الدعص ـ الفاف ـ العثعث ـ القاع ـ العَقَنْقَل)[٧]

١ ـ **الدعص** : جاءت هذه اللفظة بدلالتها المتدرجة فى إطار الرمل بعد الكثب الذى جاء بعد الرمل المطلق ، وكان الرمل فى الأصل صفة لبقعة من بقاع الأرض ، ثم تحولت الكلمة : « كثيب » إلى جزء من الأرض ، وحينما ميزت الكثبان عن الرمل فى بعضها لتعددها ، استعيض عن وصف الأرض الرمل بالكثيب الأحمر الذى لا ينبت ، وأطلقت عليه صفة « الدعص » فصارت هذه الصفة اسما .

٢ ـ **الفاف** : أرض ذات حصى ، وصفت بالسمرة للونها ، وبالصلعة لا تنبت ، وحينما تجمعت الحصى ، وصارت صخرا وصفت بالأمعز والأمعوز وأصبحت اسما ، ووصفت بالفاف وصار الفاف اسما .

٣ ـ **العثعث** : الأرض والرمل ، والكثيب السهل ، ثم وصف أخيرا بالعثعث وصار اسما .

٤ ـ **القاع** : الأرض الطينية الخالصة المستوية، ثم وصف بالقاع، فكان اسما فيما بعد .

٥ ـ **العَقَنْقَل** : الأرضُ والرملُ المتعقد المتلبد ، ولهذا استعير له لفظ العقنقل الذى أصله من العقل ، وذلك للانحباس والتقيد .

هذه كلمات أوردتها أمثلة للتحول الدلالي ، وللتداخل فى محيط مصطلحات أجزاء الأرض .. والسبب فى ذلك يعود إلى تدوين اللغة العربية وطريقة التدوين أيضا ، فلسان العرب مثلا يشتمل على نحو ثمانين ألفا من كلمات أصول ، كل كلمة لها أكثر من معنى ، حدث كل ذلك من تعدد الروايات وتنوع اللهجات ، فالكلمة عندما تنتقل بين القبائل تكتسب فى كل منها معنى ، وقد تعنى نباتا فى هذه ، وحيوانا أو طائرا فى أخرى ، وفى ثالثة ربما تدل على أرض أو ما اتصل بالسماء ..(٨)

وطبقا لقانون الاستعمال وأثره فى حياة اللغة وألفاظها ، فقد تتجمد دلالات ألفاظ كثيرة ، أو تتحول إلى مجالات أخرى غير التى استعملت فيها ايام طفولة اللغة ونموها وشبابها ، فكلمات مثل :

العقد ـ الجراثيم ـ الجمهور ـ الصحون ـ الهذاليل ـ النهابير ـ كانت ألفاظا جغرافية تدور حول الرياح والرمال والأرض ، أما الآن فهى فى مجالات أخرى ، أو أنها انزوت عن مسرح الحياة اليومية والعلمية ..(٩)

ومن الظواهر التضاريسية التى اهتم بها اللغويون والجغرافيون ، وكتب الجغرافية الإسلامية ، وهى فى معظمها وصفية ، ظاهرات :

البرق ، والجوار ، والدارات ، والحرات .

١ ـ **البرقة** : وهى عند الفيروز أبادى(١٠) : أرض غليظة ، فيها حجارة ورمل وطين مختلطة ، ويقول الميدانى(١١) : إنها الأرض الضيقة الحجرية ـ وفى صفة جزيرة العرب للهمدانى(١٢) : الأرض المختلطة السهلة بالحجارة ، أما الربعى فيقول(١٣) : مكان غليظ من الأرض ، مختلط ترابه ورمله بحجارة بيض ، إذا طلعت الشمس حمى حميا شديدا وهى المعزاء .

ونلاحظ فى تلك الشروح شيئا من عدم التحديد الذى يؤدى بدوره إلى غموض فى الدلالة ، وهو أمر لا يستسيغه الاصطلاح العلمى الحديث . ولكن من الممكن أن يرتضيه

الجغرافى على أساس تنوع التصور لأجزاء الأرض ، فما يسمى طينا فى لهجة قوم نجده ترابا فى لسان آخر ، كما هو الأمر بين الرمل والحصى ..(١٤)

٢ ـ **الجواء** : مفردها جو وهو الهواء ، وما انخفض من الأرض كالجوة ، والجواء مشهورة ببلاد العرب ، وهى منخفضات تتجمع فيها مياه الأمطار ، أو تتسرب إليها المياه من أماكن بعيدة ..(١٥) وقد استعاضت الجغرافية الحديثة عن مصطلح الجواء على الوادى المتسع أو الأرض المنخفضة بألفاظ أخرى ..(١٦)

٣ ـ الدارات : مفردها دارة ، وهى كل أرض واسعة بين جبال .. ومن الرمل ما استدار منه ..(١٧) وقال الميدانى : الدارة والقوز : الحصى المستدير من الرمل ، وربما كان الرمل عنده يعنى حبات الحصى أو العكس ، كما رأينا ذلك فى البرق . وظاهرة الدارات من الظواهر الجغرافية التى تتصل بمناطق الجبال كبقية الظواهر التى تتخصص بمحيط دون آخر ، فالبيئة الجبلية غير بيئة الوديان أو الصحارى .

وقد عرفت دارات العرب وبرقها وجوامعها بالمضاف إليه ، كبرقة ثهمد ودارة الآرام ، وهى كلمات تنبىء بما تتميز به دارة عن أخرى وبرقة عن سواها .

٤ ـ **الحــرات** : مفردها حرة ، وهى الأرض كثيرة الحجارة ، أو ذات حجارة سود نخرة كأنها احترقت بالنار ، وقال الأصمعى : الحرة هى الأرض التى ألبستها الحجارة السود فإن كان فيها نجوة الأحجار فهى الصخرة وجمعها صخر ، وقال أبو عمرو : تكون الحرة مستديرة ، فإذا كان فيها شىء مستطيل ليس بواسع فذلك الكراع ..(١٨) وقالوا : إن اللابة والحرة بمعنى واحد ، ولابتا المدينة : حرتان تكتنفانها ، إحداهما حرة ليلى ، واللابة هى التى صارت محرفة إلى « لافا » فى الجغرافية الطبيعية ، ونطقت قديما : باللوبة ..(١٩)

ويتضح من مفهوم اللغويين والجغرافيين القدماء أن الحرات أرض حجرية تتصف بنوعية ولون وشكل ومساحة ، فهى مميزات خاصة تختلف تماما عن الدارات ، والبرق ذات التربة المتميزة بالطين والحصى .

٢ ـ المرتفعات والمنخفضات :

١ ـ **الجبــل** : ظاهـرة طبيعية تضـاريسية ، تشـكل مع السهـول والنجـود الجانـب التضاريسى فى الجغرافية الطبيعية .

وقد جاءت كلمة « جبل » فى القرآن الكريم نحو ٣٩ مرة ، وهى تحمل دلالات متعددة حسب سياق الآيات التى تضمنتها ، فهى أوتاد الأرض ، ورمز القوة والعلو . ومن سياق الآيات القرآنية جاء التعريف المعجمى لكلمة « جبل » بأنه : « كل وتد للأرض عظم وطال فإن انفرد فأكمة أو قنة » ..[٢٠] وأورد الميدانى والإسكافى أسماء كثيرة للجبل وأوضاعه ، هىَ فى مجملها صفات ،[٢١] وذكر ابن سيده ألفاظا تطلق على ما دون الجبل من الأرض المرتفعة من ذلك ..[٢٢]

النجوة والوقع ، والرابية ، والرزون ، والفرط ، والدكاء والنجدة .

إن التدرج فى مفهوم المرتفعات من ربوة وتل وضعضاع ونجد وجبل ، قد أحدث اختلافا وتنوعا منذ القدم بين الجغرافيين واللغويين ، وتنبه إلى هذا عرام بن الأصبْغ السلمى فى رسالته عن أسماء جبال تهامة ، إلى أن صغار الجبال لا تسمى ..[٢٣]

وقد حاول الخوارزمى جاهدا إحصاء الجبال طبقا لتقسيمات الجغرافية القديمة للكرة الأرضية ، أى تقسيم العالم إلى أقاليم سبعة .. ولعل استقراء الخوارزمى كان مطابقا لمستوى الإدراك آنذاك ، ولدلالة لفظة الجبل فى القاموس الجغرافى فى ذلك الزمن نفسه إذ لم نعثر فى كتاب الخوارزمى على أى مفهوم خاص به لكلمة « جبل » ..[٢٤]

والواقع أن الخوارزمى كان ترجمانا أمينا لمدارك عصره ، وعصر بطليموس اليونانى ، إذ أن كتاب صورة الأرض هو فى الواقع مستخرج من « كتاب جغرافيا » لبطليموس القلوذى .

٣ ـ **الأوديــة** : واحدها واد ، وهو المنخفض الأرضى ا لممتد فى أماكن السيول ، أى أن الوادى هو الأرض دون الماء ، أما حينما يمتلئ بالماء فله أسماء أخرى ، وقد قالوا[٢٥] : « لكل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه : عقيق ، وفى بلاد العرب أعقة كثيرة » ، والوادى عند ابن سيده[٢٦] منفرج ما بين الجبال والتلال والآكام ، ولا نظير لواد وأودية فى الوزن إلا جائز وأجوزة . وللوادى أوضاع كالمنعرج والمحنية والمعاطف ، ومن أسمائه ونعوته : الخندق والفال والتلعة والجواء ...

أما مجاريه فهى : المسيل والتلعة والدافعة والزمعة .

ولعل التعريف الجغرافى لا يتجاوز ما أشار إليه القدماء ، فتعريف الوادى[٢٧] الحديث « تجويف أو انخفاض مستطيل ينحدر بين أرض أعلى نسبيا » وهذا العلو النسبى هو ما رمز إليه اللغويون بالجبال والتلال والآكام .

ولقد اهتم القدماء بالوادى والآبار والمياه ، وامتلأت مصنفاتهم بعشرات الألفاظ واصفة كل حالة وجزئية ..(٢٨) وهى نماذج لواقع المادة اللغوية التى لها علاقة بتلك المجالات ، وهى بدورها تشكل ملمحا من الملامح الجغرافية فى التراث اللغوى العربى القديم .

٤ ـ الصحارى والقفــــار :

هناك علاقة بين الصحارى والحرات ، ففى بلاد العرب حرات متعددة ، ومن هذا الواقع جاء تعريف القدماء للصحراء بأنها من مادة الصحرة وهى جوبة تنجاب فى الحـرة ..(٢٩) والصحراء عند المعجميين هى : الأرض المستوية فى لين وغلظ دون القف ، أو الفضاء الواسع لا نبات فيه ، وهى البلد القفر المستوى ، والفرق بين تعريف اللغويين وتعريف الجغرافيين هو إيراد لفظـة « المستـوية » إذ لم نلحـظ هذه الكلمـة أو ما يشــير إليهــا فى تعريفــات الجغرافيين ..(٣٠)

أما دلالة ألفاظ القدماء من اللغويين فى : اللين والغلظة والقفر والسعة ، فربما تتضمنها عبارة الجغرافيين المحدثين : الأرض الجرداء أو شبه الجرداء ، ومن الألفاظ التى أطلقت على الصحراء : المفازة ، والمهمه ، والسبسب ، والتيماء للصحراء البعيدة والخرق للصحراء الواسعة السهلة ، وغيرها من ألفاظ كانت صفات فتحولت إلى أسماء . وهى جميعها تشير إلى معانى الجدب والقفر والخلو والفراغ ولاسيما ألفاظ : المفازة ، والمهلكة ، والديمومة والهوات والتيهور والتنوفة ..(٣١)

وقد استعاض الجغرافيون عن صفات الصحراء المتعددة التى ذكرها اللغويون بتنويع الصحارى وإطلاق بعض الأسماء على تضاريسها ..(٣٢)

٥ ـ الفـــــلك :

تعتبر الأبحاث الخاصة بالأنواء قديما الواسطة القديمة بين الجانب الفلكى البحت والجغرافى الصرف . وعلم الفلك كما هو معروف كان هندى النشأة ، ثم بعد انتشار الإسلام فى شبه القارة الهندية ، اشتغل المسلمون بالمسائل الفلكية ، واهتم الجغـرافيون منهـم بالدراسـات الفلكية باعتبارها قضية جغرافية .

ومن مصطلحاتهم فى هذا الصدد :

أ ـ منازل القمر أو نجوم الأخذ : وسميت بذلك لأخذ القمر كل ليلة منزلا ، ويقال أخذ القمر نجم كذا ..(٣٣) وأطلقت على تلك المنازل أو النجوم أسماء اعتراها التغيير بين المؤلفين

القدماء فى مجال الأنواء ، ولذا كثر فيه الترادف والاضطراب والتصحيف ، والتحريف ، فهناك النثرة والنشرة ، والفرع والفرغ أو الفرح والهقعة أو الهنعة ..[٣٤]

ب ـ وميزوا بين الكوكب والنجم وإن كان تمييزا قاصرا والكواكب ثابتة وغير ثابتة ، والثابتة منازل وبروج ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون ، أما البروج فاثنا عشر برجا ..[٣٥]

ويلاحظ فى مصطلحات المنازل والبروج :

١ ـ خلع صفات الإنسان وما يختص به الحيوان عموما على الأجرام السماوية نحو: الذراع ، والجبهة ، والقلب ، والأعزل والدامى والعذراء والبطين .

٢ ـ أسماء الحيوانات : الحمل والكبش والثور والعقرب والحوت والأسد .

٣ ـ يلاحظ اختفاء أسماء الحيوانات فى منازل القمر واختصاصها بالبروج .

٤ ـ أشياء تتعلق بحياة الإنسان : الدلو ، والميزان والقوس والأخبية .

وكل لفظة من الألفاظ التى أطلقت فى مجال المنازل والبروج تعطى تصورا خاصا لمن أطلقها عن دور الكوكب مع المعنى الذى تحمله اللفظة .

ج ـ ووصفوا بعض الكواكب بأنها سيارة وهى : القمر وعطارد ، والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل ، والفرق بين السيارة والثابتة فى تصورهم هو أن الأخيرة ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق كما تتحرك السبعة السيارة إلا حركة يسيرة جدا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب فى اليوم والليلة ، ونقطة بداية تحرك الكواكب من المغرب هى من الجزائر الخالدات ..[٣٦]

وقد وجدت ألفاظ عربية أطلقها الجغرافيون الإسلاميون ، طريقها إلى الجغرافية الفلكية فى العالم ، وأصبحت من المصطلحات المتداولة فى كتب الجغرافية نحو: الدبران ، وبيت الجوزاء ، والقائد ، وآخر النهر ، والمرقب ، والطائر وفم الحوت ..[٣٧]

ولما كان الدافع إلى كثير من الدراسات فى العالم الإسلامى هو الروح الدينية ، واستجلاء بعض ما غمض على عامة المسلمين ، كان الدافع فى الجغرافية الفلكية الإسلامية توضيح بعض الإشارات القرآنية ، وقد ذكر القرآن الكريم : النجم والقمر والانفطار والانشقاق والبروج والطارق والشمس ، وهى أسماء سور معروفة ، وجميع ما ذكر كواكب ونجوم عدا الانفطار والانشقاق فهى حالات خاصة بالسماء من حيث رهبتها وخشوعها ، أمام قوة الخالق جل وعلا .

٦ ـ الأنـــواء أو المنـــاخ :

النخة فى اللغة بمعنى المطر الخفيف ، والمطر من أهم عناصر المناخ ، وكانت الكتب التى عنيت بما يتصل بالمناخ تعتبر الرياح والسحاب والبرق والرعد والمطر وكل ما يدخل ضمن المناخ مندرجا فى موضوع « الأنواء » .. والنوء : هو النجم إذا مال للمغيب ، والجمع أنواء ونوءان ، ويقال : إن النوء هو سقوط نجم فى المنازل ـ أى منازل القمر ـ فى الغرب مع الفجر وطلوع رقيبه وهو نجم آخر يقابله من ساعته فى المشرق ، وقيل : إنما سمى « نوءاً » لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع وذلك الطلوع هو النوء ، وبعضهم يجعل النوء السقوط كأنه من الأضداد ..[٣٨]

ويقول العرب : مطرنا بنوء النجم الفلانى ـ ومن هذا الاعتقاد أصبحت كلمة الأنواء تبتعد شيئا فشيئا عن الدلالة الجغرافية الرحبة إلى علم الفلك والتنجيم ..[٣٩]

الرياح : والريح فى اللغة نسيم الهواء ، وحيثما وردت فى القرآن الكريم فى معرض العذاب كانت بلفظ الأفراد ، وحيث وردت فى معرض الرحمة كانت بلفظ الجمع ، قال تعالى : (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم)[٤٠] ـ وقال جل شأنه (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) .[٤١]

واستقرأ الجغرافيون الرياح عند العرب فكانت أربعا من حيث الجهات التى تهب منها : الشمال والجنوب والصبا والدبور .. وهى الرياح الرئيسية طبقا للجهات ، وهناك رياح فرعية وهى ما عرفت بالمتداخلة أو المتفرعة :

١ ـ إذا هبت بين الجنوب والدبور تسمى : الداجن ، أى جنوبية غربية .
٢ ـ إذا هبت بين الجنوب والقبول تسمى : النكباء ، أى جنوبية شرقية .
٣ ـ إذا هبت بين الشمال والدبور تسمى : أزيب ، أى شمالية غربية .
٤ ـ إذا هبت بين الشمال والقبول تسمى : الحرجف أو شمالية شرقية .

وهناك أيضا أنواع أخرى نتيجة تداخل المتفرعات نفسها نحو الباذخشى والصاروف والريح العقيم ..[٤٢]

ومن أوصاف القرآن فى الرياح : الرخاء والعاصف والحاصب والصرصر والسموم والحرور والمعصرات واللواقح والإعصار ، وغير هذا الصفات القرآنية هناك صفات أخرى كالزوبعة والخريق والحنون ..[٤٣]

وحاول بعض اللغويين حصر صفات الرياح فى ثلاثة أقسام :(٤٤)

١ ـ الرياح الباردة : الحرجف والصرصر والعَرِيّة والخازم والبليل والشفّان والهلاّب والنضيضة .

٢ ـ الرياح الحارة : السُّهام والهيفُ والبارح والسَّموم والحرور والمعمعان .

٣ ـ رياح غير حارة ولا باردة : وهى التى تفهم من السياق أو بالوصف .

وهى صفات تقريبية فى عمومها ، إذ بين الصفة والأخرى فى القسم الواحد تفاوت دلالى تحدده الظروف المحيطة بالاستخدام .

السحاب : فى بحوث القدماء هو : الأجرام التى تحمل المطر بين السماء والأرض ، وهو بخار متصاعد من الأرض يرتفع من الطبقة الحارة إلى الطبقة الباردة ، فيثقل ويتكاثف ويتعقد فيصير سحابا ..(٤٥) ويرى اللغويون أن السحابة سميت بذلك لانسحابها فى الهواء ..(٤٦)

وحظى السحاب بعشرات الأسماء والصفات فى أوضاعه المختلفة ، فهو مرتفع متراكم أو بعضه فوق بعض ودون بعض أو أقرب إلى الرقة ، وقلة الكثافة ، أو ذو الماء الكثير ، ولكل وضع من تلك الأوضاع عشرات الأسماء والصفات ..(٤٧)

لقد حاول ابن سيدة فى مؤلفه الضخم(٤٨) أن يصنف أنواع السحب وأشكالها ، وهو ما حاوله الجغرافيون فى هذا العصر حينما ميزوا بين نوعين رئيسيين من السحب تبعا للمظهر العام وطريقة التكوين وهما :(٤٩)

١ ـ السحب المتكومة أو الركامية ، وهى تمتاز بسمكها الهائل .

٢ ـ السحب الطبقية .

هذا ما ارتضاه بعض الجغرافيين العرب المحدثين ، على الرغم من أن التصنيف الدولى لأرصاد السحب يشير إلى عشرة أشكال رئيسية ، ولعل هذا التصنيف العشرى وسواه لا يخرج عن الإطار الذى رسمه ابن سيدة وبقية اللغويين والجغرافيين القدماء الذين أوردوا ألفاظا غير مصنفة ..(٥٠)

البـرق : وهو من الظواهر التى تصاحب السحاب فى تسياره غاديا وساريا ، وعرف قديما بأنه ضوء يرى من جوانب السحاب ، ومن سماته الإيشام وهو بدء البرق ، فإذا لمع لمعتين كان وليفا ، وإذا تتابع اللمعان كان مخيلا للمطر ..(٥١)

الرعـد : صوت هائل يسمع من السحاب ، واعتقدوا فيه قديما اعتقادات شبيهة باعتقاداتهم فى البرق ، وهى اعتقادات تصحبها الأساطير والخرافة والخيال ، ومن ألفاظ

الرعد :[٥٢] الرز والأزيز والإرزام والهزيم والقرقرة والأجس والقاصف والدوى ، وهى ألفاظ مشتركة بين النحل والمطر والرعد والبحر . وهى بالنسبة للرعد تحكى صوته فى حالات متنوعة ، حسب مستوى الكمية الكهربائية وطرقها لأذن السامع واهتزاز الأرجاء من حول الإنسان .

المطــر : عند القدماء بخار يتصاعد من الأرض إلى طبقات الجو العليا ، فيتكاثف نتيجة للانخفاض الكبير فى درجات الحرارة ـ وهو الماء الذى يخلقه الله تعالى فى السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء ..[٥٣]

وللمطر أسماء تختص بحالات معينة :

١ ـ الرهد والعِهْدَة واليعاليل والهضبة والدثان ، وهى أنواع لأمطار تهطل بعد هطول سابق .

٢ ـ ضروس المطر ، وقرؤنه ، والصَّلَّة ، والصلال والنُّفْضَة للأمطار المتفرقة والقليلة .

٣ ـ المبكار والبكور ، والسارى والمدلاج والغادى . للمطر فى بكوره وتأخره .

٤ ـ الأنجم ، والألث والأدجن والأغصن ، والأغبط ، للمطر الذى يدوم ولا يقلع.

٥ ـ أنجم المطر ، وأفصم ، وأقشع الغيم ، لإقلاع المطر وانقطاعه ، وهذا هو تصنيف ابن سيدة[٥٤] ولعله لم يذكر جميع ألفاظ المطر وصفاته ؛ لأنه لم يقم معجمه على تكثير الألفاظ بقدر ما هو يَضَعُ منهجا فى تصنيف المادة اللغوية وتخصصها .

ومن الألفاظ التى اطلقت على مواقيت الأمطار على مدار السنة :

الخريف والوسمى والربيع والصيف والشتى والحميم .. وهى مواقيت ستة ، أما الهمدانى فيرى أنها أربعة فقط وهو الشائع ـ أى : الشتاء والخريف والصيف والربيع ، وهو يستخدم لفظ الوسمى بدلا من الشتى .[٥٥]

٦ ـ عبارات القدماء فى وصف المناخ :

اتبع الجغرافيون المسلمون القدماء أسلوبا يتسم بالعموم فى وصف البيئات المناخية ، وبألفاظ لم تكن فى الأصل تحمل دلالات جغرافية ، ولكنها حينما أضيفت إلى ما يتصل بالمناخ أخذت تحمل دلالات غير محددة ، فمن عباراتهم التى تعطى معنى الاعتدال فى الحرارة أو تجاوز الاعتدال :

١ ـ طيبـة الهـــواء : لصنعاء والموصل .

٢ ـ معتدلة الهواء : لشيراز وحلوان .

٣ ـ صحيحة الهواء : لواسط وسلجماسة .

٤ ـ رقيقة الهواء : لبغداد والعراق عموما .

٥ ـ متوسطة الهواء : للشـــام .

٦ ـ جيدة الهواء : للمغـــرب .

٧ ـ الهواء السجسج : للمقـــدس .

٨ ـ الهواء الشـــامى .

٩ ـ عجيب الهواء ، ومنقلب الهواء ، وقوية الهواء ...

وهى عبارات مبهمة فى مجملها ، أكثر منها الرحالة المسلمون ، ولاسيا البلدانيين كالمقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » .(٥٦)

ومن العبارات التى استخدمها المسعودى(٥٧) فى وصفه لمناخ بعض البلدان :

١ ـ أما الشام : فسحب وآكام وريح وغمام وغدق ركام .

٢ ـ وأما أرض مصر : فأرض قوراء غوراء .. هواؤها راكد وحرها زائد .

٣ ـ وأما اليمن : فأطرافه جدبة ، وفى هوائه انقلاب .

٤ ـ وأما الحجاز : فهواؤه حرور ، وليله سهور ، وهو بلد محل قحط جدب .

٥ ـ وأما العراق : ففيه طيب النسيم واعتدال التربة .

٦ ـ وفى الجبال : متانة الهواء وتكاثفه ، واختلاف مهابه وسوء متصرفاته .

ولما كان القدماء قد خبروا جغرافية بلاد العرب ولاسيا مناخها ، فقد وصفوا الأندلس بما عرفوه عن الحجاز واليمن والشام والعراق وفارس ونجد ، ومن تعابيرهم فى هذا الصـدد : حجازية الهواء ، أو يمنية ، أو عراقية أو شامية ، وهو ما استعمله المقدسى فى كتابه .

٨ ـ البحر وما يتصل به :

البحر هو الماء المالح عند أبى عبيد ، وعند غيره : الماء الكثير من عذب أو ملح ـ(٥٨) وقال الجغرافيون القدماء إن البحر يمتد كالقوارة وكالسبورة وكالطيلسان ، وهو تعريف بالشكل الماثل للبحر ،(٥٩) وهو تعريف لا يتقاصر كثيرا عن المفهوم الجغرافى الحديث .

ومن صيغة البحر نجد البحرة ، وهى ما اتسع من الأرض وهبط ، وربما يصدق هذا على الوادى، ولكن التعريف الجغرافى للبحيرة لايبعد كثيرا عن هذا فهى أى البحيرة مسطح مائى

يشغل هوة منخفضة من سطح الأرض ..[٦٠] أى أن عبارتى : منخفض وهابط ، تعبران عن طريقة التناول اللغوى بين المنهجين القديم والحديث فى المادة الجغرافية .

وكانت فكرة الكرية حول شكل الأرض قد سيطرت أيضا على الجغرافيين القدماء ، وقالوا باستدارة البحر وبكرية الماء ..[٦١]

ومن أسماء البحر : القلمسى ، والدأماء ، والكافر ، وخضارة ، واليم ، وسامر ، والحنبل ، والمهرقان ، وهى فى الأصل صفات ثم استعملت أسماء عند اللغويين والجغرافيين كأنها مترادفة .

ومن صفاته : الهموم ، والغطم ، والغطمطم ، وغطامط ، وغطمطيط ، وغطومط ، وهى كلها من مادة واحدة « الغطاء » عدا الهموم ، وقد وصف البحر أيضا بالأجرد ، وهى من صفات الصحراء ..[٦٢]

وجاءت كلمة بحر ، مفردة ومثناة وجمعا فى القرآن الكريم فى نحو إحدى وأربعين مرة ، وهى استعمالات قصد بها العظة والاعتبار ، لا توجيها جغرافيا بحتا ..[٦٣]

وشبهوا البحر بالحيوان والإنسان ، فله ظهر وبطن ورجل ، أما رِجله فيعنون به ما يتفرع فيه أو خليجه ..[٦٤] وسموا أحيانا الخليج خورا ، وهى لفظة تتصل بالأودية أكثر من اتصالها بالبحار ، وقالوا أيضا فى الخليج ـ النهر وشرم من البحر ..[٦٥]

وهناك القنوات ، جمع قناة ، وهى التى تجرى تحت الأرض ، ومن صيغ تكسيرها قنى ، ومن أسمائها : كظامة وجمعها كظائم ،[٦٦] ومن مادة القناة صاغوا « القناقين » أى المقدر لمجارى المياه ، أى أن مهندس الرى والقناقن كلمتان مترادفتان .

وتسمية البحار فى الجغرافية القديمة من المشكل اللغوى والاصطلاحى ، كشأن التسميات والمصطلحات فى فروع الجغرافية كلها ، بل العلوم بصفة عامة ، ولذا رأى قدماء الجغرافيين من المسلمين مبدأ يطرد أحيانا كثيرة ، يقولون[٦٧] : « ونحن إذا عرفنا البحر إنما نعرفه بجوانب الأرض التى أحاط بها ، وقد يعرف بعض جوانب الأرض بالبحر المحيط بها ، ولكن البعض الذى يعرف به البحر غير البعض الذى نعرفه بالبحر فلا دور .. وإنما سمى المحيط محيطا لإحاطته بجميع القدر المكشوف من الأرض ، ولهذا كان يسميه أرسطو الإكليلى لأنه حول الأرض كالإكليل على الرأس » .

وتقسيمهم للبحار يقوم على أساس النظرية السبعية فى السموات والأرض والجنة والنار فالبحار سبعة :

بحر الروم وبحر الصقالبة ، وبحر جرجان ، وبحر القلزم ، وبحر فارس ، وبحر السند ، وبحر الصين ، وهى داخلة فى إطار الربع المسكون من الأرض حسب تصورهم الجغرافى آنذاك . وكل بحر من تلك الأبحر شعبة أو خليج من البحر المحيط وكلها مالح ..(٦٨)

وهناك تقسيم خماسى آخر سميت بحاره كالآتى :(٦٩)

١ ـ البحر الرومى : وهو الأبيض المتوسط .

٢ ـ البحر الحبشى : وهو بحر الصين والسند والهند ، ومنه البحر الأحمر أو القلزم .

٣ ـ البحر الخزرى : وهو بحر الخزر وأرمينية وأذربيجان .

٤ ـ بحر نبطشى أو نبطسى : وهو بحر البرغر والروس وغيرهم .

٥ ـ بحر أقيانوس أو المحيط : وهو الأخضر .

وواضح من التقسيمين أن البحر الواحد من الممكن أن يسمى بأكثر من اسم ، حسب البلاد أو الشعوب التى يمر بها البحر ، وهذا من شأنه أن يحدث أحيانا بعض الغموض والتداخل ، ويعتبر أيضا سببا مباشرا فى ترادف الأسماء الجغرافية فى مجال البحار والأنهار ، فاسم المحيط مثلا كان يطلق على ما يعرف بالأقيانوس وبحر الظلمات والبحر الأخضر ، وهو ما يعرف الآن بالمحيط الأطلسى أو الأطلنطى فى الجغرافية الحديثة وقد اعتبر المحيط الهندى مرحلة من مراحل البحر الحبشى أو بحر الصين والسند وهكذا .

من هنا يتضح أن البحار قد سميت بما اشتهر على شواطئها ، ولعله كلما خمدت شهرة شعب أو بلد ، انزاح الاسم عنه إلى شعب آخر أو إلى بلده .

٩ ـ الملاحـــة :

ماء البحر كما لحظه اللغويون والجغرافيون فى تعريفاتهم ، ملح المذاق ، وقالوا فى صناعة البحر : « الملاحة » وفى العامل البحرى : الملاح والملاحون ، وهم الذين يقومون بأعمال السفن والإبحار ، والملحة : لجة البحر ..(٧٠) والسفن يسهل حركتها حيث اللجج .

* ومن مصطلحات الملاحة ، وهى فارسية الأصل :(٧١)

١ ـ البلنج أو بلنك : الحجرة فى السفينة .

٢ ـ البنـــدر : المينـــاء .

٣ ـ الدفتر : صحف تتضمن إرشادات فى الملاحة .

٤ ـ الديدبان : الرقيب والطليقة فى البحر .

٥ ـ السنبوق : نوع من السفن الشراعية .

وهى كلمات استعارها الملاحون العرب من الملاحة الفارسية ، وسجلها الجغرافيون فى رحلاتهم .

وهناك ألفاظ تخصصت فى مجال الملاحة العربية :

١ ـ استعملوا أسماء الرياح المعروفة لنفس الاتجاهات التى تعورف عليها .

٢ ـ وفى منسوب المياه قالوا : ملخلة ويعنون بها الضحلة أو المياه الضحلة الرملية .

٣ ـ ظهر : مقابل بطن ، وهو السير فى اتجاه البحر .

٤ ـ عرية : المياه الضحلة ، وهى لفظة لها صلة بالعراء .

٥ ـ فوق : يقصدون به الاتجاه إلى الجنوب .

٦ ـ كوس : الرياح الموسمية الغربية ، وهى عكس أزيب أو صبا .

٧ ـ ماء أبيض : ماء ضحل ، وعكسه ماء أخضر .

٨ ـ مجرى : مسيرة النهار فى البحر مثل كلمة مرحلة بالنسبة لليابسة .

٩ ـ المطرد : الساحل الإفريقى الطويل .

١٠ ـ السيف والشاطئ .

١١ ـ مؤلم : مضاد أو معاكس وذلك فى هيجان البحر واضطرابه عند إبحار السفن .

١٢ ـ ديرة : جهاز لقياس سير السفينة ، أو البوصلة ، والملاحة فى كل جهة تعرف بمصطلح خاص ، فإذا كانت فى المياه الشمالية للمحيط الهندى فتعرف بـ « ديرة جاهية » أما فى المياه الجنوبية فتسمى « ديرة فرقدية » .

١٣ ـ رفع البحر ، طلع البحر : الخروج إلى البحر المفتوح .

١٤ ـ بطن : السير فى اتجاه مغلق من البحر .

١٥ ـ أشائر جمع إشارة : وهو ما يتعلق بتحديد مكان الميناء واتجاه الطريق الموصل إليه .

١٦ ـ أغزر : السير فى البحر المفتوح نحو المياه العميقة .

١٧ ـ باحـــة : مساحة مائية واسعة .

١٨ ـ جزيرة البر : شبه الجزيرة .

وهذه الألفاظ من المصطلحات التى أوردها ابن ماجد فى أراجيزه ..(٧٢)

أما المصطلحات التى ذكرها ابن جبير فمنها :(٧٣)

١ ـ خرق : ريح شديدة تجعل المركب يجرى بسرعة غير عادية .

٢ ـ رجـــل : العمود وسكان المركب .

٣ ـ سنحت السفينة : لصقت بالأرض أى جنحت .

٤ ـ غلينى : سكون البحر وعدم هبوب الريح البتة .

٥ ـ هـــول : يطلق على عاصفة البحر .

ومن الألفاظ الملاحية المتداولة فى كتب الجغرافيين القدماء :

الفرضة : وهو محط السفن وميناؤه . والقلع والدقل والجؤجؤ والكواثل والمجداف ، والسفان والصرارى والنوتى ، والعركيون ، والربان ، والبارج والأردمون ..[٧٤]

ومن أسماء السفن :[٧٥]

١ ـ الخليـــة : السفينة العظيمة الضخمة .

٢ ـ القرقور : السفينة المستطيلة .

٣ ـ الزنبرى ، والزبزب والطيارة والزورق والشميرى ، والحراقة والبركية لضروب من السفن تختلف فى الحجم والشكل .

٤ ـ المقيدة والمقيرة : السفينة المطلية بالقار .

٥ ـ جفن والجمع أجفان : المركب .

٦ ـ الجلبة : نوع من المراكب المستعملة فى البحر الأحمر .

٧ ـ قشاوة : نوع من المراكب والجمع قشاوات .

٨ ـ الفلك : وهى السفينة ، ويقولون فلوكة وفلائك للسفن الصغيرة .

٩ ـ الماجشون : السفينة .

وهذه الأسماء تشكل الثروة اللغوية فى الحقل الجغرافى العربى ، وإن كان فيها الدخيل الكثير .

ومن أسماء السفن التى ظهرت فى الأسطول الإسلامى :[٧٦]

١ ـ الشوانى : جمع شونة أو شينى تجذب بـ ١٤٣ مجدافا ، وهى من قطع الأسطول الحربية الكبيرة .

٢ ـ الحراريق : جمع حراقة ، من كبار المراكب ، أقل من الشونة ، تستعمل فى حرق سفن العدو .

٣ ـ البطس : جمع بطسة : من السفن الحربية العظيمة .

٤ ـ الأغربة : جمع غراب على شكل غراب .

٥ ـ المسطحات : جمع مسطح أو مسطحة نوع من كبار السفن .

٦ ـ الطرائد : جمع طريدة : تستخدم فى نقل الخيل .

٧ ـ الشلنديات : جمع شلندى : من كبار المراكب المسطحة .

٨ ـ الحمالات : جمع حمالة التى تحمل الذخيرة للأسطول .

٩ ـ القياسات : جمع قياسة : مراكب تسير بالشراع .

١٠ ـ العشاريات : جمع عشارى : وهى ما تعرف أيضا بالحراقة .

وهناك أيضا الدواميس والطلابيات والحمائم ..

كل هذه التسميات تضع أمامنا قدرة المسلمين الأوائل على استيعاب الجديد فى الحياة إقراضا كان أم ابتكارا ، وهى فى ذات الوقت توضح الواقع اللغوى فى التسميات والمصطلحات وإمكانية تعريب غير العربى إن لم تتأت الكلمة العربية .

الشـــــواطئ :

شط النهر هو شطه كشاطئ ، وشطأ الوادى تشطيئا : سال جانباه وشاطا فلان أخاه ، إذا سار كل منهما على ضفة النهر ..(٧٧) وحظى الشاطئ أيضا بألفاظ متعددة من اللغويين والجغرافيين نحو :(٧٨)

١ ـ ساحل البحر : وهو مقلوب فى اللفظ ، لأن الماء سحله ، وساحـل القـوم أتـوا الساحل .

٢ ـ السيف : ساحل البحر وساحل الوادى ، جمعه أسياف ، وربما كانت هناك علاقة بين صورة الشاطئ والسيف القاطع فى الخط المستطيل .

ـ العيقة : ساحل البحر وناحيته .

٤ ـ العَدّان : موضع كل ساحل ، أو الساحل نفسه .

٥ ـ الريف وجمعه أرياف : شاطئ البحر والنهر وما قارب الماء .. أو حيث الخضرة والمياه .

٦ ـ الجلهمة : حافة الوادى وناحيته .

٧ ـ الضفة : الساحل ، وضفتا الوادى أو الحيزوم جانباه .

٨ ـ الشرير : جانب البحـــر .

٩ ـ عبر الوادى : شاطئه وناحيته .

١٠ ـ الجـــد : شاطئ النهر .

١١ ـ العدوة : الشاطئ .

١٢ ـ والعِرَاق : شاطئ البحر طولا .

وهناك اللديد والضرير والشط والحافة والطرة .

ويتضح من تلك الكلمات الخاصة بالشواطئ غياب معظمها من القاموس الجغرافى الحديث .

١٠ ـ المـــد والجـــزر :

تعبير المد والجزر اصطلاح يعنى حال البحر بالزيادة والنقصان ، وعند الجغرافيين القدامى المد : هو مضى الماء فى فيحته وسحته وسنن جريته ، أما الجزر فهو رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه فى هيجه ..[٧٩] ولم تتجاوز التعريفات الحديثة ما وضعها القدماء الناتج من القوة الجاذبية الناتجة من الشمس والقمر تسمى بظاهر المد والجزر ، ويظهر هذا واضحا فى الجهات الساحلية والبحار الضحلة .[٨٠]

الجزيرة : من الجزر الذى هو ضد المد ، وسميت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض . وأطلقوا على الجزيرة فى وسط البحر لفظة « البضيع » وأصبحت علما لأكثر من مكان فى معاجم البلدان ، ولكنها مضافة إلى شعب أو أرض ..[٨١]

ثانيا : تعابير الجغرافيين القدماء :

لكل جغرافى من القدماء طريقته الخاصة فى التناول اللغوى حينما يريد وصفا أو إطلاق اسم ، والجغرافيون المسلمون كثر فى هذا الصدد .. ولذا آخذ ثلاثة منهم باعتبارهم نماذج فى الجغرافية القديمة :

أ ـ عرام بن الأصبغ السلمى[٨٢] : ومن عباراته :

١ ـ ويسكن ذراهما وأحوازهما نهد وجهينة فى البر خاصة دون المدر ، ولها مُسُك ، وهى مواضع تمسك الماء إحداها مَسَاك .[٨٣]

٢ ـ وعلى ليلة من رضوى ينبع ، وبها منبر ، وهى قرية كبيرة غناء ...

والقناب والضعاضع جبال صغار لا تسمى ..[٨٤]

٣ ـ نباتها العرعر والقرظ والظيان والأيدع والبشام :[٨٥]

٤ ـ وبين هذه الجبال ، جبال صغار وقرادد ، وينسب إلى كل جبل ما يليه ..(٨٦)

٥ ـ وفيه أوشال وعيون وقلات ... وزرعها أعذاء ، ويسمون الأعذاء العثرى وهو الذى لا يسعى ..(٨٧)

٦ ـ وبأسفله قرية يقال لها ضرعاء بها قصور ومنبر وحصون ... ومياههم بثور ، وهى أحساء وعيون ليست بآبار.(٨٨)

٧ ـ ومياهها عيون تجرى تحت الأرض ، فقر كلها ، والفقر والقناواحد ، وواحد الفقر فقير ..(٨٩)

هذه العبارات وسواها تعطينا الصورة الأصلية للجغرافيا فى المحيط العربى الإسلامى فعرام بن الأصبغ أعرابى من البادية ، وهو يصدر عن واقع بدوى من صميم الصحراء . ولقد أخذ من عباراته كثير من الجغرافيين الذين أتوا من بعده .

ب ـ الإصطخرى(٩٠) :

وهو المعروف بالكرخى أيضا ، له شخصية واضحة فى مجال الجغرافية القديمة ، ومن تعابيره :

١ ـ والمدينة فى وهدة بين جبال كثيرة الأشجار.

٢ ـ ومعزة النعمان : هى وما حولها من القرى أعذاء ... وحصن منصور حصن صغير فيه منبر وزروعه عذى ، وهو وصف يقارب وصف عرام بن الأصبغ .

٣ ـ مدينة نزهة وبلد أنزه ، وأرض نزهة ونزهة ونزيهة : إذا كانت بعيدة عن الريف وعمق المياه ومد البحار.

٤ ـ مدينة جاهلية ، ومدينة إسلامية .

٥ ـ ولهم مع ذلك فيما بعد عن المدينة مباخس كثيرة وزروعهم مباخس ، والبخس فى اللغة النقص ... وأرض تنبت من غير سقى .

٦ ـ وهذه الأنهار كلها منخرقة بعضها إلى بعض .

٧ ـ وتتحلب من هذا النهر صباباته تتجمع فتصير نهرا يسمى الصراة ..(٩١)

٨ ـ الموصل : صحيحة التربة والهواء ... وأما ترابها فإن ما بَعُد عن دجلة إلى ناحية الشمال أيبس وأصح ، وما كان إلى دجلة أقرب فهو من جنس أرض مصر فى التسبخ .

٩ ـ وكرمان لها صرود وجروم ، وصرودها تقصر عن صرود فارس فى البرد وليس فى

جرومها شئ من الصرود ، وفى صرودها ربما عرض بعض الجروم .

١٠ ـ النفط والزفت : « ولهم بناحية آسك متاخما لأرض فارس جبل تتقد منه نار أبدا لا تنطفئ ، ويرى منه الضوء بالليل والدخان بالنهار ، وهو فى حد خوزستان ، ويشبه فيما أظن أنه عين نفط ، أو زفت أو غيرها مما تعمل فيه النار ، فوقع على قديم الأيام نار ، فعلى قدر ما تخرج يحترق أبدا فيما أحسبه ، ومن غير أن رأيت فيه علامة لذلك ولا سمعت به ، وأنا أقوله ظنا » .

هذا نمط من تعابير الإصطخرى الجغرافية ، وهو الذى عاش بين القرنين الثالث والرابع الهجريين (أى م ٣٤٠ هـ ـ ٩٥١ م)

ج ـ ابن جبير :

من جغرافيى الأندلس المسلمين عاش فى القرن السادس الهجرى م ٦١٤ هـ ـ يتميز أسلوبه باستعمال بعض الألفاظ من عامة الأندلس والبلاد التى زارها فى رحلته ، ويحتوى مؤلفه على قائمة بالألفاظ العامية أو الدخيلة ، أو التى يستعملها المؤلف أو يكثر من استعمالها(٩٢)

وقد استخدم التقويمين الهجرى والميلادى معا ، ومن ألفاظه وتعابيره :

١ ـ برح والبريح : الإعلان .

٢ ـ جبر : أعاد .

٣ ـ جرى والمجرى : مسافة مائة ميل فى البحر .. ومنها :

١ ـ وفارقنا بر هذه الجزيرة .

٢ ـ وقام معنا بر جزيرة سردانية .

٣ ـ وقام علينا نوء هال له البحر .

٤ ـ إنه من قرطاجنة عمل مرسية .

٥ ـ وتركنا المركب موضع إرسائه ، بسبب مغيب أصحابه فى البلاد .

٦ ـ انغلاق الجهات بالنوء ، وهو يقصد بالنوء العاصفة ..

وهذه العبارات وسواها تضع أمامنا الملامح الخاصة للأسلوب اللغوى فى التأليف الجغرافى بين الأندلسيين ، وهذا يدعونا أيضا أن نعطى اعتباراً هاما لأساليب وألفاظ ابن سيدة الأندلسى فى معجمه المخصص .

إن قضية المصطلح العلمى فى اللغة العربية مازالت تشغل أذهان الباحثين العرب ، ومشكلة المصطلح الجغرافى هى الأخرى تتحسس الطريق نحو الاستقلال ، فالقدماء قد عالجوا وقائع أزمنتهم بالمحصول اللغوى المتاح اليهم ، وهو وافر وغزير ، وقد اقترضوا كثيرا من لغات عصورهم ، ولكن المقترض قد ألبس ثوبا لغويا من بيئة المقترض .

فابن جبير وابن ماجد حاولا جهدهما وصف ما يتصل بالبحر ، وقدم أبو حنيفة الدينورى فى رسالة الأنواء ، ورسالة النبات تعريفات وافية من الممكن أن يستفيد منها الجغرافيون المتأخرون ، ووضعوا المناخ وما يتصل بالسحاب والبرق والرعد والمطر والرياح ، وهى جوانب استوفتها العربية واستخدمها الشعراء والرحالة والبلدانيون . ولكن المشكلة الكبرى هى حول تثبيت المصطلح وتحديده وتوحيده وسيرورته ، فقد جوبه ذلك بصعوبات وعوائق كالاضطراب الدلالى ، والتداخل المعنوى ، والتضارب الاصطلاحى بين المدارس الجغرافية العربية الحديثة .



أهـــم مراجـــع البحـــث

١ ـ أبو الفداء : تقويم البلدان .

٢ ـ إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا ط بيروت ١٩٥٧ م .

٣ ـ المسعودى :

أ ـ التنبيه والإشراف ط ليون ١٨٩٣ م .

ب ـ مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ٤ ـ ١٩٦٤ م .

٤ ـ الإصطخرى ـ المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ١٩٦١ م .

٥ ـ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق د . حسين نصار ، مكتبة مصر .

٦ ـ تاريخ الأدب الجغرافى العربى ـ كراتشكوفسكى ـ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٩٦٣ م .

٧ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى ، مطابع الشعب القاهرة ١٣٧٨ هـ .

٨ ـ صفة جزيرة العرب ـ الهمدانى ـ تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٥٣ م .

٩ ـ الإسكافى : مبادئ اللغة ـ ط أولى ١٣٢٥ هـ مطبعة السعادة ـ مصر .

١٠ ـ الميدانى : السامى فى الأسامى ، نشر وترتيب وشرح محمد موسى هنداوى .

١١ ـ نظام الغريب ـ الربعى ـ استخرجه وصححه بولس برونلة ط أولى بمصر .

١٢ ـ نوادر المخطوطات ـ الرسالة الثامنة ـ تحقيق عبد السلام هارون ط ١٩٥٤ م .

١٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد السابع .

١٤ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ط بيروت ١٩٥٥ م .

١٥ ـ ابن سيدة : المخصص ، ط بيروت .

١٦ ـ يوسف تونى : معجم المصطلحات الجغرافية ـ دار الفكر العربى .

١٧ ـ الأجدابى : الأزمنة والأنواء ، تحقيق د . عزة حسن ، دمشق ١٩٦٤ م .

١٨ ـ الخوارزمى : كتاب صورة الأرض ، عنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مزيك ط فينا ١٩٢٦ .

١٩ ـ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ط وزارة الثقافة والإرشاد ـ مصر

٢٠ ـ عمر الحكيم : تمهيد فى علم الجغرافية ـ التضاريس ـ مطبعة الإنشاء دمشق ١٩٦٥ م .

٢١ ـ الفيروز أبادى : القاموس المحيط ـ الطبعة الثانية .

٢٢ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ٣ ، ج ٢٠ .

٢٣ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٤٧ ج ٤ ـ ١٩٧٢ م .

٢٤ ـ د . محمد محمود الصياد : من الوجهة الجغرافية ط ١٩٧١ م .

٢٥ ـ عباس أبو السعود : أزاهير الفصحى ـ دار المعارف بمصر .

٢٦ ـ ابن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ـ تحقيق ونشر تيودور شوموفسكى ـ ترجمة وتعليق د . محمد منير مرسى ـ عالم الكتب ١٩٥٧ م .

٢٧ ـ نفيس أحمد : جهود الجغرافيين المسلمين ـ ترجمة د . فتحى عثمان ـ دار القلم .

الحواشي

* لم يكن للإغريق وجود فى ذلك الوقت .

(١) جهود المسلمين الجغرافية ـ أحمد نفيس ـ ترجمة فتحى عثمان ص ٣١ وما بعدها .

(٢) راجع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى جـ ١ ص ١٢٤ ، وتاريخ النبات عند العرب للدكتور أحمد عيسى ص ١٢ .

(٣) لقد ناقشت جميع فروع الجغرافية من حيث ألفاظها فى ضوء التراث القديم ـ مقارنا أحيانا بالعطاء الجغرافى الحديث ، فى رسالة الدكتوراه بعنوان « الألفاظ ذات الدلالات الجغرافية فى اللغة العربية » .

(٤) اللغة بين المعيارية والوصفية ـ د . تمام حسان ص ١٦١ .

(٥) راجع القاموس المحيط جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٨ وما بعدها .

(٧) راجع شروح هذه الكلمات فى القاموس المحيط وصفة جزيرة العرب للهمدانى ص ١٥٧ وما بعدها والإسكافى ص ٢٨ ـ ومعلقة امرئ القيس ، وديوان الهذليين : أبو ذؤيب الهذلى ص ٤٤ .

(٨) أسماء الأعلام العربية فى الجاهلية ودلالتها ص ١٩١ .

(٩) راجع حول تجميد الدلالة الجغرافية : الهمدانى ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، والإسكافى ص ٢٨ ، ففيهما ألفاظ متصلة بالأرض ، وهى الآن غير مستخدمة .

(١٠) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢١٩ .

(١١) السامى فى الأسامى ص ٣٦٩ .

(١٢) ص ١٥٨ .

(١٣) كتاب نظام الغريب ص ٢٢٢ .

(١٤) راجع الإسكافى ص ٢٨ والقاموس والمحيط جـ ١ ص ٤٠٨ .

(١٥) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(١٦) تمهيد علم الجغرافيا ـ التضاريس جـ ١ ص ٤٤٤ .

(١٧) القاموس جـ ٢ ص ٣٢ .

(١٨) راجع : معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٦ ص ٢٤٥ والميدانى ص ٣٧٠ والقاموس جـ ٢ ص ٧ .

(١٩) راجع ما سبق بالإضافة إلى معجم المصطلحات الجغرافية ليوسف تونى ص ١٨٢ .

(٢٠) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٣٥٥ .

(٢١) الإسكافى ص ٢٤ وما بعدها والميدانى ص ٣٧٣ .

(٢٢) المخصص م ٣ سفر ١٠ ص ٧٠ وما بعدها .

(٢٣) نوادر المخطوطات ، الرسالة الثامنة ص ٣٩٨ .

(٢٤) كتاب صورة الأرض ص ٣٨ وما بعدها .

(٢٥) نوادر المخطوطات ـ جبال تهامة ص ٤٢١ .
(٢٦) المخصص م ٣ سفر ١٠ ص ١٠١ وما بعدها .
(٢٧) تونى ص ٥٥٥ .
(٢٨) راجع فى ذلك : السامى فى الأسامى للميدانى ص ٣٧٩ وما بعدها ، ونظام الغريب ص ٢٠١ وما بعدها ، والإسكافى ص ١٨ ، ٢٤.
(٢٩) القاموس المحيط ص ٦٩.
(٣٠) قارن بين : القاموس المحيط جـ ٢ ص ٦٩ والربعى ٢١٨ وتونى ٣٠٨ ودائرة المعارف الإسلامية م ١٤ ص ١٥٣ وما بعدها .
(٣١) راجع الميدانى ص ٣٧٠ وما بعدها .
(٣٢) انظر : تمهيد فى علم الجغرافيا لعمر الحكيم جـ ١ ص ٥٢٦ وما بعدها .
(٣٣) المخصص م٢ سفر ٩ ص ٩ ـ ١٠.
(٣٤) راجع فى هذا : الصواف ص ٧٤ ، وابن سيدة م٢ سفر ٩ ص ٩ ـ ١٠ والأجدابى ص ٦٥ وما بعدها .
(٣٥) راجع صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٥٤ ، وكتاب القانون للمسعودى تأليف أبى الريحان البيرونى .
(٣٦) صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٨ ـ وراجع مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ ٢ ص ١٥٩.
(٣٧) الصياد ص ١٢٨ ، وراجع ايضا الألفاظ التى ضمنها ابن ماجد فى أراجيزه ص ١٧١ وما بعدها .
(٣٨) راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٤ م ٤٧ ص ٨٠٥ ، والقاموس المحيط جـ ١ ص ٢٨٠ .
(٣٩) المخصص م٢ سفر ص ٨٢ ـ ونظام الغريب للربعى ص ١٩٥.
(٤٠) سورة الذاريات الآية ٤١.
(٤١) سورة الأعراف الآية ٥٧.
(٤٢) الهمدانى ص ١٥٤ ، والإسكافى ص ١٤ والميدانى ص ٣٣٧.
(٤٣) أزاهير الفصحى فى دقائق اللغة ، عباس أبو السعود ص ٢٤٢ وما بعدها .
(٤٤) الإسكافى فى مبادئ اللغة ص ١٤.
(٤٥) صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٧٧.
(٤٦) المخصص م٢ سفر ٩ ص ٩٣.
(٤٧) المرجع السابق ص ٩٧.
(٤٨) المرجع السابق وهو المخصص الذى يصنف المادة اللغوية تصنيفا تخصصيا .
(٤٩) تونى ص ٢٦٦.
(٥٠) قارن بين ما أورده ابن سيدة فى مخصصه م٢ سفر ٩ ص ٩٣ وما بعدها ، وما أورده د . يوسف تونى فى معجمه ص ٢٦٦ .
(٥١) صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٧٨ ، ومجلة مجمع دمشق م ٤٧ جـ ٤ ص ٨٠٤ ، والمخصص م٢ سفر ٩ ص ١٠٧.
(٥٢) صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٧٨ والمخصص م ٢ سفر ٩ ص ١٠٤ والإسكافى ص ١٦.
(٥٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٤ م ٤٧ ص ٨٠٦ ، وصبح الأعشى جـ ٢ ص ١٧٩.
(٥٤) المخصص م٢ سفر ٨ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٥٥) صفة جزيرة العرب ص ١٥٤.

(٥٦) انظر فى هذا مجلة الأقلام جـ ١٠ ـ السنة الخامسة ـ الوصف الجغرافى عند المقدسى ص ٣٤ وما بعدها .

(٥٧) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧١ وما بعدها.

(٥٨) المخصص م ٣ سفر ١٠ ص ١٥.

(٥٩) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ١٩.

(٦٠) قارن بين : القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٨١ وما بعدها والمخصص م ٣ سفر ١٠ ص ١٦ وتونى ص ٧٠.

(٦١) مروج الذهب جـ ١ ص ٩٢ وما بعدها.

(٦٢) انظر: المخصص م٣ سفر ١٠ ص ١٦ ـ ١٧.

(٦٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١١٤ وما بعدها.

(٦٤) نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ـ الغزال ص ١٠.

(٦٥) القاموس المحيط جـ ١ ص ١٩٣ ـ وتقويم البلدان ص ١٩.

(٦٦) المخصص م٣ سفر ١٠ ص ٣٣ ونوادر المخطوطات جبال تهامة ص ٤١٣ .

(٦٧) أبو الفداء فى تقويم البلدان ص ١٩.

(٦٨) رسائل إخوان الصفا م ١ ص ١٦٣.

(٦٩) المسعودى فى التنبيه والإشراف ص ٥١ وما بعدها .

(٧٠) القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٥٩.

(٧١) العرب والملاحة لحورانى ص ٩٨.

(٧٢) راجع ص ١٧٧ وما بعدها.

(٧٣) رحلة ابن جبير فى صفحات مختلفة.

(٧٤) راجع جواد علي جـ ٨ ص ١١٩ وما بعدها ، وابن ماجد ص ١٨١ ، ودراسات فى المعجم العربى ص ١٤ وما بعدها.

(٧٥) الميدانى ٣٨٤ ـ وابن جبير ٣٤١ ـ وابن ماجد ١٧٧ وما بعدها ـ والقاموس المحيط فى المواد المختلفة .

(٧٦) راجع تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ـ د . عبد المنعم ماجد ص ٧٤ وما بعدها .

(٧٧) القاموس المحيط جـ ١ ص ١٩.

(٧٨) الميدانى ص ٣٨٢ ـ والمخصص م ٣ سفر ١٠ ص ٢٠ ـ ومجلة الهلال سنة ١٩٢٨ ص ٢٣٨ ـ وجواد على جـ ٨ ص ١٠٠.

(٧٩) القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٤٩ ـ والميدانى ص ٣٨٥.

(٨٠) علوم البحار وفوائدها فى الحياة العملية ص ٨٨.

(٨١) المخصص لابن سيدة م ٣ سفر ١٠ ص ١٩ ـ والقاموس المحيط مادة « جزر » .

(٨٢) فى رسالته المسماة : أسماء جبال تهامة وسكانها.

(٨٣) المرجع السابق ص ٧.

(٨٤) السابق ص ٨.

(٨٥) السابق ص ١١.

(٨٦) السابق ص ١٤.

(٨٧) السابق ص ١٦ ، ٢٣.

(٨٨) السابق ص ٢٥ ، ٢٨.

(٨٩) السابق ص ٣٥ ، ٤٤.

(٩٠) فى كتابه المسالك والممالك ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٥٢ ، ٥٧ ، على هذا الترتيب .

(٩١) من هنا انظر ص ٥٩ و٦٣ و٥٣ و٩٧ و١٠٥ و٦٤ و٥٣ على هذا الترتيب من كتاب المسالك والممالك للإصطخرى .

(٩٢) رحلة ابن جبير ص ٣٤٠.
















Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

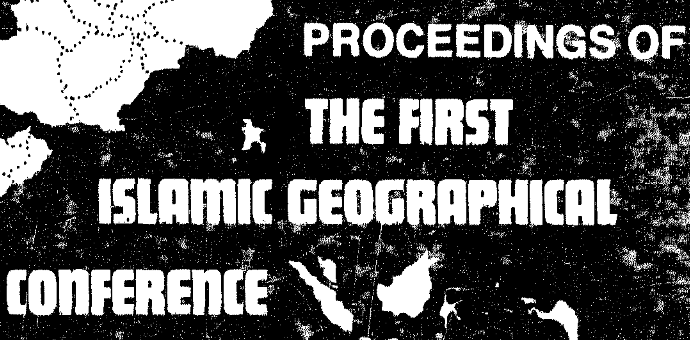


KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
IMAM MUHAMMAD
IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY



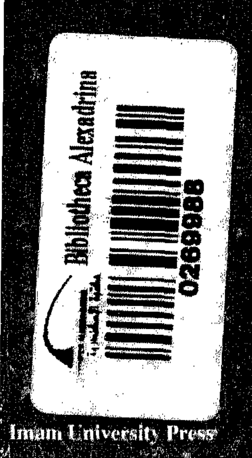


RESEARCH CENTRE



PROCEEDINGS OF THE FIRST ISLAMIC GEOGRAPHICAL CONFERENCE

VOLUME III



Published Under The Supervision of The
Department of Culture and Publications

1404 AH - 1984 AD

Imam University Press